مركز البحوث الإسلامية
إستانبول



تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/١٥٧٤م)

يُنشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق
أ. م. محمد طه بويالق — أحمد أيتب
أ. م. ضياء الدين القالش — محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ. م. محمد طه بويالق

المجلد الثالث

نشريات وقف الديانة التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

إرشاد العقل السليم
إلى مزايا الكتاب الكريم

مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية

تمّ إدراج "مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية" كمشروع إطاري يضم في طياته عدة مشاريع فرعية في جدول الأعمال من قِبَل مركز البحوث الإسلامية (إسام/İSAM) بهدف إخضاعِ التراكم الفكري فيما بين القرنين الهجريين السابع والثالث عشر (١٣-١٩م) -الذي يمكن أن يطلق عليه اسم "العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية"- لدراسة علمية كما يليق به، واستخراجِ ما حملته هذه الفترة من أبعاد علمية وفكرية لما يقارب سبعة قرون. وفي تصور كتابة التاريخ المعاصرة قد سُعي إلى كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية على أساس فرضية أن تطور الحضارة الإسلامية بصفة عامة والفكر الإسلامي وعلومه بصفة خاصة قد تعرض للانقطاع بعد الغزو المغولي. فإن وجهة النظر هذه التي تشكلت في الغرب في القرن التاسع عشر، وانتشرت بين المسلمين أثناء فترة الاستعمار هي التي جعلت أحكامنا المتعلقة بالتاريخ الإسلامي ناقصة، مما حال بيننا وبين أن نتناول تاريخ الإسلام بفكره وفنونه ومؤسساته وشخصياته الرائدة وأدبه وأحداثه في وحدة متماسكة.

ولا تسلّط الدراسات في هذا المجال الضوء على فترة من فترات التاريخ الإسلامي فحسب؛ بل ستجلي أيضا حقبة مهمة من حقب التاريخ البشري. وإن هذا المشروع سيكون وسيلة لبعثِ المسائل العلمية المناقشة في العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية من جديد، وإلحاقِها بقضايا العالم العلمي والفكري، وبالتالي سيستفاد إلى أقصى حد من التراث العريق في بناء عهد جديد واستدراك المسائل الراهنة وتحليلها وانتقادها ومناقشتها.

وفي إطار الأعمال العلمية المتعلقة بهذه الفترة سيفسح هذا المشروع المجال لعقد دراسات عن العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي وتاريخ العلوم الإسلامية التجريبية، وكذلك العلوم البشرية وميادين الفنون في الحضارة الإسلامية إلى جانب الدراسات المقارنة بين الإسلام وسائر الحضارات الأخرى. وستركّز المشاريع المرتقبة على أراضي الدولة العثمانية وجنوب الصحراء الكبرى، وكذلك على شبه القارة الهندية منذ سلطنة دلهي، بالإضافة إلى آسيا الوسطى وإيران بعد الغزو المغولي. هذا، ويتوقع إصدار منشورات في إطار المشروع مثل الفهرسة والتأليف والتحقيق والترجمة.

المنهج الفكري عند ابن تيمية ونقده للمتكلمين (بالتركية)، مَحمَد سعيد أوزَروارلي، ٢٠٠٨؛ ٢٠١٧.
دراسة فتح الباري وعمدة القاري من جهة تحليل المتن(بالتركية)، ياووز كُوكْطاش، ٢٠٠٩؛ ٢٠٢٠.
الوزارة في العهد المملوكي (بالتركية)، فاتح يحيى آياز، ٢٠٠٩؛ ٢٠١٧.
التاريخ الإداري والاقتصادي للعثمانيين (بالتركية)، خليل إينالجيق، ٢٠١١؛ ٢٠١٨.
مدرسة فخر الدين الرازي في أصول الفقه (بالتركية)، طونجاي باش أوغلو، ٢٠١١؛ ٢٠١٤.
عبد القادر الجيلاني والقادرية، (بالتركية)، عدالت چاقر، ٢٠١٢؛ ٢٠٢١.
فخر الدين الرازي في عهد التحول للفكر الإسلامي (بالتركية)، عثمان دمير - عمر تورك أر (تحرير)، ٢٠١٣.
الكفاية في الهداية، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد آروتشي، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
المنتقى من عصمة الأنبياء، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد بولوط، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
الطرق الصوفية في تركيا: تاريخ وثقافة (بالتركية)، سميح جيحان (تحرير)، ٢٠١٥.
مرشد الشيوخ الثلاثة: الخلوتية وفرع الرمضانية وكوستندلي علي علاء الدين أفندي (بالتركية)، سميح جيحان، ٢٠١٥
تراث الحواشي في التفسير وحاشية شيخ زاده على أنوار التنزيل (بالتركية)، شكري معدن، ٢٠١٥
فهرس الوقفيات لسجلات محاكم إستانبول الشرعية (بالتركية)، إعداد: ب. آيدين، إ. يورداقول، آ. ايشيق، إ. قورت، أ. ييلديز، ٢٠١٥.
كتاب القواعد الكلّيّة في جملة من الفنون العلميّة، محمد الإصفهاني، تحقيق: منصور كوشينكاغ - بلال تاشقين، ٢٠١٧.
عضد الدين الإيجي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، أشرف آلطاش (تحرير)، ٢٠١٧.
القاضي البيضاوي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، مستقيم آريجي (تحرير)، ٢٠١٧.
العلاقة بين النحو وأصول الفقه (بالتركية)، عثمان كومان، ٢٠١٧.
سلامة الإنسان في محافظة اللسان، ميرزا زاده محمد سالم، تحقيق: مراد صولا، ٢٠١٨.
معاني الأسماء الإلهيّة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
شرح الفاتحة وبعضِ سورة البقرة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
دليل تحقيق النصوص لمركز البحوث الإسلامية (إسام) (بالتركية)، إعداد: أوقان قدير يلماز، ٢٠١٨.
شيخ بدر الدين: فقيه عثماني (بالتركية)، مصطفى بولند داداش، ٢٠١٨.
رسالة في أدب المفتي، محمد فهمي العيني، تحقيق: عثمان شاهين، ٢٠١٨.
كتاب تقريب الغريب، قاسم بن قطلوبغا، تحقيق: عثمان كسكين‌أر، ٢٠١٨.
كشف الأسرار وهتك الأستار، يوسف بن هلال الصفدي، تحقيق: بهاء الدين دارتما، ١-٥، ٢٠١٩.
تراث الكشاف: أثر الكشاف للزمخشري في تراث التفسير (بالتركية) مَحمَد طه بُويالِق، ٢٠١٩.
التسهيل شرح لطائف الإشارات، الشيخ بدر الدين، تحقيق: مصطفى بُولَنْدْ دَادَاش، ١-٣، ٢٠١٩.
جامع الأصول، ركن الدين السمرقندي، تحقيق: عصمت غريب الله شِمْشَك، ١-٢، ٢٠٢٠.
تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد - حاشية التجريد - منهوات الجرجاني والحواشي الأخرى، محمود الإصفهاني - الجرجاني، تحقيق:
أ. آلطاش، م. علي قُوجَا، ص. كونْ آيْدِن، م. يتيم، ١-٣، ٢٠٢٠؛ ١-٢، ٢٠٢١.
لبّ الأصول، ابن نجيم، تحقيق: محمد فال السيد الشنقيطي، ٢٠٢٠.
التسديد في شرح التمهيد، السغناقي، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ١-٢، ٢٠٢٠.
نظام الحقوق العثماني: أساس الدولة العلية، مَحمَد عاكف آيدن (بالتركية)، ٢٠٢٠.
نظرية الجسم في الفلسفة الإسلامية: تراث حكمة العين، مَحمَد سامي باغا (بالتركية)، ٢٠٢٠.
تراث الشروح والحواشي في كتابة السير: مُغلْطاي بن قليج نموذجًا، كُونُلْو ييلديز (بالتركية)، ٢٠٢٠.
علي القوشجي مفسّرًا، مَحمَد جِيجَك (بالتركية)، ٢٠٢١.
حاشية علي القوشجي على شرح الكشاف للتفتازاني، علي القوشجي علاء الدين علي بن محمد السمرقندي، تحقيق: مَحمَد جِيجَك، ٢٠٢١.
شرح عقود رسم المفتي، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحسيني الدمشقي، تحقيق: شَنُول صَيْلان، ٢٠٢١.
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: محمد طه بويالق، أحمد أيتب،
ضياء الدين القالش، محمد عماد النابلسي، ١-٩، ٢٠٢١.

مركز البحوث الإسلامية
إستانبول
سِلْسِلَةُ عيُونِ التُّرَاثِ الإسْلَامِيِّ

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)

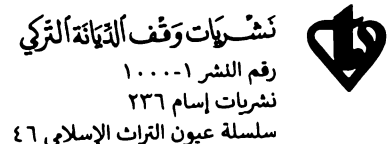
يُنشر لأوّل مرّة عن نسخة المؤلّف مع منهواته (تعليقاته) بخطّ يده

تحقيق
أ.م. محمد طه بويالق — أحمد أيتب
أ.م. ضياء الدين القالش — محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ.م. محمد طه بويالق

المجلد الثالث

نشريات وقف الديانة التركي



نشريات وقف الديانة التركي
رقم النشر ١-١٠٠٠
نشريات إسام ٢٣٦
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٤٦

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي

المجلد الثالث

تحقيق محمد طه بُوينَالِنْ - أحمد أَيْنَبْ [المقدمة - البقرة ٩٨؛ النساء - التوبة]
ضياء الدين القَالِش [البقرة ٩٩ - آل عمران ٣٢؛ يونس - هود؛ الحجر - طه؛ الذاريات - الناس]
محمد عماد النابلسي [آل عمران ٣٣-٢٠٠؛ يوسف - إبراهيم؛ الأنبياء - ق]

تم إعداد كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق
بمركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.
İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سُعَادْ مَرْتْ أوغْلُو
إشراف الطبع أَرْدَالْ جَساز
تحرير قسم التحقيق أوقَانْ قَدير يِلْمازْ
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَمِيرْآيْ
تنقيح الأسلوب والصياغة لقسم الدراسة (التركي) مَتين قَرَه بَاشْ أوغْلُو
الترجمة (العربي) مروة داغستاني بازْسِيلْ
التصحيح (العربي) سعيد قاياجي، منذر شيخ حسن، محمد شاهين
(التركي) عيسى قايا أَلْپْ، عبد القادر شَنَلْ، عنايت بَبَكْ
التصميم علي حيدر أُولُوصُويْ، إبراهيم درويش مؤذن (تطبيق)،
حسن حسين جَانْ (غلاف)، رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر منذر شيخ حسن، سماء دُوغانْ

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام/İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجَايْ بَاشْ أوغْلُو

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
بتاريخ ٢٠٢٠/٠٦/٠١ ورقم ٢٠٢٠/٠٥.

الطبعة الأولى: أنقرة، يوليو ٢٠٢١م / ١٤٤٢هـ
ISBN 978-625-7581-31-8 (مجموعة)
978-625-7581-34-9 (المجلد الثالث)

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr



شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم / شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي؛ التحقيق: محمد طه بُوينَالِنْ، أحمد أَيْنَبْ، ضياء الدين القَالِش، محمد عماد النابلسي. - أنقرة: وقف الديانة التركي، ٢٠٢١.
المجلد الثالث، ٦٣٢ صفحة؛ ٢٤ سم. - (نشريات وقف الديانة التركي؛ ١-١٠٠٠؛ نشريات إسام؛ ٢٣٦.
سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٤٦)
يحتوي على الفهارس والمصادر
ISBN 978-625-7581-31-8 (مجموعة) 978-625-7581-34-9 (المجلد الثالث)

فهرس المحتويات

/ سورة المائدة

مدنيّة، وهي مائة وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ الوفاء: القِيام بمُوجَب العَقد، وكذا الإيفاء. والعَقد هو العهد الموَثَّق المشبَّه بعَقد الحَبل ونحوه، والمراد بـ﴿العُقُودِ﴾ ما يعُمّ جميعَ ما ألزمه الله تعالى عبادَه وعقَده عليهم مِن التكاليف والأحكام الدينيّة وما يعقِدونه فيما بينهم مِن عقود الأمانات والمعاملات ونحوها ممّا يجب الوفاء به، أو يحسُن دِينًا بأنْ يُحمَل الأمر على معنًى يعُمّ الوجوبَ والندبَ.

أُمر بذلك أوّلًا على وجه الإجمال، ثمّ شُرع في تفصيل الأحكام التي أُمر بالإيفاء بها، وبُدئ بما يتعلّق بضروريّات مَعايِشِهم، فقيل: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ البهيمة: كلّ ذاتِ أربعٍ، وإضافتُها إلى ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ للبيان، كـ"ثَوب الخَزّ"، وإفرادُها لإرادة الجنس، أي: أُحلَّ لكم أكل البهيمة مِن الأنعام، وهي الأزواج الثمانية المعدودة في سورة الأنعام،[١] وأُلحِقَ بها الظِّباء وبَقر الوَحْش ونحوهما، وقيل: هي المرادة بـ"البهيمة" ههنا لتقدُّم بيان حِلّ الأنعام، والإضافةُ لِما بينهما مِن المشابهة والمماثلة في الاجترار وعدمِ الأنياب، وفائدتُها الإشعار بعِلّة الحُكم المشتركة بين المضافَين، كأنّه قيل: أُحلَّتْ لكم البهيمة الشبيهة بالأنعام التي بُيّن إحلالها فيما سبق، المماثِلةُ لها في مَناط الحُكم.

---

١ وهي اثنان مِن الظّأن واثنان مِن المَعْز واثنان مِن الإبِل واثنان مِن البقر. انظر: الأنعام، ٦/١٤٣-١٤٤.

وتقديم الجارّ والمجرور على القائم مَقام الفاعل لِما مرّ مِرارًا مِن إظهار العناية بالمقدَّم، لِما فيه مِن تعجيل المَسرّة والتشويقِ إلى المؤخَّر؛ فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر تبقى النفسُ مترقِّبةً إلى وروده، فيتمكّن عندها فضلَ تمكّن.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ استثناء مِن ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: إلّا محرَّم ما يُتلى عليكم مِن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[1] ونحوه، أو: إلّا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه. ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾، أي: الاصطيادِ في البَرّ، أو: أكلِ صَيده. وهو نصب على الحاليّة مِن ضمير ﴿لَكُمْ﴾. ومعنى عدمِ إحلالهم له تقريرُ حُرمته عملًا واعتقادًا، وهو شائع في الكتاب والسنّة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: مُحرِمون، حال مِن الضمير في ﴿مُحِلِّي﴾. وفائدةُ تقييد إحلال بهيمة الأنعام بما ذُكر مِن عدم إحلال الصيد حالَ الإحرام على تقدير كون المراد بها الظِّباءَ ونظائرَها ظاهرةٌ،[2] لِما أنّ إحلالها غيرُ مطلَق، كأنّه قيل: أُحلَّ لكم الصيدُ حالَ كونكم ممتنِعين عنه عند إحرامكم.

وأمّا على التقدير الأوّل ففائدته إتمام النعمة وإظهارُ الامتنان بإحلالها بتذكير احتياجهم إليه؛[3] فإنّ حُرمة الصيد / في حالة الإحرام مِن مظانِّ حاجتهم إلى إحلال غيره حينئذ، كأنّه قيل: أُحلَّتْ لكم الأنعام مطلَقًا حالَ كونكم ممتنِعين عن تحصيل ما يُغنيكم عنها في بعض الأوقات محتاجين إلى إحلالها. [١٠٠ظ]

وفي إسناد عدم الإحلال إليهم بالمعنى المذكور -مع حصول المراد بأنْ يُقال: "غيرَ محلِّل لكم"، أو "محرَّمًا عليكم الصيدُ حالَ إحرامكم"- مزيدُ تربيةٍ للامتنان، وتقرير للحاجة ببيان عِلّتها القريبة؛ فإنّ تحريم الصيد عليهم إنّما يوجِب حاجتهم إلى إحلال ما يُغنيهم عنه[4] باعتبار تحريمهم له[5] عملًا واعتقادًا، مع ما في ذلك مِن وصفهم بما هو اللائق بهم.

---

[1] المائدة، ٣/٥.
[2] خبرُ قوله: "وفائدةُ" مع ما أُضيف إليه.
[3] أي: إلى إحلالها.
[4] أي: عن الصيد.
[5] أي: للصيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ مِن الأحكام حسبما يقتضيه مشيئتُه المَبنيّةُ على الحِكَم البالغة؛ فيدخل فيها ما ذُكر مِن التحليل والتحريم دخولًا أوّليًا. ومعنى الإيفاء بهما الجَرَيانُ على موجَبهما عقدًا وعملًا، والاجتنابُ عن تحليل المحرَّمات وتحريمِ بعض المحلَّلات كالبَحيرة ونظائرها التي سيأتي بيانها.[1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ لمّا بيّن حُرمة إحلال الإحرام الذي هو مِن شعائر الحجّ عُقّب ذلك ببيان حُرمة إحلال سائر الشعائر. وإضافتُها إلى الله عزّ وجلّ لتشريفها وتهويلِ الخَطْب في إحلالها. وهي جمعُ "شَعيرة"، وهي اسمٌ لِما أُشعرَ، أي: جُعل شِعارًا وعَلَمًا للنُّسُك مِن مواقف الحجّ ومرامِي الجِمار والمَطاف والمَسعى، والأفعالِ التي هي علامات الحاجّ يُعرَف بها، مِن الإحرام والطواف والسعي والحلق والنحر. وإحلالها أن يُتهاوَن بحُرمتها، ويُحالَ بينها وبين المتنسِّكين بها، ويُحدَثَ في شهر الحجّ ما يُصَدّ به الناسُ عن الحجّ.

وقيل: المراد بها دينُ الله لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج، ٣٢/٢٢]، أي: دِينَه. وقيل:[2] حُرُمات الله. وقيل: فرائضه التي حدّها لعباده، وإحلالُها الإخلالُ بها. والأوّل أنسَبُ بالمقام.

﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ أي: لا تُحِلّوه بالقتال فيه، وقيل: بالنَّسيء،[3] والأوّل هو الأَولى بحال المؤمنين. والمراد به شهر الحجّ، وقيل: الأشهُر الأربعة الحُرُم،

---

[1] انظر: المائدة، ١٠٣/٥.

[2] وفي هامش م: عطاء. | انظر: جامع البيان للطبري، ٢١/٨؛ واللباب لابن عادل، ١٧٦/٧.

[3] النَّسِيء: هو شهرٌ كانت العرب تؤخِّره في الجاهليّة، مِن الأشهُرِ الحُرُم، وذلك أنّ العرب إذا نفَرُوا مِن المَوسم قال بعضهم: «أحلَلْتُ شهرَ كذا، وحرَّمتُ شهرَ كذا». كتاب العين للخليل بن أحمد، ٣٠٦/٧ «باب السين والنون».

والإفراد لإرادة الجنس. ﴿وَلَا ٱلْهَدْيَ﴾ بأنْ يَتعرَّض له بالغصب أو بالمنع مِن بلوغ مَحِلّه. وهو ما أُهدِيَ إلى الكعبة مِن إبِل أو بَقَر أو شاة، جمعُ "هَدْيَة"، كـ"جَدْي" و"جَدْيَة".

﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ هي جمعُ "قِلادة"، وهي ما يُقلَّد به الهَدْيُ مِن نعلٍ أو لِحاءِ شجرٍ ليُعلَم به أنّه هَدْيٌ فلا يُتعرَّض له. والمراد النهي عن التعرّض لذوات القلائد مِن الهَدْي، وهي البُدْن. / وعطفُها على ﴿ٱلْهَدْيَ﴾ -مع دخولها فيه- لمَزيد التوصية بها لمزيّتها على ما عداها، كما عطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام، كأنّه قيل: والقلائدَ منه خصوصًا. أو[١] النهي عن التعرّض لنفس القلائد مبالغةً في النهي عن التعرّض لأصحابها، على معنى: لا تُحِلّوا قلائدَها فضلًا عن أن تُحِلّوها، كما نُهِيَ عن إبداء الزِّينة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور، ٣١/٢٤] مبالغةً في النهي عن إبداء مَواقعها. [١٠١و]

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: لا تُحِلّوا قومًا قاصدين زيارتَه بأنْ تصُدّوهم عن ذلك بأيّ وجه كان. وقيل: هناك مضاف محذوف، أي: قتالَ قوم أو أذى قومٍ آمّينَ... إلخ. وقُرئ: "ولَا آمِّي البَيْتِ الحَرَامِ"[٢] بالإضافة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ حال مِن المستكنّ في ﴿ءَآمِّينَ﴾، لا صفةٌ له؛ لأنّ المختار أنّ اسم الفاعل إذا وُصف بَطَلَ عملُه، أي: قاصدين زيارتَه حالَ كونهم طالبين أن يُثيبَهم الله تعالى ويرضى عنهم. وتنكير ﴿فَضْلًا﴾ و﴿رِضْوَٰنًا﴾ للتفخيم، و﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلِّق بنفس الفعل، أو بمحذوف وقع صفةً لـ﴿فَضْلًا﴾ مُغنيةً عن وصفِ ما عُطف عليه بها، أي: فضلًا كائنًا مِن ربّهم ورضوانًا كذلك.

والتعرُّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم والإشعارِ بحصول مُبتغاهم. وقُرئ: "تَبْتَغُونَ"[٣] على الخطاب؛ فالجملة حينئذ حال مِن ضمير

---

[١] السياق: والمراد النهي... أو النهي عن...

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٩.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن حُمَيد بن قيس والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٩؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٧/٤.

المخاطَبين في ﴿لَا تُحِلُّوا﴾ على أنّ المراد بيان منافاة حالهم هذه للمَنهيّ عنه، لا تقييدُ النهي بها. وإضافة "الربّ" إلى ضمير "الآمّينَ" للإيماء إلى اقتصار التشريف عليهم، وحِرمانِ المخاطَبين عنه وعن نَيل المُبتغَى. وفي ذلك مِن تعليل النهي وتأكيدِه والمبالغة في استنكار المَنهيّ عنه ما لا يخفى. ومِن ههنا قيل: إنّ المراد بـ"الآمّينَ" هُم المسلمون خاصّةً، / وبه تمسّكَ مَن ذهب إلى أنّ الآية مُحكَمة. [١٠١ظ]

وقد رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «سورة المائدة مِن آخِر القرآن نزولًا؛ فأَحِلّوا حلالها وحَرِّموا حرامها».[١] وقال الحسن[٢] رحمه الله: «ليس فيها منسوخ».[٣] وعن أبي مَيسرة:[٤] «فيها ثماني عشرةَ فريضةً، وليس فيها منسوخ».[٥]

وقد قيل: هم المشركون خاصّةً؛ لأنّهم المحتاجون إلى نهي المؤمنين عن إحلالهم دون المؤمنين، على أنّ حُرمة إحلالهم تثبُت بطريق دلالة النصّ. ويؤيّده أنّ الآية نزلت في الحُطَيم[٦] بنِ ضبعةَ البكري، وقد كان أتى المدينةَ، فخلّف خيلَه خارِجَها، فدخل على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحدَه، ووعده أن يأتي بأصحابه فيُسلِموا، ثمّ خرج مِن عنده عليه السلام، فمرّ بسَرْح المدينة، فاستاقه، فلمّا كان في العام القابل خرج مِن اليمامة حاجًّا في حُجّاج بَكر بنِ وائل[٧]

---

[١] أخرج أحمد نحوَه في مسنده، ٣٥٣/٤٢ (٢٥٥٤٧)، مِن طريق جُبير بن نفير، قال: دخلتُ على عائشةَ، فقالت: «هل تقرأ سورةَ المائدة؟»، قال: قلتُ: «نعم»، قالت: «فإنّها آخِرُ سورةٍ نزلت، فما وجدتم فيها مِن حلال فاستحِلّوه، وما وجدتم فيها مِن حرام فحرِّموه». وهو مرفوعًا في **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٢/١.

[٢] أي: الحسن البصري.

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٢/١؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٦٧/٤.

[٤] هو عمرو بن شُرَحْبيل الهمداني الكوفي، أبو مَيسرة (ت. ٦٣هـ/٦٨٣م). محدّث، صاحب عبد الله بن مسعود، تابعيّ، وقيل: إنّه أدرك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. كان إمامَ مسجد بني وادعة، وكان مِن العُبّاد الأولياء. حدّث عن عمر وعليّ وابن مسعود وغيرهم. وحدّث عنه أبو وائل والشعبي والقاسم بن مُخَيمرة وأبو إسحاق ومحمّد بن المنتشر. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ١٠٦/٦-١٠٩؛ وسير **أعلام النبلاء** للذهبي، ١٣٥/٤-١٣٦.

[٥] **الناسخ والمنسوخ** للقاسم بن سلّام، ص ١٣٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٢/١.

[٦] ط س: الحُطَم. | هو في أكثر مصادر التفسير كما في نسختَي ط س.

[٧] لعلّ المقصود هنا بنو بكر بن وائل، وهي قبيلة عظيمة مِن العدنانيّة، تُنسَب إلى بكر بن وائل ابن قاسط بن هنب بن أفصى بن دُعمي ابن جَديلة بن أسَد بن نزار بن مَعْد بن عدنان. تُعدّ هذه القبيلة مِن أعظم القبائل المحارِبة. انظر: **معجم قبائل العرب** لكَحّالة، ٩٣-٩٩.

ومعه تِجارة عظيمة وقد قلّدوا الهَدْي، فسأل المسلمون النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم أن يُخلِّيَ بينهم وبينه، فأباه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الآية.[١]

وفُسِّر "ابتغاء الفضل" بطلب الرزق بالتجارة، و"ابتغاءُ الرضوان" بأنّهم كانوا يزعُمون أنّهم على سَدادٍ مِن دِينهم، وأنّ الحجّ يقرّبهم إلى الله تعالى، فوصفهم الله عزّ وجلّ[٢] بظنّهم. وذلك الظنّ الفاسد، وإن كان بمَعزِل مِن استتباع رضوانِه تعالى، لكنْ لا بُعدَ في كونه مدارًا لحصول بعض مقاصدهم الدنيويّة وخلاصِهم عن المكاره العاجلة، لاسيّما في ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيمِ شعائره. وقال قتادة: «هو أن يُصلِح مَعايِشَهم في الدنيا، ولا يعجِّلَ لهم العقوبةَ فيها».[٣]

وقيل: هم المسلمون والمشركون، لِما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ المسلمين والمشركين كانوا يَحُجّون جميعًا، فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحدًا عن حجّ البيت بقوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا﴾ الآية، ثمّ نزل بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة، ٢٨/٩]، وقولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة، ١٧/٩].[٤] وقال مجاهد والشعبي: «﴿لَا تُحِلُّوا﴾ نُسِخ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ[٥] ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة، ٥/٩]».[٦]

ولا ريب في تناوُل "الآمّين" للمشركين قطعًا، إمّا استقلالًا وإمّا اشتراكًا لِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾... إلخ؛ فيتعيّن النَّسخُ كُلًّا أو بعضًا. ولا بدّ / في الوجه الأخير مِن تفسير "الفضل" و"الرضوان" بما يناسب الفريقين، [١٠٢و]

---

[١] انظر لتفصيله: أسباب النزول للواحدي، ص ١٩١؛ وتفسير القرطبي، ٤٣/٦. وفي مطبوع الأوّل: "ضُبَيعة الكِندي"، وفي مطبوع الثاني: "ضُبَيعة البكري" بَدَلَ "ضبعة البكري". وفي أكثر المصادر "ضبيعة" بدل "ضبعة".

[٢] س: تعالى.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٤. وباختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٤١/٨.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/١. وباختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٣٨/٨.

[٥] م ط س: اقتلوا.

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/١. وباختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٣٥/٨.

فقيل: ابتغاءُ الفضل -أي: الرزق- للمؤمنين والمشركين عامّةً، وابتغاءُ الرضوان للمؤمنين خاصّةً، ويجوز أن يكون الفضل على إطلاقه شاملًا للفضل الأخرويّ أيضًا ويختصّ ابتغاؤه بالمؤمنين.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا﴾ تصريح بما أُشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[١] مِن انتهاء حُرمة الصيد بانتفاء موجِبها. والأمر للإباحة بعد الحَظَر، كأنّه قيل: وإذا حَلَلْتم فلا جُناح عليكم في الاصطياد. وقُرئ: "أَحْلَلْتُمْ"،[٢] وهو لغة في "حلَّ"، وقُرئ بكسر الفاء[٣] بإلقاء حركة همزة الوصل عليها، وهو ضعيف جدًا.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ نهيٌ عن إحلال قومٍ مِن الآمِّينَ، خُصّوا به -مع اندراجهم في النهي عن إحلال الكلّ كافّةً- لاستقلالهم بأمور ربّما يُتوهَّم كونُها مصحِّحةً لإحلالهم داعيةً إليه. و"جَرَمَ" جارٍ مَجرى "كَسَبَ" في المعنى وفي التعدِّي إلى مفعول واحد وإلى اثنين، يُقال: "جرَم ذنبًا" نحو "كسبَه"، و"جرَمتُه ذنبًا" نحو "كسبتُه إيّاه"؛ خلا أنّ "جَرَمَ" يُستعمل غالبًا في كسبِ ما لا خيرَ فيه، وهو السبب في إيثاره ههنا على الثاني. وقد يُنقل الأوّلُ مِن كلٍّ منهما بالهمزة إلى معنى الثاني، فيُقال: "أجرمتُه ذنبًا" و"أكسبتُه إيّاه"، وعليه قراءة مَن قرأ "يُجْرِمَنَّكُمْ"[٤] بضمّ الياء.

﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ بفتح النون، وقُرئ بسكونها،[٥] وكلاهما مصدرٌ أُضيفَ إلى مفعوله، لا إلى فاعله كما قيل، وهو شدّة البُغض وغاية المَقت. ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ متعلِّق بـ"الشنآن" بإضمار لام العلّة، أي: لِئَن صَدُّوكم عامَ الحُديبية ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عن زيارته والطوافِ به للعُمرة.

وهذه آية بيّنة في عموم ﴿ءَآمِّينَ﴾ للمشركين قطعًا. وقُرئ: "إِنْ صَدُّوكُمْ"[٦] على أنّه شرط معترِض أغنى عن جوابه ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾. قد أُبرزَ الصدّ المحقَّق

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٩.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٠.

[٥] قرأ بها ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وأبو جعفر في رواية ابن وردان، واختُلف في رواية ابن جَمّاز عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٣-٢٥٤.

[٦] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٤.

فيما سبق في معرِض المفروض للتوبيخ والتنبيهِ على أنّ حقّه ألّا يكونَ وقوعُه إلّا على سبيل الفرض والتقدير.

[١٠٢ظ] ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ أي: عليهم. وإنّما حُذف تعويلًا على ظهوره، / وإيماءً إلى أنّ المقصد الأصليَّ مِن النهي منعُ صدور الاعتداء عن المخاطَبين محافظةً على تعظيم الشعائر، لا منعُ وقوعِه على القوم مراعاةً لِجانبهم. وهو ثاني مفعولَيْ ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، أي: لا يكسبَنَّكم شدّةُ بُغضكم لهم لِصدّهم إيّاكم عن المسجد الحرام اعتداءَكم عليهم وانتقامَكم منهم للتشفّي.

وهذا، وإن كان بحسب الظاهر نهيًا للشَّنَآن عن كسب الاعتداء للمخاطَبين، لكنّه في الحقيقة نهيٌ لهم عن الاعتداء على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه؛ فإنّ النهي عن أسباب الشيء ومَباديه المؤدِّيةِ إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهانيّ، وإبطالٌ للسببيّة. وقد يُوجَّه النهي إلى المسبَّب ويُراد النهي عن السبب كما في قوله: "لا أُرَيَنَّك ههنا"، يريد به نهيَ مخاطَبه عن الحضور لَديه.

ولعلّ تأخيرَ هذا النهي عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا﴾ -مع ظهور تعلّقه بما قبله- للإيذان بأنّ حُرمة الاعتداء لا تنتهي بالخروج عن الإحرام كانتهاء حُرمة الاصطياد به؛ بل هي باقية ما لم ينقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلّيّة، وبذلك يُعلَم بقاء حُرمة التعرّض لسائر الآمّين بالطريق الأَوْلى.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ لمّا كان الاعتداء غالبًا بطريق التظاهر والتعاون أُمروا إثرَ ما نُهوا عنه بأنْ يتعاونوا على كلّ ما هو مِن باب البرّ والتقوى ومتابعةِ الأمر ومجانبةِ الهوى، فدخل فيه ما نحن بصدده مِن التعاون على العفو والإغضاءِ عمّا وقع منهم دخولًا أوّليًّا.

ثمّ نُهوا عن التعاون في كلّ ما هو مِن مَقولة الظلم والمعاصي بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾؛ فاندرج فيه النهيُ عن التعاون على الاعتداء والانتقامِ بالطريق البرهانيّ. وأصلُ ﴿لَا تَعَاوَنُوا﴾: "لا تتعاونوا"، فحُذف منه إحدى التاءَين تخفيفًا. وإنّما أُخّر النهي / عن الأمر -مع تقدّم التخلية على التحلية- [١٠٣و]

مسارعةً إلى إيجاب ما هو مقصود بالذات؛ فإنّ المقصود مِن إيجاب ترك التعاون على الإثم والعُدوان إنّما هو تحصيل التعاون على البِرّ والتقوى.

ثمّ أُمروا بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بالاتّقاء في جميع الأمور التي مِن جملتها مخالفةُ ما ذُكر مِن الأوامر والنواهي، فثبت وجوبُ الاتّقاء فيها بالطريق البرهانيّ، ثمّ عُلِّل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لِمَن لا يتّقِيه، فيعاقِبكم -لا محالةَ- إن لم تتّقوه. وإظهار الاسم الجليل لِما مرّ مرارًا مِن إدخال الرَّوعة وتربيةِ المهابة وتقويةِ استقلال الجملة.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ شروع في بيان المحرَّمات التي أُشيرَ إليها بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.[١] والمَيْتة: ما فارَقه الروحُ مِن غير ذَبح. ﴿وَٱلدَّمُ﴾ أي: المسفوحُ منه لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام، ١٤٥/٦]. وكان أهل الجاهليّة يصُبّونه في الأمعَاء ويَشْوُونه، ويقولون: لم يُحرَم مَن فُزْدَ له، أي: مَن فُصِدَ له.[٢] ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: رفعُ الصوت لغير الله عند ذبحه، كقولهم: باسم اللات والعُزّى.

﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ أي: التي ماتت بالخنق. ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ أي: التي قُتلت بالضرب بالخَشَب ونحوه، مِن "وَقَذْته" إذا ضربتَه. ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ أي: التي تَردّت مِن عُلُوّ أو إلى بِئر، فماتت. ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ أي: التي نطحتها أخرى، فماتت بالنطح.

---

[١] المائدة، ١/٥.

[٢] الفَصْد: قطعُ العِرق. وقد فصدْتُ وافتصدْتُ. وانفصد الشيءُ وتفصّد: سالَ. والفَصيد: دمٌ كان يُجعَل في مِعًى مِن فَصْد عِرقٍ، ثمّ يُشوَى، يُطعَمه الضيفُ في الأزْمَة. وفي المَثَل: "لم يُحرَم مَن فُصِدَ له"، أي: مَن فُصِدَ له البعيرُ. وربّما سُكِّنت الصاد منه تخفيفًا، فتُقلَب زايًا، فيُقال: "فُزْدَ له". الصحاح للجوهري، «فصد».

و"التاء" للنقل. وقُرئ: "وَالْمَنْطُوحَةُ".[١]

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي: وما أكل منه السَّبُعُ، فمات. وقُرئ بسكون الباء،[٢] وقُرئ: "وَأَكِيلُ السَّبُعِ".[٣] وفيه دليل على أنّ جوارح الصَّيد إذا أكلت ممّا صادتْه لم يحِلَّ. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلّا ما أدركتم ذَكوَتَه / وفيه بقيّةُ حياةٍ يضطرب اضطرابَ [١٠٣ظ] المذبوح. وقيل: الاستثناء مخصوص بما أكل السَّبُع. والذكاة في الشرع: بقطع الحُلقوم والمَرِيء[٤] بمحدَّد.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ قيل: هو مفرَد، وقيل: جمعُ "نِصاب". وقُرئ بسكون الصاد.[٥] وأيًا ما كان، فهو واحد "الأنصاب"، وهي أحجار كانت منصوبةً حول البيت يذبَحون عليها ويعُدّون ذلك قُربةً، وقيل: هي الأصنام.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ جمعُ "زَلَم"، وهو القدح، أي: وحُرِّم عليكم الاستقسام بالأقداح. وذلك أنّهم إذا قصدوا فعلًا ضربوا ثلاثةَ أقداح مكتوب على أحدها: "أمرني ربّي"، وعلى الثاني: "نهاني ربّي"، وعلى الثالث: "غُفْل"؛ فإن خرج الآمِرُ مضَوْا على ذلك، وإن خرج الناهي اجتنبوا عنه، وإن خرج الغُفْل أجالوها مرّةً أخرى؛ فمعنى الاستقسام: طلبُ معرفةِ ما قُسِّم لهم بالأزلام. وقيل: هو استقسام الجَزور بالأقداح على الأنْصِباء المعهودة.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، ومعنى البُعد فيه للإشارة إلى بُعد منزلته في الشرّ. ﴿فِسْقٌ﴾ تمرّدٌ وخروجٌ عن الحدّ، ودخولٌ في عِلم الغيب، وضلالٌ باعتقادِ أنّه طريق إليه، وافتراءٌ على الله سبحانه إن كان هو المرادَ بقولهم:

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها الطبري في جامع البيان، ٦١/٨؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ١٧١/٤، ونسباها إلى أبي مَيْسرة.

٢ أوردها الكرماني في شواذّ القراءات، ص ١٥٠، ونسبها إلى طلحة ومعليّ بن منصور وأبي بكر شعبة بن عيّاش. وأبو بكر هو راوٍ مشهورٌ لعاصم، ولكنْ لم نقف على هذه القراءة منه في كتب القراءات السبع.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. المحتسَب لابن جنّي، ٢٠٧/١.

٤ المَرِيء: رأس المَعِدة والكَرِش اللازق بالحُلقُوم، وهو مَجرى الشراب والطعام، وهو أحمَرُ، مستطيلٌ، جَوفه أبيَضُ. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٩٩/٨ «باب اللفيف مِن الراء».

٥ هي قراءة شاذّة، رُويتْ عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٠.

"ربّي"، وشركٌ وجهالةٌ إن كان هو الصَّنَمَ. وقيل: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى تناوُل المحرَّمات المعدودة؛ لأنّ معنى تحريمها تحريمُ تناوُلها.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ "اللام" للعهد، والمراد به الزمان الحاضر وما يتّصل به مِن الأزمِنَة الماضية والآتية. وقيل: يومُ نزولها؛ وقد نزلت بعد عصر يوم الجُمُعة عَرَفةَ حِجّة الوداع، والنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم واقفٌ بعَرَفاتٍ على العَضْباء،[١] فكادت عَضُدُ الناقة تندَقُّ لثِقَلِها، / فبرَكَتْ.[٢] [١٠٤و]

وأيًّا ما كان، فهو منصوب على أنّه ظرف لقوله تعالى: ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ أي: مِن إبطاله ورجوعِكم عنه بتحليل هذه الخبائث أو غيرها، أو مِن أن يغلِبوكم عليه لِما شاهدوا مِن أنّ الله عزّ وجلّ وَفى بوعده، حيث أظهره على الدين كلِّه، وهو الأنسَبُ بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: أن يظهروا عليكم، ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ أي: وأَخلِصوا إليَّ الخشيةَ.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالنصر والإظهارِ على الأديان كلِّها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيفِ على أصول الشرائع وقوانينِ الاجتهاد. وتقديم الجارّ والمجرور للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ الإكمال لمنفعتهم ومصلحتهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح، ١/٩٤].

و﴿عَلَيْكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ متعلِّق بـ﴿أَتْمَمْتُ﴾، لا بـ﴿نِعْمَتِى﴾؛ لأنّ المصدر لا يتقدّم عليه معمولُه، وتقديمه على المفعول الصريح لِما مرّ مرّاتٍ. أي: أتمَمْتُها بفتح مكّةَ ودخولِها آمنين ظاهرين، وهدمِ مَنار الجاهليّة ومناسكِها، والنهيِ عن حجّ المشرك وطوافِ العُرْيان، أو بإكمال الدين والشرائع، أو بالهداية والتوفيق. قيل: معنى ﴿أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾:

---

١ العَضْب: السيف القاطع. عضَبه يعضِبه عَضْبًا، أي: قطعه. وناقة عَضْباء، أي: مشقوقة الأُذُن. ويُقال: هي التي في أحد أُذُنَيها شقٌّ، وسُمّيتْ ناقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "العضباءَ". كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٩٩/٨ «باب العين والضاد والباء معهما».

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ١٥٣/٢. وباختلاف يسير في أسباب النزول للواحدي، ص ١٩٢. ونحوه في صحيح البخاري، ٩١/٩ (٧٢٦٨)؛ وصحيح مسلم، ٢٣١٢/٤-٢٣١٣ (٣٠١٧).

أنجزتُ لكم وعدي بقولي: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة، ١٥٠/٢]. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أي: اخترتُه لكم مِن بين الأديان، وهو الدين عند الله لا غير.

عن عمر بنِ الخطّاب رضي الله عنه أنّ رجلًا مِن اليهود قال له: «يا أميرَ المؤمنين، آيةٌ في كتابكم تقرءُونها، لو علينا -معشَرَ اليهود- نزلت لَاتّخذنا ذلك اليوم عِيدًا»، قال: «أيّ آية؟»، قال: «﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾» الآية، قال عمر رضي الله عنه: «قد عرفنا ذلك اليومَ والمكانَ الذي أنزلت على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهو قائم بعَرَفَةَ يومَ الجُمُعة»،[١] أشار رضي الله عنه إلى أنّ ذلك اليوم عِيدٌ لنا.

ورُوي أنّه لمّا نزلت هذه الآية بكى عمرُ رضي الله عنه، فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «ما يُبكيك يا عمرُ؟»، قال: «أبكاني أنّا كنّا في زيادة مِن دِيننا؛ فإذا كمُلَ، فإنّه لا يكمُلُ شيءٌ إلّا نَقَصَ»، فقال عليه السلام: «صدقتَ».[٢] فكانت هذه الآية نَعْيَ[٣] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فما لبِثَ بعد ذلك إلّا أحدًا وثمانين يومًا.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ متّصل بذِكر المحرَّمات، وما بينهما اعتراض بما يوجِب أن يُجتنَبَ عنها، وهو أنّ تناوُلَها فُسوقٌ، وحرمتَها مِن جملة الدِّين الكامل والنعمةِ التامّة والإسلامِ المَرْضيّ، أي: فمَن اضطُرَّ إلى تناول شيء مِن هذه المحرَّمات ﴿فِى مَخْمَصَةٍ﴾ أي: في مَجاعة يَخاف معها الموتَ أو مبادِيَه / ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ قيل: غيرَ مائل ومنحرِفٍ إليه بأنْ يأكلها تلذّذًا، أو مجاوِزًا حدَّ الرخصة، أو ينتزعها مِن مُضطَرٍّ آخَرَ كقوله تعالى:[٤] ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة، ١٧٣/٢؛ الأنعام، ١٤٥/٦؛ النحل، ١١٥/١٦]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه بذلك. [١٠٤ظ]

---

١ صحيح البخاري، ١٨/١ (٤٥). وباختلاف يسير في صحيح مسلم، ٢٣١٣/٤ (٣٠١٧)؛ ومسند أحمد، ٣٢٠/١ (١٨٨).

٢ جامع البيان للطبري، ٨١/٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦/٤؛ اللباب لابن عادل، ١٩٧/٧.

٣ النَّعْي: خبر الموت. يُقال: نعاه له نَعْيًا ونُعيانًا بالضمّ. الصحاح للجوهري، «نعا».

٤ م - تعالى.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ④﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ شروع في تفصيل المحلَّلات التي ذُكر بعضها على وجه الإجمال إثرَ بيان المحرَّمات، كأنّهم سألوا عنها عند بيان أضدادها، ولِتَضمُّن السؤال معنى القول أُوقِعَ على الجملة؛[1] فـ﴿مَاذَا﴾ مبتدأ، و﴿أُحِلَّ لَهُمْ﴾ خبرُه، وضميرُ الغيبة لِما أنّ ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ بلفظ الغيبة؛ فإنّه كما يُعتبر حال المحكيّ عنه فيُقال: "أَقسمَ زيدٌ لأفعَلَنَّ"، يُعتبر حال الحاكي فيُقال: "أَقسمَ زيدٌ ليفعَلَنَّ". والمسئول ما أُحلَّ لهم مِن المطاعم.

﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي: ما لم يستخبثه الطِّباعُ السليمةُ ولم تتنفّر عنه،[2] كما في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف، ١٥٧/٧].

﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ بتقدير المضاف على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة والعائد محذوف، أي: وصَيدُ ما علَّمتُموه، أو مبتدأٌ على أنّ ﴿مَا﴾ شرطيّة والجوابُ ﴿فَكُلُوا﴾، وقد جُوّز كونها مبتدأً على تقدير كونها موصولةً أيضًا، والخبرُ ﴿كُلُوا﴾، وإنّما دَخلَتْه "الفاء" تشبيهًا للموصول باسم الشرط. و﴿مِنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾ حال مِن الموصول أو ضميرِه المحذوف. والجوارح: الكواسب مِن سِباع البهائم والطير، وقيل: سُمّيت بها لأنّها تجرَح الصَّيدَ غالبًا.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي: معلِّمين لها الصيدَ. والمكلِّب: مؤدِّبُ الجوارح ومُضَرِّيها بالصيد، مشتَقٌّ مِن "الكَلْب"؛ لأنّ التأديب كثيرًا ما يقع فيه، أو لأنّ كلّ سَبُعٍ يُسمّى "كَلبًا"، لقوله عليه السلام في حقّ عُتبةَ بنِ أبي لَهَب حين أراد سفرَ الشام، فغاظ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم: «اللَّهمّ سلِّطْ عليه كلبًا مِن كِلابك»، فأكله الأسد.[3]

---

[1] أي: في السؤال معنى القول؛ ولذلك وقع بعده ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾، كأنّه قيل: يقولون لك: ماذا أحلّ لهم؟. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٠٦/١.

[2] ذَكّر المؤلّف الفعلَ الأوّلَ وأنّث الثاني.

[3] انظر: السنن الكبرى للبيهقي، ٣٤٦/٥ (١٠٠٥٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٦/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٢.

وانتصابه على الحاليّة مِن فاعل ﴿عَلَّمْتُمْ﴾، وفائدتُها المبالغةُ في التعليم لِما أنّ اسم "المكلِّب" لا يقع إلّا على النحرير في عِلمه. وقُرئ: "مُكْلِبِينَ"[١] بالتخفيف، والمعنى واحد.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية منه،[٢] أو حال مِن ضمير ﴿مُكَلِّبِينَ﴾، أو استئناف. ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مِن الحِيَل وطُرُقِ التعليم والتأديب، كأنّ العِلم به إلهامٌ مِن الله تعالى أو مكتسَبٌ / بالعقل الذي هو مِنحة منه، أو ممّا عرَّفَكم أن تعلِّموه مِن [١٠٥و] اتّباع الصيد بإرسال صاحبه وانزجارِه بزجره وانصرافِه بدعائه وإمساكِ الصيد عليه وعدمِ أكله منه.

﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ قد مرّ فيما سبق أنّ هذه الجملة على تقدير كون ﴿مَا﴾ شرطيةً جوابُ الشرط، وعلى تقدير كونها موصولةً مرفوعةً على الابتداء خبرٌ لها. وأمّا على تقدير كونها عطفًا على ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، فهي جملة متفرّعة على بيان حِلّ صيد الجوارح المعلَّمة، مبيِّنةٌ للمضاف المقدَّر الذي هو المعطوف -وبه يتعلّق الإحلالُ حقيقةً- ومشيرةٌ إلى نتيجة التعليم وأثره، داخلةٌ تحت الأمر؛ فـ"الفاء" فيها كما في قوله:

أمرتُك الخيرَ فافعَلْ ما أُمِرتَ به[٣]

و﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة لِما أنّ البعض ممّا لا يتعلّق به الأكلُ كالجلود والعِظام والرِّيش[٤] وغير ذلك، و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة حُذِف عائدها، و﴿عَلَى﴾ متعلِّقة بـ﴿أَمْسَكْنَ﴾، أي: فكُلُوا بعض ما أمسَكْنَه عليكم، وهو الذي لم يأكُلْنَ منه.

وأمّا ما أكَلْنَ منه فهو ممّا أمسَكْنَه على أنفُسِهنّ، لقوله عليه السلام لعَديّ بنِ حاتم: «وإن أكل منه فلا تأكلْ؛ إنّما أمْسَكَ على نفسه».[٥] وإليه ذهب أكثر الفقهاء.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رزين الكوفي. المحتسَب لابن جنّي، ٢٠٨/١.

[٢] أي: مِن فاعل ﴿عَلَّمْتُمْ﴾.

[٣] صدر بيتٍ، وعجزه:

فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

وهو لعمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزُّبيدي. انظر: شعر عمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزُّبيدي، ص ٦٣؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ١٢٤/٩.

[٤] الرِّيش: كِسوة الطائر، الواحدة: رِيشة. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٨٣/٦ «بابُ الشين والراء».

[٥] صحيح البخاري، ٤٦/١ (١٧٥)؛ صحيح مسلم، ١٥٢٩/٣ (١٩٢٩).

وقال بعضهم: لا يُشترط عدم الأكل في سِباع الطير لِما أنّ تأديبها إلى هذه الدرجة متعذِّر. وقال آخرون: لا يُشترط ذلك مطلَقًا. وقد رُوي عن سلمانَ وسعدِ بنِ أبي وقّاص وأبي هريرةَ رضي الله تعالى عنهم: «أنّه إذا أكل الكلبُ ثُلُثَيه وبقيَ ثُلُثُه وقد ذكرتَ اسمَ الله عليه،[1] فكُلْ».[2]

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ الضميرُ لِـ﴿مَا﴾ في ﴿مَا عَلَّمۡتُم﴾، أي: سَمُّوا عليه عند إرساله، أو لِـ"ما أمسَكْنَه"،[3] أي: سَمُّوا عليه إذا أدركتم ذكاتَه. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في شأن محرَّماته؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: سريعٌ إتيانُ حسابِه، أو سريعٌ تمامُه؛ إذا شرَع فيه يُتِمّ في أقربِ ما يكون مِن الزمان، والمعنى على التقديرين: إنّه يؤاخذكم سريعًا في كلّ ما جلّ ودقّ. وإظهار الاسم الجليل في موقِع الإضمار لتربية المهابة وتعليلِ الحُكم.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٥﴾

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ / لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ قيل: المراد بالأيّام الثلاثة[4] وقت واحد، وإنّما كُرّر للتأكيد. ولاختلاف الأحداث الواقعة فيه حَسُنَ تكريرُه. والمراد بـ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ما مرَّ. [١٠٥ظ]

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: اليهود والنصارى. واستَثْنَى عليٌّ رضي الله عنه نصارَى بني تَغلِبَ، وقال: «ليسوا على النصرانيّة، ولم يأخُذوا منها إلّا شربَ الخمر»،[5] وبه أخذ الشافعي رضي الله عنه. والمراد بطعامهم ما يتناول

---

١ س - عليه.
٢ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٧/١. وروايات سلمانَ وسعدِ بنِ أبي وقّاص وأبي هريرةَ متفرِّقةٌ في جامع البيان للطبري، ١١٥/٨-١١٨.
٣ في قوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾.
٤ هي: اليومان في الآية السابقة وهذا الذي نحن بصدده.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٧/١؛ تفسير الرازي، ٢٩٣/١١.

ذبائحَهم وغيرَها. ﴿حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أي: حلال. وعن ابن عبّاس أنّه سُئل عن ذبائح نصارى العرب، فقال: «لا بأسَ»،[١] وهو قول عامّة التابعين، وبه أخذ أبو حنيفةَ رحمه الله وأصحابُه.

وحُكم الصابئين حكمُ أهل الكتاب عنده، وقال صاحباه:[٢] «هما صِنفان: صنفٌ يقرءُون الزَّبورَ ويعبُدون الملائكة، وصنفٌ لا يقرءُون كتابًا ويعبُدون النجوم؛ فهؤلاء ليسوا مِن أهل الكتاب».[٣] وأمّا المجوس فقد سُنَّ بهم سنّةَ أهل الكتاب في أخذ الجِزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاحِ نسائهم، لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «سُنُّوا بهم سنّةَ أهلِ الكتاب؛[٤] غيرَ ناكحِي نسائِهم ولا آكِلِي ذبائحِهم».[٥]

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾؛ فلا عليكم أن تُطعِموهم وتَبيعوه منهم، ولو حُرّم عليهم لم يَجُزْ ذلك.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ رفع على أنّه مبتدأٌ حُذف خبرُه لدلالة ما تقدّم عليه، أي: حِلٌّ لكم أيضًا. والمراد بهنّ الحرائر العفائف، وتخصيصُهنّ بالذِّكر للبعث على ما هو الأَولى، لا لنفي ما عَداهنّ؛ فإنّ نكاح الإماء المسلمات صحيحٌ بالاتّفاق، وكذا نكاحُ غير العفائف منهنّ، وأمّا الإماء الكتابيّات فهُنَّ كالمسلمات عند أبي حنيفةَ رضي الله عنه، خلافًا للشافعي رحمه الله.[٦] ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: هُنَّ أيضًا حِلّ لكم، وإن كُنَّ حَربيّاتٍ. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٧] «لا تَحِلُّ الحَربيّاتُ».[٨]

[١٠٦و] / ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مُهورَهنّ. وتقييد الحِلّ بإيتائها لتأكيد وجوبها

---

١ موطّأ مالك، ٦٩٨/٣ (١٧٨٦). وانظر: صحيح البخاري، ٩٢/٧ (٥٥٠٧).

٢ هما: أبو يوسف (ت. ١٨٢هـ/٧٩٨م) ومحمّد بن الحسن الشيباني (ت. ١٨٩هـ/٨٠٥م) رحمهما الله تعالى، وقد مرّت ترجمتهما.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٨/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨٣/٤.

٤ إلى هنا ورَدَ في موطّأ مالك، ٣٩٥/٢ (٩٦٨)؛ ومصنّف عبد الرزّاق، ٣٢٥/١٠ (١٩٢٥٣).

٥ تفسير الرازي، ٤١٠/٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٦/٢. ولم نقف عليها عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في كتب الحديث.

٦ م - رحمه الله.

٧ م - رضي الله عنهما.

٨ هو بهذه الألفاظ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٦/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٤٩/٨؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٢٧٢/٧.

والحثِّ على الأَوْلى. وقيل: المراد بإيتائها التزامُها. و﴿إِذَآ﴾ ظرفيّة عامِلُها "حِلٌّ" المحذوفُ، وقيل: شرطيّة حُذِف جوابها، أي: إذا آتيتموهنّ أجورَهنّ حَلَلْنَ لكم.

﴿مُحۡصِنِينَ﴾ حال مِن فاعل ﴿ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾، أي: حالَ كونكم أعِفّاءَ بالنكاح. وكذا قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾. وقيل: هو حال مِن ضمير ﴿مُحۡصِنِينَ﴾، وقيل: صفة لـ﴿مُحۡصِنِينَ﴾، أي: غيرَ مجاهِرين بالزنا. ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ أي: ولا مُسرِّينَ به. والخِدْن: الصديق، يقع على الذَّكر والأنثى. وهو إمّا مجرور عطفًا على ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾، وزِيدَت ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي المستفادِ مِن ﴿غَيۡرَ﴾، أو منصوبٌ عطفًا على ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ باعتبار أوجُهه الثلاثةِ.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: ومَن يُنكِر شرائع الإسلام التي مِن جملتها ما بُيّن ههنا مِن الأحكام المتعلِّقة بالحِلّ والحُرمة، ويمتنِعْ عن قبولها، ﴿فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ الصالحُ الذي عمِله قبل ذلك، ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ خبرُه، و﴿فِي﴾ متعلِّقة بما تعلّق به الخبرُ مِن الكون المطلَق، وقيل: بمحذوف دلَّ عليه المذكور، أي: خاسرٌ في الآخرة، وقيل: بـ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ على أنّ الألِف واللامَ للتعريف لا موصولة؛ لأنّ ما بعدها لا يَعمل فيما قبلها، وقيل: يُغتفر في الظرف ما لا يُغتفر في غيره كما في قوله:

ربَّيتُه حتّى إذا تَمَعْدَدَا كان جزائي بالعَصا أن أُجلَدَا[١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

---

١ البيت بتمامه للعَجّاج في المحتسَب لابن جنّي، ٣١٠/٢. ونُسِب عجُزُه له في خِزانة الأدب للبغدادي، ٤٣٠/٨. وهو بلا نسبة في الزاهر للأنباري، ٤٨٤/١؛ واللامات للزجّاجي، ص ٥٩؛ والمنصف لابن جنّي، ص ١١٢٩؛ وشرح المفصّل لابن يعيش، ٣٢٩/٥. وتمَعْدَدَ: تشبّهَ بمَعَدّ في خشونة المَطعم والمَلبس وتصلُّبَ. ومِن المجاز: تمَعْدَدَ الصبيّ: غلظ وصلب وذهبت عنه رُطوبة الصبا. أساس البلاغة للزمخشري، «معد».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شروع في بيان الشرائع المتعلِّقة بدِينهم بعد بيانِ ما يتعلّق بدُنياهم. ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: أردتم القيامَ إليها كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل، ٩٨/١٦]. عُبّر عن إرادة الفعل بالفعل المسبَّبِ عنها مجازًا للإيجاز، والتنبيهِ على أنّ مَن أراد الصلاة حقُّه أن يبادِرَ إليها بحيث لا تنفكُّ عن إرادتها، أو:[١] إذا قصدتم الصلاةَ إطلاقًا، / لاسمِ أحدِ [١٠٦ظ] لازمَيْها على لازمِها الآخَرِ.

وظاهرُ الآية الكريمة يوجِب الوضوء على كلّ قائم إليها وإن لم يكنْ مُحدِثًا، لِما أنّ الأمر للوجوب قطعًا. والإجماعُ على خلافه، وقد رُوِي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صلّى الصلواتِ الخمسَ يومَ الفتح بوضوء واحد، فقال عمرُ رضي الله عنه: «صنعتَ شيئًا لم تكنْ تصنَعُه»، فقال عليه السلام: «عَمدًا فعلتُه يا عمرُ»،[٢] يعني: بيانًا للجواز. وحملُ الأمر بالنسبة إلى غير المُحدِث على الندب ممّا لا مساغَ له؛ فالوجه أنّ الخطاب خاصٌّ بالمُحدِثِين بقرينة دلالة الحال واشتراطِ الحَدَث في التيمُّم الذي هو بدلُه.

وما نُقل عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والخُلَفاءِ مِن أنّهم كانوا يتوضّئُون لكلّ صلاة، فلا دلالةَ فيه على أنّهم كانوا يفعلونه بطريق الوجوب أصلًا؛ كيف لا، وما رُوِي عنه صلّى الله عليه وسلّم مِن قوله: «مَن توضّأ على طُهْرٍ كتب الله له عَشْرَ حَسَناتٍ»[٣] صريحٌ في أنّ ذلك كان منهم بطريق الندب. وما قيل: "كان ذلك أوّلَ الأمر، ثمّ نُسِخ" يرُدُّه قوله عليه السلام: «المائدة مِن آخِر القرآن نزولًا؛ فأحِلُّوا حلالَها وحَرِّموا حرامَها».[٤]

---

[١] السياق: أي: أردتم القيامَ... أو إذا قصدتم...

[٢] صحيح مسلم، ٢٣٢/١ (٢٧٧)؛ مسند أحمد، ١٣٤/٣٨ (٢٣٠٢٩)؛ سنن النسائي، ٨٦/١ (١٣٣)، كلّها باختلاف يسير.

[٣] سنن ابن ماجة، ٣٢١/١ (٥١٢)؛ سنن أبي داود، ٤٦/١ (٦٢)؛ سنن الترمذي، ٨٧/١ (٥٩)، كلّها باختلاف يسير.

[٤] أخرج أحمد نحوَه في مسنده، ٣٥٣/٤٢ (٢٥٥٤٧)، مِن طريق جُبير بن نفير، قال: دخلتُ على عائشةَ، فقالت: «هل تقرأ سورةَ المائدة؟»، قال: قلتُ: «نعم»، قالت: «فإنّها آخِرُ سورةٍ نزلت، فما وجدتم فيها مِن حلال فاستحِلّوه، وما وجدتم فيها مِن حرام فحرِّموه». وهو مرفوعًا في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/١.

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي: أَمِرُّوا عليها الماءَ، ولا حاجةَ إلى الدَّلْك خلافًا لمالكٍ. ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ الجمهورُ على دخول المِرفَقَين في المغسول؛ ولذلك قيل: ﴿إِلَى﴾ بمعنى "مع" كما في قوله تعالى: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود، ٥٢/١١].

وقيل: هي إنّما تُفيد معنى الغاية مطلَقًا، وأمّا دخولُها في الحُكم أو خروجُها منه فلا دلالةَ لها عليه، وإنّما هو أمرٌ يدور على الدليل الخارجيّ، كما في "حفِظتُ القرآنَ مِن أوّله إلى آخِره"، وقولِه تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٍ﴾ [البقرة، ٢٨٠/٢]؛ فإنّ الدخول في الأوّل والخروجَ في الثاني مُتيقَّنٌ بناءً على تحقُّق الدليل، وحيث لم يتحقّق ذلك في الآية وكانت الأيدي متناوِلةً للمَرافِق حُكِمَ بدخولها فيها احتياطًا. وقيل: ﴿إِلَى﴾ مِن حيث إفادتُها للغاية تقتضي خروجَها، لكنْ لمّا لم يتميَّز الغايةُ ههنا عن ذي الغاية وَجَبَ إدخالُها احتياطًا.

﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ "الباء" مزيدةٌ، وقيل: للتبعيض؛ فإنّه الفارقُ بين قولك: "مَسَحتُ المنديلَ" و"مَسَحتُ بالمنديل"؛ وتحقيقُه أنّها تدُلّ على تضمين الفعل معنى الإلصاق، فكأنّه قيل: "فألصِقُوا المسحَ برءوسكم"، وذلك لا يقتضي الاستيعابَ كما يقتضيه ما لو قيل: "وامسَحُوا رءوسَكم"؛ / فإنّه كقوله تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾. [١٠٧و]

واختَلَف العلماء في القَدر الواجب: فأوجب الشافعيُّ أقلَّ ما ينطلق عليه الاسمُ أخذًا باليقين، وأبو حنيفةَ ببيان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حيثُ مسح على ناصِيَته،[١] وقدَّرها برُبُعِ الرأس، ومالكٌ مسح الكلِّ أخذًا بالاحتياط.

﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾، ويؤيِّده السنّةُ الشائعةُ وعملُ الصحابة وقولُ أكثر الأئمة والتحديدُ؛ إذ المسحُ لم يُعهَد محدودًا. وقُرِئ بالجرّ[٢] على الجِوار، ونظيرُه في القرآن كثيرٌ، كقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾[٣] [هود، ٢٦/١١] ونظائرِه، وللنحاة في ذلك بابٌ مفرَدٌ. وفائدته التنبيه على أنّه ينبغي

---

١ انظر: صحيح مسلم، ٢٣١/١ (٢٤٧)؛ وسنن الترمذي، ١٧٠/١ (١٠٠).

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٥٤/٢.

٣ يعني: أنّ ﴿أَلِيمٍ﴾ صفةٌ لـ﴿عَذَابَ﴾ المنصوب، ولكنّه خُفِض على جوار ﴿يَوۡمٍ﴾.

أن يقتَصِد في صَبّ الماء عليها ويَغسِلها غسلًا قريبًا مِن المسح، وفي الفصل بينه وبين أخَوَاته[١] إيماءٌ إلى أفضلِيّة الترتيب. وقُرئ بالرفع،[٢] أي: وأرجُلُكم مغسولةٌ.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا﴾ أي: فاغتسِلوا. وقُرئ: "فَأَطْهِرُوا"،[٣] أي: فطَهِّرُوا أبدانكم. وفي تعليق الأمر بالطهارة الكُبرى بالحَدَث الأكبر إشارةٌ إلى اشتراط الأمر بالطهارة الصُغرى بالحَدَث الأصغر.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ مَرَضًا يُخاف به الهلاكُ أو ازديادُه باستعمال الماء، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مستقِرِّين عليه، ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، وقيل: للتبعيض، وهي متعلِّقة بـ﴿ٱمْسَحُوا﴾. وقُرئ: "فَأَمُّوا صَعِيدًا".[٤] وقد مرَّ تفسيرُ الآية الكريمة مشبِعًا في سورة النساء،[٥] فليُراجَعْ إليه. ولعلّ التكريرَ ليتّصِلَ الكلامُ في أنواع الطهارة.

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ أي: ما يريد بالأمر بالطهارة للصلاة أو بالأمر بالتيمُّم ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ مِن ضيق في الامتثال به، ﴿وَلَـٰكِن يُرِيدُ﴾ ما يريد بذلك ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: لينظِّفَكم، أو ليُطهِّرَكم عن الذنوب؛ / فإنّ الوضوء مكفِّرٌ لها، [١٠٧ظ] أو ليُطهِّرَكم بالتراب إذا أعوَزَكم التطهُّر بالماء؛ فمفعولُ ﴿يُرِيدُ﴾ في الموضعَين محذوفٌ. و"اللام" للعلّة، وقيل: مزيدةٌ، والمعنى: ما يريد الله أن يجعل عليكم مِن حَرَجٍ في باب الطهارة حتّى لا يُرخِّصَ لكم في التيمُّم، ولكنْ يريد أن يطهِّركم بالتراب إذا أعوَزَكم التطهُّرُ بالماء.

﴿وَلِيُتِمَّ﴾ بشَرعه ما هو مطهِّرة لأبدانكم ومكفِّرةٌ لذنوبكم ﴿نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ في الدِّين، أو ليُتِمَّ برُخَصِه إنعامَه عليكم بعزائمه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمتَه.

---

١ أي: بين غسل الأرجُلِ وغسلِ الوجوه والأيدي.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥١.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ٦١١/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ١٩٣/٤.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الطبري في جامع البيان، ٨٠/٧؛ والزمخشري في الكشّاف، ٦١٢/١، ونسباها إلى عبد الله، ولعلّه عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

٥ النساء، ٤٣/٤.

ومِن لطائف الآية الكريمة أنّها مشتمِلة على سبعةِ أمورٍ كلّها مَثْنَى، طهارتانِ: أصلٌ وبدلٌ، والأصلُ اثنان: مستوعِبٌ[١] وغيرُ مستوعِبٍ،[٢] وغيرُ المستوعِب باعتبار الفعل غسلٌ ومسحٌ، وباعتبار المَحلّ محدودٌ[٣] وغيرُ محدود،[٤] وأنّ آلتَهما مائعٌ وجامدٌ،[٥] وموجِبَهما[٦] حَدَثٌ أصغَرُ وأكبَرُ، وأنّ المُبيح للعُدول إلى البدل مرضٌ أو سفرٌ، وأنّ الموعود عليها[٧] تطهيرُ الذنوب وإتمامُ النعمة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتُذكِّرَكم المنعِمَ وتُرغِّبَكم في شكره، ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ أي: عهدَه المؤكّدَ الذي أخذه عليكم. وقوله تعالى: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ظرفٌ لـ﴿وَاثَقَكُم بِهِ﴾، أو لمحذوف وقع حالًا مِن الضمير المجرور في ﴿بِهِ﴾، أو مِن ﴿مِيثَاقَهُ﴾، أي: كائنًا وقتَ قولكم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وفائدة التقييد به تأكيدُ وجوبِ مراعاته بتذكير قبولهم والتزامِهم بالمحافظة عليه، / وهو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايَعَهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على السمع والطاعة في حال العُسر واليُسر والمَنشَطِ والمَكرَه.[٨] وقيل: هو الميثاق الواقع ليلةَ العَقَبة وفي بَيْعة الرضوان. وإضافته إليه تعالى -مع صدوره عنه صلّى الله عليه وسلّم- لكون المَرجِع إليه[٩] تعالى، كما نطق به قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح، ١٠/٤٨]. وقال مجاهد: «هو الميثاق الذي أخذه الله تعالى[١٠] على عباده حين أخرجهم مِن صُلْب آدمَ عليه السلام».[١١] [١٠٨و]

---

١ وهو الغسل.

٢ وهو الوضوء.

٣ وهو غسل اليدَين والرِّجلَين حيث ذُكِر كلّ واحد منهما بكلمة الغاية، وهي تفيد التقييدَ.

٤ وهو غسل الوجه ومسح الرأس، فإنّ شيئًا منهما لم يُذكَر بكلمة الغاية.

٥ أي: آلة كلّ واحدة مِن الطهارتَين مائعٌ وهو الماء، وجامدٌ وهو الصعيد.

٦ ط س: وموجبها. | أي: تلك الطهارتين.

٧ أي: على الطهارة.

٨ انظر: **صحيح البخاري**، ٧٧/٩ (٧١٩٩).

٩ خبرُ "كان".

١٠ م - تعالى.

١١ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٣٤/٤. ونحوه في **جامع البيان للطبري**، ٢٢٠/٨.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في نِسيان نعمته ونقضِ ميثاقه، أو في كلّ ما تأتون وما تَذَرون، فيدخُل فيه ما ذُكر دخولًا أوّليًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: مَخفِيّاتِها الملابِسةِ لها ملابَسةً تامّةً مصحّحةً لإطلاق الصاحب عليها،[1] فيُجازيكم عليها؛ فما ظنُّكم بجَلِيّات الأعمال! والجملة اعتراض وتعليل للأمر بالاتّقاء. وإظهار الاسم الجليل في موقِع الإضمار لتربية المَهابة وتعليلِ الحُكم وتقويةِ استقلال الجملة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ شروع في بيان الشرائع المتعلِّقة بما يجري بينهم وبين غيرهم إثرَ بيان ما يتعلّق بأنفُسِهم. ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ مُقيمِينَ لأوامره، مُمتَثِلينَ لها، معظِّمينَ لها، مُراعِينَ لحقوقها ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يَحمِلَنّكم ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ أي: شدّةُ بُغضكم لهم ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فلا تشهَدوا في حقوقهم بالعدل، أو فتعتَدُوا عليهم بارتكاب ما لا يَحِلّ، كمُثلةٍ وقَذْفٍ وقتلِ نساءٍ وصِبْيَةٍ ونقضِ عهدٍ تشفِّيًا وغير ذلك.

﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ﴾ أي: العدلُ ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ الذي أُمِرتم به. صَرّح لهم بالأمر بالعدل وبيّن أنّه بمكان مِن التقوى بعد ما نهاهم عن الجَور / وبيّن أنّه مقتضى الهوى، وإذا كان وجوبُ العدل في حقّ الكفّار بهذه المَثابة، فما ظنُّك بوجوبه في حقّ المسلمين! [١٠٨ظ]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أمرَ بالتقوى إثرَ ما بيّن أنّ العدل أقرَبُ له اعتناءً بشأنه وتنبيهًا على أنّه مِلاك الأمر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الأعمال، فيُجازيكم بذلك. وتكرير هذا الحُكم إمّا لاختلاف السبب، كما قيل: "إنّ الأوّل نزل في المشركين، وهذا في اليهود"، أو لمَزيد الاهتمام بالعدل والمبالغةِ في إطفاء ثائرة الغَيظ. والجملة تعليل لِما قبلها. وإظهار الجلالة لِما مرّ مَراتٍ.

---

[1] أي: على مَخفِيّاتِها.

وحيث كان مضمونُها مُنبِئًا عن الوعد والوعيد عُقّب بالوعد لمَن يحافِظ على طاعته تعالى وبالوعيد لمَن يُخِلّ بها، فقيل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي مِن جملتها العدلُ والتقوى ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ حُذِف ثاني مفعولَيْ ﴿وَعَدَ﴾ استغناءً عنه بهذه الجملة؛ فإنّه استئنافٌ مبيِّنٌ له. وقيل: الجملة في موقِع المفعول؛ فإنّ الوعد ضربٌ مِن القول، فكأنّه قيل: وعدَهم هذا القولَ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي مِن جملتها ما تُلِيَت مِن النصوص الناطقة بالأمر بالعدل والتقوى. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الكفر وتكذيبِ الآيات ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ملابِسُوها ملابَسةً مؤبَّدةً. مِن السُنّة السَّنِيّة القرآنيّة شَفْعُ الوعد والوعيد والجمعُ بين الترغيب والترهيب إيفاءً لحقّ الدعوة بالتبشير والإنذار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾

/ [١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ تذكير لنعمة الإنجاء مِن الشرّ إثرَ تذكير نعمة إيصال الخير الذي هو نعمة الإسلام وما يتبَعُها مِن الميثاق. [١٠٩و]
و﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلِّق بـ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، أو بمحذوف وقع حالًا منها. وقوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ﴾ على الأوّل ظرفٌ لنفس "النعمة"، وعلى الثاني لِما تعلَّق به ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، ولا سبيلَ إلى كونه ظرفًا لـ﴿ٱذۡكُرُوا﴾ لتَنافي زمانَيهما، أي: اذكُروا إنعامه تعالى عليكم، أو اذكُروا نعمته كائنةً عليكم في وقت هَمّهم.

﴿أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ أي: بأنْ يَبطِشوا بكم بالقتل والإهلاك. يُقال: "بَسَطَ إليه يدَه" إذا بطَش به، و"بسط إليه لسانَه" إذا شتَمَه. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلى بيان رجوع ضَرَر البَسط وغائلتِه إليهم،

---

[١] في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

حملًا لهم مِن أوّل الأمر على الاعتداد بنعمة دفعه،[١] كما أنّ تقديم ﴿لَكُمْ﴾ في قوله عزّ وجلّ:[٢] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة، ٢٩/٢] للمبادَرة إلى بيان كون المخلوق مِن منافعهم تعجيلًا للمَسَرّة.

﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ عطف على ﴿هَمَّ﴾، وهو النعمة التي أُريدَ تذكيرُها. وذِكر "الهَمّ" للإيذان بوقوعها عند مزيد الحاجة إليها. و"الفاء" للتعقيب المفيدِ لتمام النعمة وكمالِها. وإظهار ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ في موقِع الإضمار لزيادة التقرير. أي: مَنَعَ أيديَهم أن تُمَدَّ إليكم عقيبَ هَمّهم بذلك، لا أنّه كَفَّها عنكم بعد ما مَدّوها إليكم. وفيه مِن الدلالة على كمال النعمة مِن حيث إنّها لم تكن مشوبةً بضَرَر الخوف والانزعاجِ الذي قلّما يَعْرَى عنه الكفُّ بعد المدّ ما لا يخفى مكانُه.

وذلك ما رُوي أنّ المشركين رأَوْا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابَه بعُسفانَ في غزوة ذي أنمارٍ -وهي غزوةُ ذاتِ الرِّقاع، وهي السابعة مِن مَغازِيه عليه السلام- قاموا إلى الظُّهر معًا، فلَمّا صلَّوْا نَدِمَ المشركون ألّا كانوا قد أكَبُّوا عليهم، فقالوا: «إنّ لهم بعدها صلاةً هي أحَبُّ إليهم مِن آبائهم وأبنائهم» / -يَعنُون صلاةَ العصر- وهَمّوا أن يُوقِعوا بهم إذا قاموا إليها، فرَدَّ الله تعالى كيدَهم بأنْ أنزل صلاةَ الخوف.[٣] [١٠٩ظ]

وقيل: هو ما رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أتى بني قُرَيظةَ ومعه الشيخانِ[٤] وعليٌّ رضي الله تعالى عنهم، يستقرِضُهم لدِيَةِ مسلمَين،[٥] قتلهما

---

١ أي: نعمة ضَرَر البَسط.

٢ س: تعالى.

٣ هو مع اختلاف يسير بالنقص والزيادة في الكشّاف للزمخشري، ٦١٣/١. ونحوه في صحيح مسلم، ٥٧٥/١ (٨٤٠)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ١٨٢.

٤ هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

٥ وفي هامش م: هكذا وقع في الكشّاف وتفسير البيضاوي. والصحيح أنّهما رَجُلان مِن بني سُلَيم، وكان بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم موادَعةٌ، قتلهما عمرو ولم يَعلم بحالهما، فقدِم قومُهما إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يطلُبون دِيَتَهما، فكان ما كان. «منه». | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦١٣/١-٦١٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٨/٢.

عمرو بنُ أُميّةَ الضَّمريُّ[١] خطأً يَحسِبُهما مشرِكَين، فقالوا: «نعمْ يا أبا القاسم، اجلِسْ حتّى نُطعِمَك ونُعطِيَك ما سألتَ»، فأجلَسُوه في صُفّة، وهَمّوا بالفَتك به، وعَمَدَ عمرُو بنُ جَحّاش إلى رَحًى[٢] عظيمةٍ يطرَحُها عليه، فأمسك الله تعالى يدَه، ونزل جبريلُ فأخبره، فخرج عليهما السلام.[٣]

وقيل: هو ما رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم نزل منزِلًا، وتفرّق أصحابُه في العِضَاهِ[٤] يستظِلّون بها، فعلّق رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم سيفَه بشجرةٍ، فجاء أعرابيٌّ، فأخذه وسَلَّه، فقال: «مَن يمنعك منّي؟»، فقال عليه السلام: «اللهُ تعالى»، فأسقطه جبريل عليه السلام مِن يدِه، فأخذه الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «مَن يمنعك منّي؟»، فقال: «لا أحدَ، أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله».[٥]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عطف على ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾، أي: اتّقُوه في رعاية حقوق نعمته ولا[٦] تُخِلّوا بشُكرها، أو في كلّ ما تأتون وما تَذَرون، فيدخُل فيه ما ذُكر دخولًا أوّليًّا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: عليه تعالى خاصّةً دون غيره استقلالًا أو اشتراكًا ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ فإنّه يَكفيهم في إيصال كلّ خير ودفعِ كلّ شرّ. والجملة تذييل

---

١ هو عمرو بن أميّة بن خُوَيلد الضَّمْري، أبو أميّة (ت. قبل ٦٠هـ/٦٧٩-٦٨٠م). مِن الصحابة. شهد بدرًا وأحدًا مع المشركين، ثمّ أسلم حين انصرف المشركون عن أحد. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبعثه في أموره، وأرسله إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام، وكتب على يده كتابًا، فأسلم النجاشي، وأمره أن يزوّجه أمّ حبيبة ويرسلها ويرسل مَن عنده مِن المسلمين. روى عنه أولاده: جعفر والفضل وعبد الله، وابن أخيه الزبرقان بن عبد الله بن أميّة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٤٨/٤-٢٤٩؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ١٨١/٤-١٨٢.

٢ الرَّحَى: الضِّرس؛ قطعة مِن الأرض تستدير وترتفع على ما حولها؛ كِركِرة البعير. انظر: الصحاح للجوهري، «رحى».

٣ هو بهذه الألفاظ في الكشّاف للزمخشري، ٦١٣/١-٦١٤. ونحوه في دلائل النبوّة لأبي نُعيم، ٤٨٩/١-٤٩٠ (٤٢٥)؛ ودلائل النبوّة للبيهقي، ٣٥٤/٣-٣٥٥، وفيهما: "بنو النضير" بدلَ "بني قريظة".

٤ العِضاه: كلّ شجر يعظُم وله شَوْك. وواحدة العِضاهِ: عِضاهة، وعِضَهة، وعِضَة. الصحاح للجوهري، «عضه».

٥ وفي هامش م: ولا يساعده إسناد "البَسْط" إلى "القوم". «منه». | هو بهذه الألفاظ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٨/٢. ومع اختلاف بالنقص والزيادة في صحيح البخاري، ٣٩/٤ (٢٩١٠)؛ ١١٤/٥ (٤١٣٤)؛ وصحيح مسلم، ١٧٨٦/٤ (٨٤٣).

٦ س: فلا.

مقرِّر لِما قبله. وإيثار صيغة أمر الغائب وإسنادُها إلى "المؤمنين" لإيجاب التوكّل على المخاطَبين بالطريق البرهانيّ، وللإيذان بأنّ ما وُصِفوا به عند الخطاب مِن وصف الإيمان داعٍ إلى ما أُمروا به مِن التوكّل والتقوى، وازعٌ عن الإخلال بهما. وإظهار الاسم الجليل في موقِع الإضمار لتعليل الحُكم وتقويةِ استقلال الجملة التذييليّة.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مستأنَف مشتمِلٌ على ذِكر بعض ما صَدر عن بني إسرائيلَ مِن الخيانة / ونقضِ الميثاق وما أدّى إليه[1] ذلك مِن التَّبِعات، [١١٠و] مَسوقٌ لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى ومراعاةِ حقّ الميثاق الذي واثَقَهم به وتحذيرِهم مِن نقضه، أو لتقرير ما ذُكر مِن الهَمّ بالبَطش وتحقيقِه، على تقدير كون ذلك مِن بني قُرَيظةَ حسبما مرّ مِن الرواية،[2] ببيان أنّ الغدر والخيانة عادةٌ لهم قديمةٌ تَوارثوها مِن أسلافهم. وإظهار الاسم الجليل لتربية المَهابة وتفخيمِ الميثاق وتهويلِ الخَطْب في نقضه، مع ما فيه مِن رعاية حقّ الاستئناف المستدعي للانقطاع عمّا قبله.

والالتفات في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ للجَري على سنن الكِبرياء، أو لأنّ البعث كان بواسطة موسى عليه السلام كما سيأتي. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر. و"النقيب" فَعِيلٌ بمعنى فاعل، مشتقٌّ مِن "النَّقْب"، وهو التفتيش، ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [ق، ٥٠/٣٦]، سُمِّيَ بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم وأسرارِهم. قال الزجّاج: «وأصلُه مِن "النَّقْب"،

---

[1] أي: مشتمِلٌ على ذكر ما أدّى إليه...

[2] في الآية السابقة.

وهو الثُّقْب الواسع».[١]

رُوي أنّ بني إسرائيلَ لَمّا استقَرّوا بمِصرَ بعد مَهلِك فرعونَ أَمَرَهم الله عزّ وجلّ بالمَسير إلى أَرِيحا أرضِ الشام -وكان يسكُنها الجبابرةُ الكَنعانِيّون- وقال لهم: «إنّي كتبتُها لكم دارًا وقرارًا، فاخرُجوا إليها وجاهِدوا مَن فيها، وإنّي ناصِرُكم»، وأُمِر موسى عليه السلام أن يأخُذَ مِن كلّ سِبط نقيبًا أمينًا يكون كفيلًا على قومه بالوفاء بما أُمروا به تَوثِقةً عليهم، فاختار النُّقَباءَ وأخذ الميثاق على بني إسرائيلَ، وتكفَّل إليهم النُّقَباء، وسار بهم، فلَمّا دنا مِن أرض كَنعانَ بعَثَ النُّقَباءَ يتجسّسون، فرأَوْا أجرامًا عظيمةً وقوّةً وشَوكةً، فهابوا، فرجعوا، وحدَّثوا قومَهم بما رأَوْا، وقد نهاهم موسى عن ذلك، فنكثوا الميثاقَ / إلّا كالِبَ بنَ يوفنّا نقيبَ سِبط يَهُوذَا، ويُوشَعَ بنَ نونٍ نقيبَ سِبط أفرايِيمَ بن يوسفَ الصِّدّيقِ عليه السلام.[٢] [١١٠ظ]

قيل:[٣] لَمّا توجّه النُّقَباء إلى أرضهم للتجسّس لَقِيَهم عُوجُ بنُ عنق -وكان طُوله ثلاثةَ آلافٍ وثلاثَمائةٍ وثلاثةَ وثلاثين ذِراعًا، وقد عاش ثلاثةَ آلافِ سنةٍ- وكان على رأسه حُزمةُ حَطَب، فأخذهم وجعلهم في الحُزمة، وانطلق بهم إلى امرأته، وقال: «انظُرِي إلى هؤلاء الذين يزعُمون أنّهم يريدون قِتالنا»، فطرحهم بين يدَيها، وقال: «أَلَا أطحَنُهم برِجلي؟»، فقالت: «لا؛ بل خَلِّ عنهم حتّى يُخبِروا قومَهم بما رأَوْا»، ففعل، فجعلوا يتعرّفون أحوالَهم، وكان لا يحمِل عنقودَ عِنَبِهم إلّا خمسةُ رجالٍ أو أربعةٌ، فلَمّا خرج النُّقَباء قال بعضُهم لبعض: «إن أخبَرْتم بني إسرائيلَ بخبر القوم ارتَدُّوا عن نبيّ الله، ولكن اكتُموه

---

[١] لم نقف عليه بهذه الألفاظ في مطبوع معاني القرآن للزجّاج، ٢/١٥٧-١٥٩. وإنّما قال بعدما ذكر بعض معاني "النقيب": «وهذا الباب كلّه يجمعه التأثيرُ الذي له عُمق ودخول، فمِن ذلك نقبتُ الحائطَ، أي: بلغتُ في الثَّقْب آخِرَه، ومِن ذلك النُّقْبة مِن الجَرَب؛ لأنّه داءٌ شديدُ الدخول... والنَّقْبُ والنُّقْبُ: الطريق في الجبل، وإنّما قيل "نَقيب" لأنّه يعلم دخيلةَ أمر القوم ويعرف مناقِبَهم، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم». وهو بهذه الألفاظ في اللباب لابن عادل، ٧/٢٤٧.

[٢] هو بهذه الألفاظ في الكشّاف للزمخشري، ١/٦١٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٨-١١٩. وهو مفصّلًا في جامع البيان للطبري، ٨/٢٣٨-٢٤١.

[٣] وفي هامش م: قاله أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره. | الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٦.

إلّا عن موسى وهارونَ عليهما السلام، فيكونان هما يَرَيانِ رأيَهما»»، فأخذ بعضُهم على بعضٍ الميثاقَ، ثمّ انصرفوا إلى موسى عليه السلام وكان معهم حَبّةٌ مِن عِنَبِهم وِقْرَ[١] رجلٍ، فنكثوا عهدَهم، وجعل كلٌّ منهم يَنهى سِبطه عن قتالهم، ويُخبرهم بما رأى إلّا كالِبًا ويُوشَعَ، وكان مُعسكَرُ موسى فَرْسَخًا في فرسخ، فجاء عُوج حتّى نظر إليهم، ثمّ رجع إلى الجبل، فقوَّر[٢] منه صخرةً عظيمةً على قدر العَسكَر، ثمّ حملها على رأسه ليُطبِقَها عليهم، فبعث الله الهُدهُدَ، فقوَّر مِن الصخرة وَسَطَها المُحاذِيَ لرأسه، فانتقبتْ، فوقعتْ في عُنُق عُوج، وطَوَّقَتْه، فصَرَعَتْه، وأقبل موسى عليه السلام، وطولُه عشرةُ أذرُعٍ، وكذا طولُ الغصا، فترامى في السماء عشرةَ أذرُعٍ، فما أصاب العصا إلّا كَعْبَه وهو مصروع، فقتله. قالوا: فأقبلت جماعةٌ ومعهم الخناجر حتّى حَزُّوا رأسَه.[٣]

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ أي: لبَني إسرائيلَ فقط؛ إذ هم المحتاجون إلى ما ذُكر مِن الترغيب والترهيب كما يُنبِئ عنه الالتفاتُ، مع ما فيه مِن تربية المَهابة وتأكيدِ ما يتضمّنه الكلام مِن الوعد. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالعلم والقدرة والنُّصرة، لا بالنُّصرة فقط. فإنّ تنبيهَهم على علمه تعالى بكلّ ما يأتون وما يَذَرون / وعلى [١١١و] كونهم تحت قدرته ومَلَكوته ممّا يَحمِلهم على الجدّ في الامتثال بما أُمروا به والانتهاءِ عمّا نُهُوا عنه، كأنّه قيل: إنّي معكم أسمَعُ كلامكم، وأرى أعمالكم، وأعلم ضمائركم، فأُجازيكم بذلك.

هذا، وقد قيل: المراد بـ"الميثاق" هو الميثاق بالإيمان والتوحيد، وبـ"النُّقَباء" ملوكُ بني إسرائيلَ الذين ينقُبون أحوالَهم، ويَلُونَ أمورَهم بالأمر والنهي وإقامةِ العدل. وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ أي: بجميعهم.

---

[١] الوِقر: الثِّقَل يُحمَل على ظهرٍ أو على رأسٍ. تهذيب اللغة للأزهري، ٢١٥/٩ «باب القاف والراء».

[٢] قوَّره واقتَوَرَه واقتاره، كلّه بمعنى: قطعه مدوَّرًا. وكلُّ شيء قطعتَ مِن وَسَطه خَرقًا مستديرًا فقد قوَّرتَه. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٠٥/٥ «باب القاف والراء»؛ الصحاح للجوهري، «قور».

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦/٤-٣٧.

و"اللام" موطِّئةٌ للقَسم المحذوفِ. وتأخير الإيمان عن إقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة -مع كونهما مِن الفروع المترتِّبة عليه- لِما أنّهم كانوا معترِفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرُّسُل عليهم السلام، ولمراعاة المقارَنة بينه وبين قوله تعالى: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: نصرتموهم وقوَّيتموهم. وأصله "الذَّبّ"، وقيل: التعظيمُ والتوقيرُ والثناءُ بخير. وقُرِئ: "عَزَرْتُمُوهُمْ"[1] بالتخفيف.

﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ﴾ بالإنفاق في سبيل الخير، أو بالتصدّق بالصدقات المَندُوبة. وقوله عزّ وعَلَا: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ إمّا مصدرٌ مؤكِّدٌ واردٌ على غير صيغة الصَّدْر،[2] كما في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣٧/٣]، أو مفعولٌ ثانٍ لـ﴿أَقْرَضْتُمْ﴾ على أنّه اسم للمال المُقرَض.[3]

وقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ جوابٌ للقَسم المدلولِ عليه بـ"اللام"، سادٌّ مَسدَّ جواب الشرط. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ عطفٌ على ما قبله، داخلٌ معه في حُكم الجواب، متأخِّرٌ عنه في الحصول أيضًا، ضرورةَ تقدُّم التخلية على التحلية.

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ أي: برُسُلي أو بشيء ممّا عُدِّد في حَيّز الشرط. و"الفاء" لترتيب بيان حُكم مَن كفر على بيان حُكم مَن آمن تقويةً للترغيب بالترهيب. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الشرطِ المؤكَّدِ المُعلَّقِ به الوعدُ العظيمُ الموجِبُ للإيمان قطعًا ﴿مِنكُمْ﴾ متعلِّقٌ بمضمَرٍ وقع حالًا مِن فاعل ﴿كَفَرَ﴾.

ولعلّ تغييرَ السَّبك -حيث لم يُقَلْ: "وإن كفرتم" عطفًا على الشرطيّة السابقة- لإخراج كفر الكلّ عن حَيّز الاحتمال وإسقاطِ مَن كفر عن رتبة الخطاب. وليس المرادُ إحداثَ الكفر بعد الإيمان؛ بل ما يعُمّ الاستمرارَ عليه أيضًا، كأنّه قيل: فمَن اتّصَفَ بالكفر بعد ذلك؛ خلا أنّه قُصِد بإيراد ما يدلّ على الحدوث بيانُ / تَرقِّيهم في مراتب الكفر؛ فإنّ الاتّصاف بشيء بعد ورود [١١١ظ]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري. المحتسَب لابن جنّي، ٢٠٨/١

[2] وهي: الإقراض. | كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: المصدر.

[3] م ط س - ثانٍ لأقرضتم على أنه اسم للمال المُقْرَض ["صح" في هامش م س].

ما يوجِب الإقلاعَ عنه، وإن كان استمرارًا عليه، لكنّه بحسَب العُنوان فعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وَسَطَ الطريق الواضح ضلالًا بيّنًا، وأخطأه خَطأً فاحشًا، لا عُذرَ معه أصلًا، بخلاف مَن كفر قبل ذلك؛ إذ ربّما يُمكِن أن يكون له شُبهةٌ ويُتوهَّمَ له مَعذِرةٌ.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ "الباء" سببيّة، و﴿مَا﴾ مزيدة لتوكيد الكلام وتمكينه في النفس، أي: بسبب نقضِهم ميثاقَهم المؤكَّدَ -لا بشيء آخَرَ استقلالًا أو انضمامًا- ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم وأبعدناهم[١] مِن رحمتنا، أو: مسخناهم[٢] قِرَدَةً وخنازيرَ، أو: أذلَلْناهم[٣] بضرب الجِزية عليهم.

وتخصيص البيان بما ذُكر -مع أنّ حقَّه أن يُبيَّن بعد بيان تحقّق نفس اللعن والنقض، بأنْ يُقال مَثلًا: "فنقضوا ميثاقَهم فلَعنّاهم"، ضرورةَ تقدّمِ هَليّةِ الشيءِ البسيطةِ على هَليّته المركَّبة- للإيذان بأنّ تحقّقهما أمرٌ جَلِيٌّ غنيٌّ عن البيان، وإنّما المحتاجُ إلى ذلك ما بينهما مِن السببيّة والمسبَّبيّة.

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ بحيث لا تتأثّرُ عن الآيات والنُّذُر. وقيل: أملَيْنا لهم ولم نعاجِلْهم بالعقوبة حتّى قَسَتْ، أو: خذَلْناهم ومنعناهم الألطافَ حتّى صارت كذلك. وقُرئ: "قَسِيَّةً"،[٤] وهي إمّا مبالغةُ "قاسية"، وإمّا بمعنى "رديئة"،

---

١ وفي هامش م: عطاء. | انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ١٦٧/٢؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٨/٤.

٢ وفي هامش م: حسن، مقاتل. | انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٤٦١/١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٨/٤.

٣ وفي هامش م: ابن عبّاس. | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٨/٤؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣٠١/٧.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٥٤/٢.

مِن قولهم: "دِرهَمٌ قَسِيٌّ"، أي: رَديء، إذا كان مغشوشًا، له يَبَسٌ وخُشونةٌ. وقُرئ بكسر القاف[1] إتباعًا لها بالسين.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ استئناف لبيان مرتبة قَساوة قلوبهم؛ فإنّه لا مرتبةَ أعظَمُ ممّا يصحَبُ الاجتراءَ على تغيير كلام الله عزّ وجلّ والافتراءَ عليه. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرارِ. وقيل: حال مِن مفعول ﴿لَعَنَّـٰهُمْ﴾.

﴿وَنَسُواْ حَظًّا﴾ أي: تركوا نصيبًا وافرًا ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ مِن التوراة أو مِن اتّباع محمّد صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: حرّفوا التوراةَ وزلّتْ أشياءُ منها عن / حِفظهم، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «قد يَنسى المرءُ بعضَ العلم بالمعصية»، وتلا هذه الآيةَ.[2] [١١٢و]

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: خيانةٍ، على أنّها مصدر، كـ"لاغية" و"كاذبة"، أو: فَعْلةٍ خائنةٍ، أي: ذاتِ خيانةٍ، أو: طائفةٍ خائنةٍ، أو: شخصٍ خائنةٍ، على أنّ "التاء" للمبالغة، أو: نفسٍ خائنةٍ. و﴿مِّنْهُمْ﴾ متعلّق بمحذوف وقع صفةً لها؛ خلا أنّ ﴿مِنْ﴾ على الوجهين الأوّلَين ابتدائيّةٌ، أي: على خيانةٍ أو على فَعْلةٍ خائنةٍ كائنةٍ منهم صادرةٍ عنهم، وعلى الوجوه الباقية تبعيضيّةٌ، والمعنى: أنّ الغدر والخيانة عادةٌ مستمرّة لهم ولأسلافهم بحيث لا يكادون يترُكونها أو يكتُمونها، فلا تَزال ترى ذلك منهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ استثناء مِن الضمير المجرور في ﴿مِّنْهُمْ﴾ على الوجوه كلِّها، وقيل: مِن ﴿خَآئِنَةٍ﴾ على الوجوه الثلاثة الأخيرة، والمراد بهم الذين آمنوا منهم كعَبد الله بنِ سَلَام وأضرابِه. وقيل: مِن ﴿خَآئِنَةٍ﴾[3] على الوجه الثاني، فالمراد بـ"القليل" الفعلُ القليلُ، و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة كما مرّ، أي: إلّا فعلًا قليلًا كائنًا منهم.

---

[1] أي: "قِسِيَة"، وقراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٢.

[2] الكشّاف للزمخشري، ١/٦١٥. ونحوه في جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرّ، ١/٦٩١ (١٢٢١). وهو بدون "وتلا هذه الآيةَ" في سنن الدارمي، ١/٣٧٩ (٣٨٨)؛ وحلية الأولياء لأبي نُعيم، ١/١٣١.

[3] أي: استثناءٌ مِن ﴿خَآئِنَةٍ﴾.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ﴾ أي: إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجِزيةَ. وقيل: مطلَقٌ، نُسِخ بآية السيف.[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليلٌ للأمر، وحثٌّ على الامتثال به، وتنبيهٌ على أنّ العفو على الإطلاق مِن باب الإحسان.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ بيان لقبائح النصارى وجناياتِهم إثرَ بيان قبائح اليهود وجناياتِهم. و﴿مِنۡ﴾ متعلِّقة بـ﴿أَخَذۡنَا﴾؛ إذ التقدير: وأخذنا مِن الذين قالوا "إنّا نصارى" ميثاقَهم. وتقديم الجارّ والمجرور للاهتمام به، ولأنّ ذِكر حال إحدى الطائفتين ممّا يوقِع في ذهن السامع أنّ حال الأخرى ماذا؟ فكأنه قيل: ومِن الطائفة الأخرى أيضًا أخذنا ميثاقَهم.

[١١٢ظ] وقيل: هي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع خبرًا لمبتدأ محذوف / قامت صفتُه أو صلتُه[٢] مَقامَه، أي: ومنهم[٣] قومٌ أخذنا ميثاقهم، أو: مَن أخذنا ميثاقهم،[٤] وضميرُ ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾ راجعٌ إلى الموصوف المقدَّر. وأمّا في الوجه الأوّل فراجعٌ إلى الموصول، وقيل: راجعٌ إلى بني إسرائيلَ، أي: أخذنا مِن هؤلاء ميثاقَ أولئك، أي: مِثل ميثاقهم مِن الإيمان بالله والرُّسُل وبما يتفرّع على ذلك مِن أفعال الخير.

وإنّما نُسِب تسميتُهم "نصارى" إلى أنفُسِهم -دون أن يُقال: "ومِن النصارى"- إيذانًا بأنّهم في قولهم: "نحن أنصار الله" بمَعزِل مِن الصدق، وإنّما هو تقوُّلٌ محضٌ منهم، وليسوا مِن نُصرة الله تعالى في شيء، أو إظهارًا لكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم؛ فإنّ ادّعاءهم لنُصرته تعالى يستدعي ثباتَهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه.

---

[١] وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة، ٩/٥].

[٢] م ط س - أو صلته ["صح" في هامش م س].

[٣] وفي هامش م: أي: مِن الذين قالوا: "إنّا نصارى". «منه».

[٤] وفي هامش م: فإنّ حذف الموصول وإقامةَ صِلته مُقامَه ممّا يُجيزه الكوفيّون. «منه».

﴿فَنَسُوا﴾ عقيبَ أخذِ الميثاق مِن غير تلَعثُمٍ[١] ﴿حَظًّا﴾ وافرًا ﴿مِمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ في تضاعيف الميثاق مِن الإيمان بالله تعالى وغير ذلك حسبما مرَّ آنفًا. وقيل: هو ما كُتب عليهم في الإنجيل مِن أن يؤمنوا بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فتركوه ونبذوه وراءَ ظهورهم، واتّبعوا أهواءهم، فاختلفوا وتفرّقوا نَسطُوريّةً ويعقوبيّةً ومَلكانيّةً أنصارًا للشيطان.

﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾ أي: ألزَمْنا وألصَقْنا. مِن "غَرِيَ بالشيء" إذا لزِمه ولصِق به، و"أغراه غيرُه"، ومنه: "الغِراء". وقوله تعالى: ﴿بَيۡنَهُمُ﴾ إمّا ظرفٌ لـ﴿أَغۡرَيۡنَا﴾، أو متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن مفعوله، أي: أغرينا ﴿ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ كائنةً بينهم. ولا سبيلَ إلى جعله ظرفًا لهما؛ لأنّ المصدر لا يَعمل فيما قبله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إمّا غايةٌ للإغراء أو للعداوة والبغضاء، أي: يتعادَوْن ويتباغضون إلى يوم القيامة حسبما يقتضيه أهواؤهم المختلِفةُ وآراؤُهم الزائغةُ المؤدِّيةُ إلى التفرّق إلى الفِرَقِ الثلاثِ،[٢] فضمير ﴿بَيۡنَهُم﴾ لهم خاصّةً، وقيل: لهم ولليهود، أي: أغرينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى.

﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ / يَصۡنَعُونَ﴾ وعيد شديد بالجزاء والعذاب، [١١٣و] كقول الرجل لِمَن يتوعّده: "سأُخبِرك بما فعلتَ"، أي: يُجازيهم بما عمِلوه على الاستمرار مِن نقض الميثاق ونسيانِ الحظّ الوافر ممّا ذُكّروا به. و﴿سَوۡفَ﴾ لتأكيد الوعيد. والالتفات إلى ذِكر الاسم الجليل لتربية المَهابة وإدخالِ الروعة لتشديد الوعيد. والتعبيرُ عن العمل بـ"الصُّنع" للإيذان برسوخهم في ذلك، وعن المُجازاة بـ"التنبئة" للتنبيه على أنّهم لا يعلمون حقيقةَ ما يعملونه مِن الأعمال السيّئة واستتباعَها للعذاب؛ فيكونُ ترتيبُ العذاب عليها في إفادة العلم بحقيقة حالها بمنزلة الإخبار بها.[٣]

---

١ تَلَعْثَمَ الرَّجل في الأمر، إذا تمكّث فيه وتأنّى. الصحاح للجوهري، «لعثم».

٢ وهي: نَسطُوريّة ويعقوبيّة ومَلكانيّة مِن النصارى.

٣ وفي هامش م: وسيجيء تفصيلٌ له في سورة الأنعام وسورة يونس. «منه». | انظر: الأنعام، ١٥٩/٦؛ يونس، ٢٣/١٠.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ التفات إلى خطاب الفريقين على أنّ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ جنسٌ شاملٌ **للتوراة والإنجيل**، إثرَ بيان أحوالهما مِن الخيانة وغيرها مِن فنون القبائح، ودعوةٌ لهم إلى الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم **والقرآنِ**. وإيرادهم بعُنوان أهليّة الكتاب لانطواء الكلام المصدَّر به على ما يتعلّق بالكتاب وللمبالغة في التشنيع؛ فإنّ أهليّة الكتاب مِن موجِبات مُراعاته والعملِ بمقتضاه وبيانِ ما فيه مِن الأحكام. وقد فعلوا مِن الكَتم والتحريفِ ما فعلوا وهم يعلمون.

﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ الإضافة للتشريف والإيذانِ بوجوب اتّباعه. وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ حال مِن ﴿رَسُولُنَا﴾. وإيثار الجملة الفعليّة على غيرها للدلالة على تجدّد البيان، أي: قد جاءكم رسولنا حالَ كونه مبيّنًا لكم على التدريج حسبما يقتضيه المصلحة.

﴿كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: **التوراةِ والإنجيلِ**، كبِعثة محمّد عليه السلام وآيةِ الرَّجم في **التوراة** وبشارةِ عيسى أحمدَ عليهما السلام في **الإنجيل**. وتأخير ﴿كَثِيرٗا﴾ مِن الجارّ والمجرور لِمَا مرّ مرارًا مِن إظهار العناية بالمقدَّم لِما فيه مِن تعجيل المَسرَّة، والتشويقِ إلى المؤخَّر لِما أنّ / ما حقُّه [١١٣ظ] التقديمُ إذا أُخّر -لاسيّما مع الإشعار بكونه مِن منافع المخاطَب- تَبقى النفسُ مترقِّبةً إلى وروده، فيتمكّنُ عندها إذا ورد فضلَ تمكُّنٍ، ولأنّ في المؤخَّر ضربَ تفصيلٍ ربّما يُخِلّ تقديمُه بتجاذُب أطراف النظم الكريم.[١]

فإنّ ﴿مِّمَّا﴾ متعلِّق بمحذوف وقع صفةً لـ﴿كَثِيرٗا﴾، و﴿مَا﴾ موصولة اسميّة، وما بعدها صلتُها، والعائدُ إليها محذوف، و﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ متعلِّق بمحذوف هو حال مِن العائد المحذوف. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبَل للدلالة على استمرارهم على الكتم والإخفاء، أي: يبيّن لكم كثيرًا مِن الذي تُخفونه

---

١ س – الكريم.

على الاستمرار حالَ كونه مِن الكتاب الذي أنتم أهلُه والمتمسّكون به، ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: ولا يُظهِر كثيرًا ممّا تُخفونه إذا لم تَدْعُ إليه داعيةٌ دينيّةٌ، صيانةً لكم عن زيادة الافتضاح كما يُفصِح عنه التعبيرُ عن عدم الإظهار بالعفو. وفيه حثٌّ لهم على عدم الإخفاء ترغيبًا وترهيبًا. والجملة معطوفة على الجملة الحاليّة، داخلةٌ في حكمها. وقيل: يعفو عن كثيرٍ منكم ولا يؤاخذه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ جملة مستأنَفة مَسُوقة لبيان أنّ فائدة مَجيء الرسول ليست منحصِرةً فيما ذُكر مِن بيان ما كانوا يُخفونه؛ بل له منافعُ لا تُحصَى. و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَ﴾، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية مجازًا، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿نُورٌ﴾. وأيًّا ما كان، فهو تصريح بما يُشعِر به إضافةُ الرسول مِن مَجيئه مِن جَنابه عزّ وجلّ.

وتقديم الجارّ والمجرور على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون المَجيء مِن جهته العالية، والتشويقِ إلى الجائي، ولأنّ فيه نوعَ طُولٍ يُخِلّ تقديمُه بتجاوُب أطراف النظم الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود، ١٢٠/١١].

وتنوين ﴿نُورٌ﴾ للتفخيم، والمراد به وبقوله: ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ القرآنُ، لِما فيه مِن كشف ظُلُمات الشرك والشكِّ وإبانةِ ما خَفِيَ على الناس مِن الحقّ أو الإعجازِ[1] البيّنِ. والعطف لتنزيل المغايَرة / بالعُنوان منزلةَ المغايَرة بالذات. [١١٤و] وقيل: المراد بالأوّل هو الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبالثاني القرآنُ.

﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾ توحيد الضمير المجرور لاتّحاد المَرجِع بالذات، أو لكونهما في حُكم الواحد، أو أُريدَ: يهدي بما ذُكر. وتقديم الجارّ والمجرور للاهتمام. وإظهار الجلالة لإظهار كمال الاعتناء بأمر الهداية. ومَحلّ الجملة الرفعُ

[1] وفي هامش م: عطفٌ على "كشف". «منه».

على أنّها صفة ثانية لـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾،[١] أو النصبُ على الحاليّة منه لتخصُّصه بالصفة. ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: رِضاه بالإيمان به. و﴿مَنْ﴾ موصولة أو موصوفة.

﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: طُرُقَ السلامة مِن العذاب والنجاةِ مِن العقاب، أو: سبيلَ الله تعالى، وهو شريعتُه التي شرعها للناس. قيل: هو مفعول ثانٍ لـ﴿يَهْدِى﴾، والحقُّ أنّ انتصابه بنزع الخافض على طريقة قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف، ١٥٥/٧]، وإنّما يُعدَّى إلى الثاني بـ"إلى" أو بـ"اللام" كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء، ٩/١٧].

﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ الضمير لـ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار المعنى، كما أنّ الإفراد في ﴿ٱتَّبَعَ﴾ باعتبار اللفظ. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: ظُلُماتِ فنون الكفر والضلال ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الإيمان ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتيسيره أو بإرادته، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو أقرَبُ إلى الله تعالى[٢] ومُؤَدٍّ إليه لا محالةَ. وهذه الهداية عينُ الهداية إلى سُبُل السلام، وإنّما عُطفت عليها تنزيلًا للتغايُر الوَصفيّ منزلةَ التغايُر الذاتيّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا[٣] جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا[٤] وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ٥٨/١١].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: لا غيرُ، كما يُقال: "الكَرَم هو التقوى". وهُم اليعقوبيّةُ القائلون بأنّه تعالى قد يحُلُّ في بَدَن إنسان معيَّن أو في روحه. وقيل: لم يصرِّح به أحدٌ منهم؛ لكن حيث اعتقدوا اتّصافَه بصِفات الله الخاصّةِ، وقد اعترفوا بأنّ الله تعالى موجود، فلزِمهم القولُ بأنّه المسيحُ لا غيرُ. وقيل: لَمّا زعموا أنّ فيه لاهُوتًا وقالوا: / "لا إلٰه إلّا واحدٌ"، [١١٤ظ]

---

١ في الآية السابقة.
٢ س - تعالى.
٣ م ط س: فلمّا.
٤ م ط س: شُعَيْبًا.

لزِمهم أن يكون هو المسيحَ، فنُسِب إليهم لازمُ قولِهم توضيحًا لجهلهم وتفضيحًا لمُعتقَدهم.

﴿قُلْ﴾ أي: تبكيتًا لهم وإظهارًا لبُطلان قولهم الفاسد وإلقامًا لهم الحَجَرَ.[١] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فصيحةٌ، و﴿مَنْ﴾ استفهاميّةٌ للإنكار والتوبيخ. والمُلك: الضبط والحِفظ التامّ عن حزمٍ، و﴿مِنْ﴾ متعلِّقةٌ به على حذف المضاف، أي: إن كان الأمر كما تزعُمون، فمَن يمنع مِن قدرته تعالى وإرادتِه شيئًا؟ وحقيقتُه: فمَن يستطيع أن يُمسِك شيئًا منهما ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

ومِن حقّ مَن يكون إلٰهًا ألّا يتعلّقَ به ولا بشأنٍ مِن شئونه -بل بشيءٍ مِن الموجودات- قدرةُ غيرِه بوجهٍ مِن الوجوه، فضلًا عن أن يعجِز عن دفع شيءٍ منها[٢] عند تعلّقها بهلاكه. فلَمّا كان عجزُه بيّنًا لا ريبَ فيه ظهَرَ كونُه بمَعزِلٍ ممّا تقوَّلُوا في حقّه.

والمراد بـ"الإهلاك" الإماتةُ والإعدامُ مطلَقًا، لا بطريق السَّخَط والغضب. وإظهار ﴿ٱلْمَسِيحَ﴾ -على الوجه الذي نَسَبوا إليه الألوهيّةَ- في مقام الإضمار لزيادة التقرير، والتنصيصِ على أنّه مِن تلك الحيثيّة بِعَينها داخلٌ تحت قهره ومَلَكوته تعالى. ونفيُ المالكيّة المذكورة بالاستفهام الإنكاريّ عن كلّ أحد -مع تحقُّق الإلزام والتبكيتِ بنَفيها عن المسيح فقط، بأنْ يُقال: فهل يملِك شيئًا مِن الله إن أراد... إلخ- لتحقيق الحقّ بنَفي الألوهيّة عن كلّ ما عَداه سبحانه وإثباتِ المطلوب في ضِمنه بالطريق البرهانيّ؛ فإنّ انتفاءَ المالكيّةِ المستلزِمَ لاستحالة الألوهيّة متى ظهَرَ بالنسبة إلى الكلّ ظهَرَ بالنسبة إلى المسيح على أبلغ وجه وآكَدِه، فيظهر استحالةُ ألوهيّته قطعًا.

وتعميم إرادة الإهلاك للكلّ -مع حصول ما ذُكر مِن التحقيق بقَصرها عليه بأنْ يُقال: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ﴾- لتهويل الخَطْب

---

١ ألقَمَه الحَجَرَ: يُضرَب للمُجيب بجواب مُسكِت. المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، ١/٣٣٩.

٢ أي: مِن قدرة غيره.

وإظهارِ كمال العجز ببيانِ أنّ الكلّ تحت قهره تعالى ومَلَكوته، لا يقدِر أحدٌ على دفع ما أُريدَ به، فضلًا عن دفع / ما أُريدَ بغيره، وللإيذان بأنّ المسيح أُسْوَةٌ [١١٥و] لسائر المخلوقات في كونه عُرْضةً للهلاك، كما أنّه أُسوة لها فيما ذُكر مِن العجز وعدمِ استحقاق الألوهيّة.

وتخصيص أُمّه بالذِّكر -مع اندراجها في ضِمن مَن في الأرض- لزيادة تأكيد عجز المسيح. ولعلّ نَظْمَها في سلك مَن فُرِضَ إرادةُ إهلاكهم -مع تحقّق هلاكها قبل ذلك- لتأكيد التبكيت وزيادةِ تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أُنموذجًا لحال بقيّةِ مَن فُرِضَ إهلاكه، كأنّه قيل: قل: فمَن يملِك مِن الله شيئًا إن أراد أن يُهلِك المسيح وأمَّه ومَن في الأرض، وقد أَهلك أمَّه؛ فهل مانعَه أحد؟ فكذا حالُ مَن عَداها مِن الموجودِين.

وقوله تعالى:[١] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ -أي: ما بين قُطْرَي العالَمِ الجسمانيّ، لا بين وجه الأرض ومُقعَّر فَلَك القمر فقط، فيتناول ما في السماوات مِن الملائكة وما في أعماق الأرض والبِحار مِن المخلوقات- تنصيصٌ على كون الكلّ تحت قهره تعالى ومَلَكوته إثرَ الإشارة إلى كون البعض -أي: مَن في الأرض- كذلك. أي: له تعالى وحدَه مُلْكُ جميع الموجودات والتصرّفُ المطلَقُ فيها إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتةً، لا لأحد سِواه استقلالًا ولا اشتراكًا؛ فهو تحقيق لاختصاص الألوهيّة به تعالى إثرَ بيان انتفائها عن كلّ ما سِواه.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ جملة مستأنَفة مَسُوقة لبيان بعض أحكام المُلك والألوهيّة على وجه يُزيحُ ما اعتراهم مِن الشُّبهة في أمر المسيح لوِلادته مِن غير أبٍ وخلقِ الطير وإحياءِ الموتى وإبراءِ الأكمَهِ والأبرَصِ، أي: يخلُق ما يشاء مِن أنواع الخَلق والإيجادِ، على أنّ ﴿مَا﴾ نكِرةٌ موصوفةٌ مَحلُّها النصبُ على المصدريّة، لا على المفعوليّة، كأنّه قيل: يَخلُق أيَّ خلقٍ يشاؤه: فتارةً يَخلُق مِن غير أصل كخلق السماوات والأرض، وأخرى مِن أصل كخلق ما بينهما،

---

[١] م - تعالى.

فيُنشِئ مِن أصلٍ ليس مِن جنسه كخلق آدمَ وكثيرٍ مِن الحيوانات، ومِن أصلٍ يُجانِسه إمّا مِن ذَكَر وحدَه كخلق حَوّاءَ، أو أُنثى وحدَها كخلق عيسى عليه السلام،[١] أو منهما كخلق سائر الناس، ويَخلُق بلا توسّطِ شيءٍ مِن المخلوقات كخلق عامّة المخلوقات، وقد يَخلُق بتوسّطِ مخلوقٍ آخَرَ كخلق الطير على يَدِ عيسى عليه السلام معجِزةً له وإحياءِ الموتى وإبراءِ الأكمه والأبرص وغير ذلك؛ فيجب أن يُنسَب كلُّه إليه تعالى، لا إلى مَن أجرى ذلك على يَدِه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله. وإظهار الاسم الجليل للتعليل وتقويةِ استقلال الجملة.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ حكايةٌ لِما صدَرَ عن الفريقين مِن الدعوى الباطلة، وبيانٌ لبُطلانها بعد ذِكر ما صدَرَ عن أحدهما وبيانِ بُطلانه، أي: قالت اليهود: «نحن أشياعُ ابنِه[٢] عُزَيرٍ»، وقالت النصارى: «نحن أشياعُ ابنِه المسيحِ»، كما قيل لأشياع أبي خُبَيبٍ -وهو عبد الله بن الزبير-:[٣] "الخُبَيبيّون"، / وكما يقول أقاربُ الملوك عند المفاخَرة: «نحن الملوك». [١١٥ظ]

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم دعا جماعةً مِن اليهود إلى دين الإسلام، وخوَّفهم بعِقاب الله تعالى، فقالوا: «كيف تُخوِّفُنا به

---

[١] م - عليه السلام.

[٢] س + تعالى.

[٣] هو عبد الله بن الزبير بن العوّام القرشي الأسدي، أبو بكر، وقيل: أبو خُبيب (ت. ٧٣هـ/٦٨٢م). أوّل مولود وُلد في الإسلام بعد الهجرة للمهاجرين، وسمّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "عبد الله"، وكناه "أبا بكر" بجدّه أبي بكر الصدّيق. وكان صوّامًا قوّامًا طويلَ الصلاة عظيمَ الشجاعة. شهد فتح إفريقيّة زمنَ عثمان. وبُويعَ له بالخلافة، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق، وجعل قاعدة مُلكه المدينة. وكانت له مع الأمويّين وقائع هائلة، حتّى سيّروا إليه الحجّاج الثقفي، ونشبت بينهما حروب أتى المؤرّخون على تفصيلها انتهت بمقتل ابن الزبير في مكّة. انظر: الاستيعاب للنمري، ٣/٩٠٥-٩١٠؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٣/٢٤١-٢٤٥.

ونحن أبناء الله وأحِبّاؤُه؟».[1] وقيل: إنّ النصارى يتلُون في الإنجيل أنّ المسيح قال لهم: «إنّي ذاهبٌ إلى أبي وأبيكم».[2] وقيل: أرادوا: «إنّ الله تعالى كالأب لنا في الحُنُوّ والعطف، ونحن كالأبناء له في القُرب والمَنزلة».[3]

وبالجملة أنّهم كانوا يدّعون أنّ لهم فضلًا ومزيّةً عند الله تعالى على سائر الخلق، فرُدَّ عليهم ذلك وقيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ﴿قُلْ﴾ أي: إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي: إن صَحَّ ما زعمتم، فلِأيّ شيءٍ يعذِّبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، وقد اعترفتم بأنّه تعالى سيعذِّبكم في الآخرة بالنار أيّامًا بعدد أيّام عبادتكم العِجلَ، ولو كان الأمر كما زعمتم لَما صدَرَ عنكم ما صدَرَ، ولَما وقع عليكم ما وقع.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ﴾ عطفٌ على مقدَّر ينسحب عليه الكلام، أي: لستم كذلك؛ بل أنتم بشرٌ ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: مِن جنس مَن خلقه الله تعالى، مِن غير مزيّة لكم عليهم. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفِر له مِن أولئك المخلوقِين، وهُم الذين آمنوا به تعالى وبرُسُله، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذِّبه منهم، وهُم الذين كفروا به وبرُسُله مثلَكم.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن الموجودات، لا ينتمي إليه سبحانه شيءٌ منها إلّا بالمُلوكيّة والعبوديّة والمقهوريّة تحت مَلَكوته، يتصرّف فيهم كيف يشاء إيجادًا وإعدامًا، إحياءً وإماتةً، وإثابةً وتعذيبًا؛ فأنّى لهم ادّعاءُ ما زعموا. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآخرة خاصّةً، لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا؛ فيُجازي كلًّا مِن المُحسِن والمُسِيء بما يستدعيه عَمَلُه، / مِن غير صارف يَثنِيه، ولا عاطِف يَلوِيه. [١١٦و]

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٩﴾

---

[1] اللباب لابن عادل، ٢٦٣/٧. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢٦٩/٨.

[2] اللباب لابن عادل، ٢٦٣/٧.

[3] اللباب لابن عادل، ٢٦٣/٧.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ تكريرٌ للخطاب بطريق الالتفات ولطفٌ في الدعوة. ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ حال مِن ﴿رَسُولُنَا﴾، وإيثارُه[١] على "مُبيِّنًا" لِما مرّ فيما سبق. أي: يبيِّن لكم الشرائعَ والأحكامَ الدينيّة المقرونة بالوعد والوعيد. ومِن جملتها ما بُيّن في الآيات السابقة مِن بُطلان أقاوِيلكم الشنعاء، وما سيأتي مِن أخبار الأُمَم السالفة. وإنّما حُذف تعويلًا على ظهور أنّ مَجيء الرُّسُل إنّما هو لبيانها.[٢] أو:[٣] يفعل لكم البيانَ، ويبذُله لكم في كلّ ما تحتاجون فيه إلى البيان مِن أمور الدين.

وأمّا تقديرُ مِثلِ ما سبق في قوله تعالى: ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ [المائدة، ١٥/٥] كما قيل، فمَعَ كونه تكريرًا مِن غير فائدة، يرُدّه قوله عزّ وجلّ: ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ فإنّ فتور الإرسال وانقطاعَ الوحي إنّما يُحْوِج إلى بيان الشرائع والأحكام، لا إلى بيان ما كتموه.

و﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ﴾ متعلّق بـ﴿جَآءَكُمۡ﴾ على الظرفيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَـٰنَ﴾ [البقرة، ١٠٢/٢]، أي: جاءكم على حينِ فتورٍ مِن الإرسال وانقطاعٍ مِن الوحي ومزيدِ احتياجٍ إلى بيان الشرائع والأحكام الدينيّة، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ضمير ﴿يُبَيِّنُ﴾ أو مِن ضمير ﴿لَكُمۡ﴾، أي: يبيِّن لكم ما ذُكر حالَ كونه على فَترة مِن الرُّسُل، أو حالَ كونكم عليها[٤] أَحوَجَ ما كنتم إلى البيان. و﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ متعلّق بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿فَتۡرَةٖ﴾، أي: كائنةٍ مِن الرُّسُل مبتدَأةٍ مِن جِهتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ تعليل لمَجيء الرسول بالبيان على حذف المضاف، أي: كراهةَ أن تقولوا معتذِرين عن تفريطكم في مراعاة أحكام الدين: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾، وقد انطمسَتْ آثارُ الشرائع السابقة، وانقطعت أخبارُها. وزيادة ﴿مِنۢ﴾ في الفاعل للمبالغة في نفي المَجيء. وتنكير ﴿بَشِيرٖ﴾ و﴿نَذِيرٖ﴾ للتقليل.

---

١ أي: إيثار ﴿يُبَيِّنُ﴾.

٢ ط س: لبيانه. | والضمير في المتن راجع إلى "الشرائع والأحكام".

٣ السياق: أي: يبيِّن لكم... أو: يفعل لكم...

٤ أي: على فَترة مِن الرُّسُل.

وهذا كما ترى يَقضي بأنّ المقدَّر أو المَنوِيَّ فيما سبق هو الشرائع والأحكام، لا كيفما كانت؛ بل مشفوعةً بما ذُكر مِن الوعد والوعيد.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ متعلِّق بمحذوف يُنبِئ عنه "الفاءُ" الفصيحة، وتُبيِّن أنّه معلِّل به. وتنوين ﴿بَشِيرٌ﴾ و﴿نَذِيرٌ﴾ للتفخيم. أي: لا تعتذِروا بذلك؛ / فقد جاءكم بشيرٌ أيُّ بشيرٍ، ونذيرٌ أيُّ نذيرٍ. [١١٦ظ]

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدِر على الإرسال تَتْرى،[١] كما فعله بين موسى وعيسى عليهما السلام، حيث كان بينهما ألفٌ وسبعُمائةِ سنةٍ وألفُ نبيٍّ، وعلى الإرسال بعد الفترة، كما فعله بين عيسى ومحمّد عليهما السلام، حيث كان بينهما ستُّمائةِ سنةٍ،[٢] أو خمسُمائةٍ وتسعٌ وستّون سنةً، أو خمسُمائةٍ وستٌّ وأربعون سنةً،[٣] وأربعةُ أنبياءَ -على ما روى الكلبي- ثلاثةٌ مِن بني إسرائيلَ، وواحدٌ مِن العرب: خالد بن سِنان العَبْسي.[٤]

وقيل: لم يكن بعد عيسى إلّا رسول الله عليهما السلام، وهو الأنسبُ بما في تنوين ﴿فَتْرَةٍ﴾ مِن التفخيم اللائقِ بمقام الامتنان عليهم، بأنّ الرسول قد بُعِث إليهم عند كمال حاجتهم إليه بسبب مُضِيّ دهرٍ طويلٍ بعد انقطاع الوحي،

---

[١] تَتْرى: فيها لغتانِ: تُنوّن، ولا تُنوّن؛ فمَن ترك صرفَها في المعرفة جعل ألِفَها للتأنيث، وهو أجوَدُ، وأصلُها: "وَتْرَى" مِن "الوِتْر"، وهو الفَرد، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون، ٤٤/٢٣]، أي: واحدًا بعد واحد، ومَن نَوَّنَها جعل ألِفَها مُلحَقةً. مختار الصحاح للرازي، «وتر».

[٢] وفي هامش م: كما قاله أبو عثمان النهدي. «منه». | ط س - سنة. | اللباب لابن عادل، ٢٦٥/٧. | هو عبد الرحمن بن مل بن عمرو بن عَديّ، أبو عثمان النهدي (ت. ١٠٠هـ/٧١٨-٧١٩م). مِن كبار التابعين، محدّث. أسلم على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأدّى إليه صدقاتِ ماله، ولم يره. وقدم المدينة أيّام عمر بن الخطّاب، وغزا على عهده غزواتٍ، وشهد فتح القادسيّة وجلولاء وتُستر ونهاوَنْد وأذربيجان ومِهران بالعراق، وشهد بالشام اليرموك. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٩٧/٧-٩٨؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٤٩٢/٣-٤٩٤.

[٣] وفي هامش م: على ما قاله معمر والكلبي. «منه». | لم نقف على هذا الرقم مِن قولهما. وهو "خمسمائة وأربعون سنةً" في **جامع البيان** للطبري، ٢٧٥/٨؛ **والكشف والبيان** للثعلبي، ٤٠/٤؛ **واللباب** لابن عادل، ٢٦٥/٧.

[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ٦١٩/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٦٦/٧. | هو خالد بن سنان بن غيث بن مُرَيطة بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قُطَيعة بن عَبْس العَبْسي. حكيم، مِن أنبياء العرب في الجاهليّة. كان في أرض بني عَبْس يدعو الناس إلى دين عيسى. انظر: **أسد الغابة** لابن الأثير، ١٢٦/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٩٦/٢.

لِيَهَشُّوا إليه[1] ويعُدّوه أعظَمَ نعمةٍ مِن الله تعالى[2] وفتحَ بابٍ إلى الرحمة، وتلزَمَهم الحُجّةُ، فلا يَعتلّوا غدًا بأنّه لم يُرسَل إليهم مَن يُنبّهُهم عن غفلتهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان ما فعلت بنو إسرائيلَ بعد أخذ الميثاق منهم، وتفصيلِ كيفيّة نقضهم له. وتعلُّقُه بما قبله مِن حيث إنّ ما ذُكر فيه مِن الأمور التي وُصِف النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم ببيانها،[3] ومِن حيث اشتمالُه على انتفاء فترة الرُّسُل فيما بينهم.

و﴿إِذْ﴾ نصب على أنّه مفعول لفعل مقدَّر خُوطِبَ به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق تلوين الخطاب. وصَرفُه عن أهل الكتاب ليعدّدَ عليهم ما صدَرَ عن بعضهم مِن الجنايات. أي: واذكُرْ لهم وقتَ قول موسى لقومه ناصحًا لهم ومستميلًا لهم بإضافتهم إليه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

وتوجيه الأمر بالذِّكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مِن الحوادث -مع أنّها المقصودة بالذات- للمبالغة في إيجاب ذِكرها، لِما أنّ إيجاب ذِكر الوقت / إيجابٌ لذِكر ما وقع فيه بالطريق البرهانيّ، ولأنّ الوقت مشتمِل على ما وقع فيه تفصيلًا، فإذا استُحضِر كان ما وقع فيه حاضرًا بتفاصيله، كأنّه مشاهَدٌ عِيانًا. [١١٧و]

و﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلِّق بنفس "النعمة" إذا جُعلت مصدرًا، وبمحذوف وقع حالًا منها إذا جُعلت اسمًا، أي: اذكروا إنعامه عليكم، أو: اذكروا نعمته كائنةً عليكم. وكذا ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾، أي: اذكروا إنعامه تعالى عليكم في وقت جعله، أو: اذكروا نعمته تعالى كائنةً عليكم في وقت جعله فيما بينكم مِن أقربائكم أنبياءَ ذَوِي عددٍ كثيرٍ وأُولي شأنٍ خطيرٍ، حيث لم يُبعَث مِن أمّةٍ مِن الأُمَم ما بُعِث مِن بني إسرائيلَ مِن الأنبياء.

---

[1] الهَشّ: جَذْبُك غُصنَ الشجرة إليك، وكذلك إنْ نثَرتَ ورقها بعَصا. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٤٣/٣-٢٤٤ «باب الهاء مع الشين».

[2] م - تعالى.

[3] وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا﴾ الآية، [المائدة، ١٥/٥].

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ عطفٌ على ﴿جَعَلَ فِيكُمْ﴾، داخلٌ في حكمه، أي: جَعل فيكم -أو منكم- ملوكًا كثيرةً؛ فإنّه قد تكاثَرَ فيهم الملوكُ تكاثُرَ الأنبياء. وإنّما حُذف الظرف تعويلًا على ظهور الأمر، أو جُعِلَ الكلُّ في مقام الامتنان عليهم ملوكًا، لِما أنّ أقارِبَ الملوك يقولون عند المفاخرة: "نحن الملوكُ". وإنّما لم يُسلَك ذلك المَسلَك فيما قبله لِما أنّ منصِب النبوّة مِن عِظَم الخطر وعِزّةِ المطلَب وصعوبةِ المنال ليس بحيث يَليق أن يُنسَب إليه[1] -ولو مجازًا- مَن ليس ممّن اصطفاه الله له.

وقيل: كانوا مَملوكِين في أيدي القِبْط، فأنقذهم الله، فسمَّى إنقاذَهم "مُلكًا". وقيل: المَلِك: مَن له مسكَن واسع فيه ماءٌ جارٍ، وقيل: مَن له بيت وخَدَم، وقيل: مَن له مالٌ لا يحتاج معه إلى تكلُّف الأعمال وتحمُّلِ المَشاقّ.

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مِن فَلْق البحر وإغراقِ العدوّ وتظليلِ الغَمام وإنزالِ المَنّ والسَّلوى وغير ذلك ممّا آتاهم الله تعالى مِن الأمور العِظام. والمراد بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الأمم الخالية إلى زمانهم، وقيل: مِن عالَمِي زمانِهم.

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾

[١١٧ظ] ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ / كرّر النداء بالإضافة التشريفيّة اهتمامًا بشأن الأمر ومبالغةً في حثّهم على الامتثال به. و﴿ٱلْأَرْضَ﴾ هي أرضُ بيتِ المقدِس؛ سُمِّيت بذلك لأنّها كانت قرارَ الأنبياء ومسكَنَ المؤمنين. وقيل: هي الطور وما حولَه، وقيل: دمشقُ وفلسطينُ وبعضُ الأردنّ. وقيل: هي الشام.

﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: كتَبَ في اللوح أنّها تكون مسكَنًا لكم إن آمنتم وأطعتم، لقوله تعالى لهم بعد ما عصَوْا: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة، ٢٦/٥] وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾؛ فإنّ ترتيب الخَيبة والخُسران على الارتداد يدلّ على اشتراط الكَتب بالمجاهَدة المترتِّبة على الإيمان والطاعةِ قطعًا. أي: لا ترجِعوا مدبِرين خوفًا مِن الجبابرة. فالجارّ والمجرور متعلِّقٌ

---

[1] أي: إلى منصِب النبوّة.

بمحذوفٍ هو حال مِن فاعل ﴿تَرْتَدُّوا﴾،[١] ويجوز أن يتعلّق بنفس الفعل. قيل: لَمّا سمعوا أحوالهم مِن النُّقَباء بَكَوْا، وقالوا: «يا ليتنا مِتْنا بمصرَ، تعالَوْا نجعَلْ لنا رأسًا ينصرِفُ بنا إلى مصرَ»،[٢] أو:[٣] لا ترتَدّوا مِن دينكم بالعصيان وعدمِ الوثوق بالله تعالى. وقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُوا﴾ إمّا مجزومٌ عطفًا على ﴿تَرْتَدُّوا﴾، أو منصوبٌ على جواب النهي. و"الخُسران" خسرانُ الدين والدنيا، لاسيّما دخول ما كُتِب لهم.

﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢﴾

﴿قَالُوا﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن مَساق الكلام، كأنّه قيل: فماذا قالوا بمقابَلة أمره عليه السلام ونهيِه؟ فقيل: قالوا غيرَ ممتثِلين بذلك: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ متغلّبين، لا يتأتّى مُنازَعتهم ولا يتسنّى مُناصَبتهم. والجبّار: العاتي الذي يَجبُر الناس ويَقسِرهم كائنًا مَن كان على ما يريده كائنًا ما كان، "فعّالٌ" مِن "جَبَرَه على الأمر"، أي: أجبَرَه عليه. ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ مِن غير صُنع مِن قِبَلِنا؛ / فإنّه لا طاقةَ لنا بإخراجهم منها. [١١٨و]

﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بسببٍ مِن الأسباب التي لا تعلُّقَ لنا بها، ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ حينئذ. أتَوْا بهذه الشرطيّة -مع كون مضمونها مفهومًا ممّا سبق مِن توقيت عدم الدخول بخروجهم منها- تصريحًا بالمقصود وتنصيصًا على أنّ امتناعهم مِن دخولها ليس إلّا لمكانهم فيها. وأتَوْا في الجزاء بالجملة الاسميّة المصدَّرة بحرف التحقيق دلالةً على تقرُّر الدخول وثباتِه عند تحقّق الشرط لا محالةَ، وإظهارًا لكمال الرغبة فيه وفي الامتثال بالأمر.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ استئناف كما سبق، كأنّه قيل: هل اتّفقوا على ذلك أو خالَفهم البعض؟

---

١ وفي هامش م: أي: كائنين على أدباركم.
٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٢.
٣ السياق: أي: لا ترجِعوا مدبِرين... أو: لا ترتَدّوا مِن دينكم...

فقيل: قال رَجلان: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله تعالى دون العدوّ، ويتّقونه في مخالفة أمره ونهيِه. وبه قرأ ابن مسعود رضي الله عنه.[1] وفيه تعريض بأنّ مَن عَداهما لا يخافونه تعالى؛ بل يخافون العدوَّ. وقيل: مِن الذين يخافون العدوَّ، أي: منهم في النَّسب لا في الخوف، وهما يُوشَعُ بن نون وكالِب[2] بن يوفنّا مِن النُّقَباء.

وقيل:[3] هما رَجلان مِن الجبابرة أسلَمَا وسارَا إلى موسى عليه السلام؛ فـ"الواو" حينئذ لبني إسرائيلَ، والموصول عبارة عن الجبابرة، وإليهم يعود العائدُ المحذوفُ، أي: مِن الذين يخافهم بنو إسرائيل. ويعضُده قراءة مَن قرأ: "يُخَافُونَ"[4] على صيغة المبنيّ للمفعول، أي: المَخُوفِين. وعلى الأوّل يكون هذا مِن الإخافة، أي: مِن الذين يخوَّفون مِن الله تعالى بالتذكير أو يخوِّفهم الوعيدُ.

﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي: بالتثبيت وربطِ الجأش والوقوفِ على شئونه تعالى والثقةِ بوعده، أو بالإيمان. وهو صفة ثانية لـ﴿رَجُلَانِ﴾، أو اعتراض، وقيل: حال مِن الضمير في ﴿يَخَافُونَ﴾، أو مِن ﴿رَجُلَانِ﴾ لتخصُّصه بالصفة. أي: قالَا مخاطِبَين لهم ومشجِّعَين: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي: بابَ بلدِهم. وتقديم الجارّ والمجرور عليه للاهتمام به؛ لأنّ المقصودَ / إنّما هو دخول الباب وهم [١١٨ظ] في بلدهم، أي: باغِتُوهم وضاغِطُوهم في المَضيق، وامنَعُوهم مِن البروز إلى الصحراء لئلّا يجدوا للحرب مجالًا.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾ أي: بابَ بلدِهم وهم فيه، ﴿فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ مِن غير حاجة إلى القتال؛ فإنّا قد رأيناهم وشاهدنا أنّ قلوبهم ضعيفةٌ، وإن كانت أجسادهم عظيمةً؛ فلا تخشَوْهم، واهجُموا عليهم في المَضايق، فإنّهم لا يقدِرون فيها على الكَرّ والفَرّ. وقيل: إنّما حكَمَا[5] بالغَلَبة لِما عَلِمَاها مِن جهة موسى عليه السلام ومِن قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة، ١٨٧/٢]، أو لِما علِمَا مِن سنّته تعالى

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها ابن عطيّة في المحرّر الوجيز، ٢٧٥/٢. وهي منسوبة إلى قتادة في جامع البيان للطبري، ٢٩٧/٨.

[2] قد ضبط المصنّف فيما سبق "لام" الكالب بالفتحة والكسرة معًا، فأعدناه هنا.

[3] س: قيل.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير ومجاهد. المحتسَب لابن جنّي، ٢٠٨/١.

[5] أي: رَجلان.

في نُصرة رُسُله، وما عهِدًا مِن صُنعه تعالى لموسى عليه السلام مِن قهر أعدائه. والأوّل أنسَبُ بتعليق الغَلَبة بالدخول.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى خاصّةً ﴿فَتَوَكَّلُوٓا﴾ بعد ترتيب الأسباب، ولا تعتمِدوا عليها؛ فإنّه بمَعزِل مِن التأثير، وإنّما التأثيرُ مِن عند الله العزيز القدير. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مؤمنين به تعالى مصدِّقين لوعده؛ فإنّ ذلك ممّا يوجِب التوكّل عليه حتمًا.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ استئناف كما سبق، أي: قالوا غيرَ مُبالِينَ بهما وبمَقالتهما مخاطِبِين لموسى عليه السلام إظهارًا لإصرارهم على القول الأوّل وتصريحًا بمخالفتهم له عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾ أي: أرضَ الجبابرة، فضلًا عن دخول بابهم وهم في بلدهم. ﴿أَبَدًا﴾ أي: دهرًا طويلًا، ﴿مَا دَامُواْ فِيهَا﴾ أي: في أرضهم. وهو بدل مِن ﴿أَبَدًا﴾ بدلَ البعض، أو عطفُ بيانٍ. ﴿فَٱذْهَبْ﴾ "الفاء" فصيحة، أي: فإذا كان الأمر كذلك فاذهَبْ ﴿أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَا﴾ أي: فقاتِلاهم.

إنّما قالوا ذلك استهانةً واستهزاءً به سبحانه وبرسوله وعدمَ مبالاةٍ بهما، وقصَدوا ذَهابهما حقيقةً، كما يُنبِئ عنه غايةُ جهلهم وقَسوةُ قلوبهم. وقيل: أرادوا إرادتهما وقصْدَهما، كما تقول: "كلّمتُه فذهب يُجيبني"، / كأنّهم قالوا: [١١٩و] فأَرِيدَا قتالَهم واقصِدَاهم. وقيل: التقدير: "فاذهَبْ أنت، وربُّك يُعينك"، ولا يساعده قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلَا﴾. ولم يذكُروا هارونَ ولا الرجلَين، كأنّهم لم يجزِموا بذَهابهم أو لم يَعبَئُوا بقتالهم. وقوله عزّ وجلّ:[1] ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ يؤيِّد الوجه الأوّل، وأرادوا بذلك عدمَ التقدّم، لا عدمَ التأخّر.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام لَمّا رأى منهم ما رأى مِن العِناد على طريقة البَثّ[2]

---

[1] س: تعالى؛ وفي هامش م: بلغ. | لعلّه قيد البلاغ لمراجعة المصنّف.

[2] البَثّ: الحُزن الذي تُفضي به إلى صاحبك. تهذيب اللغة للأزهري، «باب الثاء والباء».

والحُزن والشكوى إلى الله تعالى مع رِقّة القلب التي بمِثلها تُستجلَب الرحمة وتُستنزَل النُّصرة: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي﴾ عطف على ﴿نَفۡسِي﴾،[١] وقيل: على الضمير في ﴿إِنِّي﴾، على معنى: "إنّي لا أملِك إلّا نفسي، وإنّ أخي لا يملِك إلّا نفسَه"، وقيل: على الضمير في ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾ للفصل.

﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا﴾ يريد نفسَه وأخاه. و"الفاء" لترتيب الفَرق أو الدعاءِ به على ما قبله. ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الخارجينَ عن طاعتك المُصِرّين على عِصيانك، بأنْ تحكُم لنا بما نستحقّه وعليهم بما يستحقّونه، وقيل: بالتبعيد بيننا وبينهم وتخليصِنا مِن صُحبتهم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾

﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي: الأرض المقدَّسة. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن الدعاء. ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ تحريم منعٍ، لا تحريم تعبّدٍ؛ لا يدخُلونها ولا يملِكونها؛ لأنّ كتابتَها لهم كانت مشروطةً بالإيمان والجهاد، وحيث نكصوا على أدبارهم حُرِموا ذلك وانقلبوا خاسرين.

وقوله تعالى: ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ إن جُعل ظرفًا لـ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ يكون التحريمُ موقّتًا لا مؤبَّدًا، فلا يكون مخالِفًا لظاهر قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة، ٢١/٥]، فالمراد بتحريمها عليهم أنّه لا يدخلها أحد منهم في هذه المدّة؛ لكن لا بمعنى أنّ كلّهم يدخلونها بعدها، بل بعضُهم ممّن بقِيَ، حسبما رُوي أنّ موسى عليه السلام سار / بمَن بقِيَ مِن بني إسرائيلَ إلى أرِيحَا، وكان يُوشَعُ بنُ نُون على مقدّمته، ففتحها، وأقام بها ما شاء الله تعالى، ثمّ قَبَضه عليه السلام.[٢] [١١٩ظ]

---

١ أي: ﴿أَخِي﴾ عطفٌ على ﴿نَفۡسِي﴾.

٢ وفي هامش م: قال ابن الجوزي في تاريخه: «قال ابن جرير الطبري: والصحيح أنّ موسى هو الذي فتح قريةَ الجبّارين مع الصالحين مِن بني إسرائيل؛ لأنّ أهل السِّيَر أجمعوا أنّ موسى عليه السلام هو قاتلُ عُوج، وكان عُوج مَلِكَهم، وكان بَلْعَام فيمن سَبَاهُ موسى وقتله». «منه». | المنتظَم في تاريخ الملوك والأُمم لابن الجوزي، ٣٧٦/١. وانظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤/٤.

وقيل: لم يدخلها أحد ممّن قال: ﴿لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا﴾ [المائدة، ٢٤/٥] وإنّما دخلها مع موسى عليه السلام النّواشئ مِن ذُرّيّاتهم، فالموقَّت بـ"الأربعين" في الحقيقة تحريمُها على ذُرّيّاتهم، وإنّما جُعل تحريمًا عليهم لِما بينهما مِن العلاقة التامّة المتاخِمةِ للاتّحاد.

وقوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يتحيّرون في البَرِيّة. استئناف لبيان كيفيّة حِرمانهم، أو حال مِن ضمير ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾. وقيل: الظرف متعلِّق بـ﴿يَتِيهُونَ﴾، فيكون التّيهُ موقّتًا والتحريمُ مطلقًا. قيل: كانوا ستَّمائةِ ألفِ مقاتلٍ، وكان طُول البَرِيّة تسعين فرسخًا، وقد تاهوا في ستّة فراسخَ -أو تسعةِ فراسخَ- في ثلاثين فرسخًا،[1] وقيل: في ستّة فراسخَ في اثنَيْ عشرَ فرسخًا.[2]

رُوي أنّهم كانوا كلَّ يوم يَسيرون جادّينَ حتّى إذا أمسَوْا إذا هم بحيث ارتحلوا، وكان الغَمام يُظِلّهم مِن حرّ الشمس، ويطلُع بالليل عمودٌ مِن نورٍ يُضيء لهم، وينزل عليهم المَنّ والسلوى، ولا يطُول شعورُهم، وإذا وُلِد لهم مولود كان عليه ثوبٌ كالظُّفر يطُول بطوله.[3] وهذه الإنعامات عليهم -مع أنّهم معاقَبون- لِما أنّ عقابهم كان بطريق العَرْك والتأديب.

قيل: كان موسى وهارون معهم، ولكنْ كان ذلك لهما رَوْحًا وسلامةً كالنار لإبراهيم وملائكةِ العذاب عليهم السلام.[4] ورُوي أنّ هارون مات في التّيه، ومات موسى بعده فيه بسَنة، ودخل يُوشَعُ أَرِيحَا بعد موته بثلاثة أشهُرٍ؛[5] ولا يساعده ظاهرُ النظم الكريم؛ فإنّه تعالى بعد ما قَبِل دعوَتَه على بني إسرائيلَ / وعذّبهم بالتّيه بعيدٌ [١٢٠و] أن ينجّيَ بعضَ المدعوّ عليهم أو ذَرارِيّهم، ويقدِّرَ وفاتَهما في مَحلّ العقوبة ظاهرًا، وإن كان ذلك لهما مَنزِلَ رَوْحٍ وراحةٍ. وقد قيل:[6] إنّهما لم يكونا معهم في التّيه،

---

[1] تفسير الرازي، ٣٣٦/١١؛ اللباب لابن عادل، ٢٧٨/٧.

[2] تفسير الرازي، ٣٣٦/١١؛ اللباب لابن عادل، ٢٧٨/٧.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/١. وانظر: تفسير السمرقندي، ٨١/١ (البقرة، ٥٧/٢).

[4] الكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/١.

[5] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/٢. وانظر لقصّة وفاة هارون وموسى: الكشف والبيان للثعلبي، ٤٥/٤-٤٨.

[6] س: وقيل.

وهو الأنسب بتفسير "الفَرْق" بالمباعَدة. ومَن قال بأنّهما كانا معهم فيه، فقد فسَّر "الفَرْق" بما ذُكر مِن الحُكم بما يستحقّه كلُّ فريق.

﴿فَلَا تَأْسَ﴾ فلا تحزنْ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. رُوي أنّه عليه السلام ندِم على دعائه عليهم، فقيل: لا تندَمْ، ولا تحزَنْ؛ فإنّهم أحِقّاءُ بذلك لفِسقهم.[1]

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ عطفٌ على مقدَّر تعلَّق به قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾...[2] إلخ. وتعلُّقُه به مِن حيث إنّه تمهيد لِما سيأتي مِن جنايات بني إسرائيلَ بعد ما كُتب عليهم ما كُتب وجاءتهم الرُّسُل بما جاءت به مِن البيّنات.

﴿نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ هما: قابيلُ وهابيلُ. ونُقل عن الحسن[3] والضحّاك أنّهما رجُلان مِن بني إسرائيلَ[4] بقرينةِ آخِرِ القصّة، وليس كذلك. أوحى اللهُ عزّ وجلّ إلى آدمَ أن يزوِّج كلًّا منهما تَوْأمةَ الآخَر، وكانت تَوْأمةُ قابيلَ أجمَلَ -واسمُها: إقليمَا- فحسد عليها أخاه وسخِط، وزعم أنّ ذلك ليس مِن عند الله تعالى، بل مِن جهة آدمَ عليه السلام، فقال لهما عليه السلام: «قَرِّبَا قُربانًا، فمِن أيِّكما قُبِل تزوَّجها»، ففعلَا، فنزلت نارٌ على قُربانِ هابيلَ فأكلتْه، ولم تتعرَّض لقُربانِ قابيلَ، فازداد قابيلُ حسدًا وسخطًا، وفعل ما فعل.[5]

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً لمصدر محذوف، أي: تلاوةً ملتبِسةً بالحقّ والصحّة، أو حالًا مِن فاعل ﴿ٱتْلُ﴾ أو مِن مفعوله، أي: ملتبِسًا أنت أو نبؤُهما بالحقّ والصدق حسبما تقرّر في كُتُب الأوّلين.

---

[1] جامع البيان للطبري، ٣١٦/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/٢.
[2] المائدة، ٢٠/٥.
[3] أي: الحسن البصري.
[4] جامع البيان للطبري، ٣٢٤/٨؛ اللباب لابن عادل، ٢٨٤/٧.
[5] هو باختلاف يسير في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/١. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٣٢١/٨-٣٢٢؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٩/٤.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ منصوب بـ"النبأ" ظرف له، أي: اتلُ قصّتَهما ونبأهما في ذلك الوقت. وقيل: بدلٌ منه على حذف المضاف، أي: اتلُ عليهم نبأهما نبأَ / ذلك الوقتِ. ورُدَّ عليه بأنّ ﴿إِذْ﴾ لا يُضاف إليها غيرُ الزمان كـ"وقتئذ" و"حينئذ". [١٢٠ظ]

و"القُربان" اسمٌ لِما يُتقرَّب به إلى الله تعالى مِن نسكة أو صَدَقةٍ، كـ"الحُلوان" اسمٌ لِما يُحلَى، أي: يُعطَى. وتوحيدُه لِما أنّه في الأصل مصدر. وقيل: تقديره: إذ قرّب كلٌّ منهما قُربانًا، ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ هو هابيلُ. قيل: كان هو صاحبَ ضَرْعٍ، وقَرّب جَمَلًا سَمينًا، فنزلت نارٌ، فأكلته.[١] ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ هو قابيلُ. قيل: كان هو صاحبَ زَرعٍ، وقَرّب أردأَ ما عنده مِن القَمح، فلم تتعرّض له النارُ أصلًا.[٢]

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن سَوق الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال مَن لم يُتقبّل قُربانه؟ فقيل: قال لأخيه لتَضاعُفِ سخطِه وحسدِه بما ظهر فضلُه عليه عند الله عزّ وجلّ: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي: واللهِ لأقتُلَنّك، بالنُّون المشدَّدة، وقُرئ بالمخفَّفة.[٣]

﴿قَالَ﴾ استئناف كما قبله، أي: قال الذي تُقُبِّلَ قُربانه لمّا رأى أنّ حسده لقَبول قُربانه وعدمِ قَبول قُربان نفسه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾ أي: القربانَ ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، لا مِن غيرهم، وإنّما تقبَّلَ قُرباني ورَدّ قُربانَك لِما فِينَا مِن التقوى وعدمِه، أي: إنّما أُتيتَ مِن قِبَلِ نفسك، لا مِن قِبَلِي، فلم تقتُلني؟ خلا أنّه لم يصرِّح بذلك؛ بل سلَكَ مسلَكَ التعريض حذارًا مِن تهييج غضبه، وحملًا له على التقوى والإقلاعِ عمّا نَوَاه؛ ولذلك أسنَدَ الفعل إلى الاسم الجليل لتربية المَهابة.

ثمّ صَرّح بتَقواه على وجهٍ يستدعي سكونَ غَيظه لو كان له عقل وازع، حيث قال بطريق التوكيد: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ حيث صَدَّر الشرطيّة بـ"اللام" الموطِّئةِ للقَسم، وقَدَّم الجارَّ والمجرورَ على المفعول الصريح إيذانًا / مِن أوّل الأمر برجوع ضرر البسط وغائلتِه إليه، ولم يَجعل جوابَ القَسم السادَّ مسدَّ جوابِ الشرط جملةً فعليّةً موافِقةً لِما في الشرط؛ [١٢١و]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٢٢/٨.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٢٢/٨-٣٢٣.

٣ وفي هامش م: زَيْد. | وهو زيد بن عليّ، صاحب هذه القراءة، أي: "لَأَقْتُلَنْكَ". ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٢٢٨/٤.

بل اسميّةً مصدَّرةً بـ"ما" الحِجازيّة المفيدةِ لتأكيد النفي، بما في خبرها مِن "الباء" للمبالغة في إظهار براءته عن بسط اليد ببيان استمراره على نفي البسط، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة، ٨/٢] وقولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة، ٣٧/٥]؛ فإنّ الجملة الاسميّة الإيجابيّة كما تدُلّ بمَعُونة المقام على دوام الثبوت، كذلك السلبيّةُ تدُلّ بمَعُونته على دوام الانتفاء، لا على انتفاء الدوام، وذلك باعتبار الدوام والاستمرارِ بعد اعتبار النفي لا قبله، حتّى يَرِدَ النفيُ على المقيَّد بالدوام فيرفعَ قيدَه. أي: واللهِ لَئِنْ باشرْتَ قتلِي حسبما أوعدتَنِي به وتحقَّق ذلك منك، ما أنا بفاعلٍ مثلَه لك في وقت مِن الأوقات.

ثـمّ عَلّل ذلك بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفيه مِن إرشادِ قابيلَ إلى خشية الله تعالى على أبلغ وجهٍ وآكَدِه ما لا يخفى، كأنّه قال: إنّي أخافه تعالى إن بسطتُ يدِيَ إليك لِأقتُلك أن يعاقِبَني، وإن كان ذلك منّي لدفع عَداوتك عنّي؛ فما ظنُّك بحالك وأنت البادئ العادي!

وفي وصفه تعالى برُبوبيّة العالَمين تأكيدٌ للخوف. قيل: كان هابيلُ أقوى منه، ولكنْ تحرَّج عن قتله، واستسلم خوفًا مِن الله تعالى؛ لأنّ القتل للدفع لم يكن مُباحًا حينئذ، وقيل: تَحَرّيًا[١] لِما هو الأفضَلُ، حسبما قال صلّى الله عليه وسلّم: «كُنْ عبدَ الله المقتولَ، ولا تكن عبدَ الله القاتلَ».[٢] ويأباه التعليلُ بخوفه تعالى؛ إلّا أن يُدَّعَى أنّ ترك الأَوْلى عنده بمنزلة المعصية في استتباع الغائلة مبالغةً في التنزُّه.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ تعليل آخَرُ لامتناعه عن المعارضة، [١٢١ظ] / على أنّه غرض متأخِّر عنه، كما أنّ الأوّل باعثٌ متقدِّمٌ عليه. وإنّما لم يُعطَف عليه تنبيهًا على كفاية كلٍّ منهما في العِلّية. والمعنى: إنّي أريد باستسلامي لك

---

[١] السياق: واستسلم خوفًا... وقيل: تَحَرّيًا...

[٢] طرف حديثٍ، أخرجه أحمد في مسنده، ٥٤٢/٣٤-٥٤٤ (٢١٠٦٤، ٢١٠٦٥). وأخرج نحوَه أحمد في مسنده، ١٧٧/٣٧ (٢٢٤٩٩)؛ والحاكم في المستدرك، ٥٦٢/٤ (٨٥٧٨)، عن خالد بن عُرْفُطة: «يا خالدُ، إنّها ستكون بعدي أحداث وفِتَن واختلاف، فإنْ استطعتَ أنْ تكون عبدَ الله المقتول لا القاتل، فافعَلْ».

وامتناعي عن التعرّض لك أن ترجِع بإثمي -أي: بمِثل إثمي لو بسطتُ يدِيَ إليك- وبإثمك ببسط يدِك إليَّ، كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «المُستَبّانِ ما قَالَا، فعلى البادئ، ما لم يَعتَدِ المظلومُ»،[1] أي: على البادئ عينُ إثمِ سَبِّه ومثلُ سَبِّ صاحبه بحُكم كونه سَبَبًا له.

وقيل: معنى ﴿بِإِثۡمِي﴾: إثم قتلي، ومعنى "بإثمك": إثمك الذي لأجله لم يتقبّل قُربانك. وكلاهما نصب على الحاليّة، أي: ترجع ملتبِسًا بالإثمَين حاملًا لهما. ولعلّ مرادَه بالذات إنّما هو عدم ملابَسَته للإثم، لا ملابَسَةُ أخيه له.

وقيل: المراد بـ"الإثم" عقوبتُه، ولا ريبَ في جواز إرادة عقوبة العاصي ممّن عُلِم أنّه لا يرعَوِي عن المعصية أصلًا. ويأباه قولُه عزّ وعلَا: ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾؛ فإنّ كونه منهم إنّما يترتّب على رجوعه بالإثمَين، لا على ابتلائه بعقوبتهما. وحملُ العقوبة على نوعٍ آخَرَ يترتّبُ عليها العقوبةُ الناريّةُ يرُدّه قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإنّه صريح في أنّ كونه مِن أصحاب النار تمامُ العقوبة وكمالُها، والجملة تذييلٌ مقرّرٌ لمضمون ما قبلها. ولقد سَلَكَ في صَرفه عمّا نَواه مِن الشرّ كلّ مسلَك مِن العِظَة والتذكيرِ بالترغيب تارةً والترهيبِ أخرى؛ فما أورثه ذلك إلّا الإصرار على الغيّ والانهماك في الفساد.

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ أي: وسَّعَته وسهَّلَته. مِن "طاعَ له المَرتَعُ" إذا اتّسع. وترتيب التطويع على ما حُكي مِن مقالات هابيلَ -مع تحقّقه قبلها أيضًا كما يُفصح عنه قولُه: ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾-[2] لِما أنّ بقاء الفعل بعد تقرّر ما يُزيله مِن الدواعي القويّة، وإن كان استمرارًا عليه بحسَب الظاهر، لكنّه في الحقيقة أمر حادث وصُنع جديد، كما في قولك: "وعظتُه فلم يتّعِظْ"، أو لأنّ هذه المَرتبة مِن التطويع لم تكن حاصلةً / قبلَ ذلك، بناءً على تردّده في قدرته على القتل، لِما أنّه كان أقوى منه، وإنّما حصلت بعد وقوفه على استسلام هابيلَ وعدمِ معارضته له. [١٢٢و]

---

[1] صحيح مسلم، ٢٠٠٠/٤ (٢٥٨٧)؛ مسند أحمد، ٢٢٠/١٦ (١٠٣٢٩).

[2] المائدة، ٢٧/٥.

والتصريح بأخُوَّته لكمال تقبيحِ ما سوَّلته نفسُه. وقُرِئ: "فَطَاوَعَتْ"[١] على أنّه "فَاعَلَ" بمعنى "فَعَّلَ"، أو على أنّ قتل أخيه كأنّه دعا نفسَه إلى الإقدام عليه، فطاوعتْه ولم تمتنع. و﴿لَهُ﴾ لزيادة الرَّبط، كقولك: حفظتُ لزَيدٍ مَالَه.

﴿فَقَتَلَهُ﴾ قيل: لم يَدْرِ قابيلُ كيف يقتل هابيلَ، فتمثّل إبليسُ، وأخذ طائرًا، ووضع رأسَه على حَجَر، ثمّ شدَخها[٢] بحَجَر آخَرَ، فتعلَّمَ منه، فرضَح[٣] رأسَ هابيلَ بين حَجَرَين وهو مستسلِم لا يستعصي عليه.[٤] وقيل: اغتالَه وهو نائم.[٥] وكان لهابيلَ يومَ قُتِل عشرون سنةً. واختُلِف في موضِع قتله، فقيل: عند عَقَبَة حِراء، وقيل: بالبصرة في موضِع المسجِد الأعظم، وقيل: في جبل النور.[٦] ولمّا قتله تركه بالعَراء لا يَدري ما يصنع به، فخاف عليه السِّباعَ، فحمله في جِراب[٧] على ظهره أربعين يومًا، وقيل: سنةً، حتّى أَرْوَح، وعكفت عليه الطيورُ والسِّباعُ تنظُر متى يرمي به فتأكُلَه. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ دينًا ودُنيًا.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِىۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ رُوي أنّه تعالى بعث غُرابَين، فاقتتَلَا، فقتل أحدُهما الآخَرَ، فحفَر له بمِنقاره ورِجلَيْه حُفرةً، فألقاه فيها.[٨] والمستكنّ في ﴿يُرِيَهُ﴾ لله تعالى أو للغُراب. و"اللام" على الأوّل متعلِّقةٌ بـ﴿بَعَثَ﴾ حتمًا، وعلى الثاني بـ﴿يَبْحَثُ﴾، ويجوز تعلُّقُها بـ﴿بَعَثَ﴾ أيضًا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بن عمران وأبي واقد والجراح. **المحتسَب** لابن جنّي، ١/٢٠٩.

[٢] الشَّدْخ: كسرُ الشيء الأجوَف. تقول: "شدَختُ رأسَه"، فانشدخ، و"شدَّختُ الرءوسَ"، شُدِّد للكثرة. **الصحاح** للجوهري، «شدخ».

[٣] س: فرضخ. | الرَّضح مِثل الرَّضخ. وهو كسر الحصى أو النوى. **الصحاح** للجوهري، «رضح».

[٤] **اللباب** لابن عادل، ٧/٢٩٢. وباختلاف يسير في **جامع البيان** للطبري، ٨/٣٣٨.

[٥] **التفسير البسيط** للواحدي، ٧/٣٤٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/٢٩٢.

[٦] ط: بؤد؛ س: بود. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٧] الجِراب: وِعاء الزاد، والعامّة تفتحه، والجمع: أجرِبَة وجُرب. **مختار الصحاح** للرازي، «جرب».

[٨] **الكشّاف** للزمخشري، ١/٦٢٦. وباختلاف يسير في **جامع البيان** للطبري، ٨/٣٤١.

و﴿كَيۡفَ﴾ حال مِن ضمير ﴿يُوَٰرِي﴾. والجملة ثاني مفعولَيْ "يُرِي". والمراد بـ﴿سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ جَسَده المَيِّت.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ / نشأ مِن سَوق الكلام، كأنّه قيل: فماذا [١٢٢ظ] قال عند مشاهدة حال الغُراب؟ فقيل: قال: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾. هي كلمةُ جَزَعٍ وتحسُّرٍ، و"الألِف" بدلٌ مِن ياء المتكلِّم. والمعنى: يا وَيْلَتي، احضُرِي، فهذا أوانُكِ. والوَيل والوَيلة: الهَلَكة. ﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ﴾ أي: عن أن أكون ﴿مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي﴾ تعجّبٌ مِن عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغُرابُ. وقوله تعالى: ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾ بالنصب عطفٌ على ﴿أَكُونَ﴾، وقُرئ بالرفع،[١] أي: فأنا أُوارِي.

﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ أي: على قتله، لِما كَابَدَ فيه مِن التحيّر في أمره وحملِه على رَقَبَتِه مدّةً طويلةً. ورُوِي أنّه لمّا قتله اسوَدَّ جسدُه وكان أبيَضَ، فسأله آدمُ عن أخيه، فقال: «ما كنتُ عليه وكيلًا»، قال: «بل قتلتَه؛ ولذلك اسوَدَّ جسدُك»، ومكث آدمُ بعده مائةَ سنةٍ لا يضحَك.[٢] وقيل: لمّا قتل قابيلُ هابيلَ هرب إلى عَدَن مِن أرض اليَمن، فأتاه إبليسُ فقال: «إنّما أكلت النارُ قربانَ هابيلَ؛ لأنّه كان يخدُمها ويعبُدها، فإن عبدْتَها أيضًا حصل مقصودُك»، فبَنى بيتَ نارٍ، فعبدها، وهو أوّلُ مَن عبد النارَ.[٣]

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ شروع فيما هو المقصود بتلاوة النبأ مِن بيان بعضٍ آخَرَ مِن جنايات بني إسرائيلَ ومعاصيهم. و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى عِظَم شأن القتل

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان. المحتسَب لابن جنّي، ٢٠٩/١.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٩٢/٨. و"مكث آدمُ بعده مائةَ سنةٍ لا يضحَك" روايةٌ أخرى في جامع البيان للطبري، ٣٢٥/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢٦/١.

٣ اللباب لابن عادل، ٢٩٢/٧. وباختلاف يسير في الكشف والبيان للثعلبي، ٥٣/٤؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣٤٣/٧.

وإفراطِ قُبحه المفهومَين ممّا ذُكر في تضاعيف القصّة مِن استعظام هابيلَ له وكمالِ اجتنابه عن مُباشَرته -وإن كان ذلك بطريق الدفع عن نفسه- واستسلامِه لأنْ يُقتَل خوفًا مِن عقابه، وبيانِ استتباعِه لتحمُّل القاتل لإثم المقتول، ومِن كون قابيلَ بمُباشَرته مِن جملة الخاسرين دينَهم ودُنياهم، / ومِن ندامته على فعله، مع ما فيه مِن العُتُوّ وشدّةِ الشكيمة وقساوةِ القلب. [١٢٣و]

و"الأجْل" في الأصل مصدرُ "أَجَلَ شرًّا" إذا جَناه، استُعمِل في تعليل الجنايات كما في قولهم: "مِن جَرّاك فعلتُه"، أي: "مِن أنْ جرَرْتَه وجنَيْتَه"، ثمّ اتُّسعَ فيه واستُعمِل في كلّ تعليل. وقُرئ: "مِنْ إجْلِ"[١] بكسر الهمزة، وهي لغة فيه. وقُرئ: "مِنَ اجْلِ"[٢] بحذف الهمزة وإلقاءِ فتحتها على النون.

و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغايةِ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وتقديمُها عليه للقَصر، أي: مِن ذلك ابتدأ الكَتْبُ، ومنه نشأ لا مِن شيء آخَرَ. أي: قضينا عليهم وبيّنّا ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ واحدةً مِن النفوس ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتلِ نفسٍ يوجِب الاقتصاصَ، ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فسادٍ يوجِب إهدارَ دمِها. وهو عطفٌ على ما أُضيفَ إليه ﴿غَيْرِ﴾، على معنى نفيِ كِلا الأمرين معًا، كما في قولك: "مَن صلّى بغير وضوءٍ أو تيمُّمٍ بطَلَتْ صلاتُه"، لا نفيِ أحدِهما، كما في قولك: "مَن صلّى بغير وضوءٍ أو ثوبٍ بطَلَتْ صلاتُه".

ومدار الاستعمالين اعتبارُ ورود النفي على ما يُستفاد مِن كلمة "أو" مِن الترديد بين الأمرين المنبِئِ عن التخيير والإباحةِ، واعتبارُ العكس. ومناط الاعتبارين اختلافُ حالِ ما أُضيفَ إليه ﴿غَيْرِ﴾ مِن الأمرين بحسَب اشتراط نقيض الحكم بتحقّق أحدهما، واشتراطِه بتحقّقهما معًا؛ ففي الأوّل يَرِدُ النفيُ على الترديد الواقعِ بين الأمرين قبل وروده، فيفيدُ نفيَهما معًا، وفي الثاني يَرِدُ الترديدُ على النفي، فيُفيد نفيَ أحدهما حتمًا؛ إذ ليس قبل ورود النفي ترديدٌ حتّى يُتصوَّر عكسُه.[٣]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٤.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ٦٢٧/١.

[٣] وفي هامش م: أي: ورود النفي على الترديد. «منه».

وتوضيحُه: أنّ كلّ حكمٍ شُرِط بتحقّق أحد شيئَين مَثلًا فنقيضُه مشروط بانتفائهما معًا، / وكلَّ حكمٍ شُرِط بتحقّقهما معًا فنقيضُه مشروط بانتفاء أحدهما، [١٢٣ظ] ضرورةَ أنّ نقيضَ كلّ شيء مشروطٌ بنقيض شرطه، ولا ريبَ في أنّ نقيض الإيجاب الجزئيّ كما في الحُكم الأوّل هو السلبُ الكلّيُّ، ونقيضَ الإيجاب الكلّيّ، كما في الحُكم الثاني هو رفعُه المستلزِمُ للسلب الجزئيّ؛ فثبت اشتراطُ نقيض الأوّل بانتفائهما معًا واشتراطُ نقيض الثاني بانتفاء أحدهما.

ولمّا كان الحكم في قولك: "مَن صلّى بوضوء أو تيمّمٍ صَحّت صلاتُه" مشروطًا بتحقّق أحدهما مُبهَمًا كان نقيضُه في قولك: "مَن صلّى بغير وضوء أو تيمّمٍ بطلتْ صلاتُه" مشروطًا بنقيض الشرط المذكور البتّةَ، وهو انتفاؤهما معًا، فتعيَّن ورودُ النفي المستفادِ مِن ﴿غَيْرِ﴾ على الترديد الواقعِ بين الوضوء والتيمّمِ بكلمة ﴿أَوْ﴾، فانتفى تحقّقُهما معًا ضرورةَ عموم النفي الواردِ على المبهَم. وعلى هذا يدور ما قالوا: إنّه إذا قيل: "جالِس العلماءَ أو الزُّهّادَ"، ثمّ أُدخلَ عليه "لا" الناهيةُ امتنع فعلُ الجميع، نحو: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان، ٧٦/٢٤]؛ إذ المعنى: لا تفعَلْ أحدَهما، فأيّهما فعله فهو أحدُهما.

وأمّا قولُك: "مَن صلّى بوضوء وثوبٍ صَحّت صلاتُه"، فحيث كان الحكم فيه مشروطًا بتحقّق كِلا الأمرين كان نقيضُه في قولك: "مَن صلّى بغير وضوء أو ثوبٍ بطلتْ صلاتُه" مشروطًا بنقيض الشرط المذكور، وهو انتفاء أحدهما، فتعيَّن ورودُ الترديد على النفي، فأفاد نفيَ أحدِهما.

ولا يخفى أنّ إباحة القتل مشروطةٌ بأحدِ ما ذُكر مِن القتل والفساد، ومِن ضرورته اشتراطُ حُرمته بانتفائهما معًا، فتعيَّن ورودُ النفي على الترديد لا محالةَ، كأنّه قيل: مَن قتل نفسًا بغير أحدهما ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. فمَن قال في تفسيره: "أو بغير فساد" فقد أبعد عن توفِيَة النظم الكريم حقَّه. و﴿مَا﴾ في ﴿كَأَنَّمَا﴾ كافّةٌ مهيّئةٌ لوقوع الفعل بعدها. و﴿جَمِيعًا﴾ حال مِن ﴿ٱلنَّاسَ﴾ أو تأكيدٌ. ومناط التشبيه اشتراكُ الفعلين في هَتْك حُرمة الدِّماء والاستعصاءِ على الله تعالى

وتجسيرِ الناس على القتل، وفي استتباع القَوَد[١] واستجلابِ غضب الله تعالى وعذابِه العظيم.

[١٢٤و] / ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: تسبّب لبقاء نفس واحدة موصوفةٍ بعدم ما ذُكر مِن القتل والفساد في الأرض، إمّا بنهي قاتِلها عن قتلها أو استنقاذِها مِن سائر أسباب الهَلَكَة بوجهٍ مِن الوجوه، ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وجهُ التشبيه ظاهرٌ، والمقصود تهويلُ أمر القتل وتفخيمُ شأن الإحياء بتصوير كلٍّ منهما بصورة لائقة به في إيجاب الرَّهبة والرغبة؛ ولذلك صُدّر النظم الكريم بضمير الشأن المنبِئ عن كمال شهرته ونباهتِه وتبادُرِه إلى الأذهان عند ذكر الضمير الموجِبِ لزيادة تقريرِ ما بعده في الذهن؛ فإنّ الضمير لا يُفهَم منه مِن أوّل الأمر إلّا شأنٌ مبهَمٌ له خَطَرٌ، فيبقى الذهنُ مترقّبًا لِما يعقُبه، فيتمكّن عند وروده فضلَ تمكّنٍ، كأنّه قيل: إنّ الشأن الخطير هذا.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ جملة مستقِلّة غيرُ معطوفة على ﴿كَتَبْنَا﴾، أُكّدت بالتوكيد القَسَميّ وحرفِ التحقيق لكمال العناية بتحقّق مضمونها. وإنّما لم يُقَلْ: "ولقد أرسلنا إليهم رُسُلَنا..." إلخ للتصريح بوصول الرسالة إليهم؛ فإنّه أدَلُّ على تَناهِيهم في العُتُوّ والمكابرة، أي: وباللهِ، لقد جاءتهم رُسُلنا حسبما أرسلناهم بالآيات الواضحة الناطقةِ بتقرير ما كتبنا عليهم، تأكيدًا لوجوب مراعاته وتأييدًا لتحتُّم المحافظة عليه.

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما ذُكر مِن الكَتْب وتأكيدِ الأمر بإرسال الرُسُل تَتْرى[٢] وتجديدِ العهد مرّةً بعد أخرى. ووضعُ اسم الإشارة موضِعَ الضمير للإيذان بكمال تميّزه وانتظامِه بسبب ذلك[٣] في سلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيماء إلى عُلُوّ درجته وبُعدِ منزلته في عِظَم الشأن. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة والاستبعاد.

---

١ قال الليث: القَوَد: قتلُ القاتل بالقتيل، تقول: أقدتُه، واستقدتُ الحاكمَ. تهذيب اللغة للأزهري، «باب القاف والدال».

٢ تَتْرى: فيها لغتانِ: تُنوّن، ولا تُنوّن؛ فمَن ترك صرفَها في المعرفة جعل ألِفَها للتأنيث، وهو أجوَدُ، وأصلُها: "وَتْرَى" مِن "الوِتْر"، وهو الفَرد، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون، ٤٤/٢٣]، أي: واحدًا بعد واحد، ومَن نوّنَها جعل ألِفَها مُلحقةً. مختار الصحاح للرازي، «وتر».

٣ أي: بسبب تميُّزه.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾، وكذا الظرفُ المتقدِّمُ. ولا يقدَح فيه / توسّطُ "اللام" بينه وبينهما؛ لأنّها لامُ الابتداء، وحقُّها الدخولُ على [١٢٤ظ] المبتدأ، وإنّما دخولُها على الخبر لمكان ﴿إِنَّ﴾، فهي في حيّزها الأصليّ حُكمًا.

والإسراف في كلّ أمرٍ: التباعُد عن حدّ الاعتدال مع عدم مبالاةٍ به، أي: مسرِفون في القتل غيرُ مُبالِينَ به. ولمّا كان إسرافهم في أمر القتل مستلزِمًا لتفريطهم في شأن الإحياء وجودًا وذِكرًا وكان هو أقبَحَ الأمرين وأفظَعَهما اكتُفِي بذِكره في مقام التشنيع.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ كلام مستأنَف سِيقَ لبيان حكم نوع مِن أنواع القتل وما يتعلّق به مِن الفساد بأخذ المال ونظائرِه، وتعيينِ موجَبه العاجلِ والآجلِ إثرَ بيان عِظَم شأن القتل بغير حقّ، وأُدرجَ فيه بيانُ ما أُشيرَ إليه إجمالًا مِن الفساد المبيحِ للقتل.

قيل: أي: يحارِبون رسوله، وذكرُ الله تعالى للتمهيد والتنبيهِ على رفعة محلّه عنده عزّ وجلّ، ومحارَبةُ أهل شريعته وسالكِي طريقته مِن المسلمين محارَبةٌ له عليه السلام، فيعُمّ الحكمُ مَن يحارِبهم، ولو بعد أعصار بطريق العبارة دون الدلالةِ والقياسِ؛ لأنّ ورود النصّ ليس بطريق خطاب المشافَهة حتّى يختصّ حكمُه بالمكلَّفين عند النزول فيُحتاجَ في تعميمه لغيرهم إلى دليل آخَرَ. وقيل: جُعِل محارَبة المسلمين محارَبةً لله تعالى ورسولِه تعظيمًا لهم، والمعنى: يحارِبون أولياءَهما.

وأصل الحرب: السَّلْب، والمرادُ ههنا قطعُ الطريق، وقيل: المكابَرةُ بطريق اللُّصوصيّة وإن كانت في مِصرٍ.

﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عطف على ﴿يُحَارِبُونَ﴾، والجارّ متعلِّق به. وقوله تعالى: ﴿فَسَادًا﴾ إمّا مصدرٌ وقع موقِعَ الحال مِن فاعل ﴿يَسۡعَوۡنَ﴾، أي: مفسِدين،

[١٢٥و] أو مفعولٌ له، أي: للفساد، أو مصدر / مؤكِّد لـ﴿يَسْعَوْنَ﴾؛ لأنّه في معنى "يُفسِدون" على أنّه مصدرٌ مِن "أفسَدَ" بحذف الزوائد أو اسمُ مصدرٍ.

قيل: نزلت الآية في قوم هلال بنِ عُوَيمِرٍ الأسلمي، وكان وادَعَه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على ألّا يُعينَه ولا يُعينَ عليه، ومَن أتاه مِن المسلمين فهو آمِنٌ لا يُهاج، ومَن مرَّ بهلال إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فهو آمِنٌ لا يُهاج، فمَرَّ قومٌ مِن بني كِنانةَ -يريدون الإسلام- بناسٍ مِن قوم هلال، ولم يكن هلال يومئذ شاهِدًا، فقطعوا عليهم، وقتلوهم، وأخذوا أموالهم.[١]

وقيل: نزلت في العُرَنيّين، وقِصّتُهم مشهورة.[٢]

وقيل: في قوم مِن أهل الكتاب، بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عهدٌ، فنقضوا العهدَ، وقطعوا السبيل، وأفسدوا في الأرض.[٣]

ولمّا كانت المحاربة والفساد على مراتبَ متفاوتةٍ ووجوهٍ شتّى مِن القتل بدون أخذ المال، ومِن القتل مع أخذه، وأخذِه بدون قتل، ومن الإخافة بدون قتل وأخذ، شُرعت[٤] لكلّ مرتبة مِن تلك المراتب عقوبةٌ معيَّنةٌ بطريق التوزيع، فقيل: ﴿أَن يُقَتَّلُوا﴾ أي: حَدًّا مِن غير صَلْب إن أفرَدُوا القتلَ؛ ولو عفَا الأولياءُ لا يُلتفَت إلى ذلك؛ لأنّه حقُّ الشرع، ولا فرقَ بين أن يكون القتلُ بآلة جارحةٍ أو لا.

﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أي: مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذِ، بأنْ يُصلَّبوا أحياءً وتُبعَجَ[٥] بُطونُهم برُمح إلى أن يموتوا. وفي **ظاهر الرواية**:[٦] «إنّ الإمام مخيَّرٌ،

---

[١] اللباب لابن عادل، ٣٠٥/٧. وهو باختلاف يسير في تفسير السمرقندي، ٤١٠/١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥٥/٤.

[٢] انظر: صحيح البخاري، ٥٦/١ (٢٣٣)؛ وصحيح مسلم، ١٢٩٦/٣-١٢٩٨ (١٦٧١).

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٥٥/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣٠٥/٧. وهو باختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٣٦٠/٨.

[٤] السياق: ولمّا كانت المحاربة والفساد... شُرعت.

[٥] بعَجَ فلان بطنَ فلان بالسِّكّين، أي: شَقَّه وخضخضه فيه. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٣٦/١ «باب العين والجيم والباء معهما».

[٦] ظاهر الرواية: مسائل مرويّة عن أصحاب المذهب في كتب محمّد الشيباني التي هي المبسوط والزيادات والجامع الصغير والسير الصغير والجامع الكبير والسير الكبير. وغير ظاهر الرواية: مسائل مرويّة عن أصحاب المذهب لكن لا في الكتب المذكورة. انظر: شرح عقود رسم المفتي لابن عابدين، ص ٨٨.

إن شاء اكتفى بذلك، وإن شاء قطع أيدِيَهم وأرجُلَهم مِن خِلافٍ وقتَلَهم وصلَبَهم».[١]

وصيغة التفعيل في الفعلين للتكثير. وقُرئ بالتخفيف فيهما.[٢]

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: أيديهم اليُمنى وأرجُلُهم اليُسرى، إن اقتصروا على أخذ المال مِن مسلم أو ذِمّيّ، وكان في المِقدار بحيث لو قُسم عليهم أصاب كلًّا منهم عشرةُ دَراهمَ أو ما يُساويها قيمتُه. أمّا قطعُ أيديهم فلأخذِ المالِ، وأمّا قطعُ أرجُلِهم فلإخافة الطريق بتفويت أمنه.

﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إن لم يفعلوا غيرَ الإخافة والسعيِ للفساد. والمراد بـ"النفي" عندنا هو الحَبس؛ فإنّه نفيٌ / عن وجه الأرض بدفع شرّهم مِن أهلها، [١٢٥ظ] ويُعزَّرون[٣] أيضًا لمباشَرتهم مُنكَر الإخافة وإزالةِ الأمن، وعند الشافعي رحمه الله النفيُ مِن بلد إلى بلد، لا يزال يُطلب وهو هاربٌ فَزَعًا. وقيل: هو النفي عن بلده فقط، وكانوا يَنفونهم إلى دَهْلَكَ وهو بلد في أقصى تِهامة، وناصعٍ وهو بلد مِن بلاد الحَبَشة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما فُصّل مِن الأحكام والأجزية. قيل: هو مبتدأ، وقوله: ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ جملة مِن خبرٍ مقدَّمٍ على المبتدأ، وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ متعلّق بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿خِزْيٌ﴾، أو متعلّق بـ﴿خِزْيٌ﴾ على الظرفيّة، والجملة في مَحلّ الرفع على أنّها خبر لـ﴿ذَٰلِكَ﴾. وقيل: ﴿خِزْيٌ﴾ خبرٌ لـ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿خِزْيٌ﴾؛ لأنّه في الأصل صفة له، فلمّا قُدّم انتصَب حالًا، و﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ إمّا صفة لـ﴿خِزْيٌ﴾ أو متعلّق به على ما مرّ. والخِزي: الذُّلّ والفضيحة.

---

[١] قال محمّد بن الحسن الشيباني في الأصل، ٢٨٧/٧: «أخبرنا أبو حنيفةَ، عن حمّاد، عن إبراهيم أنّه قال في الرّجل يقطع الطريق فيأخذ المال ويقتل، قال: ذلك إلى الإمام، إنْ شاء قطع يَدَه ورِجلَه وصلَبَه، وإنْ شاء صلَبَه، وإنْ شاء قتله». وقال فيه أيضًا، ٢٨٥/٧: «قلتُ: أرأيتَ قومًا يقطعون الطريق وهم مِن أهل الإسلام أو مِن أهل الذمّة، فقَتلوا وأخذوا المال، فأُخِذوا فأُتِيَ بهم الإمام، كيف الحُكم فيهم؟ قال: تُقطع أيدِيهم اليُمنى وأرجلُهم اليُسرى مِن خلافٍ، ويقتُلُهم أو يصلبهم إنْ شاء».

[٢] أي: "أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصْلَبُوا"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن ومجاهد والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٤.

[٣] التعزير: التعظيم والتوقير. والتعزير أيضًا: التأديب، ومنه سُمّي الضرب دون الحدّ تعزيرًا. الصحاح للجوهري، «عزر».

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ غير هذا ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادَر قدره لغاية عِظَم جنايتهم. فقوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ خبرٌ مقدَّمٌ، و﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخَّرٌ، و﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿عَذَابٌ﴾؛ لأنّه في الأصل صفةٌ له، فلمّا قُدِّم انتصَب حالًا، أي: كائنًا في الآخرة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوصٌ بما هو مِن حقوق الله عزّ وجلّ كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أمّا ما هو مِن حقوق الأولياء مِن القِصاص ونحوِه، فإليهم ذلك؛ إن شاءوا عفَوْا، وإن أحَبُّوا استوفَوْا. وإنّما يسقُط بالتوبة وجوبُ استيفائه، لا جوازُه. وعن عليّ رضي الله عنه أنّ الحارث بنَ بدرٍ جاءه تائبًا بعد ما كان يقطع الطريقَ، فقَبِل توبتَه، ودرأ عنه العقوبةَ.[١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[١٢٦و] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ لمّا ذُكر عِظَم شأن القتل والفسادِ / وبيِّن حُكمهما وأُشيرَ في تضاعيف ذلك إلى مغفرته تعالى لمَن تاب مِن جنايته أُمِرَ[٢] المؤمنون بأنْ يتّقُوه تعالى في كلّ ما يأتون وما يَذَرون، بترك ما يجب اتّقاؤه مِن المَعاصي التي مِن جملتها ما ذُكر مِن القتل والفسادِ، وبفعل الطاعات التي مِن زُمرتها السعيُ في إحياء النفوس ودفعِ الفساد والمسارعةِ إلى التوبة والاستغفار.

﴿وَابْتَغُوا﴾ أي: اطلُبوا لأنفسكم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى ثوابه والزُّلفى منه ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ هي فعيلةٌ، بمعنى: ما يُتوسّل به ويُتقرّب إلى الله عزّ وجلّ مِن فعل الطاعات وتركِ المَعاصي. مِن "وَسَلَ إلى كذا"، أي: تقرَّب إليه بشيء، و﴿إِلَيْهِ﴾ متعلِّق بها،[٣] قُدِّم عليها للاهتمام به، وليست[٤] بمصدرٍ حتّى لا تعمَلَ فيما قبلها.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٦٢٧. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٣٩٣-٣٩٤، وفيه: "حارثة" بدلَ "الحارث".

٢ السياق: لمّا ذُكر... أُمِرَ...

٣ أي: بـ﴿الْوَسِيلَةَ﴾.

٤ أي: ﴿الْوَسِيلَةَ﴾.

ولعلّ المرادَ بها الاتّقاءُ المأمورُ به؛ فإنّه مَلاك الأمر كلِّه كما أشيرَ إليه، وذريعةٌ لنَيل كلّ خير، ومَنجاةٌ مِن كلّ ضَيْر، فالجملة حينئذ جاريةٌ ممّا قبلها مَجرى البيان والتأكيدِ، أو[1] مطلَقُ الوسيلة، وهو داخل فيها دخولًا أوّليًا. وقيل: الجملة الأولى أمرٌ بترك المعاصي، والثانيةُ أمرٌ بفعل الطاعات، وحيث كان في كلٍّ مِن ترك المعاصي المشتهاةِ للنفس وفعلِ الطاعات المكروهة لها كُلفة ومَشَقّة عُقِّبَ[2] الأمر بهما بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ بمحاربة أعدائه البارزةِ والكامنةِ، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ بنَيل مَرضاته والفوزِ بكراماته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كلام مبتدأٌ مَسوقٌ لتأكيد / وجوب الامتثال بالأوامر [١٢٦ظ] السابقة وترغيبِ المؤمنين في المسارعة إلى تحصيل الوسيلة إليه عزّ وجلّ قبل انقضاء أوانِه، ببيان استحالة توسُّل الكفّار يومَ القيامة بأقوى الوسائل إلى النجاة مِن العذاب فضلًا عن نَيل الثواب.

﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم﴾ أي: لكلّ واحد منهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾... إلخ [يونس، ١٠/٥٤]، لا لجميعهم؛ إذ ليس في ذلك هذه المرتبةُ مِن تهويل الأمر وتفظيعِ الحال.

﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مِن أصناف أموالها وذخائرِها وسائرِ منافعها قاطبةً. وهو اسم ﴿أَنَّ﴾، و﴿لَهُم﴾ خبرها، ومحلُّها الرفعُ بلا خلاف؛ خلا أنّه عند بعضهم[3] رفعٌ على الابتداء، لا حاجةَ فيه إلى الخبر لاشتمال صلتِها على المُسنَد والمُسنَد إليه، وقد اختصّتْ مِن بين سائر ما يُئوّل بالاسم بالوقوع بعد ﴿لَوۡ﴾. وقيل: الخبر محذوف، ثمّ قيل: يُقدَّر مقدَّمًا، أي: لو ثابتٌ كونُ ما في الأرض لهم، وقيل: يُقدَّر مؤخَّرًا، أي: لو كونُ ما في الأرض لهم ثابتٌ. وعند[4] المبرّد والزجّاج والكوفيّين

---

[1] السياق: ولعلّ المرادَ بها الاتّقاءُ... أو مطلَقُ الوسيلة...

[2] السياق: وحيث كان... عُقِّبَ...

[3] ط س: سيبويه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[4] السياق: خلا أنّه عند بعضهم... وعند المبرّد...

رفعٌ على الفاعليّة، والفعلُ مقدَّر بعد ﴿لَوْ﴾، أي: لو ثبَتَ أنّ لهم ما في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ توكيد للموصول أو حال منه. ﴿وَمِثْلَهُ﴾ بالنصب عطفٌ عليه. وقوله تعالى: ﴿مَعَهُ﴾ ظرفٌ وقع حالًا مِن المعطوف، والضميرُ راجعٌ إلى الموصول، وفائدتُه التصريحُ بفرض كَيْنونتهما[١] لهم بطريق المَعيّة، لا بطريق التعاقُب، تحقيقًا لكمال فظاعة الأمر، مع ما فيه مِن نوع إشعارٍ بكونهما شيئًا واحدًا وتمهيدٍ لإفراد الضمير الراجع إليهما.

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ متعلِّقة بما تعلَّق به خبرُ ﴿أَنَّ﴾، أعني: الاستقرار المقدَّر في ﴿لَهُم﴾، وبالخبر المقدَّر عند مَن يرى تقديرَ الخبر مقدَّمًا أو مؤخَّرًا، وبالفعل / المقدَّر بعد ﴿لَوْ﴾ على رأي المبرّد ومَن نحا نحوَه. ولا ريبَ في أنّ مدار الافتداء بما ذُكر هو كونه لهم، لا ثبوتُ كونه لهم وإن كان مستلزِمًا له. [١٢٧و]

و"الباء" في ﴿بِهِۦ﴾ متعلِّقة بـ"الافتداء"، والضمير راجعٌ إلى الموصول ومثلِه[٢] معًا، وتوحيدُه إمّا لِما أشيرَ إليه، وإمّا لإجرائه مُجرى اسمِ الإشارة، كأنّه قيل: "بذلك"، كما في قوله:

كـأنّـه فـي الـجِـلـد تـولـيـعُ الـبَـهَـقْ[٣]

أي: كأنّ ذاك. وقيل: هو راجعٌ إلى الموصول، والعائدُ إلى المعطوف -أعني: ﴿مِثْلَهُ﴾- محذوفٌ، كما حُذف الخبر مِن "قَيّار" في قوله:

فـإنّـي وقَـيّـارٌ بـهـا لَـغَـريـبُ[٤]

أي: وقَيّارٌ أيضًا غريب.

---

[١] وفي هامش م: أي: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿مِثْلَهُ﴾. «منه».

[٢] كذا حرّكها المصنّف، يعني: عبارة ﴿مِثْلَهُ﴾ في الآية الكريمة.

[٣] وفي هامش م: أوّله:

فيها خُطوطٌ مِن سَوادٍ وبَلَقْ

البيت لرُؤْبَة، وهو في ديوانه، ص ١٠٤. والبَلَق: سَواد وبَياض. والبَهَق: بَياض يَعتري الجِلدَ يُخالِف لونه، ليس مِن البَرَص. الصحاح للجوهري، «بلق»، «بهق».

[٤] عجز بيتٍ، وصدره:

فمَن يكُ أمسى بالمدينة رَحْلُه

وهو لضابئ بن الحارث البُرْجُمي في الأصمَعيّات للأصمَعي، ص ١٨٤؛ والإنصاف للأنباري، ٧٨/١؛ والحماسة البصريّة لأبي الحسن البصري، ٥٦/٢؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٣٢٩/٩.

وقد جُوِّز أن يكون نصبُ ﴿مِثْلَهُۥ﴾ على أنّه مفعول معه، ناصِبُه الفعلُ المقدَّرُ بعد ﴿لَوْ﴾، تفريعًا على مذهب المبرّد ومَن رأى رأيَه. وأنت خبير بأنّه[1] يؤدِّي إلى كون الرافع للفاعل غيرَ الناصب للمفعول معه؛ لأنّ المعنى على اعتبار المَعيّة بين ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿مِثْلَهُۥ﴾ في الكَيْنونة لهم، لا في ثبوت تلك الكَيْنونة وتحقُّقِها،[2] ولا مساغَ لجعل ناصِبه الاستقرارَ المقدَّرَ في ﴿لَهُم﴾،[3] لِما أنّ سيبويه قد نصَّ على أنّ اسم الإشارة وحرفَ الجرّ المتضمِّنَ للاستقرار لا يعمَلانِ في المفعول معه، وأنّ قوله: "هذا لك وأباك" قبيحٌ،[4] وإن جوَّزه بعضُ النحاة في الظرف وحرفِ الجرّ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّق بـ"الافتداء" أيضًا، أي: لو أنّ ما في الأرض ومثلَه ثابتٌ لهم ليجعلوه فِدْيةً لأنفُسِهم مِن العذاب الواقعِ يومئذ، ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ ذلك. وهو جواب ﴿لَوْ﴾، وترتيبُه على كون ذلك لهم لأجل افتدائهم به مِن غير ذكر الافتداء بأنْ يُقال: "وافتدَوْا به" -مع أنّ الردّ والقبولَ إنّما يترتّب عليه، لا على مَبادِيه- للإيذان بأنّه أمرٌ محقَّقُ الوقوع غنيٌّ عن الذكر، وإنّما المحتاج إلى الفَرْض قدرتُهم على ما ذُكر، أو للمبالغة في تحقّق الردّ وتخييلِ أنّه وقع / قبل الافتداء، على مِنهاج ما في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل، ٤٠/٢٧]، حيث لم يُقَلْ: "فأتى به فرآه، فلمّا..." إلخ، وما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف، ٣١/١٢] مِن غير ذكر خروجه عليه السلام عليهنّ ورُؤيتهنّ له. [١٢٧ظ]

والجملة الامتناعيّة بحالها خبرُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والمرادُ تمثيلٌ للُزوم العذابِ لهم واستحالةِ نجاتهم منه بوجهٍ مِن الوجوه المحقَّقة والمفروضة. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: يُقالُ للكافر: «أرأيتَ لو كان لك مِلءُ الأرض ذَهَبًا،

---

[1] وفي هامش م: [كلمة بخط اليد] أغضينا عن كون ﴿مَعَهُ﴾ مانعًا. «منه».

[2] وفي هامش م: كما أشيرَ إليه. «منه».

[3] وفي هامش م: ليتّحد الرافع والناصب. «منه».

[4] قال سيبويه في الكتاب، ٣١٠/١: «وأمّا "هذا لك وأباك" فقبيحٌ؛ لأنّه لم يذكُرْ فعلًا ولا حرفًا في معنى فعلٍ حتى يَصير كأنّه قد تكلّم بالفعل».

أكنتَ تفتدي به؟»»، فيقول: «نعم»، فيُقال له: «قد سُئلتَ أيسَرَ مِن ذلك»»،[١] وهو كلمة الشهادة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تصريح بما أُشيرَ إليه بعدم قبول فِديتهم لزيادة تقريره وبيانِ هَوله وشدّتِه. قيل: مَحلّه النصبُ على الحاليّة، وقيل: الرفعُ عطفًا على خبر ﴿إِنَّ﴾، وقيل: عطفٌ على ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، فلا محلَّ له كالمعطوف عليه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ استئناف مَسوق لبيان حالهم في أثناء مكابدة العذاب، مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: فكيف يكون حالُهم، أو ماذا يصنعون؟ فقيل: ﴿يُرِيدُونَ﴾... إلخ، وقد بُيّن في تضاعيفه أنّ عذابهم عذابُ النار. قيل: إنّهم يقصِدون ذلك ويطلبون المَخرَج، فيَلفَحُهم لَهَبُ النار، ويَرفَعهم إلى فوق، فهناك يريدون الخروج؛ ولَاتَ حين مَناصٍ. وقيل: يكادون يخرجون منها لقوّة النار وزيادةِ رفعها إيّاهم. وقيل: يتمنَّوْنه ويريدونه بقلوبهم.

وقوله عزّ وجلّ:[٢] ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ إمّا حال مِن فاعل ﴿يُرِيدُونَ﴾، أو اعتراضٌ. / وأيًّا ما كان، فإيثار الجملة الاسميّة على الفعليّة مصدَّرةً بـ"ما" الحجازيّةِ الدالّةِ بما في خبرها مِن "الباء" على تأكيد النفي لبيان[٣] كمال سُوء حالهم باستمرار عدم خروجهم منها؛ فإنّ الجملة الاسميّة الإيجابيّة كما تُفيد بمَعُونة المقام دوامَ الثبوت، تُفيد السلبيّةُ أيضًا بمَعُونته دوامَ النفي، لا نفيَ الدوام، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾... إلخ [المائدة، ٢٨/٥]. وقُرئ: "أَنْ يُخْرَجُوا"[٤] على بناء المفعول مِن "الإخراج". [١٢٨و]

---

[١] وفي هامش م: انتهى. «منه». | صحيح مسلم، ٢١٦١/٤ (٢٨٠٥)، وفيه: "يُقال للكافر يومَ القيامة". وهو في صحيح البخاري، ١١٢/٨ (٦٥٣٨)، كذا: «يُجاء بالكافر يومَ القيامة، فيُقال له: أرأيتَ، لو كان لك مِلءُ الأرض ذَهَبًا، أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيُقال له: قد كنتَ سُئلتَ ما هو أيسَرُ مِن ذلك».

[٢] س: تعالى.

[٣] السياق: فإيثار الجملة الاسميّة... لبيان...

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي واقد والجراح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٤.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ تصريح بما أشيرَ إليه آنفًا مِن عدم تَناهي مدّته بعد بيان شِدّته.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ شروع في بيان حُكم السَّرِقة الصُّغرى بعد بيان أحكام الكُبرى. وقد عرفتَ اقتضاءَ الحال لإيراد ما توسّط بينهما مِن المقال. ولمّا كانت السَّرِقة معهودةً مِن النساء كالرجال صُرّح بـ﴿ٱلسَّارِقَةُ﴾ أيضًا -مع أنّ المعهود في الكتاب والسنّة إدراجُ النساء في الأحكام الواردة في شأن الرجال بطريق الدلالة- لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغةِ في الزجر. وهو مبتدأ، خبرُه عند سيبويه محذوفٌ، تقديرُه: وفيما يُتلى عليكم أو وفيما فُرِض عليكم السارقُ والسارقةُ، أي: حكمُهما، وعند المبرّد قولُه تعالى: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾، و"الفاء" لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط، إذ المعنى: الذي سرَق والتي سرَقتْ.

وقُرئ بالنصب،[1] وفضَّلها سيبويه على قراءة الرفع؛ لأنّ الإنشاء لا يقع خبرًا إلّا بتأويل وإضمارٍ. والسَّرِقة: أخذُ مال الغير خُفْيَةً، وإنّما توجِب القطعَ إذا كان الأخذ مِن حِرْزٍ والمأخوذُ يُساوي عشرةَ دراهِمَ فما فوقها، مع شروطٍ / فُصِّلت في موقِعِها. [١٢٨ظ]

والمراد بـ﴿أَيۡدِيَهُمَا﴾ أيمانُهما، كما يُفصِح عنه قراءةُ ابن مسعود رضي الله عنه: "وَالسَّارِقُونَ وَالسَّارِقَاتُ فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمْ"؛[2] ولذلك ساغ وضعُ الجمع موضِعَ المُثنَّى، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم، ٦٦/٤] اكتفاءً بتَثنِيَة المضاف إليه. و"اليد" اسمٌ لتمام الجارحة؛ ولذلك ذهب الخوارجُ إلى أنّ المَقطَع هو المَنكِب، والجمهورُ على أنّه الرُّسْغ؛ لأنّه عليه السلام أُتِيَ بسارقٍ، فأمَر بقطع يمينه منه.[3]

---

١ أي: "وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٤.

٢ وهي قراءة شاذّة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٤.

٣ نقله بلفظه مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٦/٢. انظر: مسند أحمد، ٣٧٠/٣٩ (٢٣٩٤٦)، ١٦٦/٤٠ (٢٤١٣٧)؛ وسنن الدارمي، ١٤٨٣/٣ (٢٣٤٩).

﴿جَزَآءً﴾ نصب على أنّه مفعول له، أي: فاقطَعوا للجزاء، أو مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعله الذي يدلّ عليه ﴿فَٱقْطَعُوا﴾، أي: فجازُوهما جزاءً. وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ على الأوّل متعلِّق بـ﴿جَزَآءً﴾، وعلى الثاني بـ﴿ٱقْطَعُوا﴾. و﴿مَا﴾ مصدريّةٌ، أي: بسبب كَسبهما، أو موصولةٌ، أي: بسبب ما كسَبَاه مِن السَّرِقة التي تُباشَر بالأيدي.

وقوله تعالى: ﴿نَكَٰلًا﴾ مفعول له أيضًا على البَدَليّة مِن ﴿جَزَآءً﴾؛ لأنّهما مِن نوع واحد. وقيل: القطع معلَّل بـ"الجزاء"، والقطعُ المعلَّلُ معلَّلٌ بـ"النَّكال". وقيل: هو منصوب بـ﴿جَزَآءً﴾ على طريقة الأحوال المتداخِلة؛ فإنّه علّة للجزاء، والجزاءُ علّةٌ للقطع، كما إذا قلتَ: "ضربتُه تأديبًا له إحسانًا إليه"؛ فإنّ الضرب معلَّلٌ بـ"التأديب"، والتأديبَ معلَّلٌ بـ"الإحسان".

وقد أجازوا في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ[١] عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة، ٩٠/٢] أن يكون ﴿بَغْيًا﴾ مفعولًا له، ناصِبُه ﴿أَن يَكْفُرُوا﴾، ثمّ قالوا: إنّ قوله تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ مفعولٌ له، ناصِبُه ﴿بَغْيًا﴾، على أنّ التنزيل علّة للبَغْي، والبَغْيَ علّة للكفر.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿نَكَٰلًا﴾، أي: نكالًا كائنًا منه تعالى.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ على أمره، يُمضِيه كيف يشاء مِن غير نِدٍّ ينازِعه، ولا ضِدٍّ يمانِعه. / ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرائعه لا يحكُم إلّا ما يقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ؛ ولذلك شرَع هذه الشرائعَ المُنطَوِيةَ على فنون الحِكَم والمصالح. [١٢٩و]

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَمَن تَابَ﴾ مِن السُّرّاق إلى الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ الذي هو سَرِقَتُه. والتصريح به -مع أنّ التوبة لا يُتصوَّر قبلَه- لبيان عِظَم نعمته تعالى بتذكير

---

١ م ط س - مِن فَضْلِهِۦ.

عِظَم جنايته. ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أي: أمرَه، بالتقصِّي عن تَبِعات ما باشره والعزمِ على ترك المعاوَدة إليها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ أي: يقبَل توبتَه، فلا يعذِّبه في الآخرة. وأمّا القطعُ، فلا يُسقِطه التوبةُ عندنا؛ لأنّ فيه حقَّ المسروق منه، وتُسقِطُه عند الشافعي في أحد قولَيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ مبالِغٌ في المغفِرة والرحمة؛ ولذلك يقبَل توبتَه. وهو تعليل لِما قبله. وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعِلّة الحُكم وتأييدِ استقلال الجملة.

وكذا في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فإنّ عُنوان الألوهيّة مدارُ أحكام مَلَكُوتهما. والجارّ والمجرور خبر مقدَّم، و﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مبتدأ، والجملة خبر لـ﴿أَنَّ﴾، وهي مع ما في حَيّزها سادٌّ مَسدَّ مفعولَيْ ﴿تَعۡلَمۡ﴾ عند الجمهور.

وما فيه مِن تكرير الإسناد لتقوية الحُكم. والخطابُ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين، وقيل: لكلّ أحدٍ صالحٍ للخطاب. والاستفهام الإنكاريّ لتقرير العِلم، والمراد به الاستشهادُ بذلك على قدرته تعالى على ما سيأتي مِن التعذيب والمغفرةِ على أبلغ وجه وأتمِّه، أي: ألم تعلم أنّ الله له السلطانُ القاهرُ والاستيلاءُ الباهرُ، المستلزِمانِ للقدرة التامّة على التصرّف الكلّيّ فيهما وفيما فيهما، إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتةً، إلى غير ذلك حسبما يقتضيه مشيئتُه.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذِّبه، ﴿وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفِر له، مِن غير نِدٍّ يساهِمه ولا ضِدٍّ يزاحِمه. وتقديم التعذيب / على المغفرة لمراعاةِ ما بين سببَيْهما[١] مِن الترتيب. والجملة إمّا تقرير لكون مَلَكوت السماوات والأرضِ له سبحانه، أو خبرٌ آخَرُ لـ﴿أَنَّ﴾. [١٢٩ظ]

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيقدِر على ما ذُكر مِن التعذيب والمغفرة. والإظهار في موقِع الإضمار لِما مرّ مرارًا. والجملة تذييل مقرِّر لِما قبلها.

---

١ وفي هامش م: وهما: الظلم والتوبة. «منه».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ خُوطِبَ صلّى الله عليه وسلّم بعُنوان الرسالة للتشريف والإشعارِ بما يوجِب عدمَ الحُزن. والمسارعة في الشيء: الوقوع فيه بسرعة ورغبةٍ. وإيثار كلمة ﴿فِى﴾ على كلمة "إلى" الواقعةِ في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾... إلخ [آل عمران، ١٣٣/٣] للإيماء إلى أنّهم مستقِرّون في الكفر لا يبرَحونه، وإنّما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامِه إلى بعضٍ آخرَ منها، كإظهار مُوالاة المشركين وإبرازِ آثار الكيد للإسلام ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون، ٦١/٢٣]؛ فإنّهم مستمرّون على الخير، مسارِعون في أنواعه وأفرادِه. والتعبير عنهم بالموصول للإشارة بما في حَيّز صِلَته إلى مدار الحُزن.

وهذا، وإن كان بحسَب الظاهر نهيًا للكفَرة عن أن يَحزُنوه عليه السلام بمسارَعتهم في الكفر، لكنّه في الحقيقة نهيٌ له عليه السلام عن التأثّر مِن ذلك والمُبالاةِ به على أبلغ وجه وآكَدِه؛ فإنّ النهي عن أسباب الشيء ومَباديه المؤدِّيةِ إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهانيّ، وقَلعٌ له مِن أصله. وقد يوجَّه النهي إلى المسبَّب ويرادُ به النهيُ عن السبب، كما في قوله: "لا أُرَيَنَّك ههنا"، يريد نهيَ مخاطَبه عن الحضور بين يدَيْه.

وقُرئ: "لَا يُحْزِنْكَ"[١] مِن "أحزَنَه"، منقولًا مِن "حزِن" بكسر الزاي. وقُرئ: "يُسْرِعُونَ"،[٢] يُقال: "أسرَعَ فيه الشَّيْبُ"، أي: وقع فيه سريعًا. أي: لا تحزَنْ ولا تُبالِ بتَهافُتهم / في الكفر بسرعة. [١٣٠و]

[١] قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحرّ النحوي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٤.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بيان للمسارِعين في الكفر، وقيل: متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعل ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾، وقيل: مِن الموصول، أي: كائنين مِن الذين... إلخ. و"الباء" متعلِّقة بـ﴿قَالُوا﴾، لا بـ﴿ءَامَنَّا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ جملة حاليّة مِن ضمير ﴿قَالُوا﴾، وقيل: عطفٌ على ﴿قَالُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ عطفٌ على ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا﴾... إلخ، وبه يتِمّ بيانُ المسارِعين في الكفر بتقسيمِهم إلى قسمين: المنافقين واليهود. فقوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ خبر لمبتدإٍ محذوفٍ راجعٍ إلى الفريقين، أو إلى المسارِعين. وأمّا رجوعه إلى ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوا﴾، فمُخِلّ بعموم الوعيد الآتي ومَباديه للكلّ، كما ستَقِف عليه. وكذا جعلُ قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾... إلخ خبرًا، على أنّ قوله ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ صفة لمبتدإٍ محذوفٍ، أي: ومنهم قومٌ سمّاعون... إلخ، لأدائه إلى اختصاص ما عُدِّد مِن القبائح وما يترتّب عليها مِن الغوائل الدُّنيَويّة والأُخرَويّة بهم؛ فالوجه ما ذُكِر أوّلًا، أي: هم سمّاعون.

و"اللام" إمّا لتقوية العمل، وإمّا لتضمين السَّماع معنى القبول، وإمّا لامُ "كَيْ"، والمفعول محذوف. والمعنى: هم مبالِغون في سَماع الكَذِب،[1] أو في قبول ما يفتريه أحبارُهم مِن الكَذِب على الله سبحانه وتحريفِ كتابه،[2] أو سمّاعون أخبارَكم وأحاديثَكم ليكذبوا عليكم بأنْ يمسَخوها بالزيادة والنقص والتبديل والتغيير،[3] أو أخبارَ الناس وأقاويلَهم الدائرةَ فيما بينهم ليكذبوا فيها بأنْ يُرجِفوا بقتل المؤمنين وانكسارِ سَراياهم ونحو ذلك ممّا فيه ضررٌ بهم.

وأيًّا ما كان، فالجملة مستأنَفة جارية مَجرى التعليل للنهي؛ فإنّ كونهم سمّاعين للكَذِب على الوجوه المذكورة وابتناءَ أمورهم على ما لا أصلَ له مِن الأباطيل والأراجيفِ ممّا[4] يقتضي عدمَ المُبالاة بهم وتركَ الاعتداد بما يأتون وما يَذَرون، للقطع بظهور بُطلان أكاذيبهم واختلالِ ما بَنَوْا عليها مِن الأفاعيل

---

[1] وفي هامش م: على تقدير كون "اللام" للتقوية. «منه».

[2] وفي هامش م: على تقدير التضمين. «منه».

[3] وفي هامش م: على تقدير كون "اللام" للعلّة، والمفعول محذوف. «منه».

[4] السياق: فإنّ كونهم... ممّا يقتضي...

الفاسدة المؤدِّيةِ إلى الخِزْي والعذابِ كما سيأتي. وقُرئ: "سَمَّاعِينَ لِلْكَذِبِ"[١] بالنصب على الذمّ.

وقوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ خبرٌ ثانٍ للمبتدأ المقدَّر، مقرِّرٌ للأوّل ومبيِّنٌ لِما هو المراد بـ﴿الْكَذِبِ﴾ على الوجهين الأوّلَين.[٢] و"اللام" مثلُ ما في "سمِع الله لِمَن حمِده" في الرجوع إلى معنى "مِنْ"، أي: قَبِل منه حمدَه، والمعنى: / مبالِغون في قبول كلامِ قومٍ آخَرِين. وأمّا كونُها لامَ التعليل بمعنى: "سمّاعون منه عليه السلام لأجل قومٍ آخَرِين، وجُهوهم عُيونًا ليبلِّغوهم ما سمِعوا منه عليه السلام"، أو كونُها متعلِّقةً بـ﴿الْكَذِبِ﴾ على أنّ ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ الثانيَ مكرَّرٌ للتأكيد بمعنى: "سمّاعون ليَكذِبوا لقومٍ آخَرِين"، فلا يكاد يساعِده[٣] النظم الكريم أصلًا. [١٣٠ظ]

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ صفة أخرى لـ﴿قَوْمٍ﴾، أي: لم يحضُروا مجلِسَك وتَجافَوْا عنك تكبُّرًا وإفراطًا في البَغضاء. قيل: هم يهودُ خَيْبَر، و"السمّاعون" بَنُو قُرَيظةَ.[٤]

وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ صفة أخرى لـ﴿قَوْمٍ﴾، وُصِفوا أوّلًا بمغايَرتهم للسمّاعين تنبيهًا على استقلالهم وأصالتِهم في الرأي والتدبير، ثمّ بعَدم حضورهم مجلِسَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم إيذانًا بكمال طُغيانهم في الضلال، ثمّ باستمرارهم[٥] على التحريف بيانًا لإفراطهم في العُتُوّ والمكابرة والاجتراءِ على الافتراء على الله عزّ وجلّ وتعيينًا للكَذِب الذي سمِعه السمّاعون، أي: يُميلونه ويُزيلونه عن مواضعه بعد أنْ وضعه الله تعالى فيها، إمّا لفظًا بإهماله أو تغييرِ وضعه، وإمّا بحمله على غير المراد وإجرائِه في غير مَورِده. وقيل: الجملة مستأنَفة، لا محلَّ لها مِن الإعراب، ناعيةٌ عليهم شنائعَهم. وقيل: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ راجعٍ إلى "القوم".

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٤.

٢ وفي هامش م: هما كون "اللام" لتقوية العمل وكونُ السّماع متضمِّنًا معنى القبول. «منه».

٣ السياق: وأمّا كونُها لامَ التعليل... أو كونُها متعلِّقةً بـ﴿الْكَذِبِ﴾... فلا يكاد يساعِده...

٤ الكشّاف للزمخشري، ٦٣٣/١.

٥ وفي هامش م: كما يُنبِئ عنه صيغة المضارع. «منه».

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ كالجملة السابقة في الوجوه المذكورة، ويجوز أن يكون حالًا مِن ضمير ﴿يُحَرِّفُونَ﴾. وأمّا تجويزُ كونهما صفةً لـ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ أو حالًا مِن الضمير فيه، فممّا لا سبيلَ إليه أصلًا؛ كيف لا، وإنّ مَقُول القول ناطقٌ بأنّ قائله ممّن لا يحضُر مجلِسَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم، والمخاطَبَ به ممّن يحضُره؛ فكيف يُمكن أن يقوله السمّاعون المتردِّدون إليه عليه السلام لِمَن لا يحُوم حولَه عليه السلام قطعًا؟ وادّعاءُ قول السمّاعين لأعقابهم المخالِطين للمسلمين تعسّفٌ ظاهرٌ مُخِلٌّ بجزالة النظم الكريم.

والحقّ الذي لا مَحيدَ عنه أنّ المحرِّفين والقائلين هم القوم الآخَرون، أي: يقولون لأتباعهم السمّاعين لهم عند إلقائهم إليهم أقاويلَهم الباطلةَ مشيرين إلى كلامهم الباطلِ: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ﴾ مِن جهة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ واعمَلوا بموجَبه؛ فإنّه الحقّ، ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ﴾؛ بل أُوتيتُم غيرَه، ﴿فَٱحۡذَرُواْ﴾ أي: فاحذَرُوا قبولَه، وإيّاكم وإيّاه. وفي ترتيب الأمر بالحَذَر على مجرَّد عدم إيتاء المحرَّف مِن المبالغة في التحذيرِ ما لا يخفى.

رُوي أنّ شريفًا مِن خَيْبَرَ زنى بشريفةٍ، وهما مُحصَنانِ، وحدُّهما الرَّجْمُ في **التوراة**، فكرِهوا رجمَهما لشَرَفهما، فبعثوا رَهْطًا منهم إلى بني قُرَيظةَ ليسألوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم عن ذلك، وقالوا: «إنْ أمركم بالجَلْد والتحميمِ[١] فاقبَلوا، وإن أمركم بالرَّجْم فلا تقبَلوا، وأَرسِلوا الزانِيَين / معهم»، [١٣١و] فأمَرَهم بالرَّجْم، فأبَوْا أن يأخذوا به، فقال جبريلُ عليه السلام: «اجعَلْ بينك وبينهم ابنَ صُورِيَا»، ووصَفَه له، فقال عليه السلام: «هل تعرفون شابًّا أبيَضَ أعوَرَ، يسكُن فَدَكَ، يُقال له: ابن صُورِيَا؟»، قالوا: «نعم، وهو أعلَمُ يهوديّ على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى بنِ عِمرانَ في **التوراة**»، قال: «فأَرسِلوا إليه»، ففعلوا، فأتاهم، فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أنت ابن صُورِيَا؟»، قال: «نعم»، قال عليه السلام: «وأنت أعلَمُ اليهود؟»، قال: «كذلك يزعُمون»،

---

[١] حمّم الرجل: سخّم وجهَه بالحُمَم، وهو الفحم. وفي حديث الرجم: أنّه عليه السلام أمر بيهوديّ مُحمَّم مجلود، أي: مُسْوَدّ الوجه. مِن الحُمَمَة الفَحْمة. لسان العرب لابن منظور، «حمم».

قال لهم: «أترضَوْن به حَكَمًا؟»، قالوا: «نعم»، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنشُدك اللهَ الذي لا إله إلّا هو الذي فلَقَ البحرَ، وأنجاكم وأغرق آلَ فرعونَ، وظلَّل عليكم الغَمامَ وأنزل عليكم المَنَّ والسَّلوى، ورفع فوقكم الطورَ، وأنزل عليكم التوراةَ فيها حلالُه وحرامُه؛ هل تجدون في كتابكم الرَّجْمَ على مَن أُحصِنَ؟»، قال: «نعم، والذي ذكَّرْتَنِي به[1] لولا خشِيتُ أن يحرِقَني التوراةُ إن كذَبتُ أو غيَّرتُ ما اعترفتُ لك؛ ولكنْ كيف هي في كتابك يا محمّدُ؟»، قال عليه السلام: «إذا شهِد أربعةُ رهطٍ عُدولٍ أنّه أدخَلَ فيها كما يدخَل المِيلُ في المُكْحُلة،[2] وجب عليه الرَّجمُ»، قال ابن صُورِيَا: «والذي أنزل التوراة على موسىٰ، هكذا أنزل الله في التوراة على موسى»، فوَثَب عليه سَفِلَةُ اليهود، فقال: «خِفتُ إن كذَبتُه أن ينزل علينا العذاب»، ثمّ سأل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم عن أشياءَ كان يعرِفها مِن أعلامه، فقال: «أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله النبيُّ الأُمّيُّ العربيُّ الذي بُشّر به المرسَلون»، / وأمَرَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بالزانيَين، فرُجِمَا عند باب المسجد.[3] [١٣١ظ]

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ أي: ضلالتَه أو فضيحتَه كائنًا مَن كان، فيندرج فيه المذكورون اندراجًا أوّليًا. وعدمُ التصريح بكونهم كذلك للإشعار بكمال ظهوره واستغنائِه عن ذكره. ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ﴾ فلن تستطيع له ﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ في دفعها. والجملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها ومبيِّنةٌ لعدم انفكاكهم عن القبائح المذكورة أبدًا.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين مِن المنافقين واليهود. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفساد. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ أي: مِن رِجس الكفر وخَبَثِ الضلالة لانهماكِهم

---

[1] أي: أقسِمُ بالذي ذكَّرْتَنِي به.

[2] المُكْحُلة: وِعاء الكُحل، والجمع: مكاحل. المُغرِب للمطرّزي، ص ٤٠١ «الكاف مع الحاء المهملة».

[3] هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في الكشّاف للزمخشري، ٦٣٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٧/٢، ومفصّلًا في السنن الكبرى للبيهقي، ٤٣٠/٨- ٤٣١ (١٧١١٩). وأصله في صحيح البخاري، ٣٧/٦ (٤٥٥٦)؛ وصحيح مسلم، ١٣٢٦/٣ (١٦٩٩).

فيهما وإصرارِهم عليهما وإعراضِهم عن صَرف اختيارْهم إلى تحصيل الهداية بالكلّيّة، كما ينبِئ عنه وصفُهم بالمسارعة في الكفر أوّلًا، وشرحُ فنونِ ضلالاتهم آخِرًا. والجملة استئناف مبيّن لكون إرادته تعالى لفتنتهم مَنوطةً بسُوء اختيارهم وقُبحِ صنيعهم الموجِبِ لها، لا واقعةً منه تعالى ابتداءً.

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أمّا المنافقون فخِزيُهم فضيحتُهم وهَتكُ سترِهم بظهور نفاقهم فيما بين المسلمين. وأمّا خِزيُ اليهود فالذُّلّ والجِزيةُ والافتضاحُ بظهور كَذِبهم في كِتمان نصّ التوراة. وتنكير ﴿خِزْيٌ﴾ للتفخيم، وهو مبتدأ، و﴿لَهُمْ﴾ خبره، و﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّق بما تعلَّق به الخبرُ مِن الاستقرار. وكذا الحال في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: مع الخِزي الدنيَويّ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو الخلود في النار.

وضمير ﴿لَهُمْ﴾ في الجملتين للمنافقِين واليهودِ جميعًا، لا لليهود خاصّةً كما قيل. وتكرير ﴿لَهُمْ﴾[١] -مع اتّحاد المرجِع- لزيادة التقرير والتأكيدِ. والجملتان استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن تفصيل أفعالهم وأحوالهم الموجِبةِ للعقاب، كأنّه قيل: فما لهم مِن العقوبة؟ فقيل لهم: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ الآية.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٤٢﴾

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ خبرٌ آخَرُ للمبتدأ المقدَّر، كُرِّر تأكيدًا لِما قبله وتمهيدًا لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾، وهو أيضًا خبرٌ آخَرُ للمقدَّر، واردٌ على طريقة الذمّ، أو بناءً على أنّ المراد بـ﴿ٱلْكَذِبِ﴾ ما يفتعله الراشُون عند الأكّالين.

و"السُّحْت" -بضَمّ السين وسكونِ الحاء- في الأصل: كلّ ما لا يَحِلّ كسبُه. وقيل: هو الحرام مطلَقًا، مِن "سَحَتَه" إذا استأصله؛ سُمّيَ به لأنّه مسحوتُ البَرَكة. والمراد به ههنا إمّا الرُّشَى التي كان يأخذها المحرِّفون على تحريفهم وسائرِ أحكامهم الزائغة، وهو المشهور، أو ما كان / يأخذه فُقَراؤهم مِن أغنيائهم [١٣٢و]

١ وفي هامش م: دون أنْ يُقال: لهم في الدنيا خزيٌ وفي الآخرة عذابٌ عظيمٌ. «منه».

مِن المال ليُقيموا على اليهوديّة كما قيل، وإمّا مطلَقُ الحرام المنتظِمِ لِما ذُكر انتظامًا أوّليًّا.

وقُرئ: "لِلسُّحُتِ" بضَمّ السين والحاءِ،[١] وبفَتحهما،[٢] وبفتح السين وسكونِ الحاء،[٣] وبكسر السين وسكونِ الحاء.[٤] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كلُّ لَحْمٍ أنبَتَه السُّحْتُ فالنار أَولى به».[٥]

﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ لمّا بيّن تفاصيلُ أمورهم الواهية وأحوالِهم المُختلّة الموجِبة لعدم المُبالاة بهم وبأفاعيلهم حسبما أُمر به عليه السلام[٦] خُوطِبَ[٧] عليه السلام ببعض ما يُبتنى عليه[٨] مِن الأحكام بطريق التفريع. و"الفاء" فصيحة، أي: وإذا كان حالهم كما شُرح، فإن جاءوك متحاكِمين إليك فيما شجَرَ بينهم مِن الخصومات ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ غيرَ مُبالٍ بهم، ولا خائفٍ مِن جهتِهم أصلًا. وهذا -كما ترى- تخييرٌ له صلّى الله عليه وسلّم بين الأمرين.

فقيل: هو في أمر خاصّ، هو ما ذُكر مِن زِنا المُحصَن.[٩] وقيل: في قَتيلٍ قُتل مِن اليهود في بني قُريظةَ والنضيرِ، فتَحاكموا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال بنو قُريظةَ: «إخوانُنا بنو النضير، أبونا واحد، ودينُنا واحد، ونبيُّنا واحد؛ وإذا قتلوا منّا قتيلًا لم يرضَوْا بالقَوَد[١٠] وأعطَوْنا سبعين وَسْقًا[١١] مِن تمرٍ،

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي. كتاب السبعة لابن مجاهد، ص ٢٤٣؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٤.

[٣] رواها العبّاس بن فضل عن خارجة بن مصعب عن نافع. الحجّة لأبي عليّ الفارسي، ٣/٢٢١. وهي غير القراءة المشهورة لنافع.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبيد بن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٤.

[٥] الكشّاف للزمخشري، ١/٦٣٥. وهو في المعجم الكبير للطبراني، ١/٧٣ (٨٧)؛ والمستدرك للحاكم، ٤/١٤١ (٧١٦٤)، كذا: «مَن نبتَ لحمُه مِن السُّحت فالنار أَولى به». وروى الترمذي في سننه، ٢/٥١٢-٥١٣ (٦١٤)، مِن حديث كعب بن عُجْرة في حديث طويل في آخِره: «يا كعب بنَ عُجْرةَ، إنّه لا يَربُو لحمٌ نبَتَ مِن سُحت إلّا كانت النار أَولى به».

[٦] في الآية السابقة.

[٧] السياق: لمّا بيّن... خُوطِبَ...

[٨] أي: على عدم المُبالاة بهم.

[٩] سبق ذكره آنِفًا في تفسير هذه الآية.

[١٠] القَوَد: القتلُ بالقتيل، تقول: أقدْتُه. واستقدْتُ الحاكمَ وأقدْتُه: انتقمْتُ منه بمثل ما أتى. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٥/١٩٧ «باب القاف والدال».

[١١] الوَسْق: سِتّون صاعًا. قال الخليل: الوَسْق هو حِمْل البعير. الصحاح للجوهري، «وسق».

وإذا قتلنا منهم قتَلوا القاتلَ وأخذوا منّا الضِعفَ مائةَ وأربعين وَسْقًا مِن تمرٍ، وإن كان القتيلُ امرأةً قتلوا بها الرجلَ منّا، وبالرجل منهم الرجلَين منّا، وبالعبد منهم الحُرَّ منّا؛ فاقضِ بيننا»، فجعل عليه السلام الدِّيَةَ سواءً.[١]

وقيل: هو عامٌّ في جميع الحكومات. ثمّ اختلفوا، فمِن قائلٍ: إنّه ثابتٌ، وهو المَرويّ عن عطاء والنَّخَعي والشَّعبي وقتادةَ وأبي بكر الأصمّ وأبي مسلم،[٢] وقائلٍ: إنّه منسوخ، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما[٣] والحسن[٤] / ومجاهد [١٣٢ظ] وعِكرمة.[٥] قال ابن عبّاس: «لم يُنسخ مِن المائدة إلّا آيتان: قولُه تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة، ٢/٥]، نسَخَها قولُه تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ[٦] ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة، ٥/٩]؛ وقولُه تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، نسَخَها قولُه تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة، ٤٩/٥]»،[٧] وعليه مشايِخُنا.

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بيان لحال الأمرين إثرَ تخييره عليه السلام بينهما. وتقديم حال الإعراض للمسارعة إلى بيان أنْ لا ضررَ فيه؛ حيث كان مَظِنّةُ الضرر لِما أنّهم كانوا لا يتحاكمون إليه عليه السلام إلّا لطلب الأيْسَر والأهْوَن عليهم، فإذا أعرَضَ عنهم وأبى الحكومةَ بينهم شقَّ ذلك عليهم، فيشتدّ عَداوتهم ومضارّتُهم له عليه السلام، فآمَنَه الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ مِن الضرر؛ فإنّ الله عاصِمُك مِن الناس.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل الذي أُمرتَ به، كما حكمتَ بالرَّجم.[٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ومِن ضرورته أن يحفَظَهم عن كلّ مكروه ومحذور.

---

[١] هو مع اختلاف بالنقص في التفسير البسيط للواحدي، ٤١٧/٧ [المائدة، ٥٠/٥]. وأصله في سنن أبي داود، ٥٤٥/٦ (٤٤٩٤)؛ وسنن النسائي، ١٨/٨ (٤٧٣٢)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ١٦٦، باختلافٍ في كيفيّة أداء القصاص.

[٢] اللباب لابن عادل، ٣٤٣/٧.

[٣] م - رضي الله عنهما.

[٤] أي: الحسن البصري.

[٥] اللباب لابن عادل، ٣٤٣/٧.

[٦] م ط س: اقتلوا.

[٧] اللباب لابن عادل، ٣٤٣/٧. وباختلاف يسير في الكشف والبيان للثعلبي، ٦٨/٤.

[٨] سبقت قصّته آنِفًا في تفسير هذه الآية.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ تعجيبٌ مِن تحكيمهم لِمَن لا يؤمنون به وبكتابه والحالُ أنّ الحُكم منصوصٌ عليه في كتابهم الذي يدّعون الإيمانَ به، وتنبيهٌ على أنّهم ما قصدوا بالتحكيم معرفةَ الحقّ وإقامةَ الشرع، وإنّما طلبوا به ما هو أهوَنُ عليهم، وإن لم يكن ذلك حكمَ الله على زعمهم.

فقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ حال مِن فاعلِ ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ حال مِن ﴿ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ إن جُعلت مرتفِعةً بالظرف، وإن جُعلت مبتدأً فهو حال مِن ضميرها المستكنّ في الخبر. وقيل: استئناف مَسوق لبيان أنّ عندهم ما يُغنيهم عن التحكيم. وتأنيثُها لكونها نظيرةَ المؤنّث في كلامهم، كـ"مَوْمَاة" و"دَوْدَاة".

[١٣٣و] / ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ عطفٌ على ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾، داخلٌ في حُكم التعجيب. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ -أي: مِن بعد ما حَكّموك- تصريحٌ بما عُلم قطعًا لتأكيد الاستبعاد والتعجيب، أي: ثمّ يُعرِضون عن حكمك الموافِقِ لكتابهم مِن بعد ما رَضُوا بحُكمك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تذييل مقرِّر لفَحوى ما قبله. ووضعُ اسم الإشارة موضِعَ ضميرهم للقصد إلى إحضارهم في الذهن بما وُصفوا به مِن القبائح، إيماءً إلى علّة الحُكم وإلى أنّهم قد تميّزوا بذلك عن غيرهم أكمَلَ تميُّزٍ حتّى انتظموا في سلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتهم في العُتُوّ والمكابَرة. أي: وما أولئك الموصوفون بما ذُكر بالمؤمنين -أي: بكتابهم- لإعراضهم عنه أوّلًا، وعن حُكمك الموافِقِ له ثانيًا، أو بهما. وقيل: وما أولئك بالكاملين في الإيمان تهكُّمًا بهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ كلام مستأنَف سِيقَ لبيان عُلُوِّ شأن التوراة ووجوبِ مراعاة أحكامها، وأنّها لم تَزَلْ مَرعيّةً فيما بين الأنبياء ومَن يقتدي بهم كابرًا عن كابرٍ،[1] مقبولةً لكلّ أحد مِن الحُكّام والمتحاكِمين، محفوظةً عن المخالفة والتبديل، تحقيقًا لِما وُصف به المحرِّفون مِن عدم إيمانهم بها، وتقريرًا لكفرهم وظلمهم.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ حال مِن ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾، فإنّ ما فيها مِن الشرائع والأحكام مِن حيث إرشادُها للناس إلى الحقّ الذي لا مَحيدَ عنه هُدًى، ومِن حيث إظهارُها وكشفُها ما استبهَمَ مِن الأحكام / وما يتعلّق بها مِن الأمور المستورة بظُلمات الجهل نورٌ. [١٣٣ظ]

وقوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ أي: أنبياءُ بني إسرائيلَ، وقيل: موسى ومَن بعده مِن الأنبياء. جملةٌ مستأنَفةٌ مبيِّنةٌ لرفعة رُتبتِها وسُمُوِّ طبقتِها. وقد جُوِّز كونه حالًا مِن ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾، فيكون حالًا مقدَّرة، أي: يحكُمون بأحكامها ويحمِلون الناس عليها. وبه تمسَّك مَن ذهب إلى أنّ "شريعةَ مَن قبلنا" شريعةٌ لنا ما لم تُنسَخ. وتقديم الجارّ والمجرور على الفاعل لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بشأن المقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، ولأنّ في المؤخَّر وما يتعلّق به نوعَ طُولٍ ربّما يُخِلّ تقديمُه بتجاوُب[2] النظم الكريم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ صفة أُجرِيتْ على "النبيّين" على سبيل المدح دون التخصيص والتوضيح؛ لكنْ لا للقصد إلى مدحهم بذلك حقيقةً، فإنّ النبوّة أعظَمُ مِن الإسلام قطعًا، فيكون وصفُهم به بعد وصفهم بها تنزُّلًا مِن الأعلى إلى الأدنى؛ بل لتنويه شأن الصفة، فإنّ إبراز وصفٍ في معرِض مدح العُظَماء مُنبِئٌ عن عِظَم قدر الوصف لا محالةَ، كما في وصف الأنبياء بـ"الصلاح" ووصفِ الملائكة بـ"الإيمان" عليهم السلام؛ ولذلك قيل: "أوصافُ الأشراف أشرافُ الأوصاف".

---

[1] يُقال: وَرِثوا المجدَ كابرًا عن كابرٍ، أي: عظيمًا وكبيرًا عن كبيرٍ في الشَّرَف والعزّ، وَرِثوا عن آبائهم الذين وَرِثوه مِن أجدادهم الذين وَرِثوه مِن آبائهم، كبيرًا عن كبيرٍ في العزّ والشَّرَف. انظر: تهذيب اللغة للأزهري، ١٢٢/١٠ «أبواب الكاف والراء»؛ وأساس البلاغة للزمخشري، «كبر».

[2] س + أطراف.

وفيه رفعٌ لشأن المسلمين، وتعريضٌ باليهود وبأنّهم بمَعزِل مِن الإسلام والاقتداءِ بدين الأنبياء عليهم السلام، لاسيّما مع ملاحظة ما وُصفوا به في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾. وهو متعلّق بـ﴿يَحْكُمُ﴾، أي: يحكُمون فيما بينهم. و"اللام" إمّا لبيان اختصاص الحُكم بهم أعمَّ مِن أن يكون لهم أو عليهم، كأنّه قيل: لأجل / الذين هادوا، وإمّا للإيذان بنفعه للمحكوم عليه أيضًا بإسقاط [١٣٤و] التبعة عنه، وإمّا للإشعار بكمال رِضاهم به وانقيادِهم له، كأنّه أمرٌ نافعٌ لكِلا الفريقين، ففيه تعريض بالمحرّفين.

وقيل: التقدير: "للذين هادوا وعليهم"،[١] فحُذِف ما حُذف لدلالة ما ذُكر عليه. وقيل: هو متعلِّق بـ﴿أَنزَلْنَا﴾، وقيل: بـ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾، وفيه فصلٌ بين المصدر ومعمولِه، وقيل: متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً لهما، أي: هُدًى ونورٌ كائنان للذين هادوا.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي: الزُّهّاد والعلماءُ مِن وَلَد هارونَ الذين التزموا طريقةَ النبيّين وجانَبوا دينَ اليهود. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾: الذين يسُوسُون الناسَ بالعلم ويربّونهم بصغاره قبل كباره، و﴿الْأَحْبَارُ﴾: هم الفقهاء».[٢] واحدُه: "حبْر" -بالفتح والكسر، والثاني أفصَحُ، وهو رأي الفرّاء- مأخوذٌ مِن "التحبير" و"التحسين"، فإنّهم يحبِّرون العلمَ ويزيِّنونه ويبيِّنونه.

وهو عطفٌ على ﴿النَّبِيُّونَ﴾، أي: هم أيضًا يحكُمون بأحكامها. وتوسيط المحكوم لهم[٣] بين المعطوفَين للإيذان بأنّ الأصل في الحُكم بها وحملِ الناس على ما فيها هُم النبيّون، وإنّما الربّانيّون والأحبارُ خُلَفاءُ ونُوّابٌ لهم في ذلك، كما يُنبِئ عنه قوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾، أي: بالذي[٤] استُحفِظوه مِن جهة النبيّين، وهو التوراة؛ حيث سألوهم[٥] أن يحفَظوها مِن التغيير والتبديل على الإطلاق،

---

[١] أي: للذين هادوا وعلى الذين هادوا.

[٢] ورد القسم الأوّل والثاني مِن القول متفرّقًا في تفسير القرطبي، ١٨٩/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٤٦/٧-٣٤٧. وورد القسم الثاني في نفسير البسيط للواحدي، ٣٨٩/٧؛ وتفسير الرازي ٣٦٦/١٢.

[٣] أي: الذين هادُوا.

[٤] س + الذي.

[٥] أي: سألوا النبيّين.

ولا ريبَ في أنّ ذلك منهم عليهم السلام استخلافٌ لهم في إجراء أحكامها مِن غير إخلالٍ بشيء منها.

وفي إبهامها أوّلًا ثمّ بيانِها بقوله تعالى: ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ / مِن تفخيمها [١٣٤ظ] وإجلالِها ذاتًا وإضافةً وتأكيدِ إيجاب حفظها والعملِ بما فيها ما لا يخفى. وإيرادها بعُنوان "الكتاب" للإيماء إلى إيجاب حفظها عن التغيير مِن جهة الكتابة.

و"الباء" الداخلة على الموصول متعلِّقةٌ بـ﴿يَحۡكُمُ﴾؛ لكنْ لا على أنّها صلةٌ له كالتي في قوله تعالى: ﴿بِهَا﴾، ليلزَمَ تعلّقُ حرفَيْ جرٍّ متّحِدَي المعنى بفعل واحد؛ بل على أنّها سببيّة، أي: ويحكُم الربّانِيّون والأحبارُ أيضًا بسبب ما حفِظوه مِن كتاب الله حسبما وصّاهم به أنبياؤهم وسألوهم أن يحفَظوه. وليس المرادُ بسببيّتِه لحكمهم ذلك سببيّتَه مِن حيث الذاتُ؛ بل مِن حيث كونُه محفوظًا، فإنّ تعليق حكمهم بالموصول مشعِرٌ بسببيّة الحفظ المترتِّب -لا محالةَ- على ما في حَيّز الصلة مِن الاستحفاظ له.

وقيل: "الباء" صلةٌ لفعل مقدَّرٍ معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ عطفَ جملةٍ على جملة، أي: ويحكُم الربّانِيّون والأحبارُ بحكم كتاب الله الذي سألهم أنبياؤهم أن يحفَظوه مِن التغيير.

﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ أي: رُقَباءَ، يَحمُونه مِن أن يحُوم حولَه التغييرُ والتبديلُ بوجه مِن الوجوه، فتغيير الأسلوب لِما ذُكر مِن المَزايا.

وقيل: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ بدلٌ مِن قوله تعالى: ﴿بِهَا﴾ بإعادة العامل، وهو بعيد. وكذا تجويزُ كون الضمير في ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ لـ"الأنبياء" و"الربّانِيّين" و"الأحبارِ" جميعًا، على أنّ الاستحفاظ مِن جَناب الله عزّ وجلّ، أي: كلّفهم الله تعالى أن يحفَظوه ويكونوا عليه شهداءَ.

وقوله تعالى وتقدَّس:[١] ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ خطابٌ لرُؤساء اليهود وعلمائِهم بطريق الالتفات، وأمّا حُكّام المسلمين فيتناوَلُهم النهيُ بطريق الدلالة دون العبارة.

---

[١] س - وتقدّس.

و"الفاء" لترتيب النهي على ما فُصّل مِن حال التوراة وكونِها مُعْتَنًى بشأنها فيما بين الأنبياء ومَن يقتدِي بهم مِن الربّانِيّين والأحبار المتقدِّمين عملًا وحفظًا، فإنّ ذلك ممّا يوجِب الاجتنابَ عن الإخلال بوظائفِ مراعاتها والمحافظةِ عليها بأيّ وجهٍ كان، فضلًا عن التحريف والتغيير.

[١٣٥و] / ولمّا كان مدارُ اجترائهم على ذلك خشيةَ ذي سلطانٍ أو رغبةً في الحظوظ الدنيَوِيّة نُهُوا عن كلٍّ منهما صريحًا، أي: إذا كان شأنُها كما ذُكر، فلا تَخْشَوا الناسَ كائنًا مَن كان، واقتَدُوا في مراعاة أحكامها وحفظِها بمَن قبلكم مِن الأنبياء وأشياعِهم، ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ في الإخلال بحقوق مراعاتها، فكيف بالتعرّض لها بسُوء.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي﴾ الاشتراء: استبدال السِّلعة بالثَّمَن، أي: أخذُها بدلًا منه، لا بَذْلُ الثَّمَن لتحصيلها كما قيل. ثمّ استُعيرَ لأخذ شيءٍ بدلًا ممّا كان له -عَيْنًا كان أو معنًى- أخذًا مَنُوطًا بالرغبة فيما أُخذ والإعراضِ عمّا أُعطِيَ ونُبِذَ، كما فُصِّل في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة، ١٦/٢]؛ فالمعنى: لا تستبدِلوا بآياتي التي فيها بأنْ تُخرِجوها منها أو تترُكوا العملَ بها وتأخذوا لأنفُسكم بدلًا منها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِن الرِّشوة والجاهِ وسائرِ الحظوظ الدنيَوِيّة؛ فإنّها -وإن جَلّت- قليلةٌ مسترذَلةٌ في نفسها، لاسيّما بالنسبة إلى ما فات عنهم بترك العمل بها.

وإنّما عُبّر عن المشتَرَى الذي هو العُمدة في عقود المعاوَضة والمقصِدُ الأصليُّ بـ"الثَّمَن" الذي شأنه أن يكون وسيلةً لتحصيله، وأُبرزَت "الآياتُ" التي حقّها أن يتنافس فيها المتنافِسون في معرِض الآلات والوسائطِ حيث قُرنت بـ"الباء" التي تصحَب الوسائلَ إيذانًا[١] بمبالغتهم في التعكيس بأنْ جعلوا المقصد الأقصى وسيلةً، والوسيلةَ الأدنى مقصدًا.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كائنًا مَن كان، دون المخاطَبين خاصّةً، فإنّهم مندرِجون فيه اندراجًا أوّليًا، أي: مَن لم يحكُم بذلك، مستهينًا به منكِرًا له

---

[١] السياق: وإنّما عُبّر عن المشتَرَى... بـ"الثَّمَن"...، والوسائطِ... إيذانًا...
وأُبرزَت "الآياتُ" في معرِض الآلات

كما يقتضيه ما فعلوه مِن تحريف آيات الله تعالى اقتضاءً بيّنًا. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها. ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ / لاستهانتِهم به. و﴿هُمْ﴾ إمّا ضمير الفعل، أو مبتدأ، ما بعده خبرُه، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وقد مرّ تفصيلُه في مطلَع سورة البقرة.[1] [١٣٥ظ]

والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها أبلغَ تقريرٍ، وتحذيرٌ عن الإخلال به أشدَّ تحذيرٍ؛ حيث عُلِّق فيه الحُكم بالكفر بمجرَّد ترك الحُكم بما أنزل الله؛ فكيف وقد انضمَّ إليه الحكمُ بخلافه، لاسيّما مع مباشرة ما نُهُوا عنه مِن تحريفه ووضعِ غيره موضِعَه وادّعاءِ أنّه مِن عند الله ليشتروا به ثَمنًا قليلًا!

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَكَتَبْنَا﴾ عطفٌ على ﴿أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾.[2] ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الذين هادوا. وقُرئ: "وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ".[3] ﴿فِيهَآ﴾ أي: في التوراة: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي: تُقاد بها إذا قتلَتْها بغير حقّ، ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ تُفقَأ ﴿بِٱلْعَيْنِ﴾ إذا فُقِئَتْ بغير حقّ، ﴿وَٱلْأَنفَ﴾ يُجدَع ﴿بِٱلْأَنفِ﴾ المقطوعِ بغير حقّ، ﴿وَٱلْأُذُنَ﴾ تُصلَم ﴿بِٱلْأُذُنِ﴾ المقطوعة ظلمًا، ﴿وَٱلسِّنَّ﴾ تُقلَع ﴿بِٱلسِّنِّ﴾ المقلوعةِ بغير حقّ، ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي: ذاتُ قِصاص، إذا كانت بحيث يُعرف المساواة.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّهم كانوا لا يقتلون الرجلَ بالمرأة، فنزلت».[4] وقُرئ: "وَأَنَّ الجُرُوحَ قِصَاصٌ".[5] وقُرئ: "وَالعَيْنُ" إلى آخره بالرفع[6]

---

[1] انظر: البقرة، ٢/٥.

[2] في الآية السابقة.

[3] هي في مصحف أُبيّ على ما ذكره الزمخشري في الكشّاف، ١/٦٣٨.

[4] الكشّاف للزمخشري، ١/٦٣٨؛ تفسير الرازي، ١٢/٣٦٨.

[5] في نسخة المؤلّف بتشديد النون في "أن"، ولم نقف عليها هكذا، وقراءة أُبيّ بن كعب الشاذّةُ: "وَأَنِ الجُرُوحُ قِصَاصٌ" كما وردت في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢/١٩٧؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤/٢٧٢.

[6] قرأ الكسائي بالرفع في الخمسة، وافقَه في "الجُرُوح" ابنُ كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٤.

عطفًا على محلّ ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾؛ لأنّ المعنى: "كتبنا عليهم: النفسُ بالنفس"؛ إمّا لإجراء ﴿كَتَبْنَا﴾ مُجرى "قُلنا"، وإمّا لأنّ معنى الجملة -التي هي قولك: "النفسُ بالنفس"- ممّا يقع عليه الكَتْب كما يقع عليه القراءةُ، تقول: "كتبتُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾" [الفاتحة، ٢/١]، و"قرأتُ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾" [النور، ١/٢٤].

﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ أي: مِن المستحِقّين ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقِصاص، أي: فمَن عفا عنه. والتعبير عنه بـ"التصدّق" للمبالغة في الترغيب فيه. ﴿فَهُوَ﴾ أي: التصدّق ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي: للمتصدِّق، يكفِّر الله تعالى بها ذنوبَه، وقيل: للجاني؛ إذا تجاوَزَ عنه صاحبُ الحقّ سقط عنه ما لزِمه. وقُرئ: "فَهُوَ كَفَّارَتُهُ لَهُ"،[١] أي: فالمتصدِّق كفّارتُه التي يستحقّها بالتصدّق له، لا ينقص منها شيء، وهو تعظيمٌ لِما فَعَل، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى، ٤٠/٤٢].

[١٣٦و] / ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ كائنًا مَن كان، فيتناول مَن لا يرى قتلَ الرجل بالمرأة مِن اليهود تناوُلًا بيّنًا. ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِن الأحكام والشرائع كائنًا ما كان، فيدخل فيها الأحكامُ المَحكيّةُ دخولًا أوّليًا. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المبالِغون في الظلم، المُتَعدُّون لحدوده تعالى، الواضعون للشيء في غير موضِعه. والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لإيجاب العمل بالأحكام المذكورة.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ شروع في بيان أحكام الإنجيل إثرَ بيان أحكام التوراة. وهو عطفٌ على ﴿أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾.[٢] أي: آثارِ النبيّين المذكورين. يُقال: "قفّيتُه بفُلان" إذا أتبعتَه إيّاه، فحُذِف المفعول لدلالة الجارّ والمجرور عليه، أي: قفّيناهم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلناه عقيبَهم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ حال مِن ﴿عِيسَى﴾ عليه السلام.

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٢٨/٢، بلا نسبة؛ وابن عادل في اللباب، ٣٥٧/٧، منسوبة إلى أُبيّ.
[٢] المائدة، ٤٤/٥.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ عطفٌ على ﴿قَفَّيْنَا﴾. وقُرئ بفتح الهمزة.[١] ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما في التوراة. وهو في محلّ النصب على أنّه حال مِن ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾، أي: كائنًا فيه ذلك، كأنّه قيل: مشتمِلًا على هُدًى ونورٍ. وتنوينُ ﴿هُدًى﴾ و﴿نُورٌ﴾ للتفخيم، ويندرج في ذلك شواهدُ نبوّتِه صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عطفٌ عليه، داخلٌ في حكم الحاليّة. وتكريرُ ﴿مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لزيادة التقرير. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عطفٌ على ﴿مُصَدِّقًا﴾، منتظِمٌ معه في سلك الحاليّة. جُعل كلُّه هدًى بعد ما جُعل مشتملًا عليه، حيث قيل: ﴿فِيهِ هُدًى﴾. وتخصيصُ كونه هدًى وموعظةً بالمتّقين؛ لأنّهم المهتدون بهُداه والمنتفِعون بجَدواه.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ أمرٌ مبتدأٌ لهم بأنْ يحكُموا ويعملوا بما فيه مِن الأمور التي مِن جملتها دلائلُ رسالته صلّى الله عليه وسلّم وشواهدُ نبوّتِه وما قرّره الشريعة الشريفة مِن أحكامه. وأمّا أحكامُه المنسوخة، فليس الحكمُ بها حكمًا بما أنزل الله فيه؛ بل هو إبطال وتعطيل له، إذ هو شاهدٌ بنسخها وانتهاءِ وقت العمل بها؛ لأنّ شهادته / بصحّة ما ينسَخها مِن الشريعة [١٣٦ظ] شهادةٌ بنسخها، وبأنّ أحكامه ما قرّرَتْه تلك الشريعةُ التي شهِد بصحّتها، كما سيأتي في قوله تعالى:[٢] ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الآية [المائدة، ٦٨/٥].

وقيل: هو حكاية للأمر الوارد عليهم بتقدير فعلٍ معطوفٍ على ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾،[٣] أي: وقلنا: لِيحكُمْ أهلُ الإنجيل... إلخ. وقُرئ: "وَأَنْ لِيَحْكُمْ"،[٤] على أنّ "أنْ"

---

١ أي: "الأَنجِيلَ"، قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٦٣٩/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٢٧٨/٤، ونسَبَاها إلى الحسن.

٢ م - تعالى.

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٦٣٩/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٢٨٠/٤، ونسَبَاها إلى أُبيّ بن كعب.

موصولة بالأمر، كما في قولك: "أمرتُه بأنْ قُمْ"، كأنّه قيل: وآتيناه **الإنجيلَ** وأمَرْنا بأنْ يحكُمَ أهلُ **الإنجيل**... إلخ. وقُرئ على صيغة المضارع ولامِ التعليل،[١] على أنّها متعلِّقة بمقدَّرٍ، كأنّه قيل: ولِيَحكُمَ أهلُ **الإنجيل** بما أنزل الله فيه آتيناه إيّاه. وقد عُطِف على ﴿هُدًى وَمَوْعِظَةً﴾،[٢] على أنّهما مفعول لهما، كأنّه قيل: وللهُدى والموعظةِ آتيناه إيّاه وللحُكم بما أنزل الله فيه.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ منكِرًا له مستهينًا به، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ المتمَرِّدون الخارجون عن الإيمان. والجملة تذييل مقرِّر لمضمون الجملة السابقة، ومؤكِّد لوجوب الامتثال بالأمر. وفيه دلالة على أنّ **الإنجيل** مشتمِل على الأحكام، وأنّ عيسى عليه السلام كان مستقِلًا بالشرع، مأمورًا بالعمل بما فيه مِن الأحكام، قلَّتْ أو كثُرتْ، لا بما في **التوراة** خاصّةً. وحملُه على معنى "وليحكُمْ بما أنزل الله فيه مِن إيجاب العمل بأحكام **التوراة**" خلافُ الظاهر.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: الفردَ الكاملَ الحقيقَ بأنْ يُسمَّى كتابًا على الإطلاق لحِيازته جميعَ الأوصاف الكماليّة لجنس الكتاب السماويّ وتفوُّقِه على بقيّة أفراده، وهو **القرآن الكريم**؛ فـ"اللام" للعهد. والجملة عطفٌ على ﴿أَنزَلْنَا﴾[٣] وما عُطِف عليه.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مؤكِّدةً مِن ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾، أي: ملتبِسًا بالحقّ والصدق، وقيل: مِن فاعل ﴿أَنزَلْنَا﴾، وقيل: مِن "الكاف" في ﴿إِلَيْكَ﴾.

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٤.

٢ في الآية السابقة.

٣ المائدة، ٥/٤٤.

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال مِن ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: حالَ كونه مصدِّقًا لِما تقدَّمه، إمّا مِن حيث إنّه نازلٌ حسبما نُعِت فيه، أو مِن حيث إنّه موافِقٌ له في القِصَص والمواعيد والدعوةِ إلى الحقّ والعدلِ بين الناس والنهيِ عن المعاصي والفواحش.

وأمّا ما يتراءى مِن مخالفته له في بعض جُزئيّات الأحكام المتغيِّرة بسبب تغيُّر الأعصار، فليست بمخالَفة في الحقيقة؛ بل هي موافِقة لها مِن حيث إنّ كلًّا مِن تلك الأحكام حقٌّ بالإضافة إلى عصره، متضمِّنٌ للحكمة التي عليها يدُور أمر الشريعة، وليس في المتقدِّم دلالةٌ على أبَدِيّة أحكامه المنسوخة حتّى يخالِفَه الناسخُ المتأخِّرُ، وإنّما يدلّ على مشروعيّتِها مطلَقًا مِن غير تعرُّض لبقائها وزوالِها؛ بل نقول: هو ناطقٌ بزوالها، لِما أنّ النُّطق بصحّة ما ينسَخها نطقٌ بنسخها وزوالِها.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بيان لـ﴿مَا﴾. و"اللام" للجنس؛ إذ المراد هو الكتاب السماويّ، وهو بهذا العُنوان جنسٌ برأسه، وإن كان / في نفسه نوعًا [١٣٧و] مخصوصًا مِن مدلول لفظ "الكتاب"، وعن هذا قالوا: "اللام" للعهد؛ إلّا أنّ ذلك لا ينتهي إلى خصوصيّة الفرديّة، بل إلى خصوصيّة النوعيّة التي هي أخصُّ مِن مطلَق الكتاب -وهو ظاهر- ومِن الكتاب السماويّ أيضًا، حيث خُصَّ بما عَدَا القرآنَ.

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: رقيبًا على سائر الكُتُب المحفوظة عن التغيير؛ لأنّه يشهَد لها بالصحّة والثباتِ، ويقرِّر أصولَ شرائعها وما يتأبّد مِن فروعها، ويعيِّن أحكامَها المنسوخةَ ببيان انتهاء مشروعيّتِها المستفادةِ مِن تلك الكُتُب وانقضاءِ وقت العمل بها؛ ولا ريبَ في أنّ تمييز أحكامها الباقيةِ على المشروعيّة أبدًا عمّا انتهى وقتُ مشروعيّتِه وخرَجَ عنها مِن أحكام كونه مُهيمِنًا عليها.

وقُرئ: "وَمُهَيْمَنًا عَلَيْهِ"[١] على صيغة المفعول، أي: هُومِنَ عليه وحُفِظ مِن التغيير والتبديل، كقوله عزّ وجلّ: ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت، ٤١/٤٢]. والحافظ إمّا مِن جهته تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر، ١٥/٩] أو الحُفّاظُ في الأعصار والأمصار.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٥.

و"الفاء" في قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ لِترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإنّ كون **القرآن العظيم** حقًّا مصدِّقًا لِما قبله مِن الكُتُب المنزلة على الأمَم مُهيمِنًا عليه مِن موجِبات الحُكم المأمور به، أي: إذا كان شأنُ **القرآن** كما ذُكِر، فاحكُمْ بين أهل الكتابين عند تحاكُمِهم إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: بما أنزله إليك؛ فإنّه مشتمِل على جميع الأحكام الشرعيّة الباقيةِ في الكُتُب الإلهيّة. وتقديم ﴿بَيۡنَهُم﴾ للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم. ووضعُ الموصول موضِعَ الضمير للتنبيه على عِلّيّةِ ما في حَيّز الصلة للحكم. والالتفات بإظهار الاسم الجليل لتربية المَهابة والإشعارِ بعلّة الحكم.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ الزائغة ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ الذي لا مَحيدَ عنه. و﴿عَنۡ﴾ متعلِّقة بـ﴿لَا تَتَّبِعۡ﴾ على تضمين معنى "العُدول" ونحوِه، كأنّه قيل: لا تَعدِلْ عمّا جاءك مِن الحقّ متبِعًا أهواءَهم، وقيل: بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعله، أي: لا تتّبِعْ أهواءَهم عادلًا عمّا جاءك. وفيه أنّ ما وقع حالًا لا بُدّ أن يكون فعلًا عامًّا. ووضع الموصول موضِعَ ضمير الموصول الأوّل للإيماء بما في حَيّز الصلة مِن مَجيء الحقّ إلى ما يوجِب كمالَ الاجتناب عن اتّباع الأهواء.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ كلام مستأنَف جِيءَ به لحمل أهل الكتابين مِن مُعاصِريه عليه السلام على الانقياد لحُكمه عليه السلام بما أُنزلَ إليه مِن **القرآن الكريم**، / ببيان أنّه هو الذي كُلّفوا العملَ به دون غيره مِن الكتابين، وإنّما الذين كُلّفوا العملَ بهما مَن مَضَى قبل نسخهما مِن الأمَم السالفة. والخطاب بطريق التلوين والالتفاتِ للناس كافّةً؛ لكنْ لا للموجودِين خاصّةً، بل للماضِينَ أيضًا بطريق التغليب. [١٣٧ظ]

و"اللام" متعلِّقة بـ﴿جَعَلۡنَا﴾ المتعدِّي لواحدٍ، وهو إخبارٌ بجعلٍ ماضٍ لا إنشاءٌ، وتقديمها عليه للتخصيص. و﴿مِنكُمۡ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً لِما عُوِّض عنه تنوينُ ﴿كُلّٖ﴾. ولا ضَيْرَ في توسّط ﴿جَعَلۡنَا﴾ بين الصفة والموصوف كما في قوله تعالى: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾... إلخ [الأنعام، ٦/١٤].

والمعنى: لكلّ أمّة كائنةٍ منكم -أيّها الأمَمُ الباقيةُ والخاليةُ- جعلنا -أي: عَيّنّا ووضعنا- شِرعةً ومِنهاجًا خاصَّين بتلك الأمّة، لا تكاد أمّةٌ تتخطّى شِرعتَها

التي عُيّنتْ لها؛ فالأمّة التي كانت مِن مبعَث موسى إلى مبعَث عيسى عليهما السلام شِرعتُهم **التوراةُ**، والتي كانت مِن مبعَث عيسى إلى مبعَث النبيّ عليهما الصلاة والسلام شِرعتُهم **الإنجيلُ**، وأمّا أنتم -أيّها الموجودون- فشِرعتُكم **الفرقانُ** ليس إلّا؛ فآمِنوا به واعمَلوا بما فيه.

و"الشِّرعة" و"الشريعة" هي الطريقة إلى الماء، شُبّه بها الدِّينُ لكونه سبيلًا موصِلًا إلى ما هو سبب للحياة الأبَدِيّة، كما أنّ الماء سبب للحياة الفانية. و"المِنهاج": الطريق الواضح في الدين، مِن "نَهَجَ الأمرُ" إذا وضَحَ. وقُرِئ: "شَرْعَةً"[١] بفتح الشين. قيل: فيه دليل على أنّا غيرُ متعبّدين بشرائع مَن قبلنا. والتحقيق: أنّا متعبَّدون بأحكامها الباقية مِن حيث إنّها أحكامُ شِرعتنا، لا مِن حيث إنّها شِرعةٌ للأوّلين.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متّفِقةً على دينٍ واحدٍ في جميع الأعصار، مِن غير اختلاف بينكم وبين مَن قبلكم مِن الأمَم في شيء مِن الأحكام الدينيّة ولا نسخٍ ولا تحويلٍ. ومفعول "المشيئة" محذوفٌ تعويلًا على دلالة الجزاء عليه، أي: لو شاء الله أن يجعلكم أمّةً واحدةً لَجَعلكم... إلخ. وقيل: المعنى: لو شاء الله اجتماعَكم على الإسلام لَأجبَرَكم عليه.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلّق بمحذوفٍ يستدعيه النِّظام، أي: ولكنْ لم يَشَأْ ذلك، أي: أن يجعلكم أمّةً / واحدةً؛ بل شاء ما عليه السنّةُ الإلهيّةُ الجاريةُ فيما [١٣٨و] بين الأمَم لِيعامِلَكم معاملةَ مَن يبتليكم. ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مِن الشرائع المختلِفة المناسِبة لأعصارها وقرونِها؛ هل تعملون بها مذعِنين لها، معتقِدين أنّ اختلافها بمقتضى المشيئة الإلهيّة المَبنيّة على أساس الحِكَم البالغة والمصالحِ النافعة لكم في مَعاشكم ومَعادكم، أو تَزيغون عن الحقّ وتتّبِعون الهَوَى، وتستبدلون المَضَرّة بالجَدوى، وتشترون الضلالةَ بالهُدى.

وبهذا اتّضح أنّ مدار عدم المشيئة المذكورة ليس مجرّدَ الابتلاء؛ بل العُمدةُ في ذلك ما أُشيرَ إليه مِن انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتُهم مَعاشًا ومَعادًا،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٥.

كما يُنبِئ عنه قوله عزّ وعلَا: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذُكر، فسارِعوا إلى ما هو خير لكم في الدارَين مِن العقائد الحَقّة والأعمالِ الصالحة المندرِجةِ في القرآن الكريم، وابتدِرُوها انتهازًا للفُرصة وإحرازًا لسابقة الفضل والتقدّم. ففيه مِن تأكيد الترغيب في الإذعان للحقّ وتشديدِ التحذير عن الزَّيغ ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ استئناف مَسوقٌ مساقَ التعليل لاستباق الخيرات بما فيه مِن الوعد والوعيد. وقوله تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾ حال مِن ضمير الخطاب، والعامل فيه إمّا المصدرُ المُنحَلُّ إلى حرفِ مصدريّ وفعلٍ مبنيّ للفاعل[١] أو مبنيّ للمفعول،[٢] وإمّا الاستقرارُ المقدَّرُ في الجارّ.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: فيفعل بكم مِن الجزاء الفاصل بين المُحِقّ والمُبطِل ما لا يبقى لكم معه شائبةُ شكٍّ فيما كنتم تختلفون فيه في الدنيا. وإنّما عبّر عن ذلك / بما ذُكر لوقوعه موقِعَ إزالة الاختلاف التي هي وظيفة الإخبار.[٣] [١٣٨ظ]

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩﴾

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾،[٤] أي: أنزلنا عليك الكتابَ والحُكمَ بما فيه. والتعرّض لعُنوان إنزاله تعالى إيّاه لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر. أو على ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾،[٥] أي: أنزلناه بالحقّ وبأن احكُم.

---

١ وفي هامش م: إنْ جُعل المرجع مصدرًا مِن "رَجَعَ رُجُوعًا"، أي: أنْ تَرجِعوا جميعًا. «منه». | انظر: الأنعام، ١٥٩/٦؛ يونس، ٢٣/١٠.

٢ وفي هامش م: إنْ جُعل مصدرًا مِن "رَجَعَ رَجْعًا"، أي: أنْ تُرجَعوا جميعًا. «منه».

٣ وفي هامش م: كما أُشيرَ إليه فيما سلف، وسيأتي تفصيله في سورة الأنعام وسورة يونس. «منه».

٤ في الآية السابقة.

٥ وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة، ٤٨/٥]. «منه». | السياق: عطفٌ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾... أو على ﴿ٱلۡحَقِّ﴾...

وحكاية إنزال الأمر بهذا الحكم بعد ما مرّ مِن الأمر الصريح[١] بذلك تأكيدٌ له وتمهيدٌ لِما يعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: يصرِفوك عن بعضه، ولو كان أقلَّ قليلٍ بتصوير الباطل بصورة الحقّ. وإظهار الاسم الجليل لتأكيد الأمر بتهويل الخَطْب. و﴿أَن﴾ بصلته بدلُ اشتمالٍ مِن ضمير ﴿هُمْ﴾، أي: احذَرْ فِتنتَهم، أو مفعولٌ له، أي: احذَرْهم مَخافةَ أن يَفتِنوك. وإعادة ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لتأكيد التحذير بتهويل الخَطْب.

رُوي أنّ أحبار اليهود قالوا: «اذهَبوا بِنا إلى محمّد، فلَعلّنا نَفتِنُه عن دينه»، فذهبوا إليه صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا: «يا أبا القاسم، قد عرفتَ أنّا[٢] أحبار اليهود، وأنّا إن اتّبَعْناك اتّبعَتْنا اليهودُ كلُّهم، وأنّ بَيْنَنَا وبين قومنا خصومةً، فنتحاكَمُ إليك، فتَقضِي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدِّقك»، فأبى ذلك رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت.[٣]

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الحُكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيرَه، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بذَنب تَولّيهم عن حكم الله عزّ وجلّ. وإنّما عبّر عنه بذلك إيذانًا بأنّ لهم ذنوبًا كثيرةً، هذا مع كمال عِظَمِه واحدٌ مِن جملتها. وفي هذا الإبهام تعظيمٌ للتولّي، كما في قول لَبِيد:

أو يَرتبِطْ بعضَ النفوس حِمامُها[٤]

يريد به نفسَه، أي: نفسًا كبيرةً ونفسًا أيَّ نفسٍ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ أي: متمرِّدون في الكفر، مُصِرّون عليه، خارجون مِن الحدود المعهودة. وهو اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله.

---

[١] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة، ٤٨/٥]. «منه».

[٢] ط س - أنّا.

[٣] جامع البيان للطبري، ٥٠٢/٨؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٠٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٤٠/١، كلّها باختلاف يسير.

[٤] عجز بيتٍ، وصدره:

تَرّاكُ أمكِنةٍ إذا لم أرْضَها

البيت للَبِيد بن ربيعة في ديوانه، ص ٣١٣، وفي مطبوعه: "أو يعتَلِقْ" بدلَ "أو يرتَبِطْ". وهو بهذه الألفاظ في جمهرة أشعار العرب للقُرَشي، ص ٢٦٠؛ والعِقد الفريد لابن عبد ربّه، ٢٠٣/٦؛ وفقه اللغة للثعالبي، ص ٢٦٧.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝﴾

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ إنكار وتعجيب مِن حالهم وتوبيخ لهم. و"الفاء" للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: أيتوَلَّوْنَ عن حكمك، فيَبغُون حكمَ الجاهليّة؟ وتقديم المفعول للتخصيص المفيدِ لتأكيد الإنكار والتعجيب؛ لأنّ التولّيَ عن حكمه صلّى الله عليه وسلّم وطلبَ حكمٍ آخَرَ منكَرٌ عجيبٌ، وطلبُ حكم الجاهليّة أقبَحُ وأعجَبُ.

والمراد بـ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ إمّا المِلّة الجاهليّة التي هي متابَعةُ الهَوى الموجِبةُ للمَيل والمداهنةُ في الأحكام، فيكون تعييرًا لليهود بأنّهم مع كونهم أهلَ كتاب وعلمٍ يَبغُون حكمَ الجاهليّة التي هي هَوًى وجهلٌ، لا يصدُر عن كتاب، ولا يرجِع إلى وحي. وإمّا[1] أهلُ الجاهليّة، وحكمُهم ما كانوا عليه مِن التفاضُل فيما بين القَتلى؛ حيث رُوي أنّ بني النضير لمّا تحاكَمُوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في خصومةِ قتلٍ وقعت بينهم وبين بني قُريظةَ، طلبوا إليه عليه السلام أن يحكُم بينهم بما كان عليه أهلُ الجاهليّة مِن التفاضُل، فقال عليه السلام: «القَتلى بَوَاءٌ»،[2] فقال بنو النضير: «نحن لا نرضى بذلك»، فنزلت.[3]

وقُرئ برفع "الحُكْم"[4] على أنّه مبتدأ، و﴿يَبْغُونَ﴾ خبرُه، والراجع محذوفٌ حَذْفَه في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان، ٤١/٢٥]، وقد استُضعِف ذلك في غير الشعر. وقُرئ بتاء الخطاب،[5] إمّا بالالتفات لتشديد التوبيخ، وإمّا بتقدير "القول"، أي: قُلْ لهم: أَفحكم... إلخ. وقُرئ بفتح الحاء والكاف،[6]

---

[1] السياق: والمراد بـ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ إمّا... وإمّا...

[2] والبَواء: المِثل. وتقول: هم في هذا الأمر بَواء سواء، أي: أكِفّاءُ نُظَراءُ. **كتاب العين** للخليل بن أحمد، ٤١٣/٨ «باب اللفيف مِن الباء».

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ٦٤١/١. وقال الزيلعي في **تخريج أحاديث الكشّاف**، ٣٩٧/١ (٤١٤): «قلتُ: غريب. وروى ابن أبي شَيبة في **مصنّفه** في كتاب الدِّيات: ثنا عباد بن العوّام، عن سفيان بن حسين، عن ابن أشوع، عن الشعبي، قال: كان بين حَيَّيْنِ مِن العرب قتالٌ، فقُتل مِن هؤلاء وهؤلاء قتلى، فقال أحدُ الحَيَين: "لا نرضى حتى نقتلَ بالمرأة الرجلَ وبالرجل الرجلَين"، وأبَى عليهم الآخَرون، فارتفعوا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: "القتلى بَواء"، أي: سواء».

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم والسلمي. **المحتسَب** لابن جنّي، ٢١٠/١.

[5] قرأ بها ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢٥٤/٢.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة والأعرج والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٥٥.

أي: أَفحاكِمًا كحُكّام الجاهليّة يَبغُون؟

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ إنكار لأنْ يكون أحدٌ حكمُه أحسَنُ مِن حكمه تعالى أو مُساوٍ له، وإن كان ظاهرُ السبك غيرَ متعرِّض لنفي المُساواة وإنكارِها. وقد مرّ تفصيله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء، ٤/١٢٥].

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: عندهم، أو "اللام"[١] كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف، ١٢/٢٣]، أي: هذا الاستفهام لهم؛ فإنّهم الذين يتدبّرون الأمورَ بأنظارهم، فيعلمون يقينًا أنّ حكم الله عزّ وجلّ أحسَنُ الأحكام وأعدَلُها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

/ [٢] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطابٌ يعُمّ حكمُه كافّةَ المؤمنين مِن المخلِصين [١٣٩و] وغيرِهم، وإن كان سببُ وروده بعضًا منهم كما سيأتي. ووصفُهم بعُنوان "الإيمان" لحملهم مِن أوّل الأمر على الانزجار عمّا نُهُوا عنه بقوله عزّ وجلّ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾؛ فإنّ تذكير اتّصافهم بضِدّ صِفات الفريقين مِن أقوى الزواجر عن مُوالاتهما، أي: لا يتّخِذْ أحدٌ منكم أحدًا منهم وليًّا، بمعنى: "لا تُصافُوهم ولا تعاشِرُوهم مُصافاةَ الأحباب ومعاشرَتَهم"، لا بمعنى: "لا تجعلوهم أولياءَ لكم حقيقةً"؛ فإنّه أمر ممتنع في نفسه، لا يتعلّق به النهي.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: بعضُ كلِّ فريقٍ مِن ذَيْنِك الفريقَين أولياءُ بعضٍ آخَرَ مِن ذلك الفريق، لا مِن الفريق الآخَر. وإنّما أُوثِرَ الإجمال في البيان تعويلًا على ظهور المراد لوضوح انتفاء المُوالاة بين فريقَي اليهود والنصارى رأسًا. والجملة مستأنَفة مَسوقة لتعليل النهي وتأكيدِ إيجاب الاجتناب عن المَنهيّ عنه، أي: بعضُهم أولياءُ بعضٍ، متّفِقون على كلمة واحدة في كلّ ما يأتون وما يَذَرون،

---

[١] ط س: واللام.

[٢] في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

ومِن ضرورته إجماعُ الكلّ على مُضادّتِكم ومُضارّتِكم، بحيث يسُومُونكم السوءَ ويَبغونكم الغوائلَ؛ فكيف يُتصوّر بينكم وبينهم مُوالاةٌ؟

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ حكمٌ مستنتَجٌ منه؛ فإنّ انحصار المُوالاة فيما بينهم يستدعي كونَ مَن يُوالِيهم منهم، ضرورةَ أنّ الاتّحاد في الدين -الذي عليه[١] يدور أمرُ المُوالاة- حيث لم يكن بكونهم ممّن يُوالِيهم مِن المؤمنين، تعيَّنَ أن يكون ذلك[٢] بكون مَن يُوالِيهم منهم. وفيه زجر شديد للمؤمنين عن إظهار صورة المُوالاة لهم، وإن لم تكن مُوالاةً في الحقيقة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليل لكون مَن يَتَولّاهم منهم، أي: لا يَهديهم إلى الإيمان؛ بل يُخَلِّيهم وشأنَهم، فيقعون في الكفر والضلالة. وإنّما وُضِع المُظهَر موضِعَ ضميرهم تنبيهًا على أنّ تَوَلِّيَهم ظلمٌ، لِما أنّه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالدِ ووضعٌ للشيء في غير موضعه.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

[١٣٩ظ] / وقوله عزَّ اسمه:[٣] ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ بيان لكيفيّة تَولّيهم، وإشعار بسببه وبما يَئُول إليه أمرُهم. و"الفاء" للإيذان بترتُّبه على عدم الهداية. والخطاب إمّا للرسول صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين، وإمّا لكلّ أحد ممّن له أهليّةٌ له. وفيه مزيدُ تشييع للتشنيع، أي: لا يَهديهم؛ بل يَذَرُهم وشأنَهم، فتَراهم... إلخ. وإنّما وُضع موضِعَ الضمير الموصولُ[٤] ليُشارَ بما في حَيّز صلته إلى أنّ ما ارتكبوه مِن التولّي بسبب ما في قلوبهم مِن مرض النفاق ورَخاوةِ العَقد في الدين.

وقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ حال مِن الموصول، والرؤية بَصَريّة، وقيل: مفعولٌ ثانٍ، والرؤية قَلْبيّة. والأوّل هو الأنسبُ بظهور نفاقهم، أي:

---

[١] الضمير راجع إلى: "الاتّحاد".
[٢] أي: الاتّحاد في الدين.
[٣] س: تعالى.
[٤] أي: وُضع الاسم الموصول موضِعَ الضمير.

تراهم مسارِعين في مُوالاتهم. وإنّما قيل: ﴿فِيهِمْ﴾ مبالَغةً في بيان رغبتِهم فيها وتهالُكِهم عليها. وإيثار كلمة ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" للدلالة على أنّهم مستقِرّون في المُوالاة، وإنّما مسارَعتُهم مِن بعض مراتبها إلى بعضٍ آخَرَ منها، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٦١]؛ لا أنّهم خارجون عنها متوجِّهون إليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران، ٣/١٣٣].

وقُرئ: "فَيَرَى"[١] بياءِ الغَيبة، على أنّ الضمير لله سبحانه، وقيل: لِمَن يصِحُّ منه الرؤية. وقيل: الفاعل هو الموصول، والمفعول هو الجملة على حذف "أنْ" المصدريّةِ، والرؤية قلبيّة، أي: ويرى القوم الذين في قلوبهم مرضٌ أن يسارِعوا فيهم. فلمّا حُذِفت "أنْ" انقلَبَ الفعلُ مرفوعًا، كما في قول مَن قال:

ألَا أيُّهذَا الزاجِري أحضُرُ الوَغَى[٢]

والمراد بهم عبدُ الله بنُ أُبَيّ وأضرابُه الذين كانوا يسارعون في مُوادّة اليهود ونصارى نجرانَ، وكانوا يعتذرون إلى المؤمنين بأنّهم لا يَأمَنون أن تُصيبهم صروفُ الزمان، وذلك[٣] قوله[٤] تعالى: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾، وهو حال مِن ضمير ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾.

و"الدائرة" مِن الصفات الغالبة التي لا يُذكَر معها موصوفها، أي: يدُورَ علينا دائرةٌ مِن دوائر الدهر ودَوْلةٌ مِن دِوَلِه بأنْ ينقلب الأمرُ ويكونَ الدولةُ للكُفّار. وقيل: نخشى أن يُصيبنا مكروهٌ مِن مكارِهِ الدهر كالجَدْب والقَحْط، فلا يُعطونا المِيرةَ والقَرْض.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢١٣.

٢ وفي هامش م: تمامه:
وأنْ أشهَدَ اللَّذّاتِ هل أنتَ مُخلِدِي
| البيت لطرفة بن العبد في ديوانه بشرح الأعلم الشَّنْتَمَري، ص ٤٥. قوله "أحضُرُ الوَغَى"، أراد: أنْ أحضُرَ، فلمّا أسقط "أنْ" ارتفع الفعل. والوغى: الصوت في الحرب. هذا أصله، ثمّ يكنى به عن الحرب نفسِها. يقول: يا مَن يلومني أنْ أحضر الحربَ وأنْ أنفق في الخمر وغيرِها مِن أبواب اللَّذّاتِ، هل في وُسعك أنْ تُخلدني، فأكفّ عن ذلك وأتركه؟

٣ س – ذلك.

٤ س: وقوله.

[١٤٠و] رُوي أنّ عُبادة بنَ الصامت[١] رضي الله عنه / قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ لي مواليَ مِن اليهود كثيرًا عَدَدُهم، وإنّي أبرَأ إلى الله ورسولِه مِن وَلايتهم، وأُوالي اللهَ ورسولَه»، فقال عبد الله بن أبيّ: «إنّي رجل أخاف الدوائرَ، لا أبرَأ مِن وَلاية مَوَالِيَّ»،[٢] وهم يهودُ بني قَيْنُقاع، ولعلّه يُظهِر للمؤمنين أنّه يريد بـ"الدوائر" المعنى الأخيرَ، ويُضمِرُ في نفسه المعنى الأوّلَ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ ردٌّ مِن جهة الله تعالى لعِلَلِهم الباطلة، وقطعٌ لأطماعهم الفارغة، وتبشيرٌ للمؤمنين بالظَّفَر؛ فإنّ ﴿عَسَى﴾ منه سبحانه وعدٌ محتومٌ، لِما أنّ الكريم إذا أطمَعَ أطعَمَ لا محالةَ؛ فما ظنُّك بأكرمِ الأكرمين؟

و﴿أَن يَأۡتِيَ﴾ في محلّ النصب على أنّه خبرُ ﴿عَسَى﴾، وهو رأي الأخفش، أو على أنّه مفعول به، وهو رأي سيبويه، لِئلّا يلزَمَ الإخبارُ عن الجُثّة بالحَدَث في قولك: "عسى زيد أن يقوم". والمراد بـ﴿بِٱلۡفَتۡحِ﴾ فتحُ مكّةَ، قاله الكلبي[٣] والسدّي.[٤] وقال الضحّاك: «فتحُ قُرى اليهودِ مِن خَيبرَ وفَدَكَ».[٥] وقال قتادةُ ومقاتلٌ: «هو القضاءُ الفصلُ بنصره عليه السلام على مَن خالَفه وإعزازِ الدين».[٦]

---

[١] هو عُبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد (ت. ٣٤هـ/٦٥٤م). صحابيّ. شهد العقبة الأولى والثانية، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. واستعمله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على بعض الصدقات. ولمّا فتح المسلمون الشام أرسله عمر بن الخطّاب ليعلّم الناس القرآن بالشام ويفقّههم في الدين. روى عنه أنس بن مالك وجابر بن عبد الله وفضالة بن عبيد والمقدام بن عمرو بن معديكرب وأبو أمامة الباهلي ورفاعة بن رافع وأوس بن عبد الله الثقفي وشُرَحبيل بن حسنة، وكلّهم صحابيّ، وروى عنه جماعة مِن التابعين. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٥٤٦/٣؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ١٥٨/٣-١٦٠.

[٢] هو باختلاف يسير في **جامع البيان** للطبري، ٥٠٤/٨ (المائدة، ٥١/٥)؛ **وأسباب النزول** للواحدي، ص ٢٠١ (المائدة، ٥١/٥). والألفاظ مِن **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣١/٢.

[٣] **التفسير البسيط** للواحدي، ٣٢٢/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٨٢/٧.

[٤] **جامع البيان** للطبري، ٥١٤/٨؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧٦/٤.

[٥] **اللباب** لابن عادل، ٣٨٢/٧. وفي **التفسير البسيط** للواحدي، ٤٢٢/٧: «فتح قُرى اليهود» فقط.

[٦] ذكره الواحدي في **التفسير الوسيط**، ١٩٧/٢؛ وابن عادل في **اللباب**، ٣٨٢/٧، عنهما باختلاف يسير. وفي **التفسير البسيط** للواحدي، ٤٢٢/٧، عن قتادة: «بالقضاء الفصل» فقط.

﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بقطع شَأْفَةِ[1] اليهود مِن القتل والإجلاء، ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أي: أولئك المنافقون المتعلِّلون بما ذُكر. وهو عطفٌ على ﴿يَأْتِيَ﴾، داخلٌ معه في حَيِّز خبر ﴿عَسَى﴾، وإن لم يكن فيه ضميرٌ يعود إلى اسمها؛ فإنّ "فاء" السببيّةِ مُغنيةٌ عن ذلك؛ فإنّها تجعل الجملتين كجملة واحدة.

﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ وهو ما كانوا يكتُمونه في أنفُسِهم مِن الكفر والشكِّ في أمره صلّى الله عليه وسلّم. وتعليق الندامة به -لا بما كانوا يُظهرونه مِن مُوالاة الكَفَرة- لِما أنّه الذي كان يحمِلهم على المُوالاة ويُغريهم عليها، فدلَّ ذلك على نَدامتِهم عليها بأصلها وسببها.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣﴾

/ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كلامٌ مبتدَأ مَسوق لبيان كمال سُوء حال الطائفة المذكورة. وقُرِئ بغير واو،[2] على أنّه جوابُ سؤالٍ نشأ ممّا سبق، كأنّه قيل: فماذا يقول المؤمنون حينئذٍ؟ وقُرئ: "وَيَقُولَ"[3] بالنصب عطفًا على ﴿يُصْبِحُوا﴾،[4] وقيل: على ﴿يَأْتِيَ﴾[5] باعتبار المعنى، كأنّه قيل: فعسى أن يأتِيَ الله بالفتح ويقولَ الذين آمنوا. والأوّل أوجَهُ؛ لأنّ هذا القول إنّما يصدُر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين، لا عند إتيان الفتح فقط. [١٤٠ظ]

والمعنى: ويقولُ الذين آمنوا مخاطِبين لليهود، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يُوالُونهم ويَرجون دولتَهم ويُظهِرون لهم غاية المَحَبّة وعدمَ[6] المفارَقة عنهم في السَّرّاء والضَّرّاء عند مشاهدتهم لخَيبة رَجائهم وانعكاسِ تقديرهم بوقوع

[1] الشَّأْفَة: قرحةٌ تخرج في أسفل القَدَم، فتُكوَى، فتذهب. يُقال في المَثَل: "استأصل الله شأفَتَه"، أي: أذهَبَه الله كما أذهب تلك القرحةَ بالكيّ. الصحاح للجوهري، «شأف».

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٤.

[3] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٤-٢٥٥.

[4] في الآية السابقة.

[5] في الآية السابقة.

[6] كذا حرّكها المصنّف.

ضدِّ ما كانوا يترقّبونه ويتعلّلون به، تعجيبًا للمخاطَبين مِن حالهم وتعريضًا بهم:[١] ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ أي: بالنُّصرة والمَعُونة، كما قالوا فيما حُكيَ عنهم ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ [الحشر، ٥٩/١١]. فاسمُ الإشارة مبتدأ، وما بعده خبرُه، والمقصود[٢] إنكارُ ما فعلوه واستبعادُه وتخطئتُهم في ذلك.

أو: يقولُ بعضُ المؤمنين لبعضٍ، مشيرين إلى المنافقين أيضًا: أهؤلاء الذين أقسموا للكَفَرة إنّهم لمعكم؟ فالخطاب في ﴿مَعَكُمۡ﴾ لليهود على التقديرَين؛ إلّا أنّه على الأوّل مِن جهة المؤمنين، وعلى الثاني مِن جهة المُقسِمين. وهذه الجملة لا محلَّ لها مِن الإعراب؛ لأنّها تفسيرٌ وحكايةٌ لمعنى ﴿أَقۡسَمُواْ﴾، لكنْ لا بألفاظهم، وإلّا لَقِيل: "إنّا لَمَعكم". و"جَهْد الأيمان" أغلَظُها، وهو في الأصل مصدرٌ، ونصبُه على الحال على تقدير "وأقسموا بالله يَجهَدون جَهْدَ أيمانهم"، فحُذِف الفعل وأُقيمَ المصدر مُقامَه، ولا يُبالَى بتعريفه لفظًا؛ لأنّه مُئوّل بنَكِرة، أي: مجتهدين في أيمانهم، أو[٣] على المصدر، أي: أقسموا إقسامَ اجتهادٍ في اليمين.

[١٤١و] وقوله تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ / فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ إمّا جملة مستأنَفة مَسوقة مِن جهته تعالى لبيان مَآلِ ما صنعوه مِن ادّعاء الولاية والإقسامِ على المَعيّة في المَنشَط والمَكرَه إثرَ الإشارة إلى بُطلانه بالاستفهام الإنكاريّ، وإمّا خبرٌ ثانٍ للمبتدأ عند مَن يجوّز كونَه جملةً كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٢٠]، أو هو الخبر، والموصول مع ما في حَيّز صلتِه صفةٌ لاسم الإشارة، فالاستفهام حينئذ للتقرير. وفيه معنى التعجّب، كأنّه قيل: ما أحبَطَ أعمالهم، فما أخسَرَهم. والمعنى: بطَلَتْ أعمالهم التي عمِلوها في شأن مُوالاتكم، وسَعَوْا في ذلك سعيًا بليغًا، حيث لم تكنْ لكم دولةٌ فينتفعوا بما صنعوا مِن المساعي وتحمَّلوا مِن مكابدة المشاقّ. وفيه مِن الاستهزاء بالمنافقين والتقريعِ للمخاطَبين ما لا يخفى.

وقيل: قاله بعض المؤمنين مخاطِبًا لبعضٍ، تعجّبًا مِن سُوء حال المنافقين واغتباطًا بما مَنَّ الله تعالى على أنفُسِهم مِن التوفيق للإخلاص: أهؤلاء الذين

---

[١] وفي هامش م: أي: بالمخاطَبين. التصحيح بعد نسخ ط س.

[٢] م ط س: والمعنى [صُحّح في هامش م]. ولعلّ

[٣] السياق: ونصبُه على الحال... أو على المصدر...

أقسموا لكم بأغلاظ الأيمان إنّهم أولياؤكم ومعاضِدُوكم على الكُفّار؟؛ بطَلَتْ أعمالهم التي كانوا يتكلّفونها في رأي أعيُنِ الناس. وأنت خبير بأنّ ذلك الكلام مِن المؤمنين إنّما يَليق بما لو أظهر المنافقون حينئذ خلافَ ما كانوا يدَّعونه ويُقسِمون عليه مِن ولاية المؤمنين ومعاضَدَتِهم على الكُفّار، فظهر كَذِبُهم، وافتضحوا بذلك على رءوس الأشهاد، وبطَلَتْ أعمالهم التي كانوا يتكلّفونها في رأي أعيُنِ المؤمنين. ولا ريبَ في أنّهم يومئذ أشدُّ ادّعاءً وأكثَرُ إقسامًا منهم قبل ذلك، فضلًا عن أن يُظهِروا خلافَ ذلك. وإنّما الذي يظهر منهم الندامةُ على ما صنعوا. وليس ذلك / علامةً ظاهرةَ الدلالة على كفرهم وكَذِبهم في ادّعائهم، فإنّهم يدّعون [١٤١ظ] أنْ ليست ندامتُهم إلّا على ما أظهروه مِن مُوالاة الكَفَرة خشيةَ إصابةِ الدائرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ وقُرئ: "يَرْتَدِدْ"[١] بالفَكّ على لغة الحِجاز، والإدغامُ لغة تَميم. لمّا نُهِيَ فيما سلف عن مُوالاة اليهود والنصارى[٢] وبيَّن أنّ مُوالاتَهم مستدعيةٌ للارتداد عن الدين وفُصّل مصيرُ أمر مَن يُوالِيهم مِن المنافقين شُرِع[٣] في بيان حال المرتدّين على الإطلاق. وهذا مِن الكائنات التي أخبَرَ عنها القرآنُ قبل وقوعها.

رُوي أنّه ارتدَّ عن الإسلام إحدى عشرةَ فِرقةً:

ثلاثٌ في عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: بنو مُدلج، ورئيسُهم ذو الخِمار،[٤] وهو الأسْوَد العَنْسي، كان كاهنًا تنبّأ[٥] باليَمَن، واستولى على بلاده،

---

[١] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٥.

[٢] وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ[(١)] فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة، ٥/٥١]. «منه». | [(١)] هامش م – مِنكُمْ.

[٣] السياق: لمّا نُهِيَ... وبيّن... وفُصّل... شُرِع...

[٤] م ط: ذو الحمار.

[٥] يُقال: تنبّأ الكَذّاب، إذا ادّعى النبوّةَ، وليس بنبيّ. تهذيب اللغة للأزهري، ١٥/٣٥٠ «باب النون والباء».

فأخرج منها عُمّالَ رسول الله[١] صلّى الله عليه وسلّم، فكتب عليه السلام إلى مُعاذ بنِ جبلٍ وإلى ساداتِ اليَمَن، فأهلكه الله تعالى على يدَيْ فَيرُوزَ الدَّيلَمي، بيَّته فقتله، وأخبَرَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بقتلِه ليلةَ قُتِل، فسُرَّ به المسلمون، وقُبِض عليه السلام مِن الغَدِ، وأتى خبرُه في آخِر شهر ربيع الأوّل.[٢]

وبَنو حنيفةَ قومُ مسيلِمة الكذّاب، تنبّأ وكتَبَ إلى رسول الله عليه السلام:[٣] «مِن مسيلِمةَ رسولِ الله إلى محمّدٍ رسولِ الله؛ أمّا بعد، فإنّ الأرض نصفُها لي ونصفُها لك»، فأجاب صلّى الله عليه وسلّم: «مِن محمّدٍ رسولِ الله إلى مسيلِمةَ الكذّاب؛ أمّا بعد، فإنّ الأرض لله، يُورِثُها مَن يشاء مِن عِباده،[٤] والعاقبةُ للمتّقين»، فحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجُنود المسلمين، وقُتِل على يدَيْ وَحْشيّ قاتِلِ حمزةَ رضي الله عنه، وكان يقول: «قتلتُ في جاهليّتِي خيرَ الناس وفي إسلامي شرَّ الناس».[٥]

[١٤٢و] / وبَنو أسد قومُ طُلَيحةَ بنِ خُوَيلِد، تنبّأ، فبعث أبو بكر رضي الله عنه خالدَ بنَ الوليد، فانهزم بعد القتال إلى الشامِ، فأسلَمَ، وحسُن إسلامُه.[٦]

وسبعٌ في عهد أبي بكر رضي الله عنه: فِزارةُ قومُ عُيَينةَ بنِ حِصن، وغَطَفانُ قومُ قُرّةَ بنِ سَلَمةَ القُشيري، وبَنو سُليم قومُ الفُجاءة بنِ عبد يَالِيلَ، وبَنو يَرْبوع قومُ مالك بنِ نُوَيرةَ، وبعضُ تميمٍ قومُ سَجاح بنتِ المنذِر المُتنبّئة التي زوَّجتْ نفسها مِن مسيلِمة الكذّاب، وفيها يقول أبو العَلاء المَعَرّي[٧] في كتاب استغفِرْ واستغفِرِي:

---

١ العُمّال: جمعُ "العامل"، وهو الذي يتولّى أمورَ الرجل في ماله ومُلكه وعملِه، ومنه قيل للذي يستخرج الزكاةَ: عامل. تاج العروس للزبيدي، «عمل».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦٤٤/١. وانظر كلام ابن حجر عليه في الكافي الشاف، ص ٥٥ (٤٦٠). ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٧٧/٤؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٨/٧-٣٨٩، وفي الأوّل باختلاف في الأسماء.

٣ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٤ م ط س - مِن عباده [″صح″ في هامش م].

٥ الكشّاف للزمخشري، ٦٤٤/١-٦٤٥؛ اللباب لابن عادل، ٣٨٩/٧. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٧٧/٤.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٦٤٥/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٢/٢، وفيهما: "فبعث إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالدًا" بدلَ "فبعث أبو بكر رضي الله عنه خالدَ بنَ الوليد". ونحوُه في الكشف والبيان للثعلبي، ٧٨/٤.

٧ هو أحمد بن عبد الله بن سليمان، أبو العلاء المَعرّي (ت. ٤٤٩هـ/١٠٥٧م). شاعر، أديب، مؤرّخ. وُلد بمَعَرّة النعمان، واعتلّ علّة الجُدَريّ ›

آمَـتْ سَـجاح ووالاهـا مسيلِمة   كـذّابـة فـي بـنـي الـدنـيـا وكـذّاب[١]

وكِندةُ قومُ الأشعث ابنِ[٢] قَيس، وبنو بكر بنِ وائل بالبحرين قومُ الحُطَم بنِ زيد. وكفى الله تعالى أمرَهم على يَدَي أبي بكر.[٣]

وفِرقةٌ واحدةٌ في عهد عمرَ رضي الله عنه: غسّانُ قومُ جبلةَ بنِ الأيْهَم نصَّرتْه اللطمة، وسيَّرتْه إلى بلاد الروم، وقصّتُه مشهورة.[٤]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ﴾ جواب الشرط، والعائد إلى اسم الشرط محذوفٌ، أي: فسوف يأتي الله مكانَهم بعد إهلاكهم ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ أي: يريد بهم خيرَي الدنيا والآخرةِ. ومَحلّ الجملة الجرُّ على أنّها صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾. وكذا قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ -أي: يريدون طاعتَه ويتحرّزون عن مَعاصِيه- معطوفٌ عليها، داخلٌ في حكمها.

قيل: هُم أهل اليمن، لِما رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أشار إلى أبي موسى الأشعري،[٥] وقال: «قومُ هذا».[٦] وقيل: هُم الأنصار رضي الله عنهم.[٧]

= التي ذهب فيها بصره. وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ورحل إلى بغداد، وأقام بها سنةً وسبعة أشهر، ثمّ رجع إلى بلده، فأقام به ولزم منزله إلى أن مات. كان حسن الشعر، جزل الكلام، فصيح اللسان، غزير الأدب، عالمًا باللغة حافظًا لها. وقد اختلف العلماء في شأنه، فمنهم مَن حكم بزندقته، ومنهم مَن برّأه. مِن تصانيفه: **حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ومعرفة الصحابة، وطبقات المحدّثين والرواة، ودلائل النبوّة**. انظر: **معجم الأدباء** للحَمَوي، ١/٢٩٥-٣٥٦؛ **وبُغية الوعاة** للسيوطي، ١/٣١٥-٣١٧.

١ أورده الزمخشري في **الكشّاف**، ٢/٦٤٦.

٢ س: بن.

٣ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٦٤٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/٣٨٩.

٤ انظر: **تفسير الرازي**، ١٢/٣٧٧؛ **واللباب** لابن عادل، ٧/٣٨٩.

٥ هو عبد الله بن قيس بن سُلَيم، أبو موسى الأشعري (ت. ٤٢هـ/٦٦٢-٦٦٣م). الفقيه المُقرئ، أحد الحَكَمَين في الوقعة المشهورة بين عليّ ومعاوية. أسلم بمكّة. وأوّل مشاهده خيبر. وولّاه عمر بن الخطّاب البصرة، ثمّ عزله عنها، فنزل الكوفة وابتنى بها دارًا وله بها عقب، واستعمله عثمان بن عفّان على الكوفة، فقُتل عثمان وأبو موسى عليها، ثمّ قدم عليّ الكوفة فلم يزل أبو موسى معه، ومات بالكوفة. حدّث عنه بُريدة بن الحُصَيب وأبو أُمامة الباهلي وأبو سعيد الخُدري وأنس بن مالك وطارق بن شهاب وسعيد بن المسيّب والأسود بن يزيد وأبو وائل شقيق بن سلمة وزيد بن وهب، وخلق سِواهم. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤/١٠٥-١١٦؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢/٣٨٠-٤٠٢.

٦ هو باختلاف يسير في **مصنّف ابن أبي شيبة**، ٦/٣٨٧ (٣٢٢٦١)؛ **وجامع البيان** للطبري، ٨/٥٢١-٥٢٢؛ **والمعجم الكبير** للطبراني، ١٧/٣٧١ (١٠١٦). والألفاظ مِن **الكشّاف** للزمخشري، ١/٦٤٦.

٧ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤/٧٩؛ **واللباب** لابن عادل، ٧/٣٩٠.

وقيل: هُم الفُرْس، لِما رُوي أنّه عليه السلام سُئل عنهم، فضرب بيده الكريمةِ على عاتق سَلمان، وقال: «هذا وذَوُوه»، ثمّ قال: «لو كان الإيمان معلَّقًا بالثُّرَيَّا / لَنالَه رجالٌ مِن أبناء فارسَ».[١] وقيل: هُم ألْفانِ مِن النَّخَع وخمسةُ آلافٍ مِن كِندةَ وثلاثةُ آلافٍ مِن أفناء الناس،[٢] جاهَدوا يومَ القادسيّة.[٣] [١٤٢ظ]

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جمعُ "ذليل"، لا "ذَلول"؛ فإنّ جمعَه "ذُلُل". أي: أرِقّاءَ ورُحَماءَ متذلِّلين ومتواضِعين لهم. واستعماله بـ﴿عَلَى﴾ إمّا لتضمين معنى العطف والحُنُوّ، أو للتنبيه على أنّهم مع عُلُوّ طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنِحتَهم، أو لرعاية المقابَلة بينه وبين ما في قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: أشِدّاءَ متغلِّبين عليهم، مِن "عَزَّه" إذ غلَبَه، كما في قوله عزّ وعلَا: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح، ٢٩/٤٨].

وهما صفتان أُخرَيَان لـ﴿قَوْمٍ﴾، تُرِك بينهما العاطفُ للدلالة على استقلالهم بالاتّصاف بكلٍّ منهما. وفيه دليل على صحّة تأخير الصفة الصريحة عن غير الصريحة مِن الجملة والظرف، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام، ٩٢/٦، ١٥٥]، وقولِه تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء، ٢/٢١]، وقولِه تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء، ٥/٢٦].

---

١ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٦٤٦/١. وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشّاف، ٤١٢/١ (٤٢٣): «قلتُ: غريب. وهذا في غير هذه الآية؛ فروى البخاري ومسلم مِن حديث أبي الغيث سالم عن أبي هريرة، قال: كُنّا جُلوسًا عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأنزلت عليه سورة الجُمُعة إلى قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة، ٣/٦٢]، فقيل: "مَن هم يا رسولَ الله؟" فلم يراجِعْه حتّى سأل مرّتين أو ثلاثًا، وفِينَا سَلمان الفارسي، فوضع رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يَدَه على سلمانَ، ثم قال: "لو كان الإيمان مَنُوطًا بالثُّرَيّا لَناله رجال مِن هؤلاء". وروى الترمذي أيضًا مِن حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تَلَا قولَه تعالى في آخِر سورة القتال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد، ٣٨/٤٧]، وكان سَلمان إلى جَنبه، قال: فضرب على فَخِذِ سلمانَ وقال: "هذا وقومُه، والذي نفسي بِيده، لو كان الإيمان مَنُوطًا بالثُّرَيّا لَتناوَلَه رجال مِن أبناء فارِسَ". انتهى». انظر: صحيح البخاري، ١٥١/٦ (٤٨٩٧)؛ وصحيح مسلم، ١٩٧٢/٤ (٢٥٤٦)؛ وسنن الترمذي، ٣٨٤/٥ (٣٢٦١).

٢ يُقال: هو مِن أفناء الناس، إذا لم يُعلَم ممّن هو. الصحاح للجوهري، «فنى».

٣ الكشّاف للزمخشري، ٦٤٦/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٢/٢؛ اللباب لابن عادل، ٣٩١/٧.

وما ذهب إليه مَن[1] لا يجوّزه مِن أنّ قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ كلام معترِض، وأنّ ﴿مُبَارَكٌ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، وأنّ ﴿مِن رَّبِّهِم﴾ و﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ حالان مقدَّمتانِ مِن ضمير ﴿مُّحْدَثٍ﴾، تكلّفٌ[2] لا يخفى.

وقُرئ: "أَذِلَّةً... أَعِزَّةً"[3] بالنصب على الحاليّة مِن ﴿قَوْمٍ﴾ لتخصُّصه بالصفة.

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى لـ﴿قَوْمٍ﴾، مترتِّبةٌ على ما قبلها، مُبيِّنةٌ مع ما بعدها لكيفيّة عزّتِهم، أو حال مِن الضمير في ﴿أَعِزَّةٍ﴾.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ عطفٌ على ﴿يُجَٰهِدُونَ﴾ بمعنى أنّهم جامعون بين المجاهَدة في سبيل الله وبين التصلّب في الدين. وفيه تعريض بالمنافقين؛ فإنّهم إذا خرجوا في جيش المسلمين خافوا أولياءَهم اليهودَ، فلا يكادون يعملون / شيئًا يلحَقهم فيه لَوْمٌ مِن جهتِهم. وقيل:[4] هو حال مِن فاعل ﴿يُجَٰهِدُونَ﴾، [١٤٣و] بمعنى: أنّهم يجاهدون وحالُهم خلافُ حال المنافقين. واعتُرِض عليه[5] بأنّهم نَصُّوا على أنّ المضارع المَنفيَّ بـ"لا" أو "ما" كالمُثبَت في عدم جواز مباشرة واوِ الحال له. و"اللَّوْمة": المَرّة مِن اللَّوْم. وفيها وفي تنكير ﴿لَآئِمٍ﴾ مبالغةٌ لا تخفى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم مِن الأوصاف الجليلة، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتِها في الفضل. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أي: لطفُه وإحسانُه، لا أنّهم مستقِلّون في الاتّصاف بها، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ إيتاءَه إيّاه، ويوفّقُه لكسبه وتحصيلِه حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثيرُ الفواضل والألطاف. ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالِغٌ في العلم بجميع الأشياء التي مِن جملتها مَن هو أهلٌ للفضل والتوفيق. والجملة اعتراض تذييليّ مقرِّرٌ لِما قبله. وإظهار الاسم الجليل للإشعار بالعلّة وتأكيدِ استقلال الجملة الاعتراضيّة.

---

١ هو السمين الحلبي، يعترض على قول أبي حيّان. انظر: الدرّ المصون، ٤/٣٠٧-٣٠٩.

٢ السياق: وما ذهب إليه مَن لا يجوّزه مِن أنّ... تكلّفٌ لا يخفى.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١/٦٤٨؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٤/٢٩٩، كلاهما بلا نسبة، وقال أبو حيّان: إنّها شاذّة.

٤ هو الزمخشري في الكشّاف، ١/٦٤٨.

٥ وفي هامش م: ابن عادل. | انظر: اللباب لابن عادل، ٧/٣٩٤.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لمّا نهاهم الله عزّ وجلّ عن مُوالاة الكَفَرة وعلَّلَه بأنّ بعضهم أولياءُ بعضٍ لا يَتصوّر ولايتُهم للمؤمنين وبيَّن أنّ مَن يتولّاهم يكون مِن جملتهم، بيَّن ههنا[1] مَن هو وليُّهم بطريق قصر الولاية عليه، كأنّه قيل: لا تتّخِذوهم أولياءَ؛ لأنّ بعضهم أولياءُ بعضٍ، وليسوا بأوليائكم، إنّما أولياؤكم الله ورسولُه والمؤمنون؛ فاختصُّوهم بالمُوالاة، ولا تتخطّوهم إلى الغير. وإنّما أُفردَ "الوليّ" مع تعدُّده للإيذان بأنّ الولاية أصالةً لله تعالى، وولايته عليه السلام، وكذا ولايةُ المؤمنين، بطريق التَّبعِيّة لولايته عزّ وعلَا.

[١٤٣ظ] ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ / صفة لـ"الذين آمنوا" لجَرَيانه مَجرى الاسم، أو بدلٌ منه، أو نصب على المدح، أو رفعٌ عليه. ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ حال مِن فاعل الفعلين، أي: يعملون ما ذُكر مِن إقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة وهم خاشعون ومتواضِعون لله تعالى. وقيل: هو حال مخصوصةٌ بـ"إيتاء الزكاة"، و"الركوع" ركوعُ الصلاة، والمراد بيانُ كمال رغبتِهم في الإحسان ومسارَعتِهم إليه.

ورُوي أنّها نزلت في عليّ رضي الله عنه حين سأله سائلٌ وهو راكعٌ، فطرح إليه خاتَمَه، كأنّه كان مَرِجًا[2] في خِنْصِرِه[3] غيرَ محتاجٍ في إخراجه إلى كثيرِ عملٍ يؤدِّي إلى فساد الصلاة.[4] ولفظ الجمع حينئذ لترغيب الناس في مِثل فعله رضي الله عنه. وفيه دلالة على أنّ صَدَقة التطوّع تُسمَّى "زكاةً".

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أُوثِرَ الإظهارُ على أن يقال: "ومَن يتوَلَّهم" رعايةً لِما مرَّ مِن نُكتة بيان أصالته تعالى في الولاية، كما يُنبِئ عنه

---

١ السياق: لمّا نهاهم الله عزّ وجلّ... بيّنَ ههنا...

٢ المَرَج: القَلَق. مرَجَ الخاتَمُ في إصْبَعي مَرَجًا، أي: قلِقَ. تاج العروس للزبيدي، «مرج».

٣ الخِنْصِر: الإصبَع الصغرى القُصوى مِن الكَفّ. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٣٣٨/٤ «باب الخاء والراء».

٤ هو في الكشّاف للزمخشري، ٦٤٩/١. انظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٠٩/١-٤١٠ (٤٢٠).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾؛ حيث أُضيفَ "الحِزب" إليه تعالى خاصّةً. وهو أيضًا مِن باب وضع الظاهر موضِعَ الضمير العائدِ إلى ﴿مَن﴾ -أي: فإنّهم الغالبون- لكنّهم جُعِلوا حِزبَ الله تعالى تعظيمًا لهم وإثباتًا لغَلَبتِهم بالطريق البرهانيّ، كأنّه قيل: ومَن يتوَلَّ هؤلاء فإنّهم حِزبُ الله، وحِزبُ الله هُم الغالبون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٥٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾ رُوي أنّ رِفاعة بنَ زيد وسُويدَ بنَ الحارث أظهَرا الإسلامَ ثمّ نافقَا، وكان رجال مِن المؤمنين يُوَادُّونهما، فنُهُوا عن مُوالاتِهما.[1] ورُتّب النهي على وصفٍ يعُمُّهما وغيرَهما تعميمًا للحكم، وتنبيهًا على العلّة، وإيذانًا بأنّ مَن هذا شأنُه جديرٌ بالمُعاداة؛ فكيف بالمُوالاة؟

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ / مِن قَبْلِكُمْ﴾ بيان للمُستهزِئين. والتعرّض لعُنوان "إيتاء الكتاب" لبيان كمال شناعتهم وغايةِ ضلالتهم، لِما أنّ إيتاء الكتاب وازعٌ لهم عن استهزاء الدين المؤسَّسِ على الكتاب المصدِّقِ لكتابهم. [١٤٤و]

﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ أي: المشركين. خُصّوا به لتضاعُفِ كفرهم. وهو عطف على الموصول الأوّل، ففيه إشعار بأنّهم ليسوا بمستهزِئين، كما يُنبِئ عنه تخصيصُ الخطاب بأهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ الآية [المائدة، ٥٩/٥]. وقُرئ بالجرّ[2] عطفًا على الموصول الأخير، ويعضُده قراءةُ أُبيّ: "وَمِنَ الكُفَّارِ"،[3] وقراءةُ عبد الله: "وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا"،[4] فهُمْ أيضًا مِن جملة المستهزِئين. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، وجانِبُوهم كلَّ المجانَبة.

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٣٤/٥٣٣/٨؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٠٢؛ اللباب لابن عادل، ٤٠٠/٧.

٢ قرأ بها أبو عمرو والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٥٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها الطبري في جامع البيان، ٥٣٥/٨؛ والزمخشري في الكشّاف، ٦٥٠/١.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٦٥٠/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٣٠٢/٤.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ذلك بترك مُوالاتهم، أو بترك المَناهي على الإطلاق، فيدخل فيه تركُ مُوالاتهم دخولًا أوّليًا. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: حقًّا؛ فإنّ قضيّة الإيمان توجِب الاتّقاءَ لا محالةَ.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا﴾ أي: الصلاةَ أو المناداةَ، ففيه دلالة على شرعيّة الأذان. ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ بيان لاستهزائهم بحكم خاصّ مِن أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الإطلاق، إظهارًا لكمال شقاوتِهم. رُوي أنّ نَصرانيًا بالمدينة كان إذا سمِع المؤذِّنَ يقول:[١] «أشهد أنّ محمّدًا رسول الله» يقول:[٢] «أحرَقَ الله الكاذبَ»، فدخل خادِمُه ذاتَ ليلة بنارٍ وأهلُه نِيامٌ، فتطايَرَتْ منه شَرارةٌ في البيت، فأحرقته وأهلَه جميعًا.[٣]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الاستهزاء المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ فإنّ السَّفَهَ يؤدِّي إلى الجهل بمحاسن الحقّ والهُزءِ به، ولو كان لهم عقلٌ في الجملة لَمَا اجترءوا على تلك العظيمة.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾

﴿قُلْ﴾ أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطريق تلوين الخطاب بعد نهي المؤمنين عن تولّي / المستهزئين بأنْ يخاطِبَهم، ويبيّنَ أنّ الدين منزَّه عمّا يصحِّح صدورَ ما صدر عنهم مِن الاستهزاء، ويُظهِرَ لهم سببَ ما ارتكبوه، ويُلقِمَهم الحَجَرَ. أي: قُلْ لأولئك الفَجَرة: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾. وُصِفوا بـ"أهليّة الكتاب" تمهيدًا لِما سيأتي مِن تبكيتِهم وإلزامِهم بكفرهم بكتابهم. [١٤٤ظ]

---

١ أي: يقول المؤذِّنُ.

٢ أي: يقول النصرانيّ.

٣ جامع البيان للطبري، ٥٣٦/٨؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٠٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٣/٢.

﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ مِن "نَقَمَ منه كذا" إذا عابَه وأنكره وكرِهه، "ينقِمه" مِن حدِّ "ضرَب"، وقُرئ بفتح القاف[1] مِن حدِّ "علِم"، وهي أيضًا لغة. أي: ما تَعيبون وما تُنكِرون منّا ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ مِن القرآن المَجيد ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: مِن قبل إنزاله مِن التوراة والإنجيل المنزلَين عليكم وسائرِ الكتب الإلهيّة.

﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي: متمرّدون خارجون عن الإيمان بما ذُكر؛ فإنّ الكفر بالقرآن مستلزِمٌ للكفر بما يصدِّقه لا محالةَ. وهو عطف على ﴿أَنۡ ءَامَنَّا﴾ على أنّه مفعول له لـ﴿تَنقِمُونَ﴾، والمفعول الذي هو "الدِّين"[2] محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبله وما بعده عليه دلالةً واضحةً؛ فإنّ اتّخاذ الدين هُزْءًا ولَعِبًا عينُ نَقْمه وإنكارِه، والإيمانَ بما فُصّل عينُ الدين الذي نقَموه؛ خلَا أنّه أبرزَ في معرِض علّةِ نَقْمِهم له تسجيلًا عليهم بكمال المكابَرة والتعكيس، حيث جعلوه موجِبًا لنَقْمه، مع كونه في نفسه موجِبًا لقبوله وارتضائه.

فـ﴿إِلَّآ﴾ استثناء مِن أعَمّ العِلَل، أي: ما تنقِمون منّا دينَنا لعلّةٍ مِن العِلَل إلّا لأنْ آمَنّا بالله وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ مِن قبلُ مِن كُتُبكم، ولأنّ أكثرَكم متمرّدون غيرُ مؤمنين بواحدٍ ممّا ذُكر، حتّى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطقِ بصحّة كتابنا لآمَنتُمْ به. وإسناد "الفسق" إلى "أكثَرِهم" لأنّهم الحاملون لأعقابهم على التمرُّد والعناد.

وقيل: عطفٌ عليه[3] على أنّه مفعول لـ﴿تَنقِمُونَ﴾؛ لكنْ لا على أنّ المستثنى مجموعُ المعطوفَين، بل هو ما يلزَمهما مِن المخالفة، كأنّه قيل: ما تنقِمون منّا إلّا مخالفتكم؛ حيث دخلْنا الإيمانَ وأنتم خارجون عنه. وقيل: على حذف المضاف، أي: واعتقادَ أنّ أكثركم فاسقون.

وقيل: عطفٌ على ﴿مَآ﴾، أي: ما تنقِمون منّا إلّا أن آمنّا بالله وما أُنزلَ إلينا وبأنّكم فاسقون. / وقيل: عطفٌ على علّة محذوفةٍ، أي: لقلّة إنصافكم ولأنّ أكثركم فاسقون. وقيل: "الواو" بمعنى "مع"، أي: ما تنقِمون منّا إلّا الإيمان [١٤٥و]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٦.

[2] ورد في المائدة، ٥/٥٧.

[3] أي: على ﴿أَنۡ ءَامَنَّا﴾.

مع أنّ أكثركم... إلخ. وقيل: هو منصوب بفعل مقدَّرٍ دلَّ عليه المذكور، أي: ولا تنقِمون أنّ أكثركم فاسقون. وقيل هو مرفوع على الابتداء، والخبرُ محذوف، أي: وفِسقُكم معلوم أو ثابت، والجملة حاليّة أو معترضة. وقُرئ بـ"إنّ" المكسورةِ، والجملة مستأنفة مبيّنةٌ لكون أكثرهم فاسقين متمرّدين.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ لمّا أمر صلّى الله عليه وسلّم بإلزامهم وتبكيتِهم ببيان أنّ مدار نَقْمِهم للدِّين إنّما هو اشتمالُه على ما يوجِب ارتضاءَه عندهم أيضًا وكفرُهم بما هو مسلَّم لهم، أُمِرَ[1] عليه السلام عَقيبَه بأنْ يُبكِّتهم ببيان أنّ الحقيق بالنَّقْم والعيبِ حقيقةً ما هُم عليه مِن الدين المحرَّف، ويَنْعَى عليهم في ضِمن البيان جناياتِهم وما حاق بهم مِن تَبِعاتها وعقوباتِها على مِنهاج التعريض لِئلّا يحمِلَهم التصريحُ بذلك على ركوب متن المكابرة والعناد، ويخاطِبَهم قبل البيان بما يُنبِئ عن عِظَم شأن المبيَّن ويستدعي إقبالَهم على تَلقّيه مِن الجملة الاستفهاميّة المشوِّقةِ إلى المخبَر به والتنبئةِ المشعِرة بكونه أمرًا خطيرًا لِما أنّ "النبأ" هو الخبر الذي له شأن وخطَر.

وحيث كان مناطُ النَّقْم شَرِّيّةَ المنقوم حقيقةً أو اعتقادًا وكان مجرَّدُ النَّقْم غيرَ مفيد لشَرِّيّتِه البتّةَ[2] قيل: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾، ولم يُقَلْ: "بأنقَمَ مِن ذلك"، تحقيقًا لشَرِّيّة ما سيُذكَر وزيادةَ تقرير لها. وقيل: إنّما قيل ذلك لوقوعه في عبارة المخاطَبين؛ حيث أتى نَفَرٌ مِن اليهود، فسألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن دِينه، فقال عليه السلام: «أُومِنُ بالله وما أُنزِلَ إلينا» إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾،[3]

---

[1] جوابُ "لمّا".

[2] وفي هامش م: لِجواز كون العيب مِن جهة العائب كقول مَن قال:

وكَمْ مِن عائبٍ قولًا صحيحًا
وآفَتُه في الفَهْمِ السَّقيمِ

«منه». | البيت للمتنبّي في ديوانه بشرح الواحدي، ٩٧٤/٢، وفي مطبوعه: "مِن الفهم" بدلَ "في الفهم".

[3] ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران، ٨٤/٣].

فحين سمِعوا ذكرَ عيسى عليه السلام قالوا: «لا نعلم شرًّا مِن دينكم».[١]

وإنّما اعتُبِر الشَّرّيّة بالنسبة إلى الدين -وهو منزَّه عن شائبة الشَّرّيّة بالكلّيّة- / مُجاراةً معهم على زعمهم الباطلِ المنعقِدِ على كمال شَرّيّته، ليثبتَ أنّ دينهم [١٤٥ظ] شرٌّ مِن كلّ شرّ، أي: هل أُخبِركم بما هو شرٌّ في الحقيقة ممّا تعتقدونه شرًّا، وإن كان في نفسه خيرًا محضًا.

﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: جزاءً ثابتًا في حكمه. وقُرِئ: "مَثْوَبَةً"،[٢] وهي لغة فيها كـ"مَشُورَة" و"مَشْوَرَة"، وهي مختصّةٌ بالخير، كما أنّ العقوبة مختصّةٌ بالشرّ، وإنّما وُضِعت ههنا موضِعَها على طريقة قوله:

تحيّةُ بينِهم ضربٌ وجيعُ[٣]

ونصبُها على التمييز مِن ﴿بِشَرٍّ﴾.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف بتقدير مضافٍ قبلَه مناسِبٍ لِما أُشيرَ إليه بكلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: دينُ مَن لعنه... إلخ، أو بتقدير مضافٍ قبلَها[٤] مناسِبٍ لِـ﴿مَنْ﴾، أي: بشرِّ مِن أهل ذلك. والجملة على التقديرين استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن الجملة الاستفهاميّة، إمّا على حالها، وهو الظاهر المناسِبُ لسِياق النظم الكريم، وإمّا باعتبار التقدير فيها، فكأنّه قيل: ما الذي هو شرٌّ مِن ذلك؟ فقيل: هو دينُ مَن لعنه الله... إلخ، أو قيل في السؤال: مَن ذا الذي هو شرٌّ مِن أهل ذلك؟ فقيل: هو مَن لعنه الله.

ووضعُ الاسم الجليل موضِعَ الضمير لتربية المَهابة وإدخالِ الروعة وتهويلِ أمر اللعن وما تبعه. والموصول عبارة عن المخاطَبين، حيث أبعدهم الله تعالى مِن رحمته وسخِطَ عليهم بكفرهم وانهماكِهم في المَعاصي بعد وضوح الآيات وسُنوحِ البيّنات.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٥٣٧/٨؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٠٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٥١/١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن عمران وابن بُريدة. المحتسَب لابن جنّي، ٢١٣/١.

٣ عجز بيتٍ، وصدره:

وخيلٍ قد دلفْتُ لها بخيلٍ

وهو لعمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزُّبيدي في شعر عمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزُّبيدي، ص ١٤٩؛ والعمدة لابن رَشيق، ٢٩٢/٢؛ والممتِع للنهشلي، ١٨١-١٨٣.

٤ أي: قبل كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾.

﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ أي: مسَخَ بعضَهم قِردةً، وهُم أصحاب السَّبْت، وبعضَهم خنازيرَ، وهُم كُفّار مائدة عيسى عليه السلام. وقيل: كِلَا المسخَين في أصحاب السَّبْت، مُسِخت شُبّانُهم قِرَدةً وشيوخُهم خنازيرَ. وجمعُ الضمير الراجعِ إلى الموصول في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ باعتبار معناه،[١] كما أنّ إفراد الضميرين الأوّلَين باعتبار لفظه. وإيثارُ وضعه موضِعَ ضمير الخطاب المناسبِ لـ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ للقصد إلى إثبات الشرّيّة بما عُدّد في حَيّز صلتِه مِن الأمور الهائلة / الموجِبةِ لها على الطريقة [١٤٦و] البرهانيّة، مع ما فيه مِن الاحتراز عن تهييج لَجاجِهم.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ عطفٌ على صلة ﴿مَن﴾. وإفراد الضمير لِما مرّ. وكذا "عُبِدَ الطّاغوتُ"[٢] على قراءة البِناء للمفعول ورفعِ ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وكذا "عَبُدَ الطّاغوتُ"[٣] بمعنى صار معبودًا، فالراجع إلى الموصول محذوفٌ على القراءتَين، أي: عُبِدَ/ عَبُدَ[٤] فيهم أو بينهم.

وتقديم أوصافهم المذكورةِ بصَدَد إثبات شَرّيّة دينهم على وصفهم هذا -مع أنّه الأصل المستتبع لها في الوجود، وأنّ دلالته على شَرّيّته بالذات؛ لأنّ عبادة الطاغوت عينُ دينهم البيّنِ البُطلانِ، ودلالتَها عليها[٥] بطريق الاستدلال بشَرّيّة الآثار على شَرّيّة ما يُوجبها مِن الاعتقاد والعمل- إمّا للقصد[٦] إلى تبكيتِهم مِن أوّل الأمر بوصفهم بما لا سبيلَ لهم إلى الجحود، لا بشَرّيّته وفظاعته، ولا باتّصافهم به، وإمّا للإيذان باستقلال كلٍّ مِن المقدَّم والمؤخَّر بالدلالة على ما ذُكر مِن الشرّيّة. ولو رُوعِيَ ترتيبُ الوجود وقيل: مَن عَبَدَ الطاغوتَ، ولعنه الله، وغضِب عليه... إلى آخره، لَرُبّما فُهِمَ أنّ علّة الشرّيّة هو المجموع.

وقد قُرِئ: "عَابِدَ الطَّاغُوتِ"،[٧] وكذا: "عَبُدَ الطَّاغُوتِ"[٨] بالإضافة على أنّه نعتٌ

---

[١] أي: باعتبار معنى الموصول.

[٢] هي قراءة شاذّة، رواها أبو معاذ عن أبي جعفر محمّد بن الحسن بن أبي سارة الرواسي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٧.

[٣] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٦٥٢؛ وابن عادل في اللباب، ٤١٦/٧، ونسبها ابن عادل إلى ابن مسعود.

[٤] وفي هامش م: مَعًا.

[٥] أي: ودلالةَ أوصاهم على الشرّيّة.

[٦] وفي هامش م: خبرٌ لقوله: وتقديم... إلخ.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بُريدة والعقيلي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٧.

[٨] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٥٥/٢.

كـ"فَطُنٍ" و"يَقُظٍ"، وكذا: "عَبَدَةَ الطَّاغُوتِ"،[١] وكذا: "عَبَدَ الطَّاغُوتِ"[٢] بالإضافة على أنّه جمعُ "عابِدٍ" كـ"خَدَمٍ"، أو على أنّ أصله "عَبَدة"، حُذفت تاؤه للإضافة،[٣] بالنصب في الكلّ[٤] عطفًا على ﴿ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾.

وقُرئ: "عَبَدِ الطَّاغُوتِ"[٥] بالجرّ عطفًا على ﴿مَنْ﴾، بناءً على أنّه مجرور بتقدير[٦] المضاف. وقد قيل: إنّ ﴿مَنْ﴾ مجرور على أنه بدلٌ مِن ﴿شرّ﴾ على أحد الوجهين المذكورين في تقدير المضاف. وأنت خبير بأنّ ذلك، مع اقتضائه إخلاءَ النظم الكريم عن المزايا المذكورة بالمَرّة، ممّا لا سبيلَ إليه قطعًا، ضرورةَ أنّ المقصود الأصليَّ ليس مضمونَ الجملة الاستفهاميّة؛ بل هي -كما مرّ- مقدِّمةٌ سِيقَت أمامَ المقصود لِهَزّ المخاطَبين وتوجيهِ أذهانهم نحو تَلقّي ما يُلقَى إليهم عَقيبَها بجملة خبريّة موافِقةٍ في الكيفيّة للسؤال الناشئ منها، وهو المقصودُ إفادتُه، وعليه يدور ذلك الإلزامُ والتبكيتُ حسبما شُرح.

فإذا جُعِل الموصول بما في حَيّز صلتِه مِن تَتِمّة الجملة الاستفهاميّة، فأين الذي يُلقَى إليهم عقيبَها جوابًا عمّا نشأ منها مِن السؤال ليحصُلَ به الإلزامُ والتبكيتُ؟ وأمّا الجملة الآتية، فبمَعزِل مِن صلاحيّة الجواب. كيف لا، ولا بُدّ مِن موافَقتِه في الكيفيّة للسؤال الناشئ مِن الجملة الاستفهاميّة. وقد عرفتَ أنّ السؤال الناشئَ منها يستدعي وقوعَ الشرّ مِن تَتِمّة المخبَر عنه، لا خبرًا كما في الجملة المذكورة، وسيتَّضِحُ ذلك مزيدَ اتّضاحٍ بإذن الله تعالى.

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة أبو حيّان في البحر المحيط، ٣٠٨/٤؛ وابن عادل في اللباب، ٤١٨/٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمد بن يحيى النحوي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٧.

[٣] وفي هامش م: كما في قوله:

وأخلَفُوك عِدَ الأمر الذي وَعَدُوا

أي: عِدَةَ الأمر. «منه». | وهو عجز بيتٍ، وصدره:

إنّ الخَليط أجَدُّوا البينَ فانجَرَدُوا

وهو للفضل بن عبّاس في لسان العرب لابن منظور، «غلب»، وبلا نسبة في شرح كتاب سيبويه للسيرافي، ٤٥٨/٤؛ وشرح الكافية لابن مالك، ٩٠١/٢؛ وتاج العروس للزبيدي، «خلط».

[٤] أي: وقد قُرئ بنصب المضاف في الكلّ.

[٥] قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ٦٥٢/١.

[٦] س: بتقد.

[١٤٦ظ] والمراد بـ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ العِجلُ. / وقيل: هو الكَهَنة وكلُّ مَن أطاعوه في معصية الله عزّ وجلّ، فيَعُمّ الحكمُ دينَ النصارى أيضًا. ويتّضِح وجهُ تأخير ذِكر عبادته عن العقوبات المذكورة؛ إذ لو قُدّمتْ عليها لَتُوُهِّمَ اشتراكُ الفريقين في تلك العقوبات.

ولمّا كان مآلُ ما ذُكر بصَدَد التبكيت أنّ ما هو شرٌّ ممّا نقَموه دينُهم،[١] أو أنّ مَن هو شرٌّ مِن أهل ما نقَموه أنفُسهم[٢] بحسَب ما قُدّر مِن المضافَين، وكانت الشرّيّةُ على كِلَا الوجهين مِن تَتِمّة الموضوع غيرَ مقصودةِ الإثبات لدِينهم أو لأنفُسِهم عُقّب ذلك[٣] بإثباتها لهم على وجهٍ يُشعِر بعِلّيّة ما ذُكر مِن القبائح لثبوتها لهم، بجملة مستأنَفة مَسوقةٍ مِن جهته سبحانه شهادةً عليهم بكمال الشرارة والضلال، أو داخلةٍ تحت الأمر تأكيدًا للإلزام وتشديدًا للتبكيت، فقيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فاسمُ الإشارة عبارةٌ عمّنْ ذُكرتْ صِفاتهم الخبيثةُ. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الشرارة، أي: أولئك الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شرٌّ مكانًا. جُعِل مكانُهم شرًّا ليكونَ أبلَغَ في الدلالة على شرارتهم. وقيل: شرٌّ مكانًا، أي: مُنصرَفًا.

﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عطفٌ على ﴿شَرّ﴾ مقرِّرٌ له، أي: أكثَرُ ضلالًا عن الطريق المستقيم. وفيه دلالة على كون دينهم شرًّا مَحضًا بعيدًا عن الحقّ؛ لأنّ ما يسلُكونه مِن الطريق دينُهم، فإذا كانوا أضَلَّ، كان دينُهم ضلالًا مُبِينًا لا غايةَ وراءَه. وصيغة التفضيل في الموضعين للزيادة مطلَقًا، لا بالإضافة إلى مَن يشارِكهم في أصل الشرارة والضلال.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ٦١﴾

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نزلت في ناسٍ مِن اليهود كانوا يدخُلون على

---

[١] وفي هامش م: خبرُ "أنّ".
[٢] وفي هامش م: خبرُ "أنّ".
[٣] السياق: ولمّا كان مآلُ... وكانت الشرّيّةُ... عُقّب ذلك...

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُظهرون له الإيمانَ نفاقًا،[١] فالخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، والجمعُ للتعظيم، أو له مع مَن عنده مِن المسلمين، أي: إذا جاءوكم أظهروا الإسلام. ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي: يخرجون مِن عندك ملتبِسين بالكفر كما دخلوا، / لم يؤثِّر فيهم ما سمعوا منك. [١٤٧و]

والجملتان حالان مِن فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾، و﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾ و﴿بِهِۦ﴾ حالان مِن فاعل ﴿دَّخَلُواْ﴾ و﴿خَرَجُواْ﴾. و﴿قَدۡ﴾ وإن دخلت لتقريب الماضي مِن الحال ليصِحَّ أن يقع حالًا أفادت أيضًا -بما فيها مِن معنى التوقّع- أنّ أماراتِ النفاق كانت لائحةً وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يظنّه ويتوقّع أن يُظهره الله تعالى؛ ولذلك قيل: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ أي: مِن الكفر. وفيه وعيد شديد لهم.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٢﴾

﴿وَتَرَىٰ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن يصلُح للخطاب، والرؤية بصريّة. ﴿كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ مِن اليهود والمنافقين. وقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ﴾ حال مِن ﴿كَثِيرٗا﴾، وقيل: مفعول ثانٍ، والرؤية قَلبيّة. والأوّل أنسَبُ بحالهم وظهورِ نفاقهم.

و"المسارَعة": المبادرة والمباشرة للشيء بسرعة. وإيثار كلمة ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" الواقعةِ في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾... إلخ [آل عمران، ١٣٣/٣] لِما ذُكر في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ [المائدة، ٥٢/٥].[٢] والمراد بـ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ الكذبُ على الإطلاق، وقيل: الحرام، وقيل: كلمة الشرك وقولُهم: "عُزَيرٌ ابنُ الله"،[٣] وقيل: هو ما يختصُّ بهم مِن الآثام.

﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ أي: الظلمِ المتعدِّي إلى الغير أو مجاوَزةِ الحدّ في المَعاصي.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٦٥٣/١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٤٧/٨؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢٠٥/٢.

[٢] م ط س: وترى كثيرًا منهم يسارعون فيهم. | فهو سهو.

[٣] كما ورد في سورة التوبة، ٣٠/٩.

﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ﴾ أي: الحرامَ. خَصَّه بالذِّكر -مع اندراجه في الإثم- للمبالغة في التقبيح. ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لَبِئس شيئًا كانوا يعملونه. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار.

﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝٦٣﴾

﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ قال الحسن رحمه الله:[1] «الربّانِيّون: علماء **الإنجيل**، والأحبارُ: علماء **التوراة**».[2] وقيل: كلّهم في اليهود، وهو تحضيض للذين يقتدي بهم أفناؤهم[3] ويعلمون قباحةَ ما هم فيه وسُوءَ مَغَبَّتِه[4] على نهي أسافِلِهم عن ذلك مع توبيخ لهم على تركه. ﴿عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ / وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ﴾ [١٤٧ظ] مع علمهم بقُبحهما ومشاهدتِهم لمباشرتهم لهما.

﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ وهذا أبلَغُ ممّا قيل في حقّ عامّتِهم،[5] لِما أنّ العمل لا يبلُغ درجةَ الصُّنع ما لم يتدرَّبْ فيه صاحبُه ولم يحصِّل فيه مهارةً تامّةً؛ ولذلك ذُمَّ به خواصُّهم، ولأنّ ترك الحِسْبة أقبَحُ مِن مواقعة المَعصية؛ لأنّ النفس تلتذُّ بها وتَميل إليها، ولا كذلك تركُ الإنكار عليها؛ فكان جديرًا بأبلغِ ذَمّ. وفيه ممّا يَنعَى على العلماء تَوانِيَهم[6] في النهي عن المنكَرات ما لا يخفى. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «**أنّها أشَدُّ آيةٍ في القرآن**»،[7] وعن الضحّاك: «**ما في القرآن آيةٌ أخوَفُ عندي منها**».[8]

---

١ أي: الحسن البصري.

٢ **التفسير البسيط** للواحدي، ٤٥٢/٧؛ **تفسير الرازي**، ٣٩٣/١٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٢٤/٧، وفي كلّها: "علماء أهل الإنجيل" و"علماء أهل التوراة".

٣ الأفناءُ مِن الناس: الأخلاطُ، واحِدُها: فِنْوٌ، بالكسْر. **تاج العروس** للزبيدي، «فنو».

٤ الغِبّ: عاقبة الشيء، أي: آخِره. وغَبُّ الأمر: صار إلى آخِره. ويُقال: إنّ لهذا الأمر مَغَبّةً طيّبةً، أي عاقبةً. **تاج العروس** للزبيدي، «غبب».

٥ في الآية السابقة.

٦ تَوانَى في الأمر: قصّر فيه. **الصحاح** للجوهري، «ونى».

٧ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٥٤/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٢٤/٧. وباختلاف يسير في **جامع البيان** للطبري، ٥٥١/٨.

٨ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٥٤/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٢٤/٧. وباختلاف يسير في **جامع البيان** للطبري، ٥٥١/٨.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما[١] وعكرمة والضحّاك: «إنّ الله تعالى كان قد بسَطَ على اليهود حتّى كانوا مِن أكثر الناس مالًا وأخصَبِهم ناحيةً، فلمّا عَصَوا اللهَ تعالى بأنْ كفروا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكذّبوه كَفَّ عنهم ما بسَطَ عليهم، فعند ذلك قال فِنْحاص بنُ عازوراء: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾»؛[٢] وحيث لم ينكِر عليه الآخَرون ورضُوا به نُسِبت تلك العظيمةُ إلى الكلِّ، كما يُقال: "بَنو فلان قتلوا فلانًا"، وإنّما القاتل واحدٌ منهم.

وأرادوا بذلك -لَعَنَهم الله تعالى- أنّه سبحانه مُمسِكٌ يقتُرُ بالرزق؛ فإنّ كلًّا مِن "غُلِّ اليد" و"بسطِها" مجازٌ عن محض البُخل والجُود، مِن غير قصد في ذلك إلى إثبات يَدٍ وغُلٍّ أو بسطٍ. ألَا يُرى أنّهم يستعملونه حيث لا يُتصوّر فيه ذلك، كما في قوله:

جادَ الحِمَى بَسْطُ اليدَين بوابلٍ شكَرتْ نَداه تِلاعُه ووِهادُه[٣]

وقد سلك لَبيدٌ هذا المسلَكَ السديدَ، حيث قال:

وغَداة ريحٍ قد شهِدتُ وقِرّةٍ إذ أصبَحَتْ بيَدِ الشَّمال زِمامُها[٤]

---

[١] س - رضي الله عنهما.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٨٧/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٥٧/١، كلاهما باختلاف يسير.

[٣] لم نهتدِ إلى قائله. ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٦٥٥/١؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١٣٥/٢؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٣١٥/٤. والتِّلاع جمعُ "التَّلْعة". قال أبو عُبيد: وهي مَجاري الماء مِن أعالي الوادي. قال: والتِّلاع أيضًا: ما انهبط مِن الأرض. قال: وهي مِن الأضداد. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٥٩/٢ «باب العين واللام مع الميم». والوِهاد جمعُ "الوَهْدة"، وهي المكان المنخفِض، كأنّه حُفرة. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٧٧/٤ «باب الهاء والدال».

[٤] البيت في ديوانه، ص ٣١٥. وفيه: "وزعْتُ" بدلَ "شهِدتُ". | القِرّة: البَرْد. شبّهَ الشَّمال في تصرّفها في القِرّة على حُكم طبيعتها بالإنسان المتصرِّف لِما يكون زِمامُه بيده، وأثبتَ لها على سبيل التخييل يدًا ليكونَ قرينةً، وحكمُ الزِّمام في استعارته للقِرّة حكمُ اليد في استعارتها للشَّمال، فجعَلَ للقِرّة زِمامًا ليكونَ أتمَّ في إثباتها متصرِّفةً، كما جعَلَ للشَّمال يدًا ليكونَ أبلغَ في تصييرها متصرِّفةً، فوفّى المبالغةَ حقَّها مِن الطرفين. انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٤١٦/٥.

فإنّه إنّما أراد بذلك إثباتَ القدرة التامّةِ للشّمال على التصرّف في القِرّة كيفما تشاء، على طريقة / المجاز، مِن غير أن يخطُر بباله أن يُثبِت لها يدًا ولا [١٤٨و] للقِرّة زِمامًا. وأصله كناية فيمَنْ يجوز عليه إرادةُ المعنى الحقيقيّ كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في سورة آل عمران [٣/٧٧]. وقيل: أرادوا ما حُكِيَ عنهم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران، ٣/١٨١].

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاءٌ عليهم بالبُخل المذموم والمسكَنةِ، أو بالفقر والنَّكَدِ، أو بغُلِّ الأيدي حقيقةً بأنْ يكونوا أُسارَى مغلولِين في الدنيا ويُسحَبوا إلى النار بأغلالها في الآخرة، فيكون المطابقةُ حينئذ مِن حيث اللفظُ وملاحظةُ المعنى الأصليّ، كما في: "سبَّنِي، سَبَّ اللهُ دابِرَه". ﴿وَلُعِنُوا﴾ عطفٌ على الدعاء الأوّل، أي: أُبعِدوا مِن رحمة الله تعالى ﴿بِمَا قَالُوا﴾ أي: بسبب ما قالوا مِن الكلمة الشنعاء. وقيل: كِلاهما خبر.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، أي: كَلَّا ليس كذلك، بل هو في غاية ما يكون مِن الجُود. وإليه أُشيرَ بتَثنِية "اليد"؛ فإنّ أقصى ما ينتهي إليه هِمَمُ الأسخِياء أن يُعطُوا ما يعطُونه بكِلتا يدَيْهم. وقيل: التثنية للتنبيه على مَنْحه تعالى لنعمتَي الدنيا والآخرةِ، وقيل: على إعطائه إكرامًا، وعلى إعطائه استدراجًا.

﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ جملة مستأنَفة واردةٌ لتأكيد كمال جُوده، وللتنبيه على سرِّ ما ابْتُلُوا به مِن الضيق الذي اتّخَذوه مِن غاية جهلهم وضلالِهم ذريعةً إلى الاجتراء على تلك الكفرة العظيمة. والمعنى: أنّ ذلك ليس لقصورٍ في فَيضه؛ بل لأنّ إنفاقه تابعٌ لمشيئته المَبنيّةِ على الحِكَم التي عليها يدور أمرُ المَعاش والمَعاد، وقد اقتضت الحكمةُ بسبب ما فيهم مِن شُؤم المعاصي أن يضيِّق عليهم، كما يشير إليه ما سيأتي مِن قوله عزّ وعلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الآية [المائدة، ٥/٦٦].

[١٣٨ظ] / و﴿كَيْفَ﴾ ظرفٌ لـ﴿يَشَآءُ﴾. والجملة في محلّ النصب على الحاليّة مِن ضمير ﴿يُنفِقُ﴾، أي: ينفِق كائنًا على أيّ حال يشاء، أي: كائنًا على مشيئته، أي: مريدًا. وتركُ ذكرِ ما ينفِقه لقصد التعميم.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ وهُم علماؤهم ورُؤَساؤهم. ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ مِن القرآن المشتمِلِ على هذه الآيات. وتقديم المفعول للاعتناء به. وتخصيص الكثير منهم بهذا الحُكم لِما أنّ بعضهم ليس كذلك. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلِّق بـ﴿أُنزِلَ﴾، كما أنّ ﴿إِلَيْكَ﴾ كذلك، وتأخيرُه عنه -مع أنّ حقّ المبدَأ أن يتقدّم على المنتهَى- لاقتضاء المقام الاهتمامَ ببيان المنتهَى؛ لأنّ مدار الزيادة هو النزول إليه عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل، ٦٠/٢٧]. والتعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام.

﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ"الزيادة"، أي: لَيَزيدَنَّهم طُغيانًا على طغيانِهم وكفرًا على كفرهم القديمَين، إمّا مِن حيث الشدّةُ والغُلُوُّ، وإمّا مِن حيث الكَمُّ والكثرةُ؛ إذ كلّما نزلت آيةٌ كفروا بها، فيزداد طغيانُهم وكفرُهم بحسَب المقدار، كما أنّ الطعام الصالح للأصِحّاء يزيد المرضَى مرضًا.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ أي: بين اليهود؛ فإنّ بعضهم جَبْرِيّةٌ، وبعضَهم قَدَريّةٌ، وبعضَهم مُرْجِئةٌ، وبعضَهم مشبِّهةٌ. ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ فلا يكاد يتوافق قلوبهم ولا يتطابق أقوالهم. والجملة مبتدَأة مَسوقةٌ لإزاحة ما عسى يُتوهَّم مِن ذكر طُغيانهم وكفرِهم مِن الاجتماع على أمرٍ يؤدِّي إلى الإضرار بالمسلمين. قيل: "العداوة" أخصُّ مِن "البغضاء"؛ لأنّ كلّ عدوّ مبغِضٌ، بلا عكسٍ كلّيّ. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّق بـ﴿أَلْقَيْنَا﴾، وقيل: بـ﴿ٱلْبَغْضَآءَ﴾.

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ / أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ تصريح بما أُشيرَ إليه مِن عدم وصول غائلةِ ما هم فيه إلى المسلمين، أي: كلّما أرادوا محاربةَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ورتَّبوا مبادِيَها وركِبوا في ذلك متنَ كلّ صعب وذَلولٍ، رَدَّهم الله تعالى وقهَرَهم. أو: كلّما أرادوا حربَ أحدٍ غُلِبوا؛ فإنّهم لمّا خالفوا حكمَ التوراة سَلّط الله تعالى عليهم بُخْتَ نَصَّرَ، ثمّ أفسدوا، فسَلّط عليهم فُطْرُسَ الروميَّ، ثمّ أفسدوا، فسَلّط عليهم المجوسَ، ثمّ أفسدوا، فسَلّط عليهم المسلمين. و﴿لِّلْحَرْبِ﴾ إمّا صلةٌ لـ﴿أَوْقَدُوا﴾، أو متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿نَارًا﴾، أي: كائنةً للحرب. [١٤٩و]

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: يجتهدون في الكَيْد للإسلام وأهلِه وإثارةِ الشرّ والفتنةِ فيما بينهم ممّا يغايِرُ ما عُبّر عنه بإيقاد نار الحرب. و﴿فَسَادًا﴾ إمّا مفعول له، أو في موقِع المصدر، أي: يسعَوْن للفساد، أو يسعَوْن سعيَ فسادٍ. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ ولذلك أطفأ ثائرةَ إفسادهم. و"اللام" إمّا للجنس، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا، وإمّا للعهد. ووضعُ المُظهَر مَقام الضمير للتعليل وبيانِ كونهم راسخين في الإفساد.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اليهود والنصارى، على أنّ المراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ الجنسُ المنتظِمُ للتوراة والإنجيل. وإنّما ذُكروا بذلك العُنوان تأكيدًا للتشنيع؛ فإنّ أهليّة الكتاب توجِب إيمانَهم به وإقامتَهم له لا محالةَ؛ فكفرُهم به وعدمُ إقامتهم له -وهُم أهلُه- أقبَحُ مِن كلّ قبيح وأشنَعُ مِن كلّ شنيع. فمفعول قوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا﴾ محذوفٌ ثِقةً بظهوره ممّا سبق مِن قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة، ٥/٥٩]، وما لَحِقَ مِن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾... إلى آخره [المائدة، ٥/٦٦].

أي: لو أنّهم مع صدور ما صدر عنهم مِن فنون الجنايات قولًا وفعلًا آمَنوا بما نُفِيَ عنهم الإيمانُ به. فيندرج فيه فرضُ إيمانهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وأمّا إرادة إيمانهم به عليه السلام خاصّةً فيأباها المقام؛ لأنّ ما ذُكر فيما سبق وما لحِقَ مِن كفرهم به عليه السلام إنّما ذُكر مشفوعًا بكفرهم بكتابهم أيضًا، قصدًا إلى الإلزام والتبكيتِ ببيان أنّ الكفر به عليه السلام مستلزِمٌ للكفر بكتابهم؛ فحملُ "الإيمان" ههنا على الإيمان به عليه السلام خاصّةً مُخِلٌّ بتجاوُب أطرافِ النظم الكريم.

﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما عدَدْنا مِن مَعاصيهم التي مِن جملتها مخالفةُ كتابهم، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي اقترفوها، وإن كانت في غاية العِظَم ونهايةِ الكثرة،

ولم نؤاخِذهم بها، / ﴿وَلَأَدْخَلْنَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿جَنَّتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. وتكرير "اللام" [١٤٩ظ] لتأكيد الوعد، وفيه تنبيه على كمال عِظَم ذنوبهم وكثرةِ مَعاصيهم، وأنّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله مِن السيّئات، وإن جلّتْ وجاوزتْ كلَّ حدّ معهود.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بمُراعاةِ ما فيهما مِن الأحكام التي مِن جملتها شواهدُ نبوّةِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومبشِّراتُ بِعثتِه؛ فإنّ إقامتهما إنّما تكون بذلك، لا بمُراعاة جميع ما فيهما مِن الأحكام لانتساخِ بعضها بنزول القرآن، فليست مراعاةُ الكلّ مِن إقامتهما في شيء.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ مِن القرآن المَجيد المصدِّق لكُتُبهم. وإيراده بهذا العُنوان للإيذان بوجوب إقامته عليهم لنزوله إليهم، وللتصريح ببُطلان ما كانوا يدّعُونه مِن عدم نزوله إلى بني إسرائيلَ. وتقديم ﴿إِلَيْهِم﴾ لِما مرّ مِن قبلُ. وفي إضافة "الربّ" إلى ضمير "هم" مزيدُ لطفٍ بهم في الدعوة إلى الإقامة. وقيل:[١] المراد بـ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ كُتُبُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، مِثلُ: كتاب "شعيا"، وكتاب "حَنقُوق"، وكتاب "دانيال"؛ فإنّها مملوءة بالبِشارة بمَبعَثه صلّى الله عليه وسلّم.

﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي: لَوَسَّع عليهم أرزاقَهم بأنْ يُفيض عليهم بَرَكاتِ السماء والأرضِ، أو بأنْ يُكثِر ثَمَراتِ الأشجار وغِلالَ الزروع، أو بأنْ يرزُقَهم الجِنانَ اليانعةَ الثِّمارِ، فيَجتَنُوا ما تهدَّلَ منها مِن رءوس الأشجار ويلتقطوا ما تساقَطَ منها على الأرض. وقيل: المراد المبالغةُ في شرح السَّعَة والخَصْبِ، لا تعيينُ الجهتين، كأنّه قيل: لَأكلوا مِن كلّ جهة.

ومفعول ﴿أَكَلُوا﴾ محذوفٌ لقصد التعميم، أو للقصد إلى نفس الفعل كما في قوله: "فلان يُعطي ويمنَع". و﴿مِنْ﴾ في الموضِعَين لابتداء الغاية. / وفي هاتَين [١٥٠و]

---

[١] وفي هامش م: كذا في اللباب. «منه». | اللباب لابن عادل، ٧/٤٣٤، وفي مطبوعه: "شُعيب" بدلَ "شعيا"، و"حَيقُوق" بدلَ "حَنقُوق".

الشرطيّتين مِن حقّهم على ما ذُكر مِن الإيمان والتقوى والإقامةِ بالوعد[١] بنَيْل سعادة الدارَين، وزَجرِهم عن الإخلال به ببيان[٢] إفضائه إلى الحِرمان عنها، وتنبيهِهم على أنّ ما أصابهم مِن الضَّنَك والضِّيق إنّما هو مِن شُؤم جناياتهم لا لقصورٍ في فَيض الفيّاضِ، ما لا يَخفى.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ جملة مستأنَفة مَبنيّةٌ على سؤالٍ نشأ مِن مضمون الجملتين المصدَّرتين بحرف الامتناع الدالّتين على انتفاء الإيمان والاتّقاءِ وإقامةِ الكُتُب المنزلة مِن أهل الكتاب،[٣] كأنّه قيل: هل كلّهم كذلك مُصِرّون على عدم الإيمان؟... إلخ، فقيل: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾، إمّا على أنّ ﴿مِنْهُمْ﴾ مبتدأ باعتبار مضمونه، أي: "بعضُهم أمّةٌ"، وإمّا بتقدير الموصوف، أي: "بعضٌ كائنٌ منهم"، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة، ٨/٢]. أي: طائفةٌ معتدِلةٌ، وهُم المؤمنون منهم كعبد الله بنِ سلَام وأضرابِه وثمانيةٌ وأربعون مِن النصارى، وقيل: طائفةٌ حالُهم أَمَمٌ[٤] في عَداوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ مبتدأٌ لتخصُّصه بالصفة، خبرُه: ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: مَقُولٌ في حقّهم هذا القولُ، أي: بِئسَما يعملون. وفيه معنى التعجّب، أي: ما أسوَأَ عملَهم مِن العناد والمكابرةِ وتحريفِ الحقّ والإعراضِ عنه والإفراطِ في العداوة. وهُم الأجلافُ المتعصِّبون ككَعب بنِ الأشرف وأشباهِه والرومِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ نُودِيَ عليه الصلاة والسلام بعُنوان الرسالة تشريفًا له، وإيذانًا بأنّها مِن موجِبات الإتيان بما أُمر به مِن تبليغ ما أُوحِيَ إليه. ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

---

[١] قوله: "بالوعد" متعلِّقة بـ"حقّهم"، لا بـ"الإقامةِ"، أي: ... مِن حقّهم بالوعد بنَيْل سعادة الدارَين على ما ذُكر مِن الإيمان والتقوى والإقامةِ...

[٢] وفي هامش م: بما ذُكِر. «منه».

[٣] قوله: "مِن أهل الكتاب" متعلّق بـ"الانتفاء"، أي: الدالّتَين على انتفاء الإيمان... مِن أهل الكتاب...

[٤] الأَمَم: القُرب. والأَمَم: البيّن مِن الأمر. تاج العروس للزبيدي، «أمم».

أي: جميعَ ما أنزِلَ إليك مِن الأحكام وما يتعلّق بها كائنًا ما كان.[١] وفي قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ -أي: مالِكِ أمرِك ومبلِّغِك إلى كمالك اللائقِ بك- عِدَةٌ ضِمْنيّة بحفظه عليه السلام وكِلاءته،[٢] أي: بلِّغْه غيرَ مراقِب / في ذلك أحدًا، ولا خائفٍ أن يَنالَكَ مكروهٌ أبدًا. [١٥٠ظ]

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي: ما أُمرتَ به مِن تبليغ الجميع بالمعنى المذكور، كما يُنبِئ عنه قوله تعالى: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾؛ فإنّ ما لا يتعلّق به الأحكامُ أصلًا مِن الأسرار الخفيّة ليست ممّا يُقصَد تبليغه إلى الناس. أي: فما بلّغتَ شيئًا مِن رسالته وانسلختَ ممّا شُرِّفتَ به مِن عُنوان الرسالة بالمرّة، لِما أنّ بعضها ليس أَولى بالأداء مِن بعض، فإذا لم تؤدِّ بعضَها فكأنّك أغفلتَ أداءَها جميعًا، كما أنّ مَن لم يؤمن ببعضها كان كمَن لم يؤمن بكلّها، لإدلاء كلٍّ منها بما يُدليه غيرها، وكونِها لذلك في حكم شيء واحد، ولا ريبَ في أنّ الواحد لا يكون مبلَّغًا غيرَ مبلَّغٍ مؤمَنًا به غيرَ مؤمَنٍ به، ولأنّ كِتمان بعضها إضاعةٌ لِما أُدِّيَ منها كترك بعض أركان الصلاة، فإنّ غرض الدعوة ينتقض بذلك. وقيل: فكأنّك ما بلّغتَ شيئًا منها، كقوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة، ٣٢/٥]، مِن حيث إنّ كِتمان البعض والكلِّ سواءٌ في الشناعة واستجلابِ العقاب.

وقُرئ: "فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِي".[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إن كتَمتَ آيةً لم تبلِّغ رسالاتي».[٤] ورُوي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بعثني اللهُ برسالاته، فضِقتُ بها ذَرعًا، فأوحى الله إليّ: "إن لم تبلِّغْ رسالاتي عذَّبتُك"، وضَمِنَ لي العصمةَ، فقوِيتُ».[٥]

---

[١] وفي هامش م: وأمّا ما لا تعلُّقَ له بها مِن المعارف والأسرار الخفيّة، فلا أمرَ بتبليغها. «منه».

[٢] كَلَأَ: كلأك الله كِلاءةً: أي: حفِظك وحرَسك. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٤٠٧/٥ «باب الكاف واللام والهمزة».

[٣] لم نقف عليها في كتب القراءات والتفسير. لعلّها قراءةُ نافع وابنِ عامر وأبي جعفر ويعقوب وعاصم في رواية أبي بكر: "فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهِ". الحجّة لأبي عليّ الفارسي، ٢٣٩/٣؛ النشر لابن الجزري، ٢٥٥/٢.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٦٥٩/١؛ اللباب لابن عادل، ٤٣٩/٧. وباختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٥٦٨/٨.

[٥] التفسير البسيط للواحدي، ٤٧١/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٥٩/١؛ اللباب لابن عادل، ٤٣٩/٧.

وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإنّه كما ترى عِدَةٌ كريمةٌ بعصمته مِن لُحوق ضررهم بروحه العزيز، باعثةٌ له عليه السلام على الجِدّ في تحقيق ما أُمر به مِن التبليغ غيرَ مكترِث بعَداوتهم وكيدهم. وعن أنس رضي الله عنه أنّه عليه السلام كان يُحرَس حتّى نزلت، فأخرج رأسَه مِن قُبّةِ أَدَمٍ، / فقال: «انصرِفوا يا أيّها الناس، فقد عصَمني الله مِن الناس».[١] [١٥١و]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تعليل لعصمته تعالى له عليه السلام، أي: لا يُمكِّنهم ممّا يريدون بك مِن الإضرار. وإيراد الآية الكريمة في تضاعيف الآيات الواردة في حقّ أهل الكتاب لِما أنّ الكلّ قوارعُ يسُوءُ الكُفّارَ سَماعُها، ويشُقّ على الرسول صلّى الله عليه وسلّم مشافَهتُهم بها، وخصوصًا ما يتلوها مِن النصّ الناعي عليهم كمالَ ضلالهم؛ ولذلك أعيدَ الأمر، فقيل:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مخاطِبًا للفريقين: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: دِينٍ يُعتدّ به ويَليق بأنْ يُسمَّى "شيئًا" لظهور بُطلانه ووضوحِ فساده. وفي هذا التعبير مِن التحقير والتصغير ما لا غايةَ وراءه.

﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: تُراعُوهما وتحافِظوا على ما فيهما مِن الأمور التي مِن جملتها دلائلُ رسالة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وشواهدُ نبوّتِه، فإنّ إقامتهما إنّما تكون بذلك. وأمّا مُراعاة أحكامهما المنسوخةِ، فليست مِن إقامتهما في شيء؛ بل هي[٢] تعطيل لهما وردٌّ لشهادتهما؛ لأنّهما شاهدانِ بنسخها[٣]

[١] هو في الكشّاف للزمخشري، ٦٦٠/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٦/٢، عن أنس رضي الله عنه. وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشّاف، ٤١٤/١ (٤٢٧): «قلتُ: غريب مِن حديث أنس، ولم أجده إلّا مِن حديث عائشةَ، رواه الترمذي». انظر: سنن الترمذي، ٢٥١/٥ (٣٠٤٦). وهو في جامع البيان للطبري، ٥٦٩/٨، عن عائشةَ رضي الله عنها أيضًا.

[٢] أي: مُراعاة أحكامهما.

[٣] أي: بنسخ أحكامهما.

وانتهاءِ وقت العمل بها؛ لأنّ شهادتهما بصحّة ما ينسَخها شهادةٌ بنسخها وخروجِها عن كونها مِن أحكامهما، وأنّ أحكامهما ما قرّره النبيّ الذي بُشّر فيهما ببِعثته وذُكر في تَضاعيفهما نعوتُه؛ فإذنْ إقامتُهما بيانُ شواهد النبوّة والعملُ بما قرّره الشريعة مِن الأحكام، كما يُفصِح عنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ -أي: القرآن المَجيد- بالإيمان به؛ فإنّ إقامة الجميع لا يتأتّى بغير ذلك.

وتقديم إقامة الكتابين على إقامته -مع أنّها المقصودةُ بالذات- لرعاية حقّ الشهادة واستنزالِهم عن رتبة الشِّقاق. وإيراده بعُنوان الإنزال إليهم لِما مرّ مِن التصريح بأنّهم مأمورون بإقامته والإيمانِ به، لا كما يزعُمون مِن اختصاصه بالعرب. وفي إضافة "الربّ" إلى ضميرهم ما أُشيرَ إليه مِن اللطف في الدعوة. وقيل: المراد بـ"ما أُنزلَ إليهم" كُتُب أنبياء بني إسرائيلَ / كما مرّ،[1] [١٥١ظ] وقيل: الكُتُب الإلهيّة؛ فإنّها بأسرِها آمِرةٌ بالإيمان لِمَن صدَّقَته المعجِزة، ناطقةٌ بوجوب الطاعة له.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ جماعةً مِن اليهود قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ألستَ تقرأ أنّ التوراة حقٌّ مِن عند الله تعالى؟»،[2] فقال عليه السلام: «بلى»، فقالوا: «فإنّا مؤمِنون بها، ولا نؤمن بغيرها»، فنزلت.[3]

وقوله عزّ وعلَا:[4] ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ جملة مستأنَفة مبيّنةٌ لشدّة شَكيمتِهم وغُلوّهم في المكابرة والعناد وعدمِ إفادة التبليغ نفعًا. وتصديرها بالقَسَم لتأكيد مضمونها وتحقيقِ مدلولها. والمراد بـ"الكثير" المذكور: علماؤُهم ورؤساؤُهم. ونسبة "الإنزال" إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم -مع نسبته فيما مرّ إليهم- للإنباء عن انسلاخهم عن تلك النسبة.

﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تتأسّفْ ولا تحزَنْ عليهم لإفراطهم في الطُّغيان والكفرِ بما تبلِّغه إليهم؛ فإنّ غائلته آيِلةٌ إليهم وتبِعَته حائقةٌ بهم لا تتخطّاهم،

---

١ في تفسير المائدة، ٦٦/٥.

٢ م - تعالى.

٣ اللباب لابن عادل، ٤٤٢/٧. وهو مفصّلًا في جامع البيان للطبري، ٥٧٢/٨؛ وتفسير السمرقندي، ٤٢٩/١.

٤ س: تعالى.

وفي المؤمنين مَندوحةٌ لك عنهم. ووضعُ المُظهَر موضِعَ المضمَر للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كلام مستأنَف مَسوقٌ لترغيب مَن عَدَا المذكورين في الإيمان والعمل الصالح، أي: الذين آمنوا بألسِنَتهم فقط، وهُم المنافقون، وقيل: أعمُّ مِن أن يواطِئها قلوبُهم أو لا. ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: دخلوا في اليهوديّة. ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جمعُ "نَصْران"، وقد مرَّ تفصيله في سورة البقرة.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ رفعٌ على الابتداء، وخبرُه محذوف،[٢] والنيّةُ به التأخيرُ عمّا في حَيّز ﴿إِنَّ﴾، / والتقدير: إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمُهم كيتَ وكيتَ، والصابئون كذلك، كقوله: [١٥٢و]

فإنّي وقَيّارٌ بها لَغَريبُ[٣]

وقولِه:

وإلّا فاعلَموا أنّا وأنتم بُغاةٌ ما بقِينا في شِقاقِ[٤]

خلا أنّه وُسّط بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرِها دلالةً على أنّ الصابئين -مع ظهور ضلالهم وزيغِهم عن الأديان كلِّها- حيث قُبلت توبتُهم إن صَحَّ منهم الإيمانُ والعملُ الصالحُ، فغيرُهم أَولى بذلك.

وقيل: الجملة الآتية خبرٌ للمبتدأ المذكور، وخبرُ ﴿إِنَّ﴾ مقدَّرٌ، كما في قوله:

---

[١] في تفسير البقرة، ٦٢/٢.

[٢] وفي هامش م: لدلالة خبر ﴿إِنَّ﴾ عليه. «منه».

[٣] عجز بيتٍ، وصدره:

فمَن يكُ أمسى بالمدينة رَحلُه

وهو لضابئ بن الحارث البُرْجُمي في الأصمَعيّات للأصمَعي، ص ١٨٤؛ والإنصاف للأنباري، ٧٨/١؛ والحماسة البصريّة لأبي الحسن البصري، ٥٦/٢؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٣٢٩/٩.

[٤] هو لِبشر بن أبي خازِم الأسدي في ديوانه، ص ١١٦، وفي مطبوعه: "ما حَيِينَا" بدلَ "ما بَقِينا". وهو بهذه الألفاظ في كتاب سيبويه، ١٥٦/٢، وخِزانة الأدب للبغدادي، ٢٩٧/١٠.

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ[1]

وقيل: ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ مرفوعٌ على الابتداء كقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾، عطفًا عليه، وهو مع خبره عطفٌ على الجملة المصدَّرة بـ﴿إِنَّ﴾، ولا مساغَ لعطفه وحدَه على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها لاشتراط ذلك بالفراغ عن الخبر، وإلّا لَارتفع الخبرُ بـ﴿إِنَّ﴾ والابتداءِ معًا. واعتُذِر عنه بأنّ ذلك إذا كان المذكورُ خبرًا لهما، وأمّا إذا كان خبرُ المعطوف محذوفًا فلا محذورَ فيه. ولا على الضمير[2] في ﴿هَادُوا﴾ لعدم التأكيد والفصلِ، ولاستلزامه كونَ "الصابئين" هُودًا.

وقُرئ: "وَالصَّابِيُونَ"[3] بياءٍ صريحةٍ بتخفيف الهمزة. وقُرئ: "وَالصَّابُونَ"،[4] وهو مِن "صَبَا يَصبُو"؛ لأنّهم صبَوْا إلى اتّباع الهوى والشَّهَواتِ في دينهم. وقُرئ: "وَالصَّابِئِينَ".[5] وقُرئ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ".[6]

وقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ إمّا في محلّ الرفع على أنّه مبتدأ، خبرُه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، و"الفاء" لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط، وجمعُ الضمائر الأخيرة باعتبار معنى الموصول، كما أنّ إفرادَ ما في صلتِه باعتبار لفظه، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، والعائدُ إلى اسمها محذوفٌ، أي: مَن آمن منهم. وإمّا في محلّ النصب على أنّه بدلٌ مِن اسم ﴿إِنَّ﴾ وما عُطف عليه، والخبر قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾، و"الفاء" كما في قوله عزّ وعلَا:[7] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الآية [البروج، ١٠/٨٥].

---

١ البيت لقيس بن الخَطِيم في ديوانه، ص ٢٣٩؛ وكتاب سيبويه، ٧٤/١-٧٥، ولامرئ القيس في جمهرة أشعار العرب للقُرَشي، ص ١٣، ٥٣٠؛ والبيان والتبيين للجاحظ، ٦٩/٣؛ ولسان العرب لابن منظور، «فجر»؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٢٧٥/٤. وبلا نسبة في الصاحبيّ لابن فارس، ص ١٦٦؛ وأمالي ابن الشجري، ٤٥/٢.

٢ السياق: ولا مساغَ لعطفه وحدَه على... ولا على الضمير...

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والزهري. المحتسَب لابن جنّي، ٢١٦/١.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ وعائشة وسعيد بن جُبير والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٨.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٨.

٧ س: وجلّ.

فالمعنى على تقدير كون المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المنافقين، وهو الأظهَرُ: مَن أحدَثَ مِن هذه الطوائف إيمانًا خالصًا بالمَبدَأ والمَعادِ على / الوجه اللائق [١٥٢ظ] -لا كما يزعُمه أهل الكتاب؛ فإنّ ذلك بمَعزِل مِن أن يكون إيمانًا بهما- وعمِلَ عملًا صالحًا حسبما يقتضيه الإيمانُ بهما فلا خوفٌ عليهم[١] حين يَخاف الكُفّارُ العقابَ، ولا هم يحزَنون حيث يحزَن المُقصرون على تضييع العُمر وتفويتِ الثواب. والمراد بيانُ دوام انتفائهما، لا بيانُ انتفاء دوامهما كما يوهِمُه كونُ الخبر في الجملة الثانية مضارِعًا، لِما مرّ مرارًا أنّ النفي -وإن دخل على نفس المضارع- يُفيد الدوام والاستمرارَ بحسَب المقام.

وأمّا على تقدير كون المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مطلَقَ المتديِّنين بدين الإسلام المخلِصين منهم والمنافقين، فالمرادُ بـ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ مَن اتّصَفَ منهم بالإيمان الخالص بالمَبدَأ والمَعادِ على الإطلاق، سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه، كما هو شأن المخلِصين، أو بطريق إحداثه وإنشائه، كما هو حالُ مَن عَدَاهم مِن المنافقين وسائر الطوائف. وفائدة التعميم للمخلِصين المبالغةُ في ترغيب الباقين في الإيمان، ببَيان أنّ تأخُّرهم في الاتّصاف به غيرُ مُخِلّ بكونهم أُسْوَةً لأولئك الأقدَمِين الأعلامِ.

وأمّا ما قيل: المعنى: "مَن كان منهم في دينه قبل أن يُنسَخ مصدِّقًا بقلبه بالمَبدَأ والمَعادِ عاملًا بمقتضى شرعه"،[٢] فممّا لا سبيلَ إليه أصلًا، كما مرّ تفصيله في سورة البقرة.[٣]

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مبتدَأ مَسوقٌ لبيان بعضٍ آخَرَ مِن جناياتهم المنادية باستبعاد الإيمان منهم، أي: وبالله لقد أخذنا ميثاقَهم بالتوحيد

---

١ السياق: مَن أحدثَ... فلا خوفٌ عليهم...

٢ هو البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨٥/١ (البقرة، ٦٢/٢).

٣ انظر: البقرة، ٦٢/٢.

وسائرِ الشرائع والأحكامِ المكتوبة عليهم في التوراة، ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ذَوِي عددٍ كثيرٍ وأولي شأنٍ خطيرٍ ليقرِّروهم على مُراعاة حقوق الميثاق، ويُطلِعوهم على ما يأتون وما يَذَرون / في دينهم، ويتعهّدوهم[1] بالعِظَة والتذكيرِ. [١٥٣و]

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ جملة شرطيّة مستأنَفةٌ وقعتْ جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن الإخبار بأخذ الميثاق وإرسالِ الرُّسُل. وجواب الشرط محذوف، كأنّه قيل: فماذا فعلوا بالرُّسُل؟ فقيل: كلّما جاءهم رسولٌ مِن أولئك الرُّسُل بما لا تُحِبّه أنفُسهم المنهمِكةُ في الغَيّ والفسادِ مِن الأحكام الحقّة والشرائعِ عصَوْه وعادَوْه.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ جواب مستأنَفٌ عن استفسارِ كيفيّةِ ما أظهروه مِن آثار المخالَفة المفهومة مِن الشرطيّة على طريقة الإجمال، كأنّه قيل: كيف فعلوا بهم؟ فقيل: فريقًا منهم كذّبوهم مِن غير أن يتعرّضوا لهم بشيء آخَرَ مِن المَضارّ، وفريقًا آخَرَ منهم لم يكتَفُوا بتكذيبهم، بل قتلوهم أيضًا.

وإنّما أُوثِرَ عليه صيغةُ المضارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها[2] الهائلة للتعجيب منها، وللتنبيه على أنّ ذلك دَيْدَنُهم[3] المستمرُّ، وللمحافظة على رءوس الآيِ الكريمةِ. وتقديم ﴿فَرِيقًا﴾ في الموضعَين للاهتمام به وتشويقِ السامع إلى ما فعلوا به، لا للقصر.

هذا، وأمّا جعلُ الشرطيّة صفةً لـ﴿رُسُلًا﴾، كما ذهب إليه الجمهور، فلا يساعده المقامُ أصلًا، ضرورةَ أنّ الجملة الخبريّة إذا جُعلتْ صفةً أو صلةً يُفسَخ ما فيها مِن الحُكم، ويُجعَل عُنوانًا للموصوف وتَتِمّةً له في إثباتِ أمرٍ آخَرَ له؛ ولذلك يجِب أن يكون الوصفُ معلومَ الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جعله وصفًا له. ومِن ههنا قالوا: "إنّ الصِفاتِ قبل العلم بها أخبارٌ، والأخبار بعد العلم بها صِفاتٌ". ولا ريبَ في أنّ ما سِيقَ له النظمُ إنّما هو بيانُ أنّهم جعلوا كلَّ مَن جاءهم مِن رُسُل الله تعالى عُرضةً للقتل أو التكذيبِ -حسبما يفيده جعلُها استئنافًا-

---

[1] س: ويتعهّدون.

[2] أي: لاستحضار صورة الحال الماضية.

[3] الدَّيْدَنُ: الدأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

[١٥٣ظ] على أبلغ وجهٍ وآكَدِه؛ لا بيانُ أنّه تعالى / أرسل إليهم رُسُلًا موصوفين بكون كلٍّ منهم كذلك كما هو مقتضى جعلِها صفةً.

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: حسِب بنو إسرائيلَ أن لا يُصيبَهم مِن الله تعالى بما أتَوْا مِن الداهية الدَّهْياء والخُطّةِ الشَّنْعاء بلاءٌ وعذابٌ. وقُرِئ: "لَا تَكُونُ"[١] بالرفع، على أنّ ﴿أَنْ﴾ هي المخفَّفة مِن "أنّ"، واسمُها ضمير الشأن المحذوفُ، وأصله: أنّه لا تكونُ فتنةٌ. وتعليق فعل "الحُسْبان" بها -وهي للتحقيق- لتنزيله منزلةَ العِلم لكمال قوّتِه. و﴿أَنْ﴾ بما في حَيّزها سادٌّ مَسدَّ مفعولَيه.

﴿فَعَمُوا﴾ عطفٌ على ﴿حَسِبُوا﴾، و"الفاء" للدلالة على ترتُّب ما بعدها على ما قبلها، أي: أمِنوا بأسَ الله تعالى، فتَمادَوْا في فنون الغَيّ والفساد، وعَمُوا عن الدين بعد ما هَدَاهم الرُّسُلُ إلى مَعالمه الظاهرةِ وبيَّنوا لهم مناهجَه الواضحةَ، ﴿وَصَمُّوا﴾ عن استماع الحقّ الذي ألقَوْه عليهم؛ ولذلك فعلوا بهم ما فعلوا.

وهذا إشارة إلى المَرّة الأُولى مِن مرّتَيْ إفسادِ بني إسرائيلَ حين خالفوا أحكام التوراة وركِبوا المَحارِمَ وقتلوا شعيا، وقيل: حبَسُوا أرميا عليهما السلام، لا إلى عبادتهم العِجلَ[٢] كما قيل؛ فإنّها، وإن كانت مَعصيةً عظيمةً ناشئةً عن كمال العَمَى والصَّمَمِ، لكنّها في عصر موسى عليه السلام، ولا تعلُّقَ لها بما حُكي عنهم ممّا فعلوا بالرُّسُل الذين جاءوهم بعده عليه السلام بأعصارٍ.

﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ حين تابوا ورجعوا عمّا كانوا عليه مِن الفساد بعد ما كانوا ببَابِلَ دهرًا طويلًا تحت قَهر بُخْتَ نَصَّرَ أُسارَى في غاية الذُّلّ والمَهانة، فوجَّه الله عزّ وجلّ ملِكًا عظيمًا مِن ملوك فارِسَ[٣] إلى بيت المقدِس ليَعمُرَه،

---

١ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٥.

٢ السياق: وهذا إشارة إلى المرّة الأُولى... لا إلى عبادتهم العِجلَ...

٣ وفي هامش م: اسمه: يوشَك. «منه».

ونجّى بقايَا بني إسرائيلَ مِن أسر بُخْتَ نَصَّرَ / بعد مَهلِكه، وردَّهم إلىٰ وَطَنِهم، [١٥٤و] وتراجَعَ مَن تفرَّق منهم في الأكناف،[١] فعمَرُوه ثلاثين سنةً، فكثُروا، وكانوا كأحسن ما كانوا عليه.

وقيل: لمّا وَرِثَ بهمن بنُ إسفَندِيارَ المُلكَ مِن جَدّه كشتاسفَ ألقى الله عزّ وجلّ في قلبه شَفَقةً عليهم، فردَّهم إلى الشام، وملَّك عليهم دانيالَ عليه السلام، فاستَوْلَوْا على مَن كان فيها مِن أتباع بُخْتَ نَصَّرَ، فقامت فيهم الأنبياءُ، فرجعوا إلى أحسَنِ ما كانوا عليه مِن الحال،[٢] وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء، ٦/١٧]. وأمّا ما قيل: إنّ المراد قبولُ توبتِهم عن عبادة العِجل، فقد عرفتَ أنّ ذلك لا تعلُّقَ له بالمقام.

ولم يُسنَد "التوبة" إليهم كسائر أحوالهم مِن الحُسْبان والعَمَى والصَّمَمِ تَجافِيًا عن التصريح بنسبة الخير إليهم. وإنّما أشيرَ إليها في ضِمن بيان توبتِه تعالى عليهم تمهيدًا لبيان نقضهم إيّاها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّوا﴾. وهو إشارة إلى المَرّة الآخِرةِ مِن مرّتَيْ إفسادهم، وهو اجتراؤهم على قتل زكريّا ويحيى وقصدُهم قتلَ عيسى عليهم السلام، لا إلى طلبهم الرؤيةَ[٣] كما قيل، لِما عرفتَ سِرَّه؛ فإنّ فنون الجنايات الصادرةِ عنهم لا تكاد تتناهى، خَلَا أنّ انحصار ما حُكي عنهم ههنا في المرّتين وترتُّبه على حكاية ما فعلوا بالرُّسُل عليهم السلام يَقضي بأنّ المراد ما ذكرناه. والله عنده علم الكتاب.

وقُرئ: "عُمُوا وَصُمُّوا"[٤] بالضمّ على تقدير "عَمَاهم الله وصَمَّهم"، أي: رَمَاهم وضربهم بالعَمَى والصَّمَمِ، كما يُقال: "نَزَكتُه" إذا ضربتَه بالنَّيْزَكِ،[٥]

---

[١] أكناف الجبل أو الوادي: نَواحيه، حيث تنضمّ إليه. الواحد: كَنَف. الكَنَفانِ: الجَناحانِ، وكَنَفَا الإنسانِ: جانِباه. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٣٨١/٥–٣٨١ «باب الكاف والنون والكاف معهما».

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٨/٣ (الإسراء، ٦/١٧).

[٣] السياق: وهو إشارة إلى المرّة الآخِرةِ... لا إلى طلبهم الرؤيةَ...

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم النخعي. المحتسَب لابن جنّي، ٢١٧/١.

[٥] وفي هامش م: معرَّبُ "نيزَه". «منه». | والنَّيْزَك: رُمح قصير، كأنّه فارسيّ معرَّب، وقد تكلّمتْ به الفُصَحاء. والجمع: النَّيازِك. وقد نَزَكَه، أي: طعنه، وكذلك إذا نزَغه وطعَن فيه بالقول. ورجل نَزّاكٌ، أي: عيّابٌ. الصحاح للجوهري، «نزك».

و"رَكَبْتُه" إذا ضربتَه برُكبتِك.

وقوله تعالى: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بدلٌ مِن الضمير في الفعلين، وقيل: خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ، أي: أولئك كثيرٌ منهم.

[١٥٤ظ] ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ / أي: بما عمِلوا. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورتها[1] الفظيعةِ ورعايةً للفواصل. والجملة تذييلٌ أشيرَ به إلى بُطلان حُسْبانهم المذكورِ ووقوعِ العذاب مِن حيث لم يحتسبوا، إشارةً إجماليّةً اكتُفِيَ بها تعويلًا على ما فُصِّل نوعَ تفصيل في سورة بني إسرائيلَ.[2]

والمعنى: حسِبوا أن لا يُصيبهم عذابٌ، ففعلوا ما فعلوا مِن الجنايات العظيمة المستوجِبةِ لِأشدّ العقوبات، والله بصيرٌ بتفاصيلها؛ فكيف لا يؤاخِذهم بها؟ ومِن أين لهم ذلك الحُسبانُ الباطلُ؟ ولقد وقع ذلك في المَرّة الأُولى؛ حيث سلَّط الله تعالى عليهم بُخْتَ نَصَّرَ عامِلَ لَهْراسِبَ على بَابِلَ -وقيل: جالوتَ الجَزَري، وقيل: سَنْجاريبَ مِن أهل نِينوى، والأوّل هو الأظهرُ- فاستولى على بيت المقدِس، فقتل مِن أهله أربعين ألْفًا ممّن يقرأ التوراة، وذهب بالبقيّة إلى أرضه، فبَقُوا هناك على أقصى ما يكون مِن الذُّلِّ والنَّكَدِ إلى أن أحدَثوا توبةً صحيحةً، فردَّهم الله عزّ وعلَا إلى ما حُكِيَ عنهم مِن حُسن الحال. ثمّ عادوا إلى المَرّة الآخِرةِ مِن الإفساد، فبعث الله تعالى عليهم الفُرْسَ، فغَزاهم مَلِكُ بابلَ مِن ملوك الطوائف اسمُه: خودرود -وقيل: خردوس- ففعل بهم ما فعل. قيل: دخل صاحبُ الجيش مذبَحَ قَرابِينِهم، فوَجَد فيه دمًا يَغلِي، فسألهم، فقالوا: «دَمُ قُربانٍ لم يُقبَل منّا»، فقال: «ما صَدَقُوني»، فقتل عليه ألوفًا منهم، ثمّ قال: «إن لم تَصدُقونِي ما تركتُ منكم أحدًا»، فقالوا: «إنّه دَمُ يحيى عليه السلام»، فقال: «بمِثل هذا ينتقم الله تعالى منكم»، ثمّ قال: «يا يحيى قد علِم ربّي وربُّكم ما أصاب قومَك مِن أجلك، فاهْدَأْ بإذن الله تعالى قبل أن لا أُبقِيَ أحدًا منهم»، فهَدَأ.[3]

---

[1] أي: استحضارًا لصورة الحال الماضية.

[2] انظر: تفسير الإسراء، ١٧/٤-٦.

[3] انظر لتفصيل الأقوال والأحداث: جامع البيان للطبري، ١٤/٤٥٤-٥٠٣ (الإسراء، ١٧/٤-٧)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٦/٦٩-٨٦ (الإسراء، ١٧/٤-٨).

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ شروع في تفصيل قبائح النصارى وإبطالِ / أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود. وهؤلاء هُم الذين [١٥٥و] قالوا: إنّ مريم وَلَدتْ إلهًا. قيل: هم المَلكانيّة، والمارّ يعقوبيّة منهم. وقيل: هم اليعقوبيّة خاصّةً. قالوا: ومعنى هذا: إنّ الله تعالى حَلَّ في ذات عيسى واتّحَد بذاته؛ تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ حال مِن فاعل ﴿قَالُوا﴾ بتقدير "قَدْ"، مفيدةٌ لمَزيد تقبيح حالهم ببيان تكذيبهم للمسيح وعدمِ انزجارهم عمّا أصَرُّوا عليه بما أوعدهم به، أي: قالوا ذلك وقد قال المسيح مخاطِبًا لهم: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾؛ فإنّي عبدٌ مربوبٌ مِثلكم، فاعبُدوا خالقي وخالِقَكم؛ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي: شيئًا في عبادته أو فيما يختصّ به مِن صِفات الألوهيّة، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فلَنْ يدخلها أبدًا، كما لا يَصِل المحرَّمُ عليه المحرَّمَ؛ فإنّها دار المُوحِّدين. وإظهار الاسم الجليل في موقِع الإضمار لتهويل الأمر وتربيةِ المَهابة. ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ فإنّها هي المُعَدّة للمشركين. وهذا بيان لِابتلائهم بالعقاب إثرَ بيان حِرمانهم الثوابَ.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: ما لهم مِن أحدٍ ينصُرهم بإنقاذهم مِن النار، إمّا بطريق المغالَبة أو بطريق الشفاعة. والجمع لمُراعاة المقابَلة بـ﴿الظَّٰلِمِينَ﴾. و"اللام" إمّا للعهد والجمعُ باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾، كما أنّ الإفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها، وإمّا للجنس وهُم داخلون فيه دخولًا أوّليًّا. ووضعُه[١] على الأوّل موضِعَ الضمير للتسجيل عليهم بأنّهم ظلموا بالإشراك وعدَلوا عن طريق الحقّ.

والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لِما قبله. وهو إمّا مِن تمام كلام عيسى عليه السلام، وإمّا واردٌ مِن جهته تعالى تأكيدًا لمَقالته عليه السلام وتقريرًا لمضمونها. وقد قيل:

---

[١] أي: ﴿الظَّٰلِمِينَ﴾.

إنّه مِن كلامه عزّ وجلّ على معنى: أنّهم ظلموا وعدَلوا عن سبيل الحقّ فيما تقَوَّلوا على عيسى عليه السلام، فلذلك لم يساعدهم عليه / ولم ينصُرْ قولَهم، [١٥٥ظ] ورَدَّه وأنكره، وإن كانوا معظِّمين له بذلك ورافعين مِن مِقداره. أو مِن قول عيسى عليه السلام[١] على معنى: لا ينصُرُكم أحدٌ فيما تقولون، ولا يساعدُكم عليه لاستحالته وبُعدِه عن المعقول.

وأنت خبير بأنّ التعبير عمّا حُكي عنه عليه السلام مِن مقابَلتِه لقولهم الباطلِ بصريح الردّ والإنكارِ والوعيدِ بحِرمان الجنّة ودخولِ النار بمجرَّد عدم مساعدته على ذلك[٢] ونفيِ نُصرته له،[٣] مع خُلُوّه عن الفائدة، تصويرٌ[٤] للقَوِيّ بصورة الضعيف وتهوينٌ للخَطْب في مقام تهويله؛ بل ربّما يُوهِم ذلك بحسَب الظاهر ما لا يَليق بشأنه عليه السلام مِن توهُّم المساعدة والنُصرةِ، لاسيّما مع ملاحظة قوله: "وإن كانوا معظِّمين له"... إلخ؛ إلّا أن يُحمَل الكلام على التهكُّم بهم.

وكذا الحالُ على تقدير كونه مِن تمام كلامه عليه السلام، فإنّ زَجْره إيّاهم عن قولهم الفاسدِ بما ذُكر مِن عدم الناصر والمساعِدِ بعد زجره إيّاهم بما مرّ مِن الردّ الأكيدِ والوعيدِ الشديدِ بمَعزِل مِن[٥] الإفادة والتأثيرِ، ولا سبيلَ ههنا إلى الاعتذار بالتهكّم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ شروع في بيان كُفر طائفةٍ أخرى منهم. ومعنى قولهم: "ثالثُ ثلاثةٍ" و"رابعُ أربعةٍ" ونحو ذلك: أحدُ هذه الأعداد مطلَقًا، لا "الثالثُ" و"الرابعُ" خاصّةً؛ ولذلك منَعَ الجمهور أن ينصب ما بعده بأنْ يُقال: "ثالثٌ ثلاثةً" و"رابعٌ أربعةً"، وإنّما ينصِبه إذا كان ما بعده دونه بمَرتبة،

---

[١] س - عليه السلام.
[٢] أي: على قولهم الباطل.
[٣] أي: لقولهم الباطل.
[٤] السياق: وأنت خبير بأنّ التعبير عمّا حُكي عنه عليه السلام... بمجرّد عدم مساعدته... تصويرٌ...
[٥] السياق: فإنّ زَجْره إيّاهم... بمَعزِل مِن...

كما في قولك: "عاشرٌ تسعةً" و"تاسعٌ ثمانيةً".

قيل: إنّهم يقولون: إنّ الإلهيّةَ مشتركة بين الله سبحانه وتعالى وعيسى ومريمَ، وكلُّ واحد مِن هؤلاء إلهٌ. ويؤكِّده قوله تعالى للمسيح: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة، ١١٦/٥]، فقوله تعالى: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي: أحدُ ثلاثةِ آلهةٍ، وهو المتبادر مِن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: والحال أنّه ليس في الوجود ذات واجب مستحِقّ للعبادة مِن حيث إنّه مَبدَأ جميعِ الموجودات / إلّا إلهٌ موصوفٌ بالوَحدانيّة مُتَعالٍ عن قبول الشركة. و﴿مِنْ﴾ مزيدةٌ للاستغراق. [١٥٦و]

وقيل: إنّهم يقولون: الله جوهرٌ واحدٌ ثلاثةُ أقانيمَ: أقنومُ الأب وأقنومُ الابن وأقنومُ روح القُدُس، وإنّهم يريدون بالأوّل الذاتَ، وقيل: الوجودَ، وبالثاني العِلمَ، وبالثالث الحياةَ، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إلّا إله واحد بالذات منزَّهٌ عن شائبة التعدّد بوجهٍ مِن الوجوه.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ مِن الكفر الشنيع، ولم يُوحِّدوا. وقوله تعالى: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ سادٌّ مَسدَّ جواب الشرط، أي: واللهِ إن لم يَنتَهُوا لَيَمسَّنَّهم. وإنّما وُضع موضِعَ ضمير "هُمْ" الموصولُ لتكرير الشهادة عليهم بالكفر، فـ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ بيانيّةٌ. أو: لَيَمسَّنَّ الذين بَقُوا منهم على ما كانوا عليه مِن الكفر، فـ﴿مِنْ﴾ تبعيضيّةٌ. وإنّما جِيءَ بالفعل المنبِئِ عن الحدوث تنبيهًا على أنّ الاستمرار عليه بعد ورود ما يُنجِي عليه بالقلع مِن نصّ عيسى عليه السلام وغيرِه كفرٌ جديدٌ[١] وغُلُوٌّ زائدٌ على ما كانوا عليه مِن أصل الكفر. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: نوعٌ شديدُ الألم مِن العذاب.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

وهمزة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ لإنكار الواقع واستبعادِه، لا لإنكار الوقوع. وفيه تعجيب مِن إصرارهم. و"الفاء" للعطف

---

١ السياق: تنبيهًا على أنّ الاستمرار عليه... كفرٌ جديدٌ...

على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: ألَا ينتَهُون عن تلك العقائد الزائغة والأقاويلِ الباطلة، فلا يتوبون إلى الله الحقِّ ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيهِ عمّا نَسَبوه إليه مِن الاتّحاد والحلول؟ فمدار الإنكار والتعجيبِ عدمُ الانتهاء وعدمُ التوبة معًا. أو: أيَسمَعون[1] هذه الشهاداتِ المكرَّرةَ والتشديداتِ المقرّرةَ، فلا يتوبون عَقيبَ ذلك؟ فمَدارهما عدمُ التوبة عقيبَ تحقُّق ما يُوجبها مِن سَماع تلك القوارع الهائلة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ جملة حاليّة مِن فاعل ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَهُۥ﴾، مؤكِّدةٌ للإنكار والتعجيبِ مِن إصرارهم على الكفر وعدمِ مسارَعتِهم إلى الاستغفار، أي: والحالُ أنّه تعالى مبالِغٌ في المغفِرة، فيغفِر لهم عند استغفارهم / ويمنَحهم مِن فضله. [١٥٦ظ]

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٧٥﴾

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ﴾ استئناف مَسوقٌ لتحقيق الحقّ الذي لا مَحيدَ عنه وبيانِ حقيقة حاله عليه السلام وحالِ أُمّه، بالإشارة أوّلًا إلى أشرفِ ما لهما مِن نعوت الكمال التي بها صارَا مِن زُمرة أكمل أفراد الجنس، وآخِرًا إلى الوصف المشترَك بينهما وبين جميع أفراد البَشَر -بل أفرادِ الحَيَوان- استنزالًا لهم بطريق التدريج عن رُتبة الإصرار على ما تقوّلوا عليهما، وإرشادًا لهم إلى التوبة والاستغفار، أي: هو مقصور على الرسالة، لا يكاد يتخطّاها.

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ صفة لـ﴿رَسُولٞ﴾، مُنبِئةٌ عن اتّصافه بما يُنافي الألوهيّةَ؛ فإنّ خُلُوّ الرُّسُل السالفة عليهم السلام منذِرٌ بخُلُوّه المقتضِي لاستحالة ألوهيّته، أي: ما هو إلّا رسولٌ كالرُّسُل الخالية مِن قَبله، خصَّه الله تعالى ببعضٍ مِن الآيات كما خصَّ كلًّا منهم ببعضٍ آخَرَ منها؛ فإن أُحيِيَ المَوتى على يدِه فقد أُحيِيَ العَصَا في يدِ موسى وجُعلت حَيّةً تَسعَى، وهو أعجَبُ منه،

---

[1] س: يسمعون.

وإن خُلق مِن غير أبٍ فقد خُلق آدمُ مِن غير أبٍ ولا أمٍّ، وهو أغرَبُ منه، وكلّ ذلك مِن جَنابه عزّ وجلّ، وإنّما موسى وعيسى مَظاهِرّ لشئونه وأفعالِه.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: وما أمّه أيضًا إلّا كسائر النساء اللاتي يُلازِمْنَ الصِّدقَ أو التصديقَ[١] ويُبالِغنَ في الاتّصاف به، فما رُتبتهما إلّا رتبةُ بَشَرَين، أحدُهما نبيٌّ والآخَرُ صحابيٌّ؛ فمِن أين لكم أن تَصِفوهما بما لا يُوصَف به سائرُ الأنبياء وخواصُّهم؟ ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ استئناف مبيّنٌ لِما أشيرَ إليه مِن كونهما كسائر أفراد البَشَر في الاحتياج إلى ما يَحتاج إليه كلُّ فرد مِن أفراده، بل مِن أفراد الحَيَوان.

[١٥٧و] / وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تعجيب مِن حال الذين يَدّعون لهما الربوبيّةَ ولا يرعَوُون عن ذلك بعد ما بُيّن لهم حقيقةُ حالهما بيانًا لا يحُوم حولَه شائبةُ رَيبٍ. و﴿كَيۡفَ﴾ معمول لـ﴿نُبَيِّنُ﴾. والجملة في حَيّز النصب، معلَّقةٌ لـ﴿ٱنظُرۡ﴾، أي: انظُرْ كيف نبيّن لهم الآياتِ الباهرةَ المناديةَ ببُطلان ما تقَوّلوا عليهما نِداءً يكاد يسمعه صَمُّ الجِبال.

﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: كيف يُصرفون عن استماعها والتأمّلِ فيها. والكلام فيه كما فيما قبله. وتكرير الأمر بـ"النَّظَر" للمبالغة في التعجيب. و﴿ثُمَّ﴾ لإظهار ما بين العَجَبَين مِن التفاوت، أي: إنّ بيانَنَا للآيات أمرٌ بديعٌ في بابه، بالغٌ لأقاصي الغايات القاصيةِ مِن التحقيق والإيضاح، وإعراضُهم عنها -مع انتفاء ما يصحِّحه بالمَرّة وتعاضُدِ ما يوجِب قبولَها- أعجَبُ وأبدَعُ.

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾

﴿قُلۡ﴾ أمرٌ له صلّى الله عليه وسلّم بإلزامهم وتبكيتِهم إثرَ تعجيبه مِن أحوالهم. ﴿أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: متجاوِزين إيّاه. وتقديمه على قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر. والموصول عبارةٌ عن عيسى عليه السلام.

---

[١] س: والتصديق.

وإيثاره على كلمة "مَن" لتحقيق ما هو المراد مِن كونه بمَعزِل مِن الألوهيّة رأسًا، ببيان انتظامه عليه السلام في سلك الأشياء التي لا قدرةَ لها على شيء أصلًا؛ وهو عليه السلام، وإن كان يَملِك ذلك بتمليكه تعالى إيّاه، لكنّه لا يملِكه مِن ذاته، ولا يملِك مثلَ ما يَضُرّ به اللهُ تعالى / مِن البلايَا والمصائب وما ينفع به مِن الصّحة. وتقديم "الضَّرَر" على "النفع"؛ لأنّ التحرّز عنه أهَمُّ مِن تَحرّي النفع، ولأنّ أدنى دَرَجات التأثير دفعُ الشرّ، ثمّ جَلْبُ الخير. [١٥٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ حال مِن فاعل ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾، مؤكِّدٌ للإنكار والتوبيخ، ومقرِّرٌ للإلزام والتبكيت. والرابط هو "الواو"، أي: أتُشرِكون بالله تعالى ما لا يقدِر على شيء مِن ضُرِّكم ونفعِكم، والحالُ أنّ الله تعالى[١] هو المختصّ بالإحاطة التامّة بجميع المسموعات والمعلوماتِ التي مِن جملتها ما أنتم عليه مِن الأقوال الباطلة والعقائدِ الزائغة والأعمالِ السيّئة، وبالقدرة[٢] الباهرة على جميع المقدورات التي مِن جملتها مَضارُّكم ومنافعُكم في الدنيا والآخرة؟

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تلوين للخطاب وتوجيهٌ له إلى فريقَيْ أهلِ الكتاب على لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد إبطال مسلَك كلٍّ منهما، للمبالغة في زجرهم عمّا سلكوه مِن المسلَك الباطلِ وإرشادِهم إلى الأَمَمِ المِيتاء.[٣] ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ أي: لا تتجاوَزُوا الحدَّ. وهو نهيٌ للنصارى عن رفع عيسى عن رُتبة الرسالة إلى ما تقوَّلوا في حقّه مِن العظيمة، ولليهود عن وضعهم له عليه السلام عن رتبتِه العَلِيّة إلى ما تقوَّلوا عليه مِن الكلمة الشنعاءِ. وقيل:

---

[١] م - تعالى.

[٢] س: بالقدرة. | السياق: هو المختصّ بالإحاطة التامّة... وبالقدرة الباهرة...

[٣] المِيتاء والمِيداء مَمْدودان: آخِرُ الغاية حيث ينتهي إليه جَرْيُ الخيل. والميتاء: الطريق العامر. ومجتمعُ الطريق أيضًا مِيتاء ومِيداء. يُقال: بَنَى القوم بيوتهم على مِيتاء واحد ومِيداء واحد. وداري بمِيتاء دار فلان ومِيداءِ دار فلان، أي: تِلقاءَ دارِه ومحاذِيةً لها. الصحاح للجوهري، «أتا».

هو خاصٌّ بالنصارى كما في سورة النساء؛[١] فذِكرُهم بعُنوان "أهليّة الكتاب" لتذكير أنّ الإنجيل أيضًا يَنهاهم عن الغُلُوّ.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ نصب على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: لا تَغلوا في دينكم غُلُوًّا غيرَ الحقّ، أي: غُلُوًّا باطلًا، أو حال مِن ضمير الفاعل، أي: لا تَغلوا مجاوِزين الحقَّ، أو مِن ﴿دِينِكُمْ﴾، أي: لا تَغلوا في دينكم حالَ كونه باطلًا. وقيل: نصب على الاستثناء المتّصِلِ، / وقيل: على المنقطِع. [١٥٨و]

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ هُم أسلافهم وأئمّتُهم الذين قد ضلّوا مِن الفريقين، أو مِن النصارى على القولين، قبل مَبعَث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في شريعتهم. ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ أي: قومًا كثيرًا ممّن شايَعَهم في الزَّيغ والضلالِ، أو: إضلالًا كثيرًا، والمفعولُ محذوف. ﴿وَضَلُّوا﴾ عند بِعثة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتوضيحِ مَحَجّة الحقّ وتبيينِ مناهج الإسلام. ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ حين كذّبوه وحسَدوه وبغَوْا عليه. وقيل: الأوّل إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل، والثاني إلى ضلالهم عمّا جاء به الشرع.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لَعَنهم الله عزّ وجلّ. وبناء الفعل للمفعول للجَرْي على سنن الكِبرياء. ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالًا مِن الموصول أو مِن فاعل ﴿كَفَرُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿لُعِنَ﴾، أي: لعنهم الله تعالى في الزَّبور والإنجيل على لسانهما. وقيل: إنّ أهل أَيْلَةَ لمّا اعتدَوْا في السبت دعَا عليهم داودُ عليه السلام وقال: «اللّٰهمّ الْعَنْهم واجعَلْهم آيةً»، فمسَخَهم الله تعالى قِرَدةً، وأصحابَ المائدة لمّا كفروا قال عيسى عليه السلام:[٢] «اللّٰهمّ عذِّبْ مَن كفر بعدما أكل مِن المائدة عذابًا لم تعذِّبْه أحدًا مِن العالَمين،

---

[١] النساء، ١٧١/٤.

[٢] م - عليه السلام.

والْعَنْهم كما لعنتَ أصحابَ السبت»»، فأصبحوا خنازيرَ، وكانوا خمسةَ آلافِ رَجلٍ، ما فيهم امرأةٌ ولا صَبِيٌّ.[١]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اللعن المذكور. وإيثاره على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازِه عن نظائره وانتظامِه بسببه في سلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بكمال فظاعته وبُعدِ دَرَجته في الشناعة والهَوْل. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

والجملة مستأنَفة واقعةٌ موقِعَ الجواب عمّا نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: بأيّ سببٍ وقع ذلك؟ فقيل: ذلك اللعن الهائل الفظيعُ بسبب عِصيانهم واعتدائِهم المستمرِّ، كما يُفيده الجمعُ بين صِيغتَي الماضي والمستقبَلِ / ويُنبِئ عنه قوله [١٥٨ظ] تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾؛ فإنّه استئناف مفيدٌ بعبارته لاستمرار عدم التناهي عن المنكَر، ولا يُمكن استمرارُه إلّا باستمرار تَعاطي المنكَرات.

وليس المرادُ بـ"التناهي" أن ينهى كلُّ واحد منهم الآخَرَ عمّا يفعله مِن المنكَر، كما هو المعنى المشهورُ لصيغة التفاعُل؛ بل مجرَّدُ صدور النهي عن أشخاص متعدِّدة، مِن غير اعتبارِ أن يكون كلّ واحد منهم ناهيًا ومَنهيًّا معًا، كما في: "تَرَاءَوا الهلالَ".

وقيل: "التناهي" بمعنى الانتهاء، يُقال: "تناهَى عن الأمر وانتهى عنه" إذا امتنع منه وترَكه؛ فالجملة حينئذ مفسِّرةٌ لِما قبلها مِن المَعصية والاعتداء، ومفيدةٌ لاستمرارهما صريحًا، وعلى الأوّل مفيدةٌ لاستمرار انتفاء النهي عن المنكَر بأنْ لا يوجدَ فيما بينهم مَن يتَوَلّاه في وقتٍ مِن الأوقات، ومِن ضرورته استمرارُ فعل المنكَر حسبما سبق.

وعلى كلّ تقدير، فما يفيده تنكيرُ "المنكَر" مِن الوحدة نوعيّةٌ، لا شخصيّةٌ؛ فلا يقدَح وصفُه بالفعل الماضي في تعلّق النهي به، لِما أنّ متعلَّق الفعل إنّما هو فردٌ مِن أفراد ما يتعلّق به النهي، والانتهاء مِن مطلَق المنكَر باعتبار تحقّقه

---

[١] هو باختلاف يسير في الكشّاف للزمخشري، ٦٦٦/١؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٨/٧. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٩٦/٤؛ وتفسير الرازي، ٤١١/١٢.

في ضِمن أيّ فرد كان مِن أفراده، على أنّ المُضِيَّ المعتبَر في الصفة إنّما هو بالنسبة إلى زمان النزول،[١] لا إلى زمان النهي حتّى يلزَمَ كون النهي بعد الفعل؛ فلا حاجةَ إلى تقدير المعاوَدة أو المِثل، أو جعلِ الفعل عبارةً عن الإرادة على أنّ المعاودة كالنهي لا تتعلّق بالمنكَر المفعول؛ فلا بُدّ مِن المَصير إلى أحدِ ما ذُكر مِن الوجهين، أو إلى تقدير المِثل، أو إلى جعل الفعل عبارةً عن إرادته؛ وفي كلّ ذلك تعسّفٌ لا يخفى.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ تقبيح لسُوء أعمالهم وتعجيبٌ منه بالتوكيد القَسَميّ. كيف لا، وقد أدّاهم إلى ما شُرح مِن اللعن الكبير. وليس في تسبيبه بذلك[٢] دلالةٌ على خروج كُفرهم عن السببيّة -مع الإشارة إلى سببيّته له فيما سبق مِن قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المائدة، ٧٨/٥]-؛ فإنّ إجراء الحُكم على الموصول مُشعِرٌ بعِلّيّة ما في حَيّز الصلة له، لِما أنّ ما ذُكر في حَيّز السببيّة مشتمِلٌ على كفرهم أيضًا.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ۝٨٠﴾

[١٥٩و] / ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: مِن أهل الكتاب، ككَعب بنِ الأشرف وأضرابِه، حيث خرجوا إلى مشركِي مكّةَ ليتّفِقوا على محاربة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. والرؤية بصريّة. وقوله تعالى: ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حال مِن ﴿كَثِيرًا﴾ لكونه موصوفًا، أي: يُوَالُون المشركين بُغضًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين. وقيل: مِن منافِقِي أهل الكتاب[٣] يتوَلَّوْن اليهودَ، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما[٤] ومجاهد والحسن.[٥] وقيل: يُوالُون المشركين ويُصافُونهم.

---

١ وفي هامش م: كما في قوله تعلى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء، ٦/٢١]؛ فإنّ وصف "القرية" بـ﴿أَهْلَكْنَـٰهَآ﴾ إنّما هو بالنسبة إلى حال النزول، لا إلى حال عدم الإيمان؛ فإنّه مقدّم على الإهلاك حتمًا. «منه».

٢ أي: تسبيب اللعن بسُوء أعمالهم.

٣ السياق: أي: مِن أهل الكتاب... وقيل: مِن منافِقِي أهل الكتاب...

٤ م - رضي الله عنهما.

٥ هو بدون تصريح بأنّهم مِن أهل الكتاب في التفسير الوسيط للواحدي، ٢١٦/٢؛ اللباب لابن عادل، ٤٧٠/٧.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ لبئسَ شيئًا قدّموا ليَرِدوا عليه يوم القيامة ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو المخصوص بالذّمّ على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه، تنبيهًا على كمال التعلّق والارتباطِ بينهما كأنّهما شيء واحد، ومبالغةً في الذمّ، أي: موجِبُ سخطِه تعالى. ومَحلّه الرفعُ على الابتداء، والجملة قبله خبرُه، والرابط عند مَن يشترطه هو العموم، أو لا حاجةَ إليه؛ لأنّ الجملة عينُ المبتدأ، أو على أنّه خبر لمبتدأ محذوف يُنبِئ عنه الجملة المتقدِّمةُ، كأنّه قيل: ما هو؟ أو: أيُّ شيء هو؟ فقيل: هو أنْ سخِط اللهُ عليهم.

وقيل: المخصوص بالذمّ محذوفٌ، و﴿مَا﴾ اسم تامٌّ معرِفةٌ في محلّ رفعٍ بالفاعليّة لفعل الذمّ، و﴿قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ جملة في محلّ الرفع على أنّها صفةٌ للمخصوص بالذمّ قائمةٌ مَقامَه، والتقدير: لبئسَ الشيء شيءٌ قدّمتْه لهم أنفسُهم، فقوله تعالى: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بدلٌ مِن "شيء" المحذوفِ، وهذا مذهبُ سيبويه.[١]

﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذابِ جهنّم ﴿هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أبَدَ الآبِدين.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي: الذين يتولَّوْن المشركين مِن أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ أي: نبيِّهم ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ مِن الكتاب، أو: لو كان المنافقون يؤمنون بالله ونبيِّنا إيمانًا صحيحًا، ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾ أي: المشركين واليهودَ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ / فإنّ الإيمان بما ذُكر وازعٌ عن تولِّيهم قطعًا، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن الدين والإيمانِ بالله ونبيِّهم وكتابِهم، أو متمرِّدون في النِّفاق مُفرِطون فيه. [١٥٩ظ]

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

---

[١] اللباب لابن عادل، ٧/٤٧١.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقةٌ لتقرير ما قبلها مِن قبائح اليهود وعَراقتِهم في الكفر وسائرِ أحوالهم الشنيعةِ التي مِن جملتها مُوالاتُهم للمشركين. أُكِّدت بالتوكيد القَسَميّ اعتناءً ببيان تحقّقِ مضمونها. والخطاب إمّا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحدٍ صالحٍ له إيذانًا بأنّ حالهم ممّا لا يخفى على أحد مِن الناس.

و"الوُجدان" متعَدٍّ إلى اثنين، أحدُهما: ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ﴾، والثاني: ﴿ٱلْيَهُودَ﴾ وما عُطف عليه. وقيل: بالعكس؛ لأنّهما في الأصل مبتدأ وخبر، ومَصبُّ الفائدة هو الخبرُ، لا المبتدأ. ولا ضيرَ في التقديم والتأخيرِ إذا دلَّ على الترتيب دليلٌ، وههنا دليل واضح عليه، وهو أنّ المقصود بيانُ كون الطائفتين أشدَّ الناس عَداوةً للمؤمنين، لا كونُ أشدِّهم عداوةً لهم الطائفتين المذكورتين. وأنت خبير بأنّه بمَعزِل مِن الدلالة على ذلك؛ كيف لا، والإفادةُ في الصورة الثانية أتمُّ وأكمَلُ مع خُلُوّها عن تعسُّف التقديم والتأخير؛ إذ المعنى: إنّك إن قصدتَ أن تعرِف مَن أشدُّ الناس عداوةً للمؤمنين، وتَتَبّعتَ أحوالَ الطوائف طُرًّا، وأحطْتَ بما لَديهم خُبْرًا، وبالغْتَ في تعرُّف أحوالهم الظاهرة والباطنةِ، وسعيْتَ في تطلُّب ما عندهم مِن الأمور البارزة والكامنةِ، لَتَجِدَنَّ[1] الأشدَّ تَيْنِك الطائفتين لا غير، فتأمَّلْ.

و"اللام" الداخلةُ على الموصول متعلِّقةٌ بـ﴿عَدَٰوَةً﴾ مقوِّيةٌ لعملِها. ولا يضُرُّ كونُها مؤنَّثةً بالتاء؛ لأنّها مبنيّةٌ عليها، كما في قوله: "ورَهْبةٌ عقابَك".[2] وقيل: متعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو صفة لـ﴿عَدَٰوَةً﴾، أي: كائنةً للذين آمنوا.

وصفهم الله تعالى بذلك لشدّة شَكيمتهم، وتضاعُفِ كفرهم، وانهماكِهم في اتّباع الهَوى، وقُربِهم إلى التقليد، وبُعدِهم عن التحقيق، / وتمرُّنِهم على التمرّد والاستعصاءِ على الأنبياء والاجتراءِ على تكذيبهم ومُناصَبتِهم. [١٦٠و]

---

١ هو جواب الشرط.

٢ هو قطعةُ بيتٍ، تمامه:

فلولا رَجاءُ النصر منك ورَهْبةٌ ... عِقابَك قد صاروا لنا كالمَوارِدِ

ذكره سيبويه في الكتاب، ١/١٨٩؛ وابن عطيّة في المحرّر الوجيز، ٣/٤٠٩ (النحل، ١٦/٧٣)؛ وابن يعيش في شرح المفصّل، ٤/٧٦؛ وأبو حيّان في التذييل والتكميل، ١١/٧١، كلّها بلا نسبة.

وفي تقديم ﴿ٱلْيَهُودَ﴾ على "المشركين" بعد لَزِّهما في قرنٍ واحدٍ[١] إشعارٌ بتقدّمِهم عليهم في العَداوة، كما أنّ في تقديمهم عليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة، ٩٦/٢] إيذانًا بتقدّمِهم عليهم في الحِرص.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أُعيدَ الموصول مع صلته رَوْمًا لزيادة التوضيح والبيانِ. ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ عُبّر عنهم بذلك إشعارًا بقُرب مَودّتِهم، حيث يدّعُون أنّهم أنصار الله وأَوِدّاءُ أهلِ الحقّ وإن لم يُظهروا اعتقادَ حقّيّة الإسلام. وعلى هذه النكتة مَبْنَى الوجه الثاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ [المائدة، ١٤/٥].

والكلام في مفعولَيْ ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ وتعلُّقِ "اللام" كالذي سبق. والعُدول عن جعلِ ما فيه التفاوتُ بين الفريقين شيئًا واحدًا قد تفاوَتَا فيه بالشدّة والضعفِ أو بالقُرب والبُعدِ بأنْ يُقال آخِرًا: "ولَتَجدَنَّ أضعَفَهم عداوةً"... إلخ، أو بأنْ يُقال أوّلًا: "لَتَجدَنَّ أبعَدَ الناسِ مَوَدّةً"... إلخ، للإيذان[٢] بكمال تبايُنِ ما بين الفريقين مِن التفاوتِ، ببيان أنّ أحدهما في أقصى مراتبِ أحدِ النقيضين، والآخَرَ في أقرب مراتبِ النقيضِ الآخَرِ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: كونُهم أقربَ مَودّةً للمؤمنين ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: بسبب أنّ منهم ﴿قِسِّيسِينَ﴾ وهُم علماءُ النصارى وعُبّادُهم ورؤساؤُهم. و"القِسِّيسُ" صيغةُ مبالغةٍ مِن "تَقَسَّسَ الشيءَ" إذا تَتَبّعَه وطلَبَه بالليل، سُمُّوا به لمبالغتِهم في تتبّع العِلم، قاله الراغب.[٣] وقيل: "القَسُّ" -بفتح القاف- تتبُّعُ الشيء، ومنه سُمّيَ عالِمُ النصارى لتتبُّعِه العلمَ.[٤] وقيل: "قصَّ الأثرَ" و"قَسَّه" بمعنى. وقيل:

---

[١] لَزَّ الشيءَ بالشيء يلُزّه لزًّا وألزّه: ألزمه إيّاه. ولَزّه يلُزّه لزًّا ولَزازًا، أي: شَدّه وألصَقَه. وكلّ شيء دُونِيَ بين أجزائه أو قُرِن، فقد لُزّ. لسان العرب لابن منظور، «لزز».

[٢] السياق: والعُدول عن جعلِ... للإيذان...

[٣] قول الراغب في مطبوع المفردات، ص ٦٧٠ «قسس»، كذا: «القَسّ والقِسّيس: العالِم العابد مِن رءوس النصارى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ [المائدة، ٨٢/٥]. وأصل القَسّ: تتبّع الشيء وطلبُه بالليل، يُقال: تقسّستُ أصواتَهم بالليل، أي: تتبعْتُها. والقَسقاس والقَسقَس: الدليل بالليل».

[٤] اللباب لابن عادل، ٤٧٦/٧.

إنّه أعجَمِيّ.[١] وقال قُطرُبُ:[٢] «القسّ والقِسّيس: العالِم بلغة الروم».[٣] وقيل: ضيّعت النصارى الإنجيلَ / وما فيه، وبقِيَ منهم رجلٌ يُقال له: "قِسّيسًا" لم يبدِّل دينَه، فمَن راعى هَدْيَه ودينَه قيل له: "قِسّيس".[٤] [١٦٠ظ]

﴿وَرُهْبَانًا﴾ هو جمعُ "راهب"، كـ"راكب" و"رُكبان"، و"فارس" و"فُرسان". وقيل: إنّه يُطلَق على الواحد وعلى الجمع. وأُنشِدَ فيه قولُ مَن قال:

لو عايَنَتْ رُهبانُ دَيْرٍ في قُلَلْ لَأقبَلَ الرُّهبانُ يَعدُو ونَزَلْ[٥]

والترهّب: التعبّد في الصَّوْمَعَة.[٦] قال الراغب: «الرَّهبانيّة: الغُلُوُّ في تحمُّل التعبّد مِن فرط الخوف».[٧] والتنكير لإفادة الكثرة، ولا بُدَّ مِن اعتبارها[٨] في "القِسّيسِين" أيضًا؛ إذ هي التي تدُلّ على مَوَدّة جنس النصارى للمؤمنين، فإنّ اتّصاف أفرادٍ كثيرةٍ لجنسٍ بخَصلةٍ مَظِنّةٌ لِاتّصاف الجنس بها؛ وإلّا فمِن اليهود أيضًا قومٌ مهتَدُون؛ ألَا يُرى إلى عبد الله بنِ سلَام وأضرابِه، قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾... إلى آخره [آل عمران، ٣/١١٣]، لكنّهم لمّا لم يكونوا في الكثرة كالذين مِن النصارى لم يتعَدَّ حكمُهم إلى جنس اليهود.

---

١ هو ابن عطيّة الأندلسي كما ذكره ابن عادل في اللباب، ٧/٤٧٦.

٢ هو محمّد بن المستنير بن أحمد، أبو عليّ، المعروف بقُطْرب (ت. نحو ٢١٠هـ/٨٢٥م). نحويّ، عالم بالأدب واللغة. مِن أهل بصرة. أخذ النحو عن سيبويه وعن جماعة مِن علماء البصرة. وكان يذهب إلى مذهب المعتزلة. و"قُطْرب" لقبٌ دعاه به أستاذه سيبويه؛ إذ كان سيبويه يخرج فيراه بالأسحار على بابه، فيقول: «إنّما أنت قُطْرب ليلٍ»، والقُطْرب دُوَيبة تدبّ ولا تفتر. مِن كتبه: معاني القرآن، وغريب الحديث، والنوادر، والأزمنة، والأضداد، وخلق الإنسان، والمثلّثات. انظر: معجم الأدباء للحَمَوي، ٦/٢٦٤٦-٢٦٤٧؛ ونزهة الألبّاء للأنباري، ص ٧٦-٧٧.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٩٩؛ التفسير البسيط للواحدي، ٧/٤٩٥؛ اللباب لابن عادل، ٧/٤٧٧.

٤ التفسير البسيط للواحدي، ٧/٤٩٤.

٥ لم نهتدِ إلى قائله. ذكره بهذه الألفاظ الواحدي في التفسير البسيط، ٧/٤٩٥؛ وابن عادل في اللباب، ٧/٤٧٨. وذكره الطبري في جامع البيان، ٨/٥٩٨-٥٩٩؛ والأزهري في تهذيب اللغة، ٦/١٥٥ «أبواب الهاء والراء»، وفي مطبوعَيهما: "القُلَل" مع لام التعريف، و"لَانحدَرَ الرُّهبان يمشي" بدلَ "لَأقبَلَ الرُّهبانُ يَعدُو".

٦ الصَّوْمَعَة، كـ"جَوْهَرَة": بيتٌ للنصارى. تاج العروس للزبيدي، «صمع».

٧ المفردات للراغب، ص ٣٦٧ «رهب». وفي كلا مطبوعَيْه: "الرهبة" بدلَ "الخوف".

٨ أي: اعتبار إفادة الكثرة.

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّ مِنْهُمْ﴾، أي: وبأنّهم لا يستكبرون عن قول الحقّ إذا فهموه، أو: يتواضَعون ولا يتكبّرون كاليهود. وهذه الخَصلة شاملةٌ لجميع أفراد الجنس، فسببيّتُها لأقرَبيّتِهم مَوَدّةً للمؤمنين واضحةٌ. وفيه دليل على أنّ التواضع والإقبالَ على العِلم والعملِ والإعراضَ عن الشَّهَوات محمودٌ، وإن كان ذلك مِن كافر.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: ذلك بسبب أنّهم لا يستكبرون، وأنّ أعيُنَهم تَفيضُ مِن الدَّمع عند سَماع القرآن. وهو بيان لرِقّة قلوبهم وشدّةِ خشيَتِهم ومسارَعتِهم إلى / قبول الحقّ وعدمِ إبائهم إيّاه. [١٦١و]

﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي: تمتلِئُ بالدَّمع، فاستُعِير له الفيضُ الذي هو الانصبابُ عن امتلاءٍ مبالغةً، أو جُعلت أعيُنُهم مِن فرط البُكاء كأنّها تَفيضُ بأنفسِها. ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأُولى لابتداء الغاية، والثانيةُ لتبيين الموصول، أي: ابتدأ الفيضُ ونشأ مِن معرفة الحقّ وحصل مِن أجله وبسببه. ويحتمل أن يكون الثانيةُ تبعيضيّةً؛ لأنّ ما عرَفوه بعضُ الحقّ، وحيث أبكاهم ذلك، فما ظنُّك بهم لو عرفوا كلَّه وقرءُوا القرآنَ وأحاطوا بالسنّة؟ وقُرئ: "تُرَى أَعْيُنُهُمْ"[١] على صيغة المبنيّ للمفعول.

﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن حكاية حالهم عند سَماع القرآن، كأنّه قيل: ماذا يقولون؟ فقيل: يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ بهذا، أو بمَنْ أُنزلَ هذا عليه، أو بهما. وقيل: حال مِن الضمير في ﴿عَرَفُوا﴾، أو مِن الضمير[٢] المجرور في ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾ لِما أنّ المضاف جُزؤه، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا﴾ [الحجر، ١٥/٤٧].

---

[١] هي قراءة شاذّة، رواها الزّعفراني عن ابن مُحيصِن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٩.

[٢] س - في ﴿عَرَفُوا﴾، أو مِن الضمير.

﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: الذين شهِدوا بأنّه حقٌّ أو بنبوّتِه، أو: مع أمّتِه الذين هم شهداءُ على الأمَمِ يومَ القيامة. وإنّما قالوا ذلك لأنّهم وجدوا ذِكرَهم في **الإنجيل** كذلك.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤﴾

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ كلام مستأنَف، قالوه تحقيقًا لإيمانهم وتقريرًا له بإنكار سبب انتفائه ونفيِه[1] بالكلّيّة، على أنّ قوله: ﴿لَا نُؤۡمِنُ﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَنَا﴾، والعاملُ ما فيه مِن الاستقرار، أي: أيّ شيءٍ حصل لنا غيرَ مؤمنين؟ على توجيه الإنكار / والنفيِ إلى السبب والمسبَّب جميعًا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس، ٢٢/٣٦] ونظائرِه، لا إلى السبب فقط مع تحقُّق المسبَّب كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الانشقاق، ٢٠/٨٤] وأمثالِه؛ فإنّ همزة الاستفهام كما تكون تارةً لإنكار الواقع كما في "أتضرِبُ أباك؟"، وأخرى لإنكار الوقوع كما في "أأضرِب أبي؟"، كذلك "ما" الاستفهاميّةُ؛ قد تكون لإنكار سبب الواقع ونفيِه فقط كما في الآية الثانية[2] وقولِه تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح، ١٣/٧١]، فيكون مضمونُ الجملة الحاليّةِ محقَّقًا، فإنّ كلًّا مِن عدم الإيمان وعدمِ الرَّجاء أمرٌ محقَّقٌ قد أُنكِرَ ونُفِيَ سببُه، وقد تكون لإنكار سبب الوقوع ونفيِه، فيَسرِيان إلى المسبَّب أيضًا كما في الآية الأولى،[3] فيكون مضمونُ الجملة الحاليّةِ مفروضًا قطعًا، فإنّ عدم العبادة أمرٌ مفروضٌ حتمًا.

[١٦١ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال أخرى مِن الضمير المذكور بتقدير مبتدأ، والعاملُ فيها هو العامل في الأُولى مقيَّدًا بها، أي: أيّ شيء حصل لنا غيرَ مؤمنين ونحن نطمَع في صُحبة الصالحين؟، أو مِن الضمير في ﴿لَا نُؤۡمِنُ﴾ على معنى أنّهم أنكروا على أنفُسِهم عدمَ إيمانهم

---

١ أي: بإنكار سبب انتفائه وبنفيِ سبب انتفائه بالكلّيّة.

٢ وفي هامش م: هي قوله: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الانشقاق، ٢٠/٨٤]. «منه».

٣ وفي هامش م: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ [يس، ٢٢/٣٦].

مع أنّهم يطمَعون في صُحبة المؤمنين. وقيل: معطوف على ﴿نُؤْمِنُ﴾[١] على معنى: وما لنا نجمع بين ترك الإيمان وبين الطَّمَع المذكور؟[٢]

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥﴾

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ﴾ أي: عن اعتقادٍ، مِن قولك: "هذا قول فلانٍ"، أي: معتقَدُه. وقُرئ: "فآتاهُم الله".[٣] ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: الذين أحسنوا النظرَ والعملَ، أو: الذين اعتادُوا الإحسانَ في الأمور.

والآياتُ الأربعُ، رُوي أنّها نزلت في النَّجاشي وأصحابِه، بعَثَ إليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بكتابه، فقرأه، ثمّ دعَا جعفرَ بنَ أبي طالب[٤] والمهاجرين معه، وأحضر[٥] القِسِّيسِين والرُّهبانَ، / فأمر جعفرًا أن يقرأ عليهم القرآنَ، فقرأ سورة مريمَ، فبكَوْا وآمنوا بالقرآن.[٦] وقيل: نزلت في ثلاثين -أو سبعين- رجلًا [١٦٢و]

---

١ وفي هامش م: ويجوز العطف على ﴿نُؤْمِنُ﴾ على معنى: وما لنا لا نجمَع بينهما وهما مِن أجَلِّ الرغائب. «منه».

٢ وفي هامش م: وهما متبايِنان. «منه».

٣ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٦٧٠/١، ونسبها إلى الحسن.

٤ هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطّلب الهاشمي، أبو عبد الله (ت. ٨هـ/٦٢٩م). ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأخو عليّ بن أبي طالب لأبويه. أسلم بعد إسلام أخيه عليّ بقليل. وكان أشبهَ الناس برسول الله صلّى الله عليه وسلّم خَلقًا وخُلقًا. ولمّا هاجر إلى الحبشة أقام بها عند النجاشي إلى أن قدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين فتح خيبر. وحضر وقعة مُؤتة بالبلقاء، فنزل عن فرسه وقاتل، ثمّ حمل الراية وتقدّم صفوف المسلمين، فقطعت يُمناه، فحمل الراية باليُسرى، فقطعت أيضًا، فاحتضن الراية إلى صدره، وصبر، حتّى وقع شهيدًا وفي جسمه نحو تسعين طعنةً ورميةً، فقيل: إنّ الله عوّضه عن يديه جَناحَين في الجنّة؛ وبذلك يُعرف بـ"جعفر الطيّار" و"ذي الجَناحَين"، رضي الله عنه. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٣٤/٤-٤١؛ و**أسد الغابة** لابن الأثير، ٥٤١/١-٥٤٤.

٥ ط س: وأحضروا. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، أزال المؤلّف "وا" مِن آخر الكلمة، فلعلّه بعد نَسْخِ ط س.

٦ هو مفصّلًا في **الكشّاف** للزمخشري، ٦٦٩/١ (المائدة، ٨٣/٥)؛ و**جامع البيان** للطبري، ٥٩٤/٨-٥٩٧ (المائدة، ٨٢/٥). وقال الزيلعي في **تخريج أحاديث الكشّاف**، ٤١٥/١-٤١٦ (٤٢٩): «قلتُ: غريب». وقال ابن حجر في **الكافي الشاف**، ص ٥٧ (٤٧٢)، معلِّقًا على الرواية المذكورة في **الكشّاف**: «لم أجده. قلتُ: أظنُّ صاحب **الكشّاف** ذكره بالمعنى مِن قصّة جعفر بن أبي طالب مع >

مِن قومه، وَفَدُوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقرأ عليهم سورةَ مريم، فبكَوْا وآمنوا.[١]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٨٦﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ عُطِف "التكذيب بآيات الله تعالى" على "الكفر" -مع أنّه ضربٌ منه- لِما أنّ القصد إلى بيان حال المكذِّبين وذكرِهم بمقابلة المصدِّقين بها جمعًا بين الترغيب والترهيب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٨٧﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي: ما طاب ولذَّ منه. كأنّه لمّا تضمَّن ما سلف مِن مدح النصارى على الترهّب ترغيبَ المؤمنين في كسر النفس ورفضِ الشَّهَوات، عُقّب ذلك بالنهي عن الإفراط في الباب، أي: لا تمنعوها أنفُسَكم كمنع التحريم، أو: لا تقولوا "حرّمناها على أنفُسِنا"، مبالغةً منكم في العَزْم على تركها تزهُّدًا منكم وتقشُّفًا.

ورُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصف القيامةَ لأصحابه يومًا، فبالغ وأشبَعَ الكلامَ في الإنذار، فرَقُّوا واجتمعوا في بيت عثمانَ بنِ مظعونٍ،[٢]

← عمرو بن العاص، لمّا أرسلته قريش بهديّتها إلى النجاشي ليدفع إليهم جعفرًا ورُفقاءَه. فإنّ معنى ما ذُكر موجودًا فيها إلّا قراءة طه. أخرجه ابن إسحاق في المغازيّ مِن طريق ابن حِبّان مِن حديث أمّ سَلَمةَ». انظر: **السِّير والمغازيّ** لابن إسحاق، ٢١٣-٢٢٢.

١ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٤٠/٢. وانظر للأقوال في عدد الوافدين: **جامع البيان** للطبري، ٥٩٩/٨-٦٠٠ (المائدة، ٨٢/٥)؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٠٦-٢٠٧.

٢ هو عثمان بن مَظْعون بن حَبيب القُرَشي الجُمَحي، أبو السائب (ت. ٢هـ/٦٢٣-٦٢٤م). مِن السابقين إلى الإسلام. هاجر إلى أرض الحبشة مرّتين. وأراد التبتّل والسياحة في الأرض زهدًا بالحياة، فمنعه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فاتّخذ بيتًا يتعبّد فيه. وهو أوّل مَن مات بالمدينة مِن المهاجرين، وأوّل مَن دُفن بالبقيع منهم؛ فلمّا غُسل وكُفن، قبّل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين عينيه، فلمّا دُفن قال: «نِعم السلف هو لنا عثمان بن مظعون». انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٣٩٣/٣-٤٠٠؛ و**الاستيعاب** للنّمري، ١٠٥٣/٣-١٠٥٦؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٥٣/١-١٦٠.

واتّفَقوا على ألّا يَزالوا صائمين قائمين، وألّا يَناموا على الفُرُش، ولا يأكلوا اللحم والوَدَكَ،[١] ولا يقرَبوا النساءَ والطيّبَ، ويرفُضوا الدنيا ويلبَسوا المُسوحَ[٢] ويَسيحوا في الأرض، ويجُبّوا مذاكيرَهم،[٣] فبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال لهم: «إنّي لم أومَرْ بذلك، إنّ لأنفُسِكم عليكم حقًّا، فصُومُوا وأَفطِرُوا وقُومُوا وناموا؛ فإنّي أقوم وأنام وأصوم وأُفطر وآكُلُ اللحم والدَّسَمَ وآتي النساءَ؛ / فمَن رغِب عن سنّتِي فليس منّي»، ونزلت.[٤] [١٦٢ظ]

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: ولا تعتَدُوا حدودَ ما أُحلّ لكم إلى ما حُرّم عليكم، أو: ولا تُسرِفوا في تناوُل الطيّبات. أو جُعل تحريمُ الطيّبات اعتداءً وظلمًا، فنُهِيَ عن مطلَق الاعتداء ليدخُل تحته النهيُ عن تحريمها دخولًا أوّليًا لوروده عَقيبَه. أو أُريدَ: ولا تعتَدُوا بذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ تعليل لِما قبله.

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ أي: ما حلَّ لكم وطاب ممّا رزقكم الله. فـ﴿حَلَـٰلًا﴾ مفعولُ ﴿كُلُوا﴾، و﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ إمّا حال منه تقدّمتْ عليه

---

١ الوَدَك: دَسَم اللحم. ودَجاجة وَدِيكة، أي: سمينة. **الصحاح** للجوهري، «ودك».

٢ جمع "المِسْح"، وهو لباس الرُّهبان. **المُغرِب** للمطرّزي، ص ٤٢٨ «الميم مع السين المهملة».

٣ المَذاكير: سُرّة الرّجل، لا يُفرد، وإنْ أُفرِدَ فمذكُر، مثل "مقدَّم" و"مَقاديم". **كتاب العين** للخليل بن أحمد، ٣٤٦/٥ «باب الكاف والذال والراء معهما».

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٧١/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٤١/٢. وقال ابن حجر في **الكافي الشاف**، ص ٥٨ (٤٧٤): «وهو منتزع مِن أحاديثَ. وأصله في **الصحيحَين** عن عائشة: أنّ ناسًا مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سألوا أزواجه عن عمله في السرّ، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوّج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فِراش، فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: "ما بالُ أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؛ ولكنّي أصُوم وأُفطِر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم، وأتزوّج النساء؛ فمَن رغِب عن سنّتِي فليس منّي". وفي **الصحيحَين** عن سعد بن أبي وقّاص، قال: "ردّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على عثمان بن مظعون التبتُّلَ، ولو أذِن له لَاختصينا". وفي **الصحيحَين** عن عبد الله بن عمرو بن العاص في قصّة مراجعته النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الصوم والصلاة، فقال صلّى الله عليه وسلّم: "صُمْ وأَفطِرْ، وقُمْ ونَمْ؛ فإنّ لِنفسك عليك حقًّا"، الحديث». انظر: **صحيح البخاري**، ٢/٧ (٥٠٦٣)؛ ٤/٧ (٥٠٧٣، ٥٠٧٤)؛ ٥٤/٢ (١١٥٣)؛ و**صحيح مسلم**، ١٠٢٠/٢ (١٤٠١، ١٤٠٢)؛ ٨١٢/٢ (١١٥٩). وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في **جامع البيان** للطبري، ٦١٢/٨؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٠٧.

لكونه نكِرةً، أو متعلِّق بـ﴿كُلُوا﴾ و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة، أو هو المفعول و﴿حَلَٰلًا﴾ حال مِن الموصول، أو مِن عائده المحذوفِ، أو صفةٌ لمصدر محذوف، أي: أكلًا حلالًا. وعلى الوجوه كلِّها، لو لم يقع الرزقُ على الحرام لم يكن لذِكر الحلال فائدةٌ زائدةٌ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ توكيد للوصيّة بما أَمَر به؛ فإنّ الإيمان به تعالى يوجِب المبالغةَ في التقوى والانتهاءَ عمّا نَهَى عنه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللَّغْوُ في اليمين: الساقطُ الذي لا يتعلّق به حُكم. وهو عندنا: أن يحلِف على شيءٍ يظُنّ أنّه كذلك وليس كما يظُنّ، وهو قول مجاهد.[١] قيل: كانوا حلَفوا على تحريم الطيّبات على ظنّ أنّه قُربة، فلمّا نزل النهي قالوا: «فكيف بأيماننا؟»، فنزلت.[٢] وعند الشافعي رحمه الله: ما يبدو مِن المَرء مِن غير قصدٍ كقوله: "لا واللهِ" و"بلى واللهِ"،[٣] وهو قول عائشةَ رضي الله عنها.[٤] و﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ صلةُ ﴿يُؤَاخِذُكُمْ﴾، أو ﴿اللَّغْوِ﴾؛ لأنّه مصدر أو حال منه.

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ / أي: بتعقيدِكم الأيمانَ وتوثيقِها[٥] [١٦٣و] بالقصد والنيّة. والمعنى: ولكنْ يؤاخذكم بما عقّدْتُموها إذا حنِثْتم، أو بنَكثِ

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١/٤ (البقرة، ٢٢٥/٢)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٨٦/١٠ (١٩٩٤٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٧٢/١.

٢ جامع البيان للطبري، ٦١٦/٨؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥٠٠/٧.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٦٧٢/١؛ اللباب لابن عادل، ٩١/٤ (البقرة، ٢٢٥/٢).

٤ صحيح البخاري، ٥٢/٦ (٤٦١٣)؛ موطّأ مالك، ٦٧٩/٣ (١٧٢٩)؛ جامع البيان للطبري، ١٤/٤-١٩ (البقرة، ٢٢٥/٢).

٥ ط س + عليه. | كَشَط المؤلّف ما أُضِيف في نسختي ط س، ولعلّه بعد نَسْخِهما.

ما عقّدْتُم، فحُذِف للعِلم به. وقُرِئ بالتخفيف.[١] وقُرِئ: "عَاقَدْتُمْ"[٢] بمعنى: عقَدتُم.

﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ أي: فكفّارةُ نكثِه. وهي الفَعْلة التي مِن شأنها أن تكفِّر الخطيئةَ وتسترُها. واستُدِلّ بظاهره على جواز التكفير قبل الحِنْث. وعندنا لا يجوز ذلك لقوله عليه السلام: «مَن حلَف على يمينٍ ورأى غيرَها خيرًا، فليأتِ الذي هو خيرٌ، ثمّ ليُكفِّرْ عن يمينه».[٣]

﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: مِن أقصَدِه في النوع أو المقدارِ، وهو نِصفُ صاعٍ مِن بُرّ[٤] لكلِّ مِسكين. ومحلُّه[٥] النصبُ؛ لأنّه صفةُ مفعولٍ محذوفٍ، تقديره: أن تُطعِموا عشرةَ مساكينَ طعامًا كائنًا مِن أوسَطِ ما تُطعمون، أو الرفعُ على أنّه بدلٌ مِن ﴿إِطْعَامُ﴾.

و"أهْلُونَ" جمعُ "أهلٍ"، كـ"أَرَضُونَ" جمعُ "أرضٍ". وقُرِئ: "أَهَالِيكُمْ"[٦] بسكون الياء على لغة مَن يُسكِّنها في الحالات الثلاث كالألِف، وهو أيضًا جمع "أهلٍ"، كـ"الأراضِي" في جمع "أرضٍ"، و"اللَّيالِي" في جمع "ليلٍ". وقيل: جمعُ "أهلاةٍ".[٧]

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿إِطْعَامُ﴾، أو على محلّ ﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾ على تقدير كونه بدلًا مِن ﴿إِطْعَامُ﴾. وهو ثوبٌ يُغطِّي العَورةَ. وقيل: ثوبٌ جامعٌ، قميصٌ ورِداءٌ وإزارٌ.[٨] وقُرِئ بضمّ الكاف،[٩] وهي لغة، كـ"قُدْوَة" في "قِدْوَة"، و"أُسْوَة"

---

[١] أي: "بِمَا عَقَدْتُمْ"، وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٥.

[٢] قرأ بها ابن عامر في رواية ابن ذَكوان. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٥.

[٣] صحيح مسلم، ٣/١٢٧٢ (١٢٥٠)؛ مسند أحمد، ٣٢/١٢٢ (١٩٣٨٠)؛ سنن النسائي، ٧/١٠ (٣٧٨٥). وفي صحيح البخاري، ٨/١٢٧-١٢٨ (٦٦٢٢)، عن عبد الرحمن بن سَمُرة، قال: قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «...وإذا حلفتَ على يمين فرأيتَ غيرَها خيرًا منها، فكَفِّرْ عن يمينك وأتِ الذي هو خير».

[٤] البُرّ: جمعُ "بُرّة" مِن القَمح. الصحاح للجوهري، «برر».

[٥] أي: محلُّ ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر بن محمّد. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢١٧.

[٧] ط س: أهلاء.

[٨] أي: وقيل: قميصٌ ورِداء وإزار. القول الأوّل لمجاهد، والثاني لابن عمر. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٦٧٣.

[٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٠.

في "إِسْوَة". وقُرئ: "أَوْ كَإِسْوَتِهِمْ"[١] على أنّ الكاف في محلّ الرفع، تقديره: أو طعامُهم كإِسْوَتِهم، بمعنى: أو كمثل ما تُطعمون أهلِيكم إسرافًا وتقتيرًا تُواسُون بينهم إن لم تُطعموهم الأوسَطَ.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: أو إعتاقُ إنسان كيفما كان. وشرَطَ الشافعيُّ رحمه الله فيه الإيمانَ، قياسًا على كفّارة القتل. ومعنى ﴿أَوْ﴾ إيجابُ إحدى الخِصال / مطلَقًا وخِيارُ التعيين للمكلَّف. [١٦٣ظ]

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: شيئًا مِن الأمور المذكورة، ﴿فَصِيَامُ﴾ أي: فكفّارتُه صِيامُ ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾. والتتابُعُ شرطٌ عندنا لقراءة: "ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ".[٢] والشافعيُّ لا يرى الشَّوَاذَّ حُجّةً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذُكر ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي: وحنِثتُم. ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ بأنْ تَضِنّوا بها ولا تبذُلوها، كما يُشعر به قوله تعالى: ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، وقيل: بأنْ تَبرُّوا فيها ما استطعتم ولم يفُتْ بها خير، أو بأنْ تكفِّروها إذا حنِثتُم. وقيل: احفَظُوها كيف حلَفتم بها ولا تَنسُوها تهاوُنًا بها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الآتي، لا إلى تبيينٍ آخَرَ مفهومٍ ممّا سبق. و"الكاف" مُقحَمةٌ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة مِن الفخامة، ومحلّهُ في الأصل النصبُ على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، وأصل التقدير: يبيِّن الله تبيينًا كائنًا مثلَ ذلك التبيين، فقُدّم على الفعل لإفادة القَصر، واعتُبِرت "الكاف" مُقحَمةً للنكتة المذكورة، فصار نفسَ المصدر، لا نعتًا له. وقد مرّ تفصيله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]. أي: ذلك البيانَ البديعَ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أعلامَ شريعته وأحكامَه، لا بيانًا أدنى منه. وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ على المفعول لِما مرّ مرارًا. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نِعمتَه فيما يعلِّمكم ويسهِّل عليكم المخرَج.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير ومحمّد بن السَّمَيْفَع. المحتسَب لابن جنّي، ٢١٨/١.

[٢] هي شاذّة، قرأ بها ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ﴾ أي: الأصنامُ المنصوبةُ للعبادة ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ سلَفَ تفسيرُها في أوائل السورة الكريمة.[1] ﴿رِجۡسٞ﴾ قَذَرٌ يَعاف عنه العقول. وإفراده لأنّه خبرُ ﴿ٱلۡخَمۡرُ﴾، وخبرُ المعطوفات محذوفٌ ثقةً بالمذكور، أو المضاف محذوف، أي: شأنُ الخمر والمَيسِر... إلخ. ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ في محلّ الرفع على أنّه صفةُ ﴿رِجۡسٞ﴾، أي: كائنٌ مِن عمله؛ لأنّه مسبَّب مِن تسويله وتزيينِه.

﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أي: الرِّجسَ أو ما ذُكر، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: راجين فلاحَكم. وقيل: لِكَيْ تُفلحوا بالاجتناب عنه. / [١٦٤و] وقد مرَّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة، ٢/٢١، ٦٣].[2]

ولقد أُكِّد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد؛ حيث صُدِّرت الجملة بـ﴿إِنَّمَا﴾، وقُرِنَا بـ"الأصنام" و﴿ٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾، وسُمِّيَا "رِجسًا مِن عمل الشيطان" تنبيهًا على أنّ تَعاطِيَها شرٌّ بحتٌ، وأُمِر بالاجتناب عن عينهما، وجُعِل ذلك[3] سببًا يُرجَى منه الفلاحُ، فيكون ارتكابهما خَيبةً ومَحقةً، ثمّ قُرِّر ذلك ببيان ما فيهما مِن المفاسد الدنيَويّة والدينيّة المقتضيةِ للتحريم، فقيل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ وهو إشارة إلى مفاسدهما الدنيَويّةِ. ﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إشارة إلى مفاسدهما الدينيّةِ.

وتخصيصهما بإعادة الذِّكر وشرحُ ما فيهما مِن الوَبال للتنبيه على أنّ المقصود بيانُ حالهما. وذكرُ الأصنام والأزلام للدلالة على أنّهما مثلُهما في الحُرمة والشرارة لقوله عليه السلام: «شارِبُ الخمر كعابِدِ الوَثَنِ».[4] وتخصيص ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾

---

[1] المائدة، ٥/٣.
[2] وفي هامش م: في سورة البقرة.
[3] أي: الاجتناب.
[4] هو بهذه الألفاظ مرفوعًا في الكشّاف، ١/٦٧٤، وعن مسروق مقطوعًا في مصنّف عبد الرزّاق، ٩/٢٣٧ (١٧٠٦٤)؛ ومصنّف ابن أبي شيبة، ٥/٩٧ (٢٤٠٦٩). ونحوه مرفوعًا في مسند أحمد، ٣/١١٧ (٢٤٥٣)؛ وسنن ابن ماجة، ٤/٤٦٤-٤٦٥ (٣٣٧٥).

بالإفراد -مع دخولها في "الذِّكر"- للتعظيم والإشعارِ بأنّ الصادَّ عنها كالصادِّ عن الإيمان لِما أنّها عِمادُه.

ثمّ أعيدَ الحَثُّ على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتَّبًا على ما تقدَّم مِن أصناف الصوارف، فقيل: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ إيذانًا بأنّ الأمر في الزجر والتحذيرِ وكشفِ ما فيهما مِن المفاسد والشرور قد بلغ الغايةَ، وأنّ الأعذار قد انقطعتْ بالكلّيّة.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱجْتَنِبُوهُ﴾،[1] أي: أَطيعُوهما في جميع ما أمَرَا به ونهَيَا عنه ﴿وَٱحْذَرُواْ﴾ أي: مخالفتَهما في ذلك، فيدخل فيه مخالفةُ أمرهما ونهيِهما في الخمر والمَيسِر / دخولًا أوّليًّا. [١٦٤ظ]

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرَضتُم عن الامتثال بما أُمرتم به مِن الاجتناب عن الخمر والمَيسِر وعن[2] طاعة الله تعالى وطاعةِ رسوله صلّى الله عليه وسلّم والاحترازِ عن مخالفتِهما، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقد فعَلَ ذلك بما لا مزيدَ عليه وخرَجَ عن عُهدة الرسالة أيَّ خروجٍ، وقامت عليكم الحُجّة، وانتهت الأعذار، وانقطعت العِلَل، وما بقِيَ بعد ذلك إلّا العقاب. وفيه مِن عِظَم التهديد وشدّةِ الوعيد ما لا يخفى.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: "فاعلَموا أنّكم لم تضُرّوا بتولّيكم الرسولَ؛ لأنّه ما كُلِّف إلّا البلاغَ المبينَ بالآيات، وقد فعل؛ وإنّما ضرَرْتم أنفُسَكم حين أعرَضتم عمّا كُلِّفتموه"، فلا يساعده المقام؛ إذ لا يُتوهّمُ منهم ادّعاءُ أنّهم بتولّيهم يضُرّونه صلّى الله عليه وسلّم، حتّى يُرَدَّ عليهم بأنّهم لا يضُرّونه عليه السلام وإنّما يضُرّون أنفُسَهم.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

---

[1] المائدة، ٥/٩٠.

[2] هو متعلِّق بـ"أعرَضتُم".

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ أي: إثمٌ وحَرَجٌ ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي: تناوَلوا أكلًا / أو شُربًا؛ فإنّ استعماله في الشُّرب أيضًا مستفيضٌ، منه قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة، ٢٤٩/٢]. [١٦٥و]

قيل: لمّا أنزل الله تعالى تحريمَ الخمر بعد غزوة الأحزاب قال رِجالٌ مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أصيبَ فلانٌ يومَ بدرٍ وفلانٌ يومَ أُحُدٍ وهُم يشرَبونها، ونحن نشهَد أنّهم في الجنّة؟»،[١] وفي رواية أخرى: لمّا نزل تحريم الخمر والمَيسِر قالت الصحابة رضي الله عنهم: «يا رسولَ الله، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشرَبون الخمرَ ويأكلون مالَ المَيسِر؟»،[٢] وفي رواية أخرى: قال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسولَ الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وقد شرِبوا الخمر وفعلوا القِمارَ؟»، فنزلت.[٣]

وليست كلمة ﴿مَا﴾ في ﴿مَا طَعِمُوٓا۟﴾ عبارةً عن المُباحات خاصّةً، وإلّا لزِم تقيّدُ إباحتها باتّقاءِ ما عَداها مِن المحرَّمات لقوله تعالى: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾، واللازمُ منتَفٍ بالضرورة؛ بل هي على عمومها موصولةً كانت أو موصوفةً، وإنّما تخصَّصت بذلك القيد الطارئ عليها، والمعنى: "ليس عليهم جُناحٌ فيما تناوَلوه مِن المأكول والمشروب كائنًا ما كان إذا اتّقَوْا أن يكون في ذلك شيءٌ مِن المحرَّمات"، وإلّا لم يكن نفيُ الجُناح في كلّ ما طعِموه، بل في بعضه؛ ولا محذورَ فيه، إذ اللازمُ منه تقيُّدُ إباحة الكلّ بأنْ لا يكون فيه محرَّم، لا تقيُّدُ إباحة بعضه باتّقاء بعضٍ آخَرَ منه كما هو اللازم مِن الأوّل.

﴿وَءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: واستمَرّوا على الإيمان والأعمال الصالحة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ عطفٌ على ﴿ٱتَّقَوا۟﴾ داخلٌ معه في حَيّز الشرط، أي: اتّقَوْا ما حُرّم عليهم بعد ذلك مع كونه مُباحًا فيما سبق. ﴿وَءَامَنُوا۟﴾ أي: بتحريمه.

---

[١] جامع البيان للطبري، ٦٦٨/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٢٨/٢، وفي الأوّل: "بعد سورة الأحزاب" بدلَ "بعد غزوة الأحزاب".

[٢] انظر: مسند أحمد، ٥٠٧/٣ (٢٠٨٨)؛ وسنن الترمذي، ٢٥٤/٥ (٣٠٥١)؛ ومسند أبي يعلى الموصلي، ٢٦٥/٣-٢٦٦ (١٧١٩).

[٣] التفسير البسيط للواحدي، ٥١٤/٧؛ تفسير الرازي، ٤٢٧/١٢؛ اللباب لابن عادل، ٥١٢/٧.

وتقديم الاتّقاء عليه إمّا للاعتناء به، أو لأنّه الذي يدلّ على التحريم الحادث الذي هو المؤمَنُ به. أو: واستمَرّوا على الإيمان.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: ما حُرّم عليهم بعد ذلك ممّا كان مُباحًا مِن قبلُ، على أنّ المشروط بالاتّقاء في كلّ مرّة إباحةُ كلّ ما طعِموه في ذلك الوقت، لا إباحةُ كلّ ما طعِموه قبلَه،[1] لانتساخ إباحة بعضه حينئذ. ﴿وَّأَحْسَنُوا﴾ أي: عمِلوا الأعمالَ الحَسَنةَ الجميلةَ المنتظِمةَ لجميع ما ذُكر مِن الأعمال القلبيّة والقالبيّة.

وليس تخصيصُ هذه المرّات بالذِكر لتخصيص الحُكم بها؛ بل لبيان التعدّد والتكرّر بالغًا ما بلغ، والمعنى: أنّهم إذا اتّقَوا المحرَّماتِ، واستمَرّوا على ما هم عليه مِن الإيمان والأعمال الصالحةِ، وكانوا في طاعة الله ومُراعاةِ أوامره ونَواهيه، بحيث كلّما حُرّم عليهم شيء مِن المُباحات اتّقَوْه، ثمّ...، وثم..، فلا جُناحَ عليهم[2] فيما طعِموه في كلّ مرّة مِن المطاعم / والمشارب؛ إذ ليس فيها شيءٌ محرَّمٌ عند طَعْمِه. [١٦٥ظ]

وأنت خبير بأنّ ما عَدَا اتّقاءَ المحرَّمات مِن الصِّفات الجميلة المذكورة لا دَخْلَ لها في انتفاء الجُناح، وإنّما ذُكرت في حَيّز «إذَا» شهادةً باتّصاف الذين سُئل عن حالهم بها، ومدحًا لهم بذلك، وحمدًا لأحوالهم. وقد أشيرَ إلى ذلك حيث جُعلت تلك الصِّفاتُ تبعًا للاتّقاء في كلّ مرّة تمييزًا بينها وبين ما له دَخْلٌ في الحُكم.

فإنّ مَساق النظم الكريم بطريق العبارة، وإن كان لبيان حال المتّصِفِين بما ذُكر مِن النعوت فيما سيأتي بقضيّة كلمة «إذَامَا»، لكنّه قد أُخرِجَ مُخرَجَ الجواب عن حال الماضِينَ لإثبات الحُكم في حقّهم في ضِمن التشريع الكلّيّ على الوجه البُرهانيّ بطريق دلالة النصّ، بناءً على كمال اشتهارهم بالاتّصاف بها، فكأنّه قيل: ليس عليهم جُناح فيما طعِموه؛ إذ كانوا في طاعته تعالى مع ما لهم مِن الصفات الحميدةِ، بحيث كلّما أُمِروا بشيء تلقَّوْه بالامتثال، وإنّما

---

[1] أي: قبلَ ذلك الوقت.

[2] هو جواب الشرط.

كانوا يتعاطَوْن الخمرَ والمَيسِرَ في حياتهم لعدم تحريمهما إذ ذاك، ولو حُرِّمَا في عصرهم لَاتّقَوْهما بالمرّة.

هذا، وقد قيل: التكريرُ باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث: استعمال الإنسان التقوى بينه وبين نفسه، وبينه وبين الناس، وبينه وبين الله عزّ وجلّ؛ ولذلك جِيءَ بـ"الإحسان" في الكَرّة الثالثة بدلَ "الإيمان" إشارةً إلى ما قاله صلّى الله عليه وسلّم في تفسيره،[١] أو باعتبار المراتب الثلاث: المبدَأ والوسط والمنتهَى، أو باعتبار ما يُتّقَى؛ فإنّه ينبغي أن يُترَك المحرَّماتُ توقّيًا مِن العِقاب، والشُّبُهاتُ توقّيًا مِن الوقوع في الحرام، وبعضُ المُباحات حِفظًا للنفس عن الخِسّة وتهذيبًا لها عن دَنَسِ الطبيعة.

وقيل: التكريرُ لمجرَّد التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر، ١٠٢/٣-٤] ونظائرِه. وقيل: المراد بالأوّل اتّقاءُ الكفر، وبالثاني اتّقاءُ الكبائر، وبالثالث اتّقاءُ الصغائر. ولا ريبَ في أنّه لا تعلُّقَ لهذه الاعتبارات بالمقام؛ فأَحسِن التأمُّلَ.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل مقرِّرٌ لمضمون ما قبله أبلَغَ تقريرٍ. والله تعالى أعلَمُ.[٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٤﴾

[١٦٦و] / ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ جوابُ قَسمٍ محذوفٍ، أي: والله لَيُعامِلَنّكم معاملةَ مَن يختبركم ليتعرَّفَ أحوالَكم ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ أي: مِن صيد البَرّ مأكولًا أو غيرَ مأكول، ما عَدَا المستثنَياتِ مِن الفواسق، فـ"اللام" للعهد.

نزلت عامَ الحُديبية، ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم مُحرِمون، كانت الوحوشُ تَغْشَاهم في رِحالهم، بحيث كانوا متمكِّنين مِن صيدها أخذًا بأيديهم

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٣/٢.

٢ س – والله تعالى أعلَمُ. | في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

وطعنًا برِماحهم، وذلك قوله تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾، فهَمُّوا بأخذها، فنزلت.[١] ورُوي أنّه عَنَّ لهم[٢] حمارُ وحشٍ، فحمل عليه أبو اليَسَر بنُ عمرو،[٣] فطعَنه برُمحه وقتَلَه، فقيل له: «قتلتَه وأنت مُحرِم؟»، فأتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم وسأله عن ذلك، فأنزل الله تعالى الآيةَ.[٤]

فالتوكيد[٥] القَسَميُّ في ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ﴾ إنّما هو لتحقيق أنّ ما وقع مِن عدم توحُّش الصيد عنهم ليس إلّا لابتلائهم، لا لتحقيق وقوع المُبتلَى به، كما لو كان النزولُ قبل الابتلاء. وتنكير ﴿شَيۡءٖ﴾ للتحقير المؤذِنِ بأنّ ذلك ليس مِن الفِتَنِ الهائلةِ التي تزِلُّ فيها أقدامُ الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفُسِ وإتلافِ الأموال، وإنّما هو مِن قبيل ما ابتُلِيَ به أهلُ أَيْلَةَ مِن صيد البحر. وفائدتُه التنبيهُ على أنّ مَن لم يتثبَّتْ في مِثل هذا، كيف يتثبَّتُ عند شدائد المِحَنِ؟ فـ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ بيانيّةٌ قطعًا، أي: بشيء حقيرٍ هو الصيدُ. وجعلُها تبعيضيّةً يقتضي اعتبارَ قِلّته وحقارتِه بالنسبة إلى كلّ الصيد، لا بالنسبة إلى عظائم البلايَا، فيَعْرَى الكلامُ عن التنبيه المذكور.

﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: ليتميَّزَ الخائفُ مِن عقابه الأخرويِّ وهو غائبٌ مترقَّبٌ / لقوّة إيمانه، فلا يتعرّض للصيد، ممّن لا يخافه[٦] كذلك لضعف إيمانه، [١٦٦ظ]

---

[١] هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٢٢٨؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٦٧٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٤٣. ونحوه في تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٥٠٣-٥٠٣.

[٢] عَنَّ له كذا يعنّ -بضَمّ العين وكسرها- عَنَنًا، أي: عرض واعترض. مختار الصحاح للرازي، «عنن».

[٣] هو كعب بن عمرو بن عبّاد -وقيل: بن مالك- بن عمرو الأنصاري، أبو اليَسَر (٥٥هـ/٦٧٤-٦٧٥م). صحابيّ، مِن بني سَلِمة. شهد العقبة، وشهد بدرًا وأحدًا وهو ابن عشرين سنة والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وكان رجلًا قصيرًا دَحْداحًا، ذا بطن. وتُوفّي بالمدينة، وذلك في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وله عقب بالمدينة. روى عنه حنظلة بن قيس ورِبعي بن حِراش وعبادة بن الوليد. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/٥٨١؛ والاستيعاب للنَّمَري، ٣/١٣٢٢، ٤/١٧٧٦.

[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٤/١٠٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٦٧٨ (المائدة، ٥/٩٥)؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٤٤ (المائدة، ٥/٩٥).

[٥] ط س: فالتأكيد.

[٦] السياق: ليتميّزَ الخائفُ... ممّن لا يخافه...

فيُقدِم عليه. وإنّما عُبّر عن ذلك بعِلم الله تعالى اللازمِ له إيذانًا بمَدار الجزاء ثوابًا وعقابًا؛ فإنّه أدخَلُ في حملهم على الخوف.

وقيل: المعنى: "ليتعلّقَ علمُه تعالى بمَن يخافه بالفعل"؛ فإنّ علمه تعالى بأنّه سيخافه، وإن كان متعلِّقًا به قبل خوفه، لكنّ تعلُّقَه بأنّه خائف بالفعل -وهو الذي يدُور عليه أمرُ الجزاء- إنّما يكون عند تحقُّق الخوف بالفعل. وقيل: هناك مضاف محذوفٌ، والتقدير: ليعلَمَ أولياءُ الله.

وقُرئ: "لِيُعْلِمَ"[1] مِن "الإعلام" على حذف المفعول الأوّل، أي: ليُعلِمَ اللهُ عبادَه... إلخ. و"العِلمُ" على القراءتين متعَدٍّ إلى واحدٍ. وإظهار الاسم الجليل في موقِع الإضمار لتربية المَهابة وإدخالِ الروعة.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد بيان أنّ ما وقع ابتلاءٌ مِن جهته تعالى لِما ذُكر مِن الحِكمة، لا بعدَ تحريمه أو النهيِ عنه كما قاله بعضهم؛ إذ النهيُ والتحريمُ ليس أمرًا حادثًا يرتّب عليه الشرطيّةُ بـ"الفاء"، ولا بعدَ الابتلاء كما اختاره الآخَرون؛ لأنّ نفس الابتلاء لا يصلُح مدارًا لتشديد العذاب، بل ربّما يُتوهَّم كونُه عُذرًا مسوِّغًا لتخفيفه. وإنّما الموجِبُ للتشديد بيانُ كونه ابتلاءً؛ لأنّ الاعتداء بعد ذلك مكابرةٌ صريحةٌ، وعدمُ مُبالاةٍ بتدبير الله تعالى، وخروجٌ عن طاعته، وانخلاعٌ[2] عن خوفه وخشيتِه بالكلّيّة. أي: فمَن تعرَّض للصيد بعد ما بيَّنَّا أنّ ما وقع مِن كثرة الصيد وعدمِ توحُّشِه منهم ابتلاءٌ مؤدٍّ إلى تمييز المطيع مِن العاصي.

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ لِما ذُكر مِن أنّه مكابرة مَحضةٌ، ولأنّ مَن لا يملِك زِمامَ نفسه ولا يُراعي حكمَ الله تعالى في أمثال هذه البلايا الهيّنةِ لا يكاد / [١٦٧و] يُراعيه في عظائم المداحض. والمراد بـ"العذاب الأليم" عذابُ الدارَين. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «يُوَسَّعُ ظهرُه وبطنُه جَلدًا ويُنزَع ثِيابُه».[3]

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٣٦٣/٤، ونسبها إلى الزهري.

[2] ط س: وانخلاء.

[3] تفسير ابن أبي حاتم، ١٢٠٤/٤؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥١٧/٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٣/٤، وفيها: "ويُسلَب" بدلَ "ويُنزَع".

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٩٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ شروع في بيان ما يُتدارَكُ به الاعتداءُ مِن الأحكام إثرَ بيانِ ما يلحَقه مِن العذاب.

والتصريح بالنهي في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ -مع كونه معلومًا، لاسيّما مِن قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾-[1] لتأكيد الحُرمة وترتيبِ ما يعقُبه عليه. و"اللام" في ﴿ٱلصَّيْدَ﴾ للعهد حسبما سلَف.[2] و﴿حُرُمٌ﴾ جمعُ "حَرام"، كـ"رُدُح" جمعُ "رَداح"،[3] وهو المُحرِم وإن كان في الحِلّ، وفي حُكمه مَن في الحَرَم وإن كان حلالًا.[4] والجملة حال مِن فاعل ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾، أي: لا تقتلوه وأنتم مُحرِمون.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾ أي: الصيدَ المعهودَ. وذِكرُ القتل في الموضِعَين دون الذَّبح للإيذان بكونه في حكم المَيْتَة. ﴿مِنكُم﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعل ﴿قَتَلَهُۥ﴾، أي: كائنًا منكم. ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ حال منه أيضًا، أي: ذاكرًا لإحرامه عالمًا بحُرمة قتلِ ما يقتله. والتقييد بـ"التعمُّد" -مع أنّ محظوراتِ الإحرام يستوي فيها العَمْدُ والخطأُ- لِما أنّ الآية نزلت في المتعمِّد كما مرَّ مِن قصّة أبي اليَسَر،[5] ولأنّ الأصل فعلُ المتعمِّد، والخطأ لاحقٌ به للتغليظ.

وعن الزهري: «نزل الكتابُ بالعَمد، ووَرَدَت السنّةُ بالخطأ».[6] وعن سعيد ابنِ جُبير رحمه الله: «لا أرى في الخطأ شيئًا»،[7] أخذًا باشتراط التعمّد في الآية،

---

[1] المائدة، ١/٥.

[2] في الآية السابقة.

[3] وفي هامش م: الرَّداح: الجَفْنَة العظيمة.

[4] ط س: و﴿حُرُمٌ﴾ جمعُ "حَرام"، وهو المحرِم وإنْ كان في الحِلّ، وفي حُكمه مَن في الحَرَم وإن كان حلالًا، كـ"رُدُح" جمعُ "رَداح"؛ م - وهو المحرم وإنْ كان في الحِلّ، وفي حُكمه مَن في الحَرَم وإنْ كان حلالًا ["صح" في الهامش].

[5] في تفسير الآية السابقة.

[6] جامع البيان للطبري، ٦٧٨/٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٩/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٧٨/١.

[7] التفسير البسيط للواحدي، ٥١٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٧٨/١. وفي جامع البيان للطبري، ٦٧٨/٨، عنه: «إنّما جُعلت الكفّارة في العمد، ولكن غُلِّظ عليهم في الخطأ كي يتّقوا».

وهو قول داودَ. وعن مجاهد والحسن: «أنّ المراد بالتعمُّد هو تعمُّدُ القتل مع نِسيان الإحرام، أمّا إذا قتله عَمْدًا وهو ذاكرٌ لإحرامه، فلا حُكمَ عليه، وأمرُه إلى الله عزّ وجلّ»؛[1] لأنّه أعظَمُ مِن أن يكون له كفّارةٌ.

[١٦٧ظ] / ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ برَفعِهما، أي: فعليه جزاءٌ مماثِلٌ لِما قتله. وقُرئ برفع الأوّل ونصبِ الثاني[2] على إعمال المصدر. وقُرئ: بجرّ الثاني[3] على إضافته إلى مفعوله. وقُرئ: "فَجَزَاؤُهُ مِثْلُ مَا قَتَلَ"[4] على الابتداء والخبريّةِ. وقُرئ بنصبِهما[5] على "فليَجْزِ جزاءً -أو: فعليه أن يَجزِيَ جزاءً- مثلَ ما قتل".

والمراد به عند أبي حنيفةَ وأبي يوسفَ المِثلُ باعتبار القِيمة؛ يُقوَّم الصيدُ حيث صِيدَ أو في أقربِ الأماكن إليه، فإن بلَغتْ قيمتُه قيمةَ هَدْيٍ يخيَّر الجاني بين أن يشتريَ بها ما قيمتُه قيمةَ الصيد، فيُهدِيَه إلى الحَرَمِ، وبين أن يشتريَ بها طعامًا، فيُعطِيَ كلَّ مِسكين نِصفَ صاعٍ مِن بُرٍّ[6] أو صاعًا مِن غيره، وبين أن يصُوم عن طعامِ كلِّ مِسكينٍ يومًا، فإنّ فضل ما لا يبلُغ طعامَ مِسكينٍ تصدُّقَ به، أو صامَ عنه يومًا كاملًا، إذ لم يُعهَد في الشرع صَوْمُ ما دونه؛ فيكون قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ بيانًا للهَدي المشترَى بالقِيمة على أحد وجوه التخيير. فإنّ مَن فعل ذلك يصدُق عليه أنّه جَزَى بمِثل ما قتَلَ مِن النَّعَم.

وعند مالك والشافعي رحمهما الله ومَن يرى رأيَهما هو المِثْلُ باعتبار الخِلْقة والهيئة؛ لأنّ الله تعالى أوجب مثلَ المقتول مقيَّدًا بالنَّعَم، فمَن اعتبَر "المِثْلَ" بالقِيمة فقد خالف النصَّ. وعن الصحابة رضي الله عنهم أنّهم أوجبوا في النَّعامةِ

---

[1] قولهما بمعناه في جامع البيان للطبري، ٦٧٤/٨-٦٧٧، إلّا أنّه ليس في كلام الحسن "أمّا إذا قتله عَمْدًا وهو ذاكرٌ لإحرامه، فلا حُكمَ عليه، وأمرُه إلى الله عزّ وجلّ".

[2] أي: "فَجَزَاءٌ مِثْلَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الرحمن السُّلمي. المحتسَب لابن جنّي، ٢١٨/١.

[3] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٥٥/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود ويحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٠.

[5] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٦٧٩/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٣٦٥/٤، ونسَبَاها إلى محمّد بن مقاتل.

[6] البُرّ: جمعُ "بُرّة" مِن القَمح. الصحاح للجوهري، «برر».

بَدَنَةٌ،[١] وفي الظَّبي[٢] شاةٌ، وفي حِمار الوَحش بَقَرَةٌ، وفي الأَرْنَبِ عَناقًا.[٣] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «الضَّبُعُ صيدٌ، وفيه شاةٌ إذا قتله المُحرِم».[٤]

ولنا: أنّ النصَّ أوجَبَ المِثلَ. والمِثلُ المطلَقُ في الكتاب والسنّةِ وإجماعِ الأمّة والمعقولِ يُراد به إمّا المِثلُ صورةً ومعنًى، وإمّا المِثلُ معنًى. وأمّا المِثلُ صورةً بلا معنًى، فلا اعتبارَ له في الشرع أصلًا. / وإذ لم يكن إرادةُ الأوّل إجماعًا تعيّنتْ إرادةُ الثاني لكونه معهودًا في الشرع كما في حقوق العِباد. [١٦٨و]

ألَا يُرى أنّ المماثَلة بين أفراد نوعٍ واحدٍ -مع كونها في غاية القوّة والظهور- لم يعتَبِرها الشرعُ، ولم يَجعل الحيوانَ عند الإتلاف مضمونًا بفردٍ آخَرَ مِن نوعه مماثِلٍ له في عامّة الأوصاف، بل مضمونًا بقِيمتِه، مع أنّ المنصوص عليه في أمثاله إنّما هو المِثلُ، قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة، ١٩٤/٢]؛ فحيث لم تُعتبَر تلك المماثَلةُ القويّةُ مع تيسُّر معرفتِها وسهولةِ مُراعاتِها، فَلَأَنْ لا تُعتبَرَ ما بين أفرادِ أنواعٍ مختلِفةٍ مِن المماثَلة الضعيفة الخفيّةِ -مع صعوبة مأخَذِها وتعسُّرِ المحافظة عليها- أَولى وأحرَى، ولأنّ القيمة قد أُريدَتْ فيما لا نظيرَ له إجماعًا؛ فلم يبقَ غيرُه مرادًا؛ إذ لا عمومَ للمشترَك في مواقع الإثبات.

والمراد بالمَروِيّ إيجابُ النظير باعتبار القيمة، لا باعتبار العَين، ثمّ الموجَبُ الأصليُّ للجناية والجزاءُ المماثِلُ للمقتول إنّما هو قيمتُه؛ لكن لا باعتبار أن يَعمِد الجاني إليها فيصرِفَها إلى المصارف ابتداءً، بل باعتبار أن يجعلها مِعيارًا فيقدِّرَ بها إحدى الخِصال الثلاثِ فيُقِيمَها مُقامَها؛ فقوله تعالى: ﴿مِّثۡلُ مَا قَتَلَ﴾ وصفٌ

---

[١] قال الليث وغيره: البَدَنَة -بالهاء- تقع على الناقة والبقرة والبعير الذَّكر ممّا يجوز في الهَدي والأضاحي، ولا تقع على الشاة. سُمّيت بَدَنَةً لعِظَمها. وجمع البَدَنَة: البُدْن. **تهذيب اللغة** للأزهري، ١٠٢/١٤ «أبواب الدال والنون».

[٢] الظَّبي: الغَزال. **مختار الصحاح** للرازي، «ظبي».

[٣] انظر: **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٢٣٧/٢-٢٣٨؛ و**تفسير القرطبي**، ٣١٠/٦-٣١١.

[٤] لم نقف عليه بهذه الألفاظ. أخرج أبو داود في سننه، ٦١٩/٥ (٣٨٠١)، عن جابر بن عبد الله، قال: سألتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الضَّبُع، فقال: «هو صَيد، ويُجعَل فيه كبش إذا صاده المُحرِم». ونحوه في **سنن الدارمي**، ١٢٣٥/٢ (١٩٨٤)؛ و**سنن ابن ماجة**، ٢٧١/٤-٢٧١ (٣٠٨٥).

لازمٌ لـ"الجزاء"، غيرُ مفارِقٍ عنه بحالٍ، وأمّا قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، فوصفٌ له معتبَرٌ في ثاني الحال، بناءً على وصفه الأوّل الذي هو المِعيارُ له ولِما بعده مِن الطعام والصيام؛ فحقُّهما[١] أن يُعطَفَا على الوصف المفارِق، لا على الوصف اللازمِ، فضلًا عن العطف على الموصوف كما سيأتي بإذن الله تعالى.

[١٦٨ظ] / وممّا يرشدك إلى أنّ المراد بـ"المِثل" هو القيمةُ قولُه عزّ وعلَا:[٢] ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ﴾ أي: بمِثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: حَكَمانِ عادلانِ مِن المسلمِين؛ لكنْ لا لأنّ التقويم هو الذي يحتاج إلى النظر والاجتهادِ مِن العُدول، دون الأشياءِ المشاهَدة التي يستوي في معرفتها كلُّ أحد مِن الناس، فإنّ ذلك ناشئ مِن الغفلة عمّا أرادوا بما به المماثلةُ؛ بل لأنّ ما جعلوه مدارَ المماثلة بين الصيد وبين النَّعَم مِن ضربِ مشاكَلةٍ ومضاهاةٍ في بعض الأوصاف والهيئاتِ مع تحقُّق التبايُنِ بينهما في بقيّة الأحوال، ممّا لا يَهتدي إليه مِن أساطينِ أئمّة الاجتهاد وصناديدِ أهلِ الهداية والإرشادِ إلّا المؤيَّدون بالقوّة القُدسيّة.[٣]

أَلَا يُرى أنّ الإمام الشافعيَّ رحمه الله[٤] أوجب في قتل الحَمَامة شاةً، بناءً على ما أثبَتَ بينهما مِن المماثلة مِن حيث إنّ كلًّا منهما تعُبُّ وتَهدِر،[٥] مع أنّ النسبة بينهما مِن سائر الحَيثيّات كما بين الضَّبّ والنُّون.[٦] فكيف يُفوَّض معرفةُ أمثالِ هذه الدقائق العَوِيصةِ إلى رأي عَدْلَين مِن آحاد الناس على أنّ الحُكم بهذا المعنى إنّما يتعلّق بالأنواع، لا بالأشخاص؟ فبعدما عُيّن بمقابلة كلّ نوع مِن أنواع الصيد نوعٌ مِن أنواع النَّعَم يَتِمُّ الحُكمُ، ولا يبقى عند وقوع خصوصيّات الحوادث حاجةٌ إلى حُكمٍ أصلًا.

---

١ أي: حقّ الطعام والصيام.
٢ س: وجلّ.
٣ السياق: بل لأنّ ما جعلوه مدارَ المماثلة... ممّا لا يَهتدي إليه... إلّا المؤيَّدون بالقوّة القُدسيّة.
٤ م - رحمه الله.
٥ قال الأزهري في **تهذيب اللغة**، ١٢/٤ «باب الحاء والميم»: «جعل الشافعي اسمَ الحمَام واقعًا على ما عَبَّ وهدَر، لا على ما كان ذَا طَوْق، فيدخل فيها الوُرْق الأهليّة والمطوَّقة الوحشيّة. ومعنى "عَبَّ"، أي: شرب نفَسًا نفَسًا حتّى يَرْوَى، ولم ينقُر الماءَ نَقْرًا كما يفعله سائر الطير. والهَدير: صوت الحمَام كلّه».
٦ سبحانَ الجامعِ بين الثَّلْج والنارِ، وبين الضَّبّ والنُّونِ: يُضرَب للمتضادَّين يجتمعان. **مجمع الأمثال** للميداني، ٣٥٦/١.

وقُرِئَ: "يَحْكُمُ بِهِ ذُو عَدْلٍ"[١] على إرادة جنس العادل دون الوحدة، وقيل: بل على إرادة الإمام. والجملة صفة لـ﴿جَزَآءٌ﴾، أو حال منه لتخصُّصه بالصفة.

وقوله تعالى: ﴿هَدْيًا﴾ حال مقدَّرة مِن الضمير في ﴿بِهِ﴾، أو مِن ﴿جَزَآءٌ﴾ لِما ذُكر مِن تخصُّصه بالصفة، أو بدلٌ مِن ﴿مِثْلُ﴾ فيمَنْ نصَبه،[٢] أو مِن محلِّه فيمَنْ جَرَّه، أو نصب على المصدر، أي: يُهدِيه هَدْيًا. والجملة[٣] صفة أخرى لـ﴿جَزَآءٌ﴾. ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ صفة لـ﴿هَدْيًا﴾؛ لأنّ الإضافة غيرُ حقيقيّةٍ.

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾ عطفٌ على محلّ ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف. والجملة صفة ثانية لـ﴿جَزَآءٌ﴾ كما أُشيرَ إليه. / وقوله تعالى: ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ [١٦٩و] عطفُ بيانٍ لـ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾ عند مَن لا يخصِّصه بالمَعارف، أو بدلٌ منه، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هي طعامُ مساكينَ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ عطفٌ على ﴿طَعَامُ﴾... إلخ، كأنّه قيل: فعليه جزاءٌ مماثِلٌ للمقتول، هو مِن النَّعَم أو طعامُ مساكينَ أو صِيامُ أيّامٍ بعدَدِهم؛ فحينئذ يكون المماثلةُ وصفًا لازمًا لـ"الجزاء"، يقدَّرُ به الهَدْيُ والطعامُ والصيامُ؛ أمّا الأوّلان فبِلَا واسطةٍ، وأمّا الثالثُ فبواسطة الثاني، فيَختارُ الجاني كلًّا منها بدلًا مِن الآخَرين.

هذا، وقد قيل: إنّ قوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿جَزَآءٌ﴾، فلا يبقى حينئذ في النظم الكريم ما يُقدَّر به الطعامُ والصيامُ، والالتجاءُ إلى القياس على الهَدْي تعسُّفٌ لا يخفى. هذا على قراءة ﴿جَزَآءٌ﴾ بالرفع. وعلى سائر القراءات فقوله تعالى:﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، والجملة معطوفة على جملةِ "هو مِن النَّعَم".

وقُرِئَ: "أَوْ كَفَّارَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ"[٤] بالإضافة، لتبيين نوع الكفّارة. وقُرِئَ: "طَعَامُ مِسْكِينٍ"[٥] على أنّ التبيين يحصُل بالواحد الدالِّ على الجنس. وقُرِئَ:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن عليّ وجعفر بن محمّد. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢١٩.

٢ أي: فيمَنْ نصَبَ قولَه تعالى: ﴿مِثْلُ﴾.

٣ وفي هامش م: أي: يُهدِيه هَدْيًا.

٤ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٠.

"أَوْ عِدْلُ"[١] بكسر العين، والفرقُ بينهما أنّ عَدْلَ الشيء ما عادَلَه مِن غير جنسه كالصوم والإطعامِ، وعِدْلَه ما عُدِلَ به في المقدار؛ كأنّ المفتوح تسميةٌ بالمصدر، والمكسورَ بمعنى المفعول.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى "الطعام"، و﴿صِيَامًا﴾ تمييزٌ لـ"العَدْل".

والخِيار في ذلك للجاني عند أبي حنيفةَ وأبي يوسفَ، وللحَكَمَين عند محمّدٍ رحمهم الله تعالى.[٢]

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ متعلِّق بالاستقرار في الجارّ والمجرور، أي: فعليه جزاءٌ ليَذُوقَ... إلخ، وقيل: بفعلٍ يدلّ عليه الكلامُ، كأنّه قيل: شُرع ذلك عليه ليَذُوقَ وبالَ أمرِه، أي: سُوءَ عاقبةِ هَتْكِه لحُرمة الإحرام. و"الوَبال" في الأصل: المكروهُ والضَّرَرُ الذي يَنال في العاقبة مَن عمِلَ سُوءًا لثِقَلِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل، ١٦/٧٣]، ومنه "الطعامُ الوبيلُ"، وهو الذي لا يستمرِئُه المَعِدَةُ.[٣]

[١٦٩ظ] ﴿عَفَا ٱللَّهُ / عَمَّا سَلَفَ﴾ مِن قتل الصيد مُحرِمًا قبل أن يسألوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: عمّا سلَفَ منه في الجاهليّة؛ لأنّهم كانوا متعبّدين بشرائع مَن قبلهم وكان الصيدُ فيها محرَّمًا.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد بعد النهي عنه وهو مُحرِمٌ، ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ خبر مبتدأٍ محذوفٍ، تقديره: فهو ينتقم الله منه؛ ولذلك دخلت "الفاء"، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن، ١٣/٧٢]، أي: فذلك لا يخاف... إلخ، وقولِه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ﴾ [البقرة، ١٢٦/٢]، أي: فأنَا أُمتِّعُه. والمراد بـ"الانتقام" التعذيبُ في الآخرة. وأمّا الكفّارة، فعَنْ عطاءٍ وإبراهيمَ[٤] وسعيدِ بنِ جُبير والحسنِ[٥] أنّها واجبةٌ على العائد،[٦] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والجحدري وطلحة ابن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦١.

٢ س – تعالى.

٣ وفي هامش م: بلغ. | لعلّه قيد البلاغ لمراجعة المصنّف.

٤ أي: إبراهيم النخعي.

٥ أي: الحسن البصري.

٦ قولهم في جامع البيان للطبري، ٧١٣/٨-٧١٥؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٢٨/٧، ما عَدَا الحسن، فإنّما رُوي عنه أنّه لا كفّارة على العائد. انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٥٢٨/٧؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٨/٤-٣٦٩.

وشُريحٍ[١] أنّه لا كفّارةَ عليه، تعلُّقًا بالظاهر.[٢]

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ لا يُغالَب، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ شديدٍ، فينتقم ممّن أصَرَّ على المعصية والاعتداء.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ الخطاب للمُحرِمين. ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: ما يُصاد في المِياه كلِّها، بحرًا كان أو نهرًا أو غديرًا.[٣] وهو ما لا يعيش إلّا في الماء، مأكولًا أو غيرَ مأكولٍ. ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أي: وما يُطعَم مِن صيده. وهو تخصيصٌ بعد تعميمٍ، والمعنى: أُحِلَّ لكم التعرّضُ لجميع ما يُصاد في المِياه والانتفاعُ به وأكلُ ما يُؤكَل منه. وهو السَّمَك عندنا. وعند ابن أبي ليلى جميعُ ما يُصاد فيه،[٤] على أنّ تفسير الآية عنده: أُحِلَّ لكم صيدُ حيوان البحر وأن تطعَموه. وقُرئ: "وَطُعْمُهُ".[٥] وقيل: صيدُ البحر: ما صِيدَ فيه، وطعامُه: ما قذَفَه أو نضَبَ عنه.

﴿مَتَـٰعًا لَّكُمْ﴾ نصب على أنّه مفعول له، مختَصٌّ بـ"الطعام"، كما أنّ ﴿نَافِلَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء، ٧٢/٢١] حال مختصّةٌ بـ﴿يَعْقُوبَ﴾ عليه السلام. أي: أُحِلَّ لكم طعامُه تمتيعًا للمقيمين منكم، يأكلونه طَرِيًّا.

---

[١] هو شُرَيح بن الحارث بن قيس -وقيل: بن المُنتجع- بن معاوية الكِندي الكوفي، أبو أميّة (ت. ٨٠هـ/٦٩٩م). القاضي الفقيه، مِن كبار التابعين. أدرك الجاهليّة. وأدرك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يلقه. وكان قاضيًا لعمر على الكوفة، ثمّ لعثمان، ثمّ لعليّ رضي الله عنهم، فلم يزل قاضيًا بها إلى زمن الحجّاج. وكان أعلمَ الناس بالقضاء، وكان ذا فِطنة وذكاء ومعرفة وعقل ورصانة، وكان شاعرًا محسِنًا. حدّث عن عمر وعليّ وعبد الرحمن بن أبي بكر. وحدّث عنه قيس بن أبي حازم ومُرّة الطيّب وتميم بن سلمة والشعبي وإبراهيم النخعي وابن سِيرين، وغيرهم. انظر: **الاستيعاب** للنّمري، ٧٠١/٢-٧٠٢؛ وسير **أعلام النبلاء** للذهبي، ١٠٠/٤-١٠٦.

[٢] **جامع البيان** للطبري، ٧١٦/٨-٧١٧؛ **التفسير البسيط** للواحدي، ٥٢٨/٧.

[٣] الغَدير: القطعة مِن الماء يغادرها السيلُ. **الصحاح** للجوهري، «غدر».

[٤] انظر: **تفسير الرازي**، ٤٣٧/١٢؛ **واللباب** لابن عادل، ١٧٦/٣.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٦١.

[١٧٠و] ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ / منكم، يتزوّدونه قَديدًا.[١] وقيل: نصب على أنّه مصدر مؤكِّدٌ لفعلٍ مقدَّرٍ، أي: متَّعَكم به متاعًا، وقيل: مؤكِّد لمعنى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾، فإنّه في قوّة "متَّعَكم به تمتيعًا"، كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء، ٤/٢٤].

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ وقُرئ على بناء الفعل للفاعل ونصبِ ﴿صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾.[٢] وهو ما يفرِّخ فيه، وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات كطير الماء. ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: مُحرِمين. وقُرئ بكسر الدال،[٣] مِن "دَامَ يَدامُ".

وظاهرُه يوجِب حُرمةَ ما صاده الحلالُ على المُحرِم، وإن لم يكن له مَدخَلٌ فيه، وهو قول عمرَ وابن عبّاس رضي الله عنهما.[٤] وعن أبي هريرةَ وعطاءٍ ومجاهدٍ وسعيدِ بنِ جُبيرٍ أنّه يحِلُّ له أكلُ ما صاده الحلالُ، وإن صاده لأجله، إذا لم يُشِرْ إليه ولم يدُلَّ عليه،[٥] وكذا ما ذبَحه قبل إحرامه، وهو مذهب أبي حنيفةَ؛[٦] لأنّ الخطاب للمُحرِمين، فكأنّه قيل: وحُرِّم عليكم ما صِدتُم في البَرّ، فيخرُج منه مَصيدُ غيرهم. وعند مالك والشافعي وأحمدَ رحمهم الله تعالى لا يُباح ما صِيدَ له.[٧]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نَهاكم عنه، أو: في جميع المعاصي التي مِن جملتها ذلك. ﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره حتّى يُتوهَّمَ الخَلاصُ مِن أخذِه تعالى بالالتجاء إليه.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

---

[١] القَديد: اللحم المشرَّر الذي قُطع وشُرِّر، أو: هو ما قُطع منه طِوالًا. تاج العروس للزبيدي، «قدد».
[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦١.
[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. المحتسَب لابن جنّي، ١٦١/١.
[٤] جامع البيان للطبري، ٧٤٢/٨-٧٤٣؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٤٢/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٨٠/١. وهو مرويّ عن ابن عمر وابن عبّاس رضي الله عنهم في جامع البيان للطبري، ٧٤٣/٨-٧٤٥؛ وتفسير القرطبي، ٣٢٢/٦.
[٥] الكشّاف للزمخشري، ٦٨٠/١؛ تفسير القرطبي، ٣٢٢/٦.
[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ١١١/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٨٠/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٧١/٤.
[٧] الكشّاف للزمخشري، ٦٨٠/١.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ﴾ قال مجاهد: «سُمِّيتْ كعبةً لكونها مكعَّبةً مربَّعةً»،[١] وقيل: لانفرادها مِن البناء، وقيل: لارتفاعها مِن الأرض ونتوئِها. وقوله تعالى: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ عطفُ بيانٍ على[٢] جهة المدح دون التوضيح كما يجيء الصفةُ كذلك. وقيل: مفعولٌ ثانٍ لـ﴿جَعَلَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ نصب على الحال. ويرُدّه عطفُ ما بعده على المفعول الأوّل كما سيَجيء؛ بل هذا هو المفعول الثاني. وقيل: "الجعلُ" بمعنى الإنشاء والخلق، وهو حال كما مرّ.
/ ومعنى كونه قِيامًا لهم أنّه مدارٌ لقِيام أمر دينهم ودنياهم؛ إذ هو سببٌ لانتعاشِهم [١٧٠ظ] في أمور مَعاشهم ومَعادهم، يلُوذ به الخائفُ، ويأمَن فيه الضعيفُ، ويربَح فيه التُجّارُ،[٣] ويتوجّه إليه الحُجّاجُ والعُمّارُ. وقُرئ: "قِيَمًا"[٤] على أنّه مصدر على وزن "شِبَع"، أُعِلَّ عينُه بما أُعِلَّ في فعله.

﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: الذي يؤدَّى فيه الحَجُّ، وهو ذو الحِجّة، وقيل: جنسُ الشهر الحرام. وهو وما بعده عطفٌ على ﴿ٱلْكَعْبَةَ﴾، فالمفعول الثاني محذوفٌ ثقةً بما مرّ، أي: وجعل الشهرَ الحرامَ ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أيضًا قِيامًا لهم. والمراد بـ﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ ذَوَاتُ القلائد، وهي البُدْنُ، خُصّت بالذكر لأنّ الثواب فيها أكثَرُ، وبهاءَ الحَجّ بها أظهَرُ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجعل المذكور خاصّةً، أو مع ما ذُكر مِن الأمر بحِفظ حُرمة الإحرام وغيرِه. ومحلُّه النصبُ بفعل مقدَّر يدلّ عليه السياقُ، وهو العامل في "اللام" بعده، أي: شرَعَ ذلك ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ فإنّ تشريع هذه الشرائع المستَتبِعةِ لدفع المضارّ الدينيّة والدنيَويّةِ قبل وقوعها وجلبِ المنافع الأُولَوِيّة[٥] والأُخرَويّةِ مِن أوضحِ الدلائل[٦]

---

١ أخرجه الطبري في جامع البيان، ٥/٩، عنه بلفظ: «إنّما سُمّيت الكعبة لأنّها مربّعة». وذكره عنه الواحدي في التفسير البسيط، ٥٣٤/٧، بلفظ: «سُمّي البيت كعبةً لتربيعها».

٢ س: عطف على بيان.

٣ ط س: التجارة. | كشط المصنّف "التاء" في "التجارة"، فبقي "التجّار". لعلّه بعد نسخ ط س.

٤ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٧، ٢٥٥-٢٥٦.

٥ كذا ضبط حركتها المصنّف.

٦ السياق: فإنّ تشريع هذه الشرائع... مِن أوضح الدلائل...

على حكمة الشارع وعدمِ خروج شيءٍ مِن علمه المحيط.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعميمٌ إثرَ تخصيص للتأكيد. ويجوز أن يُراد بـ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الأعيانُ الموجودةُ فيهما، وبـ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ الأمورُ المتعلِّقةُ بتلك الموجودات مِن العوارض والأحوالِ التي هي مِن قبيل المعاني.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨﴾

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وعيدٌ لمَن انتهك مَحارِمَه أو أصَرَّ على ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعدٌ لمَن حافَظَ على مُراعاة حُرماتِه تعالى أو أقلع عن الانتهاك بعد تَعاطيه. ووجهُ تقديم الوعيد ظاهرٌ.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝٩٩﴾

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أُمِر به، أي: الرسولُ قد أتى بما وجب عليه مِن التبليغ بما لا مزيدَ عليه، وقامت عليكم الحُجّةُ ولزِمتْكم الطاعةُ، فلا عُذرَ لكم مِن بعدُ في التفريط. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾؛ فيؤاخذكم بذلك نقيرًا وقِطْمِيرًا.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠٠﴾

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ حكمٌ عامٌّ في نفي المُساواة عند الله تعالى بين الرديءِ مِن الأشخاص والأعمالِ والأموالِ وبين جَيّدِها. قُصد به الترغيبُ في جَيّد كلٍّ منها / والتحذيرُ عن رديئها، وإن كان سبب النزول الحُطَيم[١] شُريح بن ضبعةَ البكري الذي مرّت قصّتُه في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾... إلخ [المائدة، ٥/٢]. [١٧١و]

---

[١] م ط س - الحُطيم ["صح" في هامش م]. | ولعلّ التصحيحَ وقع بعد نَسْخ ط س. وفي أكثر المصادر: "الحُطَم" بدل "الحُطَيم" و"الضبيعة" بَدَلَ "الضبعة" كما سبق إليه الإشارة في هامش تفسير الآية الثانية مِن سورة المائدة.

وقيل: نزل في رجلٍ سأل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الخمر كانت تجارتي، وإنّي اعتقدتُ مِن بَيعها مالًا، فهل ينفعُنِي مِن ذلك المال إن عمِلتُ فيه بطاعة الله تعالى؟»، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إن أنفقْتَه في حَجٍّ أو جهادٍ أو صَدَقةٍ لم يعدِل جَناحَ بَعُوضةٍ، إنّ الله لا يقبَل إلّا الطيِّبَ».[١] وقال عطاء والحسن[٢] رحمهما الله: «﴿ٱلْخَبِيثُ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: الحرامُ والحلالُ».[٣]

وتقديم ﴿ٱلْخَبِيثُ﴾ في الذكر للإشعار مِن أوّل الأمر بأنّ القصور الذي يُنبِئ عنه عدمُ الاستواء فيه، لا في مقابِله؛[٤] فإنّ مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوِتَين زيادةً ونُقصانًا، وإن جاز اعتباره بحسَب زيادة الزائد، لكنّ المتبادر اعتبارُه بحسَب قصور القاصر، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام، ٥٠/٦؛ الرعد، ١٦/١٣]، إلى غير ذلك. وأمّا قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر، ٩/٣٩]، فلعلّ تقديمَ الفاضل فيه لِما أنّ صِلته ملكةٌ لصلة المفضول.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ أي: وإن سَرَّكَ كثرتُه. والخطاب لكلّ واحد مِن الذين أُمر النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بخطابهم.

و"الواو" لعطف الشرطيّة على مِثلها المقدَّر،[٥] أي: لو لم تُعجِبك كثرةُ الخبيث، ولو أعجبَتْك. وكلتاهما في موقِع الحال مِن فاعل ﴿لَا يَسْتَوِى﴾، أي: لا يستوِيانِ كائنَين على كلّ حال مفروضٍ، كما في قولك: "أَحسِنْ إلى فلان وإن أساء إليك"، أي: أحسِنْ إليه إن لم يُسِئْ إليك وإن أساء إليك، أي: كائنًا على كلّ حال مفروض. وقد حُذفت الأُولى حذفًا مطَّرِدًا لدلالة الثانية عليها دلالةً واضحةً؛ فإنّ الشيء إذا تحقَّق مع المُعارِض فلَأَنْ يتحقَّقَ بدونه أَولى. وعلى هذا السرّ يدُور ما في "لو" و"إنْ" الوصليَّتَين مِن المبالغة والتأكيد. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف في الجملتين لدلالة ما قبلهما عليه. وسيأتي تمامُ تحقيقه في مواقِعَ عديدةٍ بإذن الله عزّ وجلّ.

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٣٣/٢. ونحوه في أسباب النزول للواحدي، ص ٢١٣.
٢ أي: الحسن البصري.
٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٣٣/٢.
٤ أي: بأنّ القصور فيه، لا في مقابِله.
٥ وفي هامش م: وقيل: للحال، وقد مرّ.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: في تَحرّي الخبيث وإن كثُرَ، وآثِروا عليه الطيِّبَ وإن قَلَّ؛ فإنّ مدار الاعتبار هو الجَودة والرداءة، لا الكثرةُ والقِلّةُ، فالمحمودُ القليلُ خيرٌ مِن المذموم / الكثير؛ بل كلّما كثُرَ الخبيثُ كان أخبَثَ. [١٧١ظ] ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين أن تَنالوا الفلاحَ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ هو اسمُ جمعٍ على رأي الخليل وسيبويه وجمهورِ البصريّين، كـ"طَرْفَاءَ" و"قَصْبَاءَ"، أصلُه: "شَيْئاء"، بهمزتين بينهما ألِفٌ، فقُلبت الكلمة بتقديم لامِها على فائِها، فصار وزنُها "لَفْعَاءَ"، ومُنعت الصرفَ لألِفِ التأنيث الممدودةِ.

وقيل:[١] هو جمعُ "شَيْءٍ" على أنّه مخفَّف مِن "شَيِّئٍ"، كـ"هَيْنٍ" مخفَّفٍ مِن "هَيِّنٍ"، والأصل: "أَشْيِئَاءُ"، كـ"أَهْوِنَاءَ" بزِنَةِ "أَفْعِلَاءَ"، فاجتمعتْ هَمْزَتانِ: لامُ الكلمة والتي للتأنيث، إذ الألِفُ كالهمزة، فخُفِّفت الكلمة بأنْ قُلبت الهمزةُ الأُولى ياءً لانكسار ما قبلها، فصارت "أَشْيِيَاءَ"، فاجتمعت يَاءَانِ أُولَاهما عينُ الكلمة، فحُذفت تخفيفًا، فصارت "أَشْيَاءَ"، ووزنُها[٢] "أَفْلَاءُ"، ومُنِعت الصرفَ لألِف التأنيث. وقيل: إنّما حُذفت مِن "أَشْيِيَاءَ" الياءُ المنقلِبةُ مِن الهمزة التي هي لامُ الكلمة، وفُتحت الياءُ المكسورةُ لتَسلَمَ ألِفُ الجمع، فوزنها "أَفْعَاءُ".

وقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ صفة لـ﴿أَشْيَآءَ﴾ داعيةٌ إلى الانتهاء عن السؤال عنها. وحيث كانت المَساءةُ في هذه الشرطيّة معلَّقةً بإبدائها لا بالسؤال عنها، عُقّبت بشرطيّةٍ أخرى ناطقةٍ باستلزام السؤال عنها لإبدائها الموجِبِ للمحذور قطعًا، فقيل: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: تلك الأشياء الموجِبة للمَساءة بالوحي، كما يُنبِئ عنه تقييدُ السؤال بحينِ التنزيل.

---

[١] وفي هامش م: هو رأي الفرّاء. | انظر: معاني القرآن للفرّاء، ١/٣٢١.

[٢] ط س: فوزنها.

والمراد بها ما يشُقّ عليهم ويغُمّهم مِن التكاليف الصعبة التي لا يُطيقون بها، والأسرارِ الخفيّة التي يفتضِحون بظهورها، ونحوُ ذلك ممّا لا خيرَ فيه. فكما أنّ السؤال عن الأمور الواقعة مستَتبِعٌ لإبدائها، كذلك السؤالُ عن تلك التكاليف مستَتبِعٌ لإيجابها[١] عليهم بطريق التشديد، لإساءتهم الأدَبَ، واجترائِهم على المسألة والمراجعةِ، وتجاوُزِهم عمّا يَليق بشأنهم مِن الاستسلام لأمر الله عزّ وجلّ مِن غير بحثٍ فيه ولا تعرّضٍ لكيفيّته وكمّيّته، أي: لا تُكثِروا مُساءَلةَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا لا يَعنِيكم مِن نحوِ تكاليفَ شاقّةٍ عليكم، إن أفتَاكم / بها وكلّفَكم إيّاها حسبما أُوحِيَ إليه لم تُطيقوا بها، ونحوِ[٢] بعضِ أمورٍ مستورةٍ تكرَهون بُروزَها. [١٧٢و]

وذلك مِثلُ ما رُوي عن عليّ كرّم الله تعالى[٣] وجهَه أنّه قال: خَطَبَنا رسولُ الله عليه السلام، فحَمِد اللهَ وأثنى عليه، ثمّ قال: «إنّ الله تعالى كتب عليكم الحَجَّ»، فقام رجل مِن بني أسدٍ يُقال لهُ: عُكّاشةُ بنُ مِحصَن[٤] -وقيل: هو سُراقة بن مالك-[٥] فقال: «أفِي كلِّ عامٍ يا رسولَ الله؟»، فأعرَضَ عنه حتّى أعاد مسألتَه ثلاثَ مرّاتٍ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:[٦] «وَيْحَكَ! وما يُؤمِنُك أن أقول "نَعَمْ"؟ واللهِ لو قلتُ "نَعَمْ" لَوجبتْ، ولو وجبتْ ما استطعتم،

---

١ وفي هامش م ط: وهو المَعنيّ بإبدائها كما سيجيء. «منه». وهو لم يظهر في هامش م بسبب سوء تصوير الورقة.

٢ عطفٌ على "مِن نحوِ".

٣ س - تعالى.

٤ هو عُكّاشة بن مِحصَن بن حُرثان بن قيس الأسدي، أبو مِحصَن. مِن سادات الصحابة وفضلائهم. هاجر إلى المدينة. وشهد بدرًا، وأُبليَ فيها بلاءً حسنًا، وانكسر سيفه، فأعطاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عُرجونًا أو عُودًا، فصار بيده سيفًا يومئذ. وشهد أحدًا والخندق وسائرَ المشاهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وبشّره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه ممّن يدخل الجنّة بغير حساب. وقُتل شهيدًا في الردّة في خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، قتله طُليحة بن خُويلد الأسدي الذي ادّعى النبوّة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/٩٢-٩٣؛ والاستيعاب للنمري، ٣/١٠٨٠-١٠٨١.

٥ هو سُراقة بن مالك بن جُعْشُم الكِناني المُدلِجي، أبو سفيان (ت. ٢٤هـ/٦٤٥م). صحابيّ. كان في الجاهليّة قائفًا أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين خرج إلى الغار مع أبي بكر. وأسلم بعد غزوة الطائف. روى عنه مِن الصحابة ابن عبّاس وجابر، ومِن التابعين سعيد بن المسيّب وابنه محمّد بن سُراقة. انظر: الاستيعاب للنّمري، ٢/٥٨١-٥٨٢؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٢/٤١٢-٤١٤.

٦ س: عليه السلام.

ولو تركتم لَكَفرتم؛ فاترُكونِي ما تركتُكم، فإنّما هلَكَ مَن كان قبلَكم بكثرة سؤالهم واختلافِهم على أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بأمرٍ فخُذُوا منه ما استطعتم، وإذا نهَيْتُكم عن شيءٍ فاجتَنِبُوه».[١]

ومِثلُ ما رُوي عن أنسٍ وأبي هريرةَ رضي الله عنهما أنّه سأل الناس رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم عن أشياءَ حتّى أحفَوْهُ في المسألة، فقام عليه السلام مغضبًا خطيبًا، فحَمِد اللهَ تعالى وأثنى عليه، وقال: «سَلُونِي، فوَاللهِ لا تسألوني عن شيءٍ ما دُمتُ في مقامي هذا إلّا بيّنْتُه لكم»، فأشفق أصحابُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يكون بين يدَيْ أمرٍ قد حضر. قال أنسٌ رضي الله عنه: فجعلتُ ألتفِتُ يمينًا وشمالًا، فلا أجِدُ رَجلًا إلّا وهو لافٌّ رأسَه في ثَوبه يَبكي، فقام رجل مِن قريشٍ مِن بني سَهْمٍ يُقال له: عبدُ الله بنُ حُذافةَ،[٢] وكان إذا لَاحَى الرجالَ يُدعى إلى غير أبيه، وقال: «يا نبيَّ الله، مَن أبي؟»، فقال عليه السلام: «أبوك حذافة بنُ قيسٍ الزهري»، وقام آخَرُ وقال: «أين أبي؟» قال عليه السلام: «في النار»، ثمّ قام عمرُ رضي الله عنه فقال: «رَضِينَا بالله تعالى ربًّا، وبالإسلام دِينًا، وبمحمّدٍ رسولًا نبيًّا، نعُوذ بالله تعالى مِن الفِتَنِ، إنّا حديثُو عهدٍ بجاهليّةٍ وشركٍ، فاعْفُ عنّا يا رسولَ الله»، فسكن غضبُه صلّى الله عليه وسلّم.[٣]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٦٨٣/١، بدون صدر الرواية. وقال ابن حجر في الكافي الشاف، ص ٥٩ (٤٨٠): «هذا السياق لم أجده لا عن سُراقة ولا عن عُكّاشة. فأمّا سُراقة، فرَوى مسلم مِن حديث جابر الطويلِ في صِفة الحجّ، فقال سُراقة بن مالك بن جعشم: يا رسولَ الله، لِعَامنا هذا، أم للأبد؟ قلتُ: وهو عند البخاري أيضًا مِن وجه آخَرَ عن جابر. وللنسائي وابن ماجةَ مِن حديث سُراقة بن مالك نفسه أنّه قال للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "يا رسولَ الله، عُمرتُنا هذه لِعَامنا، أم للأبد؟" فقال: "لا، بل للأبد، دخلت العُمرة في الحجّ إلى يوم القيامة"». أمّا عُكّاشة، فهو فيما رُوي عن عليّ في الكشف والبيان للثعلبي، ١١٤/٤، وعن أبي هريرة في جامع البيان للطبري، ١٩/٩.

[٢] هو عبد الله بن حُذافة بن قيس بن عَديّ القُرَشي السَّهمي، أبو حُذافة (ت. ٣٥هـ/٦٥٥-٦٥٦م). رسول رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم إلى كِسرى بكتاب منه صلّى الله عليه وسلّم. أسلم قديمًا، وصحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرةَ الثانية مع أخيه قيس بن حُذافة. وأسرّه الروم في أيّام عمر، ثمّ أطلقوه. وشهد فتح مصر، وتُوفّي بها في أيّام عثمان. انظر: الاستيعاب للنَّمري، ٨٨٨/٣-٨٩١؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٢١٣/٣-٢١٤.

[٣] هو مع اختلاف بالزيادة في الكشف والبيان للثعلبي، ١١٣/٤. وأخرج البخاري بعضَه في صحيحه، ٩٥/٩ (٧٢٩٤)؛ ٥٤/٦ (٤٦٢١)؛ ومسلم في صحيحه، ١٨٣٢/٤ (٢٣٥٩)، مِن حديث أنس رضي الله عنه.

/ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَا﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان أنّ نَهْيَهم عنها لم يكن لمجرَّد صِيانتهم عن المَساءة؛ بل لأنّها في نفسها معصيةٌ مستتبِعةٌ للمؤاخذة، وقد عَفَا عنها. وفيه مِن حَثّهم على الجِدّ في الانتهاء عنها ما لا يخفى. وضمير ﴿عَنۡهَا﴾ لـ"المسألة" المدلولِ عليها بـ﴿لَا تَسۡـَٔلُوا﴾، أي: عَفَا الله تعالى عن مسائلكم السالفة، حيث لم يفرِض عليكم الحَجَّ في كلّ عامٍ جزاءً بمسألتكم، وتجاوَزَ عن عقوبتكم الأخرَوِيّةِ بسائر مسائلكم؛ فلا تعُودُوا إلى مِثلها. [١٧٢ظ]

وأمّا جعلُه صفةً أخرى لـ﴿أَشۡيَآءَ﴾ على أنّ الضمير لها، بمعنى: "لا تسألوا عن أشياءَ، عَفَا الله عنها ولم يكلِّفْكم إيّاها"، فممّا لا سبيلَ إليه أصلًا، لاقتضائِه أن يكون الحَجُّ قد فُرض أوّلًا في كلّ عامٍ، ثمّ نُسِخ بطريق العَفْوِ، وأن يكون ذلك معلومًا للمخاطَبين ضرورةَ أنّ حقّ الوصف أن يكون معلومَ الثبوت للموصوف عند المخاطَب قبل جعلِه وصفًا له؛ وكِلاهما ضروريُّ الانتفاء قطعًا، على أنّه يستدعي اختصاصَ النهي بمسألة الحَجّ ونحوِها إن سُلِّم وقوعُها، مع أنّ النظم الكريم صريحٌ في أنّه مسوقٌ للنهي عن السؤال عن الأشياء التي يسُوءُهم إبداؤُها، سواء كانت مِن قبيل الأحكام والتكاليف الموجِبة لِمَساءتهم بإنشائها وإيجابها بسبب السؤال عقوبةً وتشديدًا، كمسألة الحَجّ لولا عَفْوُه تعالى عنها، أو مِن قبيل الأمور الواقعة قبلَ السؤال الموجِبةِ للمَساءة بالإخبار بها، كمسألة مَن قال: «أين أبي؟».

إن قلتَ: تلك الأشياءُ غيرُ موجِبةٍ للمَساءة البتّةَ، بل هي محتمِلة لإيجاب المَسَرّة أيضًا؛ لأنّ إيجابها للأُولى إن كان مِن حيث وجودُها، فهي مِن حيث عدمُها موجِبةٌ للأخرى قطعًا، وليست إحدى الحيثيّتين محقَّقةً عند السائل، وإنّما غرضُه مِن السؤال ظهورُها كيف كانت، بل ظهورُها بحيثيّة إيجابها للمَسرّة؛ فلِمَ عُبّر عنها بحيثيّة إيجابها للمَساءة؟ **قلتُ**: لتحقيق المَنهيّ عنه -كما ستعرِفه- مع ما فيه مِن تأكيد النهي وتشديدِه؛ / لأنّ تلك الحيثيّة هي الموجِبةُ للانتهاء والانزجار، لا حيثيّةُ إيجابها للمَسرّة، ولا حيثيّةُ تردّدِها بين الإيجابَين. [١٧٣و]

إن قيل: الشرطيّة الثانية ناطقةٌ بأنّ السؤال عن تلك الأشياء الموجِبةِ للمَساءة مستلزِمٌ لإبدائها البتّةَ كما مرّ؛ فلِمَ تخلَّفَ الإبداءُ عن السؤال في مسألة الحَجّ،

حيث لم يُفرَض في كلّ عامٍ؟ قلنا: لوقوع السؤال قبل ورود النهي. وما ذُكر في الشرطيّة إنّما هو السؤال الواقعُ بعد وروده، إذ هو الموجِبُ للتغليظ والتشديد؛ ولا تخلُّفَ فيه.

إن قيل: ما ذكرتَه إنّما يتمشّى فيما إذا كان السؤال عن الأمور المتردِّدةِ بين الوقوع وعدمِه كما ذُكر مِن التكاليف الشاقّةِ، وأمّا إذا كان عن الأمور الواقعة قبله، فلا يكادُ يتسنّى؛ لأنّ ما يتعلّق به الإبداءُ هو الذي وقع في نفس الأمر، ولا مَرَدَّ له، سواء كان السؤالُ قبل النهي أو بعدَه، وقد يكون الواقع ما يوجِب المَسَرّةَ كما في مسألة عبد الله بنِ حُذافةَ، فيكون هو الذي يتعلّق به الإبداءُ، لا غيرُه؛ فيتعيّنُ التخلّفُ حتمًا. قلنا: لا احتمالَ للتخلّف فضلًا عن التعيُّن؛ فإنّ المَنهيّ عنه[1] في الحقيقة إنّما هو السؤالُ عن الأشياء الموجِبةِ للمَساءة الواقعةِ في نفس الأمر قبلَ السؤال، كسؤال مَن قال: «أين أبي؟»؛ لا عمّا يعُمُّها وغيرَها ممّا ليس بواقعٍ، لكنّه محتمِلٌ للوقوع عند المكلّفين حتّى يلزَمَ التخلّفُ في صورةِ عدم الوقوع.

وجملة الكلام أنّ مدلول النظم الكريم بطريق العبارة إنّما هو النهْيُ عن السؤال عن الأشياء التي يوجِبُ إبداؤُها المَساءةَ البتّةَ، إمّا بأنْ يكون تلك الأشياءُ بعَرَضيّة الوقوع، فتُبدَى عند السؤال بطريق الإنشاء عقوبةً وتشديدًا، كما في صورة كونها مِن قبيل التكاليف الشاقّة، وإمّا بأنْ تكون واقعةً في نفس الأمر قبلَ السؤال، فتُبدَى عنده بطريق الإخبار بها؛ / فالتخلّفُ ممتنِعٌ في الصورتين [١٧٣ظ] معًا، ومَنشَأ توهُّمِه[2] عدمُ الفرق بين المَنهيّ عنه وبين غيرِه بناءً على عدم امتيازِ ما هو موجود أو بعَرَضيّة الوجود[3] مِن تلك الأشياء في نفس الأمر وما ليس كذلك عند المكلّفين، وملاحظتِهم[4] للكلّ باحتمال الوجود والعدم. وفائدة هذا الإبهام الانتهاءُ عن السؤال عن تلك الأشياء على الإطلاق حِذارَ إبداءِ المكروه.

---

١ وفي هامش م: أي: في صورة السؤال عن الأمور الواقعة قبله. «منه».

٢ أي: توهُّم التخلُّف.

٣ م ط س - أو بعَرَضية الوجود ["صح" في هامش م].

٤ وفي هامش م: عطفٌ على "عدم امتياز"... إلخ. «منه».

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ اعتراض تذييليّ مقرِّرٌ لعَفْوِه تعالى، أي: مبالِغٌ في مغفرة الذنوب والإغضاءِ عن المعاصي؛ ولذلك عَفَا عنكم ولم يؤاخِذْكم بعقوبة ما فرَطَ منكم.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ۝١٠٢﴾

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ أي: سألوا هذه المسألةَ، لكنْ لا عينَها، بل مِثلَها في كونها محظورةً ومستتبِعةً للوَبال. وعدمُ التصريح بـ"المِثل" للمبالغة في التحذير. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿سَأَلَهَا﴾. ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا﴾ أي: بسببها أو بمرجوعها. ﴿كَٰفِرِينَ﴾ فإنّ بني إسرائيلَ كانوا يستَفْتُون أنبياءَهم في أشياءَ، فإذا أُمروا بها تركوها، فهلكوا.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٣﴾

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ردٌّ وإبطالٌ لِما ابتدعه أهلُ الجاهليّة؛ حيث كانوا إذا نُتِجَت[١] الناقةُ خمسةَ أبطُنٍ آخِرُها ذَكَرٌ بَحَرُوا أُذُنَها، أي: شَقُّوها، وحرَّموا ركوبَها ودَرَّها، ولا تُطرَد عن ماءٍ ولا مَرعًى. وكان يقول الرجل: "إذا قدِمتُ مِن سَفَري أو برِئتُ مِن مَرَضي فنَاقَتِي سائبةٌ"، وجعَلَها كالبَحيرة في تحريم الانتفاع بها.

وقيل: كان الرجل إذا أعتَقَ عبدًا قال: "هو سائبةٌ"، فلا عقلَ بينهما ولا ميراثَ. وإذا ولَدت الشاةُ أُنثى فهي لهم، وإن ولَدتْ ذَكَرًا فهو لآلِهَتِهم، فإن ولَدتْ ذَكَرًا[٢] وأُنثى قالوا: "وصَلَتْ أخاها"، فلم يذبَحوا الذَّكَرَ لآلِهَتِهم. وإذا نُتِجت مِن صُلب الفحل عشرةُ أبطُنٍ قالوا: "قد حَمَى ظهرَه"، / فلا يُركَب، ولا يُحمَل عليه، ولا يُمنَع مِن ماءٍ ولا مَرعًى. [١٧٤و]

ومعنى ﴿مَا جَعَلَ﴾: ما شرَع وما وضع؛ ولذلك عُدِّيَ إلى مفعول واحد هو ﴿بَحِيرَةٍ﴾ وما عُطف عليها، و﴿مِنۢ﴾ مزيدةٌ لتأكيد النفي، فإنّ الجعلَ التكوينيّ

---

١ كذا ضبط حركتها المصنّف.

٢ س: ذكرت.

كما يجيء تارةً متعَدّيًا إلى مفعولَين وأخرى إلى واحدٍ، كذلك الجعلُ التشريعيُّ يجيء مرّةً متعَدّيًا إلى مفعولَين كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة، ٩٧/٥]، وأخرى إلى واحدٍ كما في الآية الكريمة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون ويقولون: "اللهُ أمَرَنا بهذا"، وإمامُهم عمرو بنُ لُحَيّ؛[١] فإنّه أوّلُ مَن فعل هذه الأفاعيل الباطلة. هذا شأنُ رُؤَسائهم وكُبَرائهم. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ وهُم أراذِلُهم الذين يتّبِعونهم مِن معاصرِي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٢] كما يشهَد به سياقُ النظم الكريم. ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ أنّه افتراء باطلٌ حتّى يخالِفوهم ويهتدوا إلى الحقّ بأنفُسِهم، فيبقَوْن في أسْرِ التقليد. وهذا بيانٌ لقصور عقولهم وعجزِهم عن الاهتداء بأنفُسِهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: للذين عُبّر عنهم بـ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾،[٣] على سبيل الهداية والإرشاد: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِن الكتاب المبيِّن للحلال والحرام، ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ الذي أُنزِلَ هو عليه لتَقِفُوا على حقيقة الحال وتُميّزوا الحرامَ مِن الحلال، ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ بيان لعنادهم واستعصائِهم على الهادي إلى الحقّ وانقيادِهم للداعي إلى الضلال.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ قيل: "الواو" للحال، دخلت عليها الهمزةُ للإنكار والتعجيب، أي: أحَسْبُهم ذلك ولو كان آباؤهم جَهَلةً ضالّينَ؟ وقيل: للعطف على شرطيّةٍ أخرى مقدَّرةٍ قبلها، وهو الأظهَرُ، والتقدير:

---

١ هو عمرو بن لُحَيّ بن حارثة بن عمرو ابن عامر الأزدي، أبو ثمامة. مِن قحطان. وفي نسبه خلاف شديد. وفي العلماء مَن يجزم بأنّه مُضَريّ مِن عدنان. وفيهم مَن يسمّيه: عمرو بن ربيعة، ويجعل لُحَيًّا لقبًا لربيعة. وهو أوّل مَن غيّر دينَ إسماعيل ودعَا العرب إلى عبادة الأوثان. انظر: **جمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ٢٣٠/١؛ **ووفيات الأعيان** لابن خلّكان، ١٠٧/٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٨٤/٥.

٢ س: عليه السلام.

٣ في الآية السابقة.

أحَسْبُهم ذلك -أو: أيقولون هذا القولَ- لو لم يكن آباؤهم لا يعلمون شيئًا مِن الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا لا يعلمون... إلخ.

/ وكِلتاهما في موقِع الحال، أي: أحَسْبُهم ما وجدوا عليه آباءَهم كائنين على كلّ حال مفروض؟ وقد حُذفت الأُولى في الباب حذفًا مطَّرِدًا لدلالة الثانية عليها دلالةً واضحةً. كيف لا، وإنّ الشيء إذا تحقَّق عند المانع، فلَأَنْ يتحقَّقَ عند عدمه أَولى، كما في قولك: "أَحسِنْ إلى فلانٍ وإن أساء إليك"، أي: أحسِنْ إليه إن لم يُسِئْ إليك وإن أساء، أي: أحسِنْ إليه كائنًا على كلّ حال مفروض، وقد حُذفت الأُولى لدلالة الثانية عليها دلالةً ظاهرةً؛ إذ الإحسانُ حيث أُمِر به عند المانع، فلَأَنْ يُؤمَرَ به عند عدمه أَولى. وعلى هذا السرّ يدُور ما في "إنْ" و"لو" الوَصْليتَين مِن المبالغة والتأكيد. [١٧٤ظ]

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ لدلالة ما سبق عليه، أي: لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون، حَسْبُهم ذلك؟ أو يقولون ذلك؟ وما في ﴿لَوْ﴾ مِن معنى الامتناع والاستبعادِ إنّما هو بالنظر إلى زعمهم، لا إلى نفس الأمر. وفائدتُه المبالغةُ في الإنكار والتعجيبِ ببَيان أنّ ما قالوه موجِبٌ للإنكار والتعجّب؛ إذا كان كونُ آبائهم جَهَلةً ضالّينَ في حَيِّز الاحتمال البعيد، فكيف إذا كان ذلك واقعًا لا ريبَ فيه؟

وقيل: مَآلُ الوجهَين واحدٌ؛ لأنّ الجملة المقدَّرة حال، فكذا ما عُطف عليها. وأنت خبيرٌ بأنّ الحال على الوجه الأخير مجموعُ الجملتين لا الأخيرةُ فقط، وأنّ "الواو" للعطف لا للحال. وقد مرّ التحقيق في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة، ٢/١٧٠]، فتدبَّرْ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: الزَمُوا أمرَ أنفُسِكم وإصلاحَها. وقُرِئ بالرفع[١] على الابتداء، أي: واجبةٌ عليكم أنفُسُكم.

---

١ هي قراءة شاذّة، رواها الأصمعي عن نافع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٢. وهي غير القراءة المشهورة لنافع.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ إمّا مجزوم على أنّه جواب للأمر، أو نهيٌ مؤكِّد له، وإنّما ضُمَّت الراءُ إتباعًا لضمّة الضاد المنقولةِ إليها مِن الراء المدغَمةِ، إذ الأصلُ: "لا يضرُرْكم"، ويؤيّده القراءةُ بفتح الراء،[1] وقراءةُ مَن قرأ "لَا يَضِرْكُمْ" بكسر الضاد وضمِّها،[2] مِن "ضارَه يَضِيرُه، ويضُوره"، / وإمّا مرفوع[3] على أنّه كلام مستأنَف في موقِع التعليل لِما قبله، ويعضُده قراءةُ مَن قرأ "لَا يَضِيرُكُمْ"،[4] أي: لا يضُرُّكم ضلالُ مَن ضلَّ إذا كنتم مهتدين. [١٧٥و]

ولا يُتوهَّمَنَّ أنّ فيه رُخصةً في ترك الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكَر مع استطاعتهما. كيف لا، ومِن جملة الاهتداء أن يُنكَر على المنكَر حسبما يَفِي به الطاقةُ. قال صلّى الله عليه وسلّم: «مَن رأى منكم منكَرًا فاستطاع أن يغيِّره فليُغيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانِه، فإن لم يستطع فبقلبِه».[5]

وقد رُوي أنّ الصدّيقَ رضي الله عنه قال يومًا على المِنبَر: يا أيُّها الناسُ، إنكم تقرءُون هذه الآيةَ، وتضَعونها غيرَ موضِعها، ولا تدْرُون ما هي، وإنّي سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إنّ الناس إذا رأَوْا منكَرًا فلم يغيِّروا عمَّهم الله بعقاب؛ فأْمُرُوا بالمعروف وانْهَوْا عن المنكَر، ولا تغتَرُّوا بقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾... إلخ، فيقولَ أحدُكم: "عليَّ نفسي"، واللهِ لَتأْمُرُنَّ بالمعروف وتنهَوُنَّ عن المنكَر، أو لَيستعمِلَنَّ الله عليكم شِرارَكم فيسُومُونكم سُوءَ العذاب، ثمّ لَيَدْعُنَّ خِيارُكم فلا يُستجاب لهم».[6]

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها ابن عادل عن أبي البقاء في اللباب، ٥٥٩/٧. وهو أبو البقاء العُكبري، والقراءة في كتابه الإملاء، ٢٢٩/١.

[2] كلاهما قراءتان شاذّتان، قرأ بالأولى إبراهيم، وبالثانية الحسن. المحتسَب لابن جنّي، ٢٢٠/١.

[3] السياق: إمّا مجزوم... وإمّا مرفوع...

[4] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٦٨٦/١، ونسبها إلى أبي حياة.

[5] هو مع اختلاف يسير بالنقص والزيادة في صحيح مسلم، ٦٩/١ (٤٩)؛ ومسند أحمد، ٦٧/١٨ (١١٤٩٢)؛ وسنن ابن ماجة، ١٤٥/٥ (٤٠١٣)؛ وسنن أبي داود، ٣٩٥/٦ (٤٣٤٠).

[6] هذه الرواية جمعت حديثَين: مِن قوله: "يا أيُّها الناسُ" إلى قوله: "وانْهَوْا عن المنكَر"، أخرجه أحمد في مسنده، ١٩٧/١ (١٦)؛ وابن ماجة في سننه، ١٤٠/٥ (٤٠٠٦)؛ وأبو داود في سننه، ٣٩٣/٦-٣٩٤ (٤٣٣٨)، كلّها مع اختلاف بالنقص والزيادة. ومِن قوله: "ولا تغتَرُّوا" إلى آخِره، أخرجه الطبري في جامع البيان، ٥١/٩-٥٢.

وعنه صلّى الله عليه وسلّم: «ما مِن قومٍ عُمِل فيهم منكَرٌ أو سُنَّ فيهم قبيحٌ فلم يغيّروه ولم يُنكِروه إلّا وحقٌّ على الله تعالى أن يعُمَّهم بالعقوبة جميعًا، ثمّ لا يُستجاب لهم».[1]

والآية نزلت لمّا كان المؤمنون يتحسَّرون على الكَفَرة، وكانوا يتمنَّوْنَ إيمانَهم وهم مِن الضلال بحيث لا يكادون يرعَوُون عنه بالأمر والنهي.[2] وقيل: كان الرجل إذا أسلَمَ لَامُوهُ وقالوا له: «سفَّهْتَ آباءَك وضلَّلْتَهم»، أي: نسَبْتَهم إلى السَّفاهة والضلال، فنزلت تسليةً له بأنّ / ضلال آبائه لا يضُرّه ولا يَشِينُه.[3] [١٧٥ظ]

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحدٍ سِواه ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعُكم يومَ القيامة ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لا يتخلّف عنه أحد مِن المهتدين وغيرِهم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن أعمال الهداية والضلال. فهو وعدٌ ووعيدٌ للفريقين، وتنبيهٌ على أنّ أحدًا لا يؤاخَذُ بعمل غيره.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان الأحكام المتعلِّقة بأمور دُنياهم إثرَ بيان الأحوال المتعلِّقة بأمور دينهم. وتصديره بحرفَي النداء والتنبيهِ لإظهار كمال العناية بمضمونه.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ بالرفع والإضافةِ إلى الظرف توسُّعًا،

---

[1] لم نجده بهذه الألفاظ. وأخرج أحمد في مسنده، ٥٥٧/٣١-٥٥٨ (١٩٢٣٠)، عن عبيد الله بن جرير، عن أبيه، أنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «ما مِن قوم يُعمَل فيهم بالمعاصي -هم أعزُّ وأكثرُ ممّن يعمله- لم يُغيّروه، إلّا عَمَّهم الله بعقاب». وأخرج نحوَه ابن ماجة في سننه، ١٤٢/٥ (٤٠٠٩)؛ وأبو داود في سننه، ٣٩٥/٦ (٤٣٣٩).

[2] الكشّاف للزمخشري، ٦٨٥/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٧/٢.

[3] جامع البيان للطبري، ٥٣/٩-٥٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٨٦/١؛ ٢٤٩/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٧/٢.

إمّا باعتبار جَرَيانِها بينهم، أو باعتبار تعلّقِها بما يَجري بينهم مِن الخصومات، مبتدأً، وقولُه تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: شارَفَه وظهرتْ علائمُه، ظرفٌ لها، وتقديم المفعول لإفادة كمال تمكُّن الفاعل عند النفس وقتَ وروده عليها، فإنّه أدخَلُ في تهويل[١] أمر الموت، وقولُه تعالى: ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ بدلٌ منه، لا ظرفٌ لـ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ كما تُوُهِّمَ، ولا لـ"حضوره" كما قيل. فإنّ في "الإبدال" تنبيهًا على أنّ الوصيّة مِن المُهِمّات المقرَّرة التي لا ينبغي أن يَتهاون بها المسلمُ ويذهَلَ عنها، وقوله تعالى: ﴿ٱثْنَانِ﴾ خبر للمبتدأ بتقدير المضاف، أي: شهادةُ بينِكم حينئذ شهادةُ اثنين، أو فاعلٌ لـ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ على أنّ خبرها محذوفٌ، أي: فيما نزل عليكم أن يشهد بينكم اثنان.

وقُرئ: "شَهَادَةٌ"[٢] بالرفع والتنوين، والإعرابُ كما سبق. وقُرئ: "شَهَادَةً"[٣] بالنصب والتنوين على أنّ عامِلَها مضمَرٌ، هو العامل في ﴿ٱثْنَانِ﴾ أيضًا، أي: لِيُقِمْ شهادةً بينَكم اثنانِ ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: مِن أقارِبكم؛ لأنّهم أعلَمُ بأحوال الميّت، وأنصَحُ له، وأقرَبُ إلى تحرّي ما هو أصلَحُ له. وقيل: مِن المسلمين. وهما صفتان لـ﴿ٱثْنَانِ﴾.

﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱثْنَانِ﴾، تابعٌ له فيما ذُكر مِن الخبريّة والفاعليّة، أي: أو شهادةُ آخَرين، أو: أن يشهد بينكم آخَران، أو: لِيُقِمْ شهادةً بينكم آخَران. وقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ صفةٌ لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾، / أي: كائنان مِن غيركم، أي: مِن الأجانب، وقيل: مِن أهل الذِّمّة. وقد كان ذلك في بَدء الإسلام لعِزّة وجود المسلمين، لاسيّما في السَّفَر، ثمّ نُسِخ. وعن مكحولٍ[٤] أنّه نسخها قولُه تعالى: [١٧٦و]

---

١ س: تهوين.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج والشعبي والأشهب. **المحتسَب** لابن جنّي، ١/٢٢٠.

٣ قراءة شاذّة، نُسبت إلى الأعرج. **المحتسَب** لابن جنّي، ١/٢٢٠.

٤ هو مكحول بن أبي مسلم شَهْراب بن شاذَل الدمشقي الهُذَلي بالولاء، أبو عبد الله، وقيل: أبو أيوب (ت. ١١٢هـ/٧٣٠م). مِن التابعين، فقيه الشام في عصره، مِن حُفّاظ الحديث. أصله مِن فارس، ومولده بكابل، ترعرع بها وسُبي، وصار مولى لامرأة بمصر مِن هُذَيل، فنُسب إليها، وأُعتقَ وتفقَّهَ، ورحل في طلب الحديث إلى العراق، فالمدينة، وطاف كثيرًا مِن البلدان، واستقرّ في دمشق، وتُوفّي بها. أرسل عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أحاديث. وأرسل عن عدّة مِن الصحابة لم يُدركهم. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥/١٥٥-١٦٠؛ **وفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٥/٢٨١-٢٨٣.

﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق، ٦٥/٢].[١]

﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ مرفوع بمضمَرٍ يفسِّره ما بعده، تقديرُه: إن ضربتم، فلمّا حُذف الفعلُ انفصل الضميرُ، وهذا رأيُ جمهور البصريِّين. وذهب الأخفش والكوفيّون إلى أنّه مبتدأ، بناءً على جواز وقوع المبتدأ بعد "إنْ" الشرطيّة كجواز وقوعه بعد "إذا". فقوله تعالى: ﴿ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ -أي: سافرْتم فيها- لا محلَّ له مِن الإعراب عند الأوّلِين لكونه مفسِّرًا، ومرفوعٌ على الخبريّة عند الباقِينَ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ عطفٌ على الشرط، وجوابُه محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي: إن سافَرتم، فقارَبَكم الأجَلُ حينئذ، وما معكم مِن الأقارب أو مِن أهل الإسلام مَن يتولَّى لأمر الشهادة كما هو الغالب المعتادُ في الأسفار، فلْيشهَدْ آخَرانِ، أو: فاستشْهِدوا آخَرَين، أو فالشاهدانِ آخَرانِ، كذا قيل. والأنسَبُ أن يقدَّر عينُ ما سبق، أي: فآخَرانِ على معنى: شهادةُ بينِكم شهادةُ آخَرَين، أو: فإن يشهَدَ آخَرانِ، على الوجوه المذكورة ثَمَّةَ.

وقوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا عمّا نشأ مِن اشتراط العدالة، كأنّه قيل: فكيف نصنَع إن ارتَبْنا بالشاهدَين؟ فقيل: تحبِسونهما، أي: تقِفونهما وتصبِرونهما للتحليف ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

وقيل: هو صفة لـ﴿ءَاخَرَانِ﴾، والشرطُ بجوابه المحذوف اعتراضٌ، فائدتُه الدلالةُ على أنّ اللائق إشهادُ الأقارب أو أهلِ الإسلام، وأمّا إشهادُ الآخَرِين، فعِند الضرورة المُلجِئةِ إليه. وأنت خبير بأنّه يقتضي اختصاصَ الحبس بالآخَرِين مع شموله للأوّلِين أيضًا قطعًا، / على أنّ اعتبار اتّصافهما بذلك يَأباه مقامُ [١٧٦ظ] الأمر بإشهادهما؛ إذ مَآلُه: "فآخَرانِ شأنُهما الحبسُ والتحليفُ"، وإن أمكن إتمامُ التقريب باعتبار قيد الارتياب بهما كما يُفيده الاعتراضُ الآتي.

والمراد بـ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ صلاةُ العصر. وعدمُ تعيينِها لتعيُّنِها عندهم بالتحليف بعدها؛ لأنّه وقتُ اجتماع الناس وتصادُمِ ملائكة الليل وملائكةِ النهار،

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٨٧/١؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٩٢/٤.

ولأنّ جميع أهل الأديان يعظِّمونه ويجتنبون فيه الحِلفَ الكاذبَ. وقد رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقتئذٍ حلَّفَ مَن حلَّفَ، كما سيأتي.[١] وقيل: بعدَ أيِّ صلاة كانت؛ لأنّها داعية إلى النُّطق بالصِّدق، وناهيةٌ عن الكذب والزُّورِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٤٥].

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ شرطيّةٌ محذوفةُ الجواب لدلالة[٢] ما سبق مِن الحبس والإقسامِ عليه. سِيقَتْ مِن جهته تعالى معترِضةً بين القَسم وجوابِه للتنبيه على اختصاص الحبس والتحليفِ بحال الارتياب، أي: إن ارتاب بهما الوارثُ منكم بخيانةٍ وأخذِ شيءٍ مِن التَّركة، فاحبِسُوهما وحلِّفُوهما بالله.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ جواب للقَسم. وليس هذا مِن قبيل ما اجتمع فيه قَسمٌ وشرطٌ، فاكتُفِيَ بذكر جواب سابقِهما عن جواب الآخَر كما هو الواقع غالبًا؛ فإنّ ذلك إنّما يكون عند سدِّ جواب السابق مَسَدَّ جواب اللاحق لاتّحادِ مضمونهما، كما في قولك: "واللهِ إن أتيتَني لَأُكرِمَنَّك"، ولا ريبَ في استحالة ذلك ههنا؛ لأنّ القَسم وجوابَه كلامُهما،[٣] وقد عرفتَ أنّ الشرط مِن جهته عزّ وعلا.[٤]

و"الاشتراء" هو استبدال السِّلعة بالثَّمَن، أي: أخذُها بدلًا منه، لا بَذْلُه لتحصيلها كما قيل، وإن كان مستلزِمًا له؛ فإنّ المعتبَر في عقد الشِّراء ومفهومِه هو الجلبُ دون السلبِ المعتبَرِ في عقد البيع، ثمّ استُعِير لأخذ شيءٍ / بإزالة ما عنده -عينًا كان أو معنًى- على وجه الرغبة في المأخوذ والإعراضِ عن الزائل، كما هو المعتبَر في المستعار منه، حسبما مرّ تفصيلُه في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة، ٢/١٦، ١٧٥]. [١٧٧و]

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ لـ"الله"، والمعنى: لا نأخذ لأنفسِنا بدلًا مِن الله -أي: مِن حُرمته- عَرَضًا مِن الدنيا بأنْ نَهتِكَها ونُزيلَها بالحِلف الكاذبِ، أي: لا نَحلِف

---

[١] في الآية التالية.
[٢] س: لدلا.
[٣] وفي مطبوعاته: كلاهما.
[٤] س: وجلّ.

بالله كاذبَين لأجل المال. وقيل: الضمير للقَسم، فلا بدَّ مِن تقدير مضافٍ البتّةَ، أي: لا نستبدل بصحّة القَسم بالله -أي: لا نأخذ بدلًا منها- عَرَضًا مِن الدنيا بأنْ نُزيلَ عنه وصفَ الصدق ونَصِفَه بالكذب، أي: لا نَحلِف كاذبَين، كما ذُكر؛ وإلّا فلا سَدادَ للمعنى، سواء أُريدَ به القَسمُ الصادقُ أو الكاذبُ.

أمّا إن أُريدَ به الكاذبُ فلِأنّه يفوّتُ حينئذ ما هو المعتبَر في الاستعارة مِن كون الزائل شيئًا مرغوبًا فيه عند الحالف، كحُرمة اسم الله تعالى ووصفِ الصحّة والصدق في القَسم، ولا ريبَ في أنّ القَسم الكاذبَ ليس كذلك. وأمّا إن أُريدَ به الصادقُ فلِأنّه، وإن أمكن أن يُتوسَّلَ باستعماله إلى عَرَض الدنيا كالقَسم الكاذب، لكنْ لا محذورَ فيه. وأمّا التوسّلُ إليه بترك استعماله فلا إمكانَ له ههنا حتّى يصِحَّ التبرُّؤُ منه. وإنّما يُتوسَّلُ إليه باستعمال القَسم الكاذب، وليس استعمالُه مِن لوازم ترك استعمال الصادق -ضرورةَ جواز تركهما معًا- حتّى يُتصوَّرَ جعلُ ما أُخذ باستعماله مأخوذًا بترك استعمال الصادق كما في صورة تقدير المضاف؛ فإنّ إزالة وصف الصدق عن القَسم مع بقاء الموصوف مستلزِمةٌ لثبوت وصف الكذب له البتّةَ، فتأمَّلْ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المقسَمُ له المدلولُ عليه بفحوَى الكلامِ ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: قريبًا منّا، تأكيدٌ[1] لتبرُّئِهم مِن الحِلف كاذبًا، ومبالغةٌ في التنزّهِ عنه، كأنّهما قالَا: لا نأخذ لأنفُسِنا بدلًا مِن حُرمة اسمه تعالى مالًا ولو انضمَّ إليه رعايةُ جانب الأقرباء؛ فكيف إذا لم يكن كذلك؟ وصيانة أنفُسِهما،[2] وإن كانت أهمَّ مِن رعاية الأقرباء، لكنّها ليست ضميمةً للمال، بل هي راجعة إليه.

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ ثقةً بدلالة ما سبق عليه، أي: لا نشتري به ثَمَنًا. والجملة معطوفة على أخرى مثلِها، كما فُصِّل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾... إلخ [المائدة، ٥/١٠٠].

---

١ السياق: وقوله تعالى... تأكيدٌ...

٢ وفي هامش م: دفعٌ لِما عسى يُتوهَّم مِن أنّه إنْ لم ينضمَّ إليه رعايةُ جانب الأقرباء، فقد انضمَّ إليه ما هو أقوى منها وأدعى إلى الحِلف كاذبًا، وهي صيانةُ حَظِّ أنفُسِهما، فلا يتحقّق ما قصَدَاه مِن المبالغة في التنزّهِ عنه والتبرُّؤِ منه. «منه».

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الشهادةَ التي أمَرَنا الله تعالى بإقامتها، معطوفٌ على ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ﴾، داخلٌ معه في حُكم القَسم. وعن الشعبي أنّه وَقَفَ / على ﴿شَهَٰدَةَ﴾، ثمّ ابتدأ "آللهِ"[1] بالمدّ على حذف حرف القَسم وتعويضِ [١٧٧ظ] حرف الاستفهام منه، وبغير مَدّ، كقولهم: "اللهِ لأفعَلَنَّ".

﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ أي: إن كَتَمناها. وقُرئ: "لَمِلَّاثِمِينَ"[2] بحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على اللام وإدغامِ النون فيها.

﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧﴾

﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ أي: اطُّلِعَ بعد التحليف، ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ حسبما اعترفا به بقولهما: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾،[3] أي: فِعلًا ما يوجِبُ إثمًا مِن تحريفٍ وكَتمٍ بأنْ ظهَرَ بأيديهما شيءٌ مِن التَّرِكة وادَّعَيا استحقاقَهما له بوجه مِن الوجوه، كما وقع في سبب النزول حسبما سيأتي.

﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ أي: رَجلانِ آخَران. وهو مبتدأ، خبرُه: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾. ولا محذورَ في الفصل بالخبر بين المبتدأ وبين وصفِه الذي هو الجارّ والمجرور بعده. أي: يقومانِ مَقامَ اللذَين عُثر على خيانتهما. وليس المرادُ بمَقامهما مقامَ أداء الشهادة التي تولَّيَاها ولم يؤدِّيَاها كما هي؛ بل هو مقام الحبس والتحليف على الوجه المذكور لإظهار الحقّ وإبرازِ كذبهما فيما ادّعَيا مِن استحقاقهما لِما في أيدِيهما.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ﴾ على البناء للفاعل، قراءةُ عليّ وابنِ عبّاس وأُبيّ رضي الله تعالى عنهم،[4] أي: مِن أهل الميّت الذين استحقَّ ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ مِن بينهم،

---

١ هي قراءة شاذّة. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٢١.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٤/٣٩٧؛ وابن عادل في اللباب، ٧/٥٧٧، ونسَبَاها إلى الأعمش وابن مُحيصِن.

٣ في الآية السابقة.

٤ وهي قراءة عاصم في رواية حفص. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٦.

أي: الأقرَبانِ إلى الميّت، الوارثانِ له، الأحَقّانِ بالشهادة، أي: باليمين كما ستعرفه. ومفعول ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ محذوفٌ، أي: استحَقّا عليهم أن يجرِّدوهما للقيام بها؛ لأنّها حقُّهما، ويُظهِروا بهما كذبَ الكاذبَين. وهُما في الحقيقة الآخَرانِ القائمان مَقامَ الأوّلَين على وضع المُظهَر مقامَ المُضمَر.

وقُرئ على البناء للمفعول،[1] وهو الأظهرُ، أي: مِن الذين استُحِقّ عليهم الإثمُ، أي: جُنِيَ عليهم، وهم أهل الميّت وعشيرتُه؛ فـ﴿ٱلْأَوْلَيَانِ﴾ مرفوعٌ على أنّه خبرٌ لمحذوفٍ، كأنّه قيل: ومَن هم؟ فقيل: الأوْلَيَانِ، أو هو بدلٌ مِن الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾ أو مِن ﴿ءَاخَرَانِ﴾، وقد جُوّز ارتفاعه بـ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ على حذف المضاف، أي: استحقّ عليهم انتدابُ الأوْلَيَينِ منهم للشهادة. وقُرئ: "الْأَوَّلِينَ"[2] على أنّه صفة لـ﴿ٱلَّذِينَ﴾... إلخ، مجرورٌ، أو منصوبٌ على المدح، ومعنى الأوّليّة التقدّمُ على الأجانب في الشهادة لكونهم أحقَّ بها. وقُرئ: "الْأَوَّلَيْنِ"[3] على التثنية، وانتصابُه على المدح. وقُرئ: "الْأَوْلَانِ".[4]

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ / عطفٌ على ﴿يَقُومَانِ﴾. ﴿لَشَهَٰدَتُنَا﴾ المراد بـ"الشهادة" اليمينُ كما في قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ [النور، ٢٤/٦]، أي: لَيمينُنا على أنّهما كاذبان فيما ادّعَيَا مِن الاستحقاق مع كونها حقّةً صادقةً في نفسها ﴿أَحَقُّ﴾ بالقبول ﴿مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي: مِن يمينهما مع كونها كاذبةً في نفسها، لِما أنّه قد ظهر للناس استحقاقُهما للإثم، ويمينُنا منزّهةٌ عن الرَّيب والرِّيبةِ؛ فصيغةُ التفضيل -مع أنّه لا حقّيّةَ في يمينهما رأسًا- إنّما هي لإمكان قبولها في الجملة باعتبار احتمال صدقهما في ادّعاء تملّكِهما لِما ظهر في أيدِيهما. [١٧٨و]

﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ عطفٌ على جواب القَسم، أي: ما تجاوَزْنا فيها الحقَّ، أو: ما اعتدَيْنا عليهما بإبطال حقّهما. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئناف مقرِّرٌ لِما قبله،

---

[1] قرأ بها السبعة إلّا عاصمًا في رواية حفص. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٦.

[2] قرأ بها حمزة وخلف ويعقوب وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن سيرين. المحتسَب لابن جنّي، ١/١٦٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والحسن. المحتسَب لابن جنّي، ١/١٦٢.

أي: إنّا إن اعتدَيْنا في يميننا لَمِن الظالمين أنفُسَهم بتعريضها لِسخط الله تعالى وعذابِه بسبب هَتك حُرمة اسم الله تعالى، أو: لَمِن الواضعين الحقَّ في غير موضِعِه.

ومعنى النظم الكريم: أنّ المحتضَرَ ينبغي أن يُشهِد على وصيّتِه عَدْلَينِ مِن ذَوِي نَسَبِه أو دينِه، فإن لم يجدهما بأنْ كان في سفرٍ، فآخَرَين مِن غيرهم، ثمّ إن وقع ارتيابٌ بهما أقسَمَا على أنّهما ما كتَمَا مِن الشهادة ولا مِن التَّرِكة شيئًا بالتغليظ في الوقت، فإن اطُّلِعَ بعد ذلك على كذبهما بأنْ ظهر بأيدِيهما شيءٌ مِن التَّرِكة وادّعَيَا تملُّكَه مِن جهة الميّت، حُلِّف الوَرَثةُ وعُمِل بأيمانهم.

ولعلّ تخصيصَ "الاثنَين" لخصوص الواقعة؛ فإنّه رُوي أنّ تميم بنَ أوسٍ الداريَّ[١] وعَديَّ بنَ[٢] يزيد[٣] خرَجَا إلى الشام للتجارة، وكانَا حينئذ نَصرانيَّين، ومعهما بُدَيلُ بن أبي مريمَ[٤] مَولى عمرو بنِ العاص،[٥] وكان مسلمًا مهاجِرًا، فلمّا قدِمَا الشامَ مرِضَ بُدَيل، فكتب كتابًا فيه جميعُ ما معه، وطرحه في مَتاعه ولم يُخبِرهما بذلك، وأوصى إليهما بأنْ يدفَعَا متاعَه إلى أهله، ومات ففَتَّشَاه

---

١ هو تميم بن أوس بن خارجة الداري، أبو رُقيّة (ت. ٤٠هـ/٦٦١م). صحابيّ. كان نصرانيًّا، وفد على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعه أخوه نعيم بن أوس سنةَ تسع مِن الهجرة، فأسلمَا، وأقطعهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حِبرى وبيت عَيْنون بالشام. وكان التميم يسكن المدينة، ثمّ انتقل منها إلى الشام بعد قتل عثمان رضى الله عنه، فنزل بيت المقدس، وهو أوّل مَن أسرج السراج بالمسجد. وكان كثيرَ التهجّد عابدًا تلّاءً لكتاب الله. حدّث عنه ابن عبّاس وابن موهب عبدُ الله وأنس بن مالك وكثير بن مُرّة وعطاء بن يزيد الليثي وزُرارة بن أوفى وشَهر بن حَوْشب، وآخرون. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٠٨/٧-٤٠٩؛ وسير **أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٤٢/٢-٤٤٨.

٢ س: ابن.

٣ هو في **تفسير السمرقندي**، ٤٤٧/١؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٦٨٧/١؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٨٩/٤: "عَديّ بن زيد". ولم نقف على "عديّ بن يزيد" في المراجع التي بين أيدينا. و"عديّ بن زيد" مختلَف فيه؛ الظاهر أنّه ليس عديّ بن زيد العِبادي التميمي الشاعر الجاهلي، ولا عديّ بن الرّقاع العاملي الدمشقي الشاعر؛ لعلّه عديّ بن زيد الجُذامي. انظر: **الاستيعاب** للنّمري، ١٠٦٠/٣-١٠٦١؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٧/٤، ١١. وهو في **جامع البيان** للطبري، ٨٨/٩-٨٩؛ **والمحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٢٥٠/٢؛ **وتفسير القرطبي**، ٣٤٦/٦: "عَديّ بن بَدّاء"، وهو مختلَف في إسلامه وصحبته. انظر: **أسد الغابة** لابن الأثير، ٥/٤-١٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ١٢٠/٧.

٤ هو مولى عمرو بن العاص. ويقال في اسمه: بُريل، بالراء بدل الدال، ويقال: بُرير، براءَين، وقيل غير ذلك. وقيل: ابن أبي مارية السهمي. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥١٢/١.

٥ سبقت ترجمته.

فوجدَا فيه إناءً مِن فضّةٍ وَزْنُه ثلثُمائةِ مِثقالٍ منقوشًا بالذَّهَب، فغَيَّباه، ودفعَا المتاعَ إلى أهله، فأصابوا فيه الكتابَ فطلبوا منهما الإناءَ، فقالَا: «ما نَدري، إنّما أوصى إلينا بشيءٍ وأمَرَنا أن ندفعه إليكم، ففَعَلْنا، وما لنا بالإناء مِن عِلمٍ»، فرفعوهما إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية [المائدة، ١٠٦/٥]، فاستحلَفَهما بعد صلاة العصر عند المِنبَر بالله الذي لا إلٰه إلّا هو أنّهما لم يَختانَا شيئًا ممّا دفع ولا كتَمَا، فحلَفَا على ذلك، فخلّى صلّى الله عليه وسلّم سبيلَهما، ثمّ إنّ الإناء وُجد بمكّةَ، فقال مَن بيَدِه: «اشتريتُه مِن تميم وعَديّ»،[١] وقيل: لمّا طالت المدّةُ أظهَرَاه، فبلغ ذلك بني سهمٍ، فطلبوه منهما فقالَا: «كُنّا اشترَيناه مِن بُدَيل»، فقالوا: «ألم نقُلْ لكما: هل باعَ صاحبُنا مِن متاعه شيئًا، فقُلْتُمَا: لا؟»، قالَا: «ما كان لنا بيّنةٌ، فكرِهنا أن نُقِرَّ به»، فرفعوهما إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزل قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ الآية، فقام عمرو بنُ العاص والمطَّلِب بنُ أبي رفاعة[٢] السَّهمِيّان، فحلَفَا بالله بعد العصر أنّهما كذبَا وخانَا، فدفعَ الإناء إليهما.[٣] وفي روايةٍ: وإلى أولياء الميّت.[٤]

واعلَمْ أنّهما إن كانا وارثَين لِبُدَيل، فلا نسخَ إلّا في وصف اليَمين، فإنّ الوارث لا يُحلَّف على البَتَات، وإلّا فهو منسوخ.

---

١ هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في سنن الترمذي، ٢٥٨/٥-٢٥٩ (٣٠٥٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٨٨/٩-٨٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١١٨/٤-١١٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٨٧/١. وأخرجه البخاري في صحيحه، ١٣/٤ (٢٧٨٠)؛ وأبو داود في سننه، ٤٥٨/٥-٤٥٩ (٣٦٠٦)، مختصرًا مِن حديث ابن عبّاس.

٢ م ط س: وداعة [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س. | هو في تفسير الرازي، ٤٥٤/١٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦١٠/١: "المطّلب بن أبي رفاعة"، وفي تفسير السمرقندي، ٤٤٧/١؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٨٣/٧؛ واللباب لابن عادل، ٥٨٦/٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٨/٢: "المطّلب بن أبي وداعة". والظاهر أنّه المطّلب بن أبي وداعة (ت. ٥٧هـ/٦٧٦-٦٧٧م). واسم أبي وداعة: الحارث بن صُبيرة بن سُعيد بن سعد بن سَهْم القُرَشي السهمي. أسلم يوم فتح مكّة، ثمّ نزل الكوفة، ثمّ نزل بعد ذلك المدينة، وله بها دار. روى عنه أهل المدينة. انظر: الاستيعاب للنّمري، ١٤٠٢/٣؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٣٨٨/٢-٣٨٩.

٣ انظر: تفسير السمرقندي، ٤٤٧/١؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٨٣/٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٨/٢.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢١/٤؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥٨٣/٧.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

[١٧٨ظ] ﴿ذَٰلِكَ﴾ كلام مستأنَف، / سِيقَ لبيان أنّ ما ذُكر مستتبعٌ للمنافع، واردٌ على مقتضى الحكمة والمصلحة، أي: الحُكم الذي تقدَّم تفصيلُه ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: أقرَبُ إلى أن يؤدِّيَ الشهودُ الشهادةَ عن وجهها الذي تحمَّلوها عليه مِن غير تحريفٍ ولا خيانةٍ خوفًا مِن العذاب الأخرويّ. وهذه كما ترى حكمةُ شرعيّة التحليف بالتغليظ المذكور.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ بيان لحكمة شرعيّة ردِّ اليَمين على الوَرَثة، معطوفٌ على مقدَّرٍ يُنبِئ عنه المقام، كأنّه قيل: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، ويخافوا عذابَ الآخرة بسبب اليَمين الكاذبة، أو: يخافوا الافتضاحَ على رءوس الأشهاد بإبطال أيمانهم والعملِ بأيمان الوَرَثة، فينزجِروا عن الخيانة المؤدِّية إليه؛ فأيُّ الخوفَين وقَعَ، حصَلَ المقصد الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها.

وقيل: هو عطفٌ على ﴿يَأْتُوا﴾ على معنى: أنّ ذلك أقرَبُ إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، أو إلى أن يخافوا الافتضاحَ بردِّ اليمين على الوَرَثة، فلا يَحلِفوا على موجَب شهادتِهم إن لم يأتوا بها على وجهها، فيظهر كذبُهم بنكولهم.

وأمّا ما قيل[١] مِن أنّ المعنى: أنّ ذلك أقرَبُ إلى أحد الأمرين اللذَين أيُّهما وقع كان فيه الصلاحُ: أداءُ الشهادة على الصدق، والامتناعُ عن أدائها على الكذب، فيأباه المقامُ؛ إذ لا تعلُّقَ له بالحادثة أصلًا، ضرورةَ أنّ الشاهد مضطَرٌّ فيها إلى الجواب، فالامتناع عن الشهادة الكاذبة مستلزِمٌ للإتيان بالصادقة قطعًا، فليس هناك أمرانِ أيُّهما وقع كان فيه الصلاحُ، حتّى يَتوسّطَ بينهما كلمةُ ﴿أَوْ﴾، وإنّما يتأتّى ذلك في شهودٍ لم يُتّهَموا بخيانة، على أنّ إضافة الامتناع عن الشهادة الكاذبة إلى خوف ردِّ اليمين على الوَرَثة ونسبةَ الإتيان بالصادقة إلى غيره، مع أنّ ما يقتضي أحدَهما يقتضي الآخَرَ لا محالة، تحكُّمٌ بَحْتٌ، فتأمَّلْ.

---

١ وفي هامش م: سعد رحمه الله. | هو التفتازاني في حاشية الكشّاف، ٣٢٢ظ-٣٢٣و.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه التي مِن جملتها هذا الحكمُ، ﴿وَٱسْمَعُوا﴾ ما تُؤمَرون به كائنًا ما كان سَمْعَ طاعةٍ وقبولٍ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة، أي: فإن لم تتّقوا ولم تسمَعوا كنتم فاسقين، واللهُ لا يَهدي القومَ الفاسقين، أي: إلى طريق الجنّة، أو إلى ما فيه نفعُهم.[١]

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١٠٩﴾

/ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ نصب على أنّه بدلُ اشتمالٍ مِن مفعول ﴿ٱتَّقُوا﴾[٢] [١٧٩و] لِما بينهما مِن الملابسة، فإنّ مدار البَدَليّة ليس ملابسةَ الظرفيّة والمظروفيّةِ ونحوَها فقط؛ بل هو تعلّقٌ ما، مصحِّحٌ لانتقالِ الذهن مِن المبدَل منه إلى البدل بوجه إجماليّ كما فيما نحن فيه؛ فإنّ كونه تعالى خالِقَ الأشياء كافّةً مالِكَ يوم الدين خاصّةً كافٍ في الباب، مع أنّ الأمر بتقوى الله تعالى يتبادَرُ منه إلى الذهن أنّ المتّقَى أيُّ شأنٍ مِن شئونهِ وأيُّ فعلٍ مِن أفعاله. وقيل: هناك مضافٌ محذوفٌ، به يتحقّق الاشتمالُ، أي: "اتّقُوا عقابَ الله"، فحينئذ يجوز انتصابُه منه بطريق الظرفيّة.

وقيل: منصوب بمضمَر معطوفٍ على ﴿ٱتَّقُوا﴾ وما عُطف عليه، أي: واحذَرُوا -أو: واذكُرُوا- يومَ... إلخ، فإنّ تذكير ذلك اليوم الهائل ممّا يضطرُّهم إلى تقوى الله عزّ وعلَا وتلقِّي أمره بسمع الإجابة والطاعة.

وقيل: هو ظرفٌ لقوله تعالى: ﴿لَا يَهْدِى﴾،[٣] أي: لا يَهديهم يومئذ إلى طريق الجنّة كما يَهدي إليه المؤمنين. وقيل: منصوب بقوله تعالى: ﴿وَٱسْمَعُوا﴾[٤] بحذف مضاف، أي: اسمَعُوا خبرَ ذلك اليوم. وقيل: منصوب بفعل مؤخَّر قد حُذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانِه لكمال فظاعة ما يقع فيه مِن الطامّة التامّة والدواهي العامّةِ، كأنّه قيل: يومَ يجمع الله الرُّسُلَ، فيقول...[٥] إلخ يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يَفِي ببيانه نِطاقُ المقال.

---

[١] في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] ط س: ويقول.

وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المَهابة وتشديدِ التهويل. وتخصيص ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ بالذِّكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الأُمَمِ؛ كيف لا، و﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود، ١١/١٠٣]، وقد قال[١] تعالى: / ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ﴾ [الإسراء، ١٧/٧١]؛ بل لإبانة[٢] شرفهم وأصالتهم، والإيذانِ بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم بناءً على ظهور كونهم أتباعًا لهم، ولإظهار سقوط منزلتِهم وعدمِ لِياقتِهم بالانتظام في سلك جمع الرُّسُل؛ كيف لا، وهُم عليهم السلام يُجمَعون على وجه الإجلال، وأولئك يُسحَبون على وجوههم بالأغلال! [١٧٩ظ]

﴿فَيَقُولُ﴾ لهم مشيرًا إلى خروجهم عن عُهدة الرسالة كما ينبغي، حسبما يُعرِب عنه تخصيصُ السؤالِ بجواب الأُمَمِ إعرابًا واضحًا؛ وإلّا لَصُدِّرَ الخطاب بأنْ يُقال: هل بَلَّغْتُمْ رسالاتي؟

و﴿مَاذَآ﴾ في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ عبارةٌ عن مصدر الفعل، فهو نصب على المصدريّة، أي: أيَّ إجابةٍ أُجبتم مِن جهة أُمَمِكم، إجابةَ قبولٍ أو إجابةَ ردٍّ؟ وقيل: عبارةٌ عن الجواب، فهو في محلّ النصب بعد حذف الجارّ عنه، أي: بأيّ جواب أُجبتم؟ وعلى التقديرين، ففي توجيه السؤال عمّا صدَرَ عنهم -وهُمْ شهودٌ- إلى الرُّسُل عليهم السلام، كسؤال المَوْءودةِ بمَحضَرِ مِن الوائد، والعدولِ عن إسناد الجواب إليهم بأنْ يُقال: "ماذا أجابوا"، مِن الإنباء عن كمال تحقير شأنهم وشدّةِ الغيظ والسخطِ عليهم ما لا يخفى.[٣]

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن سَوق الكلام، كأنّه قيل: فماذا يقول الرُّسُل عليهم السلام هنالك؟ فقيل: يقولون: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ وصيغةُ الماضي للدلالة على التقرّر والتحقّقِ، كما في قوله تعالى:[٤] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف، ٧/٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ [الأعراف، ٧/٤٨]، ونظائرِهما.

---

١ ط س + الله.

٢ السياق: وتخصيص ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ بالذِّكر ليس لاختصاص... بل لإبانة...

٣ السياق: ففي توجيه السؤال... والعدولِ عن إسناد الجواب إليهم... مِن الإنباء... ما لا يخفى.

٤ س - تعالى.

وإنّما يقولون ذلك تفويضًا للأمر إلى علمه تعالى وإحاطتِه بما اعترَاهم مِن جهتهم مِن مُقاساة الأهوال ومُعاناةِ الهموم والأوجالِ، وعَرْضًا لعَجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعتِه.

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ تعليل لذلك، أي: فتعلَمُ ما أجابوا / وأظهروا لنا وما لم نعلَمْه ممّا أضمروه في قلوبهم. وفيه إظهار للشَّكاةِ وردٌّ للأمر إلى علمه تعالى بما لَقُوا مِن قِبَلهم مِن الخُطوب وكابَدوا مِن الكُروب، والتجاءٌ إلى ربّهم في الانتقام منهم. [١٨٠و]

وقيل: المعنى: لا علمَ لنا بما أحدثوا بعدنا، وإنّما الحُكمُ للخاتمة. وردُّ ذلك بأنّهم يعرِفونهم بسِيماهُم، فكيف يخفى عليهم أمرُهم؟ وأنت خبير بأنّ مرادهم حينئذ أنّ بعضهم كانوا في زمانهم على الحقّ، ثمّ صاروا كَفَرةً. وعن ابن عبّاس ومجاهد والسدّي: «أنّهم يفزَعون مِن أوّل الأمر ويذهَلون عن الجواب، ثمّ يُجيبون بعدما ثابَتَ إليهم عقولُهم بالشهادة على أُمَمِهم»؛[1] ولا يُلائِمه التعليل المذكور. وقيل: المراد به المبالغةُ في تحقيق فضيحتهم.

وقُرئ: "عَلَّامَ الغُيُوبِ"[2] بالنصب على النداء، أو الاختصاصِ بالمدح على أنّ الكلام قد تمَّ عند قوله تعالى:[3] ﴿أَنتَ﴾، أي: إنّك أنت المنعوتُ بنعوتِ كمالِك، المعروفُ بذلك.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

---

[1] التفسير البسيط للواحدي، ٥٨٥/٧. وهو عن مجاهد والسدّي في الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٢/٤. وأخرج بعضَ قولهم الطبري في جامع البيان، ١١٠/٩-١١١.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ٦٩٠/١؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١٤٨/٢.

[3] م - تعالى.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ شروع في بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحدٍ مِن الرُّسُل المجموعِين مِن المفاوضة على التفصيل إثرَ بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكلّ على وجه الإجمال، ليكون ذلك كالأُنموذج لتفاصيل أحوال الباقين. وتخصيصُ شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلًا مِن بين شئون سائر الرُّسُل عليهم السلام، مع دلالتها على كمال هَول ذلك اليوم ونهايةِ سُوء حال المكذِّبين بالرُّسُل، لِما أنّ[1] شأنه عليه السلام / متعلِّقٌ بكِلا الفريقين مِن أهل الكتاب الذين [١٨٠ظ] نُعِيَتْ عليهم في السورة الكريمة جناياتُهم؛ فتفصيلُه أعظَمُ عليهم، وأجلَبُ لحسرتِهم وندامتِهم، وأفَتُّ في أعضادهم، وأدخَلُ في صرفهم عن غَيِّهم وعنادِهم.

و﴿إِذْ﴾ بدلٌ مِن ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ﴾... إلخ.[2] وصيغة الماضي لِما ذُكر مِن الدلالة على تحقّق الوقوع. وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لِما مرّ مِن المبالغة في التهويل.

وكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ متعلِّقةٌ بنفس النعمة إن جُعلت مصدرًا، أي: اذكُرْ إنعامي عليكما، أو بمحذوفٍ هو حال منها إن جُعلت اسمًا، أي: اذكُرْ نعمتي كائنةً عليكما. وليس المرادُ بأمره عليه السلام يومئذ بذِكر النِّعَمِ المنتظِمة في سلك التعديد تكليفَه عليه السلام شكرَها والقيامَ بمَواجبها، ولَاتَ حينَ تكليفٍ، مع خروجه عليه السلام عن عُهدة الشكر في أوانه أيَّ خروجٍ؛ بل إظهارُ أمره عليه السلام بتَعداد تلك النِّعَمِ حسبما بيَّنه الله سبحانه، اعتدادًا بها وتلذُّذًا بذكرها على رءوس الأشهاد، ليكونَ حكايةُ ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخًا ومَزجَرةً للكَفَرة المختلِفِين في شأنه عليه السلام إفراطًا وتفريطًا وإبطالًا لقولهما جميعًا.

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ ظرفٌ لـ﴿نِعْمَتِي﴾، أي: اذكُرْ إنعامي عليكما وقتَ تأييدي لك، أو حال منها، أي: اذكُرْها كائنةً وقتَ تأييدي لك. وقُرئ: "آيَدْتُكَ"،[3] والمعنى واحدٌ،

---

١ السياق: وتخصيصُ شأن عيسى عليه السلام... لِما أنّ...

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٣.

أي: قوّيتُك ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بجبريلَ عليه السلام لتثبيت الحُجّة، أو: بالكلام الذي يحيى به الدين، وإضافتُه إلى ﴿ٱلْقُدُسِ﴾ لأنّه سبب الطُّهر عن أوضار الآثام، أو: يحيى به الموتَى أو النفوسُ حياةً أبَديّةً. وقيل: الأرواحُ مختلِفةُ الحقائق، فمنها: طاهرةٌ نُورانيّةٌ، ومنها: خبيثةٌ ظُلمانيّةٌ، ومنها: مُشرِقةٌ، ومنها: كَدِرةٌ، / ومنها: حُرّةٌ، [١٨١و] ومنها نَذْلةٌ، وكان روحُه عليه السلام طاهرةً مُشرِقةً نُورانيّةً عُلْوِيّةً. وأيًّا ما كان، فهو نعمة عليهما.

﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ استئناف مبيّن لتأييده عليه السلام، أو حال مِن "الكاف". وذكرُ تكليمه عليه السلام في حال الكُهولة لبيان أنّ كلامه عليه السلام في تَيْنِك الحالتَين كان على نسَق واحد بديعٍ صادرًا عن كمال العقل مقارِنًا لرَزانة الرأي والتدبير. وبه استُدِلَّ على أنّه عليه السلام سينزل مِن السماء لِما أنّه عليه السلام رُفع قبل التكهُّل. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أرسله الله تعالى وهو ابنُ ثلاثين سنةً، ومكَث في رسالته ثلاثين شهرًا، ثمّ رفعه الله تعالى إليه».[١]

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾، منصوبٌ بما نصبه، أي: اذكُرْ نعمتي عليكما وقتَ تعليمي لك الكتابَ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: جنسَهما، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ خُصّا بالذِّكر ممّا تناوَلَه الكتابُ والحِكمةُ إظهارًا لشرَفهما. وقيل: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الخطُّ، و﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: الكلامُ المحكَم الصوابُ.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: تصوِّر منه هيئةً مماثِلةً لهيئة الطير ﴿بِإِذْنِى﴾ بتسهيلي وتيسيري؛ لا على أن يكون الخلقُ صادرًا عنه عليه السلام حقيقةً، بل على أن يظهَر ذلك على يدِه عليه السلام عند مباشرة الأسباب مع كون الخلق حقيقةً لله عزّ وجلّ[٢] كما يُنبِئ عنه قوله تعالى: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أي: في الهيئة المصوَّرة، ﴿فَتَكُونُ﴾ أي: تلك الهيئةُ ﴿طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾؛ فإنّ إذنَه تعالى لو لم يكن عبارةً عن تكوينه تعالى للطير -بل عن محضِ تيسيره مع صدور الفعل حقيقةً

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٣/٤؛ اللباب لابن عادل، ٦٠٠/٧.

[٢] س: تعالى.

عمّا أُسندَ إليه- لَكان هذا تكوّنًا مِن جهة الهيئة.[١] وتكرير قوله تعالى[٢] ﴿بِإِذْنِي﴾ في "الطَّير" / -مع كونه شيئًا واحدًا- للتنبيه على أنّ كلًّا مِن التصوير والنفخِ أمرٌ معظَّم بديعٌ، لا يتسنَّى ولا يترتّب عليه شيءٌ إلّا بإذنه تعالى. [١٨١ظ]

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ عطفٌ على ﴿تَخْلُقُ﴾. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ عطفٌ على ﴿إِذْ تَخْلُقُ﴾، أُعيدَ فيه ﴿إِذْ﴾ لكون إخراج المَوتى مِن قبورهم -لاسيّما بعد ما صارت رَميمًا- معجِزةً باهرةً ونعمةً جليلةً حقيقةً بتذكير وقتها صريحًا. قيل: أخرجَ سامَ بنَ نوح ورَجلَين وامرأةً[٣] وجاريةً.[٤]

وتكرير قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ في المواضع الأربعة للاعتناء بتحقيق الحقّ ببيان أنّ تلك الخوارق ليست مِن قِبَلِ عيسى؛ بل مِن جهته سبحانه، قد أظهرها على يدَيْه معجِزةً له ونعمةً خصَّها به. وأمّا ذكرُه في سورة آل عمرانَ مرّتين[٥] لِما أنّ ذلك موضِعُ الإخبار، وهذا موضِعُ تَعداد النِّعَم.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ عطفٌ على ﴿إِذْ تُخْرِجُ﴾، أي: منعتُ اليهودَ الذين أرادوا بك السُّوءَ عن التعرّض لك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجِزات الواضحةِ ممّا ذُكر وما لم يُذكَر كالإخبار بما يأكلون وما يدّخِرون في بيوتهم ونحو ذلك. وهو ظرفٌ لـ﴿كَفَفْتُ﴾؛ لكنْ لا باعتبار المَجيء بها فقط، بل باعتبار ما يعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ فإنّ قولهم ذلك ممّا يدلّ على أنّهم قصدوا اغتيالَه عليه السلام المُحوِجَ إلى الكَفّ، أي: كفَفْتُهم عنك حين قالوا ذلك عند مَجيئك إيّاهم بالبيّنات.

وإنّما وُضع موضِعَ ضمير ﴿هُمْ﴾ الموصولُ[٦] لذَمّهم بما في حَيّز الصلة، فكلمة ﴿مِنْ﴾ بيانيّة. و﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما جاء به، والتذكيرُ لأنّ إشارتهم إلى

---

[١] وفي هامش م: لا تكوينًا مِن جهته تعالى أو مِن جهة عيسى عليه السلام.

[٢] س - تعالى.

[٣] م ط س - وامرأة ["صح" في هامش م]. | ولعلّ التصحيحَ بعد نسخ ط س.

[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٣/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٩١/١.

[٥] آل عمران، ٤٩/٣.

[٦] أي: وإنّما وُضع الاسمُ الموصولُ موضِعَ ضمير ﴿هُمْ﴾.

ما رأوه مِن نفس المسمَّى مِن حيث هو، أو مِن حيث هو سحرٌ؛ لا مِن حيث هو مسمًّى بـ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾. / وقُرئ: "إِنْ هَٰذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ"،[1] فـ﴿هَٰذَا﴾ حينئذ إشارةٌ إلى عيسى عليه السلام. [١٨٢و]

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ عطفٌ على ما قبله مِن أخَواتها الواقعةِ ظروفًا للنعمة التي أُمر بذكرها. وهي، وإن كانت في الحقيقة عينَ ما يُفيده الجُمَلُ التي أُضيفَ إليها تلك الظروفُ مِن التأييد بروح القُدُس وتعليمِ الكتاب والحكمةِ وسائرِ الخوارق المعدودة، لكنّها لمغايَرتِها لها بعُنوانٍ منبئٍ عن غاية الإحسان أُمر بذكرها مِن تلك الحيثيّة، وجُعلت عاملةً في تلك الظروف لكفاية المغايَرَة الاعتباريّة في تحقيق ما اعتُبِر في مدلول كلمةِ ﴿إِذْ﴾ مِن تعدّد النسبة؛ فإنّه ظرف موضوعٌ لزمانِ نسبتَين ماضيتَين واقعتَين فيه، إحداهما معلومةُ الوقوعِ فيه للمخاطَب دون الأخرى، فيُراد إفادةُ وقوعها أيضًا له، فيُضاف إلى الجملة المفيدة للنسبة الأُولى، ويُجعَل ظرفًا معمولًا للنسبة الثانية.

ثمّ قد تكون المغايَرةُ بين النسبتَين بالذات كما في قولك: "اذكُرْ إحساني إليك إذ أحسنتَ إليَّ"، تريد تنبيهَ المخاطَب على وقوع إحسانك إليه وقتَ وقوع إحسانه إليك، وهما نِسبتانِ متغايِرتانِ بالذات، وقد تكون بالاعتبار كما في قولك: "اذكُرْ إحساني إليك إذ منعتُك مِن المعصية"، تريد تنبيهَه على كون منعه منها إحسانًا إليه، لا على إحسانٍ آخَرَ واقعٍ حينئذ.

ومِن هذا القبيل عامّةُ ما وقع في التنزيل مِن قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ الآية [المائدة، ٢٠/٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة، ١١/٥]، إلى غير ذلك مِن النظائر.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٥٦/٢.

ومعنى إيحائه تعالى إليهم أمرُه تعالى إيّاهم في الإنجيل على لسانه عليه السلام. وقيل: إلهامُه تعالى إيّاهم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ / إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [١٨٢ظ] [القصص، ٢٨/٧].

و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾ مفسِّرة لِما في "الإيحاء" مِن معنى "القول"، وقيل: مصدريّةٌ. وإيراده عليه السلام بعُنوان الرسالة للتنبيه على كيفيّة الإيمان به عليه السلام، كأنّه قيل: آمِنوا بوَحدانيّتِي في الألوهيّة والربوبيّة وبرسالة رسولي، ولا تُزيلوه عن حَيّزه حطًّا ولا رفعًا.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن سَوق الكلام، كأنّه قيل: فماذا قالوا حين أُوحِيَ إليهم ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: بما ذُكر مِن وَحدانيّته تعالى وبرسالة رسوله، كما يُؤذِن به قولهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي:[١] مخلِصون في إيماننا. مِن "أسلَمَ وجهَه لله".[٢] وهذا القول منهم بمقتضى وحيِه تعالى وأمرِه لهم بذلك نعمةٌ جليلةٌ كسائر النِّعَم الفائضةِ عليه عليه السلام. وكلّ ذلك نعمةٌ على والدَتِه أيضًا.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا عَلِمَ أنّه سيُؤمَر بذكر هاتِيكَ النِّعَم العِظامِ جعَلَ يلبَس الشَّعْرَ ويأكل الشجرَ ولا يدّخِرُ شيئًا لغَدٍ، يقول: «لكلّ يومٍ رِزقُه»، لم يكن له بيتٌ فيخرَبَ ولا ولدٌ فيموتَ، أينما أمسَى باتَ.[٣]

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ كلام مستأنَفٌ مَسوقٌ لبيان بعض ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه، منقطِعٌ عمّا قبله كما يُنبِئ عنه الإظهارُ في موقِع الإضمار. و﴿إِذْ﴾ منصوب بمضمَرٍ خُوطِبَ به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم[٤] بطريق تلوين الخطاب؛

---

١ س – أي.

٢ كما ورد في البقرة، ٢/١١٢، والنساء، ٤/١٢٥.

٣ الكشّاف للزمخشري، ١/٦٩١؛ تفسير الرازي، ١٢/٤٦١؛ اللباب لابن عادل، ٧/٦٠٣. وأخرج بعضَه ابن أبي شيبة في مصنّفه، ٧/٦٠٣ (٣٤٢٢٦).

٤ س: عليه السلام.

لكنْ لا لأنّ الخطاب السابقَ لعيسى عليه السلام، فإنّه ليس بخطاب، وإنّما هو حكايةُ خطابٍ؛ بل لأنّ الخطاب لِمَن خُوطِبَ بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[١] الآية، فتأمَّلْ. كأنّه قيل للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم عقيبَ حكايةِ ما صدر عن الحَوَارِيّين مِن المقالة المعدودة مِن نِعَم الله تعالى الفائضةِ على عيسى عليه السلام: اذكُرْ للناس وقتَ قولهم... إلى آخِره. وقيل: هو ظرف لـ﴿قَالُوا﴾،[٢] أُرِيدَ به التنبيهُ على أنّ ادّعاءهم الإيمانَ والإخلاصَ لم يكن عن تحقيق وإيقانٍ، ولا يساعده النظم الكريم.

﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ / هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [١٨٣و] اختلِف في أنّهم هل كانوا مؤمنين أو لا؟ فقيل: كانوا كافرين شاكّينَ في قدرة الله تعالى على ما ذكروا وفي صدق عيسى عليه السلام، كاذبين في دعوى الإيمانِ والإخلاصِ. وقيل: كانوا مؤمنين، وسؤالُهم للاطمِئنانِ والتثبيتِ، لا لإزاحة الشكّ.

و﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ سؤال عن الفعل دون القدرة عليه، تعبيرًا عنه بلازمه، وقيل: الاستطاعة على ما يقتضيه الحِكمة والإرادة، لا على ما يقتضيه القدرة. وقيل: المعنى: هل يُطِيع ربُّك؟ بمعنى "هل يُجيبك؟"، و"استطاع" بمعنى "أطاع"، كـ"استجاب" بمعنى "أجاب".

وقُرِئ: "هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ"،[٣] أي: سؤالَ ربّك، والمعنى: هل تسأله ذلك مِن غير صارفٍ يصرفك عنه؟ وهي قراءةُ عليّ وعائشةَ وابنِ عبّاس ومعاذٍ رضي الله تعالى عنهم، وسعيدِ بن جُبير في آخَرين.[٤]

و"المائدة": الخِوَانُ الذي[٥] عليه الطعامُ، مِن "مَادَه" إذا أعطاه ورفَدَه، كأنّها تَمِيدُ مَن تُقدَّم إليه. ونظيرُه قولهم: "شجرةٌ مطعِمةٌ". وقال أبو عُبيد: «هي فاعلة بمعنى مفعولة، كـ"عيشة راضية"».[٦]

---

١ المائدة، ١٠٨/٥.
٢ في الآية السابقة.
٣ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٥٦/٢.
٤ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٠/٤؛ اللباب لابن عادل، ٦٠٤/٧. | "في آخرين": يعني قرأها حالَ كونه داخلًا في شيوخ آخَرين، أو مع جماعة آخَرين.
٥ م ط س - الذي ["صح" في هامش م س].
٦ اللباب لابن عادل، ٦٠٧/٧.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ ناشئٍ ممّا قبله، كأنّه قيل: فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حين قالوا ذلك؟ فقيل: قال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: مِن أمثال هذا السؤال ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بكمال قدرته تعالى وبصحّةِ نبوّتِي، أو: إن صدَقتم في ادّعاء الإيمان والإسلام؛ فإنّ ذلك ممّا يوجِب التقوى والاجتنابَ عن أمثال هذه الاقتراحات.

وقيل أمَرَهم بالتقوى ليَصير ذلك ذَريعةً لحصول المسئول، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق، ٦٥/٢-٣]، وقولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة، ٣٥/٥].

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ استئناف كما سبق. ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيدُ عُذرٍ وبيان لِما دَعَاهم إلى السؤال، أي: لَسْنَا نريد بالسؤال / إزاحةَ شُبهتِنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحّة نبوّتِك، حتّى يقدَحَ ذلك في الإيمان والتقوى؛ بل نريد أن نأكل منها، أي: أكْلَ تبرّكٍ، وقيل: أكْلَ حاجةٍ وتمتّعٍ. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بكمال قدرته تعالى، وإن كُنّا مؤمنين به مِن قبلُ؛ فإنّ انضمام عِلم المشاهَدة إلى العلم الاستدلاليّ ممّا يوجِب ازديادَ الطُّمأنينَة وقوّةَ اليقين. [١٨٣ظ]

﴿وَنَعْلَمَ﴾ أي: علمًا يقينيًّا لا يحُوم حولَه شائبةُ شُبهةٍ أصلًا. وقُرِئ: "لِيُعْلَمَ"[١] على البناء للمفعول. ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ ﴿أَن﴾ هي المخفَّفة مِن "أنّ"، وضميرُ الشأن محذوفٌ، أي: ونعلَمَ أنّه قد صدقتَنا في دعوى النبوّة وأنّ الله يُجيب دعوتَنا، وإن كُنّا عالمين بذلك مِن قبلُ.

﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ نشهَد عليها عند الذين لم يحضُروها مِن بني إسرائيلَ، ليزدادَ المؤمنون منهم بشهادتنا طُمأنينةً ويقينًا ويؤمِنَ بسببها كُفّارُهم، أو: مِن الشاهِدين للعَيْن دون السامعين للخبر.

---

[١] ما وجدناه في كتب القراءات والتفسير.

و﴿عَلَيْهَا﴾ متعلِّق بـ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ إن جُعل "اللامُ" للتعريف، وبيانٌ لِما يشهَدون عليه إن جُعلت موصولةً، كأنّه قيل: على أيّ شيء يشهَدون؟ فقيل: عليها؛ فإنّ ما يتعلّق بالصِّلَة لا يتقدّم على الموصول، أو هو حال مِن اسم "كان"، أو هو متعلِّق بمحذوفٍ يفسِّره ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لمّا رأى عليه السلام أنّ لهم غَرَضًا صحيحًا في ذلك وأنّهم لا يُقلِعون عنه، أزمَعَ على استدعائها واستنزالِها، وأراد أن يُلزِمَهم الحجّةَ بكمالها. رُوي أنّه عليه السلام اغتسل ولبِس المِسْحَ وصلّى ركعتَين، فطأطأ رأسَه[1] وغضّ بصرَه، ثمّ قال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ الآية.[2] ناداه سبحانه وتعالى مرّتين: مرّةً بوصف الألوهيّة الجامعةِ لجميع الكمالات، ومرّةً بوصف الربوبيّة المنبئةِ عن التربية، إظهارًا لغاية التضرّع ومبالغةً في الاستدعاء.

/ ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا﴾ تقديمُ الظرف على قوله تعالى: ﴿مَآئِدَةً﴾ لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلِّق بـ﴿أَنزِلْ﴾، أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ﴿مَآئِدَةً﴾، أي: كائنةً مِن السماء نازلةً منها. [١٨٤و]

وقوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ في محلّ النصب على أنّه صفة لـ﴿مَآئِدَةً﴾، واسمُ ﴿تَكُونُ﴾ ضميرُ "المائدة"، وخبرُها إمّا ﴿عِيدًا﴾ و﴿لَنَا﴾ حال منه، أو مِن ضمير ﴿تَكُونُ﴾ عند مَن يجوّز إعمالَها في الحال، وإمّا ﴿لَنَا﴾ و﴿عِيدًا﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَنَا﴾؛ لأنّه وقع خبرًا فيَحمِل ضميرًا، أو مِن ضمير ﴿تَكُونُ﴾ عند مَن يرى ذلك، أي: يكون يومُ نزولها عِيدًا نعظِّمُه، وإنّما أُسندَ ذلك إلى "المائدة"؛ لأنّ شرَفَ اليوم مستعارٌ مِن شرفها.

---

١ طأطأ فلان رأسَه طأطأةً وقد تطأطأ إذا خفض. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٤٧٠/٧ «باب اللفيف مِن الطاء».

٢ س: إلخ. | معالم التنزيل للبغوي، ١١٨/٣؛ اللباب لابن عادل، ٦١٢/٧.

وقيل: "العِيد": السُّرورُ العائدُ؛ ولذلك سُمِّيَ يومُ العِيد عِيدًا. وقُرئ: "تَكُنْ"[١] بالجزم على جواب الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي﴾ [مريم، ١٩/٥-٦]، خلَا أنّ قراءة الجزم هناك متواتِرةٌ، وههنا مِن الشَّوَاذِّ.

﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدلٌ مِن ﴿لَنَا﴾ بإعادة العامل، أي: عِيدًا لمتقدِّمِينَا ومتأخِّرِينَا. رُوي أنّها نزلت يومَ الأَحَدِ؛ ولذلك اتّخذه النصارى عِيدًا.[٢] وقيل: للرُّؤَساء منّا والأتباعِ. وقيل: يأكل منها أوّلُنا وآخِرُنا. وقُرئ: "لِأُولَانَا وَأُخْرَانَا"،[٣] بمعنى "الأمّة" و"الطائفة".

﴿وَءَايَةً﴾ عطفٌ على ﴿عِيدًا﴾. ﴿مِّنكَ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ هو صفة لـ﴿ءَايَةً﴾، أي: كائنةً منك دالّةً على كمال قدرتِك وصحّةِ نبوّتِي.

﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ أي: المائدةَ أو الشكرَ عليها؛ ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تذييلٌ جارٍ مَجرى التعليل، أي: خيرُ مَن يرزُق؛ لأنّه خالِقُ الأرزاق ومُعطِيها بلا عِوَضٍ.

[١٨٤ظ] وفي إقباله عليه السلام / على الدعاء بتكرير النداء المُنبِئِ عن كمال الضَّراعة والابتهالِ، وزيادتِه ما لم يخطُر ببال السائلين مِن الأمور الداعية إلى الإجابة والقبولِ دلالةٌ واضحةٌ[٤] على أنّهم كانوا مؤمنين، وأنّ سؤالهم كان لتحصيل الطُّمأنينَة، كما في قول إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة، ٢/٢٦٠]؛ وإلّا لَما قَبِل اعتذارَهم بما ذكروه، ولَما أضاف إليه مِن عنده ما يؤكِّده ويُقرِّ به إلى القبول.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١١٥﴾

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ استئناف كما سلف. ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وُرود الإجابة منه تعالى بصيغة "التفعيل" المنبِئةِ عن التكثير -مع كون الدعاء منه عليه السلام

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٣.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/١٢٧؛ التفسير البسيط للواحدي، ٧/٥٩٥؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٦٩٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٣.

٤ السياق: وفي إقباله عليه السلام... دلالةٌ واضحةٌ...

بصيغة "الإفعال"- لإظهار كمال اللُّطف والإحسانِ، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾... إلخ [الأنعام، ٦٤/٦] بعد قوله تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾... إلخ [الأنعام، ٦٣/٦]، مع ما فيه مِن مُراعاة ما وقع في عبارة السائلين.

وفي تصدير الجملة بكلمة التحقيق وجعلِ خبرها اسمًا تحقيقٌ للوعد، وإيذانٌ بأنّه عزّ وجلّ مُنجِزٌ له لا محالةَ مِن غير صارفٍ يَثنِيه، ولا مانعٍ يَلوِيه، وإشعارٌ بالاستمرار، أي: إنّي منزِّلُ المائدة عليكم مرّاتٍ كثيرةً. وقُرئ بالتخفيف.[١] وقيل: "الإنزال" و"التنزيل" بمعنًى واحدٍ.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ أي: بعدَ تنزيلها. ﴿مِنكُمْ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعل ﴿يَكْفُرْ﴾. ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ بسبب كفره بعد مُعايَنة هذه الآية الباهرة، ﴿عَذَابًا﴾ اسمُ مصدرٍ، بمعنى "التعذيب". وقيل: مصدرٌ بحذف الزوائد. وانتصابُه على المصدريّة بالتقديرين المذكورَين. وجُوّز أن يكون مفعولًا به على الاتّساع. وقوله تعالى: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ في محلّ النصب على أنّه صفة لـ﴿عَذَابًا﴾، / والضميرُ له، أي: أعذِّبه تعذيبًا لا أعذِّبُ مثلَ ذلك التعذيب ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مِن عالَمِي زمانِهم، أو: مِن العالَمِين جميعًا. [١٨٥و]

قيل: لمّا سمعوا هذا الوعيدَ الشديدَ خافوا أن يكفُرَ بعضُهم، فاستعفَوْا، وقالوا: «لا نريدها»، فلم تنزل. وبه قال مجاهد والحسن[٢] رحمهما الله.[٣] والصحيح الذي عليه جماهيرُ الأمّة ومشاهيرُ الأئمّة أنّها قد نزلت.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا دَعَا بما دَعَا وأُجيبَ بما أُجيبَ، إذا بسُفْرةٍ حَمْراءَ نزلت بين غَمامتَين، غَمامةٍ مِن فوقها وغَمامة مِن تحتها، وهم ينظُرون إليها حتّى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه السلام، وقال: «اللّٰهمّ اجعَلْنِي مِن الشاكرين، اللّٰهمّ اجعَلْها رحمةً للعالَمين، ولا تجعَلْها مُثْلةً وعقوبةً»، ثمّ قام وتوضّأ،

---

١ أي: "مُنْزِلُهَا"، وهي قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وأبي عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٥٦/٢.

٢ أي: الحسن البصري.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٧/٤؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥٩٨/٧؛ اللباب لابن عادل، ٦١٥/٧. وانظر أيضًا: جامع البيان للطبري، ١٣٠/٩.

وصلّى وبكى، ثمّ كشف المنديلَ، وقال: «بسم الله خيرِ الرازقين»، فإذا سَمَكةٌ مَشْوِيّةٌ بلا فُلُوسٍ[١] ولا شَوْكٍ تَسِيل دَسَمًا، وعند رأسها مِلحٌ، وعند ذَنَبِها خَلٌّ، وحولَها مِن ألوان البُقول ما خلَا الكُرَّاثَ،[٢] وإذا خمسةُ أرغِفَةٍ، على واحد منها زيتونٌ، وعلى الثاني عَسَلٌ، وعلى الثالث سَمْنٌ،[٣] وعلى الرابع جُبْنٌ، وعلى الخامس قَدِيدٌ،[٤] فقال شَمْعونُ رأسُ الحَوَارِيّين: «يا روحَ الله، أَمِنْ طعام الدنيا أو مِن طعام الآخرة؟»، قال: «ليس منهما، ولكنّه شيءٌ اخترعه الله تعالى بالقُدرة العالية، كُلُوا ما سألتم، واشكُرُوا يُمدِدْكم الله ويَزِدْكم مِن فضله»، فقالوا:[٥] «يا روحَ الله، لو أَرَيْتَنا مِن هذه الآية آيةً أخرى؟»، فقال: «يا سَمَكةُ، احْيِي بإذن الله تعالى»، فاضطرَبتْ، ثمّ قال لها: / «عُودِي كما كنتِ»، فعادَتْ مَشْوِيّةً، ثمّ طارت المائدةُ، ثمّ عَصَوْا، فمُسِخوا قِرَدةً وخنازيرَ.[٦] [١٨٥ظ]

وقيل: كانت تأتيهم أربعين يومًا غِبًّا، يجتمع عليها الفُقَراء والأغنياء والصِّغار والكِبار، يأكلون، حتّى إذا فاءَ الفَيْءُ[٧] طارت، وهم ينظرون في ظلِّها، ولم يأكل منها فقيرٌ إلّا غَنِيَ مدّةَ عُمره، ولا مريضٌ إلّا بَرِئَ ولم يمرَض أبدًا، ثمّ أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أنْ: «اجعَلْ مائدتي في الفُقَراء والمرضَى، دون الأغنياء والأصِحّاءِ»، فاضطرَبَ الناسُ لذلك، فمُسِخ منهم مَن مُسِخ، فأصبحوا خنازيرَ يسعَوْنَ في الطُّرُقات والكُناسات، ويأكلون العَذِرة في الحُشوش،[٨] فلمّا رأى الناس ذلك فزِعوا إلى عيسى عليه السلام، وبكَوْا على الممسوخين، فلمّا أبصرت الخنازيرُ عيسى عليه السلام بكتْ وجعلتْ

---

[١] الفَلْس: القِشرة على ظهر السمكة. المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربيّة، «فلس».

[٢] الكُرّاث: بَقْلٌ. الصحاح للجوهري، «كرث».

[٣] السَّمْن: ما يخرج مِن الزُّبْد، وهو يكون لألبان البَقَر والغَنَم. المُغرِب للمطرّزي، ص ٢٣٦ «السين مع الميم».

[٤] القَديد: اللحم المَملوح المجفّف في الشمس، فعيل بمعنى مفعول. لسان العرب لابن منظور، «قدد».

[٥] س: فقال.

[٦] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤/١٢٨-١٢٩؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٦٩٣-٦٩٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٥٠.

[٧] الفَيْء: الظِّلّ، والجمع: الأفياء، يُقال: فاءَ الفيءُ، إذا تحوّل عن جهة الغَداة. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٨/٤٠٦ «باب اللفيف مِن الفاء».

[٨] الحُشوش في الأصل جمع "الحشّ"، وهو البُستان مِن النخل، وكانوا يتغوّطون فيها. تهذيب اللغة للأزهري، ٣/٢٥٤ «باب الحاء والشين».

تُطيف به عليه السلام، وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدًا بعد واحد، فيبكُون ويُشيرون برءوسِهم، ولا يقدِرون على الكلام، فعاشوا ثلاثةَ أيّام، ثمّ هلَكوا.[١]

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ عيسى عليه السلام قال لهم: «صُومُوا ثلاثين يومًا، ثمّ سَلُوا الله ما شِئتم يُعْطِكم»، فصاموا، فلمّا فرَغوا قالوا: «إنّا لو عمِلنا لأحدٍ فقضَينا عملَه، لَأطعَمَنا»، وسألوا الله تعالى المائدةَ، فأقبلت الملائكةُ بمائدةٍ يحمِلونها، عليها سبعةُ أرغِفةٍ وسبعةُ أَحْوَاتٍ، حتّى وضعَتْها بين أيديهم، فأكل منها آخِرُ الناس كما أكل أوّلُهم.[٢]

قال كعب:[٣] «نزلت منكوسةً تَطير بها الملائكةُ بين السماء والأرض، عليها كلُّ الطعام إلّا اللحمَ».[٤] وقال قتادةُ: «كان عليها ثَمَرٌ مِن ثِمار الجنّة».[٥] وقال عطيّة العَوفي:[٦] «نزلت مِن السماء سَمَكةٌ، فيها طعمُ كلّ شيء».[٧] وقال الكلبي ومقاتل: «نزلت سَمَكةٌ وخمسةُ أرغِفةٍ، فأكلوا ما شاء الله، والناس ألفٌ ونَيِّفٌ، فلمّا رجعوا إلى قُرَاهم ونشروا الحديثَ ضحِك منهم مَن لم يشهَد، وقالوا: "وَيْحَكُمْ! إنّما سحَرَ أعيُنَكم"، فمَن أراد اللهُ به الخيرَ ثبّته على بصيرة، ومَن أراد فِتنتَه

---

[١] انظر: **تفسير القرطبي**، ٣٧١/٦-٣٧٢؛ و**اللباب** لابن عادل، ٦١٧/٧. وبعضُه في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٥٠/٢.

[٢] **جامع البيان** للطبري، ١٢١/٩؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢٧/٤؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٤٦/٢.

[٣] أي: كعب الأحبار.

[٤] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢٨/٤؛ **تفسير القرطبي**، ٣٧٢/٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٦١٥/٧.

[٥] **جامع البيان** للطبري، ١٢٨/٩؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢٨/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٦١٦/٧.

[٦] هو عطيّة بن سعد بن جُنادة العَوفي، أبو الحسن (ت. ١١١هـ/٧٢٩-٧٣٠م). تابعيّ، مِن رجال الحديث. كان يُعدّ مِن شِيعة أهل الكوفة؛ خرج مع ابن الأشعث، فكتب الحجّاج إلى محمّد بن القاسم الثقفي ليمتحنه بسبّ عليّ كرّم الله وجهه، فدعاه الثقفي وأقرأه كتاب الحجّاج، فأبى أن يفعل، فعذّبه، ثمّ لجأ العَوفي إلى فارس، واستقرّ بخراسان بقيّة أيّام الحجّاج، فلمّا ولي العراق عمر بن هبيرة أذن له في القدوم، فعاد إلى الكوفة، وتُوفّي بها. روى عن ابن عبّاس وأبي سعيد وابن عمر. وروى عنه ابنه الحسن وحجّاج بن أرطاة وقُرّة بن خالد وزكريّا بن أبي زائدة ومسعر، وخلق. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٣٠٤/٦؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٢٥/٥-٣٢٦.

[٧] **اللباب** لابن عادل، ٦١٦/٧. وهو باختلاف يسير في **جامع البيان** للطبري، ١٢٥/٩-١٢٦؛ و**تفسير السمرقندي**، ٤٥٢/١.

رجَعَ إلى كفره، فمُسخوا خنازيرَ، فمكَثوا بذلك ثلاثةَ أيّام، ثمّ هلَكوا ولم يتوالَدُوا ولم يأكُلوا ولم يشربوا، وكذلك كلُّ ممسوخ».[١]

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوفٌ على ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾،[٢] منصوبٌ بما نصَبَه مِن المضمَر المخاطَبِ به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، أوِ بمضمَرٍ مستقِلٍّ معطوفٍ على ذلك، / أي: اذكُرْ للناس وقتَ قول الله عزّ وجلّ له عليه السلام في الآخرة، توبيخًا للكفَرة وتبكيتًا لهم، بإقراره عليه السلام على رءوس الأشهاد بالعبوديّة، وأمرِه لهم بعبادته عزّ وجلّ. وصيغة الماضي لِما مرّ مِن الدلالة على التحقّق والوقوع. [١٨٦و]

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ﴾ "الاتّخاذ" إمّا متعَدٍّ إلى مفعولَين، فـ﴿إِلَـٰهَيْنِ﴾ ثانيهما، وإمّا إلى واحدٍ، فهو حال مِن المفعول. وليس مدارُ أصل الكلام أنّ القول متيَقَّنٌ والاستفهامَ لتعيين القائل، كما هو المتبادر مِن إيلاء الهمزةِ المبتدَأَ على الاستعمال الفاشي، وعليه قولُه تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ [الأنبياء، ٦٢/٢١]، ونظائرُه؛ بل على أنّ المتيقَّنَ هو الاتّخاذ، والاستفهام لتعيينِ أنّه بأمره عليه السلام أمْ مِن تِلقاء أنفُسِهم، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان، ١٧/٢٥].

وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ"الاتّخاذ"، ومحلُّه النصبُ على أنّه حال مِن فاعله، أي: متجاوِزين اللهَ، أو بمحذوفٍ هو صفة لـ﴿إِلَـٰهَيْنِ﴾، أي: كائنَين مِن دونه تعالى. وأيًّا ما كان، فالمراد اتّخاذهما بطريق إشراكهما به سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة، ١٦٥/٢]،

---

١ هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في الكشف ١٢٠/٣؛ واللباب لابن عادل، ٦١٦/٧. والبيان للثعلبي، ١٢٨/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢ المائدة، ١١٢/٥.

وقولِه عزّ وعلَا:[١] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس، ١٠/١٨]؛ إذ به يتأتّى التوبيخُ ويتسنّى التقريعُ والتبكيتُ.

ومَنْ توَهَّم أنّ ذلك بطريق الاستقلال، ثمّ اعتذَرَ عنه بأنّ النصارى يعتقدون أنّ المعجِزاتِ التي ظهرت على يَدِ عيسى ومريمَ عليهما السلام[٢] لم يخلُقْها الله تعالى، بل هما خلَقَاها، فصَحَّ أنّهم اتّخذوهما في حقّ بعض الأشياء إلهَين مستقِلَّين، ولم يتّخِذوه تعالى إلهًا في حقّ ذلك البعض، فقد أبعَدَ عن الحقّ بمراحِلَ.[٣]

وأمّا مَن تعمَّقَ فقال: "إنّ عبادته تعالى مع عبادة غيره كَلَا عبادةٍ، فمَن عبَده تعالى مع عبادتهما / كأنّه عبَدهما ولم يعبُده تعالى"، فقد غفَل عمّا يُجدِيه [١٨٦ظ] واشتغل بما لا يَعنِيه كدَأب مَن قبله؛ فإنّ توبيخهم إنّما يحصُل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحًا، لا بما يلزَمُه بضربٍ مِن التأويل.

وإظهار الاسم الجليل لكونه في حَيّز القول المُسنَد إلى عيسى عليه السلام.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: فماذا يقول عيسى عليه السلام حينئذ؟ فقيل: يقول -وإيثارُ صيغة الماضي لِما مرّ مرارًا-: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾. ﴿سُبْحَٰنَ﴾ عَلَمٌ للتسبيح، وانتصابُه على المصدريّة، ولا يكاد يُذكَر ناصِبُه.

وفيه مِن المبالغة في التنزيه مِن حيث الاشتقاقُ مِن "السَّبْحِ" الذي هو الذَّهاب والإبعادُ في الأرض، ومِن جهة النقل إلى صيغة "التفعيل"، ومِن جهة العُدول مِن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصّةً المُشيرِ إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن، ومِن جهة إقامتِه مُقامَ المصدر مع الفعل ما لا يخفى، أي: أُنزِّهك تنزيهًا لائقًا بك مِن أن أقول ذلك، أو: مِن أن يُقالَ في حقّك ذلك. وأمّا تقدير "مِن أن يكون لك

---

[١] س: وجلّ.

[٢] س: عيسى عليه السلام ومريم.

[٣] السياق: ومَنْ توَهَّم أنّ ذلك بطريق الاستقلال... فقد أبعَدَ عن الحقّ بمراحِلَ.

شريكٌ في الألوهيّة" فلا يساعده سِباقُ النظم الكريم وسِياقُه.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ استئناف مقرِّرٌ للتنزيه، ومبيِّنٌ للمُنزَّهِ منه. و﴿مَا﴾[1] عبارة عن القول المذكور، أي: ما يستقيم وما ينبغي لي أن أقول قولًا لا يَحِقّ لي أن أقوله. وإيثار ﴿لَيْسَ﴾ على الفعل المَنفيّ لظهور دلالته على استمرار انتفاءِ الحَقّيّة وإفادةِ التأكيد بما في خبره مِن "الباء"؛ فإنّ اسمَه ضميرُه العائدُ إلى ﴿مَا﴾، وخبرَه ﴿بِحَقٍّ﴾، والجارُّ والمجرورُ فيما بينهما للتبيين كما في "سُقْيًا لك" ونحوِه.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ استئناف مقرِّرٌ لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهانيّ؛ فإنّ صدوره عنه مستلزِمٌ لعِلمه تعالى به قطعًا، فحيثُ انتفى علمُه تعالى به انتفى صدورُه عنه حتمًا، ضرورةَ أنّ عدم اللازم مستلزِمٌ لعدم الملزوم.

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ استئنافٌ جارٍ مَجرى التعليل لِما قبله، كأنّه قيل: لِأنّك تعلم ما أُخفِيه في نفسي؛ فكيف بما أُعلِنُه؟ وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ بيان للواقع، وإظهارٌ لقصوره، أي: ولا أعلم ما تُخفيه مِن معلوماتِك. وقوله تعالى: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ للمشاكَلة. وقيل: المراد بـ"النفس" هو الذات، ونسبةُ / "المعلومات" إليها لِما أنّها مرجعُ الصِّفات التي مِن جملتها العلمُ المتعلِّقُ بها، فلم يكن كَنِسبتها إلى الحقيقة. [١٨٧و] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ تعليل لمضمون الجملتين منطوقًا ومفهومًا.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾

وقوله عزّ وعلَا:[2] ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان ما صدر عنه، قد أُدرجَ فيه عدم صدور القول المذكور عنه على أبلغ وجهٍ وآكَدِه؛ حيثُ حُكِم بانتفاء صدور جميع الأقوال المغايِرةِ للمأمور به، فدخل فيه انتفاءُ

---

[1] في قوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

[2] س: وجلّ.

صدور القول المذكور دخولًا أوّليًا، أي: ما أمرتُهم إلّا بما أمرتَني به. وإنّما قيل: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ نزولًا على قضيّة حُسن الأدب، ومُراعاةً لِما ورد في الاستفهام.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ تفسير للمأمور به، وقيل: عطفُ بيانٍ للضمير في ﴿بِهِ﴾، وقيل: بدلٌ منه، وليس مِن شرط البدل جوازُ طرح المُبدَل منه مطلقًا ليلزَمَ بقاءُ الموصول بلا عائد، وقيل: خبرُ مضمَرٍ، أو مفعولُه، مثل "هو"، أو "أَعني".

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيبًا أُراعِي أحوالَهم، وأحمِلُهم على العمل بموجَب أمرِك، وأمنَعُهم عن المخالفة، أو: مشاهِدًا لأحوالهم مِن كفر وإيمانٍ. ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ﴿مَا﴾ مصدريّة ظرفيّة تُقدَّر بمصدرٍ مضافٍ إليه زمانٌ، و﴿دُمْتُ﴾ صِلتُها، أي: كنتُ شهيدًا عليهم مدّةَ دوامي فيما بينهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ بالرفع إلى السماء كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران، ٥٥/٣]؛ فإنّ التّوفّيَ أخذُ الشيء وافيًا، والموتُ نوعٌ منه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر، ٤٢/٣٩].

﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ لا غيرك، فـ﴿أَنتَ﴾ ضميرُ الفصل / أو تأكيدٌ. [١٨٧ظ] وقُرئ: "الرَّقِيبُ"[١] بالرفع، على أنّه خبرُ ﴿أَنتَ﴾، والجملة خبرٌ لـ"كان"، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلِّق به، أي: أنت كنتَ الحافظَ لأعمالهم والمُراقِبَ، فمنعتَ مَن أردتَ عِصمتَه عن المخالفة، بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيهِ عليها بإرسال الرُّسُل وإنزالِ الآيات، وخذَلتَ مَن خذَلتَ مِن الضالِّينَ، فقالوا ما قالوا.

﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ اعتراض تذييليّ مقرِّرٌ لِما قبله. وفيه إيذان بأنّه تعالى كان هو الشهيدَ على الكلّ حين كونِه عليه السلام فيما بينهم. و﴿عَلَىٰ﴾ متعلِّقة بـ﴿شَهِيدٌ﴾، والتقديمُ لمُراعاة الفاصلة.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة ابن عادل في اللباب، ٦٢٣/٧.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وقد استحقّوا ذلك، حيث عبَدوا غيرَك. ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: القويُّ القادرُ على جميع المقدورات، ومِن جملتها الثوابُ والعقابُ. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي لا يريد ولا يفعل إلّا ما فيه حكمة ومصلحة؛ فإنّ المغفرة مستحسَنة لكلّ مُجرِم، فإن عذّبتَ فعَدْلٌ، وإن غفرتَ ففَضْلٌ، وعدمُ غُفرانِ الشرك إنّما هو بمقتضى الوعيد، فلا امتناعَ فيه لذاته ليمنعَ الترديد. وقيل الترديد بالنسبة إلى فِرقتَين، والمعنى: إن تعذّبهم، أي: مَن كفَرَ منهم، وإن تَغفِرْ لهم، أي: مَن آمَنَ منهم.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾

[١٨٨و] / ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ كلام مستأنَف، خُتِم به حكاية ما حُكِيَ ممّا يقع يومَ يجمع الله الرُّسُلَ عليهم السلام، وأُشيرَ إلى نتيجته ومآلِه، أي: يقول الله تعالى يومئذ عَقيبَ جواب عيسى عليه السلام، مشيرًا إلى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الذين هو في زُمرتهم. وصيغة الماضي لِما مرّ في نظائره مرارًا.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ذلك اليوم، وهو مبتدأ، خبرُه ما بعده، أي: هذا اليوم الذي حُكِيَ بعضُ ما يقع فيه إجمالًا وبعضُه تفصيلًا ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بالرفع والإضافةِ.

والمراد بـ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ -كما يُنبِئ عنه الاسم- المستمرّون في الدارَين على الصدق في الأمور الدينيّة التي مُعظَمُها التوحيدُ الذي نحن بصدده والشرائعُ والأحكامُ المتعلِّقةُ به، مِن الرُّسُل الناطقين بالحقّ والصدق الداعِينَ إلى ذلك، وبه يحصُل الشهادةُ بصدق عيسى عليه السلام، ومِن الأُمَم المصدِّقين لهم المقتَدِين بهم عقدًا وعملًا، وبه يتحقّق المقصودُ بالحكاية مِن ترغيب السامعين في الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛[١] لا كلُّ مَن صَدَقَ في أيّ شيء كان، ضرورةَ أنّ الجانيَ المعترِفَ في الدنيا بجنايته لا ينفَعه يومئذٍ اعترافُه وصِدقُه.

---

[١] السياق: والمراد بـ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾... المستمرّون... مِن الرُّسُل... ومِن الأُمَم المصدِّقين...

﴿صِدْقُهُمْ﴾ أي: صِدقُهم فيما ذُكر مِن أمور الدين في الدنيا، إذ هو المستتبعُ للنفع يومئذ. واعتبار استمرارِه في الدارَين -مع أنّه لا حاجةَ إليه كما عرفتَ، ولا دخْلَ له في استتباع النفع والجزاء- ممّا لا وجهَ له.

وهذه القراءة هي التي أطبَقَ عليها الجمهورُ، وهي الأليَقُ بسِياق النظم الكريم وسِباقِه. وقد قُرئ: "يَوْمَ"[١] بالنصب، إمّا على أنّه ظرف لـ﴿قَالَ﴾، فـ﴿هَٰذَا﴾ حينئذ إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾... إلى آخره،[٢] وإمّا على أنّه خبر لـ﴿هَٰذَا﴾، فهو حينئذ إشارةٌ إلى جواب عيسى عليه السلام، / أي: هذا الجواب [١٨٨ظ] منه عليه السلام واقعٌ يومَ ينفع... إلخ، أو إلى السؤال والجواب معًا، وقيل: هو خبر، ولكنّه بُنِيَ على الفتح، وليس بصحيح عند البصريّين؛[٣] لأنّه مضافٌ إلى متمكِّنٍ. وقُرئ: "يَوْمٌ"[٤] بالرفع والتنوينِ، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى﴾ الآية [البقرة، ٢/٤٨، ١٢٣].

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان النفع المذكور، كأنّه قيل: ما لهم مِن النفع؟ فقيل: لهم نعيم دائم وثواب خالد. وقوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئناف آخَرُ لبيان أنّه عزّ وجلّ أفاض عليهم غيرَ ما ذُكر مِن الجنّات ما لا قَدْرَ لها عنده، وهو رِضوانُه الذي لا غايةَ وراءَه كما يُنبِئ عنه قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾؛ إذ لا شيءَ أعزُّ منه حتّى يمتدَّ إليه أعناقُ الهِمَم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى نَيل رضوانِه تعالى، وقيل: إلى نَيل الكلّ. ﴿ٱلْفَوْزُ[٥] ٱلْعَظِيمُ﴾ لِما أنَّ عِظَم شأن الفَوز تابعٌ لعِظَم شأن المطلوب الذي تعلَّقَ به الفوز. وقد عرفتَ ألّا مطلَبَ وراءَ ذلك أصلًا.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

---

١ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٦.

٢ المائدة، ٥/١١٦.

٣ م ط س - عند البصريّين ["صح" في هامش م س].

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي واقد والجراح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٤.

٥ م ط س: هو الفوز.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ تحقيق للحقّ، وتنبيه على كذب النصارى وفسادِ ما زعَموا في حقّ المسيح وأُمِّه، أي: له تعالى خاصّةً مُلكُ السماوات والأرض وما فيهما مِن العُقَلاء وغيرِهم، يتصرّف فيها كيف يشاء إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتةً، وأمرًا ونهيًا، مِن غير أن يكون لشيء مِن الأشياء مدخَلٌ في ذلك.

وفي إيثار ﴿مَا﴾ على "مَن" المختصّةِ بالعُقَلاء على تقدير تناوُلِها[1] للكلّ مُراعاةٌ للأصل، وإشارةٌ إلى تَساوِي الفريقين في استحالة الربوبيّة حسْب تَساوِيهما في تحقّق المربوبيّة، وعلى تقدير اختصاصها[2] بغير العُقَلاء تنبيةٌ على كمال قصورهم عن رُتبة الألوهيّة، وإهانةٌ بهم بتغليب غيرهم عليهم. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالِغٌ في القدرة.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ المائدة أُعطِيَ مِنَ الأجر عَشْرَ حَسَناتٍ، ومُحِيَ عنه عَشْرُ سَيّئاتٍ، ورُفِعَ له عَشْرُ دَرَجاتٍ، بعدد كلّ يهوديّ ونَصرانيّ يتنفّس في الدنيا».[3]

---

[1] س: تناوله.

[2] أي: اختصاص ﴿مَا﴾.

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ١/٦٩٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/١٥٢. وباختلاف في الترتيب في **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢/١٤٧. وأخرجه ابن الجوزي في **الموضوعات**، ١/٢٣٩-٢٤٠. وانظر تعليق الزيلعي عليها: **تخريج أحاديث الكشّاف**، ١/٤٣٠؛ ٤/٣٤٣-٣٤٧. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد بفضل الله عزّ سُلطانه، في اليوم الثاني مِن جُمادَى الأُولى سنةَ ٩٦٥.

سورة الأنعام

مكّيّة،[1] غير ستّ آيات أو ثلاث مِن قوله ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾[2] [الأنعام، ٦/١٥١]، وهي مائة وخمس وستّون آيةً.[3]

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ [١٨٩و]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعليقُ "الحمد" المعرَّف بلام الحقيقة أوّلًا باسم الذات الذي عليه يدور كافّةُ ما يوجبه مِن صِفات الكمال وإليه يَئُول جميعُ نعوت الجلال والجمال، للإيذان بأنّه عزّ وجلّ هو المستحِقُّ له بذاته، لِما مرّ مِن اقتضاء اختصاصِ الحقيقة به سبحانه لاقتصارِ جميع أفرادها عليه بالطريق البرهانيّ،[4] ووصفُه[5] تعالى ثانيًا بما يُنبِئ عن تفصيل بعض موجِباته المنتظِمةِ في سلك الإجمال مِن عظائم الآثار وجلائلِ الأفعال مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، للتنبيه على استحقاقه تعالى له واستقلالِه به باعتبار أفعاله العِظام وآلائه الجِسام أيضًا.

وتخصيصُ خلقِهما بالذِّكر لاشتمالهما على جملة الآثار العُلويّة والسُفليّة وعامّةِ الآلاء الجليّة والخفِيّة التي أجلُّها نعمةُ الوجود الكافيةُ في إيجاب

---

١ ط + وعن ابن عبّاس.

٢ ط - أو ثلاث مِن قوله ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾.

٣ م - سورة الأنعام، مكّيّة، غير ستّ آيات أو ثلاث مِن قوله ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾، وهي مائة وخمس وستّون آيةً. | ولعلّ الزيادة بإشارة المصنّف رحمه الله.

٤ وفي هامش م: لكنْ لا بناءً على أنّ أفعال العباد كلّها مخلوقةٌ له تعالى، فيكونَ الأفراد الواقعة بمقابلة ما صدر عنهم مِن الأفعال الجميلة راجعةً إليه عزّ وجلّ؛ بل بناءً على تنزيل تلك الأفراد ودَواعِيها في المقام الخطابيّ منزلةَ العدم كمًّا وكيفًا. «منه».

٥ السياق: تعليقُ "الحمد" المعرَّف بلام الحقيقة أوّلًا... للإيذان... ووصفُه تعالى ثانيًا... للتنبيه...

حمده تعالى على كلّ موجود؛ فكيف بما يتفرّع عليها مِن فنون النِّعَم الأنفُسِيّة والآفاقيّة المَنوطِ بها مصالحُ العباد في المعاش والمعاد؟ أي: أنشأهما على ما هما عليه مِن النَّمَط الفائق والطِّراز الرائق، مُنطوِيتَين مِن أنواع البدائع وأصنافِ الروائع على ما يتحيّر فيه العقول والأفكار مِن تعاجيب العِبَر والآثار، تبصِرةً وذكرى لأُولي الأبصار. وجمعُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لظهور تعدّدِ طَبَقاتها واختلافِ آثارها وحركاتِها، وتقديمُها لشَرَفها وعُلُوّ مكانها وتقدّمِها وجودًا على الأرض كما هي.[1]

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ عطفٌ على ﴿خَلَقَ﴾، مترتِّبٌ عليه لكون جعلهما مسبوقًا بخلق مَنشَئِهما ومَحلِّهما، داخلٌ معه في حكم الإشعار بعِلّة الحمد؛ فكما أنّ خلق السماوات والأرض وما فيهما لكونه أثرًا عظيمًا ونعمةً جليلةً موجِبٌ لاختصاص الحمد بخالقهما جلّ وعلَا، كذلك جعلُ الظُّلُمات والنور لكونه أمرًا خطيرًا ونعمةً عظيمةً مقتَضٍ / لاختصاصه بجاعلهما. [١٨٩ظ]

والجعل: هو الإنشاءُ والإبداعُ كالخَلق؛ خَلَا أنّ ذلك مختصٌّ بالإنشاء التكوينيّ، وفيه معنى التقدير والتسوِيَة، وهذا عامٌّ له[2] كما في الآية الكريمة، وللتشريعيّ أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾ الآية [المائدة، ١٠٣/٥]. وأيًّا ما كان، ففيه إنباءٌ عن ملابَسة مفعوله بشيءٍ آخَرَ بأنْ يكون فيه أو له أو منه أو نحو ذلك، ملابَسةً مصحِّحةً لِئَنْ يتوسّطَ بينهما شيءٌ مِن الظروف لَغوًا كان أو مستقِرًّا؛ لكنْ لا على أن يكون عُمدةً في الكلام، بل قيدًا فيه، كما في قوله عزّ وعلا: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا﴾ [الفرقان، ٥٣/٢٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الرعد، ٣/١٣؛ فصلت، ١٠/٤١]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ الآية [النساء، ٧٥/٤]؛ فإنّ كلّ واحد مِن هذه الظروف، إمّا متعلِّقٌ بنفس "الجعل"، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن مفعوله تقدّمت عليه لكونه نكِرةً.

وأيًّا ما كان، فهو قيدٌ في الكلام، حتّى إذا اقتضى الحالُ وقوعَه عُمدةً فيه يكون "الجعلُ" متعدّيًا إلى اثنين هو ثانيهما، كما في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة، ١٩/٢]. وربّما يَشتبِهُ الأمرُ فيُظنّ أنّه عُمدة فيه،

[1] وفي هامش م: أي: مَدحوّة مبسوطة. «منه».
[2] أي: للإنشاء التكوينيّ.

وهو في الحقيقة قيدٌ بأحد الوجهين كما سلف في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٣٠/٢]، حيث قيل: إنّ الظرف مفعولٌ ثانٍ لـ﴿جَاعِلٌ﴾، وقد أُشيرَ هناك إلى أنّ الذي يقضي به الذّوق السليم ويقتضيه جزالةُ النظم الكريم أنّه متعلِّق بـ﴿جَاعِلٌ﴾ أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن المفعول، وأنّ المفعول الثانيَ هو ﴿خَلِيفَةً﴾، والأوّل محذوف على ما مرّ تفصيله.

وجمعُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لظهور كثرة أسبابها ومَحالِّها عند الناس ومشاهَدتِهم لها على التفصيل، وتقديمُها على ﴿ٱلنُّورَ﴾ لتقدُّم الإعدام على المَلَكات، مع ما فيه مِن رعاية حُسن المقابلة بين القرينتين.[1]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ / معطوف على الجملة [١٩٠و] السابقة الناطقةِ بما مرّ مِن موجِبات اختصاصه تعالى بالحمد المستدعي لاقتصار العبادة عليه -كما حُقّق في تفسير الفاتحة الكريمة-[2] مَسوقٌ لإنكار ما عليه الكَفَرة واستبعادِه مِن مخالَفتِهم لمضمونها واجترائِهم على ما يقضي ببُطلانه بديهةُ العقول. والمعنى: أنّه تعالى مختصٌّ باستحقاق الحمد والعبادةِ باعتبار ذاته، وباعتبار ما فُصّل مِن شئونه العظيمة الخاصّةِ به، الموجِبةِ لقَصْر الحمد والعبادة عليه؛ ثمّ هؤلاء الكَفَرةُ لا يعملون بمُوجَبه ويعدِلون به سبحانه، أي: يُسَوُّون به غيرَه في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر الذي رأسُه الحمدُ، مع كون كلِّ ما سِواه مخلوقًا له غيرَ متّصِفٍ بشيء مِن مبادئ الحمد.

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الشرك بعد وضوح ما ذُكر مِن الآيات التكوينيّة القاضيةِ ببُطلانه، لا بعد بيانه بالآيات التنزيليّة. والموصول عبارة عن طائفة الكُفّار، جارٍ مَجرى الاسم لهم، مِن غير أن يُجعَل كفرهم بما يجب أن يُؤمَن به -كلًّا أو بعضًا- عُنوانًا للموضوع؛ فإنّ ذلك مُخِلّ باستبعاد ما أُسندَ إليهم مِن الإشراك.

---

١ وفي هامش م: حيث قُدّم فيهما الجمع وأُخّر المفرد. «منه».

٢ وفي هامش م: كما يُنبئ عنه قول الفاضل الزمخشري: «إنّ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة، ٥/١] بيانٌ لحمدهم له تعالى، كأنّه قيل: كيف تَحمَدونه؟ فقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾»... إلخ. «منه». | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٩/١.

و"الباء" متعلِّقة بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾. ووضعُ "الربّ" موضِعَ ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح. والتقديم لمَزيد الاهتمام، والمسارعةِ إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد، والمحافظةِ على الفواصل. وتركُ المفعول لظهوره، أو لتَوجيه الإنكار إلى نفس الفعل بتنزيله منزلةَ اللازم، إيذانًا بأنّه المدارُ في الاستبعاد والاستنكار، لا خصوصيّةُ المفعول. هذا هو الحقيق بجزالة التنزيل والخليقُ بفخامة شأنه الجليل.

وأمّا جعلُ "الباء" صلةً لـ﴿كَفَرُوا﴾، على أنّ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ مِن "العُدول"، والمعنى: أنّ الله تعالى حقيقٌ بالحمد على ما خلقه نعمةً على العباد، ثمّ الذين كفروا به يعدِلون فيكفرون نِعمتَه، فيرُدّه[١] أنّ كفرهم به تعالى -لاسيّما باعتبار ربوبيّتِه تعالى لهم- أشدُّ شناعةً وأعظَمُ جنايةً / مِن عُدولهم عن حمده عزّ وجلّ [١٩٠ظ] لتحقّقِه مع إغفاله أيضًا؛ فجعلُ أهوَنِ الشَّرَّين[٢] عُمدةً في الكلام مقصودَ الإفادة وإخراجُ أعظَمِهما[٣] مُخرَجَ القيد المفروغِ عنه، ممّا لا عهدَ له في الكلام السديد؛ فكيف بالنظم التنزيليّ؟

هذا، وقد قيل: إنّه معطوف على ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والمعنى: أنّه تعالى خلق ما خلق ممّا لا يقدِر عليه أحدٌ سِواه، ثمّ هم يعدِلون به سبحانه ما لا يقدِر على شيء منه؛ لكنْ لا على قصدِ أنّه صلة مستقِلّة ليكونَ بمنزلةِ أن يُقال: الحمدُ لله الذي عدَلوا به؛ بل على أنّه داخلٌ تحت الصلة بحيث يكون الكلّ صلةً واحدةً، كأنّه قيل: الحمد لله الذي كان منه تلك النِّعَمُ العِظامُ، ثمّ مِن الكَفَرة الكُفْرُ. وأنت خبير بأنّ ما ينتظِم في سلك الصلة المنبِئةِ عن موجِبات حمده عزّ وجلّ[٤] حقُّه أن يكون له دَخْلٌ في ذلك الإنباء ولو في الجملة، ولا ريبَ في أنّ كفرهم بمَعزِلٍ منه.

وادّعاءُ أنّ له دَخْلًا فيه لدلالته على كمال الجُود -كأنّه قيل: الحمد لله الذي أنعَمَ بمِثل هذه النِّعَم العِظام[٥] على مَن لا يحمَده- تعسُّفٌ[٦] لا يساعده النِّظام،

---

[١] السياق: وأمّا جعلُ "الباء" صلةً لـ﴿كَفَرُوا﴾... فيرُدّه...

[٢] وفي هامش م: وهو عُدولهم عن حمده سبحانه. «منه».

[٣] وفي هامش م: وهو كفرهم بربّهم. «منه».

[٤] س: تعالى.

[٥] س – العظام.

[٦] وفي هامش م: لأنّ المذكور ههنا إنّما هو النَّعْماء السابقة بلا تعرّض للنِّعَم الفائضة على الكَفَرة بعد كفرهم. «منه».

وتعكيسٌ يأباه المقام؛ كيف لا، ومَساقُ النظم الكريم -كما يُفصِح عنه الآيات الآتية- تشنيعُ الكَفَرة وتوبيخُهم ببيانِ غاية إساءتهم مع نهاية إحسانه تعالى إليهم، لا بيانُ نهاية إحسانه تعالى إليهم مع غاية إساءتهم في حقّه تعالى كما يقتضيه الادّعاء المذكور.

وبهذا اتّضَحَ أنّه لا سبيلَ إلى جعل المعطوف مِن رَوادف المعطوف عليه، لِما أنّ حقّ الصلة أن تكون غيرَ مقصودةِ الإفادة؛ فما ظنُّك بما هو مِن رَوادفها؟ وقد عرفتَ أنّ المعطوف هو الذي سِيقَ له الكلام، فتأمَّلْ، وكُنْ على الحقّ المُبِين.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان بُطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم لِما يوجِب الإيمانَ به، إثرَ بيان بطلان إشراكهم به تعالى مع معايَنَتهم لمُوجِبات توحيده. / وتخصيص خلقهم بالذِّكر مِن بين سائر دلائل صحّة البعث -مع أنّ ما ذُكر مِن خلق السماوات والأرض مِن أوضحِها وأظهرِها كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس، ٨١/٣٦]- لِما أنّ مَحلّ النزاع بعثُهم؛ فدلالةُ بَدء خلقهم على ذلك أظهَرُ، وهم بشئون أنفُسِهم أعرَفُ، والتعامي عن الحجّة النيّرة أقبَحُ. والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ. أي: ابتدأ خلقَكم منه، فإنّه المادّة الأُولى للكلّ لِما أنّه مَنشَأ آدمَ الذي هو أصل البَشَر. [١٩١و]

وإنّما نُسب هذا الخلق إلى المخاطَبين -لا إلى آدمَ عليه السلام، وهو المخلوقُ منه حقيقةً، بأنْ يُقال: هو الذي خلق أباكم... إلخ، مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه في إيجاب الإيمان بالبعث وبُطلانِ الامتراء- لتوضيحِ مِنهاج القياس، والمبالغةِ في إزاحة الاشتباه والالتباس، مع ما فيه مِن تحقيق الحقّ والتنبيهِ على حكمة خفِيّة: هي أنّ كلّ فرد مِن أفراد البَشَر له حظٌّ مِن إنشائه عليه السلام منه؛ حيث لم تكن فِطرتُه البديعةُ مقصورةً على نفسه؛ بل كانت أُنموذجًا مُنطوِيًا على فِطرة سائرِ آحادِ الجنس انطواءً إجماليًا مستتبِعًا

لجَرَيان آثارها على الكلّ، فكان خلقُه عليه السلام مِن الطِّين خلقًا لكلّ أحد مِن فروعه منه.

ولمّا كان خلقُه عليه السلام على هذا النَّمَط الساري إلى جميع أفراد ذُرِّيّته أبدَعَ مِن أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه -كما هو المفهومُ مِن نسبة الخلق المذكور إليه- وأدلَّ على عِظَم قدرة الخلّاق العليم وكمالِ علمه وحكمتِه، وكان ابتداءُ حال المخاطَبين أولى بأنْ يكون مِعيارًا لانتهائها، فُعِل ما فُعِل،[١] ولله دَرُّ شأن التنزيل. وعلى هذا السِّرّ مدارُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾... إلخ [الأعراف، ١١/٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم، ٩/١٩] كما سيأتي.

وقيل: المعنى: "خلَقَ أباكم منه" على حذف المضاف. وقيل: معنى "خلقهم منه": خلقُهم مِن النُّطفة الحاصلة مِن الأغذِية المتكوِّنة مِن الأرض. وأيًّا ما كان، ففيه مِن وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث ما لا يخفى؛ فإنّ مَن قدَرَ على إحياءِ ما لم يشُمَّ رائحةَ الحياة قطُّ، كان على إحياءِ ما قارَنها مدّةً أظهَرَ قدرةً.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾ أي: كتب لموتِ كلّ واحد منكم ﴿أَجَلًا﴾ خاصًّا به، أي: حدًّا معيَّنًا مِن الزمان يفنى عند حلوله لا محالةَ. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للإيذان بتفاوُتِ ما بين خلقهم وبين تقدير آجالهم حسبما يقتضيه الحِكَم البالغة. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: حدٌّ معيَّنٌ لبعثكم جميعًا. وهو مبتدأ لتخصُّصه بالصفة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ [البقرة، ٢٢١/٢]، ولوقوعِه في موقع التفصيل كما في قول مَن قال:

إذا ما بَكَى من خلفها انصرفَتْ له بشقٍّ وشِقٌّ عندنا لم يُحوَّلِ[٢]

---

[١] السياق: ولمّا كان... وكان... فُعِل ما فُعِل.

[٢] البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه بشرح السكري، ١٨٩/١، وعجزه:

بشِقٍّ وتحتي شِقُّها لم يُحوَّلِ

لعلّ المصنّف نقله مِن اللباب لابن عادل، ١٦/٨. | وشِقّ الشيء: نِصفه. يقول: إذا ما بكى الصبي مِن خلف المرضِع انصرفَتْ إليه بنصفها الأعلى، فأرضعَتْه وأرضَتْه، وتحتي نصفُها الأسفل لم تحوّله عنّي. وصَفَ غايةَ مَيلها إليه وكلفها به، حيث لم يشغلها عن مرامه ما يشغل الأمّهاتِ عن كلّ شيء.

وتنوينُه لتفخيم شأنه وتهويلِ أمره؛ ولذلك أُوثِرَ تقديمُه على الخبر الذي هو ﴿عِندَهُۥ﴾، مع أنّ الشائع المستفيضَ هو التأخير كما في قولك: "عندي كلامٌ حقٌّ" و"لي كتابٌ نفيسٌ"، كأنّه قيل: وأيّ أجَلٍ مسمًّى مثبَتٍ معيَّنٍ في علمه لا يتغيّر ولا يقِف على وقت حلوله أحدٌ لا مجمَلًا ولا مفصَّلًا؛ وأمّا أجَلُ الموت فمعلوم إجمالًا وتقريبًا بناءً على ظهور أماراتِه أو على ما هو المعتاد في أعمار الإنسان، وتسمِيتُه "أجلًا" إنّما هي / باعتبار كونه غايةً لمدّة لبثهم في القبور، لا باعتبار كونه مَبدَأً لمدّة القيامة، كما أنّ مدار التسمية في "الأجَل الأوّل" هو كونه آخِرَ مدّة الحياة، لا كونُه أوّلَ مدّة المَمات، لِما أنّ "الأجَل" في اللغة عبارةٌ عن آخِر المدّة، لا عن أوّلها. [١٩١ظ]

وقيل: الأجَل الأوّل ما بين الخلق والموت، والثاني ما بين الموت والبعث مِن البَرزخ؛ فإنّ الأجَل كما يُطلَق على آخِر المدّة يُطلَق على كلّها، وهو الأوفَقُ لِما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ الله تعالى قضى لكلّ أحد أجَلَين: أجَلًا مِن مَولِده إلى موته، وأجَلًا مِن موته إلى مَبعَثه؛ فإن كان بَرًّا تقِيًّا وَصولًا للرَّحِم زِيدَ له مِن أجَل البعث في أجَل العُمر، وإن كان فاجرًا قاطعًا نُقِص مِن أجَل العُمر وزِيدَ في أجَل البعث، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ [فاطر، ٣٥/١١]»؛[١] فمعنى عدمِ تغيّر الأجَل حينئذ عدمُ تغيّر آخِرِه.

والأوّل هو الأشهَرُ الأليَقُ بتفخيم الأجَل الثاني المَنوطِ باختصاصه[٢] بعلمه تعالى، والأنسَبُ بتهويله المبنيّ على مقارنتِه للطامّة الكُبرى؛ فإنّ كون بعضِه معلومًا للخلق ومُضِيَّه مِن غير أن يقع فيه شيءٌ مِن الدواهي كما يستلزمه الحملُ على المعنى الثاني، مُخِلٌّ بذلك قطعًا. ومعنى زيادةِ الأجَل ونقصِه فيما رُوي تأخيرُ الأجَل الأوّل وتقديمُه.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد واستنكار لامترائِهم في البعث بعد معايَنَتهم لِما ذُكر مِن الحُجَج الباهرة الدالّةِ عليه، أي: تمترُون في وقوعه وتحقّقِه في نفسه

---

[١] هو باختلاف يسير في التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٢٥٢، ومع اختلاف بالنقص والزيادة في البحر المحيط لأبي حيّان، ٤/٤٣٢.

[٢] أي: باختصاص الأجَل.

مع مشاهدتكم في أنفُسِكم مِن الشواهد ما يقطع مادّةَ الامتراء بالكلّيّة؛ فإنّ مَن قدَرَ على إفاضة الحياة وما يتفرّع عليها مِن العلم والقدرة وسائرِ الكمالات البَشَريّة على مادّةٍ غيرِ مستعِدّةٍ[1] لشيء منها أصلًا، كان أوضَحَ اقتدارًا على إفاضتها على مادّةٍ قد استعَدّت لها وقارَنَتْها مدّةً.

[١٩٢و] ومِن ههنا تبيَّنَ أنّ ما قيل مِن أنّ الأجَل الأوّلَ / هو النومُ والثانيَ هو الموتُ، أو أنّ الأوّل أجَلُ الماضِينَ والثانيَ أجَلُ الباقِينَ، أو أنّ الأوّل مقدارُ ما مضى مِن عُمر كلّ أحد والثانيَ مقدارُ ما بقي منه، ممّا[2] لا وجهَ له أصلًا، لِما رأيتَ مِن أنّ مَساق النظم الكريم استبعادُ امترائهم[3] في البعث الذي عُبّر عن وقته بـ"الأجَل المُسمّى"؛ فحيث أُريدَ به أحدُ ما ذُكر مِن الأمور الثلاثة، ففي أيّ شيء يمترُون؟

ووصفُهم بـ"الامتراء" الذي هو الشكُّ، وتوجيهُ الاستبعاد إليه -مع أنّهم جازمون بانتفاء البعث مُصِرّون على إنكاره كما يُنبئ عنه قولُهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون، ٨٢/٢٣؛ الصافات، ١٦/٣٧، ٥٣؛ الواقعة، ٤٧/٥٦] ونظائرُه- للدلالة على أنّ جزمهم المذكورَ في أقصى مراتب الاستبعاد والاستنكار.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾

وقوله عزّ وجلّ:[4] ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، معطوفةٌ على ما قبلها، مَسوقةٌ لبيان شمول أحكامِ إلهيّتِه تعالى لجميع المخلوقات وإحاطةِ علمه بتفاصيل أحوال العباد وأعمالِهم المؤدّيةِ إلى الجزاء، إثرَ الإشارةِ إلى تحقّق المعاد في تضاعيف بيان كيفيّة خلقهم وتقديرِ آجالهم.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلّقٌ بالمعنى الوصفيّ الذي يُنبئ عنه الاسم الجليل، إمّا باعتبار أصل اشتقاقه وكونِه عَلَمًا للمعبود بالحقّ، كأنّه قيل: وهو المعبود فيهما، وإمّا باعتبار أنّه اسمٌ اشتهر بما اشتهرَتْ به الذاتُ

---

[1] أي: مَن قدَرَ على إفاضة الحياة على مادّةٍ غيرِ مستعِدّةٍ.

[2] وفي هامش م: خبر "أنّ".

[3] وفي هامش م: اشترائهم. بيانه. «منه».

[4] س: تعالى.

مِن صفات الكمال، فلُوحِظَ معه منها ما يقتضيه المقام[١] مِن المالكيّة الكلّيّةِ والتصرّفِ الكامل، حسبما يقتضيه المشيئةُ المبنيّةُ على الحِكَم البالغة، فعُلّق به الظرف مِن تلك الحيثيّة، فصار كأنّه قيل: وهو المالك أو المتصرِّفُ المدبّرُ فيهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف، ٨٤/٤٣].

وليس المراد بما ذُكر مِن الاعتبارَين أنّ الاسم الجليل يُحمَل على معناه اللغويّ أو على معنى "المالك" أو "المتصرِّف" أو نحو ذلك؛ بل مجرَّدُ ملاحظة أحد المعاني المذكورة في ضِمنه، كما لُوحِظَ مع اسم "الأسَد" في قوله: «أسَدٌ عليّ»... إلخ[٢] ما اشتهر به مِن وصف الجَراءة التي اشتهر بها مُسمّاه، فجرى مَجرى "جَريءٌ عليّ".

[١٩٢ظ] / وبهذا تبيَّنَ أنّ ما قيل بصَدَد التصوير والتفسير: «أي: هو المعروف بذلك في السماوات وفي الأرض»،[٣] أو «هو المعروف المشتهِرُ بالصفات الكماليّة»،[٤] أو «هو المعروف بالإلهيّة فيهما»،[٥] أو نحوُ ذلك، بمَعزِلٍ مِن التحقيق؛ فإنّ المعتبَر مع الاسم هو نفسُ الوصف الذي اشتهر به، إذ هو الذي يقتضيه المقامُ

---

١ وفي هامش م: أي: مقامُ وصفه تعالى بما سبق مِن خلق السماوات والأرض، وجعلِ الظُلُمات والنور، وخلقِ البَشَر مِن طين، وتقديرِ آجالهم، وتدبيرِ أحوالهم، وما لحِق مِن الإحاطة بجميع أحوالهم وأعمالِهم المستتبِعةِ لمُجازاتهم بالإثابة والعقاب. «منه».

٢ وفي هامش م: تمامه:

... وفي الحروب نعامة
فَتخاءُ تنفر مِن صَفير الصافر

«منه». | البيت بهذه الألفاظ لعِمران بن حطّان السدوسي في عروس الأفراح للسبكي، ٢٢/٢؛ وزَهر الأكم للحسن اليوسي، ٢٢٦/٣، وباختلاف في عجزه في ربيع الأبرار للزمخشري، ١٠٦/٤؛ والحماسة البصريّة لأبي الحسن البصري، ٧٠/١؛ وغُرَر الخصائص للوطواط، ص ٤٥٦، ففي الأوّل "ربداء تفزع"، وفي الثاني "ربداء تجفل"، وفي الثالث "فتخاء تجفل" بدلَ "فتخاء تنفر". | رُوى أنّ شبيب الخارجي وأمُه جهيزة وامرأتَه غزالة كانوا في غاية الفراسة، فدخلوا الكوفة في ألف وثلاثين فارسًا، وفيها حينئذ الحجّاج ومعه ثلاثون ألف مقاتل، فحاربوه سنةً كاملةً حتى هرب منهم، فعيَّرَه عمرانُ بذلك.

٣ وفي هامش م: كما قاله الفاضل التفتازاني. «منه». | انظر لقوله: حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٣٢٧ظ.

٤ وفي هامش م: كما قاله صاحب الكشف. «منه». | يعني سراج الدين القَزويني، قاله في الكشف عن مشكلات الكشّاف، ١١٧و.

٥ وفي هامش م: كما قاله صاحب الكشّاف. «منه». | انظر: الكشّاف للزمخشري ٥/٢.

حسبما بُيّن آنفًا، لا اشتهارُه[١] به؛[٢] ألَا يُرى أنّ كلمة "على" في المثال المذكور لا يُمكن تعليقُها باشتهار الاسم بالجَراءة قطعًا.

وقيل: هو[٣] متعلِّق بما يفيده التركيب الحَصريّ مِن التوحّد والتفرّد، كأنّه قيل: وهو المتوحِّد بالإلهيّة فيهما. وقيل: بما تقرّر عند الكلّ مِن إطلاق هذا الاسم عليه تعالى خاصّةً، كأنّه قيل: وهو الذي يُقال له "الله" فيهما، لا يُشرَك به شيءٌ في هذا الاسم، على الوجه الذي سبق مِن اعتبار معنى "التوحّد" أو "القول" في فحوى الكلام بطريق الاستتباع، لا على حمل الاسم الجليل على معنى المتوحِّد بالإلهيّة، أو على تقدير "القول".

وقد جُوّز أن يكون الظرف خبرًا ثانيًا، على أنّ كونه سبحانه فيهما عبارةٌ عن كونه تعالى مبالِغًا في العِلم بما فيهما، بناءً على تنزيل علمه المقدَّس عن حصول الصُّوَر والأشباح بكونه حُضوريًّا منزلةَ كونه تعالى فيهما وتصويرِه[٤] به[٥] على طريقة التمثيل المبنيِّ على تشبيه حالة علمه تعالى بما فيهما بحالة كونه تعالى فيهما؛ فإنّ العالِم إذا كان في مكانٍ، كان عالِمًا به وبما فيه على وجهٍ لا يخفى عليه منه شيءٌ. فعلى هذا يكون قوله عزّ وجلّ: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ أي: ما أسرَرْتموه وما جهَرْتم به مِن الأقوال، أو ما أسرَرْتموه وما أعلَنْتموه كائنًا ما كان مِن الأقوال والأعمال- بيانًا وتقريرًا لمضمونه وتحقيقًا للمعنى المراد منه.

وتعليقُ علمه عزّ وجلّ بما ذُكر خاصّةً -مع شموله لجميع ما فيهما[٦] حسبما يفيده الجملة السابقة- لانسياقِ النظم الكريم إلى بيان حال المخاطَبين. وكذا على الوجه الثاني؛ فإنّ ملاحظة الاسم الجليل مِن حيث المالكيّةُ الكلّيّةُ والتصرّفُ الكاملُ الجاري على النَّمَط المذكور مستتبِعةٌ لملاحظة علمه المحيط حتمًا،

---

١ كذا في الأصول الخطّيّة. وفي مطبوعاته: لاشتهارِه.

٢ وفي هامش م: وأمّا اعتبار الاشتهار للتوسّل الى اعتبار الوصف معه، فإنّ الأوصاف المشهورة للمسمّيات لا يتأتّى اعتبارها في ضِمن أسمائها الخفيّةِ. «منه». | والضمير في "به" يرجع إلى "الوصف".

٣ أي: قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٤ أي: تصوير علمه المقدّس.

٥ أي: بكونه تعالى فيهما.

٦ س: فيها.

فيكونُ هذا بيانًا وتقريرًا له بلا ريبَ.

وأمّا على الأوجُهِ الثلاثة الباقيةِ، / فلا سبيلَ إلى كونه بيانًا؛ لكن لا لِما قيل [١٩٣و] مِن أنّه لا دلالةَ لاستواءِ السِّرّ والجهر في علمه تعالى على ما اعتُبِر فيها مِن المعبوديّة والاختصاصِ بهذا الاسم؛ إذ ربّما يُعبَد ويُختصّ به مَن ليس له كمالُ العلم، فإنّه باطِلٌ قطعًا، إذ المراد بما ذُكر هو المعبوديّةُ بالحقّ والاختصاصُ بالاسم الجليل، ولا ريبَ في أنّهما ممّا لا يُتصوّر فيمَن ليس له كمالُ العلم بديهةً؛ بل لأنّ ما ذُكر مِن العلم[١] غيرُ معتبَر في مدلول شيءٍ مِن المعبوديّة بالحقّ والاختصاصِ بالاسم حتّى يكونَ هذا بيانًا له.

وبهذا تبيّنَ أنّه ليس ببيانٍ على الوجه الثالث[٢] أيضًا، لِما أنّ التوحُّدَ بالإلهيّة لا يُعتبر في مفهومه العلمُ الكاملُ ليكونَ هذا بيانًا له؛ بل هو معتبَر فيما صدق عليه المتوحِّد، وذلك غيرُ كافٍ في البيانيّة.

وقيل: هو خبرٌ بعد خبرٍ عند مَن يجوّز كونَ الخبر الثاني جملةً كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٢٠]. وقيل: هو الخبر، والاسم الجليل بدلٌ مِن ﴿هُوَ﴾، وبه يتعلّق الظرفُ المتقدِّمُ، ويَكفي في ذلك كونُ المعلوم فيهما، كما في قولك: "رمَيتُ الصيدَ في الحَرَم"، إذا كان هو فيه وأنت خارِجَه. ولعلّ جعْلَ سِرّهم وجهرِهم فيهما لتوسيع الدائرة، وتصويرِ أنّه لا يَعزُب عن علمه شيءٌ منهما[٣] في أيّ مكانٍ كان؛ لا لأنّهما قد يكونانِ في السماوات أيضًا. وتعميمُ الخطاب لأهلها تعسُّفٌ لا يخفى.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: ما تفعلونه لجلب نفعٍ أو دفعِ ضرّ مِن الأعمال المكتسَبةِ بالقلوب أو بالجوارح سِرًّا أو علانِيَةً. وتخصيصها بالذِّكر -مع اندراجها فيما سبق على التفسير الثاني / للسِّرّ والجهر- لإظهار كمال الاعتناء بها؛ [١٩٣ظ] لأنّها التي يتعلّق بها الجزاءُ، وهو السِّرّ في إعادة ﴿يَعْلَمُ﴾.

---

١ السياق: لكن لا لِما قيل مِن أنّه... بل لأنّ ما ذُكر مِن العلم...

٢ وهو: تعليق ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ بما يفيده التركيب الحَصري مِن التوحّد والتفرّد.

٣ أي: مِن سِرّهم وجهرِهم.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كلام مستأنَف واردٌ لبيان كفرهم بآيات الله وإعراضِهم عنها بالكلّيّة بعد ما بُيّن في الآية الأولى إشراكُهم بالله سبحانه وإعراضُهم عن بعض آيات التوحيد، وفي الآية الثانية امتراؤُهم في البعث وإعراضُهم عن بعض آياته. والالتفات للإشعار بأنّ ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يُضرَب عنهم الخطابُ صفحًا، وتُعدَّدَ جناياتُهم لغيرهم ذمًّا لهم وتقبيحًا لحالهم؛ فـ﴿مَا﴾ نافيةٌ، وصيغةُ المضارع لحكاية الحال الماضية، أو للدلالة على الاستمرار التجدُّديّ. و﴿مِنْ﴾ الأولى مزيدةٌ للاستغراق، والثانيةُ تبعيضيّةٌ واقعةٌ مع مجرورها صفةً لـ﴿ءَايَةٍ﴾.

وإضافة "الآيات" إلى اسم "الربّ" المضافِ إلى ضمير "هم" لتفخيم شأنها المستتبعِ لتهويل ما اجترءُوا عليه في حقّها. والمراد بها إمّا الآياتُ التنزيليّةُ، فإتيانُها نزولُها، والمعنى: ما ينزل إليهم آيةٌ مِن الآيات القرآنيّة التي مِن جملتها هاتيك الآياتُ الناطقةُ بما فُصّل مِن بدائع صُنع الله عزّ وجلّ، المُنبِئةُ عن جَرَيان أحكام ألوهيّتِه على كافّة الكائنات وإحاطةِ علمه بجميع أحوال الخلق وأعمالِهم، الموجِبةُ للإقبال عليها والإيمانِ بها، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: على وجه التكذيب والاستهزاء، كما ستقِف عليه.

وإمّا الآياتُ التكوينيّةُ[1] الشاملةُ للمعجِزات وغيرِها مِن تعاجيب المصنوعات، فإتيانُها ظهورُها لهم، والمعنى: ما يظهر لهم آيةٌ مِن الآيات التكوينيّة التي مِن جملتها ما ذُكر مِن جلائل شئونه تعالى الشاهدةِ بوحدانيّتِه تعالى، إلّا كانوا عنها معرِضين، تاركين للنظر الصحيحِ فيها المؤدّي / إلى الإيمان بمُكوّنها. [١٩٤و]

وإيثاره على أن يُقال: "إلّا أعرضوا عنها"، كما وقع مِثله في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر، ٥٤/٢]، للدلالة على استمرارهم

---

[1] السياق: والمراد بها إمّا الآياتُ التنزيليّةُ... وإمّا الآياتُ التكوينيّةُ...

على الإعراض حسب استمرارِ إتيان الآيات. و﴿عَنْ﴾ متعلِّقة بـ﴿مُعْرِضِينَ﴾، قُدِّمت عليه مُراعاةً للفواصل.

والجملة في محلّ النصب على أنّها حال مِن مفعول ﴿تَأْتِي﴾، أو مِن فاعله المتخصِّصِ بالوصف لاشتمالها على ضمير كلٍّ منهما. وأيًّا ما كان، ففيها دلالةٌ بيّنةٌ على كمال مسارعتهم إلى الإعراض وإيقاعِهم له في آنِ الإتيان، كما يُفصح عنه كلمةُ ﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ فإنّ "الحقّ" عبارةٌ عن القرآن الذي أعرضوا عنه حين أعرضوا عن كلّ آيةٍ آيةٍ منه، عُبّر عنه بذلك إبانةً لكمال قُبح ما فعلوا به؛ فإنّ تكذيب الحقّ ممّا لا يُتصوَّر صدوره عن أحد.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ لكنْ لا على أنّه شيء مغايِر له في الحقيقة، واقعٌ عَقيبَه أو حاصلٌ بسببه؛ بل على أنّ الأوّل هو عين الثاني حقيقةً، وإنّما الترتيبُ بحسَبِ التغايُر الاعتباريّ. و﴿قَدْ﴾ لتحقيق ذلك المعنى كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان، ٤/٢٥]؛ فإنّ ما جاءوه -أي: فعلوه مِن الظلم والزُّور- عينُ قولِهم المَحكيّ، لكنّه لمّا كان مغايِرًا له مفهومًا وأشنَعَ منه حالًا، رُتِّب عليه بـ"الفاء" ترتيبَ اللازم على الملزوم تهويلًا لأمره.

كذلك مفهومُ التكذيب بالحقّ؛ حيث كان أشنَعَ مِن مفهوم الإعراض المذكور، أُخرِجَ مُخرَجَ اللازم البيّنِ البُطلان، فرُتّب عليه بـ"الفاء" إظهارًا لغاية بُطلانه،[1] ثمّ قُيّد ذلك[2] بكونه بلا تأمُّل تأكيدًا لشناعته وتمهيدًا لبيانِ أنّ ما كذّبوا به آثِرَ ذي أثيرٍ[3] له عواقِبُ جليلةٌ ستَبْدُو لهم البتّةَ. والمعنى: أنّهم / حيث أعرضوا [١٩٤ظ] عن تلك الآيات عند إتيانها، فقد كذّبوا بما لا يمكن تكذيبُه أصلًا، مِن غير أن يتدبّروا في حاله ومآله ويقِفوا على ما في تضاعيفه مِن الشواهد الموجِبةِ لتصديقه، كقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس، ٣٩/١٠]،

---

١ أي: بُطلان التكذيب بالحقّ.

٢ أي: التكذيب بالحقّ.

٣ أفعلُ هذا آثِرَ ذي أثيرٍ، أي: أوّلَ كلّ شيء. الصحاح للجوهري، «أثر».

كما يُنبئ عنه قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ فإنّ ﴿مَا﴾ عبارةٌ عن "الحقّ" المذكور، عُبّر عنه بذلك تهويلًا لأمره بإبهامه، وتعليلًا للحُكم بما في حيّز الصلة.

وأنباؤه عبارةٌ عمّا سيَحِيقُ بهم مِن العقوبات العاجلة التي نطَقت بها آياتُ الوعيد. وفي لفظ "الأنباء" إيذان بغاية العِظَم لِما أنّ النَّبأ لا يُطلَق إلّا على خبرٍ عظيمِ الوقع. وحملُها على العقوبات الآجلة أو على ظهور الإسلام وعُلُوّ كلمته، يأباه الآياتُ الآتية. و﴿سَوْفَ﴾ لتأكيد مضمون الجملة وتقريرِه، أي: فسيأتيهم البتّةَ، وإن تأخّرَ مِصداقُ أنباء الشيء الذي كانوا يكذّبون به قبلُ مِن غير أن يتدبّروا في عواقبه. وإنّما قيل: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إيذانًا بأنّ تكذيبهم كان مقرونًا بالاستهزاء كما أشيرَ إليه.

هذا على أن يرادَ بـ"الآيات" الآياتُ القرآنيّةُ، وهو الأظهَرُ. وأمّا إن أريدَ بها الآياتُ التكوينيّةُ، فـ"الفاء" داخلةٌ على علّة جوابِ شرطٍ محذوفٍ، والإعراضُ على حقيقته، كأنّه قيل: إن كانوا معرِضين عن تلك الآيات، فلا تعجَبْ، فقد فعلوا بما هو أعظَمُ منها ما هو أعظَمُ مِن الإعراض، حيث كذّبوا بالحقّ الذي هو أعظَمُ الآيات. ولا مساغَ لحمل "الآيات" في هذا الوجه على كلّها أصلًا. وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: "أنّهم لمّا كانوا معرِضين عن الآيات كلِّها، كذّبوا بالقرآن"، فمِمّا ينبغي تنزيهُ التنزيل عن أمثاله.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

[١٩٥و] / ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعيين ما هو المراد بـ"الأنباء"[٢] التي سبق بها الوعيد، وتقريرِ إتيانها بطريق الاستشهاد. وهمزة الإنكار لتقرير الرُّؤية، وهي عِرفانيّة مستدعِيةٌ لمفعول واحد. و﴿كَمْ﴾ -استفهاميّةً كانت

---

[١] س: تعالى.

[٢] في الآية السابقة.

أو خبريّةً- معلّقةٌ لها عن العمل، مفيدةٌ للتكثير، سادّةٌ مع ما في حَيّزها مَسدَّ مفعولها، منصوبةٌ بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ على المفعوليّة على أنّها عبارة عن الأشخاص.

و﴿مِن قَرْنٍ﴾ مميّزٌ لها على أنّه عبارة عن أهل عصرٍ مِن الأعصار، سُمّوا بذلك لاقترانهم بُرهةً مِن الدهر كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «خيرُ القرون قَرني، ثمّ الذين يَلُونَهم» الحديث.[1] وقيل: هو عبارة عن مدّةٍ مِن الزمان، والمضافُ محذوف، أي: مِن أهل قرن. وأمّا انتصابها على المصدريّة أو على الظرفيّة على أنّها عبارة عن المصدر أو عن الزمان، فتعسُّفٌ ظاهر.

و﴿مِنْ﴾ الأولى ابتدائيّة متعلِّقة بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: ألم يعرفوا بمُعايَنة الآثار وسَماعِ الأخبار كم أمّةٍ أهلكنا مِن قبلِ أهل مكّةَ؟ أي: مِن قبل خلقِهم، أو مِن قبل زمانهم، على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه، كعادٍ وثمودَ وأضرابِهم.

وقوله تعالى: ﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف لبيان كيفيّة الإهلاك وتفصيلِ مَباديه، مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: كيف كان ذلك؟ فقيل: مكّنّاهم... إلى آخره. وقيل: هو صفة لـ﴿قَرْنٍ﴾ لِما أنّ النّكِرة مفتقِرةٌ إلى مخصِّص، فإذا وَلِيَها ما يصلُح مخصِّصًا لها تعيَّنَ وصفيّتُه لها. وأنت خبير بأنّ تنوينه التفخيميَّ مُغْنٍ له عن استدعاء الصفة، على أنّ ذلك، مع اقتضائه أن يكون مضمونُه ومضمونُ ما عُطف عليه مِن الجُمَل الأربعِ أمرًا مفروغًا عنه غيرَ مقصود بسياق النظم، مؤدٍّ إلى اختلال النظم الكريم؛ كيف لا، والمعنى حينئذ: ألم يرَوْا كم أهلكنا مِن قبلهم مِن قرنٍ موصوفين بكذا وكذا وبإهلاكنا إيّاهم بذنوبهم؛ وإنّه بيّنُ الفساد.

[١٩٥ظ] / وتمكين الشيء في الأرض: جعلُه قارًّا فيها، ولمّا لزِمه جعلُها مَقرًّا له وَرَدَ الاستعمالُ بكلٍّ منهما، فقيل: تارةً: "مكَّنَه في الأرض"، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف، ٢٦/٤٦]، وأخرى: "مكَّنَ له في الأرض"،[2]

---

[1] هو صدر حديث أخرجه البخاري في صحيحه، ١٧١/٣ (٢٦٥٢)، ٣/٥ (٣٦٥١)، ٩١/٨ (٦٤٢٩)؛ ومسلم في صحيحه، ١٩٦٣/٤ (٢٥٣٣)، عن عبد الله بن مسعود. ولفظ البخاري، رقم ٦٤٢٩: «خير الناس قرني، ثمّ الذين يَلُونَهم، ثمّ الذين يَلُونَهم، ثمّ يجيء مِن بعدهم قوم تسبِق شهادتُهم أيمانَهم، وأيمانُهم شهادتَهم». وهو بلفظ «خيرُ القرون قَرني»... إلخ في اللباب لابن عادل، ٣١/٨.

[2] وفي هامش م: وزيادة كلمة "في" لِمَا أنّ ما جُعل مكانًا له قِطعةٌ مِن الأرض، لا كلُّها. «منه».

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف، ١٨/٨٤]، حتّى أُجرِيَ كلٌّ منهما مُجرى الآخَر، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، كأنّه قيل في الأوّل: "مكنّا لهم"، أو في الثاني: "ما لم نُمكِّنْكم".

و﴿مَا﴾ نكِرة موصوفة بما بعدها مِن الجملة المَنفيّة، والعائدُ محذوف، محلُّها النصبُ على المصدريّة، أي: مكنّاهم تمكينًا لم نُمكِّنْه لكم. والالتفات لِما في مُواجَهتِهم بضَعف الحال مزيدُ بيانٍ لشأن الفريقين، ولدفعِ الاشتباه مِن أوّل الأمر عن مرجِعَي الضميرين.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: المَطَرَ أو السحابَ أو المِظلّة؛ لأنّها مَبدَأ المَطَر. ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلِّق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿مِّدْرَارًا﴾ أي: مِغزارًا، حال مِن ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: صيَّرْناها؛ فقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿جَعَلْنَا﴾، أو أنشأناها؛ فهو حال مِن مفعوله. و﴿مِن تَحْتِهِمْ﴾ متعلِّق بـ﴿تَجْرِي﴾، وفيه مِن الدلالة على كونها مسخَّرةً لهم، مستمِرّةً على الجَرَيان على الوجه المذكور ما ليس في أن يُقال: وأجرَيْنا الأنهارَ مِن تحتهم.

وليس المرادُ بتَعداد هاتيك النِّعَم العِظام الفائضةِ عليهم بعد ذكر تمكينهم بيانَ عِظَم جنايتهم في كُفرانها / [١٩٦و] واستحقاقِهم بذلك لأعظَمِ العقوبات؛ بل بيانُ حِيازتهم لجميع أسباب نَيل المآرِب ومَبادِئ الأمن والنَّجاة مِن المَكاره والمَعاطب، وعدمِ إغناء ذلك عنهم شيئًا. والمعنى: أعطيناهم مِن البَسْطة في الأجسام والامتدادِ في الأعمار والسَّعَةِ مِن الأموال والاستظهارِ بأسباب الدنيا في استجلاب المنافع واستدفاعِ المضارّ ما لم نُعطِ أهلَ مكّةَ، ففعلوا ما فعلوا، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكنا كلَّ قرن مِن تلك القرون بسبب ما يخُصّهم مِن الذنوب، فما أغنى عنهم تلك العُدَدُ والأسبابُ، فسيَحِلّ بهؤلاء مِثلُ ما حَلَّ بهم مِن العذاب. وهذا كما ترى آخِرُ ما به الاستشهادُ والاعتبارُ.

وأمّا قوله سبحانه: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أحدَثْنا مِن بعد إهلاك كلّ قرنٍ ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ بدلًا مِن الهالكين، فلِبَيان كمالِ قدرتِه تعالى وسَعَةِ سُلطانه، وأنّ ما ذُكر مِن إهلاك الأُمَم الكثيرة لم يُنقِص مِن مُلكه شيئًا؛ بل كلّما أهلك أمّةً أنشأ بدَلَها أخرى.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ جملة مستأنَفة، سِيقَتْ بطريق تلوين الخطاب لبيان شدّة شَكيمتِهم في المكابرة وما يتفرّع عليها مِن الأقاويل الباطلةِ، إثْرَ بيان إعراضهم عن آيات الله تعالى وتكذيبِهم بالحقّ واستحقاقِهم بذلك لِنزول العذاب. ونسبة "التنزيل" ههنا إليه عليه السلام -مع نسبة "إتيان الآيات" و"مجيء الحقّ" فيما سبق إليهم- للإشعار بقَدْحهم في نبوّته عليه السلامِ في ضِمن قدحهم فيما نزّل عليه صريحًا.

وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في النَّضْر بنِ الحارث[1] وعبدِ الله بنِ أبي أميّةَ[2] ونَوْفلَ بنِ خُويلِد،[3] حيث قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لن نؤمنَ لك حتّى تأتِيَنا بكتابٍ مِن عند الله ومعه أربعة مِن الملائكة يشهدون أنّه مِن عند الله تعالى وأنّك رسولُه».[4]

---

[1] هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كَلَدَة بن عبد مناف بن عبد الدار القرشي، أبو فائد (ت. ٢هـ/٦٢٤م). كان أشدَّ قريش مباداةً للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالتكذيب والأذى. وكان صاحبَ أحاديث ونظر في كتب الفرس ومخالطة النصارى واليهود. وكان صاحبَ لواء المشركين ببدر، وأسرَه المقداد يومئذ، فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بضرب عُنقه صَبرًا بالأثيل. وفيه نزلت آيات مِن القرآن. انظر: **أنساب الأشراف** للبَلاذُري، ١/١٣٩-١٤١؛ و**الأعلام** للزركلي، ٨/٣٣.

[2] هو عبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة المخزومي (ت. ٨هـ/٦٢٩-٦٣٠م). أخو أمّ سَلَمة زوجِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. كان شديدًا على المسلمين مخالفًا مبغِضًا، وكان شديدَ العداوة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ أنّه خرج مهاجرًا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلقيه بالطريق بين السُّقْيا والعَرج وهو يريد مكّة عام الفتح، فتلقّاه، فأعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرةً، فدخل على أخته وسألها أن تشفع له، فشفعت له أختِه أمّ سَلَمة، فشفعها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأسلم وحسُنَ إسلامه، وشهد فتح مكّة مسلمًا، وشهد حُنينًا والطائف، ورُمي يوم الطائف بسهم ومات يومئذ. انظر: **الاستيعاب** للنَّمري، ٣/٨٦٨-٨٦٩؛ و**أسد الغابة** لابن الأثير، ٣/١٧٦-١٧٧.

[3] هو نَوْفل بن خُوَيلد بن أسد القرشي (ت. ٢هـ/٦٢٤م). مِن أشدّ قريش شجاعةً وأذًى للمسلمين. كان يُدعى "أسد قريش". وهو الذي شدَّ أبا بكر الصدّيق وطلحة بن عُبيد الله حين أسلمَا في حَبْل، فكانا يسمَّيان "القرينَين" لذلك. شهد نَوْفل بن خُوَيلد الوقائع مع قريش. وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يدعو يوم بدر: «اللّهمّ اكفِنا ابنَ العَدَوية»، وأمّه مِن بني عَديّ بن خُزاعة، وقتَلَه عليّ بن أبي طالب يوم بدر. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٣/٢١٤-٢١٥؛ و**الأعلام** للزركلي، ٨/٥٤.

[4] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤/١٣٥؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤/٤٤١؛ **اللباب** لابن عادل، ٨/٣٦. وفي مطبوع الأوّل والثالث: "الحرث" بدلَ "الحارث".

﴿كِتَٰبًا﴾ إن جُعل اسمًا كـ"الإمام"، فقوله تعالى: ﴿فِي قِرۡطَاسٖ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً له، أي: / كتابًا كائنًا في صحيفة. وإن جُعل مصدرًا بمعنى "المكتوب"، فهو متعلِّق بنفسه. ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ أي: الكتابَ، وقيل: القِرطاسَ. وقوله تعالى: ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ مع ظهورِ أنّ اللمس لا يكون عادةً إلّا بالأيدي، لزيادة التعيين ودفعِ احتمال التجوّز الواقعِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ [الجن، ٨/٧٢]، أي: تفحَّصْنا. أي: فمَسُّوه بأيديهم بعد ما رأَوْه بأعيُنِهم، بحيث لم يبقَ لهم في شأنه اشتباهٌ ولم يقدِروا على الاعتذار بتسكير الأبصار. [١٩٦ظ]

﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: لَقالوا. وإنّما وُضع الموصولُ موضِعَ الضمير للتنصيص على اتّصافهم بما في حَيّز الصلة مِن الكفر الذي لا يخفى حُسن موقِعِه باعتبار مفهومه اللغويّ أيضًا. ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا -مُشيرين إلى ذلك الكتاب- ﴿إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: بيّنٌ كونُه سحرًا، تعنُّتًا وعنادًا للحقّ بعد ظهوره كما هو دأبُ المُفحَم[١] المحجوج، ودَيْدَنُ[٢] المُكابِرِ اللَّجوج.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝٩﴾

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ شروع في قدحهم في نُبوّته عليه السلام صريحًا بعد ما أُشيرَ إلى قدحهم فيها ضِمنًا. وقيل: هو معطوف على جواب ﴿لَوۡ﴾؛[٣] وليس بذاك، لِما أنّ تلك المقالة الشنعاءَ ليست ممّا يُقدَّر صدوره عنهم على تقدير تنزيل الكتابِ المذكور؛ بل هي مِن أباطيلِهم المحقَّقة وخُرافاتِهم الملفَّقة التي يتعلّلون بها كلّما ضاقت عليهم الحِيَلُ وعيَّتْ بهم العِلَلُ.

أي: "هَلّا أُنزِلَ عليه عليه السلام مَلَكٌ بحيث نراه ويكلِّمُنا أنّه نبيّ"، حسبما نُقِل عنهم فيما رُوي عن الكلبي ومقاتل.[٤] ونظيره قولهم: "لولا أُنزِلَ إليه مَلك

---

[١] المُفحَم، كـ"مُكرَم": العَيِيّ، ومَن لا يقدر أنْ يقول شِعرًا. وهاجاه فأفحَمَه: صادَفَه مُفحَمًا. و"كلّمتُه حتّى أفحمتُه" إذا أسكتُّه في خصومة أو غيرها. لسان العرب لابن منظور، «فحم».

[٢] الدَّيْدَنُ: الدَّأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

[٣] في الآية السابقة.

[٤] سبق ذكرها في الآية السابقة.

ليكونَ معه نذيرًا".[1] ولمّا كان مدارُ هذا الاقتراح على شيئين: إنزالِ المَلك كما هو[2] وجعلِه معه عليه السلام نذيرًا، أُجيبَ عنه بأنّ ذلك ممّا لا يكاد يدخل تحت الوجود أصلًا، لاشتماله على أمرين متباينين لا يجتمعان في الوجود: / لِما أنّ [١٩٧و] إنزال المَلك على صورته يقتضي انتفاءَ جعله نذيرًا، وجعلَه نذيرًا يستدعي عدمَ إنزاله على صورته لا محالةَ.

وقد أشيرَ إلى الأوّل[3] بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: لو أنزلنا مَلكًا على هيئتِه حسبما اقترحوه، والحالُ أنّه مِن هول المَنظَر بحيث لا تُطيق بمشاهدته قُوَى الآحاد البَشريّة. ألَا يُرى أنّ الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه-[4] كانوا يشاهِدون الملائكةَ ويفاوِضونهم على الصُّوَر البَشريّة كضيفِ إبراهيمَ ولوطٍ وخصمِ داودَ عليهم السلام وغير ذلك. وحيث كان شأنُهم كذلك وهم مؤيَّدون بالقُوى القُدسيّة، فما ظنُّك بمَن عَدَاهم مِن العوامّ؟ فلو شاهَدُوه كذلك لَقُضِي أمرُ هلاكهم بالكلّيّة واستحالَ جعلُه نذيرًا، وهو مع كونه خلافَ مطلوبهم مستلزِمٌ لإخلاء العالَم عمّا عليه يدور نظامُ الدنيا والآخرة مِن إرسال الرُّسُل وتأسيسِ الشرائع، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء، ١٥/١٧].

وفيه -كما ترى- إيذانٌ بأنّهم في ذلك الاقتراح كالباحث عن حَتْفِه بظِلْفِه،[5] وأنّ عدم الإجابة إليه للبُقْيا[6] عليهم. وبناء الفعل الأوّل في الجواب للفاعل الذي هو نُون العَظَمة -مع كونه في السؤال مبنيًّا للمفعول- لتهويلِ الأمر وتربيةِ المَهابة، وبناءُ الثاني للمفعول للجري على سَنَنِ الكِبرياء.

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهَلون بعد نزوله طَرفةَ عينٍ، فضلًا عن أن يُنذَروا به كما هو المقصود بـ"الإنزال"، للتنبيه على[7]

---

[1] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان، ٧/٢٥].

[2] وفي هامش م: أي: على صورته. «منه».

[3] وفي هامش م: وهو إنزال المَلَك. «منه».

[4] س: عليهم السلام.

[5] كالباحث عن حتفه بظِلفه، وأصله: أنّ رجلًا أراد ذبحَ صيدٍ، فلم يجد شفرة، فبحث الصيد بأظلافه في الأرض، فسقط على شفرة، فذبحه بها. يُضرَب في طلب الشيء يؤدّي إلى تلف النفس. الطراز الأوّل لابن معصوم المدني، ٣٤٣/٣.

[6] وفي هامش م: أي: للمرحمة.

[7] السياق: وكلمة ﴿ثُمَّ﴾... للتنبيه على...

تفاوُتِ ما بين قضاء الأمر وعدمِ الإنظار؛ فإنّ مفاجأة العذاب أشدُّ مِن نفس العذاب وأشَقُّ.

وقيل في سبب إهلاكهم: إنّهم إذا عايَنُوا المَلَكَ قد نزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في صورته -وهي آيةٌ لا شيءَ أبيَنُ منها- ثمّ لم يؤمنوا، لم يكن بُدٌّ مِن إهلاكهم. وقيل: إنّهم إذا رأَوْه يزُول الاختيارُ الذي هو قاعدة التكليف، فيجبُ إهلاكُهم.

وإلى الثاني[١] بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾، على أنّ الضمير الأوّلَ لـ"النذير" المفهومِ مِن فحوى الكلام بمَعُونة المقام. وإنّما لم يُجعَل لـ"المَلَك" المذكورِ قبله بأنْ يُعكَس ترتيبُ المفعولين ويُقالَ: "ولو جعلناه نذيرًا لَجعلناه رَجلًا" -مع فهم المراد منه أيضًا-[٢] لتحقيقِ أنّ مَناط إبراز الجعل الأوّل في معرِض الفرض والتقدير، ومدارَ / استلزامه للثاني[٣] إنّما هو مَلَكيّةُ النذير، لا نَذيريّةُ المَلك؛ وذلك لأنّ "الجعل" حقُّه أن يكون مفعولُه الأوّلُ مبتدأً والثاني خبرًا، لكونه بمعنى "التصيير" المنقول مِن "صار" الداخلِ على المبتدأ والخبر. [١٩٧ظ]

ولا ريبَ في أنّ مَصَبَّ الفائدة ومدارَ اللزوم بين طرفَي الشرطيّة هو محمولُ المقدَّم، لا موضوعُه؛ فحيث كانت امتناعيّةً أُريدَ بها بيانُ انتفاء الجعل الأوّل لاستلزامه المحذورَ الذي هو الجعل الثاني، وَجَبَ أن يُجعَل مدارُ الاستلزام في الأوّل مفعولًا ثانيًا لا محالةَ؛ ولذلك جُعِل مُقابِلُه في الجعل الثاني كذلك،[٤] إبانةً لكمال التنافي بينهما الموجِبِ لانتفاء الملزوم.

والضمير الثاني لـ"المَلك"، لا لِما رجَعَ إليه الأوّل. والمعنى: لو جعلنا النذير الذي اقترحتموه[٥] مَلكًا لَمثّلنا ذلك المَلكَ رَجلًا، لِما مرّ مِن عدم استطاعة الآحاد

---

١ وفي هامش م: جعلُ المَلك معه عليه السلام نذيرًا. «منه». | السياق: وقد أشيرَ إلى الأوّل بقوله... وإلى الثاني بقوله...

٢ م س - مع فهم المراد منه أيضًا ["صح" في هامش م س]. وردت هذه العبارة في هامش ط، إلّا أنّ في نهايتها "منه" بدلَ "صح".

٣ وفي هامش م: أي: للجعل الثاني. «منه».

٤ وفي هامش م: أي: مفعولًا ثانيًا.

٥ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: اقترحوه.

لمعايَنةِ المَلك على هَيْكله. وفي إيثار ﴿رَجُلًا﴾ على "بَشَرًا" إيذانٌ بأنّ الجعل بطريق التمثيل، لا بطريق قلب الحقيقة، وتعيينٌ لِما يقع به التمثيل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ﴾ عطفٌ على جواب ﴿لَوْ﴾، مبنيٌّ على الجواب الأوّل. وقُرئ بحذف لام الجواب[1] اكتفاءً بما في المعطوف عليه. يُقال: "لَبَستُ الأمرَ على القوم ألبِسُه" إذا شبّهتَه وجعلتَه مُشكِلًا عليهم، وأصلُه السَّتر بالثَّوب. وقُرئ الفِعلان بالتشديد[2] للمبالغة، أي: ولَخَلّطنا عليهم بتمثيله رَجُلًا.

﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾ على أنفُسِهم حينئذ بأنْ يقولوا له: "إنّما أنت بَشَر، ولستَ بمَلكٍ"، ولو استَدَلّ على مَلَكيته بالقرآن المعجِزِ الناطقِ بها أو بمعجزاتٍ أُخَرَ غيرِ مُلجئةٍ إلى التصديق لَكذّبوه كما كذّبوا النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، ولو أظهَرَ لهم صورته الأصليّةَ لزِمَ الأمر الأوّل.

والتعبير عن تمثيله تعالى رجلًا بـ"اللبس"، إمّا لكونه في صورة اللبس، أو لكونه سببًا لِلَبسهم، أو لوقوعه في صُحبتِه بطريق المشاكلة. وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير مَلكًا، كأنّه قيل: لو فعلناه لَفعلنا ما لا يَليق بشأننا مِن لبس الأمر عليهم. وقد جُوّز أن يكون المعنى: ولَلَبسنا عليهم حينئذ مِثلَ ما يلبِسون على / أنفُسِهم الساعةَ في كفرهم بآيات الله البيّنةِ. [١٩٨و]

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلِيةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا يَلقاه مِن قومه. وفي تصدير الجملة بـ"لام" القَسم وحرفِ التحقيق مِن الاعتناء بها ما لا يخفى، وتنوين ﴿رُسُلٍ﴾ للتفخيم والتكثير، و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿رُسُلٍ﴾، أي: وبالله، لقد استُهزِئ برُسُلٍ أُولي شأنٍ خطيرٍ وذَوي عددٍ كثيرٍ كائنين مِن زمانٍ قبلَ زمانك، على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٤.

[2] أي: "وَلَلَبَّسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلَبِّسُونَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٤.

﴿فَحَاقَ﴾ عَقيبَه، أي: أحاط أو نزل أو حلَّ أو نحو ذلك؛ فإنّ معناه يدُور على الشمول واللزوم، ولا يكاد يُستعمل إلّا في الشرّ. والحَيْقُ: ما يشتمل على الإنسان مِن مكروهِ فعلِه.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم﴾ أي: استهزءُوا بهم مِن أولئك الرُّسُل عليهم السلام، متعلِّقٌ بـ﴿حَاقَ﴾، وتقديمُه على فاعله الذي هو قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ للمسارعة إلى بيان لُحوق الشرّ بهم. و﴿مَا﴾ إمّا موصولة مفيدةٌ للتهويل، أي: فأحاط بهم الذي كانوا يستهزءون به، حيث أُهلكوا لأجله، وإمّا مصدريّةٌ، أي: فنزل بهم وَبَالُ استهزائهم. وتقديم الجارّ والمجرور على الفعل لرعاية الفواصل.

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ بعد بيانِ ما فَعَلت الأُمَمُ الخالية وما فُعِل بهم، خُوطِبَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بإنذار قومه وتذكيرِهم بأحوالهم الفظيعة، تحذيرًا لهم عمّا هم عليه، وتكمِلةً للتسلِية بما في ضِمنه مِن العِدَة اللطيفة بأنّه سيَحِيقُ بهم مثلُ ما حاق بأضرابهم الأوّلين. وقد أُنجزَ ذلك يومَ بَدرٍ أيَّ إنجازٍ. أي: سِيرُوا / في الأرض لِتعرُّف أحوال أولئك الأُمَم، ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ [١٩٨ظ] أي: تفكَّرُوا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ إمّا لأنّ النظر في آثار الهالكين لا يتسنّى إلّا بعد انتهاء السير إلى أماكِنِهم، وإمّا لإبانة ما بينهما مِن التفاوُتِ في مراتب الوجوب، وهو الأظهَرُ؛ فإنّ وجوب السير ليس إلّا لكونه وسيلةً إلى النظر، كما يُفصح عنه العطف بـ"الفاء" في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾[1] الآية. وأمّا أنّ الأمر الأوّل لإباحة السير للتجارة ونحوِها، والثانيَ لإيجاب النظر في آثارهم، و﴿ثُمَّ﴾ لتباعُدِ ما بين الواجب والمُباح، فلا يناسِب المقام.

---

[1] ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [النمل، ٦٩/٢٧]. وردت أيضًا في: آل عمران، ١٣٧/٣؛ النحل، ٣٦/١٦؛ العنكبوت، ٢٠/٢٩؛ الروم، ٤٢/٣٠.

و﴿كَيْفَ﴾ معلِّقةٌ لفعل "النظر". ومحلّ الجملة النصبُ بنزع الخافض، أي: تفكَّرُوا في أنّهم كيف أُهلِكوا بعذاب الاستئصال. و"العاقبة" مصدرٌ كـ"العافية" ونظائرِها، وهي منتهى الأمرِ ومآلُه. ووضعُ ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ موضِعَ "المستهزِئين" لتحقيقِ أنّ مدار إصابةِ ما أصابهم هو التكذيبُ، لينزجِرَ السامعون عنه، لا عن الاستهزاء فقط مع بقاء التكذيب بحاله، بناءً على توهُّمِ أنّه المدار في ذلك.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم بطريق الإلجاء والتبكيت: ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن العُقلاء وغيرِهم. أي: لِمَن الكائناتُ جميعًا خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا؟ وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ تقرير لهم، وتنبيهٌ على أنّه المتعيِّن للجواب بالاتّفاق بحيث لا يتأتّى لأحد أن يُجيب بغيره، كما نطَق به قوله عزّ وعلَا:[1] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان، ٢٥/٣١؛ الزمر، ٣٨/٣٩].

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ جملة مستقِلّة، داخلةٌ تحت الأمر، / ناطقةٌ بشمول رحمته الواسعةِ لجميع الخلق شمولَ مُلكِه وقدرتِه للكلّ، مَسوقةٌ لبيانِ أنّه تعالى رَءوفٌ بعباده، لا يعجَل عليهم بالعقوبة، ويقبَل منهم التوبةَ والإنابةَ، وأنّ ما سبق ذكرُه وما لحِقَ مِن أحكام الغضب ليس مِن مقتَضيات ذاتِه تعالى؛ بل مِن جهة الخلق؛ كيف لا، ومِن رحمته أنْ خلقَهم على الفِطرة السليمة، وهَداهم إلى معرفته وتوحيدِه بنَصْب الآيات الأنفُسِيّة والآفاقيّةِ وإرسالِ الرُّسُل وإنزالِ الكُتُب المَشحُونة بالدعوة إلى موجِبات رِضوانه والتحذيرِ مِن مقتَضِيَات سخطِه، وقد بدّلوا فِطرةَ الله تبديلًا، وأعرضوا عن الآيات بالمرّة، وكذّبوا بالكُتُب، واستهزءُوا بالرُّسُل، وما ظلَمَهم الله، ولكنْ كانوا هم الظالمين، ولولا شمولُ رحمتِه لَسَلك هؤلاء أيضًا مَسلَكَ الغابرين. [١٩٩و]

ومعنى "كَتْبِ الرحمةِ على نفسه": أنّه تعالى قضاها وأوجبها بطريق التفضّل والإحسانِ على ذاته المقدَّسةِ بالذات، لا بتوسّط شيءٍ أصلًا. وقيل: هو ما رُوي

[1] س: وجلّ.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «لمّا قضى الله تعالى الخلقَ كتَبَ في كتابٍ، فهو عنده فوقَ العرش: أنّ رحمتي سبَقَتْ غَضَبي».[١] وعنه في رواية: أنّه عليه السلام قال: «لمّا قضى الله تعالى الخلقَ كتَبَ كتابًا، فهو عنده فوقَ العرش: إنّ رحمتي غلَبَتْ غَضَبي».[٢] وعن عمرَ رضي الله عنه أنّه قال لكعبٍ: «ما أوّلُ شيءٍ ابتدأه الله تعالى مِن خلقه؟»، فقال كعب: «كتَبَ الله كتابًا لم يكتُبْه بقلمٍ ولا مِدادٍ كتابةَ الزَّبَرْجَدِ واللؤلؤِ والياقوتِ: إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا، سبَقَتْ رحمتي غَضَبي».[٣]

ومعنى "سَبْقِ الرحمةِ وغَلَبتِها": أنّها أقدَمُ تعلّقًا بالخلق وأكثَرُ وصولًا إليهم، مع أنّها مِن مقتَضَيات الذاتِ / المفيضةِ للخير. وفي التعبير عن الذات بـ"النفس" حُجّةٌ على مَن ادّعى أنّ لفظ "النفسِ" لا يُطلَق على الله تعالى، وإن أريدَ به الذاتُ إلّا مشاكَلةً، لِما ترى مِن انتفاء المشاكَلة ههنا بنوعَيْها. [١٩٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ جواب قسمٍ محذوفٍ. والجملة استئناف مسوقٌ للوعيد على إشراكهم وإغفالِهم النظرَ، أي: والله لَيجمعَنّكم في القُبور مبعوثين أو محشورين إلى يوم القيامة، فيُجازيكم على شركِكُم وسائرِ مَعاصيكم، وإن أمهَلَكم بموجَبِ رحمته ولم يعاجلكم بالعقوبة الدنيويّة. وقيل: ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى "اللام"، أي: لَيجمعَنّكم لِيوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران، ٩/٣]. وقيل: هي بمعنى "في"، أي: لَيجمعَنّكم في يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في اليوم، أو في الجمع.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بتضييع رأسِ مالِهم، وهو الفِطرة الأصليّة والعقلُ السليم والاستعدادُ القريب الحاصلُ مِن مشاهدة الرسول صلّى الله عليه وسلّم واستماعِ الوحي وغير ذلك مِن آثار الرحمة، في موضِع النصب

---

١ هو بهذه الألفاظ في جامع البيان للطبري، ١٧٠/٩. وفي صحيح البخاري، ١٠٦/٤ (٣١٩٤)؛ ومسند أحمد، ٣٢٣/١٤ (٨٧٠١): "غلبتْ" بدلَ "سبقتْ". ونحوه في صحيح مسلم، ٢١٠٧/٤ (٢٧٥١).

٢ مسند أحمد، ٤٧٩/١٣ (٨١٢٧)؛ اللباب لابن عادل، ٤٧/٨.

٣ هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في جامع البيان للطبري، ١٧١/٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٣٧/٤.

أو الرفعِ على الذمّ، أي: أَعني الذين... إلخ، أو هم الذين... إلخ، أو هو مبتدأ، والخبر قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، و"الفاء" لتضمّنِ المبتدأ معنى الشرط، والإشعارِ بأنّ عدم إيمانهم بسبب خُسرانهم؛ فإنّ إبطال العقل باتّباع الحواسّ والوَهمِ والانهماكِ في التقليد وإغفالِ النظر أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناعِ مِن الإيمان. والجملة تذييلٌ مسوقٌ مِن جهته تعالى / لتقبيح حالهم، [٢٠٠و] غيرُ داخل تحت الأمر.

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾

﴿وَلَهُۥ﴾ أي: لله عزّ وجلّ خاصّةً ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ نُزِّلَ المَلَوان[1] منزلةَ المكان، فعُبِّر عن نسبة الأشياء الزمانيّة إليهما بـ"السُّكنى فيهما"، وتعدِيتُه بكلمة ﴿فِي﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [إبراهيم، ٤٥/١٤]. أو السكونُ مقابِلُ الحركة، والمرادُ: ما سكن فيهما وتحرّك،[2] فاكتُفِيَ بأحد الضِدَّين عن الآخَر.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المبالِغُ في سَماع كلّ مسموع. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ المبالِغُ في العلم بكلّ معلوم، فلا يخفى عليه شيءٌ مِن الأقوال والأفعال.

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾

﴿قُلۡ﴾ لهم بعد ما بَكَّتَهم بما سبق مِن الخطاب: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ أي: معبودًا بطريق الاستقلال أو الاشتراك. وإنّما سُلِّطت الهمزةُ على المفعول الأوّل -لا على الفعل- إيذانًا بأنّ المنكَر هو اتّخاذ غير الله وليًّا، لا اتّخاذُ الوليّ مطلقًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾ [الأنعام، ١٦٤/٦]، وقولِه تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾... إلخ [الزمر، ٦٤/٣٩].

---

[1] المَلَوان: الليل والنهار. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٣٤٤/٨ «باب اللام والميم».

[2] ط س: أو تحرّك. | هنا كُشِطت الهمزة في نسخة المؤلّف، ولعلّه بعد نَسْخِ ط س.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُبدعِهما، بالجرّ، صفةٌ للجلالة مؤكِّدةٌ للإنكار؛ لأنّه بمعنى الماضي؛ ولذلك قُرئ: "فَطَرَ"،[١] ولا يضُرّ الفصلُ بينهما بالجملة؛ لأنّها ليست بأجنَبِيّة؛ إذ هي عاملة في عامل الموصوف، أو بدلٌ،[٢] فإنّ الفصل بينه وبين المُبدَل منه أسهَلُ؛ لأنّ البدل على نِيّة تكرير العامل. وقُرئ بالرفع[٣] والنصب[٤] على المدح. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما عرفتُ معنى "الفاطر" حتّى اختصَمَ إليّ أعرابِيّانِ في بئرٍ، فقال أحدهما: أنا فطَرتُها، أي: ابتدأتُها».[٥]

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: يرزُق الخلقَ ولا يُرزَق. وتخصيص الطعام بالذِّكر لِشدّة / الحاجة إليه، أو لأنّه معظَم ما يصِل إلى المرزوق مِن الرزق. [٢٠٠ظ] ومحلُّ الجملة النصبُ على الحاليّة؛ فإنّ مضمونها مقرِّر لوجوب اتّخاذه سبحانه وتعالى وليًّا.

وقُرئ: "وَلَا يَطْعَمُ"[٦] بفتح الياء، وبعكس القراءة الأُولى أيضًا،[٧] على أنّ الضمير لغير الله، والمعنى: أأُشرِكُ بمَن هو فاطِرُ السماوات والأرض ما هو نازلٌ عن رتبة الحَيوانيّة؟ وببنائِهما للفاعل[٨] على أنّ الثاني بمعنى "يستطعم"، أو على معنى: أنّه يُطعِم تارةً ولا يُطعِم أخرى، كقوله تعالى: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾.[٩]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن نبيح والجراح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٥.

٢ السياق: صفةٌ للجلالة... أو بدلٌ...

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٥.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الكرماني في شواذّ القراءات، ص ١٦٥؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٤٥٢/٤، كلاهما بلا نسبة.

٥ هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في جامع البيان للطبري، ١٧٥/٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٣٨/٤؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٢١٢/٣ (١٥٥٩)؛ والكشّاف للزمخشري، ٩/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وسعيد بن جبير وعمرو بن عبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٥.

٧ لعلّه يشير إلى قراءة "وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعِمُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن المأمون عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٩/٢. وهي غير القراءة المشهورة عن يعقوب.

٨ أي: وقُرئ ببنائِهما للفاعل، يعني: "وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعِمُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب ويمان العمّاني وابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٢/٤.

٩ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة، ٢٤٥/٢].

﴿قُلْ﴾ بعد بيانِ أنّ اتّخاذ غيره تعالى وليًا ممّا يَقضي ببُطلانه بديهةُ العقول: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ مِن جَنابه عزّ وجلّ ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ وجهَه لله مخلِصًا له؛ لأنّ النبيّ إمامُ أمّتِه في الإسلام، كقوله تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام، ١٦٣/٦]، وقولِه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف، ١٤٣/٧].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ أي: وقيل لي: لا تكونَنَّ ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: في أمرٍ مِن أمور الدين. ومعناه: أُمرتُ بالإسلام، ونُهيتُ عن الشرك. وقد جُوّز عطفُه على الأمر.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: بمخالفة أمره ونهيِه، أيّ عِصيانٍ كان؛ فيدخل فيه ما ذُكر دخولًا أوّليًا. وفيه بيان لكمال اجتنابه عليه السلام مِن المعاصي على الإطلاق. وقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذابَ يوم القيامة، مفعولُ ﴿أَخَافُ﴾، والشرطيّة معترِضة بينهما، والجواب محذوفٌ لدلالةِ ما قبله عليه. وفيه قطعٌ لأطماعِهم الفارغةِ، وتعريضٌ بأنّهم عُصاةٌ مستوجِبون للعذاب العظيم.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ على البناء للمفعول، أي: العذابُ. وقُرئ / على البناء للفاعل،[1] والضمير لله سبحانه. وقد قُرئ بالإظهار،[2] والمفعول محذوف. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفٌ لـ"الصَّرف"، أي: في ذلك اليوم العظيم. وقد جُوّز أن يكون هو المفعولَ على قراءة البناء للفاعل بحذف المضاف، أي: عذابَ يومِئذٍ. [٢٠١و]

﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أي: نجّاه وأنعم عليه. وقيل: فقد أدخله الجنّةَ، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران، ١٨٥/٣]. والجملة مستأنَفةٌ مؤكِّدةٌ لتهويل العذاب. وضمير ﴿عَنْهُ﴾ و﴿رَحِمَهُۥ﴾ لـ﴿مَن﴾، وهو عبارة عن غير العاصي.

---

١ أي: "مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ"، قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٥٦/٢-٢٥٧.

٢ أي: بإظهار اسم الجلالة، يعني: "مَنْ يَصْرِفْهُ اللهُ عَنْهُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٥.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصَّرف أو الرحمة؛ لأنّها مُئوَّلة بـ"أنْ" مع الفعل. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلُوّ درجته وبُعدِ مكانه مِن الفضل. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الظاهرُ كونُه فوزًا، وهو الظَفَر بالبُغية. و"الألِف واللام" لقَصْرِه على ذلك.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: ببَلِيّةٍ كمرضٍ وفقرٍ ونحو ذلك، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ أي: فلا قادِرَ على كشفه عنك ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ مِن صحّةٍ ونعمةٍ ونحو ذلك، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومِن جملته ذلك، فيقدِرُ عليه، فيمسِك به، ويحفَظه عليك مِن غير أن يقدِرَ على دفعه أو رفعِه أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾.[1] وحملُه على تأكيد الجوابين يأباه "الفاءُ".

تذكِرة: رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: أُهدِيَ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بَغْلةٌ، أهداها له كِسرى، فركِبها بحبلٍ مِن شَعرٍ، ثمّ أردفني خلفه، ثمّ سار بي مَلِيًّا،[2] ثمّ التفَتَ إليَّ فقال: «يا غُلامُ»، فقلتُ: «لَبّيك يا رسولَ الله»، فقال: «احفَظ اللهَ يحفَظْك، احفَظ اللهَ تجِدْه أمامَك، تعرَّفْ إلى الله في الرَّخاء يَعرِفْك في الشدّة، وإذا[3] سألتَ فاسْأل اللهَ، وإذا استعَنْتَ فاستَعِنْ بالله، / فقد مضى القلمُ بما هو كائنٌ، فلو جهَدَ الخلائقُ أن ينفعوك بما لم يقضِهِ اللهُ لك لم يقدِروا عليه، ولو جَهَدوا أن يضُرّوك بما لم يكتب الله عليك ما قدَروا عليه، فإن استطعتَ أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعَلْ، فإن لم تستطع فاصبِرْ،[4] فإنّ في الصبر على ما تكرَهُ خيرًا كثيرًا، واعلَمْ أنّ النصر مع الصبر، وأنّ مع الكَرْب فَرَجًا، وأنّ مع العُسر يُسرًا».[5] [٢٠١ظ]

---

[1] ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس، ١٠/١٠٧].

[2] كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: مَيلًا.

[3] ط س: فإذا.

[4] م ط س - فاصبر ["صح" في هامش م].

[5] اللباب لابن عادل، ٦٣/٨. وباختلاف يسير في الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٩/٤.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ١٨﴾

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ تصويرٌ لقهره وعُلُوِّه بالغَلَبة والقدرة. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في كلّ ما يفعله ويأمر به. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بأحوال عباده وخَفايا أمورِهم. و"اللام" في المواضع الثلاثة للقصر.

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ١٩﴾

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ رُوي أنّ قريشًا قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا محمّد، لقد سألنا عنك اليهودَ والنصارى، فزعموا أنْ ليس لك عندهم ذِكرٌ ولا صفةٌ، فأرِنا مَن يشهَد لك أنّك رسول الله»، فنزلَتْ.[1] فـ﴿أَىُّ﴾ مبتدأ، و﴿أَكْبَرُ﴾ خبره، و﴿شَهَٰدَةً﴾ نصب على التمييز.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمرٌ له عليه السلام[2] بأنْ يتولّى الجوابَ بنفسه، إمّا للإيذانِ بتعيُّنِه وعدمِ قدرتهم على أن يُجيبوا بغيره، أو لأنّهم ربّما يتلَعْثَمون فيه،[3] لا لتردُّدِهم في أنّه أكبَرُ مِن كلّ شيء؛ بل في كونه شهيدًا في هذا الشأن. وقوله تعالى: ﴿شَهِيدُۢ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو شهيد ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾. ويجوز أن يكون: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾[4] هو الجوابَ؛ لأنّه إذا كان هو الشهيدَ بينه وبينهم كان أكبَرُ شيءٍ شهادةً شهيدًا[5] له عليه السلام. وتكرير "البَيْن" لتحقيق المقابلة.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ﴾ أي: مِن جهته تعالى ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الشاهدُ بصِحّة رسالتي، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ بما فيه مِن الوعيد. والاقتصار على ذِكر "الإنذار" لِما أنّ الكلام مع الكفَرة. ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ عطفٌ على ضمير المخاطَبين، / أي: لِأُنذِرَكم به -يا أهلَ مكّةَ- [٢٠٢و]

---

[1] هو باختلاف يسير في أسباب النزول للواحدي، ص ٢١٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٧/٢. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٠/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٣٩/٧ (النساء، ١٦٦/٤).

[2] س: صلّى الله عليه وسلّم.

[3] تَلَعْثَمَ الرّجل في الأمر، إذا تمكّث فيه وتأنّى. الصحاح للجوهري، «لعثم».

[4] م ط س - بيني وبينكم ["صح" في هامش م].

[5] خبرُ "كان".

وسائرَ مَن بلَغَه مِن الأَسْوَد والأحمَرِ أو مِن الثَّقَلَين، أو لِأُنذِرَكم به -أيّها الموجودون- ومَن سيوجَدُ إلى يوم القيامة، وهو دليل على أنّ أحكام **القرآن** تعُمّ الموجودِين يومَ نزوله ومَن سيوجَدُ بعدُ إلى يوم القيامة؛ خَلَا أنّ ذلك بطريق العبارة في الكلّ عند الحنابلة، وبالإجماع عندنا في غير الموجودِين وفي غير المكلَّفين يومئذٍ، كما مرّ في أوّل سورة النساء.[١]

﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ**﴾ تقريرٌ لهم مع إنكارٍ واستبعادٍ. ﴿**قُل لَّآ أَشْهَدُ**﴾ بذلك، وإن شهدتم به؛ فإنّه باطِلٌ صِرفٌ. ﴿**قُلْ**﴾ تكرير للأمر للتأكيد. ﴿**إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ**﴾ أي: بل إنّما أشهَدُ أنّه تعالى لا إلٰه إلّا هو، ﴿**وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ مِن الأصنام، أو مِن إشراكِكُم.

﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾**﴾

﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ جوابٌ عمّا سبق مِن قولهم «لقد سألنا عنك اليهودَ والنصارى»،[٢] أُخِّر عن تعيين الشهيد مسارَعةً إلى إلزامهم بالجواب عن تحكّمِهم بقولهم: «فأَرِنَا مَن يشهَد لك»... إلخ. والمراد بالموصول اليهودُ والنصارى، وبـ﴿**ٱلْكِتَٰبَ**﴾ الجنسُ المنتظِمُ **للتوراة والإنجيل**. وإيرادهم بعُنوان "إيتاء الكتاب" للإيذان بمَدار ما أُسندَ إليهم بقوله تعالى: ﴿**يَعْرِفُونَهُۥ**﴾، أي: يعرفون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن جهة الكتابَين بحِلْيَتِه ونُعوتِه المذكورة فيهما ﴿**كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ**﴾ بحِلَاهم، بحيث لا يشُكُّون في ذلك أصلًا.

رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا قدِمَ المدينةَ قال عمرُ رضي الله عنه لِعبد الله بن سلام: «أنزل الله تعالى على نبيّه هذه الآيةَ، وكيف هذه المعرفة؟»، فقال: «يا عمرُ، لقد عرفتُه فيكم حين رأيتُه كما أعرِفُ ابني، ولَأنا أشدُّ معرفةً بمحمّدٍ منّي بابني؛ لِأنّي لا أدري ما صنع النساءُ، وأشهَدُ أنّه حقٌّ مِن الله تعالى».[٣]

---

[١] انظر: تفسير النساء، ١/٤.
[٢] سبق ذكره في الآية السابقة.
[٣] تفسير الرازي، ١٢/٥٠٠؛ اللباب لابن عادل، ٨/٦٨. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤/١٤٠.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ مِن أهل الكتابَين والمشركين، / بأنْ ضيّعوا فِطرةَ [٢٠٢ظ] الله التي فطَرَ الناس عليها وأعرضوا عن البيّنات الموجِبةِ للإيمان بالكلّيّة، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لِما أنّهم مطبوعٌ على قلوبهم. ومحلُّ الموصول الرفعُ على الابتداء، وخبرُه الجملة المصدَّرة بـ"الفاء" لِشَبه الموصول بالشرط،[١] وقيل: على أنّه خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ، أي: هم الذين خسِروا... إلخ، وقيل: على أنّه نعتٌ للموصول الأوّل، وقيل: النصبُ[٢] على الذمّ؛ فقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على الوجوه الأخيرة عطفٌ على جملةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾... إلخ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بوصفِهم النبيَّ الموعودَ في الكتابَين بخلاف أوصافه عليه السلام، فإنّه افتراءٌ على الله سبحانه، وبقولهم: «الملائكةُ بناتُ الله»، وقولِهم: «هؤلاء شُفَعاؤنا عند الله»،[٣] ونحو ذلك.

وهو إنكار واستبعاد لأنْ يكونَ أحدٌ أظلَمَ ممَّن فعَلَ ذلك أو مساوِيًا له، وإن كان سبكُ التركيب غيرَ متعرِّض لإنكار المُساواة ونفيِها، يشهَد به العُرف الفاشي والاستعمالُ المطّرِد؛ فإنّه إذا قيل: "مَن أكرَمُ مِن فلانٍ" أو "لا أفضَلَ مِن فلانٍ"، فالمرادُ به حتمًا أنّه أكرَمُ مِن كلّ كريم، وأفضَلُ مِن كلّ فاضل. ألَا يُرى إلى قوله عزّ وعلَا:[٤] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود، ٢٢/١١] بعد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾... إلخ [هود، ١٨/١١]. والسِّرّ في ذلك أنّ النسبة بين الشيئين إنّما تُتصوَّر غالبًا -لاسِيّما في باب المغالبة- بالتفاوُتِ زيادةً ونُقصانًا، فإذا لم يكن أحدُهما أزيَدَ يتحقَّقُ النقصانُ لا محالةَ.

---

[١] ط: بـ"الفاء" لِما فيه مِن الشَّبه بالموصول؛ س: بـ"الفاء" لِما فيه مِن معنى الشرط. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٢] السياق: ومحلُّ الموصول الرفعُ... وقيل: النصبُ...

[٣] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس، ١٨/١٠].

[٤] س: وجلّ.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ كأنْ كذّبوا بالقرآن الذي مِن جملته الآيةُ الناطقةُ بأنّهم يعرِفونه عليه السلام كما يعرِفون أبناءَهم، وبالمعجِزات وسمَّوْها سِحرًا، وحرّفوا التوراة وغيّروا نعوتَه عليه السلام؛ فإنّ ذلك تكذيبٌ / بآياته تعالى. وكلمةُ ﴿أَوْ﴾ [٢٠٣و] للإيذان بأنّ كلًّا مِن الافتراء والتكذيبِ وحدَه بالِغٌ غايةَ الإفراط في الظلم؛ فكيف وهم قد جمعوا بينهما، فأثبتوا ما نفاه الله تعالى، ونفَوْا ما أثبَتَه. قاتَلَهم الله أنّى يُؤفكون!

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن، ومدارُ وضعه موضِعَه ادّعاءُ شهرتِه المُغنيةِ عن ذكره. وفائدة تصدير الجملة به الإيذانُ بفَخامة مضمونها، مع ما فيه مِن زيادة تقريره في الذهن؛ فإنّ الضمير لا يُفهَم منه مِن أوّل الأمر إلّا شأنٌ مُبهَمٌ له خَطَرٌ، فيبقى الذهن مترقِّبًا لِما يعقُبه، فيتمكّن عند وروده له فضل تمكّنٍ، فكأنّه قيل: إنّ الشأن الخطيرَ هذا، وهو ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يَنجُون مِن مكروه، ولا يفُوزون بمطلوب؛ وإذا كان حالُ الظالمين هذا، فما ظنُّك بمَن في الغاية القاصيةِ مِن الظلم؟

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ منصوب على الظرفيّة بمضمَرٍ مؤخَّرٍ قد حُذف إيذانًا بضيق العبارة عن شرحه وبيانِه، وإيماءً إلى عدم استطاعة السامعين لسَماعِه لكمال فظاعةِ ما يقع فيه مِن الطامّة والداهية التامّةِ، كأنّه قيل: ويومَ نحشُرهم جميعًا ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ لهم ما نقول، كان مِن الأحوال والأهوال ما لا يُحيط به دائرةُ المقال.[١] وتقدير صيغة الماضي للدلالة على التحقّق، ولِحُسن موقع عطفِ قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾... إلخ[٢] عليه.

وقيل: منصوب على المفعوليّة بمضمَرٍ مقدَّمٍ، أي: واذكُرْ لهم للتخويف والتحذير يومَ نحشُرهم... إلخ. وقيل: وَلْيَتّقوا، أو لِيَحذَروا يومَ نحشُرهم... إلخ.

---

[١] أي: لبعض منهم، وإنّما لم يصرّح به تعويلًا على ظهور الأمر، وتحرّيًا للإيجاز في تصوير التقدير، وتوخّيًا للترتّب في النذير. «منه»». | وأصل النظم: كان مِن الأحوال والأهوال ما لا يُحيط به دائرةُ المقال يومَ نحشُرهم جميعًا، ثمّ نقول لهم ما نقول...

[٢] في الآية التالية.

والضمير للكلّ، و﴿جَمِيعًا﴾ حال منه. وقُرئ: "يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ"[١] بالياءِ فيهما.

﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: نقول لهم خاصّةً للتوبيخ والتقريعِ على رءوس الأشهاد: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي: آلهتُكم التي جعلتموها شركاءَ لله سبحانه. وإضافتُها إليهم / لِما أنّ شركتَها ليست إلّا بتسميتِهم وتقوُّلِهم الكاذبِ، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: تزعُمونها شركاءَ، فحُذِف المفعولانِ معًا. [٢٠٣ظ]

وهذا السؤال المُنبِئ عن غَيْبة الشركاء، مع عموم الحشر لها لقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات، ٣٧/٢٢-٢٣] وغيرِ ذلك مِن النصوص، إنّما يقع بعد ما جرى بينها وبينهم مِن التبرُّؤِ مِن الجانبَين وتقطُّعِ ما بينهم مِن الأسباب والعلائقِ، حسبما يَحكِيه قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾... إلخ،[٢] ونحوُ ذلك مِن الآيات الكريمة، إمّا بعدم حضورها حينئذ في الحقيقة بإبعادها مِن ذلك الموقِف، وإمّا بتنزيل عدم حضورها بعُنوان الشركة والشفاعة منزلةَ عدم حضورها في الحقيقة؛ إذ ليس السؤالُ عنها مِن حيث ذواتُها؛ بل إنّما هو مِن حيث إنّها شركاءُ، كما يُعرب عنه الوصفُ بالموصول؛ ولا ريبَ في أنّ عدم الوصف يوجِب عدمَ الموصوف مِن حيث هو موصوف، فهي مِن حيث هي شركاءُ غائبةٌ لا محالةَ،[٣] وإن كانت حاضرةً مِن حيث ذواتُها، أصنامًا كانت أو غيرَها.

وأمّا ما يُقال مِن أنّه يُحال بينها وبينهم في وقت التوبيخ لِيفقِدوهم في الساعة التي علّقوا بها الرجاءَ فيها،[٤] فيرَوْا مكانَ خِزْيِهم وحَسرتِهم، فربّما يُشعِر بعدم شعورهم بحقيقة الحال وعدمِ انقطاع حِبال رَجائهم عنها بَعْدُ. وقد عرفتَ أنّهم شاهَدوها قبل ذلك، وانصرمَتْ عُروةُ أطماعهم عنها بالكلّيّة، على أنّها

---

١ قرأ بها يعقوب مِن القرّاء العشرة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٧.

٢ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس، ١٠/٢٨].

٣ وفي هامش م: وبهذا يتّضح أنّ ما قيل: "يجوز أنْ يشاهدوها، ولكنْ لمّا لم تنفعهم، فكأنّها غِيبَ عنهم" غيرُ مُعرِبٍ عن حقيقة الأمر، وإن كان قريبًا منها. «منه».

٤ أي: في الساعة.

معلومة لهم مِن حين الموت والابتلاءِ بالعذاب في البَرْزخ، وإنّما الذي يحصل يومَ الحشر الانكشافُ الجليُّ واليقينُ القويُّ المترتِّبُ على المحاضَرة والمحاوَرة.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ بتأنيث الفعل ورفعِ ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾، على أنّه اسمٌ له،[١] والخبرُ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾. وقُرئ بنصب "فِتْنَتَهُمْ"،[٢] على أنّها الخبرُ، والاسمُ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾، والتأنيثُ للخبر كما في قولهم: "مَن كانت أمَّك؟" وقُرئ بالتذكير مع رفع "الفتنة"[٣] ونصبِها.[٤] ورفعُها أنسَبُ بحسَب المعنى.

والجملة عطفٌ على ما قُدِّر عاملًا في ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾[٥] كما أشيرَ إليه فيما سلف. والاستثناء مفرَّغٌ مِن أعمِّ الأشياء. وفِتنتُهم / إمّا كفرُهم مرادًا به عاقبتُه، [٢٠٤و] أي: لم تكن عاقبةُ كفرهم الذي لزموه مدّةَ أعمارهم وافتخروا به شيئًا مِن الأشياء إلّا جحودَه والتبرُّؤَ منه[٦] بأنْ يقولوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وإمّا جوابُهم، عُبّر عنه بـ"الفِتنة" لأنّه كذبٌ.

ووصفُه تعالى برُبوبيّتِه لهم للمبالغة في التبرّؤِ مِن الإشراك. وقُرئ: "رَبَّنَا"[٧] على النداء، فهو لإظهار الضَّراعة والاجتهادِ في استدعاء قبول المعذِرة، وإنّما يقولون ذلك -مع علمهم بأنّه بمَعزِلٍ مِن النفع رأسًا- مِن فَرط الحيرة والدهشِ.

وحملُه على معنى: "ما كُنّا مشركين عند أنفسِنا، وما علِمنا في الدنيا أنّا على خطأٍ في معتقَدِنا"، ممّا لا ينبغي أن يُتوهَّم أصلًا؛ فإنّه ممّا يُوهِم أنّ لهم عُذرًا ما،

---

١ أي: لِـ"تَكُنْ".
٢ كذا ضبط حركتها المصنّف، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٥٤-٢٥٥؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٧.
٣ أي: "لَم يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة والمفضّل. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٥.
٤ أي: "لَم يَكُنْ فِتْنَتَهُمْ"، وهي قراءة حمزة والكسائي. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٥٤.
٥ في الآية السابقة.
٦ ط س: عنه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
٧ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٧.

وأنّ لهم قدرةً على الاعتذار في الجملة، وذلك مُخِلٌّ بكمال هَوْلِ اليوم قطعًا، على أنّه قد قضى ببُطلانه قولُه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ فإنّه تعجيب مِن كذبهم الصريحِ بإنكار صدور الإشراك عنهم في الدنيا، أي: انظُرْ كيف كذَبوا على أنفُسِهم في قولهم ذلك، فإنّه أمرٌ عجيبٌ في الغاية. وأمّا حملُه على كذبهم في الدنيا، فتمحُّلٌ يجِب تنزيهُ ساحة التنزيل عنه.

وقوله تعالى:[١] ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَبُوا﴾، داخلٌ معه في حكم التعجيب. و﴿مَا﴾ مصدريّةٌ، أو موصولةٌ قد حُذف عائدُها، والمعنى: انظُرْ كيف كذَبوا باليمين الفاجرةِ المغلَّظة على أنفُسِهم بإنكار صدور ما صدر عنهم، وكيف ضلَّ عنهم -أي: زَالَ وذهب- افتراؤُهم أو ما كانوا يفتَرُونه مِن الإشراك، حتّى نَفَوْا صدورَه عنهم بالكلّيّة، وتبرّءُوا منه[٢] بالمرّة.

وقيل: ﴿مَا﴾ عبارةٌ عن الشركاء، وإيقاعُ الافتراء عليها -مع أنّه في الحقيقة واقعٌ على أحوالها مِن الإلهيّة والشركة والشفاعةِ ونحوِها- للمبالغة في أمرها، كأنّها نفسُ المفترَى. وقيل: الجملة كلامٌ مستأنَفٌ غيرُ داخلٍ في حيّز التعجيب.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ كلامٌ مبتدَأٌ مسوقٌ لحكاية ما صدر في الدنيا عن بعض المشركين مِن أحكام الكفر، ثمّ بيانِ ما سيصدُر عنهم يومَ الحشر، تقريرًا لِما قبله وتحقيقًا لمضمونه. والضمير لـ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.[٣] ومحلُّ الظرف الرفعُ على أنّه مبتدأ باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾،[٤] أي: وجمعٌ منّا... إلخ.

---

[١] وفي هامش م: بلغ. | لعلّه قيد البلاغ للمراجعة.

[٢] ط س: عنه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٣] الأنعام، ٢٢/٦.

[٤] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن، ١١/٧٢].

و﴿مَنْ﴾ موصولة أو موصوفة، محلُّها الرفعُ على الخبريّة، والمعنى: وبعضُهم أو وبعضٌ منهم الذي يستمع إليك، أو فريقٌ يستمع إليك، على أنّ مَناط الإفادة اتّصافُهم بما في حيّز الصلة أو الصفة، لا كونُهم ذواتِ أولئك المذكورين. وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾... إلخ [البقرة، ٨/٢].

رُوي أنّه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعُتبةُ وشيبةُ[1] وأبو جهل وأضرابُهم يستمعون تلاوةَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[2] فقالوا للنضر، وكان صاحبَ أخبارٍ: «يا أبا قُتَيلَةَ ما يقول محمّد؟»، فقال: «والذي جعلها بيتَه ما أدري ما يقول، إلّا أنّه / يحرِّك لسانه ويقول أساطيرَ الأوّلين مثلَ ما حدّثْتُكم مِن القرون الماضية»، فقال أبو سفيان: «إنّي لَأراه حقًّا»، فقال أبو جهل: «كلّا»، فنزلَتْ.[3] [٢٠٤ظ]

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ مِن "الجعل" بمعنى الإنشاء، و﴿عَلَىٰ﴾ متعلِّقة به. وضمير ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ راجعٌ إلى ﴿مَنْ﴾، وجمعِيَّتُه بالنظر إلى معناها، كما أنّ إفراد ضمير ﴿يَسْتَمِعُ﴾ بالنظر إلى لفظها، وقد رُوعِيَ جانبُ المعنى في قوله تعالى:[4] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ الآية [يونس، ٤٢/١٠]. و"الأَكِنّة" جمعُ "كِنان"، وهو ما يُستَر به الشيءُ، وتنوينُها للتفخيم.

والجملة إمّا مستأنَفة للإخبار بما تضمَّنَه مِن الخَتْم، أو حال مِن فاعل ﴿يَسْتَمِعُ﴾ بإضمار "قد" عند مَن يقدِّرها قبل الماضي الواقعِ حالًا، أي: يستمعون إليك وقد ألقَيْنا على قلوبهم أغطِيةً كثيرةً لا يقادَر قدرُها خارجةً ممّا يتعارَفه الناس

---

[1] هو شيبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو هاشم (ت. ٢هـ/٦٢٤م). مِن زعماء قريش في الجاهليّة. أدرك الإسلام، ولم يُسلِم. وهو أحد الذين نزلت فيهم الآية: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر، ٩٠/١٥]، وهم سبعة عشر رجلًا مِن قريش، اقتسموا عقباتِ مكّة في بدء ظهور الإسلام، وجعلوا دأبهم في أيّام موسم الحجّ أن يصُدّوا الناس عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولمّا كانت وقعة بدر، حضرها شيبة مع مشركيهم، ونحَرَ تسع ذبائح لإطعام رجالهم، وقُتل فيها. انظر: **أنساب الأشراف** للبَلاذُري، ١٥٢/١-١٥٣؛ **والأعلام** للزركلي، ١٨١/٣.

[2] س: عليه السلام.

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ١٣/٢. ونحوه في **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦٨/٤؛ **واللباب** لابن عادل، ٨٠/٨.

[4] وفي هامش م: في سورة يونس. «منه».

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: كراهةَ أن يفقَهوا ما يستمعونه مِن القرآن المدلولِ عليه بذكر الاستماع. ويجوز أن يكون مفعولًا لِما يُنبِئ عنه الكلامُ، أي: منَعْناهم أن يفقَهوه.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ صَمَمًا وثِقَلًا مانعًا مِن سَماعه، والكلام فيه كما في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾. وهذا تمثيلٌ معرِبٌ عن كمال جهلهم بشئون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وفرطِ نُبُوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومجِّ أسماعهم له. وقد مرّ تحقيقه في أوّل سورة البقرة.[١]

/ وقيل: هو حكاية لِما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت، ٤١/٥]. وأنت خبير بأنّ مرادهم بذلك الإخبارُ بما اعتقدوه في حقّ القرآن والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم جهلًا وكفرًا مِن اتّصافهما بأوصافٍ مانعةٍ مِن التصديق والإيمان، ككونِ القرآن سِحرًا وشِعرًا وأساطيرَ الأوّلين، وقِسْ عليه ما تخيّلوه في حقّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ لا الإخبارُ بأنّ هناك أمرًا وراءَ ذلك قد حالَ بينهم وبين إدراكه حائلٌ مِن قِبَلِهم، حتّى يُمكِنَ حمل النظم الكريم على ذلك. [٢٠٥و]

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ﴾ مِن الآيات القرآنيّة، أي: يشاهِدوها بسَماعها، ﴿لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ على عموم النفي، لا على نفي العموم، أي: كفروا بكلّ واحدة منها[٢] لعدم اجتلائهم إيّاها كما هي، لِما مرّ مِن حالهم. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ هي "حتّى" التي تقع بعدها الجُمَلُ، والجملةُ هي قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءُوكَ﴾ ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وما بينهما[٣] حال مِن فاعل ﴿جَآءُوا﴾.[٤]

وإنّما وُضع الموصولُ موضِعَ الضمير ذمًّا لهم بما في حيّز الصلة وإشعارًا بعِلّة الحُكم، أي: بلغوا مِن التكذيب والمكابرةِ إلى أنّهم إذا جاءوك مجادِلين لك لا يَكتفُون بمجرّد عدم الإيمان بما سمِعوا مِن الآيات الكريمة؛ بل يقولون: ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ فإنّ عَدَّ أحسَنِ الحديث وأصدَقِه

---

١ انظر: تفسير البقرة ٢/٧.

٢ ط س – منها. | كأنّ هذه العبارة ممّا زادها المؤلّف بعد نسخ ط س.

٣ أي: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾.

٤ والمعنى: حتّى إذا جاءوك مجادِلين يقول الذين كفروا...

-الذي لا يأتيه الباطلُ مِن بين يدَيْه ولا مِن خلفه- مِن قبيل الأباطيلِ والخُرافاتِ رتبةً[١] مِن الكفر لا غايةَ وراءَها.

ويجوز أن تكون ﴿حَتَّىٰٓ﴾ جارّةً، و﴿إِذَا﴾ ظرفيّةً بمعنى: وقتِ مجيئِهم، و﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ حال كما سبق، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾... إلخ تفسير للمجادَلة. و"الأساطيرُ" جمعُ "أُسطُورة" أو "إسطارة"، أو جمعُ "أسطار"، وهو جمعُ "سَطَر" بالتحريك، وأصلُ الكلّ "السَّطْر" بمعنى الخَطّ.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٢٦﴾

[٢٠٥ظ] / ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الضمير المرفوع للمذكورين، والمجرورُ للقرآن، أي: لا يقتنعون بما ذُكر مِن تكذيبه وعَدِّه مِن قبيل الأساطير؛ بل ينهَوْن الناسَ عن استماعه لِئلّا يقِفوا على حقّيتِه فيؤمِنوا به. ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يتباعدون عنه بأنفُسِهم إظهارًا لغاية نفورهم عنه وتأكيدًا لِنهيِهم عنه، فإنّ اجتناب الناهي عن المَنهيّ عنه مِن متمِّمات النهي. ولعلّ ذلك هو السرُّ في تأخير النأي عن النهي.

وقيل: الضمير المجرور للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٢] وقيل: المرفوعُ لأبي طالب، ولعلّ جمعِيّتَه باعتبار استِتْباعه لأتباعه، فإنّه كان ينهَى قريشًا عن التعرّض لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وينآى عنه، فلا يؤمن به. ورُوي أنّهم اجتمعوا إليه وأرادوا برسول اللهِ صلّى الله عليه وسلّم سُوءًا، فقال:

والله لن يصِلوا إليك بجمعِهم ... حتّى أُوَسَّدَ في التُّراب دفينَا
فاصدَعْ بأمرك ما عليك غَضاضة ... وأبشِرْ بذاك وقَرَّ منه عُيونَا
ودعَوْتَني وزعمتَ أنّك ناصح ... ولقد صدقتَ وكنتَ ثَمّة أمينَا
وعرضتَ دِينًا لا محالةَ إنّه ... مِن خيرِ أديان البَرِيّة دِينَا
لولا المَلامةُ أو حِذاري سُبّةً ... لَوجدْتَني سَمْحًا بذاك مُبينَا

فنزلَتْ.[٣]

---

١ خبرُ "إنّ".
٢ س: عليه السلام.
٣ الكشّاف للزمخشري، ١٤/٢. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في الكشف والبيان للثعلبي، ١٤١/٤-١٤٢؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢١٨؛ واللباب لابن عادل، ٨٧/٨.

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ أي: ما يُهلكون بما فعلوا مِن النهي والنأي ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها لأشدِّ العذاب وأفظَعِه عاجلًا وآجلًا، وهو عذاب الضلال والإضلال. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مِن ضمير ﴿يُهْلِكُونَ﴾، أي: يقتصرون الإهلاكَ على أنفسِهم والحالُ أنّهم ما يشعُرون، أي: لا بإهلاكهم أنفُسَهم، ولا باقتصار ذلك عليها،[1] مِن غير أن يضُرّوا بذلك شيئًا مِن القرآن والرسولِ عليه السلام والمؤمنين.

وإنّما عُبّر عنه بـ"الإهلاك" -مع أنّ المَنفيّ مِن غيرهم مطلَقُ الضَّرَر؛ إذ غايةُ ما يؤدّي إليه ما فعلوا مِن القدح في القرآن الكريم الممانَعةُ في تمشّي أحكامِه وظهورِ أمر الدين- للإيذان بأنّ ما يَحِيق بهم هو الهلاكُ، لا الضَّرَرُ المطلَقُ، على أنّ مقصدهم لم يكن مطلَقَ الممانَعة فيما ذُكر؛ بل كانوا يَبغُون الغوائلَ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وللمؤمنين. ويجوز أن يكون الإهلاكُ معتبَرًا بالنسبة إلى الذين يُضِلّونهم بالنهي، فقصرُه على أنفسِهم حينئذ -مع شموله للفريقين- مبنيٌّ على تنزيل عذاب الضلال عند عذاب الإضلال منزلةَ العدم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ شروع في حكاية ما سيصدُر عنهم يومَ القيامة مِن القول المناقِضِ لِما صدر عنهم في الدنيا مِن القبائح المَحكيّة مع كونه كاذبًا[2] في نفسه.[3] والخطاب إمّا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد مِن أهل المشاهَدة والعِيانِ، / قصدًا إلى بيان كمال سُوء حالهم وبلوغِها مِن الشناعة [٢٠٦و] والفظاعةِ إلى حيث لا يختصُّ استغرابُها بِرَاءٍ دون راءٍ ممّن اعتادَ مشاهدةَ الأمور العجيبة؛ بل كلُّ مَن يتأتّى منه الرؤيةُ يَتعجّب مِن هَولها وفظاعتِها.

---

١ أي: باقتصار إهلاكهم على أنفسِهم.

٢ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: كذبًا.

٣ وفي هامش م: وهو قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام، ٦/٢٧]. «منه».

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ ثِقةً بظهوره وإيذانًا بقصور العبارة عن تفصيله، وكذا مفعولُ ﴿تَرَىٰ﴾ لدلالةِ ما في حيّز الظرف عليه، أي: لو تَراهم حين يُوقَفون على النار حتّى يُعاينوها لَرأيتَ ما لا يساعده التعبيرُ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق، أو حين يُطلَعون عليها إطلاعًا وهي تحتهم، أو يُدخَلونها فيُعرَّفون مقدارَ عذابها، مِن قولهم: "وَقَّفْتُه على كذا" إذا فَهَّمْتَه وعَرَّفْتَه. وقُرئ: "وَقَفُوا"[1] على البناء للفاعل، مِن "وقَفَ عليه وُقوفًا".

﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أي: إلى الدنيا، تمنّيًا للرجوع والخلاص؛ وهيهاتَ، ولاتَ حين مَناص! ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ أي: بآياته الناطقةِ بأحوال النار وأهوالِها، الآمرةِ باتّقائها؛ إذ هي التي تخطُر حينئذ ببَالهم، ويتحسّرون على ما فرّطوا في حقّها، أو بجميع آياته المنتظِمةِ لتلك الآيات انتظامًا أوّليًا. ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بها، العاملين بمُقتضاها، حتّى لا نرى هذا الموقِفَ الهائلَ، أو نكونَ مِن فريق المؤمنين، الناجين مِن العذاب، الفائزين بحُسن المَآب.

ونصبُ الفعلين على جواب التمنّي بإضمار "أنْ" بعد "الواو" وإجرائِها مُجرى "الفاء"، ويؤيّده قراءةُ ابن مسعود رضي الله عنه[2] وابنِ إسحاقَ: "فَلَا نُكَذِّبَ"،[3] والمعنى: إن رُدِدْنا لم نكَذِّبْ ونكُنْ مِن المؤمنين. وقيل: ينسَبِكُ مِن "أنْ" المصدريّة ومِن الفعل بعدها مصدرٌ، ويُقدَّر قبله مصدرٌ متوهَّم، فيُعطَف هذا عليه، كأنّه قيل: ليتَ لنا ردًّا وانتفاءَ تكذيبٍ وكونًا مِن المؤمنين.

وقُرئ برفعهما[4] على أنّه كلام مستأنَف، كقوله: "دَعْنِي ولا أعودُ"، أي: وأنا لا أعودُ، تركْتَني أو لم تترُكْني، أو عطفٌ على ﴿نُرَدُّ﴾، أو حال مِن ضميره، فيكون داخلًا في حكم التمنّي كالوجه الأخير للنصب. وتعلّقُ التكذيب الآتي[5] به

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٤/٤٧٤، ونسبها إلى ابن السميقع وزيد بن عليّ.

[2] س - رضي الله عنه.

[3] هي منسوبةٌ إلى ابن مسعود في شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٦، وإلى "ابن أبي إسحاق" بدلَ "ابن إسحاق" في التفسير البسيط للواحدي، ٧٦/٨؛ واللباب لابن عادل، ٩٤/٨.

[4] أي: "وَلَا نُكَذِّبُ... وَنَكُونُ"، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٥٧/٢.

[5] وفي هامش م: وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام، ٢٨/٦]. «منه».

لِما تضمّنه مِن العِدَة بالإيمان وعدمِ التكذيب، كمَن قال: "ليتَني رُزِقتُ مالًا فأُكافئك على صَنيعك"، / فإنّه مُتَمَنٍّ في معنى الواعد، فلو رُزِق مالًا ولم يكافِئْ صاحِبَه يكون مكذِّبًا لا محالةَ. وقُرِئ برفع الأوّل ونصبِ الثاني،[1] وقد مرّ وجهُهما. [٢٠٦ظ]

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝٢٨﴾

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ إضراب عمّا يُنبِئ عنه التمنّي مِن الوعد بتصديق الآيات والإيمانِ بها، أي: ليس ذلك عن عزيمةٍ صادقةٍ ناشئةٍ عن رغبة في الإيمان وشَوقٍ إلى تحصيله والاتّصافِ به؛ بل لأنّه ظهَرَ لهم في موقِفِهم ذلك ما كانوا يُخفُونه في الدنيا مِن الداهية الدَّهياء، وظَنّوا[2] أنّهم مُواقِعوها؛ فلِخَوفِها وهَولِ مطلَعِها قالوا ما قالوا.

والمراد بها النارُ التي وُقفوا عليها؛ إذ هي التي سِيقَ الكلامُ لتهويل أمرها والتعجيبِ مِن فظاعة حال الموقوفين عليها، وبـ"إخفائها" تكذيبُهم بها؛ فإنّ التكذيب بالشيء كفرٌ به وإخفاءٌ له لا محالةَ. وإيثاره على صريح التكذيب الواردِ في قوله عزّ وجلّ: ﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن، ٤٣/٥٥]، وقولِه تعالى: ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور، ١٤/٥٢] -مع كونه أنسَبَ بما قبله مِن قولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا﴾-[3] لِمُراعاة ما في مقابلتِه مِن البُدُوّ. هذا هو الذي يستدعيه جزالةُ النظم الكريم.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد بـ"ما يُخفُون" كفرُهم ومَعاصِيهم، أو قبائحُهم وفضائحُهم التي كانوا يكتُمونها مِن الناس، فتظهر في صُحُفِهم وبشهادة جوارِحِهم عليهم، أو شركُهم الذي يجحَدون به في بعض مواقف القيامة بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٢٣/٦]، ثمّ يظهر بما ذُكر مِن شهادة الجوارح عليهم، أو ما أخفاه رؤساءُ الكَفَرة عن أتباعهم مِن أمر البعث والنشور،

---

[1] أي: "وَلَا نُكَذِّبُ... وَنَكُونَ"، وهي قراءة ابن عامر في رواية هشام. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٥٥؛ النشر لابن الجزري، ٢٥٧/٢.

[2] وفي هامش م: أي: أيقَنُوا. «منه».

[3] في الآية السابقة.

أو ما كتَمَه علماءُ أهل الكتابَين مِن صحّة نُبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ونُعوتِه الشريفة عن عوامِّهم، على أنّ الضمير المجرور للعوامّ والمرفوعَ للخواصّ، أو كفرُهم الذي أخفَوْه مِن المؤمنين، / والضميرُ المجرور للمؤمنين والمرفوعُ للمنافقين؛ فبعدَ الإغضاءِ عمّا في كلٍّ منها مِن الاعتساف والاختلالِ، لا سبيلَ إلى شيء مِن ذلك أصلًا،[1] لِما عرفتَ مِن أنّ سَوق النظم الشريف لتهويل أمر النار وتفظيعِ حال أهلها؛ وقد ذُكر وقوفُهم عليها، وأُشيرَ إلى أنّه اعترَاهم عند ذلك مِن الخوف والخشيةِ والحيرةِ والدهشةِ ما لا يُحيط به الوصفُ، ورُتّب عليه تمنّيهم المذكورُ بـ"الفاء" القاضيةِ بسببيّةِ ما قبلها لِما بعدها؛ فإسقاطُ النار بعد ذلك مِن تلك السببيّة -وهي في نفسها أدهى الدواهي وأزجَرُ الزواجر- وإسنادُها إلى شيء مِن الأمور المذكورة التي دُونها في الهَول والزجر، مع عدم جَرَيان ذكرها ثمّةَ، أمرٌ يجِب تنزيهُ ساحة التنزيل عن أمثاله. وأمّا ما قيل[2] مِن أنّ المراد جزاءُ ما كانوا يُخفُون، فمِن قبيل دخول البيوت مِن ظهورها وأبوابُها مفتوحةٌ، فتأمّلْ.

[٢٠٧و]

﴿وَلَوۡ رُدُّوا﴾ أي: مِن موقِفِهم ذلك إلى الدنيا حسبما تمنَّوْه، وغابَ عنهم ما شاهَدوه مِن الأهوال، ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ مِن فنون القبائح التي مِن جملتها التكذيبُ المذكورُ، ونَسُوا ما عايَنوه بالكلّيّة لاقتصارِ أنظارهم على الشاهد دون الغائب. ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: لَقومٌ دَيْدَنُهم[3] الكذبُ في كلّ ما يأتون وما يَذَرون.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عطفٌ على ﴿عَادُواْ﴾،[4] داخلٌ في حيّز الجواب. وتوسيط قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[5] بينهما؛ لأنّه اعتراضٌ مسوقٌ لتقرير ما أفاده الشرطيّةُ مِن كذبهم المخصوصِ، ولو أُخِّر لَأَوْهَمَ أنّ المراد تكذيبُهم في إنكارهم البعثَ. والمعنى: لو رُدُّوا إلى الدنيا لَعَادوا لِما نُهُوا عنه، / وقالوا: ﴿إِنۡ هِيَ﴾ أي:

[٢٠٧ظ]

---

[1] السياق: وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد بـ"ما يُخفُون"... لا سبيلَ إلى شيء مِن ذلك أصلًا...

[2] وفي هامش م: قاله المبرّد، على ما نقله الثعلبي في تفسيره. «منه». | الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٢/٤.

[3] الدَّيْدَنُ: الدَّأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

[4] في الآية السابقة.

[5] في الآية السابقة.

ما الحياةُ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعدما فارَقْنا هذه الحياةَ، كأن لم يرَوْا ما رأَوْا مِن الأحوال التي أوّلُها البعثُ والنشورُ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٠﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في نظيره؛ خَلَا أنّ الوقوف ههنا مجازٌ عن الحَبْس للتوبيخ والسؤالِ، كما يوقَفُ العبد الجاني بين يدَيْ سَيّده للعقاب. وقيل: عُرِّفوا ربَّهم حقَّ التعريف. وقيل: وُقِفوا على جزاء ربّهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن الكلام السابق، كأنّه قيل: فماذا قال لهم ربُّهم إذ ذاك؟ فقيل: قال: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ مشيرًا إلى ما شاهَدوه مِن البعث وما يتبَعُه مِن الأمور العِظام ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، تقريعًا لهم على تكذيبهم لذلك وقولِهم عند سَماعِ ما يتعلّق به ما هو بحقٍّ: وما هو إلّا باطلٌ.

﴿قَالُواْ﴾ استئناف كما سبق. ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أكّدوا اعترافَهم باليمين، إظهارًا لكمال يقينِهم بحَقّيته، وإيذانًا بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنَّشاطِ طَمَعًا في نفعه.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ. ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي عايَنْتُموه. و"الفاءُ" لترتيب التعذيب على اعترافِهم بحَقّيَة ما كفروا به في الدنيا؛ لكنْ لا على أنّ مدار التعذيب هو اعترافُهم بذلك؛ بل هو كفرُهم السابقُ بما اعترفوا بحَقّيته الآنَ، كما نطق به قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم في الدنيا بذلك، أو بكلِّ ما يجب الإيمانُ به، فيدخل كفرُهم به دخولًا أوّليًّا. ولعلّ هذا التوبيخَ والتقريعَ إنّما يقع بعد ما وُقِفوا على النار، فقالوا ما قالوا؛ إذ الظاهرُ أنّه لا يبقى بعد هذا الأمر إلّا العذاب.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٣١﴾

/ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ هم الذين حُكِيت أحوالهم؛ لكنْ وضع [٢٠٨و] الموصول موضِعَ الضمير للإيذان بتسبّبِ خُسرانهم بما في حيّز الصلة مِن التكذيب

بلقائه تعالى بقيام الساعة وما يترتّب عليه مِن البعث وأحكامِه المتفرِّعةِ عليه واستمرارِهم على ذلك؛ فإنّ كلمة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ غايةٌ لتكذيبهم؛ لا لِخُسرانهم، فإنّه أبَديٌّ لا حدَّ له.

﴿بَغۡتَةٗ﴾ البَغْتُ والبَغْتةُ: مفاجَأةُ الشيء بسرعةٍ مِن غير شعورٍ به، يُقال: "بغتَه بَغْتًا وبَغْتةً"، أي: فَجِئَه.[1] وانتصابُها إمّا على أنّها مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحال مِن فاعل ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾، أي: مُباغِتةً، أو مِن مفعوله، أي: مَبغوتِين، وإمّا على أنّها مصدر مؤكِّد على غير الصَّدْر، فإنّ ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾ في معنى "بغتَتْهم"، كقولهم: "أتيْتُه ركضًا"، أو مصدر مؤكِّد لفعل محذوف وقع حالًا مِن فاعل ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾، أي: جاءتهم الساعة تَبْغَتُهم بغتةً.

﴿قَالُواْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾. ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ تَعالَيْ، فهذا أوانُكِ. والحَسرة: شِدّة النَّدَم. وهذا التحسّر، وإن كان يَعترِيهم عند الموت، لكنْ لمّا كان ذلك مِن مبادئ الساعة سُمِّي باسمها؛ ولذلك قال صلّى الله عليه وسلّم: «مَن مات فقد قامت قيامَتُه»،[2] أو جُعِل مجيءُ الساعة بعد الموت كالواقع بغير فترةٍ لِسُرعته.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ أي: على تفريطنا في شأن الساعة وتقصيرِنا في مُراعاة حقّها والاستعدادِ لها بالإيمان بها واكتسابِ الأعمال الصالحة، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾.[3] وقيل: الضمير لـ"الحياة الدنيا"، وإن لم يَجْرِ لها ذِكرٌ، لكونها معلومةً. والتفريط: التقصيرُ في الشيء مع القدرة على فعله. وقيل: هو التضييع. وقيل: الفَرط: السَّبق، ومنه "الفارطُ"، أي: السابقُ، ومعنى "فَرَّطَ": خلَّى السبقَ لغيره، فالتضعيف فيه للسَّلْب، كما في: "جلَّدْتُ البعيرَ".

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ حال مِن فاعل ﴿قَالُواْ﴾، فائدتُه الإيذانُ بأنّ عذابهم ليس مقصورًا على ما ذُكِر مِن الحَسْرة / على ما فاتَ وزالَ؛ [٢٠٨ظ]

---

١ كذا في الأصول المخطوطة، وفي مطبوعاته: فجأة.

٢ قطعة من حديث أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ٦/٢٦٧-٢٦٨، عن عبد الواحد بن الخطّاب. وذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، ٢٨٥/١ (١١١٧)، عن أنس بلفظ: «إذا مات أحدكُم فقد قامت قِيامتُه، فاعبدوا الله كأنّكم تَرَوْنَه واستغفِرُوه كلَّ ساعة». وانظر أيضًا: الكافي الشاف لابن حجر، ص ٦١ (٥).

٣ ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر، ٥٦/٣٩].

بل يُقاسُون مع ذلك تحمُّلَ الأوزار الثِقالِ، والإيماءُ إلى أنّ تلك الحَسرة مِن الشدّة بحيث لا تزُول ولا تُنسَى بما يكابدونه مِن فنون العقوبات. والسرُّ في ذلك أنّ العذاب الرُّوحانيّ أشدُّ مِن الجُسمانيّ. نعوذُ برحمة الله عزّ وجلّ منهما.

والوِزْرُ في الأصل: الحِمْلُ الثقيلُ، سُمّيَ به الإثمُ والذنبُ لغاية ثِقَلِه على صاحبه. وذكرُ "الظهور" كذِكر "الأيدي" في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾،[1] فإنّ المعتاد حملُ الأثقالِ على الظهور، كما أنّ المألوف هو الكسب بالأيدي، والمعنى: أنّهم يتحسّرون على ما لم يعملوا مِن الحَسَنات، والحالُ أنّهم يحمِلون أوزارَ ما عمِلوا مِن السيّئات؛ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ تذييلٌ مقرّرٌ لِما قبله، وتكمِلةٌ له، أي: بِئس شيئًا يَزِرُونَه وِزْرُهم.

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لمّا حُقّق فيما سبق أنّ وراء الحياة الدنيا حَياةً أخرى يلقَوْن فيها مِن الخُطوب ما يلقَوْن، بُيّن بعده حالُ تَيْنِك الحياتين في أنفُسِهما. واللّعِبُ: عملٌ يشغل النفسَ ويَغُرّها عمّا تنتفع به، واللّهْوُ: صَرفُها عن الجِدّ إلى الهزل. والمعنى إمّا على حذف المضاف، أو على جعل الحياة الدنيا نفسَ اللّعِب واللّهْوِ مبالغةً، كما في قول الخَنساء:[2]

فإنّما هي إقبالٌ وإدبارُ[3]

---

[1] ﴿وَمَا أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى، ٣٠/٤٢].

[2] هي تُماضِر بنت عمرو بنت الحارث بن عمرو الشَّريد، أمّ عمرو (ت. ٢٤هـ/٦٤٥م). أشهرُ شواعر العرب، أجمع أهل العلم بالشعر أنّه لم يكن امرأة قطُّ قبلها ولا بعدها أشعَرَ منها. عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهليّ، وأدركت الإسلام، فأسلمت، ووفدت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع قومها بني سليم، فكان رسول الله يستنشدها ويُعجبه شِعرها. وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية، فجعلت تحرِضهم على الثبات حتّى قُتلوا جميعًا، فقالت: «الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم». وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة. ولها ديوان شعر. انظر: أنساب الأشراف للبَلاذُري، ٣٠٣/١٣-٣٠٤؛ والاستيعاب للنُّمري، ١٨٢٧/٤-١٨٢٩.

[3] وفي هامش م: صدرُه:
تَرتَعُ ما رَتَعتْ حتّى إذا ادّكَرَتْ
| والبيت في ديوانه بشرح ثعلب، ص ٣٨٣.

أي: وما أعمالُ الدنيا، أي: الأعمالُ المتعلِّقةُ بها مِن حيث هي هي، أو وما هي مِن حيث إنّها محلٌّ لِكسب تلك الأعمال، إلّا شيء[1] يشغل الناسَ، ويُلهيهم بما فيه مِن منفعةٍ سريعةِ الزوال ولذّةٍ وشيكةِ الاضمحلال عمّا يُعقِبُهم منفعةً جليلةً باقيةً ولذّةً حقيقيّةً غيرَ متناهية مِن الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ التي هي محلُّ الحياة الأخرى ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفرَ والمَعاصيَ؛ لأنّ منافِعَها خالصةٌ عن المضارّ، ولذّاتِها غيرُ مُنغَّصةٍ بالآلام، مستمرّةٌ على الدوام. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك، حتّى تتّقُوا ما أنتم عليه مِن الكفر والعِصيان. و"الفاء" للعطف على مقدَّر، أي: أتغفُلون فلا تعقِلون؟ أو ألَا تتفكّرون فلا تعقِلون؟[2] وقُرئ: "يَعْقِلُونَ"[3] على الغَيْبة.[4]

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

[٢٠٩و] / ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الحُزن الذي يعتريه ممّا حُكِي مِن الكَفَرة مِن الإصرار على التكذيب والمبالغةِ فيه، ببيانِ أنّه عليه السلام بمكانةٍ مِن الله عزّ وجلّ، وأنّ ما يفعلون في حقّه فهو راجعٌ إليه تعالى في الحقيقة، وأنّه ينتقم منهم -لا محالةَ- أشدَّ انتقامٍ.

وكلمةُ ﴿قَدْ﴾ لتأكيد العلم بما ذُكِرَ المفيدِ[5] لتأكيد الوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور، ٦٤/٢٤]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ [الأحزاب، ١٨/٣٣]، ونحوهما، بإخراجها إلى معنى التكثير، حسبما يُخرَج إليه "ربّما" في مِثل قوله:

---

١ م ط س: لعب [صُحّح في هامش م].

٢ كذا في الأصول المخطوطة، وفي مطبوعاته: فتعقِلون.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٥٦؛ النشر لابن الجزري، ٢٥٧/٢.

٤ في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

٥ قوله: "المفيدِ" متعلِّق بـ"التأكيد".

وإن تُـمْـسِ مـهـجورَ الـفِـنـاء فرُبّـمـا   أقــامَ بــه بـعـد الـوُفــود وفــودُ[١]

جَرْيًا على سَنَنِ العرب عند قصد الإفراط في التكثير، تقول لبعض قُوّادِ العساكر: "كم عندك مِن الفُرسان؟"، فيقول: "رُبَّ فارسٍ عندي"، وعنده مقانِبُ[٢] جَمّةٌ، يريد بذلك التماديَ في تكثير فُرسانه، ولكنّه يرُوم إظهارَ براءته عن التزيُّد، وإبرازَ أنّه ممّن يقلِّل كثيرَ ما عنده، فضلًا عن تكثير القليل. وعليه قوله عزّ وجلّ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر، ١٥/٢].

وهذه طريقةٌ إنّما تُسلَك عند كون الأمر مِن الوضوح بحيث لا تحُوم حولَه شائبةُ ريب حقيقةً، كما في الآيات الكريمة المذكورة، أو ادّعاءً، كما في البيتِ وقولِه:

قـد أتــرُكُ الـقِـرْنَ مُـصـفَـرًّا أنـامِـلُـه[٣]

وقولِه:

ولـكـنّـه قـد يُـهـلِـكُ الـمـالَ نـائـلُـهْ[٤]

والمراد بكثرة علمه تعالى كثرةُ تعلّقِه. وهو متعَدٍّ إلى اثنين، وما بعده سادٌّ مسدَّهما. واسمُ ﴿إِنَّ﴾ ضميرُ الشأن، وخبرُها الجملةُ المفسِّرة له. والموصول فاعلُ ﴿يَحْزُنُكَ﴾، وعائدُه محذوف، أي: الذي يقولونه، وهو ما حُكي عنهم مِن قولهم:

---

١ البيت لأبي عطاء السندي، يرثي يزيد بنَ عمر بنَ هُبيرة لمّا قُتِل بواسط، في أمالي القالي، ١/٢٧١-٢٧٢؛ وشرح ديوان الحماسة للأصفهاني، ص ٥٦٧؛ والعقد الفريد لابن عبد ربّه، ٣/٢٤٠. وفي الأوّلَين: "فإن تُمسِ" والثالثِ: "فإن تكُ" بدلَ "وإن تُمسِ".

٢ المقانب: جمعُ "مِقنَب"، وهو يطلق على زُهاءِ ثلاثمائة مِن الخيل. وفي حديث عمرَ أنّه ذُكر سعدٌ حين طُعن، فقال: «إنّما يكون في مِقنب مِن مقانبكم»، قال أبو عبيد: المِقنب: جماعة الخيل والفُرسان، يريد أنّ سعدًا صاحبُ جيوش ومحاربة، وليس بصاحب هذا الأمر. تهذيب اللغة للأزهري، ٩/١٥٧ «أبواب القاف والنون».

٣ البيت لعبيد بن الأبرص في ديوانه، ص ٤٩، وعجزه:

كـأنّ أثـوابَـه مُـجَّـتْ بـفِـرْصـادِ

القِرْن: المثيل في الشجاعة. مصفَرًّا أنامِلُه، أي: طعنته فنزف حتّى اصفرّ. والأنامل: رءوس الأصابع. مجَّتْ: صبغت. الفِرصاد: التُّوت، شبّه الدم بعصارته الحمراء. والبيت ممّا تداوَلَه الشعراء، فبعضهم أخذ المصراع، وبعضهم أخذه تمامًا بلفظه، وبعضهم أخذ معناه. انظر تعليق محقّق الديوان على البيت.

٤ عجز بيت، وصدره:

أخِـي ثِـقَـةٍ لا تُـهـلِـكُ الـخـمرُ مالَـه

وهو لزُهير بن أبي سُلمى في ديوانه بشرح ثعلب، ص ١١٣.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام، ٢٥/٦؛ الأنفال، ٣١/٨؛ المؤمنون، ٨٣/٢٣؛ النمل، ٦٨/٢٧]، ونحوُ ذلك. وقُرئ: "لَيُحْزِنُكَ"،[١] مِن "أَحزَنَ" / المنقولِ مِن "حَزِنَ" اللازِم. [٢٠٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ تعليلٌ لِما يُشعر به الكلامُ السابقُ مِن النهي عن الاعتداد بما قالوا؛ لكنْ لا بطريق التشاغُلِ عنه وعَدِّه هيّنًا، والإقبالِ التامّ على ما هو أهمُّ منه مِن استعظام جحودهم بآيات الله عزّ وجلّ كما قيل، فإنّه، مع كونه بمَعزِلٍ مِن التسلية بالكلّيّة، ممّا يُوهِم كونَ حُزنه صلّى الله عليه وسلّم لِخاصّة نفسه؛ بل بطريق التسلّي بما يفيده مِن بلوغه عليه السلام في جلالة القَدْر ورفعةِ المَحلّ والزُّلفى مِن الله عزّ وجلّ إلى حيث لا غايةَ وراءَه؛ حيث لم يُقتصَر على جعل تكذيبه عليه السلام تكذيبًا لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، ٨٠/٤]؛ بل نُفِي تكذيبهم عنه عليه السلام، وأُثبِتَ لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح، ١٠/٤٨]، إيذانًا بكمال القُرب واضمحلالِ شئونه عليه السلام في شأن الله عزّ وجلّ.

نعَمْ، فيه استعظامٌ لِجناياتهم مُنبئٌ عن عِظَمِ عقوبتهم، كأنّه قيل: لا تعتدَّ به، وكِلْهُ إلى الله تعالى، فإنّهم في تكذيبهم ذلك لا يكذّبونك في الحقيقة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنّهم بآياته تعالى يكذّبون؛ فوُضِع المظهَر موضِعَ المضمَر تسجيلًا عليهم بالرسوخ في الظلم الذي جحودُهم هذا فنٌّ مِن فنونه.

والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المَهابة واستعظامِ ما أقدموا عليه مِن جحود آياته تعالى. وإيراد "الجُحود" في مَورِد التكذيب للإيذان بأنّ آياتِه تعالى مِن الوضوح بحيث يشاهِد صدقَها كلُّ أحد، وأنّ مَن يُنكرها فإنّما يُنكرها بطريق الجُحود الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل، ١٤/٢٧]، وهو المَعنيّ بقول مَن قال: "إنّه نفيُ ما في القلب ثباتُه، أو إثباتُ ما في القلب نفيُه". و"الباءُ" متعلِّقة بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾،

---

١ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

يُقال: "جحَده حقَّه وبحقِّه" إذا أنكره وهو يعلمه. وقيل: هي لتضمين "الجُحود" معنى "التكذيب". وأيًّا ما كان، فتقديم الجارّ والمجرور للقَصر.

وقيل: المعنى: فإنّهم لا يكذِّبونك بقلوبهم، ولكنّهم يجحَدون بألسِنَتهم. ويعضُده ما رُوي مِن أنّ الأخنَس بنَ شريقٍ قال لأبي جهل: «يا أبا الحَكَم، أخبِرْني عن محمّد، أصادقٌ هو أمْ كاذبٌ؟ فإنّه ليس عندنا أحدٌ غيرُنا»، فقال له: «واللهِ إنّ محمّدًا لَصادقٌ، وما كذب قطُّ، / ولكنْ إذا ذهب بنو قُصيّ باللِّواءِ [٢١٠و] والسِّقايةِ والحِجابةِ والنبوّةِ، فماذا يكون لسائر قريشٍ؟»»، فنزلَتْ.[1] وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يسمَّى "الأمينَ"،[2] فعرَفوا أنّه لا يكذِب في شيء، ولكنّهم كانوا يجحَدون.

وقيل: فإنّهم لا يكذِّبونك؛ لأنّك عندهم الصادقُ الموسومُ بالصدق، ولكنّهم يجحَدون بآيات الله، كما يُروى أنّ أبا جهل كان يقول لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما نكذِّبُك، وإنّك عندنا لَصادقٌ، ولكنّا نكذِّب ما جئتَنا به»، فنزلَتْ.[3] وكأنّ صدق المُخبِرِ عند الخبيث بمطابَقة خبره لاعتقادِه. والأوّل هو الذي يستدعيه الجزالة التنزيليّة.

وقُرئ: "لَا يُكْذِبُونَكَ"،[4] مِن "الإكذاب". فقيل: كِلاهما بمعنًى واحدٍ، كـ"أكثَرَ" و"كثَّرَ"، و"أنزَلَ" و"نزَّلَ"، وهو الأظهَرُ. وقيل: معنى "أكذَبَه": وجَدَه كاذبًا.

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١٩/٢. وهو باختلاف يسير في الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٤/٤؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢١٨. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢٢٢/٩.

[2] الكشّاف للزمخشري، ١٨/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٩/٤. وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشّاف، ٤٣٧/١ (٤٤٦): «غريب مِن حديث ابن عبّاس. ورواه ابن سعد في الطبقات من حديث يعلى بن أميّة، قال: بلغ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم خمسًا وعشرين سنةً وليس له بمكّةَ اسمٌ إلّا الأمين لِما تكامَلَ فيه مِن خِصال الخير». وقال ابن حجر في الكافي الشاف، ص ٦١ (٦): «لم أجده عنه».

[3] هو باختلاف يسير في سنن الترمذي، ٢٦١/٥ (٣٠٦٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٣٣٤/١١؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢١٩. والألفاظ من أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٠/٢.

[4] قرأ بها نافع والكسائي. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٥٧؛ النشر لابن الجزري، ٢٥٧/٢-٢٥٨. وهي مضبوطة في مطبوع الحجّة لأبي عليّ الفارسي، ٣٠٢/٣: "يَكْذِبُونَكَ"، والظاهر أنّها مِن "الإكذاب".

ونُقل عن الكسائي أنّ العرب تقول: "كذّبتُ الرجلَ"، أي: نسبت الكَذِبَ إليه، و"أكذبتُه"، أي: نسبت الكذبَ إلى ما جاء به، لا إليه.[1]

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ افتنانٌ في تسليتِه عليه السلام، فإنّ عموم البَلِيّة ربّما يهوِّنُ أمرَها بعضَ تهوينٍ، وإرشادٌ له عليه السلام إلى الاقتداء بمَن قبله مِن الرُّسُل الكِرامِ عليهم السلام في الصبر على ما أصابهم مِن أُمَمِهم مِن فنون الأذِيّة، وعِدَةٌ ضِمنيّة له عليه السلام بمِثل ما مُنِحُوه مِن النصر.

وتصدير الكلام بالقَسم لتأكيد التسلية. وتنوينُ ﴿رُسُلٌ﴾ للتفخيم والتكثير. و﴿مِنْ﴾ إمّا متعلِّقةٌ بـ﴿كُذِّبَتْ﴾، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿رُسُلٌ﴾، أي: وباللهِ لقد كُذّبت مِن قبلِ تكذيبك رُسُلٌ أُولُوا شأنٍ خطيرٍ وذَوُو عددٍ كثيرٍ، / أو كُذّبت رُسُلٌ كانوا مِن زمانٍ قبلَ زمانِك. [٢١٠ظ]

﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ ﴿مَا﴾ مصدريّة، وقوله تعالى ﴿وَأُوذُوا﴾ عطفٌ على ﴿كُذِّبُوا﴾، داخلٌ في حُكمه، فانسَبِكَ منهما مصدرانِ مِن المبنيّ للمفعول، أي: فصبروا على تكذيبهم وإيذائِهم؛ فتَأَسَّ بهم،[2] واصطَبِرْ على ما نالَك مِن قومك. والمراد بـ"إيذائهم" إمّا عينُ تكذيبهم، وإمّا ما يقارنه مِن فنون الإيذاء، لم يُصرَّح به ثِقةً باستلزام التكذيب إيّاه غالبًا. وأيًّا ما كان، ففيه تأكيد للتسلية. وقيل: عطفٌ على ﴿صَبَرُوا﴾، وقيل: على ﴿كُذِّبَتْ﴾. وقيل: هو استئناف.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ غاية للصبر. وفيه إيذان بأنّ نصره تعالى إيّاهم أمرٌ مقرَّرٌ لا مردَّ له، وأنّه متوجِّه إليهم لا بدَّ مِن إتيانه البتّةَ. والالتفات إلى نُون العَظَمة لإبراز الاعتناء بشأن النصر. وقوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لِما قبله مِن إتيان نصره إيّاهم.

---

[1] الحجّة لأبي عليّ الفارسي، ٣/٣٠٤؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٢٦٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤/٤٨٨.

[2] تأسّى به: اتّبع فعلَه واقتدى به. والتأسّي في الأمور: القدوة. تاج العروس للزبيدي، «أسو».

والمراد بكَلِماته تعالى ما يُنبئ عنه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات، ١٧١/٣٧-١٧٣]، وقولُه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة، ٢١/٥٨]، مِن المواعيد السابقة للرُّسُل عليهم السلام الدالّةِ على نُصرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[١] أيضًا؛ لا نفسُ الآيات المذكورة ونظائرُها، فإنّ الإخبار بعدم تبدُّلِها إنّما يفيد عدمَ تبدّلِ المواعيد الواردة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خاصّةً دون المواعيد السابقة للرُّسُل عليهم السلام.

ويجوز أن يُراد بكَلِماته تعالى جميعُ كَلِماته التي مِن جملتها تلك المواعيدُ الكريمةُ، ويدخل فيها المواعيدُ الواردةُ في حقّه عليه السلام دخولًا أوّليًا. والالتفات إلى الاسم الجليل للإشعار بعِلّة الحُكم، فإنّ الألوهيّة مِن موجِبات أن لا يغالِبَه أحدٌ في فعلٍ مِن الأفعال، ولا يَقَعَ منه تعالى[٢] خُلْفٌ في قولٍ مِن الأقوال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ / جملة قَسَميّة، جِيءَ بها لتحقيق ما مُنِحوا مِن النصر وتأكيدِ ما في ضِمنه مِن الوعد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو لتقرير جميع ما ذُكر مِن تكذيب الأُمَم وما ترتَّبَ عليه مِن الأمور. والجارّ والمجرور في محلّ الرفع على أنّه فاعلٌ، إمّا باعتبار مضمونه، أي: بعضُ نبأ المرسَلين، أو بتقدير الموصوف، أي: بعضٌ مِن نبأ المرسَلين، كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة، ٨/٢]. [٢١١و]

وأيًّا ما كان، فالمراد بنَبَئِهم عليهم السلام على الأوّل[٣] نصرُه تعالى إيّاهم بعد اللَّتيا والتي، وعلى الثاني[٤] جميعُ ما جرى بينهم عليهم السلام وبين أُمَمِهم، على ما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ

---

[١] م - صلّى الله عليه وسلّم.

[٢] س - تعالى.

[٣] وفي هامش م: هو كون الجملة مسوقةً لتقرير ما أتاهم مِن النصر. «منه».

[٤] وفي هامش م: وهو كون الجملة مسوقةً لتقرير جميع ما ذُكِر مِن تكذيب الأُمَم وما ترتُّبَ عليه مِن الأمور. «منه».

خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ الآية.[١] وقيل: في محلّ النصب[٢] على الحاليّة مِن المستكنّ في ﴿جَآءَ﴾ العائدِ إلى ما يُفهَم مِن الجملة السابقة، أي: ولقد جاءك هذا الخبر كائنًا مِن نبأ المرسَلين.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ كلام مستأنَف مسوقٌ لتأكيد إيجاب الصبر المستفاد مِن التسلية، ببيانِ أنّه أمرٌ لا مَحيدَ عنه أصلًا، أي: إن كان عظُمَ عليك وشقَّ إعراضُهم عن الإيمان بما جئتَ به مِن القرآن الكريم، حسبما يُفصح عنه ما حُكي عنهم مِن تسميتِهم له "أساطير الأوّلين"[٣] وتَنائِيهم عنه ونهيِهم الناسَ عنه.

وقيل:[٤] إنّ الحرث بنَ عامر بنِ نَوفلَ بنِ عبد مَنافٍ أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم في محضَرٍ مِن قريشٍ، فقالوا: «يا محمّد، ائتِنَا بآية مِن عند الله كما كانت الأنبياءُ تفعل، وإنّا نصدِّقك»، فأبى الله تعالى أن يأتيهم بآية ممّا اقترحوا، فأعرضوا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فشقَّ ذلك عليه لِما أنّه عليه السلام كان شديدَ الحِرص على إيمان قومه، فكان إذا سألوه آيةً يوَدُّ أن ينزلها الله تعالى، طَمَعًا في إيمانهم، فنزلَتْ.

[٢١١ظ] / فقوله تعالى: ﴿إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ مرتفِعٌ بـ﴿كَبُرَ﴾. وتقديم الجارّ والمجرور عليه لِما مرّ مِرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر. والجملة في محلّ النصب على أنّها خبرٌ لـ﴿كَانَ﴾، مفسِّرةٌ لِاسمها الذي هو ضمير الشأن، ولا حاجةَ إلى تقدير "قد".

---

١ ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة، ٢/٢١٤].

٢ السياق: والجارّ والمجرور في محلّ الرفع... وقيل: في محلّ النصب...

٣ إشارة إلى ما صُرّح به في عدّة آيات. منها ما ورد في سورة الأنفال، ٨/٣١: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

٤ وفي هامش م: وروى ابن عبّاس رضي الله عنه. | انظر: تفسير الرازي، ١٢/٥٢٠؛ واللباب لابن عادل، ٨/١١٩. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في الكشف والبيان للثعلبي، ٤/١٤٥–١٤٦، عن الكلبي.

وقيل: اسم ﴿كَانَ﴾ ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾، و﴿كَبُرَ﴾ جملة فعليّة في محلّ النصب على أنّها خبرٌ لها، مقدَّمٌ على اسمها؛ لأنّه فعل رافع لضمير مستَتِر، كما هو المشهور.

وعلى التقديرَين، فقوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾... إلى آخره شرطيّةٌ أخرى، محذوفةُ الجواب، وقعتْ جوابًا للشرط الأوّل، والمعنى: إن شقَّ عليك إعراضُهم عن الإيمان بما جئتَ به مِن البيّنات وعدمُ عَدِّهم لها مِن قبيل الآيات، وأحبَبْتَ أن تُجيبهم إلى ما سألوه اقتراحًا، فإن استطعتَ ﴿أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ أي: سَرَبًا ومنفَذًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تنفُذ فيه إلى جَوفها، ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ أي: مِصعَدًا ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ تعرُج به فيها، ﴿فَتَأْتِيَهُم﴾ منهما ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ ممّا اقترحوه، فافعَلْ.

وقد جُوّز أن يكون ابتغاؤهما نفسَ الإتيان بالآية، فـ"الفاء" في ﴿فَتَأْتِيَهُم﴾ حينئذ تفسيريّةٌ. وتنوين ﴿آيَةٍ﴾ للتفخيم، أي: فإن استطعتَ أن تبتغِيَهما، فتجعَلَ ذلك آيةً لهم، فافعَلْ. والظرفانِ متعلِّقانِ بمحذوفَين، هُمَا نَعتانِ لِـ﴿نَفَقًا﴾ و﴿سُلَّمًا﴾، والأوّل لمجرَّدِ التأكيد؛ إذ النَّفَقُ لا يكون إلّا في الأرض، أو بـ﴿تَبْتَغِيَ﴾.[1] وقد جُوّز تعلّقُهما بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعل ﴿تَبْتَغِيَ﴾، أي: أن تبتغِيَ نفَقًا كائنًا أنت في الأرض أو سُلّمًا كائنًا في السماء.

وفيه مِن الدلالة على تبالُغِ حِرصه عليه السلام على إسلام قومه، وتَرامِيه إلى حيث لو قدَرَ على أن يأتيَ بآية مِن تحتِ الأرض أو مِن فوق السماء، لَفَعل رَجاءَ لإيمانهم، ما لا يخفى. وإيثار "الابتغاء" على "الاتّخاذ" ونحوِه للإيذان بأنّ ما ذُكر مِن النَّفَق والسُلّم ممّا لا يُستطاع ابتغاؤه، / فكيف باتّخاذه؟ [٢١٢و]

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: لو شاء تعالى أن يجمعهم على ما أنتم عليه مِن الهُدى، لَفَعله بأنْ يوفِّقَهم للإيمان، فيؤمِنوا معكم، ولكنْ لم يشأ لعدم صَرف اختيارهم إلى جانب الهُدى مع تمكنِّهم التامّ منه ومشاهَدتِهم للآيات الداعية إليه، لا أنّه تعالى لم يوفّقهم له مع توجُّهِهم إلى تحصيله. وقيل: لو شاء الله لَجَمعهم عليه بأنْ يأتيَهم بآية مُلجئة إليه، ولكنْ لم يفعله لِخروجه عن الحِكمة.

---

[1] السياق: والظرفانِ متعلِّقانِ بمحذوفَين... أو بـ﴿تَبْتَغِيَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ نهيٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان عليه مِن الحِرص الشديد على إسلامهم والمَيلِ إلى إتيان ما يقترحونه مِن الآيات طَمَعًا في إيمانهم، مرتَّبٌ على بيان عدم تعلّق مشيئتِه تعالى بهِدايتهم. والمعنى: وإذا عرفتَ أنّه تعالى لم يشأ هدايتَهم وإيمانَهم بأحد الوجهين، فلا تكونَنَّ بالحِرص الشديد على إسلامهم أو المَيلِ إلى نزول مقترَحاتِهم مِن الجاهلين بدقائقِ شئونه تعالى التي مِن جملتها ما ذُكر مِن عدم تعلّق مشيئتِه تعالى بإيمانهم؛ أمّا اختيارًا، فلِعدمِ توجّهِهم إليه، وأمّا اضطرارًا، فلِخُروجه عن الحكمة التشريعيّة المؤسَّسةِ على الاختيار.

ويجوز أن يُراد بـ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ على الوجه الثاني المقترِحون، ويُرادَ بـ"النهي" مَنْعُه عليه السلام مِن المساعدة على اقتراحهم. وإيرادهم بعُنوان "الجهل" دون "الكفر" ونحوِه لتحقيق مَناط النهي الذي هو الوصفُ الجامعُ بينه عليه السلام وبينهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ٣٦﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ تقرير لِما مرّ مِن أنّ على قلوبهم أكِنّةً مانعةً مِن الفِقه وفي آذانهم وَقرًا حاجزًا مِن السَّماع، وتحقيقٌ لكونهم بذلك مِن قبيل الموتى لا يُتصوّر منهم الإيمانُ البتّةَ. والاستجابة: الإجابة المقارِنة للقَبول، أي: إنّما يَقبل دعوتَك إلى الإيمان الذين يسمَعون ما يُلقى إليهم سَماعَ فهمٍ وتدبّرٍ، دون الموتى الذين هؤلاء منهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل، ٢٧/٨٠].

[٢١٢ظ] / وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ تمثيلٌ لاختصاصِه تعالى بالقدرة على توفيقهم للإيمان باختصاصه تعالى بالقدرة على بعث الموتى مِن القبور. وقيل: بيانٌ لاستمرارِهم على الكفر وعدمِ إقلاعهم عنه أصلًا، على أنّ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مستعارٌ للكَفَرة بناءً على تشبيه جهلهم بموتهم، أي: وهؤلاء الكَفَرة يبعَثُهم الله تعالى مِن قبورهم. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، فحينئذ يستجيبون.

وأمّا قبل ذلك، فلا سبيلَ إليه. وقُرئ: "يَرْجِعُونَ"[١] على البناء للفاعل، مِن "رجَعَ رُجوعًا". والمشهورة[٢] أوفى بحقّ المقام لإنبائه عن كون مرجِعهم إليه تعالى بطريق الاضطرار.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ حكاية لبعضٍ آخَرَ مِن أباطيلهم بعد حكايةِ ما قالوا في حقّ القرآن الكريم وبيانِ ما يتعلّق به. والقائلون رؤساءُ قريشٍ، وقيل: الحارث بنُ عامر بنِ نَوفل وأصحابُه،[٣] ولقد بلغتْ بهم الضلالةُ والطغيانُ إلى حيث لم يقتنعوا بما شاهدوا مِن البيّنات التي تَخِرّ لها صَمُّ الجبال، حتّى اجترَءُوا على ادّعاءِ أنّها ليست مِن قبيل الآيات، وإنّما هي ما اقترحوه مِن الخوارق المُلجِئة أو المُعقِبةِ للعذاب كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية.[٤]

و"التنزيل" بمعنى "الإنزال" كما يُنبئ عنه القراءة بالتخفيف فيما سيأتي.[٥] وما يفيده التعرّضُ لِعُنوان ربوبيّتِه تعالى له عليه السلام مِن الإشعار بالعلّيّة إنّما هو بطريق التعريض بالتهكّم مِن جهتهم.

وإطلاق "الآية" في قوله تعالى: / ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ -مع أنّ المراد بها ما هو مِن الخوارق المذكورة، لا آيةٌ ما مِن الآيات لِفساد المعنى- مُجاراة معهم على زعمهم. ويجوز أن يُراد بها آيةٌ مُوجِبةٌ لهلاكهم، كإنزال ملائكة العذابِ ونحوه، على أنّ تنوينها للتفخيم والتهويلِ، كما أنّ إظهار الاسم الجليل لتربية المَهابة، مع ما فيه مِن الإشعار بعِلّة القدرة الباهرة. [٢١٣و]

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٢٠/٢؛ والرازي في تفسيره، ٥٢١/١٢؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٤٩٩/٤، ولم ينسبوها إلى أحد.

٢ أي: والقراءة المشهورة.

٣ سبق ذكر قصّتِهم في: الأنعام، ٧/٦.

٤ ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨].

٥ انظر: الأنعام، ١١٤/٦.

والاقتصار في الجواب على بيان قدرته تعالى على تنزيلها -مع أنّها ليست في حيّز الإنكار- للإيذان بأنّ عدم تنزيله تعالى إيّاها مع قدرته عليه لحكمةٍ بالغةٍ يجب معرفتُها وهم عنها غافلون، كما يُنبئ عنه الاستدراك بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليسوا مِن أهل العلم، على أنّ المفعول مطروحٌ بالكلّيّة، أو لا يعلمون شيئًا، على أنّه محذوفٌ، مدلولٌ عليه بقرينة المقام.

والمعنى: أنّه تعالى قادرٌ على أنْ ينزّل آيةً مِن ذلك، أو آيةً وأيَّ آية، ولكنّ أكثرَهم لا يعلمون، فلا يَدْرون أنّ عدم تنزيلها مع ظهور قدرته عليه لِما أنّ في تنزيلها قَلْعًا لأساسِ التكليف المبنيّ على قاعدة الاختيار، أو استئصالًا لهم بالكلّيّة، فيقترحونها جهلًا، ويتّخِذون عدم تنزيلها ذريعةً إلى التكذيب. وتخصيص عدم العلم بأكثرهم لِما أنّ بعضهم واقِفون على حقيقة الحال، وإنّما يفعلون ما يفعلون مكابَرةً وعِنادًا.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لبيان كمال قدرته عزّ وجلّ وشمولِ علمه وسَعَةِ تدبيره، ليكونَ كالدليل على أنّه تعالى قادرٌ على تنزيل الآية، وإنّما لا ينزّلها محافَظةً على الحِكَم البالغةِ.

[٢١٣ظ] / وزيادة ﴿مِنْ﴾ لتأكيد الاستغراق، و﴿فِي﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ هو وصفٌ لـ﴿دَآبَّةٍ﴾ مفيدٌ لزيادة التعميم، كأنّه قيل: وما فردٌ مِن أفراد الدَّوابّ يستقِرّ في قُطْر مِن أقطار الأرض. وكذا زيادةُ الوصف في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، مع ما فيه مِن زيادة التقرير، أي: ولا طائرٍ مِن الطيور يَطِير في ناحيةٍ مِن نَواحي الجَوّ بجَناحَيْه، كما هو المشاهَد المعتاد. وقُرئ: "وَلَا طَائِرٌ"[١] بالرفع، عطفًا على محلّ الجارّ والمجرور، كأنّه قيل: وما دابّةٌ ولا طائرٌ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٦.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ أي: طوائفُ متخالفةٌ. والجمع باعتبار المعنى، كأنّه قيل: وما مِن دَوَابٍّ ولا طيرٍ إلّا أُمَمٌ ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾، أي: كلُّ أمّة منها مِثلُكم في أنّ أحوالها محفوظةٌ، وأمورَها مقنَّنةٌ، ومصالحَها مرعيّةٌ جاريةٌ على سَنَنِ السَّداد، منتظِمةٌ في سلك التقديرات الإلهيّة والتدبيراتِ الربّانيّة.

﴿مَا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ يُقال: "فرّط الشيءَ"، أي: ضيّعه وتركه، قال ساعدة بن جُؤيّة:[1]

معه سِقاءٌ لا يُفرِّط حَمْلَه[2]

أي: لا يتركه ولا يفارقه، ويُقال: "فرّط في الشيء"، أي: أهمَلَ ما ينبغي أن يكون فيه وأغفَلَه؛ فقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ -أي: القرآنِ- على الأوّل ظرفُ لَغْوٍ، وقوله تعالى: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ مفعول لـ﴿فَرَّطْنَا﴾، و﴿مِنْ﴾ مزيدة للاستغراق، أي: ما تركنا في القرآن شيئًا مِن الأشياء المُهمّة التي مِن جملتها بيانُ أنّه تعالى مُراعٍ لِمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي، وعلى الثاني مفعول للفعل، و﴿مِن شَىْءٍ﴾ في موضِع المصدر، أي: ما جعلنا الكتاب مفرَّطًا فيه شيئًا مِن التفريط، بل ذكرنا فيه كلَّ ما لا بدَّ مِن ذكره.

وأيًّا ما كان، فالجملة اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبلها. وقيل: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: اللَّوح، فالمراد بالاعتراض الإشارةُ إلى أنّ أحوال الأُمَم مستقصاةٌ / في اللَّوح، [٢١٤و] غيرُ مقصورة على هذا القدر المجمَل. وقُرئ: "فَرَطْنا"[3] بالتخفيف.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ بيان لأحوال الأُمَم المذكورة في الآخرة بعد بيان أحوالها في الدنيا. وإيراد ضميرها على صيغة جمع العُقلاء

---

[1] الظاهر في الأصول الخطّيّة: "الحوية"؛ لكن يمكن تأويله بما أثبتناه، وهو الصحيح. وهو ساعدة بن جُؤيّة، ويقال: جُوَين، أحدُ بني كعب بن كاهل بن الحارث ابن سعد الهُذَلي. شاعر، مِن مخضرمي الجاهليّة والإسلام. أسلم، وليست له صحبة. له: ديوان شعر. انظر: الإصابة لابن حجر، ٥٧١/٤؛ والأعلام للزركلي، ٧٠/٣.

[2] وتمامه:

صُفْنٌ وأخراصٌ يَلُحْنَ ومِسْأبُ

وهو منسوب إليه في الصحاح للجوهري، «صفن»؛ والمحكم لابن سِيده، ٥٦٠/٨؛ ولسان العرب لابن منظور، «حرض».

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٧.

لإجرائها مُجراهم والتعبيرِ عنها بـ"الأُمَمِ"، أي: إلى مالك أمورهم يُحشَرون يومَ القيامة كدَأبكم، لا إلى غيره، فيُجازيهم، فيُنصِف بعضَهم مِن بعض حتّى يبلُغَ مِن عدله أن يأخذ للجمّاءِ مِن القرناء.[١] وقيل: حشرُها موتُها. ويأباه مقامُ تهويل الخَطْب وتفظيعِ الحال.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾.[٢] والموصول عبارة عن المعهودين في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ الآيات،[٣] ومحلُّه الرفعُ على الابتداء، خبرُه ما بعده، أي: أورَدْنا في القرآن جميعَ الأمور المُهِمّة، وأزَحْنا به العِلَلَ والأعذارَ، والذين كذّبوا بآياتنا -التي هي منه- ﴿صُمّٞ﴾، لا يسمعونها سمعَ تدبّرٍ وفهمٍ؛ فلذلك يُسَمّونها "أساطير الأوّلين"،[٤] ولا يَعُدّونها مِن الآيات، ويقترحون غيرَها، ﴿وَبُكۡمٞ﴾، لا يقدِرون على أن ينطِقوا بالحقّ؛ ولذلك لا يستجيبون دعوتك بها.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: في ظُلُمات الكفر، أو ظُلُماتِ الجهل والعناد والتقليد، إمّا خبرٌ ثانٍ للمبتدأ، على أنّه عبارة عن العُمْي، كما في قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾،[٥] وإمّا متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالًا مِن المستكنّ في الخبر، كأنّه قيل: ضالّون كائنين في الظُّلُمات، أو صفةً لـ﴿بُكۡمٞ﴾، أي: بُكْمٌ كائنون في الظُّلُمات.

---

١ أخرج أحمد في مسنده، ٤٣/١٤ (٨٢٨٨)، عن أبي هريرة، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «لتُؤدُّنَّ الحقوقُ إلى أهلها حتّى تُقادَ الشاةُ الجَمّاء مِن الشاة القَرناء يومَ القيامة». والشاة الجَمّاء هي التي لا قَرنَ لها. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٧/٦ «باب الجيم مع الميم».

٢ في الآية السابقة.

٣ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام، ٢٥/٦].

٤ إشارة إلى ما صُرّح به في عدّة آيات. منها ما ورد في سورة الأنفال، ٣١/٨: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

٥ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة، ١٧١/٢].

والمراد به بيانُ كمال عَراقتهم في الجهل وسُوءِ الحال؛ فإنّ الأصَمَّ الأبكَمَ إذا كان بصيرًا ربّما يَفهم شيئًا بإشارةِ غيره، وإن لم يفهَمْه بعبارته، وكذا / يُشعِر [٢١٤ظ] غيرَه بما في ضميره بالإشارة، وإن كان معزولًا عن العبارة، وأمّا إذا كان مع ذلك أعمى أو كان في الظُّلُمات، فينسدّ عليه بابُ الفهم والتفهيم بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ تحقيق للحقّ وتقرير لِما سبق مِن حالهم، ببيانِ أنّهم مِن أهل الطبع لا يتأتّى منهم الإيمانُ أصلًا. فـ﴿مَن﴾ مبتدأ، خبرُه ما بعده، ومفعولُ المشيئة محذوفٌ على القاعدة المستمرّة مِن وقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء وانتفاءِ الغرابة في تعلّقها به، أي: مَن يشأ الله إضلالَه -أي: أن يخلق فيه الضلالَ- يُضلِلْه، أي: يخلُقْه فيه؛ لكن لا ابتداءً بطريق الجبر مِن غير أن يكون له دَخْلٌ ما في ذلك؛ بل عند صَرف اختياره إلى كسبه وتحصيلِه. وقِسْ عليه قولَه تعالى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، لا يَضِلّ مَن ذهب إليه، ولا يَزِلّ مَن ثبت قَدَمُه عليه.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٠﴾

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ أمرٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنْ يُبكِّتهم ويُلقِمَهم الحَجَرَ[1] بما لا سبيلَ لهم إلى النكير. و"الكاف" حرفٌ جِيءَ به لتأكيد الخطاب، لا محلَّ له مِن الإعراب. ومبنَى التركيب، وإن كان على الاستخبار عن الرؤية -قَلبيّةً كانت أو بَصَريّةً- لكنّ المرادَ به الاستخبارُ عن متعلَّقها، أي: أَخبِرُوني ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ حسبما أتى الأُمَمَ السالفةَ مِن أنواع العذاب الدنيويّ، ﴿أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي لا محيصَ عنها البتّةَ، ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾، هذا مَناط الاستخبار ومَحطّ التبكيت.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ / متعلِّقٌ بـ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾، مؤكِّدٌ للتبكيت، [٢١٥و] كاشفٌ عن كذبهم. وجواب الشرط محذوفٌ ثِقةً بدلالة المذكور عليه، أي:

---

[1] ألقَمَه الحَجَرَ: يُضرَب للمُجيب بجواب مُسكِت. المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، ١/٣٣٩.

إن كنتم صادقين في أنّ أصنامكم آلهةٌ -كما أنّها دَعواكم المعروفةُ- أو إن كنتم قومًا صادقين، فأَخبِرُوني أغيرَ الله تدعون إن أتاكم عذابُ الله... إلخ،[١] فإنّ صدقهم -بأيّ معنى كان- مِن موجِبات إخبارهم بدعائهم غيرَه سبحانه. وأمّا جعلُ الجواب ما يدلّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ -أعني: فادْعُوه، على أنّ الضمير لغير الله- فمُخِلّ بجزالة النظم الكريم؛ كيف لا، والمطلوبُ منهم إنّما هو الإخبار بدعائهم غيرَه تعالى عند إتيانِ ما يأتي، لا نفسُ دعائهم إيّاه.[٢]

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ عطفٌ على جملةٍ منفيّةٍ يُنبئ عنها الجملةُ التي تعلّق بها الاستخبارُ إنباءً جليًا، كأنّه قيل: لا غيرَه تعالى تدعون؛ بل إيّاه تدعون. وقوله تعالى ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى كشفه، عطفٌ على ﴿تَدْعُونَ﴾، أي: فيكشِفه إثرَ دعائكم.

وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾ أي: إن شاء كشفَه، لبيانِ أنّ قبول دعائهم غيرُ مطّرِد؛ بل هو تابعٌ لمشيئتِه المَبنيّةِ على حِكَم خفيّة، قد استأثر الله تعالى بعلمها؛ فقد يقبله، كما في بعض دَعواتِهم المتعلّقةِ بكشف العذاب الدنيويّ، وقد لا يقبله، كما في بعضٍ آخَرَ منها، وفي جميعِ ما يتعلّق بكشف العذاب الأخرويّ الذي مِن جملته[٣] الساعةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: تترُكون ما تُشركونه به تعالى مِن الأصنام تركًا كلّيًا، عطفٌ على ﴿تَدْعُونَ﴾ أيضًا. وتوسيطُ "الكشف" بينهما -مع تقارُنِهما وتأخُّرِ الكشف عنهما- لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيذانِ بترتّبِه على الدعاء خاصّةً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

[٢١٥ظ] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ / كلام مستأنَف مسوق لبيانِ أنّ منهم مَن

---

١ س - إلخ.
٢ أي: غيرَه.
٣ ط س: جملتها.

لا يدعو الله تعالى عند إتيان العذاب أيضًا لِتَماديهم في الغَيّ والضلالِ، لا يتأثّرون بالزواجر التكوينيّة، كما لا يتأثّرون بالزواجر التنزيليّة. وتصديره بالجملة القَسَميّة لإظهار مزيد الاهتمام بمضمونه.

ومفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوفٌ لِما أنّ مقتضى المقام بيانُ حال المرسَل إليهم، لا حال المرسَلين، أي: وبالله لقد أرسلنا رُسُلًا ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ كثيرةٍ ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: كائنةٍ مِن زمانٍ قبلَ زمانك، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أي: فكذبوا رُسُلَهم، فأخذناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: بالشدّة والفقرِ، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: الضُرّ والآفاتِ. وهما صِيغَتَا تأنيثٍ، لا مذكَّرَ لهما. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: لِكي يدعوا الله تعالى في كشفها بالتضرّع والتذلّل، ويتوبوا إليه مِن كفرهم ومعاصيهم.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ أي: فلَمْ يتضرّعوا حينئذ مع تحقّقِ ما يستدعيه، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ استدراك عمّا قبله، أي: فلم يتضرّعوا إليه تعالى برِقّة القلب والخضوعِ مع تحقّق ما يدعوهم إليه، ولكنْ ظهر منهم نقيضُه، حيث قَسَتْ قلوبهم، أي: استمرّتْ على ما هي عليه مِن القَساوة، أو ازدادتْ قَساوةً، كقولك: "لم يُكرِمْني إذ جِئتُه، ولكنْ أهانني".

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن الكفر والمعاصي، فلم يُخطِروا ببالهم أنّ ما اعتراهم مِن البأساء والضرّاء ما اعتراهم إلّا لأجله. وقيل: الاستدراك لبيانِ أنّه لم يكن لهم في ترك التضرّع عُذْرٌ سِوى قَسوةِ قلوبهم والإعجابِ بأعمالهم التي زيَّنها الشيطان لهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ / ينساق إليه النظمُ [٢١٦و] الكريمُ، أي: فانهمكوا فيه ونَسُوا ما ذُكّروا به مِن البأساء والضرّاء، فلمّا نَسُوه

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن فنون النَّعْماء على منهاج الاستدراج، لِما رُوي أنّه عليه السلام قال: «مُكِرَ بالقوم ورَبِّ الكعبة».[١] وقُرئ: "فَتَّحْنَا"[٢] بالتشديد للتكثير. وفي ترتيب الفتح على النِّسيان المذكور إشعارٌ بأنّ التذكّر في الجملة غيرُ خالٍ عن النفع.

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ هي التي يُبتدَأ بها الكلام، دخلت على الجملة الشرطيّة كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الآية[٣] ونظائرِه. وهي مع ذلك غايةٌ لقوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا﴾، أو لِما يدلّ هو عليه، كأنّه قيل: ففعلوا ما فعلوا حتّى إذا اطمأنّوا بما أُتِيحَ لهم وبطِروا وأشِرُوا ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: نزل بهم عذابنا فُجاءةً ليكونَ أشدَّ عليهم وقعًا وأفظَعَ هَولًا، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ متحسِّرون غايةَ الحَسْرة، آيِسُون مِن كلّ خير، واجِمون. وفي الجملة الاسميّة دلالةٌ على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: آخِرُهم، بحيث لم يبقَ منهم أحد. مِن "دبَرَه دبرًا ودُبورًا"، أي: تبعه. ووضعُ الظاهر موضِعَ الضمير للإشعار بعلّة الحُكم؛ فإنّ هلاكهم بسبب ظلمهم الذي هو وضعُ الكفر موضِعَ الشكر وإقامةُ المعاصي مُقامَ الطاعات.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما جرى عليهم مِن النَّكال؛ فإنّ إهلاك الكُفّار والعُصاةِ مِن حيث إنّه تخليص لأهل الأرض مِن شُؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالِهم الخبيثة نِعمةٌ جليلةٌ مستجلِبةٌ للحمد، لاسيّما مع ما فيه مِن إعلاء كلمة الحقّ التي نطَقت بها رُسُلُهم عليهم السلام.

---

[١] هو مرفوعًا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٢/٢. وعن الحسن البصري في التفسير الوسيط للواحدي، ٢٧١/٢؛ وتفسير الرازي، ٥٣٥/١٢؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢٥٦/٣؛ واللباب لابن عادل، ١٥١/٨.

[٢] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر في رواية ابن وردان. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢.

[٣] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود، ٤٠/١١].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

/ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أمرٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتكرير التبكيت عليهم وتثنيةِ الإلزام بعد تكملة الإلزام الأوّل، ببيان أنّه أمر مستمرّ لم يزَلْ جاريًا في الأُمَم. وهذا أيضًا استخبار عن متعلّق الرؤية، وإن كان بحسَب الظاهر استخبارًا عن نفس الرؤية. [٢١٦ظ]

﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بأنْ أصَمَّكم وأعماكم بالكلّيّة، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ بأنْ غطّى عليها ما لا يبقى لكم معه عقلٌ وفهمٌ أصلًا، وتَصيرون مَجَانين. ويجوز أن يكون "الختم" عطفًا تفسيريًّا للأخذ المذكور؛ فإنّ السمع والبصر طريقان للقلب، منهما يرِدُ ما يرِدُه مِن المدرَكات، فأخذُهما سَدٌّ لِبابه بالكلّيّة. وهو السرّ في تقديم أخذهما على ختمها. وأمّا تقديم "السمع" على "الأبصار"، فلِأنّه مَورِد الآيات القرآنيّة، وإفرادُه لِما أنّ أصله مصدر.

وقوله تعالى: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿مَّنْ﴾ استفهاميّة، وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ للخبر، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: بذاك، على أنّ الضمير مستعارٌ لاسم الإشارة، أو بما أخذ وختم عليه، صفةٌ أخرى له. والجملة متعلّق الرؤية ومناطُ الاستخبار، أي: أَخبِرُوني إن سلَبَ الله تعالى مشاعِرَكم مَنْ إلهٌ غيرُه تعالى يأتيكم بها؟

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن عدم تأثّرِهم بما عايَنوا مِن الآيات الباهرة، أي: انظُرْ كيف نكرّرها ونقرّرها مصروفةً عن أسلوب إلى أسلوب، تارةً بترتيب المقدّمات العقليّة، وتارةً بطريق الترغيب والترهيب، وتارةً بالتنبيه والتذكير، / ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ عطفٌ على ﴿نُصَرِّفُ﴾، داخلٌ في حكمه، وهو العُمدة في التعجيب. و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد صدوفهم، أي: إعراضِهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النَّمَط البديع الموجِبِ للإقبال عليها. [٢١٧و]

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ تبكيت آخَرُ لهم بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم. ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابه العاجل الخاصّ بكم كما أتى مَن قبلكم مِن الأُمَم. ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فُجاءةً مِن غير أن يظهر منه مخائلُ الإتيان. وحيث تضمّن هذا معنى الخُفية قُوبِلَ بقوله تعالى: ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: بعد ظهور أماراته وعلائمِه.

وقيل: ليلًا أو نهارًا، كما في قوله تعالى: ﴿بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾[١] [يونس، ٥٠/١٠]، لِما أنّ الغالب فيما أتى ليلًا البَغْتةُ، وفيما أتى نهارًا الجَهْرةُ. وقُرئ: "بَغَتَةً وَجَهَرَةً".[٢] وهما في موضِع المصدر، أي: إتيانَ بغتةٍ أو إتيانَ جهرةٍ. وتقديم "البغتة" لكونها أهوَلَ وأفظَعَ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ متعلَّقُ الاستخبار، والاستفهام للتقرير، أي: قُلْ لهم تقريرًا لهم[٣] باختصاص الهلاك بهم: أَخبِرُوني إن أتاكم عذابه تعالى حسبما تستحِقّونه، هل يُهلَك بذلك العذاب إلّا أنتم؟ أي: هل يُهلَك غيرُكم ممّن لا يستحِقّه؟ وإنّما وُضع موضِعَه ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تسجيلًا عليهم بالظلم، وإيذانًا بأنّ مناط إهلاكهم ظلمُهم الذي هو وضعُهم الكفرَ موضِعَ الإيمان.

وقيل: المراد بـ"الظالمين" الجنسُ، وهم داخلون في الحُكم دخولًا أوّليًا. قال الزجّاج: «هل يُهلَك إلّا أنتم ومَن أشبَهَكم؟»،[٤] ويأباه تخصيص الإتيان بهم. وقيل: الاستفهام بمعنى النفي، فمتعلَّقُ الاستخبار حينئذ محذوفٌ، / كأنّه قيل: [٢١٧ظ] أَخبِرُوني إن أتاكم عذابه تعالى بغتةً أو جهرةً ماذا يكون الحال؟ ثمّ قيل بيانًا لذلك: ما يُهلَك إلّا القومُ الظالمون، أي: ما يُهلَك بذلك العذاب الخاصّ بكم إلّا أنتم. فمَن قيّد الهلاكَ بهلاك التعذيب والسخطِ لِتحقيق الحصر بإخراج غير الظالمين، لِما أنّه ليس بطريق التعذيب والسخط؛ بل بطريق الإثابة ورفعِ الدرجة،

---

[١] م س – كما في قوله تعالى: ﴿بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ ["صح" في هامش م س].

[٢] ما وجدناها في مصادر القراءات والتفسير.

[٣] وفي هامش م: أي: حملًا لهم على الإقرار بذلك. «منه».

[٤] معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢٥٠/٢.

فقد أهمَلَ[1] ما يُجدِيه، واشتغل بما لا يَعنيه، وأخلَّ بجزالة النظم الكريم.

وقُرئ: "هَلْ يَهْلِكُ"،[2] مِن الثُّلاثيّ.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٤٨﴾

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كلام مستأنَف مسوقٌ لبيان وظائف منصب الرسالة على الإطلاق، وتحقيقِ ما في عُهدة الرُّسُل عليهم السلام، وإظهارِ أنّ ما يقترحه الكَفَرة عليه عليه السلام ليس ممّا يتعلّق بالرسالة أصلًا. وصيغة المضارع لبيانِ أنّ ذلك أمر مستمرّ جرتْ عليه العادة الإلهيّة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حالانِ مقدَّرتانِ مِن ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: ما نرسلهم إلّا مقدَّرًا تبشيرُهم وإنذارُهم. ففيهما معنى العلّة الغائيّة قطعًا، أي: لِيبشِّروا قومَهم بالثواب على الطاعة، ويُنذِروهم بالعقاب على المعصية، أي: لِيُخبروهم بالخبر السارّ والخبرِ الضارّ -دنيويًّا كان أو أُخرويًّا- مِن غير أن يكون لهم دَخْلٌ ما في وقوع المخبَر به أصلًا. وعليه يدور القَصرُ، وإلّا لزِم أن لا يكون بيان الشرائع والأحكام مِن وظائف الرسالة.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و﴿مَنْ﴾ موصولة. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لِشَبَه الموصول بالشرط، / أي: لا خوفٌ عليهم مِن العذاب الذي [٢١٨و] أُنذِروه، دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ولا هم يحزَنون بفَوَات ما بُشِّروا به مِن الثواب العاجل أو الآجل. وتقديم نفي الخوف على نفي الحُزن لمُراعاة حقّ المقام. وجمعُ الضمائر الثلاثة الراجعةِ إلى ﴿مَنْ﴾ باعتبار معناها، كما أنّ إفراد الضميرين السابقين باعتبار لفظها. أي: لا يعتريهم ما يوجِب ذلك؛ لا أنّه يعتريهم لكنّهم لا يخافون ولا يحزنون.

---

[1] السياق: فمَن قيّد... فقد أهمَلَ...

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٧.

والمراد بيان دوام انتفائهما، لا بيانُ انتفاء دوامهما كما يوهِمه كونُ الخبر في الجملة الثانية مضارعًا، لِما تقرّر في موضِعه مِن أنّ النفي -وإن دخل على نفس المضارع- يُفيد الدوام والاستمرارَ بحسَب المقام. ألَا يُرى أنّ الجملة الاسميّة تدلّ بمَعُونة المقام على استمرار الثبوت، فإذا دخل عليها حرف النفي دلّتْ على استمرار الانتفاء، لا على انتفاء الاستمرار. كذلك المضارعُ الخالي عن حرف النفي يفيد استمرارَ الثبوت، فإذا دخل عليه حرف النفي يفيد استمرارَ الانتفاء، لا انتفاءَ الاستمرار. ولا بُعْدَ في ذلك؛ فإنّ قولك: "ما زيدًا ضربتُ" مفيدٌ لاختصاص النفي، لا نفي الاختصاص، كما بُيّن في محلّه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝٤٩﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ عطفٌ على ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾،[1] داخلٌ في حكمه. وقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إشارة إلى أنّ ما ينطِق به الرُّسُل عليهم السلام عند التبشير والإنذار ويبلّغونه إلى الأُمَم آياتُه تعالى، وأنّ مَن آمن به فقد آمن بآياته تعالى، ومَن كذّب به فقد كذّب بها. وفيه مِن الترغيب في الإيمان به والتحذيرِ عن تكذيبه ما لا يخفى.

والمعنى: ما نرسل المرسَلين إلّا ليُخبروا أُمَمَهم مِن جهتنا بما سيقع منّا مِن الأمور السارّة والضارّة، / لا ليُوقِعوها استقلالًا مِن تِلقاء أنفُسِهم أو استدعاءً مِن قِبَلِنا حتّى يقترحوا عليهم ما يقترحون؛ فإذا كان الأمر كذلك، فمَن آمن بما أخبروا به مِن قِبَلِنا تبشيرًا أو إنذارًا في ضِمن آياتنا، وأصلَحَ ما يجب إصلاحُه مِن أعماله أو دخَلَ في الصلاح، فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذّبوا بآياتنا التي بُلّغوها عند التبشير والإنذار ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: العذابُ الذي أُنذِروه عاجلًا أو آجلًا، أو حقيقةُ العذاب وجنسُه المنتظِمُ له انتظامًا أوّليًا. ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فِسقهم المستمرّ الذي هو الإصرار على الخروج عن التصديق والطاعة.[2] [٢١٨ظ]

---

[1] في الآية السابقة.

[2] وفي هامش م: وبه يتّحد العلّة المصرَّح بها والمُشعَر بها في ضِمن الصلة. «منه».

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝﴾

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ استئناف مبنيّ على ما أُسّس مِن السنّة الإلهيّة في شأن إرسال الرُسُل وإنزالِ الكُتُب، مَسوقٌ لإظهار تبرُّئه عليه السلام عمّا يدور عليه مقترَحاتُهم، أي: قُلْ للكَفَرة الذين يقترحون عليك تارةً تنزيلَ الآيات وأخرى غيرَ ذلك: لا أدّعي أنّ خزائن مَقدوراتِه تعالى مُفوَّضةٌ إليَّ، أتصرَّفُ فيها كيفما أشاء استقلالًا أو استدعاءً، حتّى تقترحوا عليَّ تنزيلَ الآيات أو إنزالَ العذاب أو قلبَ الجبال ذَهَبًا أو غيرَ ذلك ممّا لا يَليق بشأني. وجعلُ هذا تبرُّؤًا عن دعوى الإلهيّة ممّا لا وجهَ له قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ عطفٌ على محلّ ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا أدّعي أيضًا أنّي أعلم الغيبَ مِن أفعاله تعالى حتّى تسألوني عن وقت الساعة أو وقتِ نزول العذاب أو نحوِهما، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتّى تكلّفوني مِن الأفاعيل الخارقةِ للعادات ما لا يُطيق به البَشر مِن الرُقِيّ في السماء ونحوه، أو تعُدّوا عدمَ / اتّصافي بصِفاتهم قادحًا في أمري، كما يُنبئ عنه قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان، ٧/٢٥]. [٢١٩و]

والمعنى: إنّي لا أدّعي شيئًا مِن هذه الأشياء الثلاثة حتّى تقترحوا عليَّ ما هو مِن آثارها وأحكامها، وتجعلوا عدمَ إجابتي إلى ذلك دليلًا على عدم صحّةِ ما أدّعِيه مِن الرسالة التي لا تعلُّقَ لها بشيء ممّا ذُكر قطعًا؛ بل إنّما هي عبارة عن تلقّي الوحي مِن جهة الله عزّ وجلّ والعملِ بمقتضاه فحسبُ، حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ لا على معنى تخصيص اتّباعه عليه السلام بما يوحَى إليه دون غيره،[1] بتوجيه القَصر إلى المفعول بالقياس إلى مفعولٍ آخَرَ، كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القَصر إلى ما يتعلّق بالفعل باعتبار النفي في الأصل والإثباتِ في القيد؛ بل على معنى تخصيص

---

١ أي: دون غيرِ ما يوحَى إليه عليه السلام.

حاله عليه السلام باتّباع ما يوحَى إليه، بتوجيه القَصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يغايره مِن الأفعال؛ لكنْ لا باعتبار النفي والإثباتِ معًا في خصوصيّته،[١] فإنّ ذلك غيرُ ممكِن قطعًا؛ بل باعتبار النفي فيما يتضمّنه مِن مطلق الفعل والإثباتِ فيما يقارنه مِن المعنى المخصوص؛ فإنّ كلّ فعل مِن الأفعال الخاصّة -كـ"نصر" مثلًا- ينحلّ عند التحقيق إلى معنى مطلقٍ هو مدلولُ لفظ الفعل، وإلى معنى خاصٍّ يقوّمه، فإنّ معناه: "فعَلَ النصرَ"؛ يرشدك إلى ذلك قولُهم: معنى "فلانٌ يُعطي ويمنع": يفعل الإعطاءَ والمنعَ؛ فموردُ القَصر في الحقيقة ما يتعلّق بالفعل، بتوجيه النفي إلى الأصل والإثباتِ إلى القيد، كأنّه قيل: ما أفعل إلّا اتّباعَ ما يوحَى إليّ، مِن غير أن يكون لي مدخَلٌ ما في الوحي أو في الموحَى بطريق الاستدعاء أو بوجهٍ آخَرَ مِن الوجوه أصلًا.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مَثَلٌ للضالّ والمهتدِي على الإطلاق. والاستفهام إنكاريٌّ، والمراد إنكار استواء مَن لا يعلم ما ذُكر مِن الحقائق ومَن يعلمها. وفيه مِن الإشعار بكمال ظهورها، ومِن التنفير عن الضلال والترغيبِ في الاهتداء ما لا يخفى. وتكرير الأمر لِتثنية التبكيت وتأكيدِ الإلزام.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ تقريع وتوبيخ، داخلٌ تحت الأمر. و"الفاء" للعطف على مقدَّر / يقتضيه المقام، أي: ألَا تسمعون هذا الكلام الحقَّ فلا تتفكّرون فيه؟ أو أتسمعونه فلا تتفكّرون فيه؟ فمناطُ التوبيخ في الأوّل عدمُ الأمرين معًا، وفي الثاني عدمُ التفكّر مع تحقّق ما يُوجبه. [٢١٩ظ]

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ بعد ما حُكي لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّ مِن الكفَرة قومًا لا يتّعِظون بتصريف الآيات الباهرة، ولا يتأثّرون بمشاهدة المعجزات القاهرة، قد إيفَتْ[٢] مشاعِرُهم بالكلّيّة، والتحَقوا بالأموات،

---

[١] أي: خصوصيّة الفعل.

[٢] إيفَ الزرعُ، على ما لم يسمَّ فاعله، أي: أصابته آفة، فهو مَئوف. الصحاح للجوهري، «أوف».

وقَرّر ذلك بأنْ كُرّر عليهم مِن فنون التبكيت والإلزام ما يُلقِمُهم الحَجَرَ أيَّ إلقامٍ،[١] فأبَوْا إلّا الإباءَ والنكيرَ، وما نجَعَ فيهم عِظةٌ ولا تذكيرٌ، وما أفادهم الإنذار إلّا الإصرارَ على الإنكار، أُمِرَ[٢] صلّى الله عليه وسلّم بتوجيه الإنذار إلى مَن يُتوقّع منهم التأثّر[٣] في الجملة؛ وهم المجوّزون منهم للحشر على الوجه الآتي، سواء كانوا جازمين بأصله -كأهل الكتاب وبعضِ المشركين المعترِفين بالبعث، المتردِّدين في شفاعةِ آبائهم الأنبياءِ كالأوّلين، أو في شفاعة الأصنام كالآخِرين- أو متردِّدين فيهما معًا كبعض الكَفَرة الذين يُعلَم مِن حالهم أنّهم إذا سمِعوا بحديث البعث يخافون أن يكون حقًّا. وأمّا المنكِرون للحشر رأسًا والقائلون به، القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام، فهُمْ خارجون ممّن أُمِر بإنذراهم.

وقد قيل: هم المفرّطون في الأعمال مِن المؤمنين، ولا يساعده سِباق النظم الكريم ولا سياقُه؛ بل فيه[٤] ما يَقضي باستحالة صحّته كما ستقِف عليه. والضمير المجرور لِـ﴿مَا يُوحَىٰ﴾،[٥] أو لِما دلّ هو عليه مِن القرآن. والمفعول الثاني لـ"الإنذار"، / إمّا العذابُ الأخرويُّ المدلولُ عليه بما في حيّز الصلة، وإمّا مطلقُ العذاب الذي ورَدَ به الوعيد. والتعرّض لعُنوان الربوبيّة المُنبئةِ عن المالكيّة المطلَقةِ والتصرّفِ الكلّيّ لتربية المَهابة وتحقيقِ المخافة. [٢٢٠و]

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في حيّز النصب على الحاليّة مِن ضمير ﴿يُحْشَرُوٓا﴾، و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ وقع حالًا مِن اسم ﴿لَيْسَ﴾؛ لأنّه في الأصل صفة له، فلمّا قُدّم عليه انتصَبَ حالًا؛ خَلَا أنّ الحال الأولى لإخراج الحشر الذي لم يقيَّد بها[٦] عن حيّز الخوف، وتحقيقِ أنّ ما نِيطَ به الخوفُ هو الحشر على تلك الحالة، لا الحشرُ كيفما كان، ضرورةَ أنّ المعترِفين به

---

١ أَلْقَمَه الحَجَرَ: يُضرَب للمُجيب بجواب مُسكِت. المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، ٣٣٩/١.
٢ السياق: بعدما حُكي... وقُرّر ذلك... أُمِرَ صلّى الله عليه وسلّم.
٣ م ط س - التأثّر ["صح" في هامش م].
٤ أي: في النظم الكريم.
٥ في الآية السابقة.
٦ أي: بالحال الأولى.

الجازمين بنُصرة غيره تعالى بمنزلة المنكِرين له في عدم الخوف الذي عليه يدور أمر الإنذار.

وأمّا الحال الثانية، فليستْ لإخراج "الوليّ" الذي لم يقيَّد بها عن حيّز الانتفاء، لِفساد المعنى لاستلزامه ثبوتَ ولايتِه تعالى لهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة، ١٠٧/٢؛ التوبة، ١١٦/٩؛ العنكبوت، ٢٢/٢٩؛ الشورى، ٣١/٤٢]؛ بل لتحقيق مدار خوفهم، وهو فُقدان ما علّقوا به رجاءَهم، وذلك إنّما هو ولاية غيره سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ [الأحقاف، ٣٢/٤٦].

والمعنى: أنذِرْ به الذين يخافون أن يُحشَروا غيرَ منصورين مِن جهة أنصارهم على زعمهم. وعن هذا اتّضَحَ ألّا سبيلَ إلى كون المراد بـ"الخائفين" المفرِّطين مِن المؤمنين؛ إذ ليس لهم وليٌّ سِواه تعالى لِيخافوا الحشرَ بدون نُصرته، وإنّما الذي يخافونه الحشرُ بدون نُصرته عزّ وجلّ.

وقولهِ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ تعليل للأمر، أي: أنذِرْهم لِكَيْ يتّقُوا الكفرَ والمعاصيَ، أو حال مِن ضمير الأمر، / أي: أنذِرْهم راجيًا تقواهم، أو مِن الموصول، أي: أنذِرْهم مرجوًّا منهم التقوى. [٢٢٠ظ]

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ لمّا أُمر عليه السلام بإنذار المذكورين لينتظِموا في سلك المتّقين نُهِيَ عليه السلام عن كون ذلك[١] بحيث يؤدّي إلى طرد المتّقين.[٢]

رُوي أنّ رُؤسًا[٣] مِن المشركين قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو طردتَ هؤلاء الأعبُدَ وأرواحَ جبابهم -يَعنُون فقراءَ المسلمين كعَمّارٍ وصُهيبٍ

---

[١] أي: إنذار المذكورين.

[٢] م ط س: طردهم [صُحح في الهامش].

[٣] كذا في الأصول المخطوطة، وفي مطبوعاته: رؤساء.

وختّابٍ[١] وسلمانَ وأضرابهم- جلسنا إليك وحادثناك»، فقال عليه السلام: «ما أنا بطاردِ المؤمنين»، فقالوا: «فأَقِمْهم عنّا إذا جئنا، فإذا قُمنا فأقعِدْهم معك إن شئتَ»، قال عليه السلام: «نعم»، طَمَعًا في إيمانهم. ورُوي أنّ عمرَ رضي الله عنه قال له عليه السلام: «لو فعلتَ حتّى تنظُرَ إلى ما يَصيرون؟».[٢]

وقيل: إنّ عُتبة ابنَ ربيعةَ وشيبةَ بنَ ربيعةَ ومُطعِمَ بنَ عديّ[٣] والحارثَ بنَ نَوفل وقرضةَ بنَ عُبيد وعمرو بنَ نَوفل وأشرافَ بني عبد مَناف مِن أهل الكفر أتَوْا أبا طالب، فقالوا: «يا أبا طالب، لو أنّ ابن أخيك محمّدًا يطرُد مواليَنا وحلفاءَنا، وهم عَبيدُنا وعُتقاؤُنا، كان أعظَمَ في صدورنا، وأدنى لِاتّباعنا إيّاه»، فأتى أبو طالب إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فحدّثه بالذي كلّموه، فقال عمرُ رضي الله عنه: «لو فعلتَ ذلك حتّى تنظُرَ ما الذي يريدون، وإلى مَا يَصيرون؟».[٤]

---

١ هو خَبّاب بن الأرَتّ بن جَنْدلة بن سعد التميمي، أبو عبد الله، وقيل: أبو يحيى (ت. ٣٧هـ/٦٥٧-٦٥٨م). صحابيّ، مِن السابقين الأوّلين إلى الإسلام. كان في الجاهليّة قَيْنًا يعمل السيوفَ بمكّة. ولمّا أسلم استضعفه المشركون، فعذّبوه ليرجع عن دينه، فصبر إلى أن كانت الهجرة. ثمّ شهد المشاهد كلّها، ونزل الكوفة، فمات فيها. روى عنه ابنه عبد الله ومسروق وقيس بن أبي حازم وشقيق وعبد الله بن سخبرة وأبو ميسرة بن شرحبيل والشعبي وحارثة بن مضرب، وغيرهم. انظر: **الاستيعاب** للنّمري، ٢/٤٣٧-٤٣٩؛ و**أسد الغابة** لابن الأثير، ٢/ ١٤٧-١٥٠.

٢ الروايتان في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٧؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/١٦٣، كلاهما باختلاف يسير. وانظر لتخريجهما: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ١/٤٣٧-٤٣٩ (٤٤٧)؛ و**الكافي الشاف** لابن حجر، ص ٦١ (٧، ٨).

٣ هو مُطعِم بن عَديّ بن نَوْفل بن عبد مَناف، أبو وهب (ت. ٢هـ/٦٢٣م). رئيس بني نوفل في الجاهليّة، وقائدهم في حرب الفِجار. كان أقلّ أذًى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أقرانه، ولكنّه كان يُنكر عليه ما أنكروا. وهو الذي أجار رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا انصرف عن أهل الطائف وعاد متوجِّهًا إلى مكّة، فتسلّح المُطعِم وأهل بيته، وخرج بهم حتّى أتَوا المسجد، فأرسل مَن يدعو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم للدخول، فدخل مكّة وطاف بالبيت وصلّى عنده، ثمّ انصرف إلى منزله آمنًا. وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لجبير بن مُطعِم يوم بدر: «لو كان أبوك حيًّا فاستوهبني هؤلاء الأُسارَى، لَوهبتُهم له وشفعتُه فيهم». انظر: **أنساب الأشراف** للبَلاذُري، ١/١٥٣؛ و**الأعلام** للزركلي، ٧/٢٥٢.

٤ قائله عكرمة، وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٢٠.

وقال سلمان وخبّاب: فينا نزلت هذه الآية، جاء الأقرع بنُ حابس التميميُّ[١] وعُيَيْنة بنُ حِصن الفزاريُّ وعبّاس بنُ مِرداس[٢] وذَوُوهم مِن المؤلَّفة قلوبُهم، فوجدوا النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم جالسًا مع ناس مِن ضُعفاء المؤمنين، فلمّا رأَوْهم / حوله عليه السلام حَقِروهم، فأتَوْه عليه السلام، فقالوا: «يا رسولَ الله، لو جلستَ في صدر المسجِد، ونفيْتَ عنّا هؤلاء وأرواحَ جبابهم، فجالسناك وحادثناك وأخذنا عنك»، فقال عليه السلام: «ما أنا بطارد المؤمنين»، قالوا: «فإنّا نُحِبّ أن تجعل لنا منك مجلِسًا تَعرِف لنا به العربُ فضلَنا، فإنّ وفود العرب تأتيك، فنستحيي أن تَرانا مع هؤلاء الأعبُدِ، فإذا نحن جئناك فأَقِمْهم عنّا، فإذا نحن فرغنا فاقعُدْ معهم إن شئتَ»، قال عليه السلام: «نعم»، قالوا: «فاكتُبْ لنا كتابًا»، فدَعَا بالصحيفة وبعليٍّ رضي الله تعالى عنه ليكتُبَ، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل عليه السلام بالآية، فرمى عليه السلام بالصحيفة، ودعانا، فأتيناه وجلسنا عنده، وكُنّا ندنو منه حتّى تمَسّ رُكبتُنا رُكبتَه، وكان يقوم عنّا إذا أراد القيام، فنزلت: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف، ٢٨/١٨]، فترك القيامَ عنّا إلى أن نقوم عنه، وقال: «الحمد لله الذي لم يُمِتْني حتّى أمرني أن أصبِرَ نفسي مع قوم مِن أمّتي؛ معكم المَحْيا ومعكم المَمَاتُ».[٣]

[٢٢١و]

---

[١] هو الأقرع بن حابس بن عِقال بن محمّد بن سفيان التميمي (ت. ٣٣هـ/٦٥٣-٦٥٤م). صحابيّ، ومِن سادات العرب في الجاهليّة. قدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في وفدٍ مِن بني تَميم، فأسلموا. وكان مِن المؤلّفة قلوبهم. شهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتح مكّة وحُنينًا والطائف. وكان ينزل أرض بني تميم ببادية البصرة. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٢٦٤/١-٢٦٧؛ والإصابة لابن حجر، ٢٠٥/١-٢٠٧.

[٢] م ط س – وعبّاس بن مرداس ["صح" في هامش م س]. | هو العبّاس بن مِرداس بن أبي عامر بن حارثة السُّلَمي، أبو الهَيْثم، وقيل: أبو الفضل. أسلم قبل فتح مكّة بيسير. وكان مِن المؤلّفة قلوبهم، وممّن حسُنَ إسلامه منهم، وممّن حرّم الخمرَ في الجاهليّة. وكان شاعرًا محسِنًا مشهورًا بذلك. روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وروى عنه ابنه كِنانة بن عبّاس. انظر: الاستيعاب للنُمري، ٨١٧/٢-٨٢٠؛ والإصابة لابن حجر، ٥٨٠/٥.

[٣] هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في اللباب لابن عادل، ١٦٠/٨، ومجملًا في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٢٠. وانظر لتخريجها: الكافي الشاف لابن حجر، ص ٦١-٦٢ (٧-٩).

والمراد بذكر الوقتَين الدوام، وقيل: صلاةُ الفجر والعصر. وقُرِئ: "بِالغُدْوَةِ".[١]

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ حال مِن ضمير ﴿يَدْعُونَ﴾، أي: يدعونه تعالى مخلِصين له فيه، وتقييدُه به لتأكيد عِلّيّته للنهي؛ فإنّ الإخلاص مِن أقوى موجِبات الإكرام المُضادِّ للطرد.

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ اعتراض وُسّط بين النهي وجوابِه تقريرًا له، ودفعًا لِما عسى يُتوهَّم كونُه مسوِّغًا لطردهم مِن أقاويل الطاعنين في دينهم، كدأب قوم نوحٍ حيث قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ / إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود، ٢٧/١١]، أي: ما عليك شيءٌ ما مِن حساب إيمانهم وأعمالِهم الباطنة حتّى تتصدّى له وتبنِيَ على ذلك ما تَراه مِن الأحكام، وإنّما وظيفتك -حسبما هو شأن منصب النبوّة- اعتبارُ ظواهر الأعمال وإجراءُ الأحكام على موجَبها، وأمّا بَواطن الأمور فحِسابها على العليم بذات الصدور، كقوله تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ [الشعراء، ١١٣/٢٦]. [٢٢١ظ]

وذِكر قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ -مع أنّ الجواب قد تمّ بما قبله- للمبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه عليه السلام بنظمه في سلكِ ما لا شُبهةَ فيه أصلًا، وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام عليهم، على طريقة قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف، ٣٤/٧؛ النحل، ٦١/١٦]. وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك لتنزيل الجملتين منزلةَ جملة واحدة لتأديةِ معنى واحدٍ على نهج قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام، ١٦٤/٦؛ الإسراء، ١٥/١٧؛ فاطر، ١٨/٣٥؛ الزمر، ٧/٣٩]، فغيرُ حقيقٍ بجلالة شأن التنزيل.

وتقديم ﴿عَلَيْكَ﴾ في الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به عليه السلام؛ إذ هو الداعي إلى تَصدّيه عليه السلام لحسابهم. وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: إنّك لا تؤاخَذُ بحسابهم حتّى يهمَّك إيمانُهم ويدعُوَك الحِرصُ عليه إلى أن تطرُدَ المؤمنين.

---

١ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢.

وقوله تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي. وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب النهي. وقد جُوّز عطفُه على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، على طريقة التسبيب، وليس بذاك.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ استئناف مبيّنٌ لِما نشأ عنه ما سبق مِن النهي. و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدرِ ما بعده مِن الفعل الذي هو عبارة عن تقديمه تعالى لفقراء المؤمنين في أمر الدين بتوفيقِهم للإيمان مع ما هم عليه في أمر الدنيا مِن كمال سُوء الحال. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلُوّ درجة المشار إليه وبُعدِ منزلته في الكمال.

و"الكاف" مُقحَمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة مِن الفخامة، ومحلُّها في الأصل النصبُ على أنّه نعتٌ لمصدرٍ مؤكِّدٍ محذوفٍ، والتقدير: "فَتَنّا بعضَهم / ببعض فتونًا كائنًا مِثلَ ذلك الفتون"، ثمّ قُدّم على الفعل لإفادة القَصر المفيدِ لعدم القصور فقط، واعتُبِرت "الكافُ" مُقحَمةً، فصار نفسَ المصدر المؤكِّد، لا نعتًا له، والمعنى: ذلك الفتونَ الكاملَ البديعَ فَتَنّا، أي: ابتلَينا بعضَ الناس ببعضهم، لا فتونًا غيرَه، حيث قدّمنا الآخِرين في أمر الدين على الأوّلِين المتقدّمين عليهم في أمر الدنيا تقدّمًا كلّيًّا. [٢٢٢و]

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ للعاقبة، أي: ليقولَ البعضُ الأوّلون، مشيرين إلى الآخِرين، محقِّرين لهم نظرًا إلى ما بينهما مِن التفاوُت الفاحشِ الدنيويّ، وتَعامِيًا عمّا هو مَناط التفضيل حقيقةً: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ بأنْ وفّقهم لإصابة الحقّ ولِما يُسعِدهم عنده تعالى مِن دوننا، ونحن المقدمون والرؤساء، وهم العبيد والفقراء. وغرضُهم بذلك إنكارُ وقوع المَنّ رأسًا، على طريقة قولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ٤٦/١١]؛ لا تحقيرُ الممنون عليهم مع الاعتراف بوقوعه بطريق الاعتراض عليه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ردٌّ لقولهم ذلك وإبطالٌ له، وإشارةٌ إلى أنّ مدار استحقاق الإنعام معرفةُ شأن النعمة والاعترافُ بحقّ المُنعِم. والاستفهام لتقرير علمه البالغِ بذلك، أي: أليس الله بأعلَمَ بالشاكرين لِنِعَمِه حتّى تستبعِدوا إنعامَه عليهم؟ وفيه مِن الإشارة إلى أنّ أولئك الضعفاءَ عارفون لِحقّ نعمة الله تعالى في تنزيل القرآن والتوفيقِ للإيمان، / شاكرون له تعالى على ذلك، مع التعريض بأنّ القائلين بمَعزِل مِن ذلك كلِّه، ما لا يخفى. [٢٢٢ظ]

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هم الذين نُهِي عن طردهم. وُصِفوا بالإيمان بآيات الله عزّ وجلّ كما وُصِفوا بالمداوَمة على عبادته تعالى بالإخلاص،[١] تنبيهًا على إحرازهم لفضيلتَي العلم والعمل. وتأخير هذا الوصف -مع تقدّمه على الوصف الأوّل- لِما أنّ مدار الوعد بالرحمة والمغفرة هو الإيمان بها، كما أنّ مَناط النهي عن الطرد فيما سبق هو المداوَمة على العبادة.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أمرٌ بتبشيرهم بالسلامة عن كلّ مكروه بعد إنذار مقابِلِيهم، وقيل: بتبليغ سلامه تعالى إليهم، وقيل: بأنْ يبدأهم بالسلام. وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: قضاها وأوجَبَها على ذاته المقدَّسة بطريق التفضّل والإحسان بالذات، لا بتوسّطِ شيءٍ ما أصلًا، تبشيرٌ لهم بسَعَة رحمته تعالى وبنَيْل المطالب إثرَ تبشيرهم بالسلامة عن المكارِهِ وقبولِه التوبةَ منهم. وفي التعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ اللطف بهم والإشعارُ بعلّة الحُكم.

وقيل: إنّ قومًا جاءوا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا: «إنّا أصبنا ذُنوبًا عِظامًا»، فلم يردَّ عليهم شيئًا، فانصرفوا، فنزلت.[٢]

---

١ وهو في الآية السابقة.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٤/٢. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢٧٢/٩-٢٧٣؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٢٢.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾. وقُرئ بكسر ﴿أَنَّهُۥ﴾،[١] على أنّه تفسير لـ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾ بطريق الاستئناف. وقوله تعالى: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ حال مِن فاعل ﴿عَمِلَ﴾، أي: عمِله وهو جاهلٌ بحقيقةِ ما يتبعه مِن المضارّ. والتقييد بذلك للإيذان بأنّ المؤمن لا يباشِر ما يعلم أنّه يؤدّي إلى الضَّرَر. أو عمِله ملتبِسًا بجهالة.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد عمله، أو مِن بعد سَفَهِه، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ما أفسده تداركًا وعَزْمًا على ألّا يعودَ إليه أبدًا، ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فأمرُه أنّه غفور رحيم، أو فليعلَمْ أنّه[٢] غفور رحيم. وقُرئ: "فَإِنَّهُ"[٣] بالكسر، على أنّه [٢٢٣و] / استئنافٌ وقع في صدر الجملة الواقعةِ خبرًا لـ﴿مَنْ﴾، على أنّها موصولة، أو جوابًا لها على أنّها شرطيّة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ قد مرّ آنفًا ما فيه مِن الكلام،[٤] أي: هذا التفصيلَ البديعَ نفصِّل الآياتِ في صفة أهل الطاعة وأهلِ الإجرام المُصرِّين منهم والأوّابين.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بتأنيث الفعل بناءً على تأنيث الفاعل. وقُرئ بالتذكير،[٥] بناءً على تذكيره، فإنّ "السبيل" ممّا يذكَّر ويؤنَّث. وهو عطفٌ على علّة محذوفة للفعل المذكور، لم يُقصَد تعليله بها بعينها، وإنّما قُصِد الإشعارُ بأنّ له فوائدَ جمّةً، مِن جملتها ما ذُكر، أو علّةٌ[٦] لفعل مقدَّر هو عبارة عن المذكور، فيكون مستأنَفًا، أي: ولِتستبينَ سبيلُهم نفعل ما نفعل مِن التفصيل.

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٥٨؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨.

٢ م ط س: أو فله أنّه [صُحّح في هامش م ط].

٣ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٥٨؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨.

٤ انظر: تفسير الأنعام، ٦/٥٣.

٥ أي: "وَلِيَسْتَبِينَ"، وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨.

٦ السياق: وهو عطفٌ... أو علّةٌ...

وقُرئ بنصب "السبيل"،[١] على أنّ الفعل متعَدٍّ، و"تاؤه" للخطاب، أي: ولِتستوضحَ أنت -يا محمّد- سبيلَ المجرِمين، فتُعامِلَهم بما يَليق بهم.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ أُمِر صلّى الله عليه وسلّم بالرجوع إلى مخاطبة المُصِرّين على الشرك، إثرَ ما أُمِر بمعاملة مَن عَداهم مِن أهل الإنذار والتبشيرِ بما يَليق بحالهم، أي: قُلْ لهم، قطعًا لأطماعهم الفارغةِ عن ركونه عليه السلام إليهم، وبيانًا لكون ما هم عليه مِن الدين هوًى محضًا وضلالًا بحتًا: إنّي صُرفتُ وزُجرتُ بما نُصب لي مِن الأدلّة وأُنزلَ عليَّ مِن الآيات في أمر التوحيد ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: عن عبادة ما تعبدونه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كائنًا ما كان.

﴿قُلْ﴾ كُرّر الأمر مع قُرب العهد اعتناءً بشأن المأمور به، أو إيذانًا باختلاف المَقولَين مِن حيث إنّ الأوّل حكاية لِما مِن جهته تعالى مِن النهي، والثاني حكاية لِما مِن جهته عليه السلام مِن الانتهاء عمّا ذُكر مِن عبادة ما يعبدونه. وإنّما قيل: ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ استجهالًا لهم، وتنصيصًا على أنّهم فيما هم فيه تابعون لأهواءَ باطلةٍ، وليسوا على شيء / ممّا ينطلق عليه الدين أصلًا، وإشعارًا بما يوجِب النهيَ والانتهاءَ. [٢٢٣ظ]

وقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ استئناف مؤكِّد لانتهائه عمّا نُهِي عنه، مقرِّرٌ لكونهم في غاية الضلال والغَواية، أي: إن اتّبعتُ أهواءكم فقد ضللتُ. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ عطفٌ على ما قبله. والعُدول إلى الجملة الاسميّة للدلالة على الدوام والاستمرار، أي: دوامِ النفي واستمرارِه، لا نفيِ الدوام والاستمرار كما مرّ مرارًا،[٢] أي: ما أنا في شيء مِن الهُدى حتى أكونَ في عِدادهم.

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢.

[٢] انظر: تفسير الأنعام، ٤٨/٦.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تحقيق للحقّ الذي عليه رسول الله عليه السلام وبيانٌ لاتّباعه إيّاه، إثرَ إبطال الباطل الذي عليه الكفَرةُ وبيانِ عدم اتّباعه له. و"البيّنة": الحُجّة الواضحة التي تفصِل بين الحقّ والباطل، والمرادُ بها القرآن والوحي. وقيل: هي الحُجَج العقليّة أو ما يعمُّهما، ولا يساعده المقام. والتنوين للتفخيم.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿بَيِّنَةٍ﴾، مؤكِّدةٌ لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة. وفي التعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن التشريف ورفع المنزلة ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ إمّا جملة مستأنَفة، أو حاليّة بتقدير "قد" أو بدونه. جِيءَ بها لاستقباح مضمونها واستبعادِ وقوعه[١] مع تحقّق ما يقتضي عدمَه مِن غاية وضوح البيّنة. والضمير المجرور لـ"البيّنة"، والتذكيرُ باعتبار المعنى المراد.[٢] والمعنى: إنّي على بيّنة عظيمة كائنة مِن ربّي، وكذّبتم بها وبما فيها مِن الأخبار التي مِن جمتلها الوعيدُ بمَجيء العذاب.

وقوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ استئناف مبيِّن لِخطئهم في شأن ما جعلوه منشأً لتكذيبهم بها، وهو عدم مجيء ما وُعِد فيها مِن العذاب الذي كانوا يستعجلونه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس، ٤٨/١٠؛ الأنبياء، ٣٨/٢١؛ النمل، ٧١/٢٧؛ سبأ، ٢٩/٣٤؛ يس، ٤٨/٣٦؛ الملك، ٢٥/٦٧]، بطريق الاستهزاء / أو بطريق الإلزام على زعمهم، أي: ليس ما تستعجلونه مِن العذاب الموعودِ [٢٢٤و] في القرآن وتجعلون تأخُّرَه ذريعةً إلى تكذيبه، في حُكمي وقدرتي[٣] حتّى أَجِيءَ به وأُظهرَ لكم صدقَه، أي: ليس أمرُه بمفوَّضٍ إليّ؛ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: ما الحكمُ في ذلك تعجيلًا وتأخيرًا، أو ما الحكمُ في جميع الأشياء، فيدخل فيه ما ذُكر دخولًا أوّليًّا، ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحدَه، مِن غير أن يكون لغيره دَخْلٌ ما فيه بوجهٍ مِن الوجوه.

---

[١] أي: وقوع مضمونها.

[٢] وفي هامش م: هو القرآن والوحي. «منه».

[٣] السياق: ليس ما تستعجلونه... في حُكمي وقدرتي...

وقوله تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يتبعه، بيانٌ لشئونه تعالى في الحكم المعهود، أو في جميع أحكامه المنتظِمةِ له انتظامًا أوّليًا، أي: لا يحكم إلّا بما هو حقّ، فيثبت حقّيّة التأخير. وقُرئ: "يَقْضِي"،[١] فانتصابُ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ حينئذ على المصدريّة، أي: يَقضي القضاءَ الحقَّ، أو على المفعوليّة، أي: يصنع الحقَّ ويدبِّره، مِن قولهم: "قضى الدِّرعَ" إذا صنعها. وأصلُ "القضاء": الفصلُ بتمام الأمر، وأصلُ "الحُكم": المنعُ، فكأنّه يمنع الباطل عن معارَضة الحقّ، أو الخصمَ عن التعدّي على صاحبه.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ اعتراض تذييليّ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، مشيرٌ إلى أنّ قَصّ الحقّ ههنا بطريقٍ خاصّ، هو الفصل بين الحقّ والباطل. هذا هو الذي يستدعيه جزالة التنزيل.

وقد قيل: إنّ المعنى: إنّي مِن معرفة ربّي وأنّه لا معبودَ سِواه على حُجّة واضحة وشاهدِ صدقٍ، وكذّبتم به أنتم حيثُ أشرَكتم به تعالى غيرَه. وأنت خبير بأنّ مساق النظم الكريم فيما سبق وما لحِقَ على وصفهم بتكذيب آيات الله تعالى بسبب عدم مَجيء العذاب الموعود فيها، فتكذيبهم به سبحانه في أمر التوحيد ممّا لا تعلّقَ له بالمقام أصلًا.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ أي: في قُدرتي ومُكْنتي[٢] ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ مِن العذاب الذي ورد به الوعيدُ بأنْ يكون أمرُه مفوَّضًا إليّ مِن جهته عزّ وجلّ،[٣] ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: بأنْ ينزل ذلك عليكم إثرَ استعجالكم بقولكم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس، ٤٨/١٠؛ الأنبياء، ٣٨/٢١؛ النمل، ٧١/٢٧؛ سبأ، ٢٩/٣٤؛ يس، ٤٨/٣٦؛ الملك، ٢٥/٦٧] ونظائره. وفي بناء الفعل للمفعول مِن الإيذان بتعيُّنِ الفاعل الذي هو الله سبحانه وتهويلِ الأمر ومُراعاةِ حُسن الأدب ما لا يخفى. فما قيل في تفسيره:

---

١ قرأ بها أبو عمرو وحمزة وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢.

٢ المُكنة، بالضمّ: القُدرة والاستطاعة. تاج العروس للمرتضى الزبيدي، «مكن».

٣ س: تعالى.

[٢٢٤ظ] "لأهلكْتُكم عاجلًا غضبًا لِربّي، ولَتخلّصْتُ / منكم سريعًا"،[١] بمَعزِلٍ مِن تَوفية المقام حقَّه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراض مقرِّرٌ لِما أفاده الجملة الامتناعيّة مِن انتفاء كون أمر العذاب مفوَّضًا إليه عليه السلام المستتبعِ لانتفاء قضاء الأمر، وتعليلٌ له، والمعنى: واللهُ أعلَمُ بحال الظالمين وبأنّهم مستحِقّون للإمهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب؛ ولذلك لم يفوِّض الأمرَ إليَّ، فلم يقضِ الأمرَ بتعجيل العذاب. واللهُ أعلَمُ.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بيانٌ لاختصاص المقدورات الغيبيّة به تعالى مِن حيث العلمُ، إثرَ بيانِ اختصاص كلّها به تعالى مِن حيث القدرةُ. و"المفاتح" إمّا جمعُ "مَفتَح" بفتح الميم، وهو المخزَن، فهو مستعار لِمَكامِن[٢] الغيب، كأنّها مخازِنُ خُزِنت فيها الأمورُ الغيبيّةُ، تُغلَق عليها وتُفتَح، وإمّا جمعُ "مِفتَح" بكسرها، وهو المِفتاح، ويؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "مَفَاتِيحُ الغَيْبِ"،[٣] فهو مستعار لِما يُتوصَّل به[٤] إلى تلك الأمور بناءً على الاستعارة الأولى، أي: عنده تعالى خاصّةً خزائنُ غيوبه أو ما يُتوصَّل به إليها.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيدٌ لمضمونِ ما قبله، وإيذانٌ بأنّ المراد هو الاختصاص مِن حيث العلمُ، لا مِن حيث القدرةُ، والمعنى: أنّ ما تستعجلونه مِن العذاب ليس مقدورًا لي حتّى أُلزِمَكم بتعجيله، ولا معلومًا لديَّ لأُخبِرَكم بوقت نزوله؛ بل هو ممّا يختصّ به تعالى قدرةً وعلمًا، فينزله حسبما يقتضيه مشيئتُه المَبنيّةُ على الحِكَم والمصالح.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠.
[٢] كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: لمكان.
[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٩.
[٤] ط س - به.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بيان لِتعلّق / علمِه تعالى بالمشاهَدات [٢٢٥و] إثرَ بيان تعلُّقِه بالمغيَّبات، تكملةً له وتنبيهًا على أنّ الكلّ بالنسبة إلى علمه المحيطِ سواءٌ في الجَلاء، أي: يعلم ما فيهما مِن الموجودات مفصَّلةً على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثّرِ أفرادها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ بيانٌ لتعلّقِه بأحوالها المتغيِّرةِ بعد بيان تعلّقِه بذواتها، فإنّ تخصيص حال السقوط بالذِّكر ليس إلّا بطريق الاكتفاء بذكرها عن ذكر سائر الأحوال، كما أنّ ذكر حال الوَرَقة وما عُطِف عليها خاصّةً دون أحوال سائرِ ما فيهما مِن فنون الموجودات الفائتة للحَصر باعتبارِ أنّها[1] أُنموذَجٌ لأحوال سائرها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ عطفٌ على ﴿وَرَقَةٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ هو صفة لـ﴿حَبَّةٍ﴾، مفيدةٌ لكمال نفوذ علمه تعالى، أي: ولا حبّةٍ كائنةٍ في بطون الأرض إلّا يعلمها. وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ معطوفانِ عليها، داخلانِ في حُكمها. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بدلٌ مِن الاستثناء الأوّل بدلَ الكلِّ على أنّ "الكتابَ المبينَ" عبارةٌ عن علمه تعالى، أو بدلَ الاشتمالِ على أنّه عبارة عن اللَّوح المحفوظ.

وقُرئ الأخيران بالرفع[2] عطفًا على محلّ ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾. وقيل: رفعُهما بالابتداء، والخبرُ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، وهو الأنسَبُ بالمقام لشمول الرَّطْب واليابس حينئذ لِما ليس مِن شأنه السقوطُ. وقد نُقِل قراءة الرفع في ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾[3] أيضًا.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

---

١ السياق: كما أنّ ذكر حال الوَرَقة... باعتبارِ أنّها...

٢ أي: "وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ"، أوردها أبو حيّان في البحر المحيط، ٥٣٦/٤؛ وابن عادل في اللباب، ١٨٩/٨، ونسباها إلى الحسن وابن السَّمَيفَع وابن أبي إسحاق. وقال السمرقندي في تفسيره، ٤٧٤/١، إنّها قراءة شاذّة.

٣ أوردها الزمخشري في الكشّاف، ٣١/٢، ولم ينسبها إلى أحد. وقال السمرقندي في تفسيره، ٤٧٤/١، إنّها قراءة شاذّة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يُنيمُكم فيه، على استعارة التوفّي مِن الإماتة للإنامة لِما بين الموت والنومِ مِن المشاركة في زوال / الإحساس والتمييز، [٢٢٥ظ] وأصلُه: قبضُ الشيء بتمامه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ما كسَبتم فيه.

والمراد بـ﴿ٱلَّيْلِ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ الجنسُ المتحقِّقُ في كلّ فرد مِن أفرادهما؛ إذ بالتوفّي والبعثِ الموجودَين فيها يتحقّقُ قضاءُ الأجَل المسمَّى المرتَّبِ عليها، لا في بعضها.[١] والمراد بعلمه تعالى ذلك علمُه قبل الجَرْح، كما يلوِّح به تقديمُ ذكره على البعث، أي: يعلم ما تجرَحون بالنهار، وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق. وتخصيص التوفّي بالليل والجَرْحِ بالنهار -مع تحقّق كلٍّ[٢] منهما فيما خُصَّ بالآخَر- للجَرْيِ على سَنن العادة.

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يُوقِظُكم في النهار. عطفٌ على ﴿يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾. وتوسيط قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ﴾... إلخ بينهما لبيانِ ما في بعثهم مِن عظيم الإحسان إليهم، بالتنبيه على أنّ ما يكتسبونه مِن السيّئات مع كونها موجِبةً لإبقائهم على التوفّي -بل لإهلاكهم بالمرّة- يُفيض عليهم الحياةَ ويُمهلهم، كما يُنبئ عنه كلمةُ التَّراخي، كأنّه قيل: هو الذي يَتوفّاكم في جنس الليالي، ثمّ يبعثكم في جنس النُّهُر مع علمه بما ستجرَحون فيها ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معيَّنٌ لكلّ فردٍ فردٍ، بحيث لا يكاد يتخطّى أحدٌ ما عُيّن له طَرفةَ عينٍ، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعُكم بالموت، لا إلى غيره أصلًا، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمُجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيّام.

وقيل: الخطاب مخصوص بالكَفَرة، والمعنى: أنكم مُلقَوْن كالجِيَف[٣] بالليل، كاسبون للآثام بالنهار، وأنّه تعالى مطَّلِعٌ على أعمالكم، يبعَثُكم مِن القبور في شأن ما قطعتم به أعمارَكم مِن النوم / بالليل وكسبِ الآثام بالنهار [٢٢٦و] ليقضِيَ الأجَلَ الذي سمّاه وضَرَبه لبعثِ الموتى وجزائِهم على أعمالهم.

---

[١] أي: لا في بعض أفرادهما.

[٢] س + كلّ.

[٣] الجِيَف: جمعُ "جِيفة"، وهي الجُثّة الميّتة والمُنتِنة. كتاب العين للخليل بن أحمد، ١٨٩/٦ «باب الجيم والفاء».

وفيه -ما لا يخفى- مِن التكلّف والاختلال، لإفضائه إلى كون البعث معلّلًا بقضاء الأجَل المضروبِ له.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: هو المتصرّف في أمورهم لا غيرُ، يفعل بهم ما يشاء إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتةً، وتعذيبًا وإثابةً إلى غير ذلك، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ﴾ خاصّةً -أيّها المكلّفون- ﴿حَفَظَةً﴾ مِن الملائكة، وهم الكِرامُ الكاتبون.

و﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿يُرْسِلُ﴾ لِما فيه مِن معنى الاستيلاء، وتقديمُه على المفعول الصريح لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر. وقيل: متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو حال مِن ﴿حَفَظَةً﴾، إذ لو تأخّر لَكان صفةً، أي: كائنين عليكم. وقيل: متعلِّقٌ بـ﴿حَفَظَةً﴾، والمحفوظ محذوفٌ على كلّ حال، أي: يرسل عليكم ملائكةً يحفظون أعمالَكم كائنًا ما كان.

وفي ذلك حكمة جليلة ونعمة جميلة لِما أنّ المكلَّف إذا علم أنّ أعماله تُحفَظ عليه وتُعرَض على رؤس الأشهاد، كان ذلك أزجَرَ له عن تَعاطي المعاصي والقبائحِ، وأنّ العبد إذا وثِق بلطف سيّدِه واعتمد على عفوِه وسَترِه، لم يحتشمه احتشامَه مِن خَدَمِه الواقفين على أحواله.

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ هي التي يُبتدأ بها الكلام، وهي مع ذلك تَجعل ما بعدها مِن الجملة الشرطيّة غايةً لِما قبلها، كأنّه قيل: ويرسل عليكم حَفَظةً يحفَظون أعمالَكم مدّةَ حياتكم، حتّى إذا انتهَتْ مدّةُ أحدكم كائنًا مَن كان وجاءه أسبابُ الموت ومَباديه / ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [٢٢٦ظ] الآخَرون المفوَّضُ إليهم ذلك، وهم مَلك الموت وأعوانُه، وانتهى هناك حِفظُ الحَفَظة. وقُرِئ: "تَوَفّاهُ"[١] ماضيًا أو مضارعًا بطرح إحدى التاءَين.

---

[١] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢.

﴿وَهُمْ﴾ أي: الرُّسل ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: بالتواني والتأخير. وقُرئ مخفَّفًا مِن "الإفراط"،[١] أي: لا يجاوزون ما حُدَّ لهم بزيادة أو نقصان. والجملة حال مِن ﴿رُسُلُنَا﴾، وقيل: مستأنَفةٌ سِيقت لبيان اعتنائهم بما أُمِروا به.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ عطفٌ على ﴿تَوَفَّتْهُ﴾،[٢] والضمير للكلّ المدلول عليه بـ﴿أَحَدَكُمْ﴾،[٣] وهو السرّ في مَجيئه بطريق الالتفات تغليبًا. والإفراد أوّلًا والجمعُ آخِرًا لوقوع التوفّي على الانفراد والردِّ على الاجتماع، أي: ثمّ رُدُّوا بعد البعث بالحشر ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى حُكمه وجزائِه في موقِف الحساب ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ أي: مالِكِهم الذي يَلِي أمورَهم على الإطلاق، لا ناصِرهم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد، ١١/٤٧]. ﴿ٱلْحَقِّ﴾ الذي لا يَقضي إلّا بالعدل. وقُرئ بالنصب[٤] على المدح.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذ صورةً ومعنًى، لا لأحد غيرِه بوجه مِن الوجوه، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يحاسب جميعَ الخلائق في أسرع زمان وأقصرِه، لا يشغله حسابٌ عن حساب ولا شأنٌ عن شأن. وفي الحديث: «إنّه تعالى يحاسب الكلَّ في مقدار حَلْب شاةٍ».[٥]

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣﴾

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: قُل، تقريرًا لهم بانحطاط / شركائهم عن رتبة الإلهيّة: مَن يُنجّيكم مِن شدائدهما الهائلةِ التي تُبطل الحواسَّ وتُدهش العقولَ؛ ولذلك استُعِير لها الظُّلُماتُ المبطِلةُ لحاسّة البصر، [٢٢٧و]

---

١ أي: "لَا يُفْرِطُونَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. المحتسَب لابن جنّي، ٢٢٣/١.

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية السابقة.

٤ أي: "الحَقَّ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٩.

٥ هو بلفظ "رُوي" في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٩/١ (البقرة، ٢٠٢/٢)؛ وبقيد "الخبر" في التفسير البسيط للواحدي، ٦٦/٤-٦٧ (البقرة، ٢٠٢/٢)؛ وتفسير القرطبي، ٤٣٥/٢ (البقرة، ٢٠٢/٢). وذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشّاف، ١٢٨/١ (١٢٤)، وسكت عنه.

يُقال لليومِ الشديد: "يوم مُظلِم" و"يوم ذو كوكب"، أو مِن الخسف في البَرّ والغرقِ في البحر. وقُرِئَ: "يُنْجِيكُمْ"[١] مِن "الإنجاء"، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ نصب على الحاليّة مِن مفعول ﴿يُنَجِّيكُم﴾، والضمير لـ﴿مَنْ﴾، أي: مَن يُنجّيكم منها حالَ كونكم داعين له، أو مِن فاعله، أي: مَن يُنجّيكم منها حالَ كونه مدعوًّا مِن جهتكم. وقوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إمّا حال مِن فاعل ﴿تَدْعُونَ﴾، أو مصدر مؤكِّد له، أي: تدعونه متضرِّعين جِهارًا ومُسِرّين، أو تدعونه دعاءَ إعلانٍ وإخفاءٍ. وقُرِئَ: "خِفْيَةً"[٢] بكسر الخاء.

وقوله تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾[٣] حال مِن الفاعل أيضًا على تقدير "القول"، أي: تدعونه[٤] قائلين: لَئِنْ أنجيتَنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الشدّة والوَرْطةِ التي عُبّر عنها بـ"الظُّلُمات"، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: الراسخين في الشكر المداوِمين عليه لأجل هذه النعمة أو جميعِ النَّعْماء التي مِن جملتها هذه. وقرأ حفص:[٥] "لَئِنْ أَنْجَانَا"[٦] مُراعاةً لقوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ أُمر عليه السلام بتقرير الجواب -مع كونه مِن وظائفهم- للإيذان بأنّه متعيّن عندهم، ولبناءِ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ عليه،

---

١ قرأ بها يعقوب مِن القرّاء العشرة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨-٢٥٩. ورواها عليّ بن نصر عن أبي عمرو. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٥٩؛ الحجّة لأبي عليّ الفارسي، ٣/٣٢١-٣٢٢.

٢ قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٩.

٣ م ط س: "أَنْجَيْتَنَا". | وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٩.

٤ م ط س - تدعونه ["صح" في الهامش].

٥ ط س: وقُرِئَ. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س. | هو حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي الكوفي الغاضري، أبو عمر (ت. ١٨٠هـ/٧٩٦م). قارئ أهل الكوفة. أخذ القراءة عرضًا وتلقينًا عن عاصم، وكان ربيبه، ابن زوجته. وكان أعلمَ أصحاب عاصم بقراءته، ومِن طريقه قراءة أهل المشرق. كان بزّازًا. نزل بغداد فأقرأ بها، وجاور بمكّة فأقرأ بها أيضًا. روى القراءة عنه عرضًا وسماعًا حسين بن محمّد المَرْوزي وحمزة بن القاسم الأَحْول وسليمان بن داود الزُّهراني وحمد بن أبي عثمان الدقّاق والعبّاس بن الفضل الصفّار ومحمّد بن الفضل زرقان وخلف بياض الحدّاد وعمرو بن الصبّاح وعبيد بن الصبّاح، وآخرون. انظر: غاية النهاية لابن الجزري، ١/٢٥٤-٢٥٥؛ والأعلام للزركلي، ٢/٢٦٤.

٦ النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٩.

أي: اللهُ تعالى وحده يُنجّيكم ممّا تدعونه إلى كشفه مِن الشدائد المذكورة وغيرِها مِن الغموم والكُرَبِ، ثمّ أنتم بعد ما تشاهدون هذه النِّعَمَ الجليلةَ تُشركون بعبادته تعالى غيرَه. وقُرئ: "يُنجِيكُمْ"[1] بالتخفيف.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

[٢٢٧ظ] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ استئنافٌ / مسوقٌ لبيان أنّه تعالى هو القادر على إلقائهم في المهالك، إثرَ بيانِ أنّه هو المُنجي لهم منها. وفيه وعيد ضِمنيّ بالعذاب لإشراكهم المذكور، على طريقة قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ الآية [الإسراء، ١٧/٦٨-٦٩]. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿يَبْعَثَ﴾، وتقديمُه على مفعوله الصريح للاعتناء به والمسارعةِ إلى بيان كون المبعوث ممّا يضُرّهم، ولتهويل أمر المؤخَّر.

وقوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ متعلِّق به أيضًا، أو بمحذوف وقع صفةً لـ﴿عَذَابًا﴾، أي: عذابًا كائنًا مِن جهة الفوق كما فعل بمَن فعل مِن قوم لوطٍ وأصحابِ الفِيل وأضرابِهم. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أو مِن جهة السُفْل كما فعل بفرعونَ وقارونَ. وقيل: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: أكابِركم ورؤسائِكم، و﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: سَفَلَتِكم وعَبيدِكم. وكلمة ﴿أَوْ﴾ لمنع الخُلُوّ دونِ الجمع، فلا مَنْعَ لِما كان مِن الجهتين معًا كما فُعل بقوم نوحٍ.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي: يخلِطَكم فِرَقًا متحزِّبين على أهواءَ شتّى، كلُّ فرقةٍ مشايِعةٌ لإمامٍ، فيُنشِبَ بينكم القتالَ، فيختلطوا في الملاحم، كقول الحَماسيّ:

وكتيبةٍ لَبَّسْتُها بكتيبةٍ ... حتّى إذا التبسَتْ نفضْتُ لها يَدِي[2]

---

[1] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامرفي رواية ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٩.

[2] البيت للفَرّار السلمي في الحماسة البصريّة لأبي الحسن البصري١/٢٨؛ وغُرَر الخصائص للوطواط، ص ٤٥٤. واسمه: حيّان بن الحكم، شاعر مخضرم صحابيّ. وهو يتبجّح بأنّه مِهياجُ شرّ وأذًى، وجَماعٌ بين كتائبَ شتّى تتقاتل مِن دونه، ثمّ يخرج هو مِن بينهم غير مُبالٍ بما يَجْرُون إليه، ولا مفكِّرٍ فيما ينتج مِن الشرّ فيهم، فيقول: رُبَّ كتيبةٍ خلطْتُها بكتيبةٍ، فلمّا اختلطَتْ نفضتُ يدي منهم ولهم، وخلَّيْتُهم وشأنَهم. شرح ديوان الحماسة للأصفهاني، ص ١٤١.

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ عطفٌ على ﴿يَبْعَثَ﴾. وقُرئ بنُون العَظَمة[1] على طريق الالتفات لتهويل الأمرِ والمبالغةِ في التحذير. و"البعض" الأوّل: الكُفّار، والآخر: المؤمنون؛ ففيه وعد ووعيد.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال عند قوله تعالى: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾: «أعوذُ بوجهك»، وعند قوله تعالى: / ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: «أعوذ بوجهك»، وعند قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: «هذا أهوَنُ»، أو «هذا أيسَرُ».[2] وعنه عليه السلام أنّه قال: «سألتُ ربيّ أن لا يبعثَ على أمّتي عذابًا مِن فوقهم ومِن تحتِ أرجُلِهم، فأعطاني ذلك، وسألتُه أن لا يجعلَ بَأسهم بينهم، فمنعني ذلك».[3] [٢٢٨و]

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ مِن حال إلى حال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ كي يفقَهُوا ويقِفوا على جلِيّة الأمر، فيرجِعوا عمّا هم عليه مِن المكابرة والعناد.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أي: بالعذاب الموعود، أو القرآنِ المَجيد الناطقِ بمَجيئه، ﴿قَوْمُكَ﴾ أي: المعانِدون منهم. ولعلّ إيرادَهم بهذا العُنوان للإيذان بكمال سُوء حالهم؛ فإنّ تكذيبهم بذلك -مع كونهم مِن قومه عليه السلام- ممّا يَقضي بغاية عُتُوّهم ومكابرتهم. وتقديم الجارّ والمجرور على الفاعل لِما مرّ مِرارًا مِن إظهار الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

---

١ أي: "وَنُذِيقَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الله المضر بن أحمد المدني ويحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٦٩.

٢ صحيح البخاري، ٥٦/٦ (٤٦٢٨)، ١٢١/٩ (٧٤٠٦)؛ مسند أحمد، ٢١٨/٢٢ (١٤٣١٦). ونحوه في سنن الترمذي، ٢٦١/٥ (٣٠٦٥).

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٤/٢. وله شواهد، منها ما أخرجه مسلم في صحيحه، ٢٢١٦/٤ (٢٨٩٠)، عن سعد: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أقبل ذاتَ يومٍ مِن العالية، حتّى إذا مرَّ بمسجد بني معاوية دخل، فركع فيه ركعتين، وصلّينا معه، ودعا ربَّه طويلًا، ثمّ انصرف إلينا، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «سألتُ ربّي ثلاثًا، فأعطاني ثِنتَين ومنعني واحدةً: سألتُ ربّي أنْ لا يُهلك أمّتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألتُه أنْ لا يُهلك أمّتي بالغَرَق فأعطانيها، وسألتُه أنْ لا يجعل بَأسهم بينهم فمنعنيها». وانظر لتخريجه: الكافي الشاف لابن حجر، ص ٦٢ (١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ حال مِن الضمير المجرور، أي: كذّبوا به والحالُ أنه الواقعُ لا محالةَ، أو أنّه الكتابُ الصادقُ في كلّ ما نطق به. وقيل: هو استئناف. وأيًا ما كان، ففيه دلالة على عِظَم جنايتهم ونهايةِ قُبحها.

﴿قُل﴾ لهم، منبّهًا على ما يَئُول إليه أمرُهم وعلى أنّك قد أدّيتَ ما عليك مِن وظائف الرسالة: / ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظٍ وُكِلَ إليّ أمرُكم لِأمنَعَكم مِن التكذيب وأُجبِرَكم على التصديق؛ إنّما أنَا منذِر، وقد خرجتُ عن العُهدة حيث أخبرتُكم بما سترَوْنه. [٢٢٨ظ]

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ أي: لكلّ شيء يُنبَأ به مِن الأنباء التي مِن جملتها عذابُكم، أو لكلّ خبر مِن الأخبار التي مِن جملتها خبرُ مَجيئه ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: وقتُ استقرارٍ ووقوعٍ البتّةَ، أو وقتُ استقرارٍ بوقوع مدلوله. ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: حالَ نَبَئِكم في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما معًا. و﴿سَوْفَ﴾ للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص، ٨٨/٣٨].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: بالتكذيب والاستهزاءِ بها والطعنِ فيها كما هو دأبُ قريشٍ ودَيْدَنُهم،[1] ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بترك مُجالستهم والقيامِ عنهم. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ غاية للإعراض، أي: استمِرَّ على الإعراض إلى أن يخوضوا في حديثٍ غيرِ آياتنا. والتذكير باعتبار كونها حديثًا؛ فإنّ وصف "الحديث" بمغايرتها مشيرٌ إلى اعتبارها بعُنوان الحديثيّة، وقيل: باعتبار كونه قرآنًا.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بأنْ يشغلك، فتَنسى النهيَ، فتُجالِسَهم ابتداءً أو بقاءً. وقُرئ: "يُنَسِّيَنَّكَ"[2] مِن "التَّنْسِية". ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: بعد تذكّرِ النهي

---

[1] الدَّيْدَنُ: الدَّأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».
[2] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٩.

﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: معهم، فوُضِع المظهَرُ موضِعَ المضمَر نعيًا عليهم أنّهم بذلك الخَوض ظالمون، واضعون للتكذيب والاستهزاءِ موضِعَ التصديق والتعظيم، راسخون في ذلك.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾

/ ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ المسلمين حين نُهُوا عن مجالستهم عند خَوضهم في الآيات قالوا: «لَئِنْ كُنّا نقوم كلّما استهزءُوا بالقرآن، لم نستطع أن نجلِس في المسجد الحرام ونطوفَ بالبيت»، فنزلت.[1] [٢٢٩و]

أي: ما على الذين يتّقون قبائحَ أعمال الخائضين وأحوالهم ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ أي: ممّا يحاسَبون عليه مِن الجرائر ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أي: شيءٌ ما، على أنّه في محلّ الرفع على أنّه مبتدأ، و﴿مَا﴾ تميميّة، أو اسمٌ لها،[2] وهي حِجازيّة،[3] و﴿مِنْ﴾ مزيدة للاستغراق، و﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ حال منه. و﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ في محلّ الرفع على أنّه خبر للمبتدأ، أو لِـ﴿مَا﴾ الحِجازيّة على رأي مَن لا يُجيز إعمالَها في الخبر المقدَّم مطلَقًا، أو في محلّ النصب على رأي مَن يجوِّز إعمالَها في الخبر المقدَّم عند كونه ظرفًا أو حرفَ جرّ.

﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ استدراك مِن النفي السابق، أي: ولكن عليهم أن يذكِّروهم، ويمنعوهم عمّا هم عليه مِن القبائح بما أمكن مِن العِظة والتذكيرِ، ويُظهروا لهم الكراهةَ والنكيرَ. ومحلّ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ إمّا النصبُ على أنّه مصدر مؤكِّد للفعل المحذوف، أي: عليهم أن يذكِّروهم تذكيرًا، أو الرفعُ على أنّه مبتدأٌ محذوفُ الخبر، أي: ولكن عليهم ذكرى، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يجتنبون الخوضَ حياءً

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٧/٤؛ التفسير البسيط للواحدي، ٢١١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢١٠/٨، كلّها باختلاف يسير.

[2] أي: قوله تعالى: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ اسمٌ لـ﴿مَا﴾ التميميّة.

[3] قال إمام الحرمين الجويني في البرهان، ٥٢/١: «إنْ اتّصلت "ما" بالابتداء أو الخبر، فأهل الحجاز يَرون إحلالَها محلَّ "ليس"، فيرفعون بها الاسمَ وينصبون الخبر، وهي لغة القرآن، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف، ٣١/١٢]. وبنو تميم لا تُعمل "ما" النافية؛ لأنّها تدخل على الاسم والفعل. وقياس "ما" يدخل على البابين -أعني: الاسم والفعل- ألّا يعمل في واحد منهما».

أو كراهةَ لِمساءتهم. وقد جُوّز كون الضمير للموصول، أي: يذكِّروهم[١] رجاءَ أن يثبُتوا على تقواهم أو يزدادوها.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

[٢٢٩ظ] ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾ الذي كُلّفوه وأُمروا بإقامة مواجبه، / ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ حيث سخِروا به واستهزءُوا، أو بَنَوْا أمرَ دينهم على ما لا يكاد يتعاطاه العاقلُ بطريق الجِدّ، وإنّما يصدُر عنه لو صدَر بطريق اللعِب واللهوِ كعبادة الأصنام وتحريمِ البحائر والسوائبِ ونحو ذلك، والمعنى: أعرِضْ عنهم ولا تُبالِ بأفعالهم وأقوالهم. وقيل: هو تهديد لهم كقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ [الحجر، ٣/١٥].

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ واطمأنّوا بها، حتّى زعموا أن لا حياةَ بعدها أبدًا، ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، مَن يصلُح للتذكير، ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: لِئلّا تُبسَلَ، كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ الآية،[٢] أو مخافةَ أن تُبسَل، أو كراهةَ أن تُبسَل نفوسٌ كثيرةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير، ١٤/٨١]، وتُرْتَهَنَ[٣] بسُوء عملها.

وأصل "الإبسال" و"البَسْل": المنعُ، ومنه "أسدٌ باسلٌ"؛ لأنّ فريسَته لا يَفلِتُ منه، أو لأنّه ممتنِع، و"الباسل الشُّجاع"، لامتناعه مِن قِرْنِه، و"هذا بَسْلٌ عليك"، أي: حرامٌ ممنوعٌ. وقد جُوّز أن يكون الضمير المجرور في ﴿بِهِۦ﴾ راجعًا إلى "الإبسال" مع عدم جَرَيان ذكره -كما في ضمير الشأن- ويكونَ الجملةُ بدلًا منه مفسِّرًا له، لِما في الإبهام أوّلًا والتفسيرِ ثانيًا مِن التفخيم وزيادةِ التقرير،

---

[١] س: يذكّرونهم.

[٢] ﴿... يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء، ١٧٦/٤].

[٣] ارتهَنَهُ: إذا أخذه رَهنًا. **تهذيب اللغة للأزهري**، ١٤٧/٦ «أبواب الهاء والراء».

كما في قوله:

علـى جُـــودِه لَـضَـــنَّ بـالـمـاء حـاتِـمِ[1]

بجرِّ "حاتم" على أنّه بدل مِن ضمير "جُوده". فالمعنى: وذَكِّرْ بارتهان النفوس وحبسِها بما كسبتْ.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ استئنافٌ مسوقٌ للإخبار بذلك. وقيل: في محلّ النصب على أنّه حال مِن ضمير ﴿كَسَبَتْ﴾، وقيل: في محلّ الرفع على أنّه وصفٌ لـ﴿نَفْسٌ﴾. والأظهَرُ أنّه حال مِن ﴿نَفْسٌ﴾، فإنّه في قوّة "نفس كافرة" أو "نفوس كثيرة"، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير، ١٤/٨١].[2] و﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بمحذوفٍ هو حال مِن ﴿وَلِيٌّ﴾، كما بُيّن في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ الآية [الأنعام، ٥١/٦]. وقيل: هو خبر لـ﴿لَيْسَ﴾، فيكون ﴿لَهَا﴾ حينئذ متعلّقًا بمحذوفٍ على البيان.

﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ أي: إن تَفْدِ تلك النفسُ ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: كلَّ فِداءٍ، على أنّه مصدر مؤكِّد. / ﴿لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ على إسناد الفعل إلى الجارّ والمجرور، لا إلى ضمير "العدل" كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛[3] فإنّه المَفدِيّ، لا المصدرُ كما نحن فيه. [٢٣٠و]

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتهم في سُوء الحال. ومحلّه الرفعُ على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾. والجملة مستأنَفة

---

[1] وفي هامش م: صدره:
على حالةٍ لو أنّ في القوم حاتِمًا
| البيت بهذه الألفاظ في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣ (مريم، ٩١/١٩)؛ واللباب لابن عادل، ٢١٣/٨؛ والمزهِر للسيوطي، ٤٥٨/١. وهو للفرزدق في ديوانه، ص ٦٠٣، وفي مطبوعه:
على ساعةٍ لو كان في القوم حاتِمٌ
على جُودِه ضَنّتْ به نفس حاتِمِ

[2] م ط س - والأظهرُ أنّه حال من ﴿نَفْسٌ﴾، فإنّه في قوّة "نفسٌ كافرةٌ" أو "نفوسٌ كثيرة"، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ ["صح" في هامشَي م س].

[3] ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة، ٤٨/٢].

سِيقَت إثرَ تحذيرهم مِن الإبسال المذكور لبيانِ أنّهم المُبتلَوْنَ بذلك، أي: أولئك المتّخِذون دينَهم لعِبًا ولهوًا المغترُّون بالحياة الدنيا، هم الذين أُسلموا إلى ما كسبوا مِن القبائح.[١]

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ استئناف آخرُ مبيِّنٌ لكيفيّة الإبسال المذكور وعاقبتِه، مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: ماذا لهم حين أُبسِلوا بما كسبوا؟ فقيل: لهم شرابٌ مِن ماءٍ مُغْلًى يتجرجَرُ في بطونهم ويتقطّع به أمعاؤهم، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بنارٍ تشتعل بأبدانهم، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم المستمرّ في الدنيا.

وقد جُوِّز أن يكون ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾... إلخ حالًا مِن ضمير ﴿أُبْسِلُوا﴾. وترتيبُ ما ذُكر مِن العذابين على كفرهم -مع أنّهم معذَّبون بسائر معاصيهم أيضًا حسبما ينطِق به قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾- لأنّه العُمدةُ في إيجاب العذاب والأهَمُّ في باب التحذير، أو أُريدَ بكفرهم ما هو أعمُّ منه، ومِن مستتبِعاته مِن المعاصي والسيّئات هذا.

وقد جُوِّز أن يكون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى النفوس المدلولِ عليها بـ﴿نَفْسٌ﴾، محلُّه الرفعُ بالابتداء، والموصولُ الثاني صفتُه أو بدلٌ منه، و﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾... إلخ خبرُه، والجملة مَسوقة لبيان تَبِعة / الإبسال. [٢٣٠ظ]

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ قيل: نزلَتْ في أبي بكر رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبدُ الرحمن إلى عبادة الأصنام؛[٢] فتوجيهُ الأمر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حينئذ للإيذان بما بينهما مِن الاتّصال والاتّحادِ تنويهًا

---

١ وفي مطبوعاته: هم الذين أُبسِلوا بما كسبوا.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤/١٥٩؛ وتفسير السمرقندي، ١/٤٧٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٦٨.

لشأن الصدّيق رضي الله عنه، أي: أنعبد متجاوِزين عبادةَ الله الجامعِ لجميع صِفات الألوهيّة التي مِن جملتها القدرةُ على النفع والضرّ ما لا يقدِر[1] على نفعنا إذا عبدناه، ولا على ضرّنا إذا تركناه، وأدنى مراتب المعبوديّة القدرةُ على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ عطفٌ على ﴿نَدْعُوا﴾، داخلٌ في حكم الإنكار والنفي، أي: ونُرَدّ إلى الشرك. والتعبير عنه بـ"الردّ على الأعقاب" لزيادة تقبيحه بتصويره بصورةِ ما هو عَلَمٌ في القُبح، مع ما فيه مِن الإشارة إلى كون الشرك حالةً قد تُركت ونُبذت وراءَ الظَّهر. وإيثار ﴿نُرَدُّ﴾ على "نرتَدُّ" لتوجيه الإنكار إلى الارتداد بردِّ الغير، تصريحًا بمخالفة المُضلّين، وقطعًا لأطماعهم الفارغةِ، وإيذانًا بأنّ الارتداد مِن غير رادٍّ ليس في حيّز الاحتمال ليُحتاجَ إلى نفيِه وإنكاره.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: إلى الإسلام، وأنقذَنا مِن الشرك، متعلِّقٌ بـ﴿نُرَدُّ﴾، مَسوقٌ لتأكيد النكير؛ لا لتحقيق معنى الردّ وتصويرِه فقط، وإلّا لَكفى أن يُقال: "بعد إذ اهتدَيْنا"، كأنّه قيل: ونُرَدّ إلى الشرك بإضلال المُضلّ بعد إذ هدانا الله الذي لا هادِيَ سِواه.

وقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ في محلّ النصب على أنّه حال مِن مرفوعِ ﴿نُرَدُّ﴾، أي: أنُرَدّ على أعقابنا مشبَّهين بالذي استهوَتْه مَرَدةُ / الجنّ [٢٣١و] واستغوَتْه إلى المَهامِهِ[2] والمهالكِ، أو على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: أنُرَدّ ردًّا مِثلَ ردّ الذي استهوَتْه... إلخ. و"الاستهواء" استفعالٌ مِن "هَوَى في الأرض" إذا ذهب فيها، كأنّها طلبت هُوِيَّه وحرصت عليه. وقُرئ: "اِسْتَهْوَاهُ"[3] بألِفٍ مُمالةٍ.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إمّا متعلِّق بـ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾، أو بمحذوفٍ هو حال مِن مفعوله، أي: كائنًا في الأرض. وكذا قوله تعالى: ﴿حَيْرَانَ﴾ حال منه على أنّها بدلٌ مِن الأولى، أو حال ثانيةٌ عند مَن يُجيزها، أو مِن ﴿ٱلَّذِى﴾، أو مِن المستكنّ في الظرف، أي: تائهًا ضالًّا عن الجادّة، لا يَدري ما يصنع.

---

١ السياق: أنعبد... ما لا يقدِر...

٢ المَهامِه: جمعُ "مَهمَهٍ"، وهو المَفازة البعيدة الأطراف. الصحاح للجوهري، «مهه».

٣ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٌ﴾ جملة في محلّ النصب على أنّها صفة لـ﴿حَيۡرَانَ﴾، أو حال مِن الضمير فيه، أو مستأنَفة سِيقَت لبيان حاله. وقوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾ صفة لـ﴿أَصۡحَٰبٌ﴾، أي: لذلك المستهوَى رُفْقةٌ يهدُونه إلى الطريق المستقيم، تسميةً له بالمصدر مبالغةً، كأنّه نفس الهدى. ﴿ٱئۡتِنَا﴾ على إرادة "القول"، على أنّه بدل مِن ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ﴾، أو حال مِن فاعله، أي: يقولون: «ائتِنا». وفيه إشارة إلى أنّهم مهتَدون ثابتون على الطريق المستقيم، وأنّ مَن يدعونه ليس ممّن يعرِف الطريق المستقيم ليُدعى إلى إتيانه، وإنّما يُدرِك سَمْتَ الداعي وموردَ النعيق فقط.

[٢٣١ظ] ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي هدانا إليه، وهو الإسلام، ﴿هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ / وحدَه، وما عَداه ضلالٌ محضٌ وغَيٌّ بحتٌ، كقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس، ٣٢/١٠] ونحوه. وتكرير الأمر للاعتناء بشأن المأمور به، ولأنّ ما سبق للزجر عن الشرك، وهذا حثٌّ على الإسلام. وهو توطِئة لِما بعده؛ فإنّ اختصاص الهدى بهُداه تعالى ممّا يوجِب الامتثالَ بالأوامر الواردة بعده.

﴿وَأُمِرۡنَا﴾ عطفٌ على ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾، داخلٌ تحت القول. و"اللام" في: ﴿لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لتعليل الأمر المَحكيّ وتعيينِ ما أُريدَ به مِن الأوامر الثلاثة، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا﴾ الآية [إبراهيم، ٣١/١٤]، كأنّه قيل: أُمِرنا، وقيل لنا: "أَسلِموا" لأجل أن نُسلِمَ. وقيل: هي بمعنى "الباء"، أي: أُمِرنا بأنْ نُسلِم، وقيل: زائدةٌ، أي: أُمِرنا أن نُسلِم، على حذف "الباء".

وقوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: الله تعالى في مخالفة أمره، عطفٌ على ﴿نُسۡلِمَ﴾ على الوجوه الثلاثة، على أنّ ﴿أَنۡ﴾ المصدريّةَ إذا وُصلت بالأمر يتجرّد هو عن معنى الأمر نحو تجرّدِ الصلة الفعليّة عن معنى المُضِيّ والاستقبال؛ فالمعنى على الأوّل: أُمِرنا، أي: قيل لنا: "أَسلِموا وأَقِيموا الصلاةَ واتّقوا الله" لأجل أن نُسلِم ونُقيمَ الصلاة ونتّقِيَه تعالى، وعلى الأخيرين: أُمِرنا بأنْ نُسلِم ونُقيمَ الصلاة ونتّقِيَه تعالى.

والتعرّض لوصف رُبوبيّته تعالى للعالَمِين لتعليل الأمر وتأكيدِ وجوب الامتثال به، كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ جملة مستأنفة موجِبةٌ للامتثال بما أُمِر به مِن الأمور الثلاثة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

[٢٣٢و] / ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أُريدَ يخلقهما خلقُ ما فيهما أيضًا، وعدمُ التصريح بذلك لظهور اشتمالهما على جميع العُلوِيّات والسُفلِيّات. وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ هو حال مِن فاعل ﴿خَلَقَ﴾، أو مِن مفعوله، أو صفة لمصدره المؤكِّدِ له، أي: قائمًا بالحقّ، أو ملتبِسةً بالحقّ، أو خلقًا ملتبِسًا به.

وقوله[١] تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ استئناف ببيانِ أنّ خلقه تعالى لِما ذُكر مِن السماوات والأرض ليس ممّا يتوقّف على مادّة أو مدّةٍ؛ بل يتِمّ بمحض الأمر التكوينيّ مِن غير توقّف على شيء آخَرَ أصلًا، وأنّ ذلك الأمرَ المتعلِّقَ بكلّ فردٍ فردٍ مِن أفراد المخلوقات في حينٍ معيَّنٍ مِن أفراد الأحيان حقٌّ في نفسه متضمِّنٌ للحكمة.

و﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ لمضمون جملة ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾، و"الواو" بحسَب المعنى داخلة[٢] عليها، وتقديمُه عليها للاعتناء به مِن حيث إنّه مدار الحقّيّة، وتركُ ذكر المَقول له للثقةِ بغاية ظهوره، والمراد بـ"القول" كلمةُ ﴿كُن﴾ تحقيقًا أو تمثيلًا كما هو المشهور؛ فالمعنى: وأمرُه المتعلِّقُ بكلّ شيء يريد خلقَه مِن الأشياء في حين تعلّقِه به لا قبله ولا بعده مِن أفراد الأحيان الحقُّ،[٣] أي: المشهودُ له بالحقّيّة المعروفُ بها.

هذا، وقد قيل: ﴿قَوْلُهُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفتُه، و﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ خبرُه مقدَّمًا عليه، كقولك: "يومَ الجُمُعة القتالُ"، وانتصابُه بمعنى الاستقرار، وحاصلُ المعنى:

---

١ ط س: قوله.

٢ س: داخل.

٣ السياق: وأمرُه... الحقُّ.

قولُه[١] الحقُّ كائنٌ حين يقول لشيء مِن الأشياء: ﴿كُن﴾، فيكون ذلك الشيء. وقيل: ﴿يَوۡمَ﴾ منصوب بالعطف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أو على الضمير في ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾،[٢] أو بمحذوف دلَّ عليه ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾،[٣] و﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّ﴾ مبتدأ وخبر، أو فاعلُ ﴿يَكُونُ﴾ على معنى: حين يقول لِقوله الحقِّ، أي: لقضائِه الحقِّ: ﴿كُن﴾، فيكون، والمراد: حين يكوِّن الأشياءَ ويُحدِثها، أو حين يقوم القيامة، فيكون التكوين حشرَ الأجساد وإحياءَها. فتأمَّلْ حقَّ التأمّل.

﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ تقييدُ اختصاص المُلك به تعالى بذلك اليوم -مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات- لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازيّة الكائنةِ في الدنيا المصحِّحةِ للمالكيّة المجازيّةِ في الجملة، كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر، ١٦/٤٠]. ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ أي: هو عالِمُهما. ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في كلِّ ما يفعله. ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ بجميع الأمور الجليّة والخفيّة.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤﴾

[٢٣٢ظ] ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ / منصوب على المفعوليّة بمضمَرٍ خُوطِبَ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم معطوفٍ على: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ﴾؛[٤] لا على: ﴿أَقِيمُواْ﴾[٥] كما قيل، لفساد المعنى، أي: واذكُرْ لهم بعد ما أنكرتَ عليهم عبادةَ ما لا يقدِر على نفع وضُرّ، وحقّقتَ أنّ الهدى هو هدى الله تعالى وما يتبَعُه مِن شئونه تعالى، وقتَ قولِ إبراهيمَ الذي يدّعون أنّهم على مِلّته موبِّخًا ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ على عبادة الأصنام؛ فإنّ ذلك ممّا يبكِّتهم وينادي بفساد طريقتهم. وتوجيه الأمر بالذِّكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مِن الحوادث -مع أنّها المقصودةُ- لِما مرّ مِرارًا مِن المبالغة في إيجاب ذكرها.

---

[١] ط س: وقوله.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] ط س: الحقّ. | وفي هامش م: كأنّه قيل: وحين يكوِّن ويقدِّر يقوم بالحقّ. في اللباب. «منه». | اللباب لابن عادل، ٢٢٤/٨.

[٤] الأنعام، ٧١/٦.

[٥] الأنعام، ٧٢/٦.

و﴿ءَازَرَ﴾ بزِنَةِ "آدم" و"عابَر" و"عازَر" و"فالَغ"، وكذلك "تارَخ"، ذكَرَه محمّد بنُ إسحاقَ والضحّاك والكلبي،[١] وكان مِن قريةٍ مِن سَوَاد الكوفة، ومنعُ صَرْفِه للعُجمة والعَلَميّة. وقيل: اسمُه بالسُّريانيّة: "تارَخ"، و﴿ءَازَرَ﴾ لَقَبُه المشهورُ. وقيل: اسمُ صنمٍ لُقِّب هو به للُزومِه عبادتَه. فهو عطفُ بيانٍ لـ﴿أَبِيهِ﴾، أو بدلٌ منه. وقال الضحّاك: «معناه: الشيخ الهَرِم».[٢] وقال الزجّاج: «المُخطِئ».[٣] وقال الفرّاء وسليمان التيمي:[٤] «المعوَجُّ»،[٥] فهو نعتٌ له كما إذا جُعل مشتَقًّا مِن "الأَزْرِ" أو "الوِزر"، أو أريدَ به "عابِدُ آزَرَ" على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه. وقُرئ: "آزَرُ"[٦] على النداء، وهو دليلُ العَلَميّة؛ إذ لا يُحذَف حرف النداء إلّا مِن الأعلام.

﴿أَتَتَّخِذُ﴾ متعَدٍّ إلى مفعولَين، هما: ﴿أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾، أي: أتجعلها لنفسِك آلهةً، على توجيه الإنكار إلى اتّخاذ الجنس مِن غير اعتبار الجمعيّة، وإنّما إيرادُ صيغة الجمع باعتبار الوقوع. وقُرئ: "أَأَزْرًا" بفتح الهمزة[٧] وكسرِها[٨] بعد همزة الاستفهام وزاءٍ ساكنةٍ وراءٍ منوَّنةٍ مفتوحةٍ،[٩] وهو اسمُ صنمٍ، ومعناه: أتعبُدُ أَزْرًا؟،

---

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٦٠/٤؛ **التفسير البسيط** للواحدي، ٢٣٤/٨؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٣٢/٨. وفي الأخيرَين "تارَح" بالحاء المهمَلة.

٢ **تفسير القرطبي**، ٢٢/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٢٩/٨.

٣ **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ٢٦٥/٢.

٤ هو سليمان بن طَرْخان التيمي، أبو المعتمر (ت. ١٤٣هـ/٧٦١م). تابعيّ، محدّث البصرة في عصره، انتقل إليها مِن اليمن. كان عابدًا يصلّي الليل كلّه، وكان هو وابنه المعتمر يدوران بالليل في المساجد، فيصلّيان مرّةً في هذا المسجد، ومرّةً في هذا المسجد حتّى يُصبحَا. تُوفّي بالبصرة. روى عن أنس بن مالك، وعن أبي عثمان النهدي وطاوس وأبي مِجلَز ويحيى بن يَعمَر وبكر بن عبد الله المُزَني وبَرَكَة أبي الوليد وقتادة، وخلق. وحدّث عنه أبو إسحاق السَّبِيعي أحدُ شيوخه، وابنه المعتمر وشُعبة وسفيان وحمّاد بن سلمة ويزيد بن زُرَيع، وخلق سِواهم. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٥٢/٧؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٩٥/٦-٢٠٢.

٥ **معاني القرآن** للفرّاء، ٣٤٠/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٢٩/٨.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان التيمي. **المحتسَب** لابن جنّي، ٢٢٣/١.

٧ أي: "أَأَزْرًا"، هي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. **المحتسَب** لابن جنّي، ٢٢٣/١.

٨ أي: "أَإِزْرًا"، هي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي إسماعيل رجلٍ مِن أهل الشام. **المحتسَب** لابن جنّي، ٢٢٣/١.

٩ ط س: منصوبة. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

ثمّ قيل: تتّخِذُ أصنامًا آلهةً؟، تثبيتًا لذلك وتقريرًا، وهو داخلٌ تحت الإنكار لكونه بيانًا له. وقيل: الأَزْرُ: القوّة، والمعنى: أَلِأَجْلِ القوّة والمظاهَرةِ تتّخِذ أصنامًا آلهةً؟، إنكارًا لتعزُّزِه بها، على طريقة قوله عزّ وجلّ: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾.[1]

[٢٣٣و] / ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ﴾ الذين يتّبعونك في عبادتها، ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ عن الحقّ ﴿مُّبِينٖ﴾ أي: بيّنٌ كونُه ضلالًا، لا اشتباهَ فيه أصلًا. والرؤية إمّا عِلميّة، فالظرف مفعولها الثاني، وإمّا بَصَريّة، فهو حال مِن المفعول. والجملة تعليل للإنكار والتوبيخ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ هذه الإراءة مِن الرؤية البَصَرية المستعارةِ للمعرفة ونظرِ البصيرة، أي: عرّفناه وبصّرناه. وصيغة الاستقبال حكايةٌ للحال الماضية لاستحضار صورتها. و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿نُرِيٓ﴾، لا إلى إراءةٍ أخرى مفهومةٍ مِن قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾.[2] وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلُوّ درجة المشار إليه وبُعدِ منزلته في الفضل وكمالِ تميّزِه بذلك وانتظامِه بسببه في سلك الأمور المشاهَدة.

و"الكاف" لتأكيدِ ما أفاده اسم الإشارة مِن الفخامة، ومحلُّها في الأصل النصبُ على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، وأصل التقدير: "نُري إبراهيمَ إراءةً كائنةً مثلَ تلك الإراءة"، فقُدّم على الفعل لإفادة القَصر، واعتُبِرت "الكافُ" مقحَمةً للنكتة المذكورة، فصار المشارُ إليه نفسَ المصدر المؤكِّد، لا نعتًا له، أي: ذلك التبصيرَ البديعَ نُبصِّره عليه السلام ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: رُبوبيّتَه تعالى ومالكيّتَه لهما وسلطانَه القاهرَ عليهما وكونَهما بما فيهما مربوبًا ومملوكًا له تعالى؛ لا تبصيرًا آخَرَ أدنى منه.

---

[1] ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء، ٤/١٣٩].

[2] في الآية السابقة.

[٢٣٣ظ] / و"المَلَكوت" مصدر على زِنة المبالغة كـ"الرَّهَبوت" و"الجَبَروت"، ومعناه: المُلك العظيم والسلطان القاهر.[١] ثمّ هل هو مختصّ بمُلك الله عزَّ سلطانه أو لا؟ فقد قيل وقيل. والأوّل هو الأظهر، وبه قال الراغب.[٢] وقيل: مَلَكوتهما: عجائبُهما وبدائعُهما. رُوي أنّه كُشف له عليه السلام عن السماوات والأرض حتّى العرش وأسفل الأرَضِين.[٣] وقيل: آياتُهما. وقيل: مَلَكوت السماوات: الشمس والقمر والنجوم، ومَلَكوت الأرض: الجبال والأشجار والبِحار.

وهذه الأقوال لا تقتضي أن تكون الإراءةُ بَصَريّةً؛ إذ ليس المرادُ بإراءةِ ما ذُكر مِن الأمور الحِسّيّة مجرَّدَ تمكينه عليه السلام مِن إبصارها ومشاهدتها في أنفُسِها؛ بل اطّلاعُه عليه السلام على حقائقها، وتعريفُها مِن حيث دلالتُها على شئونه عزّ وجلّ. ولا ريبَ في أنّ ذلك ليس ممّا يُدرَك حِسًّا كما يُنبئ عنه اسم الإشارة المفصِحُ عن كون المشار إليه أمرًا بديعًا، فإنّ الإراءة البَصَريّة المعتادةَ بمَعزِلٍ مِن تلك المثابة.

وقُرِئ: "تُرِي"[٤] بالتاء وإسنادِ الفعل إلى "المَلَكوت"، أي: تبصِّره عليه السلام دلائلَ الربوبيّة.

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ متعلّقة بمحذوف مؤخَّر، والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبلها، أي: وليكونَ مِن زُمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجةَ عين اليقين مِن معرفة الله تعالى نفعل ما نفعل[٥] مِن التبصير البديع المذكورِ، لا لأمرٍ آخرَ، فإنّ الوصول إلى تلك الغاية القاصية كمالٌ مترتِّبٌ على ذلك التبصير، لا عينُه، وليس القَصر لبيان انحصار فائدته في ذلك؛ كيف لا، وإرشادُ الخلق وإلزامُ المشركين -كما سيأتي- مِن فوائده بلا مِرْية؛ بل لبيانِ أنّه الأصل الأصيل / والباقي مِن مستتبِعاته. [٢٣٤و]

---

١ وفي هامش م: الراغب.

٢ المفردات للراغب، ص ٧٧٥ «ملك».

٣ رواه مجاهد وسعيد بن جبير كما في التفسير البسيط للواحدي، ٢٣٧/٨. وهو بمعناه في جامع البيان للطبري، ٣٤٩/٩-٣٥٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر في رواية الشيرزي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧١. وهي غير القراءة المشهورة عن أبي جعفر.

٥ م ط س: فعلنا ما فعلنا [صُحّح في هامش م].

وقيل: هي متعلِّقة بالفعل السابق، والجملة معطوفة على علّة أخرى محذوفةٍ ينسحب عليها الكلامُ، أي: ليستدِلَّ بها وليكونَ... إلخ؛ فينبغي أن يُراد بمَلَكوتهما بدائعُهما وآياتُهما؛ لأنّ الاستدلال مِن غايات إراءَتِها، لا مِن غايات إراءة نفس الربوبيّة.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ على الأوّل -وهو الحقّ المبين- عطفٌ على ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾،[١] داخلٌ تحت ما أُمر بذكره بالأمر بذكر وقته، وما بينهما اعتراض مقرِّر لِما سبق وما لحِق؛ فإنّ تعريفه عليه السلام ربوبيّتَه ومالكيّتَه للسماوات والأرض وما فيهما، وكونَ الكلّ مقهورًا تحت مَلَكوته مفتقِرًا إليه في الوجود، وسائرَ ما يترتّب عليه مِن الكمالات، وكونَه مِن الراسخين في معرفة شئونه تعالى الواصلين إلى ذروة عينِ اليقين، ممّا[٢] يَقضي بأنْ يحكُم عليه السلام باستحالة إلهيّة ما سِواه سبحانه مِن الأصنام والكواكب. وعلى الثاني هو تفصيل لِما ذُكر مِن إراءة مَلَكوت السماوات والأرض، وبيانٌ لكيفيّة استدلاله عليه السلام ووصولِه إلى رُتبة الإيقان. ومعنى ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾: ستَرَه بظَلامه.

وقوله تعالى: ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ جوابُ ﴿لَمَّا﴾، فإنّ رؤيتَه إنّما تتحقّق بزوال نور الشمس عن الحِسّ. وهذا صريح في أنّه لم يكن في ابتداء الطلوع؛ بل كان غَيبتُه عن الحِسّ بطريق الاضمحلال بنور الشمس. والتحقيق أنّه كان / قريبًا مِن الغروب كما ستعرفه. قيل: كان ذلك الكوكبُ هو الزُّهَرَةَ، وقيل: هو المشتري. [٢٣٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن الشرطيّة السابقة المتفرّعةِ على بيان إراءَتِه عليه السلام مَلَكوتَ السماوات والأرض، فإنّ ذلك ممّا يحمِل السامعَ على استكشاف ما ظهر منه عليه السلام مِن آثار تلك الإراءة وأحكامِها، كأنّه قيل: فماذا صنع عليه السلام حين رأى الكوكب؟ فقيل: قال على سبيل الوضع والفرضِ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، مجاراةً مع أبيه وقومِه

---

[١] الأنعام، ٧٤/٦.

[٢] خبر "إنّ".

الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإنّ المستدِلّ على فساد قولٍ، يحكيه على رأي خصمه، ثمّ يكُرُّ عليه بالإبطال. ولعلّ سلوكَ هذه الطريقة في بيان استحالة ربوبيّة الكوكب دون بيانِ استحالة إلهيّة الأصنام لِما أنّ هذا أخفى بُطلانًا واستحالةً مِن الأوّل، فلو صدَعَ بالحقّ مِن أوّل الأمر -كما فعله في حقّ عبادة الأصنام- لَتَماذَوْا في المكابرة والعناد، ولَجُّوا في طُغيانهم يعمَهون.

وقيل: قاله عليه السلام على وجه النظر والاستدلال، وكان ذلك في زمان مراهَقتِه وأوّلِ أوانِ بلوغه. وهو مبنيّ على تفسير "المَلَكوت"[١] بآياتهما، وعطفِ قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ﴾[٢] على ما ذُكر مِن العلّة المقدَّرة، وجعلِ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾... إلخ تفصيلًا لِما ذُكر مِن الإراءة وبيانًا لكيفيّة الاستدلال. وأنت خبير بأنّ كلّ ذلك ممّا يُخِلّ بجزالة النظم الجليل وجلالةِ منصِب الخليل عليه السلام.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غرَبَ، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ أي: الأربابَ المنتقِلين مِن مكان إلى مكان، المتغيّرين مِن حال إلى حال، / المحتجِبين بالأستار؛ فإنّهم بمَعزِل مِن استحقاق الربوبيّة قطعًا. [٢٣٥و]

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: مبتدِئًا في الطلوع إثرَ غروب الكوكب، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ على الأسلوب السابق. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ كما أفَلَ النجمُ، ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾ إلى جَنابه الذي هو الحقّ الذي لا مَحيدَ عنه، ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فإنّ شيئًا ممّا رأيتُه لا يَليق بالربوبيّة. وهذا مبالغة منه عليه السلام في إظهار النَّصَفة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

ولعلّه عليه السلام كان إذ ذاك في موضِعٍ كان في جانبه الغربيّ جبلٌ شامخٌ يستَتِر به الكوكب والقمر وقتَ الظُّهْر مِن النهار أو بعده بقليل، وكان الكوكب قريبًا منه، وأُفُقُه الشرقيُّ مكشوفٌ أوّلًا؛ وإلّا فطلوعُ القمر بعد أُفول الكوكب، ثمّ أفولُه قبل طلوع الشمس كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي: مبتدِئةً في الطلوع، ممّا لا يكاد يُتصوّر.

﴿قَالَ﴾ أي: على النهج السابق: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ وإنّما لم يؤنّث لِما أنّ المشار إليه والمحكومَ عليه بالربوبيّة هو الجِرْم المشاهَدُ مِن حيث هو، لا مِن حيث هو مسمّى باسمٍ مِن الأسامي، فضلًا عن حيثيّة تسميتِه بالشمس، أو لتذكير الخبر وصيانةِ الربّ عن وَضمة التأنيث.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾ تأكيد لِما رامَه عليه السلام مِن إظهار النَّصَفة، مع إشارة خفِيّة إلى فساد دينهم مِن جهة أخرى ببيانِ أنّ الأكبر أحقُّ بالربوبيّة مِن الأصغر. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ هي أيضًا كما أفل الكوكب والقمر، ﴿قَالَ﴾ مخاطِبًا للكلّ صادعًا بالحقّ بين أظهُرِهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: مِن الذي تُشركونه مِن الأجرام المحدَثة المتغيّرةِ مِن حالة إلى أخرى / المسخَّرة لمحدِثِها، أو مِن إشراككم. [٢٣٥ظ]

وترتيب هذا الحُكم ونظيرَيْهِ على الأُفول دون البُزوغ والظهور مِن ضروريّات سَوْق الاحتجاج على هذا المَساق الحكيم؛ فإنّ كلًّا منهما، وإن كان في نفسه انتقالًا منافِيًا لاستحقاق معروضه للربوبيّة قطعًا، لكنْ لمّا كان الأوّلُ حالةً موجِبةً لظهور الآثار والأحكامِ ملائِمةً لتوهّمِ الاستحقاق في الجملة، رُتّب عليها الحُكم الأوّل على الطريقة المذكورة، وحيث كان الثاني حالةً مقتضِيةً لانطماس الآثار وبُطلانِ الأحكام المنافِيَين للاستحقاق المذكور مُنافاةً بيّنةً يكاد يعترف بها كلُّ مكابِرٍ عنيدٍ، رُتّب عليها ما رُتّب.

ثمّ لمّا تبرّأ عليه السلام منهم توجّهَ إلى مُبدِع هذه المصنوعات ومُنشئِها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ التي هذه الأجرام التي تعبدونها مِن أجزائها، ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ التي تَغيب هي فيها، ﴿حَنِيفٗا﴾ أي: مائلًا عن الأديان الباطلة والعقائدِ الزائغة كلِّها، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ في شيء مِن الأفعال والأقوال.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ أي: شرَعوا في مغالبته في أمر التوحيد. ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكاية مُحاجَّتهم، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام حين حاجُّوه؟ فقيل: قال[1] منكِرًا لِما اجترءُوا عليه مِن مُحاجَّته عليه السلام مع قصورهم عن تلك الرُّتبة وعزّةِ المطلَب / وقوّةِ الخصم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ [٢٣٦و] بإدغام نُون الجمع في نُون الوِقاية. وقُرئ بحذف الأولى.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِ﴾ حال مِن ضمير المتكلِّم، مؤكِّدةٌ للإنكار؛ فإنّ كونه عليه السلام مَهدِيًّا مِن جهة الله عزّ وجلّ[3] ومؤيَّدًا مِن عنده، ممّا يوجِب استحالةَ مُحاجَّتِه عليه السلام، أي: أتجادلونني في شأنه تعالى ووحدانيّتِه والحالُ أنّه تعالى هَداني إلى الحقّ بعد ما سلكتُ طريقتَكم بالفرض والتقديرِ وتبيَّنَ بُطلانُها تبيّنًا تامًّا كما شاهَدتموه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦ﴾ جوابٌ عمّا خَوَّفوه عليه السلام في أثناء المُحاجّة مِن إصابة مكروه مِن جهة أصنامهم كما قال لهودٍ عليه السلام قومُه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود، ٥٤/١١]. ولعلّهم فعلوا ذلك حين فعل عليه السلام بآلهتِهم ما فعل. و﴿مَا﴾ موصولة اسميّة حُذف عائدُها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأوقات، أي: لا أخاف ما تُشركونه به سبحانه مِن معبوداتِكم في وقت مِن الأوقات إلّا في وقت مشيئته تعالى شيئًا مِن إصابة مكروهٍ بي مِن جهتها، وذلك إنّما هو مِن جهته تعالى مِن غير دَخْلٍ لآلهتِكم فيه أصلًا. وفي التعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إظهارٌ منه لانقيادِه لحُكمه سبحانه وتعالى، واستسلامٌ لأمره، واعترافٌ بكونه تحت مَلَكوتِه وربوبيّتِه تعالى.

---

[1] م س - قال ["صح" في هامش م س].

[2] وفي هامش م: على رأي سيبويه. | أي: "أتُحَاجُوني"، وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٦١؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٩-٢٦٠.

[3] س: عز سلطانه.

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ كأنّه تعليل للاستثناء، أي: أحاط بكلّ شيء علمًا، فلا يبعُد أن يكون في علمه تعالى أن يَحيق بي مكروهٌ مِن قِبَلها بسبب مِن الأسباب. وفي الإظهار في موقع الإضمار تأكيدٌ للمعنى المذكور واستلذاذٌ بذِكره تعالى.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتُعرِضون عن التأمّل في أنّ آلهتَكم جماداتٌ غيرُ قادرةٍ على شيء ما مِن نفع ولا ضُرّ، فلا تتذكّرون أنّها غير قادرة على إضراري؟ وفي إيراد التذكّر دون التفكّر ونظائرِه إشارةٌ / إلى أنّ أمر أصنامهم مركوزٌ في العقول، لا يتوقّف إلّا على التذكّر. [٢٣٦ظ]

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لنفي الخوف عنه عليه السلام بحسَب زعم الكفَرة بالطريق الإلزاميّ كما سيأتي، بعد نفيه عنه بحسَب الواقع ونفسِ الأمر. والاستفهام لإنكار الوقوع ونفيِه بالكلّيّة كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة، ٧/٩]؛ لا لإنكار الواقع واستبعادِه مع وقوعه كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾... إلخ[١] [البقرة، ٢٨/٢].

وفي توجيه الإنكار إلى كيفيّة الخوف مِن المبالغة ما ليس في توجيهه إلى نفسه بأنْ يُقال: "أأخافُ"، لِما أنّ كلّ موجود يجب أن يكون وجودُه على حال مِن الأحوال وكيفيّةٍ مِن الكيفيّات قطعًا، فإذا انتفى جميعُ أحواله وكيفيّاتِه فقد انتفى وجودُه مِن جميع الجِهات بالطريق البرهانيّ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ حال مِن ضمير ﴿أَخَافُ﴾ بتقدير مبتدأ، و"الواوُ" كافية في الربط مِن غير حاجة إلى الضمير العائد إلى ذي الحال. وهو مقرِّر لإنكار الخوف ونفيِه عنه عليه السلام، ومفيدٌ لاعترافهم بذلك؛

---

١ س: الآية.

فإنّهم حيث لم يخافوا في محلّ الخوف، فلأنْ لا يخافَ عليه السلام في محلّ الأمن أَولى وأحرى، أي: وكيف أخاف أنا ما ليس في حيّز الخوف أصلًا، وأنتم لا تخافون غائلةَ ما هو أعظَمُ المخوفات وأهوَلُها، وهو إشراككم بالله الذي ليس كمثله شيءٌ في الأرض ولا في السماء ما هو مِن جملة مخلوقاته. وإنّما عُبّر عنه بقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي: بإشراكه، ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ على طريقة التهكّم، / مع الإيذان بأنّ الأمور الدينيّة لا يُعوَّل فيها إلّا على الحُجّة المنزَّلة مِن عند الله تعالى. وفي تعليق الخوف الثاني بإشراكهم مِن المبالغة ومراعاةِ حُسن الأدب ما لا يخفى. [٢٣٧و]

هذا، وأمّا ما قيل مِن أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾... إلخ معطوفٌ على ﴿أَخَافُ﴾، داخلٌ معه في حكم الإنكار والتعجيبِ، فممّا لا سبيلَ إليه أصلًا لإفضائه إلى فساد المعنى قطعًا؛ كيف لا، وقد عرفتَ أنّ الإنكار بمعنى النفي بالكلّيّة، فيئول المعنى إلى نفي الخوف عنه عليه السلام ونفيِ نفيِه عنهم؛ وإنّه بيّنُ الفساد.

وحملُ الإنكار في الأوّل على معنى نفي الوقوع وفي الثاني على استبعاد الواقع، ممّا لا مَساغَ له، على أنّ قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ ناطقٌ ببُطلانه حتمًا؛ فإنّه كلام مرتَّب على إنكار خوفه عليه السلام في محلّ الأمن مع تحقّق عدم خوفهم في محلّ الخوف، مَسوقٌ لإلجائهم إلى الاعتراف باستحقاقه عليه السلام لِما هو عِليه مِن الأمن، وبعدم استحقاقهم لِما هم عليه.

وإنّما جِيءَ بصيغة التفضيل المشعِرةِ باستحقاقهم له في الجملة لاستنزالهم عن رُتبة المكابرة والاعتسافِ بسَوق الكلام على سَنَنِ الإنصاف. والمراد بـ﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ الفريقُ الآمِنُ في محلّ الأمن والفريقُ الآمِنُ في محلّ الخوف. فإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يُقال: "فأيُّنا أحَقُّ بالأمن، أنَا أم أنتم؟" لتأكيد الإلجاء إلى الجواب الحقّ بالتنبيه على علّة الحُكم، والتفادي عن التصريح بتَخطِئتهم، لا لمجرَّدِ الاحتراز عن تزكية النفس.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ المفعول إمّا محذوف تعويلًا على ظهوره / بمَعُونة المقام، أي: إن كنتم تعلمون مَن أحقُّ بذلك، أو قصدًا إلى التعميم، أي: [٢٣٧ظ]

إن كنتم تعلمون شيئًا، وإمّا متروكٌ بالمرّة، أي: إن كنتم مِن أُولي العلم. وجواب الشرط محذوف، أي: فأخبِروني.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استئناف مِن جهته تعالى، مبيِّنٌ للجواب الحقّ الذي لا مَحيدَ عنه، أي: الفريقُ الذين آمنوا ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم﴾ ذلك، أي: لم يخلِطوه ﴿بِظُلْمٍ﴾، أي: بشركٍ كما يفعله الفريق المشركون، حيث يزعُمون أنّهم يؤمنون بالله عزّ وجلّ، وأنّ عبادتهم للأصنام مِن تَتِمّات إيمانهم وأحكامِه لكونها لأجل التقريب والشفاعة كما قالوا: «إنّما نعبدهم لِيُقرّبونا إلى الله زُلفى»،[١] وهذا معنى الخَلْط.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول مِن حيث اتّصافُه بما في حيّز الصلة. وفي الإشارة إليه بعد وصفه بما ذُكر إيذانٌ بأنّهم تميّزوا بذلك عن غيرهم، وانتظموا في سلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعُلُوّ دَرَجتهم وبُعدِ منزلتهم في الشَّرَف. وهو مبتدأ ثانٍ، وقوله تعالى:[٢] ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ جملة مِن خبرٍ مقدَّمٍ ومبتدإٍ مؤخَّرٍ، وقعت خبرًا لـ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾، وهو مع خبره خبرٌ للمبتدأ الأوّل الذي هو الموصول.

ويجوز أن يكون ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ بدلًا مِن الموصول أو عطفَ بيانٍ له، و﴿لَهُمُ﴾ خبرًا للموصول، و﴿ٱلْأَمْنُ﴾ فاعلًا للظرف لاعتماده على المبتدأ. ويجوز أن يكون ﴿لَهُمُ﴾ خبرًا مقدَّمًا، و﴿ٱلْأَمْنُ﴾ مبتدأً، والجملةُ خبرًا للموصول. ويجوز أن يكون ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأً ثانيًا، / [٢٣٨و] و﴿لَهُمُ﴾ خبرَه، و﴿ٱلْأَمْنُ﴾ فاعلًا له، والجملةُ خبرًا للموصول، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن الإيمان الخالص عن شَوْب الشرك لهم الأمنُ فقط، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى الحقّ، ومَن عَداهم في ضلال مبين.

رُوي أنّه لمّا نزلت الآيةُ شَقَّ ذلك على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وقالوا: «أيُّنا لم يظلِم نفسَه؟»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «ليس ما تظنّون،

---

[١] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر، ٣/٣٩].

[٢] س - تعالى.

إنّما هو ما قال لقمانُ لابنِه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان، ١٣/٣١]».[1] وليس الإيمان به أن يصدَّق بوجود الصانع الحكيم ويُخلَطَ بهذا التصديق الإشراكُ به، وليس مِن قضيّة الخلط بقاءُ الأصل بعد الخلط حقيقةً. وقيل: المراد بـ"الظلم" المعصية التي تُفسِّق صاحبَها. والظاهر هو الأوّل لوروده موردَ الجواب عن حال الفريقَين.

﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾

﴿وَتِلۡكَ﴾ إشارة إلى ما احتجّ به إبراهيمُ عليه السلام مِن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ [الأنعام، ٧٦/٦-٧٩]، وقيل: مِن قوله تعالى: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام، ٨٠/٦-٨٢]. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد لتفخيم شأن المشار إليه والإشعارِ بعُلُوِّ طبقته وسُمُوِّ منزلته في الفضل. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿حُجَّتُنَآ﴾ خبرُه. وفي إضافتها إلى نُون العَظَمة مِن التفخيم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: أرشدناه إليها، أو علّمناه إيّاها، في محلّ النصب على أنّه حال مِن ﴿حُجَّتُنَآ﴾، والعامل فيها معنى الإشارة كما في قوله تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ / بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل، ٥٢/٢٧]، أو في محلّ الرفع [٢٣٨ظ] على أنّه خبر ثانٍ، أو هو الخبر، و﴿حُجَّتُنَآ﴾ بدلٌ أو بيانٌ للمبتدأ. و﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ مفعول أوّل لـ﴿ءَاتَيۡنَا﴾، قُدِّم عليه الثاني لكونه ضميرًا. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ متعلِّق بـ﴿حُجَّتُنَآ﴾ إن جُعل خبرًا لـ﴿تِلۡكَ﴾، أو بمحذوفٍ إن جُعل بدلًا، أي: آتينا إبراهيمَ حجةً على قومه. وقيل: بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَا﴾.

﴿نَرۡفَعُ﴾ بنُون العَظَمة. وقُرئ بالياء[2] على طريقة الالتفات، وكذا الفعل الآتي.[3] ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ أي: رُتَبًا عظيمةً عاليةً مِن العلم والحكمة. وانتصابها على المصدريّة، أو الظرفيّة، أو على نزع الخافض، أي: إلى دَرَجات، أو على التميز.

---

[1] صحيح البخاري، ١٨/٩ (٦٩٣٧)؛ صحيح مسلم، ١١٤/١ (١٢٤)، كلاهما باختلاف يسير. والألفاظ من أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٠/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٠.

[3] أي: وكذا قُرئ الفعل الآتي: "مَنْ يَشَاءُ"، بالياء.

والمفعول قوله تعالى: ﴿مَن نَّشَآءُ﴾، وتأخيره على الوجوه الثلاثة الأخيرةِ[١] لِما مرّ مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

ومفعول المشيئة محذوف، أي: مَن نشاء رفْعَه حسبما يقتضيه الحكمة ويستدعيه المصلحة. وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على أنّ ذلك سنّة مستمرّة، جاريةٌ فيما بين المُصطفَينَ الأخيارِ، غيرُ مختصّة بإبراهيمَ عليه السلام. وقُرئ بالإضافة إلى ﴿مَن﴾.[٢] والجملة مستأنَفة مقرِّرةٌ لِما قبلها، لا محلَّ لها مِن الإعراب. وقيل: هي في محلّ النصب على أنّها حال مِن فاعل ﴿ءَاتَيْنَا﴾، أي: حالَ كوننا رافعين... إلخ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في كلّ ما فعل مِن رفع وخفض ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال مَن يرفعه واستعداده له على مراتبَ متفاوتةٍ. والجملة تعليل لِما قبلها. وفي وضع "الربّ" مضافًا إلى ضميره عليه السلام موضِعَ نُون العَظَمة بطريق الالتفات في تضاعيف بيان أحوال إبراهيمَ عليه السلام، إظهارٌ لمزيد لطفٍ وعنايةٍ به صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ / عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾... [٢٣٩و] إلخ،[٣] فإنّ عطفَ كلٍّ مِن الجملة الفعليّة والاسميّة على الأخرى ممّا لا نزاعَ في جوازه. ولا مساغَ لعطفه على ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾؛[٤] لأنّ له محلًّا مِن الإعراب نصبًا ورفعًا حسبما بُيِّن مِن قبلُ، فلو عُطف هذا عليه لَكان في حُكمه مِن الحاليّة والخبريّة المستدعِيَتَين للرابط، ولا سبيلَ إليه ههنا.

﴿كُلًّا﴾ مفعول لِما بعده، وتقديمه عليه للقَصر؛ لكنْ لا بالنسبة إلى غيرهما مطلَقًا؛ بل بالنسبة إلى أحدهما، أي: كلَّ واحدٍ منهما ﴿هَدَيْنَا﴾، لا أحدَهما دون الآخَر. وتركُ ذِكر المَهديّ إليه لظهورِ أنّه الذي أوتِيَ إبراهيمُ وأنّهما مُقتدِيان به.

---

[١] وفي هامش م: أي: الظرفيّة وما بعدها. «منه».

[٢] أي: "نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ"، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٠.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] في الآية السابقة.

﴿وَنُوحًا﴾ منصوب بمضمرٍ يفسّره ﴿هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ إبراهيمَ. عُدَّ هُداه نعمةً على إبراهيمَ عليهما السلام؛ لأنّ شَرَف الوالد سارٍ إلى الولد.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير لـ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾؛[1] لأنّ مَساق النظم الكريم لبيان شئونه العظيمةِ مِن إيتاء الحُجّة ورفعِ الدرجات وهِبَةِ الأولاد الأنبياءِ وإبقاءِ هذه الكرامة في نَسْله إلى يوم القيامة؛ كلُّ ذلك لإلزام مَن ينتمي إلى ملّتِه عليه السلام مِن المشركين واليهود.

وقيل: لنوحٍ؛[2] لأنّه أقرَبُ، ولأنّ يونسَ ولوطًا ليسَا مِن ذُرّيّة إبراهيمَ عليه السلام، فلو كان الضمير له[3] لَاختصَّ البيان[4] بالمعدودِين في هذه الآية والتي بعدها، وأمّا المذكورون في الآية الثالثة،[5] فعطفٌ على ﴿نُوحًا﴾. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ هؤلاء الأنبياءَ كلَّهم / مُضافون إلى ذُرّيّة إبراهيمَ، وإن كان منهم مَن لم يلحَقْه بوِلادٍ مِن قِبَلِ أمٍّ ولا أبٍ؛[6] لأنّ لوطًا ابنُ أخي إبراهيمَ، والعربُ تجعل العَمَّ أبًا، كما أخبر الله تعالى عن أبناء يعقوبَ أنّهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة، ١٣٣/٢]، مع أنّ إسماعيلَ عمُّ يعقوبَ. [٢٣٩ظ]

﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ منصوبانِ بمضمَر مفهوم ممّا سبق. وكذا ما عُطف عليهما. وبه يتعلّق ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، وتقديمُه على المفعول الصريح للاهتمام بشأنه، مع ما في المفاعيل مِن نوعِ طولٍ ربّما يُخلّ تأخيرُه بتجاوُبِ النظم الكريم، أي: وهدينا مِن ذُرّيّته داودَ وسليمانَ ﴿وَأَيُّوبَ﴾ -هو ابنُ أمُوص[7] مِن أسباط عيص بنِ إسحاقَ- ﴿وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، أو بمحذوفٍ[8] وقع حالًا مِن المذكورين، أي: وهديناهم حالَ كونهم مِن ذُرّيّته.

---

١ في الآية السابقة.

٢ أي: وقيل: الضمير في ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ لنوحٍ.

٣ أي: لإبراهيمَ عليه السلام.

٤ ط س - البيان. | وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ [الأنعام، ٨٤/٦]. «منه».

٥ أي: الأنعام، ٨٦/٦.

٦ تفسير القرطبي، ٤٤٧/٨؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧٤/٤؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٥/٨، كلّها باختلاف يسير.

٧ وفي هامش م: أمُوص بن رازح بن روم بن عيص. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٧/٦.

٨ السياق: منصوبانِ بمضمَرٍ... أو بمحذوفٍ...

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما يُفهَم مِن النظم الكريم مِن جزاءِ إبراهيمَ عليه السلام. ومحلّ "الكاف" النصبُ على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، وأصل التقدير: ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جزاءً مثلَ ذلك الجزاء، والتقديمُ للقَصر، وقد مرّ تحقيقه مِرارًا.[1]

والمراد بـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الجنسُ، وبمماثلة جزائهم لجزائه عليه السلام مطلَقُ المشابهة في مقابلة الإحسان بالإحسان والمكافأةِ بين الأعمال والأجزِيةِ مِن غير بَخْسٍ؛ لا المماثلةُ مِن كلّ وجه، ضرورةَ أنّ الجزاء بكثرة الأولاد الأنبياءِ ممّا اختصّ به إبراهيمُ عليه السلام. والأقربُ أنّ لامَ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ للعهد.

[٢٤٠و] و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، / وهو عبارة عمّا أوتِيَ المذكورون مِن فنون الكرامات. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلُوّ طَبَقته. و"الكافُ" لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة مِن الفخامة، ومحلُّها في الأصل النصبُ على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، وأصل التقدير: "ونَجزي المحسِنين المذكورين جزاءً كائنًا مثلَ ذلك الجزاء"، فقُدّم على الفعل لإفادة القَصر، واعتُبِرت "الكاف" مُقحَمةً للنكتة المذكورة، فصار المشارُ إليه نفسَ المصدر المؤكِّد، لا نعتًا له، أي: وذلك الجزاءَ البديعَ نَجزي المحسِنين المذكورين، لا جزاءً آخَرَ أدنى منه.

والإظهار في موضِع الإضمار للثناء عليهم بالإحسان الذي هو عبارة عن الإتيان بالأعمال الحَسَنة على الوجه اللائق الذي هو حُسنها الوصفيُّ المقارِنُ لحُسنها الذاتيّ. وقد فسّره صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أن تعبُدَ اللهَ كأنّك تَراه، فإن لم تكُنْ تَراه فإنّه يَراك».[2] والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبلها.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥﴾

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ هو ابنُ آذَنَ، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ ابنُه، ﴿وَعِيسَىٰ﴾ هو ابن مريمَ. وفيه دليلٌ بيِّنٌ على أنّ الذُّرّيّة تتناوَلُ أولادَ البنات. ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ قيل: هو إدريسُ جَدّ نوحٍ،

---

[1] انظر: تفسير الأنعام، ٥٣/٦. وسيأتي تفصيله في هذه الآية أيضًا.

[2] طرفُ حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري في صحيحه، ١٩/١ (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه، ٣٧/١ (٨).

فيكونُ البيانُ[١] مخصوصًا بـ﴿مِنْ﴾ في الآية الأولى.[٢] وقيل: هو مِن أسباطِ هارونَ أخي موسى عليهما السلام.

﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحد مِن أولئك المذكورين[٣] ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مِن الكاملين في الصلاح الذي هو عبارة عن الإتيان بما ينبغي والتحرُّزِ عمّا لا ينبغي. والجملة اعتراضٌ جِيءَ به للثناء عليهم بالصلاح.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ هو ابنُ أخطوبَ بنِ العجوز، وقُرِئ: "وَاللَّيْسَعَ"،[٤] وهو على القراءتَين / عَلَمٌ أعجميٌّ، أُدخِلَ عليه "اللام"، ولا اشتقاقَ له. ويُقال: إنّه يوشَع بنُ نونٍ. وقيل: إنّه منقول مِن مضارعِ "وسِعَ"، و"اللامُ" كما في "يزيد" في قول مَن قال: [٢٤٠ظ]

رأيتُ الوليدَ بنَ اليزيدَ مبارَكًا   شديدًا بأعباءِ الخِلافة كاهِلُهْ[٥]

﴿وَيُونُسَ﴾ هو ابنُ مَتّى، ﴿وَلُوطًا﴾ هو ابنُ هاران ابنِ أخي إبراهيمَ عليهم السلام. ﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحد مِن أولئك المذكورين ﴿فَضَّلْنَا﴾ بالنبوّة، لا بعضَهم دون بعضٍ، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على عالَمِي عصرِهم. والجملة اعتراض كأُختَيْها.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ إمّا متعلِّقٌ بما تعلّق به ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾،[٦] و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة، والمفعول محذوف، أي: وهدينا مِن آبائهم وذُرّيّاتهم

---

١ وفي هامش م: أي: بقوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ [الأنعام، ٨٤/٦]. «منه».

٢ أي: الأنعام، ٨٤/٦.

٣ وفي هامش م: وهُمْ داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام. «منه».

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

٥ البيت لابن مَيّادة في ديوانه، ص ١٩٢، وفي مطبوعه: "بأحناء" بدلَ "بأعباء". وهو بهذه الألفاظ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧١/٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٧/٨؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ١٦٤/١. والشاهد فيه: أنّ العَلَم إذا وقع فيه اشتراك اتّفاقيّ جاز تعريفه بـ"اللام"، يعني: يزول تعريف العَلَميّة بأنْ يُنكَّر ثمّ يُعرَّف بـ"اللام".

٦ الأنعام، ٨٤/٦.

وإخوانِهم جماعاتٍ كثيرةً، وإمّا معطوفٌ على ﴿كُلًّا﴾،[١] و﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة، أي: وفضّلنا بعضَ آبائهم... إلخ. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿فَضَّلْنَا﴾،[٢] أي: اصطفَيْناهم، ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تكريرٌ للتأكيد وتمهيدٌ لبيانِ ما هُدُوا إليه.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما يُفهَم مِن النظم الكريم مِن مصادر الأفعال المذكورة، وقيل: إلى ما دانوا به. وما في ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعد لِما مرّ مِرارًا. ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف. ﴿يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم المستعِدّون للهداية والإرشادِ. وفيه إشارة إلى أنّه تعالى متفضِّل بالهداية. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: هؤلاء المذكورون، ﴿لَحَبِطَ عَنْهُمْ﴾ مع فضلهم وعُلُوِّ طَبَقاتهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن الأعمال المَرضيّة / الصالحةِ؛ فكيف بمَن عَداهم، وهُمْ هُمْ، وأعمالُهم أعمالُهم! [٢٤١و]

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورِين مِن الأنبياء الثمانيةَ عشَرَ والمعطوفِين عليهم عليهم السلام باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن الهداية وغيرِها مِن النعوت الجليلة الثابتةِ لهم. وما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ غيرَ مرّة مِن الإيذان بعُلُوّ طَبَقتهم وبُعدِ منزلتهم في الفضل والشرف. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنسَ الكتاب المتحقِّقَ في ضِمن أيّ فردٍ كان مِن أفراد الكُتب السماويّة. والمراد بإيتائه التفهيمُ التامُّ بما فيه مِن الحقائق، والتمكينُ مِن الإحاطة بالجلائل والدقائق أعمّ مِن أن يكون ذلك بالإنزال ابتداءً أو بالإيراث بقاءً، فإنّ المذكورين لم يُنزل على كلّ واحد منهم كتابٌ معيَّنٌ.

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي: الحِكمةَ، أو فصلَ الأمر على ما يقتضيه الحقّ والصواب. ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي: الرسالةَ. ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بهذه الثلاثة أو بالنبوّة الجامعة للباقين،

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: كُفّار قريشٍ، فإنّهم بكفرهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما أُنزلَ إليه مِن القرآن كافرون بما يصدِّقه جميعًا. وتقديم الجارّ والمجرور على الفاعل لِما مرّ مِرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي: أمَرْنا بمُراعاتها ووفَّقْنا للإيمان بها والقيامِ بحقوقها ﴿قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ في وقتٍ مِن الأوقات؛ بل مستمرّون على الإيمان بها. فإنّ الجملة الاسميّة الإيجابيّةَ كما تفيد دوامَ الثبوت، كذلك السلبيّةُ تفيد دوامَ النفي بمَعُونة المقام، لا نفيَ الدوام كما حُقِّق في مقامه.[1]

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد: «هم الأنصار وأهل المدينة».[2] وقيل: أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: كلّ مؤمن مِن بني آدمَ. وقيل: الفُرْس. فإنّ كلًّا مِن هؤلاء الطوائف مُوفَّقون للإيمان بالأنبياء وبالكُتب المنزلة إليهم، عاملون بما فيها مِن أصول الشرائع وفروعِها الباقيةِ في شريعتِنا. وبه يتحقّق الخروج عن عُهدة التوكيل والتكليف دون المنسوخةِ منها، فإنّها بانتساخها خارجةٌ عن كونها مِن أحكامها. وقد مرّ تحقيقه في تفسير سورة المائدة.[3]

وقيل: هم الأنبياء المذكورون، فالمراد بـ"التوكيل" الأمرُ بما هو أعمُّ مِن إجراء أحكامها كما هو شأنهم في حقّ كتابهم، ومِن اعتقاد حقّيّتِها كما هو شأنهم في حقّ سائر الكُتب التي مِن جملتها القرآن الكريم. وقيل: هم الملائكة، فـ"التوكيل" هو الأمر بإنزالها وحفظِها واعتقادِ حقّيّتِها.

وأيًّا ما كان، فتنكير ﴿قَوْمًا﴾ للتفخيم. و"الباء" الأولى صلةٌ لـ﴿كَٰفِرِينَ﴾، قُدّمت عليه محافظةً على الفواصل، والثانيةُ لتأكيد النفي. / [٢٤١ظ] وأمّا تقديم صلةِ ﴿وَكَّلْنَا﴾ على مفعوله الصريح، فلِما ذُكر آنفًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، ولأنّ فيه نوعَ طولٍ ربّما يؤدّي تقديمُه إلى الإخلال بتجاوُبِ النظم الكريم، أو إلى الفصل بين الصفة والموصوف. وجواب الشرط محذوف،

---

١ انظر: تفسير الأنعام، ٤٨/٦.

٢ قولهما معًا في اللباب لابن عادل، ٢٦٩/٨. وقول ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٣٨٩/٩، ومجاهد في تفسير الرازي، ٥٥/١٣.

٣ انظر: تفسير المائدة، ٤٧/٥، ٦٨.

يدلّ عليه المذكور، أي: فإن يكفر بها هؤلاء، فلا اعتدادَ به أصلًا، فقد وفّقنا للإيمان بها قومًا فِخامًا ليسوا بكافرين بها قطعًا؛ بل مستمرّون على الإيمان بها والعملِ بما فيها، ففي إيمانهم بها مَندوحةٌ[1] عن إيمان هؤلاء.

وعن هذا تبيَّنَ أنّ الوجه أن يكون المرادُ بـ"القوم" إحدى الطوائف المذكورة، إذ بإيمانهم بالقرآنِ والعملِ بأحكامه تتحقّق الغُنية عن إيمان الكَفَرة به والعملِ بأحكامه. وأمّا الأنبياء والملائكة عليهم السلام، فإيمانهم به ليس مِن قبيل إيمان آحاد الأمّة كما أشيرَ إليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الأنبياء المذكورين. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلُوّ رُتبتهم. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: إلى الحقّ والنهج المستقيمِ. والالتفات إلى الاسم الجليل للإشعارِ بعلّة الهداية. ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أي: فاختصَّ هُداهم بالاقتداء، ولا تقتَدِ بغيرهم. والمراد بـ﴿هُدَىٰهُمُ﴾ طريقتُهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيدِه وأصولِ الدين، دون الشرائع القابلةِ للنسخ؛ فإنّها بعد النسخ لا تبقى هُدى. و"الهاء" في ﴿ٱقْتَدِهْ﴾ للوقف، حقُّها أن تسقط في الدرج، واستُحسِن إثباتها فيه أيضًا إجراءً له مُجرى الوقف واقتداءً / بالإمام.[2] وقُرئ بإشباعها[3] على أنّها كناية المصدر. [٢٤٢و]

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن أو على التبليغ، فإنّ مَساق الكلام يدلّ عليهما، وإن لم يجرِ ذكرُهما. ﴿أَجْرًا﴾ مِن جهتكم كما لم يسأله مَن قبلي مِن الأنبياء عليهم السلام. وهذا مِن جملة ما أُمر عليه السلام بالاقتداء بهم فيه.

---

[1] النَّدْح: السَّعَة والفُسحة، تقول: إنّه لفي نَدحة مِن الأمر ومَندوحةٍ منه. وأرض مَندوحة: بعيدة واسعة. كتاب العين للخليل بن أحمد، ١٨٤/٣ «باب الحاء والدال والنون معهما».

[2] أي: اقتداءً بالمصحف الإمام.

[3] أي: "فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهِي قُلْ"، وهي قراءة ابن ذَكوان في رواية الجمهور عنه. ورَوى بعضهم عنه الكسرَ بلا إشباع. النشر لابن الجزري، ١٤٢/٢؛ شرح طيّبة النشر للنويري، ٦٩/٢.

﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: ما القرآنُ ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: عِظة وتذكير لهم كافّةً مِن جهته سبحانه، فلا يختصُّ بقوم دون آخَرين.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩١﴾

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ لمّا بُيِن شأن القرآن العظيم، وأنّه نعمة جليلة منه تعالى على كافّة الأُمَم حسبما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١]، عُقّب ذلك ببيان غمطهم إيّاها وكفرِهم بها على وجهٍ سَرَى ذلك إلى الكفر بجميع الكُتب الإلهيّة. وأصل "القَدْر": السَّبْر والحَزْر، يُقال: "قدَرَ الشيءَ يقدُرُه -بالضمّ- قَدْرًا" إذا سبَرَه وحزَرَه ليعرِفَ مقداره، ثمّ استُعمِل في معرفة الشيء في مقداره وأحوالِه وأوصافِه.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ نصب على المصدريّة، وهو في الأصل صفةٌ للمصدر، أي: قَدْرَه الحقَّ، فلمّا أضيفَ إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفُه، أي: ما عرفوه تعالى حقَّ معرفتِه في اللطف بعباده والرحمةِ عليهم، ولم يُراعُوا حقوقَه تعالى في ذلك؛ بل أخَلّوا بها إخلالًا؛ ﴿إِذۡ قَالُواْ﴾ منكِرين لبِعثة الرُّسُل وإنزالِ الكُتب، كافرين بنعمته الجليلة فيهما: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾.

فنفيُ معرفتِهم لقَدْرِه سبحانه كنايةٌ عن حَطّهم لقَدْرِه الجليل ووصفِهم له تعالى بنقيض نَعته الجميل، كما أنّ نفي المَحبّة في مِثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[١] كنايةٌ / عن البُغض والسخط؛ وإلّا فنفيُ معرفةِ قَدْرِه تعالى يتحقّق مع عدم التعرّض لحَطّه، بل مع السعي في تحصيل المعرفة، كما في قولِ مَن يُناجي مستقصِرًا لمعرفته وعبادته: "سبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتِك، وما عبدناك حقَّ عبادتِك". أو ما عرفوه حقَّ معرفتِه في السخط على الكُفّار وشدّةِ بَطشه تعالى بهم حسبما نطق به القرآن حين اجترءُوا على التفوُّهِ بهذه العظيمة الشَّنْعاء؛ فالنفيُ بمعناه الحقيقيّ. [٢٤٢ظ]

---

١ ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران، ٣٢/٣].

والقائلون هم اليهود، وقد قالوه مبالغةً في إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأُلزِموا ما لا سبيلَ لهم إلى إنكاره أصلًا، حيث قيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ أي: قُلْ لهم ذلك على طريقة التبكيت وإلقامِ الحَجَر.[1]

ورُوي أنّ مالك بنَ الضيف مِن أحبار اليهود ورؤسائِهم، قال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنشُدُك اللهَ الذي أنزل التوراةَ على موسى، هل تجد فيها أنّ الله يُبغض الحَبْرَ السمين؟ فأنت الحَبْر السمين، قد سمِنتَ مِن مالِكَ الذي تُطعمك اليهودُ»، فضحِك القوم، فغضِب، ثمّ التفَتَ إلى عمرَ رضي الله عنه، فقال: «ما أنزل الله على بَشَر مِن شيء»، فنزَعوه، وجعلوا مكانَه كعبَ بنَ الأشرف.[2]

وقيل: هم المشركون، وإلزامُهم إنزالُ التوراة لِما أنّه كان عندهم مِن المشاهير الذائعة؛ ولذلك كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام، ١٥٧/٦].

ووصفُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالوصول إليهم لزيادة التقرير وتشديدِ التبكيت. وكذا تقييدُه بقوله تعالى: ﴿نُورًا وَهُدًى﴾؛ فإنّ كونه بيّنًا بنفسه ومبيّنًا لغيره ممّا يؤكّد الإلزام أيَّ تأكيدٍ. وانتصابهما على الحاليّة مِن ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والعامل ﴿أَنزَلَ﴾، أو مِن الضمير في ﴿بِهِۦ﴾، فالعامل[3] ﴿جَآءَ﴾.

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ إمّا متعلِّق بـ﴿هُدًى﴾، أو بمحذوف هو صفة له، أي: هُدًى كائنًا للناس. وليس المراد بهذا مجرَّدَ إلزامهم الاعترافَ بإنزال التوراة فقط؛ بل بإنزال القرآن أيضًا، فإنّ الاعتراف بإنزالها مستلزِمٌ للاعتراف بإنزاله قطعًا، لِما فيها مِن الشواهد الناطقة به.

---

١ ألقَمَه الحَجَرَ: يُضرَبُ للمُجيب بجواب مُسكِت. المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، ٣٣٩/١.

٢ هو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٤/٢، ومع اختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٣٩٣/٩-٣٩٤؛ وتفسير السمرقندي، ٤٨٦/١؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٢٣؛ وتفسير الرازي، ٦٠/١٣. وفي مطبوع تفسير الرازي: "سمنت مِن الأشياء" ومطبوع تفسير السمرقندي: "سمنت مِن مأكلتك" بدلَ "سمنت مِن مالك". وفي أكثر المصادر: "الصيف" بدل "الضيف".

٣ س: والعامل.

وقد نُعِيَ عليهم ما فعلوا بها مِن التحريف والتغيير، حيث قيل: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي: تضعونه في قراطيس مقطَّعةٍ ووَرَقاتٍ مفرَّقةٍ، بحذف الجارّ بناءً على تشبيه القراطيس بالظرف المُبهَم. أو تجعلونه نفسَ القراطيس المقطَّعة، وفيه زيادةُ توبيخ لهم / بسُوء صنيعهم، كأنّهم أخرجوه مِن جنس الكتاب، ونزّلوه منزلةَ القراطيس الخالية عن الكتابة. والجملة حال كما سبق. [٢٤٣و]

وقوله تعالى: ﴿تُبْدُونَهَا﴾ صفة لـ﴿قَرَاطِيسَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ معطوفٌ عليه، والعائد إلى الموصول محذوفٌ، أي: كثيرًا منها. وقيل: كلامٌ مبتدأٌ، لا محلَّ له مِن الإعراب، والمراد بـ"الكثير" نعوت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسائرُ ما كتَموه مِن أحكام التوراة. وقُرئ الأفعال الثلاثة بالياء،[١] حملًا على ﴿قَالُوا﴾ و﴿مَا قَدَرُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ قيل: هو حال مِن فاعل ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ بإضمار "قد" أو بدونه على اختلاف الرأيَين. قلتُ: فينبغي أن يُجعَل ﴿مَا﴾ عبارةً عمّا أخذوه مِن الكتاب مِن العلوم والشرائعِ ليكونَ التقييدُ بالحال مفيدًا لتأكيد التوبيخ وتشديدِ التشنيع، فإنّ ما فعلوه بالكتاب مِن التفريق والتقطيع لِما ذُكر مِن الإبداء والإخفاء شناعةٌ عظيمةٌ في نفسها، ومع ملاحظة كونه مأخَذًا لعلومِهم ومعارفِهم أشنَعُ وأعظَمُ؛ لا[٢] عمّا تلقَّوْه مِن جهة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم زيادةً على ما في التوراة وبيانًا لِما التبَسَ عليهم وعلى آبائهم مِن مشكِلاتها حسبما ينطِق به قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل، ٢٧/٧٦]، كما قالوا؛ لأنّ تَلَقِّيَهم لذلك مِن القرآن الكريم ليس ممّا يزجُرهم عمّا صنعوا بالتوراة، أمّا ما ورد فيه زيادةً على ما فيها، فلِأنّه لا تعلُّقَ له بها نفيًا ولا إثباتًا، وأمّا ما ورد بطريق البيان، فلِأنّ مدارَ ما فعلوا بها مِن التبديل والتحريف[٣] ليس ما وقع فيها مِن التباس الأمر

---

[١] أي: "يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا"، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٠.

[٢] السياق: فينبغي أنْ يُجعَل ﴿مَا﴾ عبارة عمّا أخذوه مِن الكتاب... لا عمّا تلقَّوْه مِن جهة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم...

[٣] وفي هامش م: الإبراء والإخفاء.

[٢٤٣ظ] واشتباهِ الحال حتّى يُقلِعوا عن ذلك بإيضاحه وبيانِه؛ فيكون الجملةُ / حينئذ خاليةً عن تأكيد التوبيخ، فلا تستحقّ أن تقع موقعَ الحال؛ بل الوجهُ حينئذ أن تكون استئنافًا مقرِّرًا لِما قبلها مِن مَجيء الكتاب بطريق التكملة والاستطراد والتمهيد لِما يعقبه مِن مَجيء القرآن.

ولا سبيلَ إلى جعل ﴿مَا﴾ عبارةً عمّا كتَموه مِن أحكام التوراة كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [المائدة، ١٥/٥]؛ فإنّ ظهوره، وإن كان مَزجَرةً لهم عن الكتم مخافةَ الافتضاح ومصحِّحًا لوقوع الجملة في موقع الحال، لكنّ ذلك ممّا يعلمه الكاتمون حتمًا. هذا، وقد قيل: الخطاب لِمَن آمن مِن قريش كما في قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ [يس، ٦/٣٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أمرٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنْ يُجيب عنهم، إشعارًا بتعيّنِ الجواب بحيث لا مَحيدَ عنه، وإيذانًا بأنّهم أُفحِموا ولم يقدِروا على التكلّم أصلًا. ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحُجّة وإلقامِ الحَجَر. ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ حال مِن الضمير الأوّل، والظرفُ صلة للفعل المقدَّم،[٢] أو المؤخَّر،[٣] أو متعلِّقٌ[٤] بمحذوفٍ هو حال مِن مفعول الأوّل،[٥] أو مِن فاعل الثاني،[٦] أو مِن الضمير الثاني؛[٧] لأنّه فاعل في الحقيقة، والظرفُ متّصل بالأوّل.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ تحقيق لِنزول القرآن الكريم بعد تقرير إنزال ما بَشَّرَ به مِن التوراة، وتكذيب لهم في كلمتهم الشنعاءِ إثرَ تكذيبٍ. ﴿مُبَارَكٞ﴾ أي:

---

[١] س: تعالى.
[٢] أي: ﴿ذَرۡ﴾.
[٣] أي: ﴿يَلۡعَبُونَ﴾.
[٤] يعني: الظرف.
[٥] أي: ذَرْهم كائنين في خوضهم.
[٦] أي: يلعبون كائنين في خوضهم.
[٧] أي: ﴿هُمۡ﴾ الثاني، وهو في المعنى فاعل المصدر المضاف إليه.

كثيرُ الفوائد وجمُّ المنافع، ﴿مُصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن التوراة لنزوله حسبما وُصِف فيها، أو الكُتُبِ التي قبلها، فإنّه مصدِّق للكلّ في إثبات التوحيد والأمرِ به ونفيِ الشرك والنهيِ عنه وفي سائر أصول الشرائع التي لا تنتسخ.

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ عطفٌ على ما دلّ عليه ﴿مُبَارَكٌ﴾، أي: للبَرَكات ولإنذارك أهلَ مكّةَ. / وإنّما ذُكرت باسمها المُنبئ عن كونها أعظَمَ القُرى شأنًا [٢٤٤و] وقبلةً لأهلها قاطبةً، إيذانًا بأنّ إنذار أهلها أصلٌ مستتبعٌ لإنذار أهل الأرض كافّةً. وقُرئ: "لِيُنْذِرَ"[١] بالياء، على أنّ الضمير لـ"الكتاب". ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن أهل المَدَرِ والوَبَرِ[٢] في المشارق والمغارب.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وبما فيها مِن أفانين العذاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب؛ لأنّهم يخافون العاقبةَ، ولا يزال الخوفُ يحمِلهم على النظر والتأمّل حتّى يؤمنون[٣] به. ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ تخصيصُ محافظتِهم على الصلاة بالذِّكر مِن بين سائر العبادات التي لا بدَّ للمؤمنين مِن أدائها، للإيذان بإنافتِها[٤] مِن بين سائر الطاعات وكونِها أشرَفَ العبادات بعد الإيمان.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فزعَمَ أنّه تعالى بعثَه نبيًّا، كمُسيلِمةَ الكذّابِ

---

[١] قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٠.

[٢] المَدَر: قِطَع الطِّين اليابس المتماسِك، أو الطِّينُ العِلْك الذي لا رَمْلَ فيه، واحدتُه: مَدَرَة. والوَبَر: صُوف الإبل والأرانب ونحوها، جمعُه: أوبار. ومِن المجاز قول عامر بن الطفيل للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لنا الوَبَرُ ولكم المَدَرُ»، إنّما عنى به المُدُنَ أو الحضرَ؛ لأنّ مَبانيها إنّما هي بالمَدَر، وعنى بـ"الوَبَر" الأخبيةَ؛ لأنّ أبنية البادية بالوَبَر. انظر: تاج العروس لمرتضى الزبيدي، «مدر»، «وبر».

[٣] كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: يؤمنوا.

[٤] أنافَ على الشيء إنافةً: أشرف وارتفع، ويُقال لكلّ مشرِف على غيره: إنّه لَمُنيفٌ. انظر: تاج العروس لمرتضى الزبيدي، «أنف».

والأسوَدِ العنسي،[١] أو اختلق عليه أحكامًا مِن الحِلّ والحُرمة، كعمرو بنِ لُحَيٍّ ومُتابعِيه. أي: "هو أظلَمُ مِن كلّ ظالم"، وإن كان سبك التركيب على نفي الأظلمِ منه وإنكارِه مِن غير تعرّض لنفي المَساوي وإنكارِه؛ فإنّ الاستعمال الفاشي في قولك: "مَن أفضَلُ مِن زيد" أو "لا أكرَمَ منه"، على أنّه أفضَلُ مِن كلّ فاضل وأكرَمُ مِن كلّ كريم. وقد مرّ تمام الكلام فيه.[٢]

﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ مِن جهته تعالى، ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾ أي: والحال أنّه لم يُوحَ إليه ﴿شَيْءٌ﴾ / أصلًا، كعبد الله بنِ سعد بن أبي سرح،[٣] كان يكتب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا نزلَتْ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون، ١٢/٢٣]، فلمّا بلغ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون، ١٤/٢٣]، قال عبد الله: «تبارَكَ الله أحسَنُ الخالقين»، تعجّبًا مِن تفصيل خلق الإنسان، ثمّ قال عليه السلام: «اكتُبْها، كذلك نزلَتْ»،[٤] فشكّ عبد الله، وقال: «لَئِنْ كان محمّدٌ صادقًا فقد أُوحِيَ إليَّ كما أُوحِيَ إليه، ولَئِنْ كان كاذبًا فقد قلتُ كما قال».[٥] [٢٤٤ظ]

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كالذين قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال، ٣١/٨].

---

١ هو عَبْهلة بن كعب بن عوف، الأسود العَنْسي (ت. ١١هـ/٦٣٢م). المُتنبّي المُشعوِذ، مِن أهل اليمن. كان بطّاشًا جبّارًا. ارتدّ واتّسع سلطانه حتّى غلب على ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين والأحساء إلى عدن. وجاءت كتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى مَن بقي على الإسلام في اليمن بالتحريض على قتله، فاغتاله أحدهم. وكان مَقتله قبل وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بشهر واحد. انظر: **الأعلام** للزركلي، ١١١/٥.

٢ انظر: تفسير البقرة، ١١٤/٢، والأنعام، ٢١/٦.

٣ هو عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح بن الحارث القرشي العامري، أبو يحيى (ت. ٣٦هـ/٦٥٦-٦٥٧م). صحابيّ. أسلم قديمًا، وكتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم الوحيَ، ثمّ افتتن وخرج مِن المدينة إلى مكّة مُرتدًّا، فأهدر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دمَه يوم الفتح، فجاء عثمان بن عفّان إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فاستأمن له، فآمنه، وأسلم عبد الله ذلك اليوم، فحسُنَ إسلامه، ولم يظهر منه بعد ذلك ما يُنكَر عليه. ثمّ ولّاه عثمان بعد ذلك مصر، ففتح الله على يديه إفريقيّة، وكان فتحًا عظيمًا. انظر: **الاستيعاب** للنَّمري، ٩١٨/٣-٩٢٠؛ و**أسد الغابة** لابن الأثير، ٢٦٠/٣-٢٦٢.

٤ م ط س - نزلت ["صح" في هامش م]. | لعَل هذا التصحيحَ وقع بعد نسخ ط س.

٥ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٧٣/٢. ونحوه في **جامع البيان** للطبري، ٤٠٥/٩-٤٠٦؛ و**الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧٠/٤؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٢٣-٢٢٤.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حُذف مفعول ﴿تَرَىٰٓ﴾ لدلالة الظرف عليه، أي: ولو ترى الظالمين إذ هم ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: شدائدِه، مِن "غمَرَه" إذا غشِيَه. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ بقبض أرواحهم كالمتقاضي المُلِظِّ المُلِحِّ، يبسُط يدَه إلى مَن عليه الحقُّ، ويعنِّف عليه في المطالبة مِن غير إمهال وتنفيسٍ، أو بَاسِطُوها بالعذاب، قائلين: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: أَخرِجوا أرواحَكم إلينا مِن أجسادكم، أو خَلِّصوا أنفُسَكم مِن العذاب.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي: وقتَ الإماتة، أو الوقتَ المُمتدَّ بعده إلى ما لا نهايةَ له، ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: العذابَ المتضمِّنَ لشدّةٍ وإهانةٍ، فإضافتُه إلى ﴿ٱلْهُونِ﴾ -وهو الهَوان- لعَراقتِه فيه. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ كاتّخاذ الولد له، ونسبةِ الشريك إليه، وادّعاءِ النبوّة والوحي كاذبًا، ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتأمّلون فيها، ولا تؤمنون بها.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

/ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين عن الأموال والأولاد وغيرِ ذلك [٢٤٥و] ممّا آثَرتموه مِن الدنيا، أو عن الأعوان والأصنام التي كنتم تزعمون أنّها شفعاؤكم. وهو جمع "فَرْدٍ"، والألِف للتأنيث كـ"كُسالى". وقُرِئ: "فُرَادًا"[١] كـ"رُخال"، و"فُرَادَ"[٢] كـ"ثُلاثَ"، و"فَرْدَى"[٣] كـ"سَكْرَى".

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بدلٌ مِن ﴿فُرَٰدَىٰ﴾، أي: على الهيئة التي وُلِدتم عليها في الانفراد، أو حال ثانية عند مَن يجوّز تعدّدَها، أو حال مِن الضمير في ﴿فُرَٰدَىٰ﴾،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة وأبي البرهسم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٢.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة أبو حيّان في **البحر المحيط**، ٥٨٧/٤؛ وابن عادل في **اللباب**، ٢٩٣/٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٢. ورواها خارجة بن مصعب عن نافع وأبي عمرو. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٨٧/٤، وهي غير القراءة المشهورة لهما.

أي: مُشبِهين ابتداءَ خلقِكم عُراةً حُفاةً غُرْلًا بُهْمًا،[١] أو صفةُ مصدرِ ﴿جِئْتُمُونَا﴾، أي: مَجيئًا كخلقِنا لكم أوّلَ مرّة.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ تفضّلنا به[٢] عليكم في الدنيا، فشُغِلتم به عن الآخرة. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ما قدّمتم منه شيئًا، ولم تحمِلوا نقيرًا. ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا﴾ أي: شركاءُ الله تعالى في الربوبيّة واستحقاقِ العبادة.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: وقع التقطّعُ بينكم، كما يُقال: "جُمِع بين الشيئَين"، أي: أُوقِعَ الجمع بينهما. وقُرِئ: "بَيْنُكُمْ"[٣] بالرفع، على إسناد الفعل إلى الظرف، كما يُقال: "قُوتِلَ أمامُكم وخلفُكم"، أو على أنّ "البَيْنَ" اسمٌ للفصل والوصل، أي: تقطّعَ وصلُكم. وقُرِئ: "مَا بَيْنَكُمْ".[٤] ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي: ضاعَ، أو غابَ ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنّها شفعاؤكم، أو أنْ لا بعثَ ولا جزاءَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ شروع في تقرير بعض أفاعيله تعالى الدالّةِ على كمال علمه وقدرته ولطفِ صُنعه وحكمتِه، إثرَ تقرير أدِلّة التوحيد. والفَلْق: الشَقّ بإبانةٍ، أي: شاقُّ الحَبّ بالنبات والنَّوى بالشجر. وقيل: المراد به الشَقُّ الذي في الحُبوب والنَّوى، أي: خالِقُهما كذلك، كما في قولك: "ضيِّقْ فَمَ الرَّكِيَّةِ[٥]

---

[١] إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه، ١٠٩/٨ (٦٥٢٧)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «تُحشَرون حُفاةً عُراةً غُرْلًا»، قالت عائشة: فقلتُ: «يا رسولَ الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟»، فقال: «الأمر أشدُّ مِن أنْ يهمّهم ذاك». وهو باختلاف يسير في صحيح مسلم، ٢١٩٤/٤ (٢٨٥٩).

[٢] ط س: تفضلّناه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلِّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٣] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٣.

[٥] الرَّكِيّة: بِئر تُحفَر. وجمعه: الرَّكايا. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٤٠٢/٥ «باب الكاف والراء».

ووسّع أسفَلَها". / وقيل: الفَلْق بمعنى الخَلْق. قال الواحدي: «ذهبوا بـ﴿فَالِقُ﴾ مذهَبَ "فاطرٍ"».[١] [٢٤٥ظ]

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: يُخرج ما يَنمُو مِن الحيَوان والنبات ممّا لا ينمو مِن النُّطفة والحَبّ. والجملة مستأنَفة مبيّنة لِما قبلها، وقيل: خبرٌ ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالنُّطفة والحَبّ ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالحيَوان والنبات. عطفٌ على ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾، لا على ﴿يُخْرِجُ﴾ على الوجه الأوّل؛ لأنّ إخراج المَيّت مِن الحيّ ليس مِن قبيل فَلق الحَبّ والنَّوى.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ القادرُ العظيمُ الشأنِ هو ﴿ٱللَّهُ﴾ المستحِقُّ للعبادة وحدَه؛ ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته إلى غيره، ولا سبيلَ إليه أصلًا؟

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ خبر آخَرُ لـ﴿إِنَّ﴾،[٢] أو لمبتدأ محذوف. و﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ مصدرٌ سُمّي به الصُّبح. وقُرئ بفتح الهمزة[٣] على أنّه جمعُ "صُبح"، أي: فالقُ عمود الفجر عن بياض النهار وإسفارِه، أو فالقُ ظلمة الإصباح، وهي الغَبَش الذي يَلِي الصُّبحَ. وقُرئ: "فَالِقَ"[٤] بالنصب على المدح.

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن إليه التعِبُ بالنهار لاستراحته فيه، مِن "سكَنَ إليه" إذا اطمأنَّ إليه استئناسًا به، أو يسكن فيه الخلقُ، مِن قوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾.[٥] وقُرئ: "جَاعِلُ اللَّيْلِ"،[٦] فانتصابُ ﴿سَكَنًا﴾ بفعلٍ دلّ عليه "جاعل"، وقيل: بنفسه، على أنّ المراد به الجعلُ المستمرُّ في الأزمنة المتجدِّدُ حسب تجدّدِها،

---

١ **التفسير البسيط** للواحدي، ٣٠٢/٨.

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بن أبي الحسن وعيسى بن عمر وأبي رجاء. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٣؛ **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٣٢٥/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٣.

٥ ورَدَ في ثلاث آيات: يونس، ٦٧/١٠؛ القصص، ٧٣/٢٨؛ غافر، ٦١/٤٠. ومنها ما في سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس، ٦٧/١٠].

٦ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

[٢٤٦و] لا الجعلُ الماضي فقط. وقيل:[١] اسم الفاعل / مِن الفعل المتعدِّي إلى اثنَين يعمل في الثاني، وإن كان بمعنى الماضي؛ لأنّه لمّا أُضيفَ إلى الأوّل تعيَّنَ نصبُه للثاني لتعذّرِ الإضافة بعد ذلك.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ معطوفانِ على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، وعلى القراءة الأخيرة[٢] قيل: هما معطوفانِ على محلِّه، والأحسَنُ نصبُهما حينئذ بفعل مقدَّر. وقد قُرئا بالجرّ[٣] وبالرفع[٤] أيضًا على الابتداء، والخبر محذوف، أي: مجعولانِ. ﴿حُسۡبَانٗا﴾ أي: على أدوار مختلفة يُحسَب بها الأوقات التي نِيطَ بها العبادات والمعاملات، أو محسوبان حُسبانًا. و"الحُسبان" -بالضمّ- مصدرُ "حسَب"، كما أنّ "الحِسبان" -بالكسر- مصدرُ "حسِب".

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جعلِهما كذلك. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلُوّ رتبة المشار إليه وبُعدِ منزلته، أي: ذلك التسيير البديع ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالبِ القاهرِ الذي لا يستعصي عليه شيءٌ مِن الأشياء التي مِن جملتها تسييرُهما على الوجه المخصوص. ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ بجميع المعلومات التي مِن جملتها ما في ذلك التسيير مِن المنافع والمصالح المتعلِّقةِ بمَعاش الخلق ومَعادِهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٩٧﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ شروع في بيان نعمته تعالى في الكواكب إثرَ بيان نعمته تعالى في النَّيِّرَينِ.[٥] والجَعْل متعدٍّ إلى واحد، و"اللام" متعلِّقة به. وتأخير المفعول الصريح عن الجارّ والمجرور لِما مرّ غيرَ مرّةٍ مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، أي: أنشأها وأبدعها لأجلكم؛ فقوله تعالى: ﴿لِتَهۡتَدُواْ بِهَا﴾ بدلٌ مِن المجرور بإعادة العامل بدلَ اشتمالٍ، كما في قوله تعالى:

---

[١] وفي هامش م: قاله أبو سعيد السيرافي. «منه».

[٢] هي قراءة: "جَاعِلُ اللَّيْلِ".

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة ويزيد بن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٣.

[٥] هما: الشمس والقمر.

﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا﴾ [الزخرف، ٤٣/٣٣]، والتقدير: جعل لكم النجومَ لاهتدائكم؛ لكنْ لا على أنّ غاية خلقها اهتداؤُهم فقط، بل على طريقة إفراد بعض منافعها وغاياتِها بالذكر حسبما يقتضيه المقام.

وقد جُوّز أن يكون مفعولًا ثانيًا لـ"الجَعْل"، وهو بمعنى "التصيير"، / أي: [٢٤٦ظ] جعلها كائنةً لاهتدائكم في أسفاركم عند دخولكم المفاوِزَ أو البِحارَ، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: في ظُلُمات الليل في البَرّ والبحر. وإضافتها إليهما للملابسة، فإنّ الحاجة إلى الاهتداء بها إنّما يتحقّق عند ذلك، أو في مشتَبَهات الطُّرق، عُبّر عنها بـ"الظُّلُمات" على طريقة الاستعارة.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: بيّنّا الآياتِ المتلُوّةَ المذكِّرةَ لنِعَمِه التي هذه النعمة مِن جملتها، أو الآياتِ التكوينيّةَ الدالّةَ على شئونه تعالى مفصَّلةً، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: معانِيَ الآياتِ المذكورةِ ويعملون بموجَبها، أو يتفكّرون في الآيات التكوينيّة فيعلمون حقيقةَ الحال. وتخصيص التفصيل بهم -مع عمومه للكلّ- لأنّهم المنتفِعون به.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ تذكير لنعمة أخرى مِن نِعَمِه تعالى دالّةٍ على عظيم قدرته ولطيفِ صُنْعه وحكمتِه، أي: أنشأكم مع كثرتكم مِن نفس آدمَ عليه السلام، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: فلكم استقرارٌ في الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداعٌ في الأرحام أو تحت الأرض، أو موضِعُ استقرارٍ واستيداعٍ فيما ذُكر. والتعبير عن كونهم في الأصلاب أو فوق الأرض بـ"الاستقرار" لأنّهما مَقَرّهم الطبيعيُّ، كما أنّ التعبير عن كونهم في الأرحام أو تحت الأرض بـ"الاستيداع"[١] لِما أنّ كلًّا منهما ليس بمَقَرّهم الطبيعيّ. وقد حُمِل "الاستيداع" على كونهم في الأصلاب، وليس بواضح.

---

١ س - بالاستيداع.

وقُرئ: "مُسْتَقِرٌّ"[١] بكسر القاف، أي: فمنكم مستقِرّ ومنكم مستودَع؛ فإنّ الاستقرار / منّا، بخلاف الاستيداع. [٢٤٧و]

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ المبيّنةَ لتفاصيل خلق البَشَر مِن هذه الآية ونظائرِها، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ غوامضَ الدقائق باستعمال الفِطنة وتدقيقِ النَّظَر، فإنّ لطائفَ صُنْع الله عزّ وجلّ في أطوار تخليقِ بني آدمَ ممّا يحارُ في فهمه الألبابُ، وهو السِّرّ في إيثار ﴿يَفْقَهُونَ﴾ على "يعلمون" كما ورد في شأن النجوم.[٢]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تذكير لنعمة أخرى مِن نِعَمِه تعالى مُنبئةٍ عن كمال قدرته تعالى[٣] وسَعَةِ رحمته، أي: أنزل مِن السحاب أو مِن سَمْتِ السماء ماءً خاصًّا، هو المطر. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح لِما مرّ مِرارًا.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ التُفِتَ إلى التكلّم إظهارًا لكمال العناية بشأن ما أُنزِلَ الماءُ لأجله، أي: فأخرجنا بعَظَمتِنا بذلك الماء مع وحدته ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن شأنها النُّمُوّ مِن أصناف النجم[٤] والشجر وأنواعِهما المختلِفةِ في الكَمّ والكيف والخواصِ والآثارِ اختلافًا متفاوِتًا في مراتب الزيادة والنقصان، حسبما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد، ٤/١٣].

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في رواية رَوح بن عبد المؤمن. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] م – تعالى.

[٤] النجم مِن النبات: ما لم يقُمْ على ساقٍ كساقِ الشجر. كتاب العين للخليل بن أحمد، ١٥٤/٦ «باب الجيم والنون والميم معهما».

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ شروع في تفصيل ما أُجملَ مِن الإخراج. وقد بُدِئَ بتفصيل حال النجم، أي: فأخرجنا مِن النبات الذي لا ساقَ له شيئًا غضًّا أخضَرَ. يُقال: "شيءٌ أخضَرُ وخضِرٌ"، كـ"أعوَرَ" و"عَوِرٍ"، وأكثرُ ما يُستعمل "الخَضِرُ" فيما يكون خُضرته خِلقيّةً، وهو ما تشعّب مِن أصل النبات الخارج مِن الحَبّة.

وقوله تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ صفة لـ﴿خَضِرًا﴾، وصيغة المضارع لاستحضار / الصورة لِما فيها مِن الغَرابة، أي: نُخرج مِن ذلك الخَضِر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ هو السُنْبل المنتظِمُ للحبوب المتراكِبةِ بعضُها فوق بعض على هيئة مخصوصة. وقُرئ:[١] "يُخْرَجُ مِنْهُ حَبٌّ مُتَرَاكِبٌ". [٢٤٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ شروع في تفصيل حال الشجر إثرَ بيان حال النجم. فقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ خبر مقدَّم، وقوله تعالى: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ بدلٌ منه بإعادة العامل، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾... إلخ [الأحزاب، ٢١/٣٣]. و"الطَّلْع": شيء يخرج مِن النخل، كأنّه نَعلانِ مُطبَقانِ والحملُ بينهما منضودٌ.

وقوله تعالى: ﴿قِنْوَانٌ﴾ مبتدأ، أي: وحاصلةٌ مِن طَلْع النخل قِنوانٌ. ويجوز أن يكون الخبر محذوفًا لدلالة ﴿أَخْرَجْنَا﴾ عليه، أي: ومُخرَجةٌ مِن طَلْع النخل قِنوانٌ. ومَن قرأ:[٢] "يُخْرَجُ مِنْهُ حَبٌّ مُتَرَاكِبٌ" كان ﴿قِنْوَانٌ﴾ عنده معطوفًا على "حَبّ". وقيل: المعنى: وأخرجنا مِن النخل نخلًا مِن طَلْعها قنوانٌ، أو ومِن النخل شيءٌ مِن طَلْعها قِنوانٌ. وهو جمعُ "قِنْوٍ"، وهو عنقود النخلة، كـ"صِنْوٍ" و"صِنْوانٍ". وقُرئ بضمّ القاف،[٣] كـ"ذِئْبٍ" و"ذُؤْبانٍ"، وبفتحها[٤] أيضًا على أنّه اسمُ جمعٍ؛ لأنّ "فَعْلَان" ليس مِن أبنِية الجمع.

---

[١] وفي هامش م: على البناء للمفعول مِن "الإخراج"، قراءة ابن المُحيصِن والأعمش. «منه»). | انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٩٧/٤.

[٢] أي: الأعمش وابن المُحيصِن، كما سبق ذكره في الهامش السابق.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والزندي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. **المحتسَب** لابن جنّي، ٢٢٣/١. ورُوي عنه ضمُّ القاف. **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧٤/٤.

﴿دَانِيَةٌ﴾ سَهْلةُ المجتنَى قريبةٌ مِن القاطف، فإنّها، وإن كانت صغيرةً ينالها القاعد، تأتي بالثَّمَر لا ينتظر الطول، أو مُلتفّةٌ متقاربةٌ. والاقتصار على ذِكرها لدلالتها على مقابلها كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾،[١] ولزيادة النعمة فيها.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ عطفٌ على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: وأخرجنا به جنّاتٍ كائنةً مِن أعناب. وقُرئ: "جَنَّاتٌ"[٢] بالرفع على الابتداء، أي: ولكم أو ثمّةَ جنّاتٌ. وقد جُوّز عطفه[٣] على ﴿قِنْوَانٌ﴾، كأنّه قيل: وحاصلةٌ أو مخرَجةٌ مِن النخل قِنوانٌ وجنّاتٌ مِن نباتِ أعناب. ولعلّ زيادةَ "الجنّات" ههنا مِن غير اكتفاءٍ بذكر اسم الجنس كما فيما تقدّم وما تأخر، لِما أنّ الانتفاع بهذا الجنس لا يتأتّى غالبًا إلّا عند اجتماع طائفة مِن أفراده.

[٢٤٨و] ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ منصوبانِ على الاختصاص لعزّة / هذين الصنفَين عندهم، أو على العطف على ﴿نَبَاتَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ حال مِن ﴿ٱلزَّيْتُونَ﴾، اكتُفيَ به عن حالِ ما عُطف عليه، كما يُكتفى بخبر المعطوف عليه عن خبر المعطوف في نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة، ٦٢/٩]، وتقديره: والزيتونَ متشابِهًا[٤] وغيرَ متشابِهٍ والرُّمانَ كذلك. وقد جُوّز أن يكون حالًا مِن ﴿ٱلرُّمَّانَ﴾ لقُربه، ويكونَ المحذوفُ حالَ الأوّل، والمعنى: بعضُه متشابِهًا وبعضُه غيرَ متشابِهٍ في الهيئة والمقدار واللّونِ والطعمِ وغيرِ ذلك مِن الأوصاف الدالّة على كمال قدرة صانعها وحكمةِ مُنشئها ومُبدعِها.

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أي: انظروا إليه نظرَ اعتبارٍ واستبصارٍ إذا أخرج ثمرَه كيف يُخرجه ضئيلًا لا يكاد يُنتفع به. وقُرئ: "إِلَى ثُمُرِهِ".[٥] ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي:

---

١ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل، ٨١/١٦].

٢ قراءة شاذّة، ذكرها الطبري في جامع البيان، ٤٤٨/٩؛ والسمرقندي في تفسيره، ٤٩٠/١، ونسباها إلى الأعمش.

٣ على القراءة بالرفع.

٤ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: مشتبِهًا.

٥ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

وإلى حال نُضجه كيف يَصير إلى كماله اللائق به ويكون شيئًا جامعًا لمنافِعَ جمّةٍ. و"اليَنْع" في الأصل مصدرُ "ينَعَت الثَّمَرةُ" إذا أدركتْ. وقيل: جمعُ "يانعٍ" كـ"تاجرٍ" و"تَجْرٍ". وقُرئ بالضمّ،[1] وهي لغة فيه. وقُرئ: "يَانِعِهِ".[2]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما أُمر بالنظر إليه. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإيذان بعُلُوّ رتبة المشار إليه وبُعدِ منزلته. ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لَآياتٍ عظيمةً أو كثيرةً دالّةً على وجود القادر الحكيم ووحدتِه؛ فإنّ حدوث هاتِيك الأجناسِ المختلِفةِ والأنواعِ المتشعِّبةِ مِن أصل واحد، وانتقالَها مِن حال إلى حال على نمَط بديع يحار في فهمه الألبابُ، لا يكاد[3] يكون إلّا بإحداث صانعٍ يعلم تفاصيلَها، ويرجِّحُ ما يقتضيه حكمتُه مِن الوجوه المُمكنة على غيره، / ولا يَعُوقه عن ذلك ضِدٌّ يُناوِيه أو نِدٌّ يُقاوِيه؛ ولذلك عُقّب بتوبيخِ مَن أشرك به والردِّ عليه؛ حيث قيل: [٢٤٨ظ]

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: جعلوا في اعتقادهم لله الذي شأنُه ما فُصّل في تضاعيف هذه الآيات الجليلة شركاءَ ﴿ٱلْجِنَّ﴾ أي: الملائكةَ حيث عبدوهم وقالوا: «الملائكة بناتُ الله»، وسُمُّوا جِنًّا لاجتنانهم، تحقيرًا لشأنهم بالنسبة إلى مقام الألوهيّة، أو الشياطينَ حيث أطاعوهم كما أطاعوا اللهَ تعالى، أو عبدوا الأوثانَ بتسويلِهم وتحريضِهم، أو قالوا: «الله خالقُ الخير وكلِّ نافعٍ، والشيطان خالقُ الشرّ وكلِّ ضارٍّ»، كما هو رأي الثَّنَويّة.

ومفعولَا ﴿جَعَلُوا﴾ قولُه تعالى: ﴿شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾، قُدّم ثانيهما على الأوّل[4] لاستعظامِ أن يتّخذ لله سبحانه شريكٌ ما، كائنًا ما كان. و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾، قُدّم عليه للنكتة المذكورة. وقيل: هما:[5] ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، و﴿ٱلْجِنَّ﴾ بدلٌ مِن ﴿شُرَكَآءَ﴾،

---

[1] أي: "وَيُنْعِهِ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة واليماني وأبي حنيفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٣.

[3] خبرُ "إنّ".

[4] أي: قُدّم ﴿شُرَكَآءَ﴾ على ﴿ٱلْجِنَّ﴾...

[5] أي: ومفعولَا ﴿جَعَلُوا﴾.

مفسِّرٌ له -نَصَّ عليه الفرّاء[١] وأبو إسحاقَ-[٢] أو منصوبٌ بمضمَرٍ وقع جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ نشأ مِن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، كأنّه قيل: مَن جعلوه شركاءَ لله تعالى؟ فقيل: الجنَّ، أي: جعلوا الجنَّ، ويؤيّده قراءةُ أبي حيوة[٣] ويزيد بنِ قُطَيب:[٤] "الجِنُّ"[٥] بالرفع على تقديرِ: "هم الجنُّ" في جواب مَن قال: مَن الذين جعلوهم شركاءَ لله تعالى؟ وقد قُرِئ بالجرّ[٦] على أنّ الإضافة للتبيين.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال مِن فاعل ﴿جَعَلُوا﴾ بتقدير "قد" أو بدونه على اختلاف الرأيين، مؤكِّدةٌ لِما في جعلهم ذلك مِن كمال القباحة والبُطلان باعتبار علمهم بمضمونها، أي: وقد علموا أنّه تعالى خالقُهم خاصّةً. وقيل: الضمير لـ"الشركاء"، أي: والحالُ أنّه تعالى خلق الجنَّ، / [٢٤٩و] فكيف يجعلون مخلوقَه شريكًا له تعالى؟ وقُرئ: "خَلْقَهُمْ"[٧] عطفًا على ﴿ٱلْجِنَّ﴾، أي: وما يخلقونه مِن الأصنام، أو على ﴿شُرَكَآءَ﴾، أي: وجعلوا له اختلاقَهم الإفكَ حيث نسبوه إليه تعالى.

﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: افتعلوا وافترَوْا له. يُقال: "خلق الإفكَ واختلَقَه" و"خرَقه واخترَقَه" بمعنًى. وقُرئ: "خَرَّقُوا"[٨] بالتشديد للتكثير. وقُرئ: "وَحَرَّفُوا لَهُ"،[٩]

---

١ قال الفرّاء في معاني القرآن، ٣٤٨/١: «إنْ شئتَ جعلتَ ﴿ٱلْجِنَّ﴾ تفسيرًا لـ"الشركاء"، وإن شئتَ جعلتَ نصبَه على: جعلوا الجنَّ شركاءَ لله تبارك وتعالى».

٢ لعلّه أبو إسحاق الزجّاج، قاله في معاني القرآن وإعرابه، ٢٧٧/٢.

٣ هو شُرَيح بن يزيد الحضرمي الحِمصي، أبو حَيْوة. صاحب القراءة الشاذّة ومُقرئ الشام. وهو والد حَيْوة بن شُرَيح الحافظ. وله اختيار في القراءة. روى القراءة عنه عمران بن عثمان وابنه حَيْوة ومحمّد بن عمرو الكلبي وعيسى بن المنذر ويزيد بن قُرّة. تُوفّي في صَفَر سنة ثلاث ومائتين. انظر: غاية النهاية لابن الجزري، ٣٢٥/١.

٤ هو يزيد بن قُطَيب السَّكُوني الشامي. ثقة. له اختيار في القراءة يُنسَب إليه. روى القراءة عنه عبد الله بن قيس صاحب معاذ بن جبل وأبو البَرَهْسم عمران بن عثمان الحِمصي. وحدّث عنه صفوان بن عمرو ويحيى بن عبيد والوليد بن سفيان الكسائي. انظر: غاية النهاية لابن الجزري، ٣٨٢/٢.

٥ قراءة شاذّة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦٠٣/٤.

٦ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٥٢/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٣٣٦/٨.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٤.

٨ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢-٢٦١.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر وابن عبّاس. المحتسَب لابن جنّي، ٢٢٤/١.

أي: زوّرُوا. ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ﴾ فقالت اليهود: «عُزيرٌ ابنُ الله»، وقالت النصارى: «المسيح ابنُ الله»، وقالت طائفة مِن العرب: «الملائكة بناتُ الله».

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بحقيقةِ ما قالوه مِن خطأ أو صوابٍ؛ بل رميًا بقولٍ عن عمًى وجهالةٍ مِن غير فكر ورَويّةٍ، أو بغير علمٍ بمرتبةِ ما قالوه وأنّه مِن الشناعة والبطلانِ بحيث لا يُقادَر قدره. و"الباء" متعلِّقة بمحذوفٍ هو حال مِن فاعل ﴿خَرَقُوا﴾، أو نعتٌ لمصدر مؤكِّدٍ له، أي: خرقوا ملتبِسين بغير علم، أو خرقًا كائنًا بغير علم.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ استئناف مَسوق لِتنزيهه عزّ وجلّ عمّا نَسَبوه إليه. و﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ عَلَمٌ للتسبيح الذي هو التبعيد عن السُّوء اعتقادًا وقولًا، أي: اعتقادُ البُعد عنه والحكمُ به، مِن "سبَح في الأرض والماءِ" إذا أبعَدَ فيهما وأمعَنَ، ومنه: "فرَسٌ سَبوحٌ"، أي: واسعُ الجَري. وانتصابه على المصدريّة، ولا يكاد يُذكر ناصبُه، أي: أُسبّح سبحانه، أي: أُنزّهُه عمّا لا يَليق به عقدًا وعملًا، تنزيهًا خاصًّا به حقيقًا بشأنه.

وفيه مبالغة مِن جهة الاشتقاق مِن "السَّبْح"، ومِن جهة النقل إلى "التفعيل"، ومِن جهة العُدول عن المصدر الدالِّ على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصّةً، لاسيّما العَلَمُ المشيرُ إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن، ومِن جهة إقامته مُقامَ / المصدر مع الفعل. [٢٤٩ظ]

وقيل: هو مصدرٌ كـ"غُفران"؛ لأنّه سُمع له فعلٌ مِن الثلاثي كما ذُكر في **القاموس**،[١] أُريد به التنزّهُ التامُّ والتباعدُ الكلّيُّ؛ ففيه مبالغة مِن حيث إسنادُ التنزّهِ إلى ذاته المقدَّسةِ، أي: تنزَّهَ بذاته تنزّهًا لائقًا به. وهو الأنسَبُ بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾، فإنّه معطوف على الفعل المضمَر لا محالةَ. ولِما في "السُّبحان" و"التعالِي" مِن معنى التباعُدِ قيل: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: متباعِدًا عمّا يصِفونه مِن أنّ له شريكًا أو ولدًا.

---

[١] قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط، ص ٢٢٢ «سبح»: «وسبحان الله: تنزيهًا لله مِن الصاحِبَة والولد، مَعرِفةً، ونُصِب على المصدر، أي: أبرِّئُ الله مِن السوء براءةً، أو معناه: السرعة إليه، والخِفّة في طاعته».

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُبدعهما ومخترِعهما بلا مثالٍ يحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه، فإنّ "البديع" كما يُطلق على المبتدَع يُطلق على المبتدِع، نصَّ عليه أئمّة اللغة، كـ"الصريخ" بمعنى "المُصرِخ"، وقد جاء: "بدَعَه" -كـ"منَعَه"- بمعنى أنشأه، كـ"ابتدعه"، على ما ذُكر في **القاموس**[1] وغيرِه. ونظيره "السميع" بمعنى المُسمِع في قوله:

أمِنْ رَيْحانةَ الداعي السميعُ[2]

وقيل: هو مِن إضافة الصفة المشبَّهة إلى الفاعل للتخفيف بعد نصبه تشبيهًا لها باسم الفاعل كما هو المشهور، أي: بديعٌ سماواتِه وأرضِه، مِن "بَدُعَ" إذا كان على نمَط عجيب وشكلٍ فائقٍ وحُسنٍ رائقٍ، أو إلى الظرف كما في قولهم: "ثَبْتُ الغَدَرِ"، بمعنى أنّه عديمُ النظير فيهما. والأوّل هو الوجه، والمعنى: أنّه تعالى مبدِعٌ لقُطرَي العالَم العُلويّ والسفليّ بلا مادّةٍ، فاعلٌ على الإطلاق، منزَّهٌ عن الانفعال بالمرّة، والوالدُ عُنصر الولد، منفعِلٌ بانتقال مادّته عنه؛ فكيف يمكن أن يكون له ولد؟

وقُرئ: "بَدِيعَ"[3] بالنصب على المدح، وبالجرّ[4] على أنّه بدلٌ مِن الاسم الجليل، أو مِن الضمير المجرور في ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾[5] على رأي مَن يُجيزه. وارتفاعه في القراءة المشهورة على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أو فاعلُ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾،[6] وإظهارُه في موقع الإضمار لتعليل الحُكم، وتوسيطُ الظرف بينه وبين الفعل للاهتمام ببيانه،

---

[1] **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، ص ٧٠٢ «بدع».

[2] وفي هامش م: تمامه:

يُؤرِّقُني وأصحابي هُجوعُ

«منه». | البيت لعمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزبيدي في **شعر عمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزُّبيدي**، ص ١٤٠؛ و**الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٣٦٠/١؛ و**الكامل** للمبرّد، ١٦٢/١؛ و**أمالي ابن الشجري**، ٩٧/١-٩٨.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٥.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن صالح بن محمّد الشامي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٥.

[5] في الآية السابقة.

[6] في الآية السابقة.

أو مبتدأً، خبرُه قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، وهو[١] على الأوّلَين[٢] جملة مستقِلّة[٣] مَسوقةٌ كما قبلها لبيان استحالةِ ما نسبوه إليه تعالى / وتقريرِ تنزّهِهِ عنه. [٢٥٠و]

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ حال مؤكِّدة للاستحالة المذكورة؛ فإنّ انتفاءَ أن يكون له تعالى صاحبة مستلزِمٌ لانتفاءِ أن يكون له ولدٌ، ضرورةَ استحالة وجود الولد بلا والدة، وإن أمكن وجودُه بلا والد، وانتفاءُ الأوّل ممّا لا ريبَ فيه لأحد، فمِن ضرورته انتفاءُ الثاني، أي: مِن أين أو كيف يكون له ولد كما زعموا والحالُ أنّه ليس له على زعمهم أيضًا صاحبةٌ يكون الولد منها؟

وقُرئ: "لَمْ يَكُنْ"[٤] بتذكير الفعل للفصل، أو لأنّ الاسم ضميرُه تعالى، والخبر هو الظرف، و﴿صَٰحِبَةٌ﴾ مرتفِعٌ به[٥] على الفاعليّة لاعتماده على المبتدأ، أو الظرفُ خبر مقدَّم، و﴿صَٰحِبَةٌ﴾ مبتدأ مؤخَّر، والجملة خبرٌ للكون. وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الاسمُ ضميرَ الشأن لصلاحيّة الجملة حينئذ لأنْ تكونَ مفسِّرةً لضمير الشأن؛ لا على الوجه الأوّل لِما بُيّن في موضِعه أنّ ضمير الشأن لا يُفسّر إلّا بجملة صريحة.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إمّا جملة مستأنَفة أخرى، سِيقَت لتحقيق ما ذُكر مِن الاستحالة، أو حال أخرى مقرِّرةٌ لها،[٦] أي: أنّى يكون له ولد والحالُ أنّه خلق كلَّ شيءٍ انتظَمَهُ التكوينُ والإيجادُ مِن الموجودات التي مِن جملتها ما سمَّوْه ولدًا له تعالى؛ فكيف يُتصوّر أن يكون المخلوق ولدًا لخالقِه؟

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن شأنه أن يُعلم كائنًا ما كان، مخلوقًا أو غيرَ مخلوق، كما يُنبئ عنه تركُ الإضمار إلى الإظهار. ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالِغٌ في العلم أزلًا وأبدًا، حسبما يُعرب عنه العُدولُ إلى الجملة الاسميّة؛ فلا تخفى[٧] عليه خافية ممّا كان

---

١ أي: قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

٢ وفي هامش م: هما كونه خبرًا وفاعلًا. «منه».

٣ وفي هامش م: وهو الجملة المُنسبِكة مِن مبتدأ وخبر، أو فعلٍ وفاعلٍ، أي: "هو بديع السماوات والأرض"، و"تعالى بديعُ السماوات والأرض". «منه».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٢٤.

٥ أي: بالظرف.

٦ أي: للاستحالة المذكورة.

٧ س: فلا يخفى.

وما سيكون مِن الذوات والصفاتِ والأحوالِ التي مِن جملتها ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز مِن المُحالات التي ما زعموه فردٌ مِن أفرادها. والجملة استئناف مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها مِن الدلائل القاطعة ببُطلان مقالتهم الشنعاءِ التي اجترءُوا عليها بغير علم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى المنعوت بما ذُكر مِن جلائل النعوت. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلُوّ شأن المشار إليه وبُعدِ منزلته في العَظَمة. والخطاب للمشركين المعهودين / بطريق الالتفات. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ﴾ أخبارٌ أربعةٌ مترادِفةٌ، أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات العظيمة هو الله المستحِقُّ للعبادة خاصّةً، مالكُ أمرِكم، لا شريكَ له أصلًا، خالقُ كلّ شيء ممّا كان وممّا سيكون؛ فلا تكرارَ، إذ المعتبَرُ في عُنوان الموضوع إنّما هو خالقيّتُه لِما كان فقط، كما يُنبئ عنه صيغة الماضي.[1] [٢٥٠ظ]

وقيل: الخبر هو الأوّل، والبَواقي أبدالٌ. وقيل: الاسم الجليل بدلٌ مِن المبتدأ، والبَواقي أخبار. وقيل: يُقدّر لكلٍّ مِن الأخبار الثلاثةِ مبتدأٌ. وقيل: يُجعَل الكلّ بمنزلة اسمٍ واحدٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ حكمٌ مترتِّبٌ على مضمون الجملة، فإنّ مَن جمع هذه الصفاتِ كان هو المستحِقَّ للعبادة خاصّةً. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ﴾ عطفٌ على الجملة المتقدِّمة، أي: هو مع ما فُصّل مِن الصفات الجليلة متولِّي أمورِ جميعِ مخلوقاتِه التي أنتم مِن جملتها؛ فكِلُوا أمورَكم إليه، وتوسّلُوا بعبادته إلى نجاح مآرِبكم الدنيويّةِ والأخرويّة.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ البَصَر: حاسّة النظر، وقد تُطلق على العَين مِن حيث إنّها مَحلّها، وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إليه والإحاطةِ به، أي:

---

[1] في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٖ﴾ [الأنعام، ٦/١٠١].

لا تصِل إليه الأبصارُ ولا تُحيط به، كما قال سعيد بن المسيَّب.[1] وقال عطاء: «كَلَّتْ أبصار المخلوقين عن الإحاطة به»،[2] فلا متمسَّكَ فيه لمُنكري الرؤيةِ على الإطلاق، وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومقاتل رضي الله عنه: «لا تُدركه الأبصار في الدنيا، وهو يُرى في الآخرة».[3]

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: يُحيط بها علمُه؛ إذ لا تخفى عليه خافية. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فيُدرك ما لا تُدركه الأبصار. ويجوز أن يكون تعليلًا للحُكمَين السابقَين / على طريقة اللَّفّ، أي: لا تُدركه الأبصار؛ لأنّه اللطيف، وهو يُدرك الأبصارَ؛ لأنّه الخبير، فيكون ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ مستعارًا مِن مقابِل "الكثيف" لِما لا يُدرَك بالحاسّة ولا ينطبع فيها. [٢٥١و]

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ استئناف وارد على لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. و"البصائر" جمعُ "بصيرة"، وهي النور الذي به تستبصر النفسُ، كما أنّ "البصر" نور به تُبصِر العينُ، والمرادُ بها الآيات الواردة ههنا أو جميعُ الآيات المنتظِمة لها انتظامًا أوّليًّا. و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية مجازًا، سواء تعلّقت بـ﴿جَآءَ﴾ أو بمحذوف هو صفةٌ لـ﴿بَصَآئِرُ﴾. والتعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين لإظهار كمال اللطف بهم، أي: قد جاءكم مِن جهة مالكِكُم ومبلِّغِكم إلى كمالكم اللائقِ بكم مِن الوحي الناطقِ بالحقّ والصوابِ ما هو كالبصائر للقلوب، أو قد جاءكم بصائرُ كائنة مِن ربّكم.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي: الحقَّ بتلك البصائر وآمن به، ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فلنفسه أبصَرَ، أو فإبصارُه لنفسه؛ لأنّ نفعه مخصوص بها. ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ أي: ومَن لم يُبصر الحقَّ

---

[1] قال سعيد بن المسيّب: «لا تحيط به الأبصار»، كما ورد في **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧٦/٤؛ و**التفسير البسيط** للواحدي، ٣٣١/٨؛ و**اللباب** لابن عادل، ٣٤٥/٨.

[2] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧٦/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٤٥/٨. وهو قول ابن عبّاس عن عطاء في **التفسير البسيط** للواحدي، ٣٣١/٨-٣٣٢.

[3] هو عنهما في **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧٦/٤؛ و**التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٠٧/٢. وعن ابن عبّاس فقط في **اللباب** لابن عادل، ٣٤٥/٨.

بعد ما ظهر له بتلك البصائر ظهورًا بيّنًا وضلَّ عنه. وإنّما عُبّر عنه بالعَمى تقبيحًا له وتنفيرًا عنه. ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي: فعليها عَمِيَ، أو فعَماهُ عليها، أي: وبالُ عَماهُ. ﴿وَمَآأَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وإنّما أنا منذِر، والله هو الذي يحفَظ أعمالَكم ويُجازيكم عليها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١٠٥﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: مثلَ ذلك التصريف البديع نُصرِّف الآياتِ الدالّةَ على المعاني الرائقة الكاشفة عن الحقائق الفائقة، لا تصريفًا أدنى منه.

[٢٥١ظ] وقوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ علّةٌ لفعلٍ قد حُذف تعويلًا على / دلالة السباق عليه، أي: ولِيقولوا "درستَ" نفعل ما نفعل مِن التصريف المذكور، و"اللام" للعاقبة، و"الواو" اعتراضيّة. وقيل: هي[١] عاطفة على علّة محذوفة، و"اللام" متعلِّقة بـ﴿نُصَرِّفُ﴾، أي: مثلَ ذلك التصريف نُصرِّف الآياتِ لِنُلزِمَهم الحجّةَ ولِيقولوا... إلخ. وقيل: "اللام" لامُ الأمر، وتنصُره القراءة بسكون اللام،[٢] كأنّه قيل: وكذلك نُصرِّف الآياتِ، ولْيقولوا هم ما يقولون، فإنّه لا احتفالَ بهم ولا اعتدادَ بقولهم. وهذا أمرٌ معناه الوعيدُ والتهديدُ وعدمُ الاكتراث بقولهم. ورُدَّ عليه بأنّ ما بعده يأباه.

ومعنى ﴿دَرَسْتَ﴾: قرأتَ وتعلّمتَ. وقُرئ: "دَارَسْتَ"،[٣] أي: دارستَ العلماءَ، و"دَرَسَتْ"،[٤] أي: قَدُمَتْ هذه الآياتُ وعفَتْ، كما قالوا: "أساطير الأوّلين"، و"دَرُسَتْ"[٥] بضمّ الراء مبالغةً في "دَرَسَتْ"، أي: اشتدَّ دُروسُها، و"دُرِسَتْ"[٦] على البناء للمفعول بمعنى: "قُرِئتْ" أو "عُفِيتْ"،[٧] و"دَارَسَتْ"،[٨] وفسّروها بـ"دارَسَت اليهودُ محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم"، وجاز الإضمارُ لاشتهارهم بالدراسة، وقد جُوّز إسناد الفعل إلى ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾، وهو في الحقيقة لأهلها، أي:

---

١ أي: الواو.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة ابن عطيّة في المحرّر الوجيز، ٣٣١/٢؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٦٠٨/٤.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٦١/٢.

٤ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٦١/٢.

٥ قرأ بها الأخفش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٥.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وقتادة والحسن. المحتسَب لابن جنّي، ٢٢٥/١.

٧ وفي هامش م: مِن "عفاه".

٨ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ٥٥/٢؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٦٠٨/٤.

دارَسَ أهلُ الآيات وحَمَلتُها محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم، وهم أهل الكتاب، و"دَرَسَ"،[١] أي: درَسَ محمّدٌ، و"دَارِسَاتٌ"[٢] على "هي دارساتٌ"، أي: قَديمات، أو ذاتُ درسٍ، كـ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة، ٢١/٦٩؛ القارعة، ٧/١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ عطفٌ على ﴿لِيَقُولُوا﴾، و"اللام" على الأصل؛ لأنّ التبيين غاية التصريف. والضمير لـ﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾ باعتبار المعنى، أو للقرآن وإن لم يُذكَر، أو للمصدر، أي: ولِنفعلَ التبيينَ. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ متعلِّقة بالتبيين، وتخصيصُه بهم لِما أنّهم المنتفِعون به. قال ابن عبّاس: «هم أولياؤه / الذين هَداهم إلى سبيل الرشاد».[٣] ووصفُهم بالعلم للإيذان بغاية جهل الأوّلين وخُلُوِّهم عن العلم بالمرّة. [٢٥٢و]

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لمّا حُكي عن المشركين قدحُهم في تصريف الآيات عُقِّب ذلك بأمره عليه السلام بالثبات على ما هو عليه وبعدم الاعتداد بهم وبأباطيلِهم، أي: دُمْ على ما أنت عليه مِن اتباعِ ما أُوحيَ إليك مِن الشرائع والأحكامِ التي عُمدتُها التوحيدُ. وفي التعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن إظهار اللطف به ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض بين الأمرين المتعاطِفَين، مؤكِّدٌ لإيجاب اتّباع الوحي، لاسيّما في أمر التوحيد. وقد جُوّز أن يكون حالًا مِن ﴿رَبِّكَ﴾، أي: منفرِدًا في الألوهيّة. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا تحتفِلْ بهم وبأقاويلهم الباطلة التي مِن جملتها ما حُكي عنهم آنفًا. ومَن جعله منسوخًا بآية السيفِ[٤] حمَلَ "الإعراضَ" على ما يعُمّ الكَفَّ عنهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب وابن مسعود. ورُوي عن ابن مسعود أيضًا: "دَرَسْنَ". المحتسَب لابن جنّي، ٢٢٥/١.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ٥٥/٢؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٦٠٨/٤.

[٣] التفسير البسيط للواحدي، ٣٤٣/٨؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦١٠/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٩/٨.

[٤] وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة، ٥/٩].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ١٠٧﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: عدمَ إشراكهم، حسبما هو القاعدة المستمرّة في حذف مفعول "المشيئة" مِن وقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء. ﴿مَآ أَشْرَكُوا﴾ وهذا دليل على أنّه تعالى لا يريد إيمانَ الكافر؛ لكنْ لا بمعنى أنّه تعالى يمنعه عنه مع توجّهِ إليه، بل بمعنى أنّه تعالى لا يريده منه لعدم صرف اختياره الجزئيّ نحوَ الإيمان وإصرارِه على الكفر.

والجملة اعتراض مؤكِّد لـ"الإعراض".[1] وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: رقيبًا مهيمِنًا مِن قِبَلِنا، تحفظ عليهم أعمالَهم. وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ مِن جهتهم، تقوم بأمورهم وتُدبِّر مصالِحَهم. و﴿عَلَيْهِمْ﴾ في الموضعَين متعلِّق / بما بعده، قُدِّم عليه للاهتمام به أو لرعاية الفواصل. [٢٥٢ظ]

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٠٨﴾

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تشتُموهم مِن حيث عبادتُهم لِآلهتهم، كأنْ تقولوا: «تبًا لكم ولِما تعبدونه» مثلًا. ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا﴾ تجاوُزًا عن الحقّ إلى الباطل بأنْ يقولوا لكم مثلَ قولِكم لهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بجهالة بالله تعالى وبما يجب أن يُذكَر به. وقُرئ: "عُدُوًّا"،[2] يُقال: عَدَا يعدُو عَدْوًا وعُدُوًّا وعَداءً وعُدْوانًا.

رُوي أنّهم قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء، ٩٨/٢١]: «لَتَنتهِيَنَّ عن سَبّ آلهتِنا أو لَنَهجُوَنَّ إلٰهَك».[3] وقيل: كان المسلمون يسُبّونهم، فنُهُوا عن ذلك

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قرأ بها يعقوب الحضرمي مِن القُرّاء العشرة. النشر لابن الجزري، ٢٦١/٢.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٢. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٤٨٠/٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٧٨/٤؛ واللباب لابن عادل، ٣٦٢/٨.

لئلّا يستتبعَ سَبُّهم سبَّه سبحانه وتعالى.[١] وفيه أنّ الطاعة إذا أدّت إلى معصيةٍ راجحةٍ وجَبَ تركُها؛ فإنّ ما يؤدّي إلى الشرّ شرٌّ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك التزيين القويّ ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ مِن الخير والشرّ بإحداث ما يُمكّنهم منه ويحمِلُهم عليه توفيقًا أو تخذيلًا. ويجوز أن يُراد بـ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أُمَمُ الكَفَرة؛ إذ الكلامُ فيهم، وبـ﴿عَمَلَهُمْ﴾ شرُّهم وفسادُهم، والمشبَّه به تزيينُ سَبّ الله تعالى لهم.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مالِكِ أمرِهم ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: رجوعهم بالبعث بعد الموت، ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ مِن غير تأخير، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا على الاستمرار مِن السيّئات المزيَّنةِ لهم. وهو وعيد بالجزاء والعذاب، كقول الرجل لِمَن يتوعّده: "سأُخبِرك بما فعلتَ".

وفيه نكتة سِرّيّة مَبنيّة على حِكمة أبيّة، وهي: أنّ كلَّ ما يظهر في هذه النشأة مِن الأعيان والأعراض فإنّما يظهر بصورة مستعارة مخالِفةٍ لصورته الحقيقيّة التي بها يظهر في النشأة الآخرة، فإنّ المعاصي سُمومٌ قاتلةٌ قد برَزت في الدنيا بصورةٍ يستحسنها نفوس العُصاة، كما نطَقت به هذه الآية الكريمة، وكذا الطاعاتُ، فإنّها -مع كونها أحسَنَ الأحاسن- قد ظهرت عندهم بصُوَرٍ مكروهةٍ؛ ولذلك قال عليه السلام: «حُفَّت الجنّةُ بالمكارِهِ، وحُفَّت النارُ بالشَّهَوات»،[٢] فأعمال الكَفَرة قد برَزت لهم في هذه النشأة بصورةٍ مزيَّنةٍ يستحسنها الغُواة ويستحبّها الطُّغاة، وستظهر في النشأة الآخرة بصورتها الحقيقيّةِ المنكَرةِ الهائلةِ، فعند ذلك يعرفون أنّ أعمالهم ماذا؛ فعُبّر عن إظهارها بصُوَرِها الحقيقيّة بالإخبار بها لِما أنّ كلًّا منهما سببٌ للعلم بحقيقتها كما هي، فلْيُتدبَّر.[٣]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٢. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في جامع البيان للطبري، ٤٨٠/٩-٤٨٢؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٧٨/٤؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٢٥.

٢ صحيح مسلم، ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٢)؛ مسند أحمد، ٤٢٧/٢١ (١٥٠٢٩)؛ سنن الترمذي، ٦٩٣/٤ (٢٥٥٩).

٣ في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

[٢٥٣و] قوله تعالى: / ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ رُوي أنّ قريشًا اقترحوا بعضَ آياتٍ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «فإن فعلتُ بعضَ ما تقولون أتصدِّقونني؟»، فقالوا: «نعم»، وأقسموا: «لَئِنْ فعلتَه لنُؤمِنَنَّ جميعًا»، فسأل المسلمون رسولَ الله عليه السلام أن يُنزلها طمَعًا في إيمانهم، فهمَّ عليه السلام بالدعاء، فنزلَتْ.[١]

وقوله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ مصدر في موقع الحال، أي: أقسموا به تعالى جاهدين في أيمانهم ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ مِن مقترَحاتهم، أو مِن جنس الآيات، وهو الأنسبُ بحالهم في المكابرة والعناد وتَرامي أمرِهم في العُتُوّ والفساد، حيث كانوا لا يعُدّون ما يشاهدونه مِن المعجِزات القاهرة مِن جنس الآيات. ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ وما كان مَرمى غرضِهم في ذلك إلّا التحكّم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في طلب المعجِزة وعدم الاعتداد بما شاهدوا منه مِن البيّنات الحقيقةِ بأنْ تُقطَّع بها الأرض وتُسيَّر بها الجبال.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ﴾ أي: كلُّها، فيدخل فيها ما اقترحوه دخولًا أوّليًا. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أمرُها في حُكمه وقضائِه خاصّةً، يتصرّف فيها حسب مشيئتِه المَبنيّةِ على الحِكَم البالغةِ، لا تتعلّق بها ولا بشأنٍ مِن شئونها قدرةُ أحدٍ ولا مشيئتُه، لا استقلالًا ولا اشتراكًا بوجه مِن الوجوه، حتّى يُمكِنَني أن أتصدّى لاستنزالها بالاستدعاء. وهذا كما ترى سدٌّ لِباب الاقتراح على أبلغ وجهٍ وأحسنِه، ببيان عُلُوّ شأن الآيات وصعوبةِ مَنالها وتعالِيها مِن أن يكون عُرضةً للسؤال والاقتراح.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: "إنّما الآيات عند الله تعالى، لا عندي، فكيف أُجيبكم إليها أو آتيكم بها؟" أو "هو القادر عليها، لا أنا حتّى آتِيَكم بها"، فلا مناسبةَ له بالمقام؛ كيف لا، وليس مقترَحُهم مجيئَها بغير قدرة الله تعالى وإرادتِه حتّى يُجابوا بذلك.

---

[١] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٩/٤؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣٥٠/٨. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٤٨٥/٩-٤٨٦؛ وتفسير السمرقندي، ٤٩٣/١؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٢٥؛ واللباب لابن عادل، ٣٦٧/٨-٣٦٨.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كلام مستأنَفٌ غيرُ داخل تحت الأمر، مَسوقٌ مِن جهته تعالى لبيان الحكمة الداعية إلى ما أشعر به الجوابُ السابقُ مِن عدم مَجيء الآيات. خُوطِبَ به المسلمون، إمّا خاصّةً بطريق التلوين لِما كانوا راغبين في نزولها طمَعًا في إسلامهم، وإمّا معه عليه السلام بطريق التعميم لِما رُوي عنه عليه السلام مِن الهَمّ بالدعاء. وقد بُيّن فيه أنّ أيمانهم فاجرة، وإيمانَهم ممّا لا يدخل تحت الوجود، وإن أجيبَ إلى ما سألوه.

و﴿مَا﴾ استفهاميّة إنكاريّة؛ لكنْ لا على أنّ مرجِع الإنكار هو وقوع المُشعَر به، بل هو نفسُ الإشعار مع تحقّق المُشعَر به في نفسه، أي: وأيُّ شيءٍ يُعلِمكم أنّ الآية التي يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون؟ بل يبقَوْن على ما كانوا عليه مِن الكفر والعناد، أي: لا تعلمون ذلك فتتمنَّوْن مجيئَها طمَعًا في إيمانهم؛ فكأنّه بسط عُذرٍ مِن جهة المسلمين في تمنّيهم نزولَ الآيات.

وقيل: ﴿لَا﴾ مزيدة، فيتوجّهُ الإنكار إلى الإشعار والمُشعَر به جميعًا، أي: أيُّ شيءٍ يُعلِمكم إيمانَهم عند مَجيء الآيات حتّى تتمنَّوْا مَجيئَها طمَعًا في إيمانهم؟ فيكونُ تخطئةً لرأي المسلمين. وقيل: ﴿أَنَّ﴾ بمعنى "لعلّ"، يُقال: "ادخل السوقَ أنّك تشتري اللحم"، و"عنّك" و"علّك" و"لعلّك" كلُّها بمعنًى، ويؤيّده أنّه قُرئ: "لَعَلَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ"[١] على أنّ الكلام قد تمّ قبله، والمفعولُ الثاني لـ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ محذوف، كما في قوله تعالى: / ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس، ٣/٨٠]. [٢٥٣ظ]

والجملة استئناف لتعليل الإنكار وتقريرِه، أي: أيُّ شيءٍ يُعلِمكم حالَهم وما سيكون عند مَجيء الآيات، لعلّها إذا جاءت لا يؤمنون بها، فما لكم تتمنَّوْن مجيئَها؟ فإنّ تمنّيه إنّما يَليق بما إذا كان إيمانُهم بها محقَّقَ الوجودِ عند مَجيئها، لا مَرجُوّ العدم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧/٢.

وقُرئ: "إِنَّهَا"[١] بالكسر على أنّه استئناف حسبما سبق مع زيادةِ تحقيقٍ لعدم إيمانهم. وقُرئ: "لَا تُؤْمِنُونَ"[٢] بالفَوقانيّة، فالخطاب في ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للمشركين. وقُرئ: "وَمَا يُشْعِرُهُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"،[٣] فمرجِع الإنكار إقدامُ المشركين على الإقسام المذكور مع جهلهم بحال قلوبهم عند مَجيء الآيات وبكونها حينئذ كما هي الآن.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾،[٤] داخلٌ في حكم ﴿مَا يُشْعِرُكُمْ﴾،[٥] مقيَّدٌ بما قُيِّد به، أي: وما يُشعِركم أنّا نقلِّب أفئدتَهم عن إدراك الحقّ فلا يفقَهونه، وأبصارَهم عن اجتلائه فلا يُبصرونه؛ لكنْ لا مع توجّهِها إليه واستعدادِها لقَبوله، بل لكمال نُبُوّهاً عنه وإعراضِها بالكلّيّة؛ ولذلك أُخِّر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم إشعارًا بأصالتهم في الكفر، وحسمًا لتوهّمِ أنّ عدم إيمانهم ناشيءٌ مِن تقليبه تعالى مشاعِرَهم بطريق الإجبار.

﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ﴾ أي: بما جاء مِن الآيات ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: عند ورود الآيات السابقة. و"الكاف" في محلّ النصب على أنّه نعتٌ لمصدر محذوفٍ منصوبٍ بـ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: لا يؤمنون، بل يكفرون كفرًا كائنًا ككفرهم أوّلَ مرةٍ. وتوسيط تقليب الأفئدة والأبصارِ بينهما لأنّه مِن متمّمات عدم إيمانهم.

﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، داخلٌ في حكم الاستفهام الإنكاريّ، مقيّدٌ بما قُيِّد به، مبيّنٌ لِما هو المراد بتقليب الأفئدة والأبصار، ومُعرِبٌ عن حقيقته

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف، واختُلِف في رواية أبي بكر عن عاصم. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٦٥؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٦٠.

[٢] قرأ بها ابن عامر وحمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٠.

[٣] قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/١٧٨.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] في الآية السابقة.

بأنّه ليس على ظاهره بأنْ يُقلِّب الله سبحانه مشاعِرَهم عن الحقّ مع توجّهِهم إليه واستعدادِهم له بطريق الإجبار؛ بل بأنْ يُخلِّيَهم وشأنَهم بعد ما عُلم فسادُ استعدادِهم وفرطُ نفورِهم عن الحقّ وعدمُ تأثير اللطف فيهم أصلًا، ويطبَعَ على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم كما أشرنا إليه.

وقوله تعالى: ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ متعلّق بـ﴿نَذَرُهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال مِن الضمير المنصوب في ﴿نَذَرُهُمْ﴾، أي: نَدَعُهم في طُغيانهم متحيّرين، لا نَهديهم هدايةَ المؤمنين، أو مفعولٌ ثانٍ لـ﴿نَذَرُهُمْ﴾، أي: نصيّرهم عامهين. وقُرئ: "يُقَلِّبُ" و"يَذَرُ"[1] بالياء على إسنادهما إلى ضمير الجلالة. وقُرئ: "تُقَلَّبُ" بالتاء والبناءِ للمفعول على إسناده إلى ﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾.[2]

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

/ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ تصريحٌ بما أشعر به قولُه عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3] مِن الحكمة الداعية إلى ترك الإجابة إلى ما اقترحوه مِن الآيات، إثرَ بيانِ أنّها في حُكمه تعالى وقضائِه[4] المبنيّ على الحِكَم البالغةِ، لا مدخَلَ لأحد في أمرها بوجه مِن الوجوه، وبيانٌ[5] لكذبهم في أيمانهم الفاجرةِ على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه،[6] أي: ولو أنّنا لم نقتصر على إيتاءِ ما اقترحوه ههنا مِن آية واحدة مِن الآيات، بل نزّلنا إليهم الملائكةَ كما سألوه بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان، ٢١/٢٥]، وقولِهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الحجر، ٧/١٥]، ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وشهِدوا بحقّيّة الإيمان بعد أن أحيَيْناهم [٢٥٤و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٦.

٢ في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، وبه الثقة والاعتصام.

٣ الأنعام، ١٠٩/٦.

٤ وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام، ١٠٩/٦].

٥ السياق: تصريح... وبيان لكذبهم...

٦ وفي هامش م: حيث لم يُعلّق عدم إيمانهم بمَجيئ ما اقترحوه فقط. «منه».

حسبما اقترحوه بقولهم: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَا﴾ [الدخان، ٣٦/٤٤]، ﴿وَحَشَرْنَا﴾ أي: جمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ بضمّتَين. وقُرئ بسكون الباء.[1]

أي: كُفلاءَ بصحّة الأمر وصدقِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، على أنّه جمعُ "قَبيل" بمعنى "الكَفيل"، كـ"رَغيف" و"رُغُف" و"قَضيب" و"قُضُب"، وهو الأنسبُ بقوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾،[2] أي: لو لم نقتصر على ما اقترحوه؛ بل زِدنا على ذلك بأنْ أحضرنا لَديهم كلَّ شيءٍ يتأتّى منه الكفالةُ والشهادةُ بما ذُكر، لا فُرادى؛ بل بطريق المَعيّة.

أو جماعاتٍ، على أنّه جمعُ "قَبيل"، هو جمعُ "قبيلة"، وهو الأوفقُ لعموم ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ وشمولِه للأنواع والأصناف، أي: حشرنا كلَّ شيء نوعًا نوعًا وصنفًا صنفًا وفوجًا فوجًا، وانتصابُه على الحاليّة، وجمعيّتُه باعتبار الكلّ المجموعيّ اللازمِ للكلّ الإفراديّ.

أو[3] مقابلةً وعِيانًا، على أنّه مصدرٌ كـ"قِبَلًا"، وقد قُرئ كذلك،[4] وانتصابُه على الوجهين على أنّه مصدر في موقع الحال. وقد نُقل عن المبرّد وجماعةٍ مِن أهل اللغة أنّ الأخير / بمعنى "الجهة" كما في قولك: "لي قِبَلَ فلانٍ حقٌّ"، وأنّ انتصابه على الظرفيّة.[5] [٢٥٤ظ]

﴿مَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي: ما صحَّ ولا استقامَ لهم الإيمانُ لتَماديهم في العصيان وغُلُوِّهم في التمرّد والطُّغيان. وأمّا سبقُ القضاء عليهم بالكفر، فمِن الأحكام المترتِّبة على ذلك حسبما يُنبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام، ١١٠/٦].

---

[1] أي: "قُبْلًا". هي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإبراهيم وعطاء بن السائب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٧.

[2] ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء، ٩٢/١٧].

[3] السياق: أي: كُفلاءَ... أو جماعاتٍ... أو مقابلةً وعِيانًا...

[4] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢-٢٦١.

[5] انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٣٥/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦٢٢/٤؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٩/٨.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المَهابة وإدخالِ الروعة، أي: ما كانوا لِيؤمنوا بعد اجتماعِ ما ذُكر مِن الأمور الموجِبة للإيمان في حال مِن الأحوال الداعيةِ إليه المتمِّمةِ لموجِباته المذكورةِ، إلّا في حال مشيئته تعالى لإيمانهم، أو مِن أعمّ العِلَل،[1] أي: ما كانوا لِيؤمنوا لعلّةٍ مِن العِلَل المعدودةِ وغيرِها إلّا لمشيئته تعالى له.

وأيًّا ما كان، فليس المرادُ بالاستثناء بيانَ أنّ إيمانهم على خطر الوقوع بناءً على كون مشيئته تعالى أيضًا كذلك؛ بل بيانُ استحالةِ وقوعِه بناءً على استحالة وقوعها، كأنّه قيل: "ما كانوا لِيؤمنوا إلّا أن يشاء الله، وهيهاتَ ذلك وحالُهم حالُهم"، بدليلِ ما سبق مِن قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ الآية؛[2] كيف لا، وقولُه عزّ وجلّ:[3] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ استدراك مِن مضمون الشرطيّة بعد ورود الاستثناء، لا قبله، ولا ريبَ في أنّ الذي يجهلونه -سواء أُريدَ بهم المسلمون، وهو الظاهرُ، أو المُقسِمون- ليس عدمَ إيمانهم بلا مشيئة الله تعالى كما هو اللازم مِن حمل النظم الكريم على المعنى الأوّل، فإنّه ليس ممّا يعتقده الأوّلون، ولا ممّا يدّعِيه الآخرون؛ بل إنّما هو عدم إيمانهم لعدم مشيئتِه إيمانَهم، ومرجِعُه إلى جهلهم بعدم مشيئتِه إيّاه.

فالمعنى: أنّ حالهم كما شُرح، ولكنّ أكثرَ المسلمين يجهلون عدمَ إيمانهم عند مَجيء الآيات لجهلهم عدمَ مشيئتِه تعالى لإيمانهم، فيتمنَّوْن مجيئَها طمَعًا فيما لا يكون؛ فالجملة مقرِّرة لمضمون قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾... إلخ،[4] على القراءة المشهورة، / أو ولكنّ أكثرَ المشركين يجهلون عدمَ إيمانهم عند مَجيء الآيات لجهلهم عدمَ مشيئته تعالى لإيمانهم حينئذ، فيُقسمون بالله جهدَ أيمانهم على ما لا يكاد يكون؛ فالجملة على القراءة السابقة بيانٌ مبتدأٌ [٢٥٥و]

---

١ السياق: استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال... أو مِن أعمّ العِلَل...

٢ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام، ١١٠/٦].

٣ س: تعالى.

٤ الأنعام، ١٠٩/٦.

لمَنشأِ خطأِ المُقسِمين ومناطِ إقسامهم، وتقريرٌ له على قراءة "لَا تُؤْمِنُونَ" بالتاء الفَوقانيّة، وكذا على قراءة "وَمَا يُشْعِرُهُمْ أَنَّهَا إِذَا[1] جَاءَتْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ".[2]

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ كلام مبتدأ مسوقٌ لتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان يشاهده مِن عداوة قريش له عليه السلام وما بنَوْا عليها ممّا لا خيرَ فيه مِن الأقاويل والأفاعيل، ببيان أنّ ذلك ليس مختصًّا بك؛ بل هو أمرٌ ابتُلِي به كلّ مَن سبقك مِن الأنبياء عليهم السلام.

ومحلّ "الكاف" النصبُ على أنّه نعت لمصدر مؤكِّد لِما بعده، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما يُفهَم ممّا قبله، أي: جعلنا لكلّ نبيّ عدُوًّا جَعْلًا كما جعلنا لك عدُوًّا. والتقديم على الفعل للقَصر المفيد للمبالغة، والمعنى:[3] مثلَ ذلك الجَعل الذي جعلنا في حقّك -حيث جعلنا لك عدُوًّا يُضادُّونك ويُضارُّونك ولا يؤمنون ويبغونك الغوائلَ ويدبّرون في إبطال أمرك مكائدَ- جعلنا لكلّ نبيّ تقدَّمَك عدُوًّا فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤُك، لا جعلًا أنقَصَ منه. وفيه دليل على أنّ عداوة الكَفَرة للأنبياء عليهم السلام بخلقه تعالى للابتلاء.

﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي: مَرَدةَ الفريقَين، على أنّ الإضافة بمعنى "مِن" البيانيّة. وقيل: هي إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل: الإنسَ والجنَّ الشياطينَ. وقيل: هي بمعنى "اللام"، أي: الشياطينَ للإنس والتي للجنّ. وهو بدلٌ مِن ﴿عَدُوًّا﴾،

---

[1] س - إذا.

[2] سبق ذِكرهما في تفسير الأنعام، ١٠٩/٦.

[3] وفي نسخة ط: "لمصدرٍ محذوف أشيرَ إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾، منصوب بفعله المحذوف، و﴿مَا﴾ مصدريّة، والتقديم على الفعل المذكور للقَصر المفيد للمبالغة، أي" بَدَلًا مِن "لمصدرٍ مؤكِّدٍ لِما بعده، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما يُفهَم ممّا قبله، أي: جعلنا لكلّ نبيّ عدُوًّا جعلًا كما جعلنا لك عدُوًّا. والتقديم على الفعل للقَصر المفيد للمبالغة، والمعنى". وناسِخُ س أورَدَ ما في ط أوّلًا، ثمّ مَحَاه وصحّحه في الهامش كما في نسخة المؤلّف. يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط.

والجَعْل متعدٍّ إلى واحد، أو إلى اثنين، وهو أوّلُ مفعولَيه، قُدّم عليه الثاني مسارعةً إلى بيان العداوة. و"اللام" / على التقديرين متعلِّقةٌ بالجعل، أو بمحذوف هو حال مِن ﴿عَدُوًّا﴾. [٢٥٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ كلام مستأنَف مَسوقٌ لبيان أحكام عداوتهم وتحقيقِ وجه الشَّبَه بين المشبَّه والمشبَّهِ به، أو حال مِن "الشياطين"، أو نعت لـ﴿عَدُوًّا﴾، وجمعُ الضمير باعتبار المعنى، فإنّه عبارة عن الأعداء كما في قوله:

إذا أنا لم أنفَعْ صديقي بوُدّه فإنّ عدُوّي لم يضُرَّهم بُغْضِي[1]

و"الوحي": عبارة عن الإيماء والقولِ السريعِ، أي: يُلقي ويوسوِس شياطينُ الجنّ إلى شياطين الإنس أو بعضُ كلٍّ مِن الفريقَين إلى بعض آخَرَ ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: المُمَوَّهَ منه، المزيَّنَ ظاهرُه الباطلَ باطنُه. مِن "زَخْرَفَه" إذا زيّنه. ﴿غُرُورًا﴾ مفعول له لـ﴿يُوحِى﴾، أي: لِيَغُرّوهم، أو مصدر في موقع الحال، أي: غارّين، أو مصدر مؤكِّد لفعل مقدَّر هو حال مِن فاعل ﴿يُوحِى﴾، أي: يغُرّون غُرورًا.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ رجوع إلى بيان الشئون الجارية بينه عليه السلام وبين قومه، المفهومةِ مِن حكاية ما جرى بين الأنبياء عليهم السلام وبين أُمَمِهم، كما يُنبئ عنه الالتفاتُ والتعرّضُ لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام المُعرِبةِ عن كمال اللطف في التسلية، أي: ولو شاء ربّك عدمَ الأمور المذكورة؛ لا إيمانَهم كما قيل، فإنّ القاعدة المستمرّة أنّ مفعول "المشيئة" إنّما يُحذَف عند وقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء، وهو قوله تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما فعلوا ما ذُكر مِن عداوتك وإيحاءِ بعضهم إلى بعض منهم مُزَخْرَفاتِ الأقاويل الباطلة المتعلِّقةِ بأمرك خاصّةً؛ لا بما يعمّه وأمورَ الأنبياء / عليهم السلام أيضًا كما قيل، فإنّ قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ صريح في أنّ المراد بهم الكَفَرة المعاصِرون له صلّى الله عليه وسلّم، أي: إذا كان ما فعلوه [٢٥٦و]

---

[1] البيت لِنابغة بني شيبان، وهو في ديوانه، ص ١١٧؛ والمذكّر والمؤنّث لابن الأنباري، ٣١٧/١. وفي الثاني: "لنْ يضُرَّهم" بدَلَ "لم يضُرَّهم".

مِن أحكام عداوتك مِن فنون المفاسد بمشيئته تعالى، فاترُكْهم وافتراءَهم أو وما يفترونه مِن أنواع المكائد، فإنّ لهم في ذلك عقوباتٍ شديدةً، ولك عواقبَ حميدة لابتناء مشيئتِه تعالى على الحِكَم البالغة البتّةَ.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى زُخرف القول، وهو على الوجه الأوّل[1] علّة أخرى للإيحاء،[2] معطوفةٌ على ﴿غُرُورًا﴾،[3] وما بينهما اعتراض، وإنّما لم يُنصَب لفقد شرطه؛ إذ الغرورُ فعلُ الموحِي، وصَغْوُ الأفئدةِ فعلُ الموحَى إليه، أي: يوحِي بعضهم إلى بعضٍ زُخرفَ القول لِيغُرّوهم به ولِتَميلَ إليه ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

إنّما خُصَّ بالذِّكر عدمُ إيمانهم بالآخرة، دون ما عَداها مِن الأمور التي يجب الإيمان بها، وهم بها كافرون، إشعارًا بما هو المدار في صَغْوِ أفئدتِهم إلى ما يُلقَى إليهم؛ فإنّ لَذّاتِ الآخرةِ محفوفةٌ في هذه النشأة بالمَكاره، وآلامها مزيَّنةٌ بالشَّهَوات، فالذين لا يؤمنون بها وبأحوال ما فيها لا يَدْرون أنّ وراءَ تلك المَكاره لَذّاتٍ ودون هذه الشَّهَوات آلامًا، وإنّما ينظرون إلى ما بَدَا لهم في الدنيا باديَ الرأي، فهم مضطَرّون إلى حُبّ الشَّهَوات التي مِن جملتها مُزَخْرَفات الأقاويل ومُمَوَّهاتُ الأباطيل، وأمّا المؤمنون بها، فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ناظرين إلى عواقب الأمور، لم يتصوّر منهم المَيلُ إلى تلك المُزَخْرَفات لِعلمهم ببُطلانها ووخامةِ عاقبتها.

وأمّا على الوجهين الأخيرين،[4] فهو علّة لفعل محذوف يدلّ عليه المقام، أي: ولِيكونَ ذلك جعلنا ما جعلنا. والمعتزلة / جعلوا "اللامَ" لامَ العاقبة أو لامَ القَسم أو لامَ الأمر، وضعفُه في غاية الظهور. [٢٥٦ظ]

---

[1] وفي هامش م: وهو كون ﴿غُرُورًا﴾ مفعولًا له لـ﴿يُوحِى﴾. «منه».

[2] في الآية السابقة: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

[3] في الآية السابقة.

[4] وفي هامش م: هما: أنْ يكون ﴿غُرُورًا﴾ مصدرًا واقعًا موقعَ الحال، أو مصدرًا مؤكِّدًا لفعل محذوف. «منه».

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسِهم بعد ما مالت إليه أفئدتهم، ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ أي: يكتسبوا بموجَب ارتضائهم له ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ له مِن القبائح التي لا يَليق ذكرُها.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ كلام مستأنَف واردٌ على إرادة "القول"، والهمزة للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه الكلام، أي: قُلْ لهم: أأَمِيلُ إلى زَخارِفِ الشياطين، فأبتغي حَكَمًا غيرَ الله يحكم بيننا ويفصِل المُحِقَّ منّا مِن المُبطِل؟ وقيل: إنّ مشركي قريش قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «اجعَلْ بيننا وبينك حَكَمًا مِن أحبار اليهود أو مِن أساقِفَة النصارى لِيُخبرَنا عنك بما في كتابهم مِن أمرك»، فنزلَتْ.[١]

وإسناد "الابتغاء" المنكَرِ إلى نفسه عليه السلام، لا إلى المشركين كما في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران، ٨٣/٣]، مع أنّهم الباغون، لإظهار كمال النَّصَفة، أو لمُراعاة قولهم: «اجعَلْ بيننا وبينك حَكَمًا». و﴿غَيْرَ﴾ إمّا مفعولُ ﴿أَبْتَغِى﴾، و﴿حَكَمًا﴾ حال منه، وإمّا بالعكس. وأيًّا ما كان، فتقديمه على الفعل الذي هو المعطوف بـ"الفاء" حقيقةً كما أشيرَ إليه، للإيذان بأنّ مدار الإنكار هو ابتغاء غيره تعالى حَكَمًا، لا مطلَقُ الابتغاء. وقيل: ﴿حَكَمًا﴾ تمييز لِما في ﴿غَيْرَ﴾ مِن الإبهام، كقولهم: "إنّ لنا غيرَها إبِلًا". قالوا: "الحَكَم" أبلَغُ مِن "الحاكم" وأدَلُّ على الرسوخ، لِما أنّه لا يُطلَق إلّا على العادل وعلى مَن تكرَّرَ منه الحُكمُ، بخلاف "الحاكم".

/ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ جملة حاليّة مؤكِّدة لإنكار ابتغاء غيره تعالى حَكَمًا. ونسبة "الإنزال" إليهم خاصّةً -مع أنّ مقتضى المقام إظهارُ تَساوي نسبتِه إلى المتحاكِمِين- لاستمالتهم نحوَ المنزل واستنزالِهم إلى قبول حُكمه بإيهام قوّة نسبتِه إليهم، أي: أغيرَه تعالى أبتغي حَكَمًا [٢٥٧و]

---

[١] هو باختلاف يسير في البحر المحيط لأبي حيّان، ٦٢٧/٤. ونحوه في اللباب لابن عادل، ٣٩٣/٨.

والحالُ أنّه هو الذي أنزل إليكم -وأنتم أمّة أُمّيّة، لا تَدْرون ما تأتون وما تذَرون- القرآنَ الناطقَ بالحقّ والصوابِ الحقيقَ بأنْ يُخَصَّ به اسم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾.

﴿مُفَصَّلًا﴾ أي: مبيَّنًا فيه الحقّ والباطل والحلال والحرام وغيرُ ذلك مِن الأحكام بحيث لم يبقَ في أمر الدين شيءٌ مِن التخليط والإبهام؛ فأيُّ حاجة بعد ذلك إلى الحَكم؟ وهذا -كما ترى- صريح في أنّ القرآن الكريم كافٍ في أمر الدين، مُغْنٍ عن غيره ببيانه وتفصيلِه، وأمّا أن يكون لإعجازه دَخْلٌ في ذلك كما قيل، فلا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ كلام مستأنَف، غيرُ داخل تحت القول المقدَّر، مَسوقٌ مِن جهته سبحانه لتحقيق حَقّيّة الكتاب[١] الذي نِيطَ به أمرُ الحَكَميّة وتقريرِ كونه منزَّلًا مِن عنده عزّ وجلّ، ببيانِ أنّ الذين وثِقوا بهم ورَضُوا بحَكَميّتِهم -حسبما نُقل آنفًا مِن علماء اليهود والنصارى- عالِمون بحَقّيّته ونزولِه مِن عنده تعالى.

وفي التعبير عن التوراة والإنجيلِ باسم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ إيماءٌ إلى ما بينهما وبين القرآن مِن المجانَسة المقتضيةِ للاشتراك في الحَقّيّة والنزولِ مِن عنده تعالى، مع ما فيه مِن الإيجاز. وإيراد الطائفتين بعُنوان "إيتاء الكتاب" للإيذان بأنّهم علِموه مِن جهة كتابهم، حيث وجدوه / حسبما نُعت فيه، وعايَنوه موافِقًا له في الأصول وما لا يُختلف مِن الفروع، ومخبِرًا عن أمورٍ لا طريقَ إلى معرفتها سِوى الوحي. [٢٥٧ظ]

والمراد بالموصول إمّا علماءُ الفريقَين، وهو الظاهر، فـ"الإيتاء" هو التفهيم بالفعل، وإمّا الكلُّ، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًّا، فهو أعمُّ ممّا ذُكر، ومِن التفهيم بالقوّة، ولا ريبَ في أنّ الكلّ متمكِّنون مِن ذلك. وقيل: المراد مؤمنوا أهل الكتاب. وقُرئ: "مُنْزَلٌ"[٢] مِن "الإنزال". والتعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم[٣] لتشريفه عليه السلام.

---

١ وفي هامش م: وقيل: هو تأييدٌ لدلالة الإعجاز على أنّ القرآن حقٌّ منزلٌ مِن عند الله تعالى، يعلم أهل الكتاب [به لتصديقه ما عندهم]، وقد عرفتَ ما فيه آنفًا. «منه». | قائله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٧٩/٢، وما زدناه منه.

٢ قرأ بها السبعة إلّا ابن عامر وعاصمًا في رواية حفص. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

٣ س: عليه السلام.

و"الباء" في قوله تعالى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن الضمير المستكنّ في ﴿مُنَزَّلٌ﴾، أي: ملتبِسًا بالحقّ.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: في أنّهم يعلمون ذلك، لِما لا تُشاهِد منهم آثارَ العلم وأحكامَ المعرفة، فـ"الفاء" لترتيب النهي على الإخبار بعلم أهل الكتاب بشأن القرآن أو في أنّه منزَّل مِن ربّك بالحقّ، فيكون مِن باب التهييج والإلهابِ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ١٤/٦؛ يونس، ١٠٥/١٠؛ القصص، ٨٧/٢٨]. وقيل: الخطاب في الحقيقة للأمّة وإن كان له عليه السلام صورةً. وقيل: الخطاب لكلّ أحد، على معنى أنّ الأدلّة قد تعاضَدت وتظاهَرت، فلا ينبغي لأحد أن يمتريَ فيه. و"الفاء" على هذه الوجوه لترتيب النهي على نفس علمهم بحال القرآن.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ شروع في بيان كمال الكتاب المذكور[1] مِن حيث ذاتُه إثرَ بيان كماله مِن حيث إضافتُه إليه تعالى بكونه منزَّلًا منه بالحقّ، وتحقيقِ ذلك بعلم أهل الكتاب به. وإنّما عُبّر عنه بـ"الكلمة"؛ لأنّها الأصل في الاتّصاف بالصدق والعدل، وبها يظهر الآثار مِن الحِكَم. وقُرئ: "كَلِمَاتُ رَبِّكَ".[2] ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ مصدرانِ، نُصِبَا / على الحال، وقيل: على التمييز، وقيل: على العلّة. [٢٥٨و]

وقوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ إمّا استئناف مبيِّن لفضلها على غيرها إثرَ بيان فضلها في نفسها، وإمّا حال أخرى مِن فاعل ﴿تَمَّتْ﴾، على أنّ الظاهر مُغْنٍ عن الضمير الرابط، والمعنى: أنّها بلغت الغايةَ القاصيةَ صِدقًا في الأخبار والمواعيد وعدلًا في الأقضية والأحكام، لا أحدَ يبدِّل شيئًا مِن ذلك بما هو أصدَقُ وأعدَلُ، ولا بما هو مِثله؛ فكيف يُتصوّر ابتغاء حَكَمٍ غيرِه تعالى ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكلِّ ما يتعلّق به السمع، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكلّ ما يُمكن أن يُعلَم، فيدخل في ذلك أقوال المتحاكِمِين وأحوالُهم الظاهرةُ والباطنةُ دخولًا أوّليًا.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

هذا، وقد قيل: المعنى: لا أحدَ يقدِر على أن يحرِّفها كما فُعل بالتوراة، فيكونُ ضَمانًا لها مِن الله عزّ وجلّ بالحِفظ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر، ٩/١٥]، أو لا نبيَّ ولا كتابَ بعدها ينسَخها.

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لمّا تحقَّقَ اختصاصه تعالى بالحَكَميّة لاستقلاله بما يوجِبها مِن إنزال الكتاب الكاملِ الفاصلِ بين الحقّ والباطل وتمامِ صدق كلامه وكمالِ عدالة أحكامه وامتناعِ وجود مَن يبدِّل شيئًا منهما واستبدادِه تعالى بالإحاطة التامّة بجميع المسموعات والمعلومات، عُقّب[١] ذلك ببيانِ أنّ الكَفَرة متّصِفون بنقائض تلك الكمالاتِ مِن النقائص التي هي الضلال والإضلال، واتّباعُ الظنون الفاسدةِ الناشئُ مِن الجهل، والكذبُ على الله سبحانه، إبانةً لكمال مبايَنةِ حالِهم لِما يَرُومونه، وتحذيرًا عن الرُّكون إليهم والعملِ بآرائهم.

والمراد بـ﴿مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الناسُ، وبـ"أكثرهم" الكفّارُ، وقيل: أهلُ مكّةَ، و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضُها، أي: إن تُطِعْهم بأنْ جعلتَ منهم حَكَمًا، ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن الطريق الموصِل إليه، أو عن الشريعة التي شرعها لعباده.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وهو ظنُّهم أنّ آباءهم كانوا على الحقّ فهُمْ على آثارهم يهتدون، أو جهالاتُهم وآراؤهم الباطلةُ، على أنّ المراد بـ﴿ٱلظَّنَّ﴾ ما يقابِل العلمَ. / والجملة استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن الشرطيّة، كأنّه قيل: كيف يُضلّون؟ فقيل: لا يتّبعون في أمور دينهم إلّا الظنَّ، وإنّ الظنّ لا يُغني مِن الحقّ شيئًا، فيَضِلّون ضلالًا مبينًا، ولا ريبَ في أنّ الضالَّ المتصدّيَ للإرشاد إنّما يُرشِد غيرَه إلى مسلَك نفسه؛ فهُمْ ضالّون مُضِلّون. [٢٥٨ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ عطفٌ على ما قبله، داخلٌ في حكمه، أي: يكذبون على الله سبحانه فيما ينسبون إليه تعالى، كاتّخاذ الولد

---

[١] السياق: لمّا تحقّقَ... عُقّب ذلك...

وجعلِ عبادة الأوثان ذريعةً إليه تعالى وتحليلِ المَيْتة وتحريمِ البحائر ونظائرِها، أو يقدِّرون أنّهم على شيء؛ وأنّى لهم ذلك ودُونه مناطُ العَيُّوقِ[1] وحقيقتُه ما يُقال عن ظنّ وتخمين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١١٧﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ تقرير لمضمون الشرطيّة[2] وما بعدها، وتأكيدٌ لِما يفيده مِن التحذير، أي: هو أعلمُ بالفريقَين، فاحذَرْ أن تكون مِن الأوّلِين. و﴿مَنْ﴾ موصولة أو موصوفة في محلّ النصب، لا بنفس ﴿أَعْلَمُ﴾، فإنّ أفعل التفضيل لا ينصِب الظاهرَ في مثل هذه الصُّوَر؛ بل بفعلٍ دلَّ هو عليه، أو[3] استفهاميّة مرفوعة بالابتداء، والخبرُ ﴿يَضِلُّ﴾، والجملة معلَّقٌ عنها الفعلُ المقدَّرُ.

وقُرئ: "يُضِلُّ"[4] بضمّ الياء، على أنّ ﴿مَنْ﴾ فاعلٌ لـ﴿يَضِلُّ﴾، ومفعوله محذوفٌ، ومحلّها النصبُ بما ذُكر مِن الفعل المقدَّر، أي: هو أعلَمُ، يعلم مَن يُضِلّ الناسَ، فيكون تأكيدًا للتحذير عن طاعة الكَفَرة.

وأمّا أنّ الفاعل هو الله تعالى، و﴿مَنْ﴾ منصوبةٌ بما ذُكر، أي: يعلم مَن يُضِلّه، أو مجرورةٌ بإضافة ﴿أَعْلَمُ﴾ إليها، أي: أعلمُ المُضِلّين، مِن قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ [النساء، ٤/١٤٣؛ الأعراف، ٧/١٨٦]، أو مِن قولك: "أضلَلْتُه" إذا وجدتَه ضالًّا، فلا يساعده[5] السباقُ والسياقُ. والتفضيلُ في العلم بكثرته وإحاطتِه بالوجوه التي / يمكن تعلّقُ العلم بها ولزومِه وكونِه بالذات، لا بالغير. [٢٥٩و]

---

[1] العَيّوق: كوكب بحِيال الثُّريّا، إذا طلَعَ عُلِم أنّ الثريّا قد طلعتْ. و"أبعد مِن مَناط العَيّوق" أو "دونه مَناط العَيّوق" مَثَلٌ يُضرب للشيء يتعذّر وجوده، وفي تأكيد بُعد الشيء وما لا يُنال. انظر: كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢/١٧٩ «باب العين والقاف»؛ ومجمع الأمثال للميداني، ١/١١٥، ٢٦٤.

[2] في الآية السابقة.

[3] السياق: و﴿مَنْ﴾ موصولة أو موصوفة... أو استفهاميّة...

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن البصري والحسن بن عمران والنهشلي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٧.

[5] السياق: وأمّا أنّ الفاعل هو الله تعالى... فلا يساعده...

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١١٨﴾

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أمرٌ مترتِّبٌ على النهي عن اتّباع المُضلّين الذين مِن جملة إضلالهم تحريمُ الحلال وتحليلُ الحرام، وذلك أنّهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تعبدون الله، فما قتله الله أحقُّ أن تأكلوه ممّا قتلتم أنتم، فقيل للمسلمين: كُلوا ممّا ذُكر اسمه تعالى خاصّةً على ذبحه، لا ممّا ذُكر عليه اسم غيره فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتفَ أنفِه. ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ﴾ التي مِن جملتها الآيات الواردة في هذا الشأن، ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ فإنّ الإيمان بها يقتضي استباحةَ ما أحلّه الله والاجتنابَ عمّا حرّمه. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ١١٩﴾

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إنكار لأنْ يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ما ذُكر عليه اسمُ الله تعالى مِن البحائر والسوائب ونحوِها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾... إلى آخره جملة حاليّة مؤكِّدةٌ للإنكار كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة، ٢/٢٤٦]، أي: وأيُّ سبب حاصل لكم في ألّا تأكلوا ممّا ذُكر اسم الله عليه، أو وأيُّ غرض يَحمِلكم على ألّا تأكلوا ويمنعكم مِن أكله والحالُ أنّه قد فصّل لكم ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾... إلخ،[1] فبقِيَ ما عَدَا ذلك على الحِلّ؛ لا بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾... إلخ؛[2] لأنّها مَدَنيّة، وأمّا التأخّر في التلاوة، فلا يوجب التأخّرَ في النزول.

---

١ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام، ٦/١٤٥].

٢ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة، ٥/٣].

وقُرئ الفعلانِ على البناء للمفعول.[١] وقُرئ الأوّل على البناء للفاعل والثاني للمفعول.[٢]

﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ﴾ ممّا حرّم، فإنّه أيضًا حلال حينئذ. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ / أي: مِن الكُفّار ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ الناسَ بتحريم الحلال وتحليلِ الحرام، كعمرو بنِ لُحَيّ وأضرابِه. وقُرئ: "يَضِلُّونَ".[٣] ﴿بِأَهۡوَآئِهِم﴾ الزائغةِ وشَهَواتِهم الباطلةِ ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ مقتبَسٍ مِن الشريعة الشريفة مستنِدٍ إلى الوحي. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ المتجاوِزين لحدود الحقّ إلى الباطل والحلالِ إلى الحرام. [٢٥٩ظ]

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ أي: ما يُعلَن مِن الذنوب وما يُسَرّ، أو ما يُعمَل منها بالجوارح وما بالقلب، وقيل: الزِّنا في الحوانيت واتّخاذُ الأخدان. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾ أي: يكتسبونه مِن الظاهر والباطن، ﴿سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ كائنًا ما كان، فلا بدَّ مِن اجتنابهما. والجملة تعليل للأمر.

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ ظاهرٌ في تحريم متروكِ التسميةِ، عَمْدًا كان أو نِسيانًا، وإليه ذهب داودُ، وعن أحمد بنِ حنبل مثلُه. وقال مالك والشافعي بخلافه، لقوله صلّى الله عليه وسلّم:[٤] «ذبيحة المسلم حلالٌ وإن لم يذكر اسم الله عليها».[٥] وفرّق أبو حنيفةَ -رحمهم الله- بين العَمد والنسيانِ،

---

[١] أي: "وَقَدْ فُصِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ"، قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٦٧؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٢.

[٢] أي: "وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ"، قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٦٧؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٢.

[٣] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٢.

[٤] س: عليه السلام.

[٥] الحديث بهذه الألفاظ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٨٠. وأخرج أبو داود في المراسيل، ص ٢٧٨ (٣٧٨)، عن الصلتِ السدوسي، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ذبيحة المسلم حلال، ذَكر اسمَ الله أو لم يَذكُر، إنّه إنْ ذَكر لم يذكُر إلّا اسمَ الله». وهو في السنن الكبرى للبيهقي، ٩/٤٠٢ (١٨٨٩٥).

وأوَّلَه[١] بالمَيْتة أو بما ذُكر عليه اسم غيره تعالى، لقوله تعالى:[٢] ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾؛ فإنّ الفِسق ما أُهِلَّ به لغير الله. والضمير لـ﴿مَا﴾، ويجوز أن يكون لـ"الأكل" المدلولِ عليه بـ﴿لَا تَأْكُلُوا﴾. والجملة مستأنفة، وقيل: حاليّة.

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ المراد بـ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ إبليسُ وجنودُه، [٢٦٠و] فإيحاؤهم وسوسَتُهم إلى المشركين، / وقيل: مَرَدةُ المجوس، فإيحاؤهم إلى أوليائهم ما أنهَوْا إلى قريش بالكتاب أنّ محمّدًا وأصحابَه يزعمون أنّهم يتّبعون أمرَ الله، ثمّ يزعمون أنّ ما يقتلونه حلال وما يقتله الله حرام. ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ أي: بالوَساوِس الشيطانيّةِ، أو بما نُقل مِن أباطيل المجوس، وهو يؤيّد التأويلَ بالمَيْتة. ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال الحرام، وساعَدتموهم على أباطيلهم، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ضرورةَ أنّ مَن ترك طاعةَ الله إلى طاعة غيره واتّبَعَه في دينه، فقد أشركه به تعالى؛ بل آثَرَه عليه سبحانه.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ وقُرِئ: "مَيِّتًا"[٣] على الأصل. ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ تمثيل مسوق لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين إثرَ تحذيرهم عنها بالإشارة إلى أنّهم مستضيئون بأنوار الوحي الإلهيّ، والمشركين[٤] خابطون في ظُلُمات الكفر والطغيان، فكيف يُعقَل إطاعتُهم لهم؟

والهمزة للإنكار والنفي، و"الواو" لعطف الجملة الاسميّة على مِثلها الذي يدلّ عليه الكلام، أي: أأنتم مثلهم ومَنْ كان ميتًا فأعطيناه الحياةَ وما يتبعها مِن القُوى المدرِكة والمحرِّكة، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ﴾ مع ذلك مِن الخارج ﴿نُورًا﴾ عظيمًا ﴿يَمْشِي بِهِۦ﴾ أي: بسببه. والجملة استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن الكلام،

---

١ أي: أوَّلَ قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٢ م – تعالى.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٢.

٤ هو اسم "أنّ". وفي مطبوعاته: والمشركون.

كأنّه قيل: فماذا يصنع بذلك النورِ؟ فقيل: يمشي به ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: فيما بينهم آمِنًا مِن جهتهم، أو صفةٌ له.[١]

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ أي: صفتُه العجيبةُ. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ خبرُه، على أنّ المراد بهما اللفظ، لا المعنى كما في قولك: "زيدٌ صفتُه أسمرُ". وهذه الجملة صلةٌ لِـ﴿مَنْ﴾، وهي مجرورة بـ"الكاف"، وهي مع مجرورها خبرٌ لِـ﴿مَنْ﴾ الأولى. / وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ حال مِن المستكنّ في الظرف، وقيل: مِن الموصول، أي: غير خارج منها بحال. [٢٦٠ظ]

وهذا كما ترى مَثَلٌ أريدَ به مَن بقي في الضلالة بحيث لا يفارقها أصلًا، كما أنّ الأوّل مَثَلٌ أريدَ به مَن خلقه الله تعالى على فِطرة الإسلام وهَداه بالآيات البيّنة إلى طريق الحقّ يسلُكه كيف يشاء؛ لكنْ لا على أن يُدَلَّ على كلّ واحد مِن هذه المعاني بما يَليق به مِن الألفاظ الواردة في المَثلَين بواسطة تشبيهِه بما يناسبه مِن معانيها،[٢] فإنّ ألفاظ المَثل باقية في معانيها الأصليّة؛ بل على أنّه قد انتُزِعت مِن الأمور المتعدِّدة المعتبَرةِ في كلّ واحد مِن جانبَي المُمثَّلين هيأةٌ على حِدَةٍ، ومِن الأمور المتعدِّدة المذكورة في كلّ واحد مِن جانبَي المَثلَين هيأةٌ على حِدَةٍ، فشُبِّهت بهما الأُولَيانِ، ونُزّلتا منزلتَيهما، فاستُعمِل فيهما ما يدلّ على الأُخرَيَين بضربٍ مِن التجوّز.

وقد أشيرَ في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [البقرة، ٧/٢] إلى أنّ التمثيل قِسمٌ برأسه، لا سبيلَ إلى جعله مِن باب الاستعارة حقيقةً، وأنّ الاستعارة التمثيليّة مِن عبارات المتأخِّرين. نعم، قد يُجرى ذلك على سَنَنِ الاستعارة بأنْ لا يُذكَر المشبَّه كهذَين التمثيلين ونظائرِهما، وقد يُجرَى على مِنهاج التشبيه كما في قوله:

وما النـاسُ إلّا كـالـدِّيـار وأهلُها بها يـومَ حَـلُّوها وغَـدْوًا بَـلَاقِـعُ[٣]

---

١ أي: لِـ"النور".

٢ أي: معاني الألفاظ الواردة في المَثَلَين.

٣ البيت للبيد بن ربيعة في قصيدة يرثي أربدًا أخاه، وهو في ديوانه، ص ١٦٩. فلبيد لم يشبّه الناس بالدِّيار، وإنّما شبّهَ وجودَهم في الدنيا وسرعةَ زوالهم وفنائهم بحلول أهل الدِّيار فيها وسرعةِ نهوضهم عنها وتركِها خاليةً.

[٢٦١و] / ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك التزيين البليغ ﴿زُيِّنَ﴾ أي: مِن جهة الله عزّ وجلّ بطريق الخلق عند إيحاء الشياطين، أو مِن جهة الشياطين بطريق الزَّخْرفة والتسويل، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ التابعين للوَساوِس الشيطانيّة، الآخذِين بالمُزَخرَفات التي يُوحُونها إليهم، ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ما استمَرّوا على عمله مِن فنون الكفر والمعاصي التي مِن جملتها ما حُكي عنهم مِن القبائح، فإنّها لو لم تكن مُزيَّنةً لهم لَما أصرّوا عليها، ولَما جادلوا بها الحقَّ.

وقيل: الآية نزلَتْ في حمزةَ رضي الله عنه وأبي جهل،[١] وقيل: في عمرَ أو عمّارٍ رضي الله عنهما وأبي جهل.[٢]

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ١٢٣﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ قيل: معناه: كما جعلنا في مكّةَ أكابرَ مُجرمِيها لِيمكُروا فيها، ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ مِن سائر القُرى ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾. ومفعولَا ﴿جَعَلْنَا﴾: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ على تقديم المفعول الثاني، والظرف لغوٌ، أو هما: الظرفُ و﴿أَكَٰبِرَ﴾، على أنّ ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ بدلٌ أو مضافٌ إليه، فإنّ أفعل التفضيل إذا أُضيف جازَ الإفرادُ والمطابقةُ؛ ولذلك قُرِئ: "أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا".[٣] وقيل: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ مفعوله الأوّل، والثاني: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾.

ولا يخفى أنّ أيّ معنًى يُراد مِن هذه المعاني لا بدَّ أن يكون مشهورَ التحقّق عند الناس معهودًا فيما بينهم، حتّى يصلُحَ أن يُصرَف الإشارةُ عن سباق النظم الكريم وتُوجَّهَ إليه، ويُجعَلَ مِقياسًا لنظائره بإخراجه مُخرَجَ المصدر التشبيهيّ؛ وظاهرٌ أنْ ليس الأمر كذلك، ولا سبيلَ إلى توجيهها إلى ما يُفهَم مِن قوله تعالى:

---

[١] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٦/٤-١٨٧؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٢٧.

[٢] انظر لذِكر مَن قال أنّهما عمر رضي الله عنه وأبو جهل: جامع البيان للطبري، ٥٣٣/٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٨٧/٤؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٢٧، ولِذِكر مَن قال أنّهما عمّار رضي الله عنه وأبو جهل: جامع البيان للطبري، ٥٣٤/٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٨٧/٤.

[٣] قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٦٣٦/٤؛ وابن عادل في اللباب، ٤١١/٨، ونسباها إلى ابن مسلم.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام، ١٢٢/٦]، وإن كان المراد بهم أكابرَ مكّةَ؛ لأنّ مآلَ المعنى حينئذ بعد اللّتيا والتي: كما جعلنا أعمالَ أهل مكّةَ مزيَّنةً لهم، جعلنا في كلّ قرية أكابِرَ مجرمِيها... إلخ.

فإذن الأقربُ / أنّ ذلك إشارة إلى الكَفَرة المعهودين باعتبار اتّصافهم بصفاتهم، والإفرادُ بتأويل "الفريق" أو "المذكور"، ومحلّ "الكاف" النصبُ على أنّه المفعول الثاني لـ﴿جَعَلْنَا﴾، قُدّم عليه لإفادة التخصيص كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ الآية [النساء، ٩٤/٤]، والأوّلُ:[١] ﴿أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، والظرف لغوٌ، أي: ومثلَ أولئك الكَفَرةِ الذين هم صناديدُ مكّةَ ومُجرموها جعلنا في كلّ قريةٍ أكابِرَها المجرمين، أي: جعلناهم متّصِفين بصِفات المذكورين، مزيَّنًا لهم أعمالُهم، مُصِرّين على الباطل مجادِلين به الحقَّ، لِيمكُروا فيها، أي: ليفعلوا المكرَ فيها. وهذا تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. [٢٦١ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ اعتراض على سبيل الوعد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والوعيدِ للكَفَرة، أي: وما يَحيق غائلةُ مكرهم إلّا بهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مِن ضمير ﴿يَمْكُرُونَ﴾ مع اعتبار ورود الاستثناء على النفي، أي: إنّما يمكُرون بأنفُسِهم والحالُ أنّهم ما يشعُرون بذلك أصلًا؛ بل يزعمون أنّهم يمكُرون بغيرهم.

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ رجوع إلى بيان حال مُجرِمي أهلِ مكّةَ بعد ما بُيّن بطريق التسلية أنّ حال غيرهم أيضًا كذلك وأنّ عاقبة مكر الكلّ ما ذُكر، فإنّ العظيمة المنقولةَ إنّما صدَرت عنهم، لا عن سائر المُجرمين، أي: إذا جاءتهم آية بواسطة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حتّى يُوحَى إلينا،

---

١ أي: المفعول الأوّل لـ﴿جَعَلْنَا﴾.

ويأتِيَنا جبريلُ عليه السلام، فيُخبِرَنا أنّ محمّدًا صادق»، كما قالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء، ٩٢/١٧].[١] وعن الحسن البصري مِثلُه.[٢]

وهذا -كما ترى- صريحٌ في أنّ ما عُلّق بإيتاء ما أوتِيَ الرسلُ عليهم السلام هو إيمانهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبما أُنزلَ إليه إيمانًا حقيقيًا، كما هو المتبادر منه عند الإطلاق؛ خَلَا أنّه يستدعي أن يُحمَل ﴿مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ على مطلَق الوحي ومخاطبةِ جبريلَ عليه السلام في الجملة، وأن يُصرَفَ الرسالة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ عن ظاهرها، وتُحمَلَ[٣] على رسالة جبريلَ عليه السلام بالوجه المذكور، / ويُرادَ بجَعْلِها تبليغُها إلى [٢٦٢و] المرسَل إليه، لا وضعُها في موضِعها الذي هو الرسول، ليتأتّى كونُه جوابًا عن اقتراحهم وردًّا له، بأنْ يكون معنى الاقتراح: "لن نؤمِنَ بكون تلك الآيةِ نازلةً مِن عند الله تعالى إلى الرسول حتّى يأتِيَنا جبريلُ بالذات عِيانًا كما يأتي الرسول فيُخبِرَنا بذلك"، ومعنى الردّ: "الله أعلَمُ مَن يَليق بإرسال جبريلَ عليه السلام إليه لأمرٍ مِن الأمور"، إيذانًا بأنّهم بمَعزِل مِن استحقاق ذلك التشريفِ. وفيه مِن التمحّلِ ما لا يخفى.

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل حين قال: «زاحَمْنا بني عبدِ منافٍ في الشَّرف، حتّى إذا صِرنا كفرَسَيْ رهانٍ قالوا: منّا نبيٌّ يُوحَى إليه، واللهِ لا نرضى به ولا نتّبعه أبدًا حتّى يأتِيَنا وحيٌ كما يأتيه».[٤] وقال الضحّاك: «سأل كلّ واحد مِن القوم أن يُخَصّ بالرسالة والوحيِ كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر، ٥٢/٧٤]».[٥] ولا يخفى أنّ كلّ واحد مِن هذين القولين، وإن كان مناسِبًا للردّ المذكور، لكنّه يقتضي أن يُراد بالإيمان المعلَّقِ بـ"إيتاء ما أوتِيَ الرسلُ" مجرَّدُ تصديقهم برسالته صلّى الله عليه وسلّم في الجملة مِن غير شمولٍ لكافّة الناس، وأن يكون كلمةُ "حتّى" في قول اللعين:

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٣١٩/٢

٢ ما وجدناه عنه.

٣ خلاف ما سبق اختار المؤلّف هنا صيغة المؤنّث.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٧/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦٣٧/٤؛ اللباب لابن عادل، ٤١٣/٨.

٥ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٢٠/٢؛ تفسير الرازي، ١٣٦/١٣؛ اللباب لابن عادل، ٤١٣/٨.

«حتّى يأتِيَنا وحيٌ كما يأتيه»... إلخ غايةً لعدم الرضا، لا لعدم الاتّباع، فإنّه مقرَّر على تقديرَي إيتاءِ الوحي وعدمِه؛ فالمعنى: لن نؤمِنَ برسالته أصلًا حتّى نؤتَى نحن مِن الوحي والنبوّةِ مثلَ ما أوتِيَه رسلُ الله، أو إيتاءً مثلَ إيتاء رُسُل الله.

وأمّا ما قيل مِن أنّ الوليد بنَ المغيرة قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو كانت النبوّةُ حقًّا لَكنتُ أولى بها منك؛ لأنّي أكبَرُ منك سِنًّا وأكثَرُ منك مالًا وولدًا»، فنزلت،[1] فلا تعلُّقَ له بكلامهم المردودِ؛ إلّا أن يرادَ بالإيمان المعلَّقِ / بما ذُكر مجرَّدُ الإيمان بكون الآية النازلة وحيًا صادقًا، لا الإيمانُ بكونها نازلةً إليه عليه السلام؛ فيكون المعنى: وإذا جاءتهم آية نازلة إلى الرسول قالوا: «لن نؤمِنَ بنزولها مِن عند الله حتّى يكونَ نزولُها إلينا، لا إليه؛ لأنّا نحن المستحِقّون دونه»، فإنّ ملخَّصَ معنى قولِه: «لو كانت النبوّةُ حقًّا»... إلخ: لو كان ما تدّعيه مِن النبوّة حقًّا لَكنتُ أنا النبيَّ، لا أنت، وإذ لم يكن الأمرُ كذلك، فليستْ بحقّ. ومآلُه تعليقُ الإيمان بحَقّيّة النبوّة بكون نفسه نبيًّا. [٢٦٢ظ]

و﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ﴾ نصب على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: حتّى نُؤتَاها إيتاءً مثلَ إيتاء رُسُل الله. وإضافة "الإيتاء" إليهم؛ لأنّهم منكِرون لإيتائه عليه السلام. و﴿حَيْثُ﴾ نصب على المفعوليّة توسّعًا، لا بنفس ﴿أَعْلَمُ﴾، لِما عرفتَ مِن أنّه لا يعمل في الظاهر؛ بل بفعلٍ دلَّ هو عليه، أي: هو أعلَمُ، يعلم الموضِعَ الذي يضعها فيه، والمعنى: أنّ منصِب الرسالة ليس ممّا يُنال بكثرة المال والولدِ وتعاضُدِ الأسباب والعُدَدِ، وإنّما تُنال[2] بفضائلَ نفسانيّةٍ يخُصّها الله تعالى مَن يشاء مِن خُلَّصِ عباده. وقُرئ: "رِسَالَاتِهِ".[3]

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ استئناف آخَرُ، نَاعٍ عليهم ما سيلقَوْنه مِن فنون الشرّ بعد ما نُعِيَ عليهم حِرمانهم ممّا أمّلوه. و"السين" للتأكيد، ووضعُ الموصول موضِعَ الضمير للإشعار بأنّ إصابةَ ما يُصيبهم لإجرامهم المستتبِعِ لجميع الشرور والقبائح،

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٧/٤؛ التفسير البسيط للواحدي، ٤١٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٣/٢.

[2] كذا في الأصول الخطّيّة. وفي مطبوعاته: "يُنال".

[3] قرأ بها السبعة إلّا ابن كثير وعاصمًا في رواية حفص. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

أي: يُصيبهم البتّةَ مكانَ ما تمنَّوْه وعلّقوا به أطماعَهم الفارغةَ مِن عزّة النبوّة وشرفِ الرسالة ﴿صَغَارٌ﴾ أي: ذِلّة وحَقارة بعد كبرهم، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يومَ القيامة، وقيل: مِن عند الله. / ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة أو في الدنيا، ﴿بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ أي: بسبب مكرهم المستمرّ أو بمقابَلته، وحيث كان هذا مِن معظَم موادِّ إجرامِهم صُرّح بسببيّته. [٢٦٣و]

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ أي: يعرّفه طريقَ الحقّ ويوفّقه للإيمان، ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيتّسِع له وينفتح. وهو كناية عن جعل النفس قابلةً للحقّ، مُهيَّأةً لحلوله فيها، مصفّاةً عمّا يمنعه ويُنافيه. وإليه أشار صلّى الله عليه وسلّم حين سُئل، فقال: «نورٌ، يقذِفه الله تعالى في قلب المؤمن، فينشرح له وينفتح»، فقالوا: «هل لذلك مِن أمارةٍ يُعرَف بها؟»، فقال: «نعم، الإنابةُ إلى دار الخلود، والإعراضُ عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت قبل نزوله».[١]

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ أي: يخلُقَ فيه الضلالَ بصرف اختياره إليه، ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بحيث ينبُو عن قَبول الحقّ، فلا يكاد يدخله الإيمان. وقُرئ: "ضَيْقًا"[٢] بالتخفيف، و"حَرِجًا"[٣] بكسر الراء، أي: شديدَ الضِّيق، والأوّل مصدرٌ وُصف به مبالغةً.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ ﴿مَا﴾ هذه مهيّئةٌ لدخول ﴿كَأَنَّ﴾ على الجُمَل الفعليّة. ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ شُبّه للمبالغة في ضِيق صدره بمَن يزاوِلُ ما لا يكاد يقدر عليه، فإنّ صعود السماء مَثَلٌ فيما هو خارجٌ عن دائرة الاستطاعة. وفيه تنبيه على أنّ الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعودُ. وقيل: معناه: كأنّما يتصاعَدُ إلى السماء

---

[١] جامع البيان للطبري، ٥٤١/٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٧/٤. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في مصنّف ابن أبي شيبة، ٧٧/٧ (٣٤٣١٥)؛ ونوادر الأصول للحكيم الترمذي، ٤١٥/١؛ وحلية الأولياء لأبي نُعيم، ٢٤٦/٩.

[٢] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

[٣] قرأ بها نافع وأبو جعفر وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

نبُوًّا عن الحقّ وتباعُدًا في الهرَب منه. وأصل ﴿يَصَّعَّدُ﴾ "يتصعّد"، وقد قُرئ به.[١] وقُرئ: "يَصَّاعَدُ"،[٢] وأصله: "يتصاعَدُ".

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجَعْلِ الذي هو جعلُ الصدر حَرجًا على الوجه المذكور، / ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: العذابَ أو الخِذلانَ. قال مجاهد: «الرِّجس: ما لا خيرَ فيه».[٣] وقال الزجّاج: «الرِّجس: اللَّعنة في الدنيا والعذابُ في الآخرة».[٤] ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: عليهم. ووُضع الموصول موضِعَ المضمَر للإشعار بأنّ جعله تعالى معلَّلٌ بما في حيّز الصلة مِن كمال نبُوّهم عن الإيمان وإصرارِهم على الكفر. [٢٦٣ظ]

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَهَٰذَا﴾ أي: البيان الذي جاء به القرآن، أو الإسلام، أو ما سبق مِن التوفيق والخِذلان، ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ أي: طريقه الذي ارتضاه، أو عادتُه وطريقتُه التي اقتضتْها حكمتُه. وفي التعرّض لعُنوان الربوبيّة إيذان بأنّ تقويم ذلك الصراطِ للتربية وإفاضةِ الكمال. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عِوَجَ فيه، أو عادلًا مطّردًا. وهو حال مؤكِّدة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾،[٥] والعامل فيها معنى الإشارة.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ بيّنّاها مفصَّلةً ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتذكّرون ما في تضاعيفها، فيعلمون أنّ كلّ ما يحدُث مِن الحوادث -خيرًا كان أو شرًّا- فإنّما يحدُث بقضاء الله تعالى وخلقِه، وأنّه تعالى عالمٌ بأحوال العباد، حكيمٌ عادلٌ فيما يفعل بهم. وتخصيص القوم المذكورين بالذِّكر؛ لأنّهم المنتفِعون بتفصيل الآيات.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٨.

٢ قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٢.

٣ جامع البيان للطبري، ٩/٥٥١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/١٨٨؛ اللباب لابن عادل، ٨/٤٢٥.

٤ معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢/٢٩٠.

٥ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة، ٢/٩١].

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: للمتذكِّرين دارُ السلامة مِن كلّ المكارِهِ، وهي الجنّة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في ضَمانه، أو ذخيرة لهم عنده، لا يعلم كُنْهَها غيرُه تعالى. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي: مولاهم وناصرُهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة، أو مُتولِّيهم بجزائها، يتولّى إيصالَه إليهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

[٢٦٤و] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ / منصوب بمضمَرٍ، إمّا على المفعوليّة، أو الظرفيّة. وقُرئ بنُون العَظَمة[١] على الالتفات لتهويل الأمر. والضميرُ المنصوب لمَن يُحشَر مِن الثَّقلَين،[٢] أي: واذكُرْ يومَ يحشُر الثَّقلَين قائلًا: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، أو ويومَ يحشُرهم يقول: «يا معشرَ الجنّ»، أو ويومَ يحشُرهم ويقول: «يا معشرَ الجنّ» يكونُ مِن الأحوال والأهوال ما لا يساعده الوصف لفظاعته. و"المَعشَر": الجماعة، والمراد بـ﴿مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾: الشياطين.

﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: مِن إغوائهم وإضلالهم، أو منهم بأنْ جعلتموهم أتباعَكم، فحُشِروا معكم، كقولهم: "استكثر الأميرُ مِن الجنود"، وهذا بطريق التوبيخ والتقريع. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ أي: الذين أطاعوهم. و﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ إمّا لبيان الجنس، أي: أولياؤُهم الذين هم مِن الإنس، أو متعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو حال مِن ﴿أَوْلِيَآؤُهُم﴾، أي: كائنين مِن الإنس.

﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع الإنس بالجنّ بأنْ دلُّوهم على الشَّهَوات وما يُتوصّل به إليها، وقيل: بأنْ ألقَوْه إليهم مِن الأراجيف والسِّحر والكهانة، والجنُّ بالإنس بأنْ أطاعوهم وحصّلوا مرادَهم بقبولِ ما ألقَوْه إليهم.

---

[١] قرأ بها السبعة إلّا عاصمًا في رواية حفص. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٢.

[٢] هما: الجنّ والإنس.

وقيل: استمتاع الإنس بهم: أنّهم كانوا يعوذون بهم في المَفاوِز والمَخاوِف، واستمتاعُهم بالإنس: اعترافُهم بأنّهم قادرون على إجارتهم.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وهو يوم القيامة، قالوه اعترافًا بما فعلوا مِن طاعة الشياطين واتّباعِ الهَوى وتكذيبِ البعث، وإظهارًا للندامة عليها، وتحسّرًا على حالهم، واستسلامًا لربّهم. ولعلّ الاقتصارَ على حكاية كلام الضالّين للإيذان بأنّ المُضلّين قد أُفحِموا بالمرّة، فلم يقدِروا على التكلّم أصلًا.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ / نشأ مِن حكاية كلامهم، كأنّه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ أي: مَنزِلُكم، أو ذاتُ ثوائِكم، كما أنّ دار السلام مَثوى المؤمنين. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال، والعامل ﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾ إن جُعل مصدرًا، ومعنى الإضافة إن جُعل مكانًا. [٢٦٤ظ]

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «استثنى اللهُ تعالى قومًا قد سبق في علمه أنّهم يُسلِمون ويصدِّقون النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم»،[١] وهذا مبنيّ على أنّ الاستثناء ليس مِن المَحكيّ، و﴿مَا﴾ بمعنى "مَنْ". وقيل: المعنى: إلّا الأوقات التي يُنقَلون فيها مِن النار إلى الزَّمْهَرِير، فقد رُوي أنّهم يُدخَلون واديًا، فيه مِن الزَّمْهَرِير ما يميّز بعض أوصالهم مِن بعض، فيتعاوَوْن[٢] ويطلُبون الردَّ إلى الجحيم.[٣] وقيل: يُفتَح لهم -وهم في النار- بابٌ إلى الجنّة، فيُسرعون نحوَه، حتّى إذا صاروا إليه سُدَّ عليهم البابُ.[٤] وعلى التقديرين في الاستثناء[٥] تهكّمٌ بهم. وقيل: إلّا ما شاء الله قبل الدخول، كأنّه قيل: النارُ مَثواكم أبدًا إلّا ما أمهَلَكم، ولا يخفى بُعْدُه.

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٢٣/٢؛ تفسير الرازي، ١٤٩/١٣.

٢ المُعاوية: الكَلْبَة المستحرمة تَعوي إليهنّ ويَعْوِينَ، يقال: تَعاوَى الكِلابُ. تعاوَى بنُو فلانٍ على فلان وتَغاوَوْا عليه إذا تَجمّعوا عليه، بالعين والغين. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٧٠/٢ (باب اللفيف مِن العين)؛ لسان العرب لابن منظور، «عوي».

٣ الكشّاف للزمخشري، ٦٥/٢؛ اللباب لابن عادل، ٤٣٢/٨. ونحوه في تفسير الرازي، ١٤٩/١٣.

٤ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٧/١ (البقرة، ١٥/١)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٩١/١ (البقرة، ١٥/١)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨/١ (البقرة، ١٥/١).

٥ وفي مطبوعاته: فالاستثناء.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفاعيله. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال الثَّقلَين وأعمالِهم، وبما يَليق بها مِن الجزاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٢٩﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ما سبق مِن تمكين الجنّ مِن إغواء الإنس وإضلالِهم، ﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن الإنس ﴿بَعْضًا﴾ آخَرَ منهم، أي: نجعلهم بحيث يتولَّوْنهم بالإغواء والإضلال، أو نجعل بعضَهم قُرَناءَ بعضٍ في العذاب كما كانوا كذلك في الدنيا عند اقترافِ ما يؤدّي إليه مِن القبائح. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كانوا مستمرّين على كسبه مِن الكفر والمعاصي.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾

[٢٦٥و] / ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ شروع في حكاية ما سيكون مِن توبيخ المعشَرَين وتقريعِهم بتفريطهم فيما يتعلّق بخاصّة أنفسِهم، إثرَ حكاية توبيخ مَعشَرِ الجنّ بإغواء الإنس وإضلالِهم وبيانِ مآل أمرهم. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿رُسُلٌ﴾ أي: مِن عند الله عزّ وجلّ؛ لكنْ لا على أن يأتيَ كلُّ رسولٍ كلَّ واحدةٍ مِن الأمَم، بل على أن يأتيَ كلَّ أمّة رسولٌ خاصٌّ بها، أي: ألم يأتِ كلَّ فريق منكم رسولٌ معيَّنٌ؟

وقوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ متعلّق بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿رُسُلٌ﴾، أي: كائنةٌ مِن جُملتكم؛ لكنْ لا على أنّهم مِن جنس الفريقين معًا، بل مِن الإنس خاصّةً، وإنّما جُعلوا منهما إمّا لتأكيد وجوب اتّباعهم والإيذانِ بتقارُبهما ذاتًا واتّحادِهما تكليفًا وخطابًا، كأنّهما جنس واحد؛ ولذلك تمكَّنَ أحدُهما مِن إضلال الآخَر، وإمّا لأنّ المراد بـ"الرُّسُل" ما يعُمّ رسلَ الرسلِ، وقد ثبت أنّ الجنّ قد استمعوا القرآنَ وأنذَرُوا به قومَهم، حيث نطق به

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.[١]

وقوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ صفة أخرى لـ﴿رُسُلٌ﴾، محقِّقةٌ لِما هو المراد مِن إرسال الرسل مِن التبليغ والإنذار، وقد حصل ذلك بالنسبة إلى الثَّقلَين. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ بما في تضاعيفها مِن القوارع، ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يومِ الحشرِ الذي قد عايَنوا فيه ما أُعِدَّ لهم مِن أفانين العقوبات الهائلة.

﴿قَالُوا﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن الكلام السابق، كأنّه قيل: فماذا قالوا عند ذلك / التوبيخ الشديد؟ فقيل: قالوا: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أي: بإتيان الرسل وإنذارهم، وبمقابلتِهم إيّاهم بالكفر والتكذيب، وباستحقاقهم بسبب ذلك للعذاب المخلَّد، حسبما فُصِّل في حكاية جوابهم عن سؤالِ خَزَنة النار، حيث قالوا: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك، ٩/٦٧]، وقد أُجمِلَ هٰهنا في الحكاية كما أُجمِلَ في حكاية جوابهم حيث قالوا: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[٢] [٢٦٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ مع ما عُطف عليه اعتراضٌ لبيانِ ما أدّاهم في الدنيا إلى ارتكابهم للقبائح التي ارتكبوها وألجأهم في الآخرة إلى الاعتراف بالكفر واستيجاب العذاب، وذمٌّ لهم بذلك، أي: واغترّوا في الدنيا بالحياة الدَّنيّة واللَّذّاتِ الخسيسة الفانيةِ، وأعرضوا عن النعيم المقيم الذي بشرت به الرسلُ، واجترءُوا على ارتكاب ما يجُرّهم إلى العذاب المؤبَّد الذي أنذروهم إيّاه، ﴿وَشَهِدُوا﴾ في الآخرة ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾ أي: بالآيات وَالنُّذُرِ التي أتى بها الرسل على التفصيل المذكور آنفًا، واضطُرّوا إلى الاستسلام لأشدِّ العذاب، كما يُنبئ عنه ما حُكي عنهم بقوله تعالى:

---

١ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف، ٢٩/٤٦].

٢ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر، ٧١/٣٩].

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك، ١٠/٦٧]. وفيه مِن تحسيرهم وتحذيرِ السامعين عن مِثل صنيعهم ما لا مزيدَ عليه.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن شهادتهم على أنفسِهم بالكفر واستيجابِ العذاب. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين. / وهو مبتدأ، [٢٦٦و] خبرُه قوله تعالى: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بحذف "اللام" على أنّ ﴿أَن﴾ مصدريّة، أو مخفَّفة مِن "أنّ"، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوفٌ.

وقوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ متعلِّق إمّا بـ﴿مُهْلِكَ﴾، أي: بسبب ظلم، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾، أي: ملتبِسةً بظلم، فإنّ ملابسة أهلها للظلم ملابَسةٌ للقرية له بواسطتهم. وأمّا كونه حالًا مِن ﴿رَبُّكَ﴾ أو مِن ضميره في ﴿مُهْلِكَ﴾ كما قيل، فيأباه أنّ غفلة أهلها مأخوذةٌ في معنى الظلم وحقيقتِه لا محالةَ، فلا يحسُن تقييدُه بقوله تعالى: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، والمعنى: ذلك[١] ثابتٌ لانتفاء كون ربّك، أو لأنّ الشأن لم يكن ربُّك مُهلِكَ القُرى بسبب، أي: ظلمٍ فعلوه مِن أفراد الظلمِ قبل أن يُنهَوْا عنه، ويُنبَّهوا على بُطلانه برسول وكتاب، وإن قضى به بديهةُ العقول، ويُنذَروا عاقبةَ جناياتهم، أي: لولا انتفاءُ كونه تعالى معذِّبًا لهم قبل إرسال الرُّسل وإنزال الكُتب لَمَا أمكن التوبيخُ بما ذُكر، ولَمَا شهِدوا على أنفسِهم بالكفر واستيجابِ العذاب، ولَاعتذروا بعدم إتيان الرُّسل كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه، ١٣٤/٢٠].

وإنّما عُلّل ما ذُكر بانتفاء التعذيب الدنيويِّ الذي هو إهلاكُ القُرى قبل الإنذار -مع أنّ التقريب في تعليله بانتفاء مطلَق التعذيب مِن غير بعث الرُّسل أتمُّ على ما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٥/١٧]- لبيان كمال نزاهتِه سبحانه وتعالى عن كِلا التعذيبَين الدنيويّ والأخرويّ معًا

[١] وفي هامش م: أي: ما ذُكِر مِن شهادتهم على أنفسِهم بالكفر واستيجابِ العذاب. «منه».

مِن غير إنذارٍ على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه، حيث اقتُصِر على نفي التعذيب الدنيويّ عنه تعالى لِيثبُتَ نفيُ التعذيب الأخرويّ عنه تعالى على الوجه البرهانيّ بطريق الأَوْلَويّة، فإنّه تعالى حيث لم يعذِّبهم بعذاب يسيرٍ منقطِعٍ بدون إنذارٍ، فلَأنْ لا يعذِّبَهم بعذاب شديد مخلَّدٍ أَولى وأجلى.

ولو عُلِّل بما ذُكر مِن نفي التعذيب لَانصرف بحسب المقام إلى ما فيه الكلامُ مِن نفي التعذيب الأخرويّ، ونفيُ التعذيب الدنيويّ غيرُ متعرَّضٍ له لا صريحًا ولا دلالةً، ضرورةَ أنّ نفي الأعلى لا يدلّ على نفي الأدنى، / ولأنّ [٢٦٦ظ] ترتُّبَ التعذيب الدنيويّ على الإنذار عند عدم تأثُّرِ المنذَرين منه معلومٌ مشاهَدٌ عند السامعين، فيستدلّون بذلك على أنّ التعذيب الأخرويّ أيضًا كذلك، فينزجرون عن الإخلال بمَواجب الإنذار أشدَّ انزجارٍ. هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم.

وأمّا جعلُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى إرسال الرُّسل عليهم السلام وإنذارِهم، وخبرًا لمبتدأ محذوفٍ كما أطبق عليه الجمهورُ، فبمَعزِل مِن مقتضى المقام. والله سبحانه أعلمُ.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٣٢﴾

﴿وَلِكُلٍّ﴾ أي: مِن المكلَّفين مِن الثَّقلَين ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ متفاوِتةٌ، وطَبَقاتٌ متبايِنةٌ ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ مِن أعمالهم، صالحةً كانت أو سيّئةً، فإنّ أعمالهم دَرَجاتٌ في أنفسِها، أو مِن جزاء أعمالهم، فإنّ كلّ جزاء مرتَّبةٌ معيَّنةٌ لهم، أو مِن أجل أعمالهم. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيخفى عليه عمل مِن أعمالهم أو قدرُ ما يستحقّون بها مِن ثواب أو عقاب. وقُرئ بالتاء[1] تغليبًا للخطاب على الغَيْبة.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾

---

١ أي: "تَعْمَلُونَ"، قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٢-٢٦٣.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ مبتدأ وخبر، أي: هو المعروف بالغِنى عن كلّ ما سِواه كائنًا مَن كان وما كان، فيدخل فيه غِناه عن العباد وعن عبادتهم. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة في الموضِعَين -لاسيّما في الثاني[١] لكونه موقعَ الإضمار- مع الإضافة إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم، مِن إظهار اللطف به عليه السلام وتنزيهِ ساحته عن توهّمِ شمول الوعيد الآتي لها أيضًا ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ خبرٌ آخَرُ، أو هو الخبر، و﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ صفة، أي: يترحّم عليهم بالتكليف تكميلًا لهم، ويُمهِلهم على المعاصي. وفيه تنبيه على أنّ ما سلف ذكرُه مِن الإرسال ليس لنفعه، بل لترحّمِه على العباد، وتمهيدٌ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: ما به حاجة إليكم إن يشأ / يُذهِبْكم أيّها العُصاةُ. [٢٦٧و] وفي تلوين الخطاب مِن تشديد الوعيد ما لا يخفى.[٢] ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم﴾ أي: مِن بعد إذهابكم ﴿مَا يَشَآءُ﴾ مِن الخلق. وإيثار ﴿مَا﴾ على "مَن" لإظهار كمال الكبرياء وإسقاطِهم عن رتبة العقلاء.

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: مِن نسلِ قومٍ آخَرِين لم يكونوا على مِثل صفتكم -وهم أهلُ سفينةِ نوحٍ عليه السلام- لكنّه أبقاكم ترحّمًا عليكم. و﴿مَا﴾ في ﴿كَمَا﴾ مصدريّةٌ، ومحلّ "الكاف" النصبُ على أنّه مصدر[٣] تشبيهيّ على غير الصَّدر، فإنّ ﴿يَسْتَخْلِفْ﴾ في معنى "يُنشِئ"، كأنّه قيل: ويُنشِئ إنشاءً كائنًا كإنشائكم... إلخ، أو نعتٌ لمصدر الفعل المذكور، أي: يستخلِفْ استخلافًا كائنًا كإنشائكم... إلخ. والشرطيّة استئناف مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها مِن الغِنى والرحمة.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: الذي تُوعَدونه مِن البعث وما يتفرّع عليه مِن الأمور الهائلة. وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار التجدّديّ. ﴿لَأَتٍ﴾ لَواقعٌ لا محالةَ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات، ٧/٧٧]، وإيثاره عليه

---

١ والأوّل في الآية السابقة.

٢ وفي هامش م: وفي تعليق "الإذهاب" بمجرّد مشيئتِه تعالى إشارةٌ إلى أنّ أسبابه قد تعاضَدت ولم يبقَ إلّا مشيئتُه تعالى. «منه».

٣ وفي هامش م: أي: قائم مَقامَ المصدر، وإلّا فهو في الحقيقة متعلِّق بما هو نعتٌ للمصدر. «منه».

لبيان كمال سرعة وقوعه بتصويره بصورة طالبٍ حثيثٍ لا يفوته هاربٌ، حسبما يُعرب عنه قولُه عزّ وجلّ:[١] ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي: بفائتين ذلك، وإن ركِبتم في الهرَب متنَ كلِّ صعبٍ وذَلولٍ،[٢] كما أنّ إيثار صيغة الفاعل على المستقبَل للإيذان بكمال قُرب الإتيان، والمرادُ بيانُ دوام انتفاء الإعجاز، لا بيانُ انتفاء دوام الإعجاز؛ فإنّ الجملة الاسميّة كما تدلّ على دوام الثبوت، تدلّ بمَعُونة المقام -إذا دخل عليها حرف النفي- على دوام الانتفاء، لا على انتفاء الدوام كما حُقّق في موضِعه.[٣]

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ إثرَ ما بُيِّن لهم حالُهم ومآلُهم بطريق الخطاب أُمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين بأنْ يواجههم بتشديد التهديد وتكريرِ الوعيد، ويُظهِرَ لهم ما هو عليه مِن غاية التصلّب في الدين ونهايةِ الوثوق بأمره وعدمِ المُبالاة بهم، / أي: اعملوا على غاية تمكّنِكم [٢٦٧ظ] واستطاعتِكم، يُقال: "مَكُنَ مكانةً" إذا تمكّنَ أبلغَ التمكّنِ، أو على جهتكم وحالتِكم التي أنتم عليها، مِن قولهم: "مكان" و"مكانة"، كـ"مقام" و"مقامة". وقُرئ: "مَكَانَاتِكُمْ".[٤] والمعنى: اثبُتوا على كفركم ومُعاداتِكم.

﴿إِنِّي عَامِلٞ﴾ ما أُمرتُ به مِن الثبات على الإسلام والاستمرارِ على الأعمال الصالحة والمصابَرةِ. وإيراد التهديد بصيغة الأمر مبالغةٌ في الوعيد، كأنّ المهدِّد يريد تعذيبَه مجمِعًا عليه، فيحمِله بالأمر على ما يؤدّي إليه، وتسجيلٌ بأنّ المهدَّد لا يتأتّى منه إلّا الشرّ، كالذي أُمر به بحيث لا يجد إلى التفصّي عنه سبيلًا.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ ﴿سَوۡفَ﴾ لتأكيد مضمون الجملة. والعِلم عِرفانيّ. و﴿مَن﴾ إمّا استفهاميّة معلِّقة لفعل "العلم"، محلُّها الرفعُ على الابتداء،

---

[١] س: تعالى.

[٢] ركبوا كلَّ صعبٍ وذَلولٍ في أمرهم: إذا بذَلُوا فيه الطاقةَ. **أساس البلاغة** للزمخشري، «ذلل».

[٣] انظر: تفسير الأنعام، ٤٨/٦.

[٤] قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٦٣/٢.

و﴿تَكُونُ﴾ باسمها وخبرِها خبرٌ لها، وهي مع خبرها في محلّ نصبٍ لِسدّها مَسدَّ مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف تعلمون أيّنا تكون له العاقبةُ الحُسنى التي خلق الله تعالى هذه الدارَ لها، وإمّا[1] موصولةٌ، فمحلّها النصبُ على أنّها مفعول لـ﴿تَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف تعلمون الذي له عاقبة الدار. وفيه -مع الإنذار- إنصافٌ في المقال، وتنبيهٌ على كمال وثوق المنذِر بأمره. وقُرئ بالياء؛[2] لأنّ تأنيث العاقبة غيرُ حقيقيّ.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنّ الشأن، ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وُضع "الظلم" موضِعَ "الكفر" إيذانًا بأنّ امتناع الفلاح يترتّب على أيّ فردٍ كان مِن أفراد الظلم؛ فما ظنُّك بالشرك[3] الذي هو أعظَمُ أفراده؟

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝١٣٦﴾

﴿وَجَعَلُواْ﴾ شروع في تقبيح أحوالهم الفظيعة بحكاية أقوالهم وأفعالهم الشنيعة. / وهم مشركو العربِ، كانوا يعيّنون أشياءَ مِن حرثٍ ونتاجٍ لله تعالى وأشياءَ منهما لآلهتِهم، فإذا رأَوْا ما جعلوه لله تعالى زاكيًا ناميًا يزيد في نفسه خيرًا رجعوا فجعلوه لآلهتِهم، وإذا زكَا ما جعلوه لآلهتِهم تركوه معتلّين بأنّ الله تعالى غنيٌّ، وما ذلك إلّا لِحُبّ آلهتِهم وإيثارِهم لها. [٢٦٨و]

و"الجَعْل" إمّا متعدٍّ إلى واحدٍ، فالجارّانِ في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ متعلِّقانِ به، و﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بيان لـ﴿مَا﴾. وفيه تنبيه على فرط جهالتهم، حيث أشركوا الخالقَ في خلقه جمادًا لا يقدِر على شيء، ثمّ رجّحوه عليه بأنْ جعلوا الزكيَّ له، أي: عيّنوا له تعالى ممّا خلقه مِن الحرث

---

١ السياق: و﴿مَنْ﴾ إمّا استفهاميّة... وإمّا موصولة...

٢ أي: "يَكُونُ"، قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٣.

٣ م: بالكفر [صُحّح في الهامش]. وفي مطبوعاته: بالكفر.

والأنعام ﴿نَصِيبًا﴾ يَصرِفونه إلى الضِّيفانِ والمساكينِ. وتأخيرُه مِن المجرورَين لِما مرّ مِرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر. وإمّا[١] إلى مفعولَين، أوّلهما ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ على أنّ ﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة، أي: جعلوا بعضَ ما خلقه نصيبًا له. وما قيل مِن أنّ الأوّل ﴿نَصِيبًا﴾ والثاني ﴿لِلَّهِ﴾، لا يساعده سَدادُ المعنى.

وحكاية جَعْلهم له تعالى نصيبًا تدلّ على أنّهم جعلوا لشركائهم أيضًا نصيبًا، ولم يُذكَر اكتفاءً بقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾، وقُرئ بضمّ الزاء،[٢] وهو لغة فيه، وإنّما قُيّد به الأوّل للتنبيه على أنّه في الحقيقة ليس بجعلٍ لله تعالى، غيرُ مستتبعٍ لشيء مِن الثواب كالتطوُّعات التي يُبتغى بها وجهُ الله تعالى؛ لا لِما قيل مِن أنّه للتنبيه على أنّ ذلك ممّا اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به، / فإنّ ذلك مستفاد مِن "الجَعْل"؛ ولذلك لم يُقيَّد به الثاني. [٢٦٨ظ]

ويجوز أن يكون ذلك تمهيدًا لِما بعده، على معنى "أنّ قولهم ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾ مجرَّدُ زعمٍ منهم، لا يعملون بمقتضاه الذي هو اختصاصه به تعالى"، فقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ بيان وتفصيل له، أي: فما عيَّنوه لشركائهم لا يُصرَف إلى الوجوه التي يُصرَف إليها ما عيَّنوه لله تعالى[٣] مِن قِرى الضِّيفان والتصدّقِ على المساكين، وما عيَّنوه لله تعالى إذا وجدوه زاكيًا يُصرَف إلى الوجوه التي يُصرَف إليها ما عيَّنوه لآلهتِهم مِن إنفاقٍ عليها بذبح نَسَائِكَ[٤] عندها والإجراءِ على سَدَنتِها ونحو ذلك.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فيما فعلوا مِن إيثار آلهتِهم على الله تعالى وعملِهم بما لم يشرع لهم. و﴿مَا﴾ بمعنى "الذي"، والتقدير: ساء الذي يحكمون حكمُهم، فيكون "حكمهم" مبتدأً، وما قبله الخبر، وحُذف لدلالةِ ﴿يَحْكُمُونَ﴾ عليه.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

---

[١] السياق: و"الجَعْل" إمّا متعدٍّ إلى واحدٍ... وإمّا إلى مفعولَين...

[٢] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٣.

[٣] م - تعالى.

[٤] النُّسائِك: جمعُ "نَسيكة"، وهي الذبيحة. مختار الصحاح للرازي، «نسك».

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك التزيين، وهو تزيينُ الشرك في قِسمة القُربان بين الله سبحانه[١] وبين آلهتهم، أو مثلَ ذلك التزيين البليغ المعهودِ مِن الشياطين ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بوَأْدِهم[٢] ونحرِهم لآلهتِهم. كان الرجل يحلِف في الجاهليّة لَئِنْ وُلد له كذا غُلامًا لَينحَرَنَّ أحدَهم، كما حلَف عبدُ المطّلب، وهو مشهور.[٣] ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ أي: أولياؤُهم مِن الجنّ أو مِن السَّدَنة. وهو فاعلُ ﴿زَيَّنَ﴾، أُخِّر عن الظرف والمفعولِ لِما مرّ غيرَ مرّة.

وقُرئ على البناء للمفعول الذي هو "القتل" ونصبِ "الأولاد" وجرِّ "الشركاء" بإضافة "القتل" إليه مفصولًا بينهما بمفعوله.[٤] وقُرئ على البناء للمفعول ورفعِ "قتل" وجرِّ ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ / ورفعِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾[٥] بإضمار فعلٍ دلّ عليه "زُيّن"، كأنّه لمّا قيل: زُيّن لهم قتلُ أولادِهم، قيل: مَن زَيَّنه؟ فقيل: زيَّنَه شركاؤُهم. [٢٦٩و]

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي: يُهلِكوهم بالإغواء، ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلِطوا عليهم ما كانوا عليه مِن دين إسماعيلَ عليه السلام أو ما وجب عليهم أن يتديَّنوا به. و"اللام" للتعليل، إن كان التزيينُ مِن الشياطين، وللعاقبة، إن كان مِن السَّدَنة.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: عدمَ فعلِهم ذلك ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما فعل المشركون ما زُيّن لهم مِن القتل، أو الشركاءُ التزيينَ أو الإرداءَ واللُّبْسَ، أو الفريقانِ جميعَ ذلك، على إجراء الضمير مُجرى اسمِ الإشارة. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ "الفاء" فصيحة، أي: إذا كان ما فعلوه بمشيئة الله تعالى،[٦] فدَعْهم وافتراءَهم، أو وما يفترونه مِن الإفك، فإنّ فيما شاء الله تعالى حِكَمًا بالغةً، إنّما يُملي لهم لِيزدادوا إثمًا، ولهم عذاب أليم. وفيه مِن شدّة الوعيد ما لا يخفى.

---

١ س: تعالى.

٢ كان الوَأد في الجاهليّة، وذلك أنّه كان أحدُهم إذا ولدت له ابنة دفَنَها حيّةً حتى تموتَ، وقد وأَدَها وأْدًا. **المخصَّص** لابن سِيده، ٦٩/٢ «القتل وأنواعه».

٣ انظر القصّة: **السيرة النبويّة** لابن كثير، ١٧٤/١–١٧٦، تحت عنوان: "ذِكر نذر عبد المطّلب ذبح أحد ولده".

٤ أي: "زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ"، قرأ بها ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢٦٣/٢.

٥ أي: "زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الرحمن السلمي والحسن البصري وعبد الملك صاحبِ ابن عامر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٨؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٤٤/٨.

٦ س – تعالى.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ١٣٨﴾

﴿وَقَالُوا﴾ حكاية لنوعٍ آخرَ مِن أنواع كفرهم. ﴿هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى ما جعلوه لآلهتِهم، والتأنيث للخبر. ﴿أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي: حرامٌ. "فِعْلٌ" بمعنى "مفعول"، كـ"الذِّبح"، يستوي فيه الواحد والكثير والذَّكر والأنثى؛ لأنّ أصله المصدر؛ ولذلك وقع صفةً لـ﴿أَنْعَٰمٌ﴾ و﴿حَرْثٌ﴾. وقُرِئ: "حُجْر" بالضمّ[1] وبضمّتَين،[2] و"حِرْجٌ"،[3] أي: ضيّقٌ، وأصله: "حَرِجٌ"، وقيل: هو مقلوب مِن "حِجْر".

﴿لَا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ يعنُون خَدَمَ الأوثانِ مِن الرجال دون النساء. والجملة صفة أخرى لـ﴿أَنْعَٰمٌ﴾ و﴿حَرْثٌ﴾. ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ هو حال مِن فاعل / ﴿قَالُوا﴾، أي: قالوه ملتبِسين بزعمهم الباطلِ مِن غير حُجّة. ﴿وَأَنْعَٰمٌ﴾ [٢٦٩ظ] خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ﴾... إلخ، أي: قالوا مشيرين إلى طائفة أخرى مِن أنعامهم: وهذه أنعامٌ ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾، يَعنُون بها البحائرَ والسوائبَ والحوامِيَ، ﴿وَأَنْعَٰمٌ﴾ أي: وهذه أنعام، كما مرَّ.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ صفة لـ﴿أَنْعَٰمٌ﴾؛ لكنّه غيرُ واقع في كلامهم المَحكيّ كنظائره، بل مسوقٌ مِن جهته تعالى تعيينًا للموصوف وتمييزًا له عن غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء، ١٥٧/٤] على أحد التفاسير، كأنّه قيل: وأنعامٌ ذُبحتْ على الأصنام، فإنّها التي لا يُذكَر عليها اسمُ الله، وإنّما يُذكَر عليها اسمُ الأصنام. وقيل: لا يحجّون عليها؛ فإنّ الحجّ لا يَعرَى عن ذِكر الله تعالى. وقال مجاهد:

---

[1] أي: "حُجْرٌ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم والحسن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٩.

[2] أي: "حُجُرٌ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن عثمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٩.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب وابن مسعود وابن عبّاس وابن الزبير والأعمش وعكرمة وعمرو بن دينار. المحتسَب لابن جنّي، ٢٣١/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٩.

«كانت لهم طائفةٌ مِن أنعامهم لا يذكرون اسمَ الله عليها، ولا في شيء مِن شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا، ولا إن نَتَجُوا،[١] ولا إن باعوا، ولا إن حملوا».[٢]

﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ نصب على المصدر، إمّا على أنّ ما قالوه تقوّلٌ على الله تعالى، وإمّا على تقدير عاملٍ مِن لفظه، أي: افترَوْا افتراءً، والجارُّ متعلِّق بـ﴿قَالُوا﴾، أو بـ"افترَوْا" المقدَّرِ، أو بمحذوفٍ هو صفة له؛ لا بـ﴿ٱفْتِرَآءً﴾؛ لأنّ المصدر المؤكِّد لا يَعمل، أو[٣] على الحال مِن فاعل ﴿قَالُوا﴾، أي: مفترِين، أو على العلّة، أي: للافتراء، فالجارّ[٤] متعلِّق به. ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: بسببه أو بدلِه. وفي إبهام الجزاء مِن التهويل ما لا يخفى.

﴿وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

[٢٧٠و] ﴿وَقَالُوا﴾ حكاية لفنٍّ آخرَ / مِن فنون كفرهم. ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يَعنُون به أجِنّةَ البحائر والسوائب. ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ حلال لهم خاصّةً. و"التاء" للنقل إلى الاسميّة، أو للمبالغة، أو لأنّ "الخالصة" مصدر كـ"العافية"، وقع موقعَ "الخالص" مبالغةً، أو بحذف المضاف، أي: ذو خالصة، أو للتأنيث بناءً على أنّ ﴿مَا﴾ عبارة عن الأجِنّة.

والتذكير في قوله تعالى: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ -أي: جنسِ أزواجنا، وهُنّ الإناثُ- باعتبار اللفظ. وفيه -كما ترى- حملٌ للنظم الكريم على خلاف المعهود الذي هو الحمل على اللفظ أوّلًا وعلى المعنى ثانيًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾... إلخ [الأنعام، ٦/٢٥] ونظائرِه، وأمّا العكس، فقد قالوا إنّه لا نظيرَ له في القرآن.

---

[١] إذا وَلِيَ الرجل ناقةً ماخضًا ونِتاجَها حتى تضَعَ، قيل: نتَجَها نَتْجًا ونِتاجًا، ومنه يُقال: "نُتِجَت الناقةُ"، ولا يُقال: "نُتِجَت الشاةُ"، إلّا أنْ يكون إنسانٌ يَلِي نِتاجَها، ولكن يُقال: "نتَجَ القومُ" إذا وضَعَت إبلُهم وَشاؤهم. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٩٢/٦ «باب الجيم والتاء والنون معهما».

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٥/٤. ونحوه عنه في جامع البيان للطبري، ٥٨٣/٩.

[٣] السياق: نصب على المصدر... أو على الحال...

[٤] وفي هامش م: على التقديرَين.

وهذا الحُكم منهم إن وُلد ذلك حيًّا، وهو الظاهر المعتاد، ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ أي: إن وُلدت مَيْتةً، ﴿فَهُمْ﴾ أي: الذكور والإناث ﴿فِيهِ﴾ أي: فيما في بطون الأنعام. وقيل: المراد بـ"المَيْتة" ما يعُمّ الذَّكرَ والأنثى، فغُلّب الأوّل على الثاني. ﴿شُرَكَآءُ﴾ يأكلون منه جميعًا.

وقُرئ: "خَالِصَةً"[١] بالنصب على أنّه مصدر مؤكِّد، والخبر ﴿لِّذُكُورِنَا﴾، أو حال مِن الضمير الذي في الظرف، لا مِن الذي في ﴿ذُكُورِنَا﴾، ولا مِن "الذكور"؛ لأنّه لا يتقدّم على العامل المعنويّ، ولا على صاحبه المجرور. وقُرئ: "خَالِصُهُ"[٢] بالرفع والإضافةِ إلى الضمير، على أنّه بدلٌ مِن ﴿مَا﴾، أو مبتدأٌ ثانٍ.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: جزاءَ وصفِهم الكَذِبَ على الله تعالى في أمر التحليل والتحريمِ، مِن قوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل، ٦٢/١٦]. ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل للوعد بالجزاء، فإنّ الحكيم العليم بما صدر عنهم / لا يكاد يترك جزاءَهم الذي هو مِن مقتضَيات الحكمة. [٢٧٠ظ]

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٤٠﴾

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ جوابُ قَسم محذوفٍ. وقُرئ بالتشديد.[٣] وهم ربيعةُ ومُضَرُ وأضرابُهم مِن العرب الذين كانوا يَئِدون بناتَهم مخافةَ السَّبْي والفقرِ، أي: خسِروا دينَهم ودُنياهم. ﴿سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلِّق بـ﴿قَتَلُوا﴾ على أنّه علّة له، أي: لِخِفّة عقلهم وجهلِهم بأنّ الله هو الرازق لهم ولأولادهم، أو نصب على الحال، ويؤيّده أنّه قُرئ: "سُفَهَاءَ"،[٤] أو مصدرٌ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس بخلاف والأعرج وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس بخلافٍ والزهري والأعمش وأبي طالوت. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٣.

٣ أي: "قَتَّلُوا"، قرأ بها ابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٤٣/٢.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٦٦٣/٤؛ وابن عادل في اللباب، ٤٦٥/٨، ونسباها إلى اليماني.

﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ مِن البحائر والسوائب ونحوهِما، ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ نصب على أحد الوجوه المذكورة. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإظهار كمال عُتُوّهم وطُغيانهم. ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الطريق المستقيم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ إليه، وإن هُدُوا بفنون الهدايات، أو وما كانوا مهتدين مِن الأصل لسُوءِ سيرتهم، فالجملة حينئذ اعتراضٌ، وعلى الأوّل عطفٌ على ﴿ضَلُّوا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾ تمهيد لِما سيأتي مِن تفصيل أحوال الأنعام، أي: هو الذي أنشأهنّ مِن غير شركة لأحد في ذلك بوجه مِن الوجوه. و"المعروشات" مِن الكُروم: المرفوعات على ما يحملها. ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾ وهي المُلقَيات على وجه الأرض. وقيل: "المعروشات" ما غرَسه الناس وعرَشوه، و"غيرُ المعروشات" ما نبت في البوادي والجبال.

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ عطفٌ على ﴿جَنَّـٰتٍ﴾، أي: أنشأهما. ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ وقُرئ: "أُكْلُهُ"[1] بسكون الكاف، أي: ثمرُه الذي يُؤكَل في الهيئة والكيفيّة. والضمير إمّا لـ﴿ٱلنَّخْلَ﴾، و﴿ٱلزَّرْعَ﴾ داخلٌ في حكمه، أو لـ﴿ٱلزَّرْعَ﴾، والباقي مَقيس عليه، أو للجميع على تقدير "أُكُلُ ذلك" أو "كلُّ واحد منها". و﴿مُخْتَلِفًا﴾ حال مقدَّرة، إذ ليس كذلك وقتَ الإنشاء. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ أي: أنشأهما. وقوله تعالى: / ﴿مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ نصب على الحاليّة، أي: يتشابَهُ بعض أفرادهما في اللون أو الهيئةِ[2] أو الطعمِ، ولا يتشابَهُ بعضها. [٢٧١و]

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي: مِن ثمر كلّ واحدٍ مِن ذلك، ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾، وإن لم يُدرِك ولم يَيْنَع بعدُ. وقيل: فائدته رُخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حقّ الله تعالى.

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦.

[2] ط س: والهيئة.

﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ أريدَ به ما كان يُتصدّق به يومَ الحصاد بطريق الوجوب مِن غير تعيين المقدار؛ لا الزكاةُ المقدَّرةُ، فإنّها فُرِضت بالمدينة، والسورةُ مكّيّة. وقيل: الزكاةُ، والآيةُ مَدَنيّة، والأمر بإيتائها يومَ الحصاد لِيُهتمَّ به حينئذ حتّى لا يؤخَّرَ عن وقت الأداء، وليُعلَمَ أنّ الوجوب بالإدراك، لا بالتصفية. وقُرئ: "يَوْمَ حِصَادِهِ"[1] بكسر الحاء، وهو لغة فيه.

﴿وَلَا تُسْرِفُواْ﴾ أي: في التصدّق، كما رُوي عن ثابت بن قيس أنّه صرَمَ[2] خمسَمائةِ نخلةٍ، ففرّق ثمرَها كلَّها، ولم يُدخل منه شيئًا إلى منزِله،[3] كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ الآية.[4] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: لا يرتضي إسرافَهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ شروع في تفصيل حال الأنعام وإبطالِ ما تقوّلوا على الله تعالى في شأنها بالتحريم والتحليل. وهو عطف على مفعول ﴿أَنشَأَ﴾،[5] و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة به، أي: وأنشأ مِن الأنعام ما يُحمَل عليه الأثقال وما يُفرَش للذبح، أو ما يُفرَش المصنوعُ مِن شَعره وصُوفِه ووَبَرِه، وقيل: الكِبارَ الصالحةَ للحمل، والصِّغارَ الدانيةَ مِن الأرض، كأنّها فُرُشٌ مفروشٌ عليها.

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿مَا﴾ عبارة عمّا ذُكر مِن "الحَمولة" و"الفَرْش"، و﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة، أي: كُلوا بعضَ ما رزقكم الله تعالى، أي: حلالَه. وفيه تصريح بأنّ إنشاءَها لأجلهم ومصلحتِهم. ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ في أمر التحليل والتحريم بتقليد أسلافكم المجازِفين في ذلك مِن تِلقاء أنفسِهم المفترين على الله سبحانه.

---

[1] قرأ بها ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي. **النشر** لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

[2] صرمتُ الشيءَ صَرْمًا، إذا قطعتَه، وصرمتُ الرجلَ صَرْمًا، إذا قطعتَ كلامَه. والاسم: الصُّرْم. وصرَمَ النخلَ، أي جَدَّه. وأصرَمَ النخلُ، أي: حان له أنْ يُصرَم. **الصحاح** للجوهري، «صرم».

[3] **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ٢٩٧/٢؛ **تفسير السمعاني**، ١٥٠/٢؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٧٣/٢. وهو مع اختلاف بالزيادة في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٩٥/٣.

[4] ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء، ٢٩/١٧].

[5] في الآية السابقة.

﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ فإنّ ذلك منهم بإغواء الشيطان / واستتباعِه إيّاهم. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهرُ العداوة. [٢٧١ظ]

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ الزوج: ما معه آخَرُ مِن جنسه يُزاوِجُه ويحصل منهما النسلُ. والمراد بها الأنواع الأربعة، وإيرادُها بهذا العُنوان وهذا العددِ تمهيدٌ لِما سِيقَ له الكلام مِن الإنكار المتعلِّق بتحريم كلّ واحد مِن الذَّكر والأنثى وبما في بطنها. وهو بدلٌ مِن ﴿حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗا﴾،[١] منصوبٌ بما نصَبَهما.

وجَعْلُه مفعولًا لـ﴿كُلُواْ﴾[٢] على أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾[٣] الآية معترِضٌ بينهما، أو حالًا مِن ﴿مَا﴾[٤] بمعنى "مختلِفةً" أو "متعدِّدةً"، يأباه جزالة النظم الكريم، لظهور أنّه مَسوق لتوضيح حال الأنعام بتفصيلها أوّلًا إلى حَمولةٍ وفَرْشٍ، ثمّ تفصيلِهما إلى ثمانية أزواجٍ حاصلةٍ مِن تفصيل الأُولى إلى الإبل والبقر، وتفصيلِ الثاني إلى الضَّأْن والمَعْزِ، ثمّ تفصيلِ كلٍّ مِن الأقسام الأربعة إلى الذَّكر والأنثى، كلُّ ذلك لتحرير الموادّ التي تقوّلوا فيها عليه سبحانه وتعالى[٥] بالتحليل والتحريم، ثمّ تبكيتِهم بإظهار كذبهم وافترائِهم في كلّ مادّةٍ مادّةٍ مِن تلك الموادّ بتوجيه الإنكار إليها مفصَّلةً.

و﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ بدلٌ مِن ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾، منصوبٌ بناصِبه، وهو العامل في ﴿مِّنَ﴾، أي: أنشأ مِن الضَّأْن زوجين: الكَبْشَ والنَّعْجةَ. وقُرِئ: "اِثْنَانِ"[٦] على الابتداء. و"الضَّأْن": اسمُ جنس كالإبل، وجمعُه "ضَئِين" كـ"أمير"، أو جمعُ "ضائِنٍ" كـ"تاجِر" و"تَجْرٍ". وقُرِئ بفتح الهمزة.[٧]

---

[١] في الآية السابقة.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] م - وتعالى.
[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن عثمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٠.
[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٠.

﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ عطفٌ على مِثله، شريكٌ له في حكمه، أي: وأنشأ مِن المَعْز زوجين: التَّيْسَ والعَنْزَ. وقُرِئ بفتح العين،[1] وهو جمعُ "ماعِزٍ"، كـ"صاحِبٍ" و"صَحَبٍ" و"حارِسٍ" و"حَرَسٍ". وقُرِئ: "وَمِنَ المِعْزَى".[2]

وهذه الأزواج الأربعة تفصيل لـ"الفَرْش"، ولعلّ تقديمَها في التفصيل -مع تأخّر أصلِها في الإجمال- لكون هذين النوعَين عُرضةً للأكل / الذي هو معظَم [٢٧٢و] ما يتعلّق به الحِلّ والحُرمة، وهو السِّرّ في الاقتصار على الأمر به في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾[3] مِن غير تعرّضٍ للانتفاع بالحمل والركوب وغيرِ ذلك ممّا حرّموه في السائبة وأخَواتِها.

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إثرَ تفصيل أنواع الأنعام التي أنشأها، أي: قل تبكيتًا لهم وإظهارًا لانقطاعهم عن الجواب: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ مِن ذَيْنِك النوعَين، وهما: الكَبْش والتَّيْس. ﴿حَرَّمَ﴾ أي: اللهُ عزّ وجلّ كما تزعمون أنّه هو المحرِّم، ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وهما: النَّعْجة والعَنْز. ونصبُ ﴿ٱلذَّكَرَيْنِ﴾ و﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ بـ﴿حَرَّمَ﴾، وهو مؤخَّر عنهما بحسَب المعنى، وإن توسَّطَ بينهما صورةً. وكذا قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: أمْ ما حملت إناثُ النوعَين حَرَّم، ذَكَرًا كان أو أنثى؟

وقوله تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾... إلى آخره تكريرٌ للإلزام، وتثنيةٌ للتبكيت والإفحام، أي: أَخبِروني بأمر معلوم مِن جهة الله تعالى مِن الكتاب أو إخبارِ الأنبياء يدلّ على أنّه تعالى حرَّمَ شيئًا ممّا ذُكر، أو نَبّئوني تنبئةً ملتبِسةً بعلمٍ صادرةً عنه، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في دعوى التحريم عليه سبحانه.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٠.

[3] في الآية السابقة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾،[١] أي: وأنشأ مِن الإبل اثنين، هما: الجَمَل والناقة. ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى.

﴿قُلْ﴾ إفحامًا لهم في أمر هذين النوعَين أيضًا: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ منهما ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ / عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ مِن ذَيْنِك النوعَين، والمعنى إنكارُ [٢٧٢ظ] أنّ الله سبحانه حرَّم عليهم شيئًا مِن الأنواع الأربعة، وإظهارُ كذِبهم في ذلك، وتفصيلُ ما ذُكر مِن الذكور والإناثِ وما في بطونها للمبالغة في الردّ عليهم بإيراد الإنكار على كلّ مادّة مِن موادّ افترائهم، فإنّهم كانوا يحرِّمون ذكورَ الأنعام تارةً وإناثَها تارةً، وأولادَها -كيفما كانت- تارةً أخرى، مسنِدين ذلك كلَّه إلى الله سبحانه.

وإنّما عُقّب تفصيل كلّ واحد مِن نوعَي الصغارِ ونوعَي الكبارِ بما ذُكر مِن الأمر بالاستفهام والإنكارِ -مع حصول التبكيت بإيراد الأمرِ عقيبَ تفصيل الأنواع الأربعة بأنْ يُقال: "قل: آلذُّكورَ حرَّم أم الإناثَ، أم ما اشتملتْ عليه أرحامُ الإناث؟"- لِما في التثنية والتكريرِ مِن المبالغة في التبكيت والإلزام.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ تكرير للإفحام، كقوله تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾.[٢] و﴿أَمْ﴾ منقطِعة، ومعنى الهمزة الإنكارُ والتوبيخُ، ومعنى "بل" الإضرابُ عن التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بوجه آخرَ، أي: بل أكنتم حاضرين مشاهِدين ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أي: حين وصّاكم بهذا التحريمِ إذ أنتم لا تؤمنون بنبيّ، فلا طريقَ لكم -حسبما يقود إليه مذهبكم- إلى معرفة أمثال ذلك إلّا المشاهدة والسَّماع. وفيه مِن تركيك عقولهم والتهكّمِ بهم ما لا يخفى.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسَبَ إليه تحريمَ ما لم يحرِّم. والمراد كُبراؤهم المقرِّرون لذلك، أو عمرو بنُ لُحَيّ بنِ قَمَعَةَ، / وهو المؤسِّس لهذا [٢٧٣و] الشرّ، أو الكلُّ لاشتراكهم في الافتراء عليه سبحانه وتعالى، أي: فأيّ فريق أظلمُ مِن فريقٍ افترَوْا... إلخ. ولا يقدح في أظلميّة الكلّ كونُ بعضهم مخترِعين له

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

وبعضِهم مقتدِين بهم. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما سبق مِن تبكيتهم وإظهارِ كذِبهم وافترائِهم، أي: هو أظلمُ مِن كلّ ظالم، وإن كان المنفيُّ صريحًا الأظلميّة دون المُساواة كما مرّ غيرَ مرّة.[١]

﴿لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾ متعلِّق بـ"الافتراء". ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعل ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾، أي: افترى عليه تعالى جاهلًا بصدور التحريم عنه تعالى. وإنّما وُصفوا بعدم العلم بذلك -مع أنّهم عالِمون بعدم صدوره عنه تعالى- إيذانًا بخروجهم في الظلم عن الحدود والنهاياتِ، فإنّ مَن افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه إذا كان أظلمَ مِن كلّ ظالم، فما ظنُّك بمَن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنّه لم يصدُر عنه؟ ويجوز أن يكون حالًا مِن فاعل ﴿يُضِلَّ﴾، أي: ملتبِسًا بغير علم بما يؤدّي بهم إليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كائنًا مَن كان إلى ما فيه صلاحُ حالهم عاجلًا أو آجلًا، وإذا كان هذا حال المتّصِفين بالظلم في الجملة، فما ظنُّك بمَن هو في أقصى غاياتِه؟

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿قُلْ﴾ أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد إلزام المشركين وتبكيتِهم، وبيانِ أنّ ما يتقوّلونه في أمر التحريم افتراءٌ بحتٌ لا أصلَ له قطعًا، بأنْ يبيّنَ لهم ما حرّمه عليهم. وفي قوله: ﴿لَآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ إيذانٌ بأنّ مناط الحِلّ والحُرمةِ هو الوحي، وأنّه عليه السلام قد تتبَّعَ جميعَ ما أوحِيَ إليه وتفحَّصَ عن المحرَّمات، ولم يجد غيرَ ما فُصّل. وفيه مبالغة في بيان انحصارها في ذلك.

[٢٧٣ظ] / و﴿مُحَرَّمًا﴾ صفة لمحذوفٍ، أي: لا أجد رَيثما تصفّحْتُ ما أوحِيَ إليّ طعامًا محرّمًا مِن المطاعم التي حرّموها ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ أي: أيِّ طاعم كان مِن ذَكر أو أنثى،

---

١ انظر: تفسير الأنعام، ٢١/٦.

ردًّا على قولهم: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام، ٦/١٣٩]. وقوله تعالى: ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾ لزيادة التقرير.

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ أي: ذلك الطعام ﴿مَيْتَةً﴾. وقُرِئ: "تَكُونَ"[١] بالتاء لتأنيث الخبر. وقُرِئ: "مَيْتَةٌ"[٢] بالرفع على أنّ "كان" تامّةٌ، وقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ حينئذ عطفٌ على ﴿أَن﴾ مع ما في حيّزه، أي: إلّا وجودَ مَيْتةٍ أو دمًا مسفوحًا، أي: مصبوبًا كالدماء التي في العروق، لا كالطِّحال والكَبِد. ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ﴾ أي: الخنزير ﴿رِجْسٌ﴾، أو لحمُه قذِرٌ لتعوُّدِه أكلَ النجاسة، أو خبيثٌ.

﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطفٌ على ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾، وما بينهما اعتراض مقرِّر لحُرمتِه، ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفة له موضِحةٌ، أي: ذُبح على اسم الأصنام. وإنّما سُمِّي ذلك "فِسقًا" لتوغُّلِه في الفِسق. ويجوز أن يكون ﴿فِسْقًا﴾ مفعولًا له لـ﴿أُهِلَّ﴾، وهو عطفٌ على ﴿يَكُونَ﴾، والمستكنّ راجعٌ إلى ما رجع إليه المستكنّ في ﴿يَكُونَ﴾.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: أصابه الضرورة الداعية إلى أكل المَيْتة بوجه مِن الوجوه المضطرّة، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ في ذلك على مضطرٍّ آخرَ مثلِه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ قدرَ الضرورة، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالِغٌ في المغفرة والرحمة، لا يؤاخذه بذلك. وليس التقييدُ بالحال الأولى لبيان أنّه لو لم يوجَد القيدُ لَتحقّقت الحُرمة المبحوثُ عنها؛ بل للتحذير مِن حرامٍ آخرَ، هو أخذُه حقَّ مضطرٍّ آخرَ، فإنّ مَن أخذ لحمَ المَيْتة مِن يدِ مضطرٍّ آخرَ فأكله، فإنّ حُرمته ليست باعتبار كونه / لحمَ المَيْتة؛ [٢٧٤و] بل باعتبار كونه حقًّا للمضطرِّ الآخر. وأمّا الحال الثانية، فلتحقيقِ زوال الحُرمة المبحوثِ عنها قطعًا، فإنّ التجاوزَ عن القدر الذي يُسَدّ به الرَّمَقُ حرامٌ مِن حيث إنّه لحمُ المَيْتة.

وفي التعرّض لوصفَي المغفرة والرحمةِ إيذانٌ بأنّ المعصية باقيةٌ، لكنّه تعالى يغفِر له ويرحَمه. والآية محكَمة؛ لأنّها تدلّ على أنّه عليه السلام لم يجد فيما أوحِيَ إليه إلى تلك الغاية غيرَه، ولا ينافيه ورودُ التحريم بعد ذلك في شيءٍ آخرَ؛

---

١ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦.

٢ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦.

فلا يصِحّ الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد، ولا على حِلّ الأشياء التي هي غيرها إلّا مع الاستصحاب.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ خاصّةً، لا على مَن عَداهم مِن الأوّلين والآخِرين، **﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾** أي: كلَّ ما له إصبع مِن الإبل والسِّباع والطيور، وقيل: كلَّ ذي مِخْلب وحافر، وسُمِّي الحافر[1] "ظُفرًا" مجازًا. والمسبَّبُ عن الظلم هو تعميم التحريم، حيث كان بعضُ ذوات الظُّفُر حلالًا لهم، فلمّا ظلموا عمَّ التحريمُ كلَّها. وهذا تحقيقٌ لِما سلف مِن حصر المحرَّمات فيما فُصّل بإبطال ما يخالفه مِن فِرْية[2] اليهود وتكذيبِهم في ذلك، فإنّهم كانوا يقولون: لسنا أوّلَ مَن حُرّمت عليه، وإنّما كانت محرَّمةً على نوح وإبراهيمَ ومَن بعدهما حتّى انتهى الأمر إلينا.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ لا لُحومَهما، فإنّها باقية على الحِلّ. و"الشُّحوم": الثُّروب[3] وشحوم الكُلَى.[4] والإضافة لزيادة الربط. **﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾** استثناء مِن "الشحوم"، مُخرجٌ لِما عَلِقَ مِن الشَّحم بظهورهما عن حكم التحريم.[5] **﴿أَوِ ٱلْحَوَايَا﴾** عطفٌ على ﴿ظُهُورُهُمَا﴾، أي: ما حملتْه الحَوايا،

---

[1] س – الحافر.

[2] فَرَى فلانٌ كَذِبًا، إذا خلَقَه. وافتراه: اختلقه. والاسم: الفِرْية. الصحاح للجوهري، «فرا».

[3] الثُّروب: الشحم الرقيق الذي يُغشّي الكَرِش والأمعاءَ. الواحد: "ثَرْب"، وجمعها: "أثْرُبٌ"، و"الأثارب": جمعُ الجمع. لسان العرب لابن منظور، «ثرب».

[4] الكُلَى: جمع "كُلْية". والكُلْية لكلّ حَيَوان: لَحمتانِ منتَبِرتانِ حمراوانِ لازقتانِ بعَظْم الصُّلْب عند الخاصرتَين في كُظْرَين مِن الشحم، وهما مَنبِتُ بيت الزرع، كذا يُسمَّيانِ في الطبّ، يُراد به زرع الولد. وكُلْية المَزادة والراوية وشبههما: جُلَيدة مستديرة تحت العُرْوة قد خُرِزت مع الأديم. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٤٠٦/٥ «باب الكاف واللام».

[5] أي: مُخرج عن حكم التحريم لِما علِقَ مِن الشَّحم بظهورهما.

وهي جمعُ "حاوية"، أو "حاوياء" كـ"قاصعاء" و"قواصِعَ"، أو "حَويّة" كـ"سفينة" و"سفائنَ". ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ عطفٌ على ﴿مَا حَمَلَتْ﴾، وهو شَحم الألْيةِ، واختلاطُه بالعَظْم اتّصالُه بعَجْب الذنَب. وقيل: هو كلّ شَحم متّصِل بالعَظْم مِن الأضلاع وغيرِها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجزاء أو التحريم، فهو على الأوّل نصب على أنّه مصدر مؤكِّد لِما بعده، وعلى الثاني على أنّه مفعولٌ ثانٍ له، أي: ذلك التحريم ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم، وهو قتلُهم الأنبياءَ بغير حقّ، وأكلُهم الربا وقد نُهوا عنه، وأكلُهم أموالَ الناس بالباطل، كقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء، ١٦٠/٤].

[٢٧٤ظ] وكانوا كلّما أتَوْا بمعصيةٍ عُوقِبوا / بتحريم شيء ممّا أُحِلّ لهم، وهم يُنكرون ذلك، ويدّعون أنّها لم تزَلْ محرَّمةً على الأمَم، فرُدَّ عليهم ذلك، وأُكِّد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: في جميع أخبارنا التي مِن جملتها هذا الخبر. ولقد ألقَمهم الحَجَرَ[١] قولُه تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران، ٩٣/٣]. رُوي أنّه عليه السلام لمّا قال لهم ذلك بُهِتوا، ولم يجسُروا أن يُخرجوا **التوراةَ**؛[٢] كيف وقد بيّن فيها جميعُ ما يحذرون أوضحَ بيانٍ!

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ قيل: الضمير لليهود؛ لأنّهم أقرَبُ ذِكرًا، ولذكرِ المشركين بعد ذلك بعُنوان "الإشراك"، وقيل: للمشركين، فالمعنى على الأوّل: إن كذّبَتْك اليهود في الحكم المذكور وأصَرّوا على ما كانوا عليه مِن ادّعاء قِدَم التحريم، ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ لا يؤاخذكم بكلّ ما تأتونه مِن المعاصي ويُمهِلكم على بعضها، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ بالكلّيّة ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾،

---

١ ألقَمَه الحَجَرَ: يُضرَب للمُجيب بجواب مُسكِت. **المستقصى في أمثال العرب للزمخشري**، ٣٣٩/١.

٢ انظر: **الكشف والبيان للثعلبي**، ١١٣/٣-١١٤ (آل عمران ٩٣/٣)؛ **وأنوار التنزيل للبيضاوي**، ٢٨/٢ (آل عمران ٩٣/٣).

فلا تُنكروا ما وقع منه تعالى مِن تحريم بعض الطيّبات عليكم عقوبةً وتشديدًا، وعلى الثاني: فإن كذَّبك المشركون فيما فُصّل مِن أحكام التحليل والتحريم، فقُلْ لهم: ربُّكم ذو رحمة واسعة، لا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم، فلا تغتَرّوا بذلك، فإنّه إمهال لا إهمال. وقيل: ذو رحمة للمطيعين، وذو بأس شديد على المجرمين، فأُقيمَ مُقامَه قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾... إلخ لتضمُّنِه التنبيهَ على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على أنّه لا حقَّ بهم البتّةَ مِن غير صارفٍ يصرِفه عنهم أصلًا.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ حكاية لفنٍّ آخرَ مِن كفرهم. وإخبارُه قبل وقوعه ثمّ وقوعُه حسبما أُخبرَ به كما يَحكيه قوله تعالى عند وقوعه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل، ١٦/٣٥] صريحٌ في أنّه مِن عند الله تعالى.

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ أي: لو شاء خلافَ ذلك مشيئةَ ارتضاءٍ لَما فعلنا الإشراكَ نحن ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾. أرادوا به أنّ ما فعلوه حقٌّ مرضيٌّ عند الله تعالى؛ لا الاعتذارَ / مِن ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله تعالى إيّاها منهم، [٢٧٥و] حتّى ينتهضَ ذمُّهم به دليلًا للمعتزلة؛ ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثلَ ما كذّبك هؤلاء في أنّه تعالى منع مِن الشرك ولم يحرِّم ما حرّموه كذَّب متقدِّموهم الرسلَ، فإنّه صريح فيما قلنا. وعطفُ ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ على الضمير للفصل بـ﴿لَا﴾. ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ مِن أمر معلوم يصِحّ الاحتجاجُ به على ما زعمتم، ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي: فتُظهروه لنا؛ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما تتّبِعون في ذلك إلّا الظنَّ الباطلَ الذي لا يُغني مِن الحقّ شيئًا، ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون على الله عزّ وجلّ. وليس فيه دلالة على المنع مِن اتّباع الظنّ على الإطلاق؛ بل فيما يعارضه قطعيّ.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ "الفاء" جوابُ شرطٍ محذوفٍ، أي: وإذ قد ظهر أن لا حجّةَ لكم، فلِلّه الحجّةُ البالغةُ، أي: البيّنةُ الواضحةُ التي بلغت غايةَ المتانة والثبات، أو بلغ بها صاحبُها صحّةَ دعواه. والمراد بها الكتاب والرسول والبيان. وهي مِن "الحَجّ" بمعنى "القصد"، كأنّها تَقصِد إثباتَ الحُكم وتَطلُبه. ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ هِدايتَكم جميعًا ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها والحملِ عليها، ولكنْ لم يشأ هدايةَ الكلّ؛ بل هدايةَ البعض الصارفين هِمَمَهم إلى سلوك طريق الحقّ، وضلالَ آخَرين صرفوا اختيارَهم إلى خلاف ذلك، مِن غير صارفٍ يَلوِيهم ولا عاطفٍ يَثنِيهم.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١٥٠﴾

[٢٧٥ظ] ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي: أَحضِروهم. وهو اسمُ فعلٍ / لا يتصرّف على لغة أهل الحجاز، وفعلٌ يؤنَّث ويُجمَع على لغة بني تميم على رأي الجمهور. وقد خالفهم البعض في فِعليّته، وليس بشيء. وأصله عند البصريّين: "هَالُمَّ"، مِن "لَمَّ" إذا قصَدَ، حُذفت الألفُ لتقدير السكون في "اللام"، فإنّه الأصل، وعند الكوفيّين: "هَلْ أُمَّ"، فحُذفت الهمزة بإلقاء حركتِها على "اللام"، وهو بعيد؛ لأنّ "هل" لا تدخل الأمرَ. ويكونُ متعدّيًا كما في الآية، ولازمًا كما في قوله تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾.[1]

﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ وهُمْ قُدوتهم الذين ينصرون قولَهم. وإنّما أُمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجّة، ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم وأنّه لا متمسَّكَ لهم كمَن يقلّدهم؛ ولذلك قُيّد الشهداء بالإضافة ووُصفوا بما يدلّ على أنّهم شهداءُ معروفون بالشهادة لهم وبنُصرة مذهبهم.

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ بعد ما حضروا بأنّ الله حرّم هذا، ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: فلا تصدِّقْهم، فإنّه كذِبٌ بحتٌ وافتراءٌ صِرفٌ، وبيّنْ لهم فسادَه، فإنّ تسليمه منهم

---

[1] ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب، ١٨/٣٣].

موافَقةً لهم في الشهادة الباطلة. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مِن وضع المُظهَر مَقامَ المُضمَر للدلالة على أنّ مَن كذّب بآيات الله تعالى وعدَل به غيرَه، فهو متّبِعٌ للهوى لا غير، وأنّ مَن اتّبع الحجّةَ لا يكون إلّا مصدِّقًا بها.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ كعَبَدة الأوثان. عطفٌ على الموصول الأوّل بطريق عطف الصفة على الصفة مع اتّحاد الموصوف، كما في قوله:

إلى الماجد القَرْمِ وابنِ الهُمامِ ولَيثِ الكتائبِ في المُزدَحَمْ[1]

فإنّ مَن يكذِّب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة، وبالعكس.

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يجعلون له عديلًا. عطفٌ على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والمعنى: لا تتّبِعْ أهواءَ الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله وبين الكفر بالآخرة وبين الإشراك به سبحانه؛ لكنْ لا على أن يكون مدارُ النهي الجمعَ المذكورَ، بل على أنّ أولئك جامعون لها متّصِفون بكلِّها.[2]

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

/ ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ﴾ لمّا ظهر بُطلان ما ادّعَوْا مِن أنّ إشراكهم وإشراكَ آبائهم وتحريمَ ما حرّموه بأمر الله تعالى ومشيئتِه بظهور[3] عجزهم عن إخراج شيءٍ يُتمسّك به في ذلك وإحضارِ شهداءَ يشهدون بما ادّعَوْا في أمر التحريم بعد ما كُلّفوه مرّةً بعد أخرى عجزًا بيّنًا، أُمر[4] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنْ يبيّنَ لهم [٢٧٦و]

---

[1] لم نقف عليه بهذه الألفاظ. وهو بلا نسبةٍ بروايةِ:
إلى المَلِكِ القَرْم وابنِ الهُمام ولَيث الكتيبةِ في المُزدَحَمِ
في **جامع البيان** للطبري، ١٨٩/٣ (البقرة، ١٧٧/٢)؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤١/١ (البقرة، ٤/٢)؛ و**حياة الحَيَوان الكبرى** للدِّميري، ٣٣٩/٢؛ و**خزانة الأدب** للبغدادي، ٤٥١/١. | القَرْم: السيّد. والهُمام: الملِكُ العظيم الهمّةِ. **الصحاح** للجوهري، «قرم، همم».

[2] في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

[3] السياق: لمّا ظهر بُطلان ما ادّعَوْا... بظهور عجزهم...

[4] جواب "لمّا".

مِن المحرَّمات ما يقتضي الحالُ بيانَه على الأسلوب الحكيم، إيذانًا بأنّ حقّهم الاجتنابُ عن هذه المحرَّمات، وأمّا الأطعِمة المحرَّمة فقد بُيّنت بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾ الآية [الأنعام، ٦/١٤٥].

و"تَعَالَ" أمرٌ مِن "التعالِي"، والأصل فيه أن يقوله مَن في مكانٍ عالٍ لمَن هو في أسفلَ منه، ثمّ اتُّسِع فيه بالتعميم، كما أنّ "الغنيمة" في الأصل إصابةُ الغَنَم مِن العَدوّ، ثمّ استُعمِلت في إصابة كلِّ ما يُصاب منهم اتّساعًا، ثمّ في الفَوزِ بكلّ مطلب مِن غير مَشَقّة.

﴿أَتْلُ﴾ جواب الأمر، وقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ منصوب به على أنّ ﴿مَا﴾ موصولةٌ، والعائد محذوف، أي: أَقرأ الذي حرّمه ربُّكم، أي: الآياتِ المشتمِلةَ عليه، أو مصدريّةٌ، أي: الآياتِ المشتمِلةَ على تحريمه، أو بـ﴿حَرَّمَ﴾ على أنّها استفهاميّة، والجملة مفعولٌ لـ﴿أَتْلُ﴾؛ لأنّ التلاوة مِن باب القول، كأنّه قيل: أَقُلْ[1] أيَّ شيءٍ حرّم ربُّكم.

و﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿حَرَّمَ﴾ على كلّ حال، وقيل: بـ﴿أَتْلُ﴾. والأوّل أنسَبُ بمقام الاعتناء بإيجاب الانتهاء عن المحرَّمات المذكورة، وهو السِّرّ في التعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم، فإنّ تذكير كونه تعالى ربًّا لهم ومالكًا لأمرهم على الإطلاق / مِن أقوى الدواعي إلى انتهائهم عمّا نهاهم عنه أشدَّ انتهاءٍ. [٢٧٦ظ]

و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ﴾ مفسِّرة لفعل التلاوة المعلَّقِ بـ﴿مَا حَرَّمَ﴾، و﴿لَا﴾ ناهية كما يُنبئ عنه عطفُ ما بعده مِن الأوامر والنواهي عليه، وليس مِن ضرورة كون المعطوف عليه تفسيرًا لتلاوة المحرَّمات بحسَب منطوقِه كونُ المعطوفات أيضًا كذلك، حتّى يمتنع انتظامُ الأوامر في سِلك العطف عليه؛ بل يكفي في ذلك كونُها تفسيرًا لها[2] باعتبار لوازمِها التي هي النواهي المتعلِّقةُ بأضداد ما تعلّقت هي به، فإنّ الأمر بالشيء مستلزِم للنهي عن ضِدّه، بل هو عينُه[3] عند البعض،

---

[1] س: قُلْ.
[2] وفي هامش م: لتلاوةِ المحرَّمات.
[3] أي: إنّ الأمر بالشيء عينُ النهي عن ضِدّه عند البعض.

كأنّ الأوامرَ ذُكرت وقُصِد لوازمُها، فإنّ عطف الأوامر على النواهي الواقعةِ بعد ﴿أَنْ﴾ المفسِّرةِ لتلاوة المحرَّمات -مع القطع بأنّ المأمور به لا يكون محرَّمًا- دليلٌ واضحٌ على أنّ التحريم راجعٌ إلى الأضداد على الوجه المذكور، فكأنّه قيل: أَتْلُ ما حرَّم ربُّكم أن لا تشركوا ولا تُسيئوا إلى الوالدَين؛ خَلَا أنّه قد أُخرجَ مُخرَجَ الأمر بالإحسان إليهما بين النهيَين المكتنِفَين له للمبالغة في إيجاب مراعاة حقوقهما، فإنّ مجرَّد ترك الإساءة إليهما غيرُ كافٍ في قضاء حقوقهما؛ ولذلك عُقّب به النهيُ عن الإشراك -الذي هو أعظمُ المحرَّمات وأكبرُ الكبائر- ههنا وفي سائر المواقع.

وقيل: ﴿أَنْ﴾ ناصبة، ومحلّها النصبُ بـ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على أنّه للإغراء، / وقيل: [٢٧٧و] النصبُ على البَدَليّة مِن ﴿مَاحَرَّمَ﴾، وقيل: مِن عائدها المحذوفِ على أنّ ﴿لَا﴾ زائدةٌ، وقيل: الجرُّ بتقدير "اللام"، وقيل: الرفعُ بتقدير "المَتلُوُّ أن لا تشركوا" أو "المحرَّمُ أن تشركوا"[١] بزيادة "لا"، وقيل وقيل. والذي عليه التعويلُ هو الأوّل، لأمورٍ مِن جملتها أنّ في إخراج المفسِّر على صورة النهي مبالغةً في بيان التحريم.

وقوله تعالى: ﴿شَيْـًٔا﴾ نصب على المصدريّة أو المفعوليّةِ، أي: لا تشركوا به شيئًا مِن الإشراك أو شيئًا مِن الأشياء. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي: وأَحسِنوا بهما ﴿إِحْسَٰنًا﴾، وقد مرّ تحقيقه.[٢]

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم﴾ تكليف متعلِّق بحقوق الأولاد، عُقّب به التكليف المتعلِّقُ بحقوق الوالدَين، أي: لا تقتلوهم بالوَأْدِ[٣] ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: مِن أجل فقرٍ، كما في قوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.[٤] وقيل: هذا في الفقر الناجز، وذا في المتوقَّع. وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ استئناف مَسوق لتعليل النهي وإبطالِ سببيّةِ ما اتّخذوه سببًا لمباشرة المنهيّ عنه، وضَمانٌ منه تعالى لأرزاقهم،

---

١ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: أن لا تشركوا.

٢ قد مرّ آنفًا.

٣ كان الوَأْد في الجاهليّة، وذلك أنّه كان أحدُهم إذا ولدت له ابنة دفَنَها حيّةً حتى تموتَ، وقد وَأَدَها وَأْدًا. المخصَّص لابن سِيده، ٢/٦٩ «القتل وأنواعه».

٤ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء، ١٧/٣١].

أي: نحن نرزق الفريقَين، لا أنتم؛ فلا تخافوا الفقرَ بناءً على عجزكم عن تحصيل الرزق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ الآية [الإسراء، ٣٢/١٧]؛ إلّا أنّه جِيءَ ههنا بصيغة الجمع قصدًا إلى النهي عن أنواعها؛ ولذلك أُبدلَ عنها قولُه تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: ما يُفعَل منها علانيَةً في الحوانيت كما هو دأب أراذِلِهم، وما يُفعَلُ سِرًّا باتّخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم.

وتعليق النهي بـ"قُربانها" إمّا للمبالغة في الزجر عنها لقوّةِ الدواعي إليها، وإمّا لأنّ قُربانها داعٍ إلى مباشرتها. وتوسيط النهي عنها بين النهي عن قتل الأولاد / والنهيِ عن القتل مطلَقًا كما وقع في سورة بني إسرائيلَ،[1] باعتبارِ أنّها [٢٧٧ظ] -مع كونها في نفسها جنايةً عظيمةً- في حكم قتل الأولاد، فإنّ أولاد الزنا في حكم الأموات، وقد قال عليه السلام في حقّ العَزْل: «ذاك وَأْدٌ خفِيٌّ».[2] ومِن ههنا تبيَّنَ أنّ حمل ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ على الكبائر مطلَقًا وتفسيرَ ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بما فُسِّر به ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام، ١٢٠/٦] فيما سلف، مِن قبيل الفصل بين الشجر ولِحائِه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: حرَّم قتلَها بأنْ عصَمها بالإسلام، أو بالعهد فيخرج منها الحربيُّ. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرَّغٌ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا تقتلوها في حال مِن الأحوال إلّا حالَ ملابستِكم بالحقّ الذي هو أمرُ الشرع بقتلها، وذلك بالكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان وقتلِ النفس المعصومة، أو مِن أعمّ الأسباب، أي: لا تقتلوها بسبب مِن الأسباب إلّا بسبب الحقّ، وهو ما ذُكر، أو مِن أعمّ المصادر، أي: لا تقتلوها قتلًا ما إلّا قتلًا كائنًا بالحقّ، وهو القتل بأحد الأمور المذكورة.

---

[1] الإسراء، ٣١/١٧-٣٣.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، ١٠٦٧/٢ (١٤٤٢)؛ وأحمد في مسنده، ٤٣٧/٤٥ (٢٧٤٤٧)، بلفظ: «ذلك الوَأد الخفيّ». وهو في سنن ابن ماجة، ١٧٤/٣-١٧٥ (٢٠١١)، بلفظ: «هو الوَأد الخفيّ».

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن التكاليف الخمسة. وما في ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ طَبَقاتِها مِن بين التكاليف الشرعيّة. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: أمرَكم به ربُّكم أمرًا مؤكَّدًا، خبرُه. والجملة استئناف جِيءَ به تجديدًا للعهد، وتأكيدًا لإيجاب المحافظة على ما كُلِّفوه. ولمّا كانت الأمورُ المنهيُّ عنها ممّا يَقضي بديهةُ العقول بقُبحها، فُصِلت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تستعملون عقولَكم التي تعقِل نفوسَكم وتحبِسُها عن مباشرة القبائح المذكورة.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ توجيه النهي إلى قُربانه لِما مرّ مِن المبالغة في النهي عن أكله ولإخراج القُربان النافعِ عن حكم النهي بطريق الاستثناء، أي: لا تتعرّضوا له بوجه مِن الوجوه ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلّا بالخَصلة التي هي أحسن ما يكون مِن الحِفظ والتثمير / ونحو ذلك. والخطاب للأولياء والأوصياء لقوله [٢٧٨و] تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾، فإنّه غاية لِما يُفهَم مِن الاستثناء، لا للنهي، كأنّه قيل: احفَظُوه حتّى يصير بالغًا رشيدًا، فحينئذ سلِّمُوه إليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء، ٦/٤]. و"الأَشُدُّ" جمعُ "شِدّة" كـ"نِعمة" و"أَنعُمٍ"، أو "شَدٍّ" كـ"كَلب" و"أَكلُبٍ"، أو "شِدٍّ" كـ"صِرّ" و"أَصُرّ". وقيل: هو مفرد كـ"آنُكٍ".[١]

﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والتسوية. ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلّا ما يسَعُها ولا يعسُر عليها. وهو اعتراض جِيءَ به عَقيبَ الأمر بالعدل للإيذان بأنّ مُراعاة العدل كما هو عسير، كأنّه قيل: عليكم بما في وُسْعكم، وما وراءه مَعفوٌّ عنكم.

---

[١] الآنُكُ: الأُسرُبُ. وفي الحديث: «مَن استمع إلى قَينة صُبّ في أذنَيه الآنُكُ». و"أفعُلٌ" مِن أبنية الجمع، ولم يجئ عليه الواحد إلّا "آنُكٌ" و"أشُدٌّ". الصحاح للجوهري، «أنك».

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولًا في حُكومة أو شهادةٍ أو نحوِهما، ﴿فَٱعْدِلُوا﴾ فيه، ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المقولُ له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ذا قَرابةٍ منكم، ولا تَميلوا نحوَهم أصلًا. وقد مرّ تحقيق معنى ﴿لَوْ﴾ في مِثل هذا الموضِع مِرارًا.[١] ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي: ما عهِدَ إليكم مِن الأمور المعدودة، أو أيّ عهدٍ كان، فيدخل فيه ما ذُكر دخولًا أوّليًا، أو ما عاهدتم الله عليه مِن الإيمان والنذور. وتقديمه للاعتناء بشأنه.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما فُصّل مِن التكاليف، ومعنى البُعد لِما ذُكر فيما قبل.[٢] ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أمَرَكم به أمرًا مؤكّدًا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتذكّرون ما في تضاعيفه، وتعملون بمقتضاه. وقُرئ بتشديد الذال.[٣]

وهذه أحكامٌ عشرةٌ، لا تختلف باختلاف الأمَم والأعصار. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هذه آياتٌ محكَماتٌ لم ينسَخْهُنّ شيءٌ مِن جميع الكُتب، وهُنّ محرَّماتٌ على بني آدمَ كلِّهم، وهُنّ أمّ الكتاب؛ مَن عمِل بهنّ دخل الجنّة، ومَن تركهنّ دخل النار».[٤] وعن كعب الأحبار: «والذي نفسُ كعبٍ بيده إنّ هذه الآياتِ لَأوّلُ شيءٍ في التوراة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ [الأنعام، ١٥١/٦]» الآيات...[٥]

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ إشارة إلى ما ذُكر في الآيتَين مِن الأمر والنهي، قاله مقاتل،[٦] وقيل: إلى ما ذُكر في السورة، فإنّها بأسرها في إثبات التوحيد والنبوّة وبيانِ الشريعة. وقُرئ: "صِرَاطِيَ"[٧] بفتح الياء. ومعنى إضافته إلى ضميره عليه السلام

---

[١] انظر: تفسير المائدة، ١٠٦/٥.

[٢] أي: للإيذان بعُلوّ طَبَقاتِها مِن بين التكاليف الشرعيّة.

[٣] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

[٤] وفي هامش م: ذكره الثعلبي في تفسيره. «منه». | الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٥/٤.

[٥] جامع البيان للطبري، ٦٦٧/٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٥/٤. وهو بدون تصريح الآية الكريمة في الكشّاف للزمخشري، ٨٠/٢.

[٦] انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٥٣٦/٨.

[٧] قرأ بها ابن عامر. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٧٣؛ النشر لابن الجزري، ١٧٢/٢.

انتسابُه إليه عليه السلام مِن حيث السلوكُ، لا مِن حيث الوضعُ كما في ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى، ٥٣/٤٢]. والمراد بيانُ أنّ ما فُصّل مِن الأوامر والنواهي غيرُ مختصّةٍ بالمَتلُوّ عليهم؛ بل متعلّقةٌ به عليه السلام أيضًا، وأنّه عليه السلام مستمرٌّ على العمل بها ومراعاتِها. وقوله تعالى: ﴿مُسۡتَقِيمٗا﴾ حال مؤكّدة.

ومحلّ ﴿أَنَّ﴾ مع ما في حيّزها الجرُّ بحذف لام العلّة، أي: ولِأنّ هذا صراطي -أي: مَسلَكي- مستقيمًا، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ / مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن، ١٨/٧٢]. وتعليل اتّباعه بكونه صراطَه عليه السلام، لا بكونه صراطَ الله تعالى -مع أنّه في نفسه كذلك- مِن حيث أنّ سلوكه عليه السلام فيه داعٍ للخلق إلى الاتّباع، إذ بذلك يتّضِح عندهم كونُه صراطَ الله عزّ وجلّ. [٢٧٨ظ]

وقُرئ بكسر الهمزة[١] على الاستئناف. وقُرئ: "أَنْ هَذَا"[٢] مخفّفةً مِن "أنّ"، على أنّ اسمها -الذي هو ضمير الشأن- محذوف. وقُرئ: "سِرَاطِي".[٣] وقُرئ: "وَهَذَا صِرَاطِي".[٤] وقُرئ: "وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكُمْ"،[٥] "وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ".[٦]

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الأديانَ المختلِفةَ، أو طُرُقَ البِدَع والضلالات. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ﴾ بحذف إحدى التاءين، و"الباء" للتعدية، أي: فتُفرِّقَكم حسبَ تفرُّقِها أيادِيَ سَبَا؛[٧] فهو -كما ترى- أبلَغُ مِن "تُفرّقَكم"، كما قيل مِن أنّ "ذهَبَ به" لِما فيه مِن الدلالة على الاستصحاب أبلَغُ مِن "أذهَبَه". ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: سبيلِ الله

---

١ أي: "وَإِنَّ هَذَا". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

٣ قرأ بها يعقوب في رواية رُوَيس، وقُرئ بها في بعض طُرُق ابن كثير. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٧١/١-٢٧١. وزاد نسبته إلى ابن عامر ابنُ مجاهد في السبعة، ص ٢٧٣؛ وأبو عليّ الفارسي في الحجّة، ٤٣٥/٣، ولم يذكرها ابن الجزري عنه.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٨٠/٢؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٦٩٢/٤، ونسباها إلى الأعمش.

٥ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٨٠/٢، وقال إنّها في مصحف عبد الله.

٦ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٨٠/٢، وقال إنّها في مصحف أبيّ بن كعب.

٧ "تفرّقوا أيدي سَبَا" و"أيادِيَ سَبَا": تبدّدوا. بَنَوْهُ على السكون، وليس بتخفيف عن "سَبَإٍ"، وإنّما هو بدلٌ، ضُرب المَثل بهم لأنّه لمّا غرِقَ مكانُهم وذهبتْ جنّاتُهم، تبدّدوا في البِلاد. القاموس المحيط للفيروزآبادي، «سبأ».

الذي لا عِوَجَ فيه ولا حَرَجَ. وهو دين الإسلام الذي ذُكر بعض أحكامه. وقيل: هو اتّباع الوحي واقتفاءُ البرهان. وفيه تنبيه على أنّ صراطه عليه السلام عينُ سبيل الله تعالى.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما مرّ مِن اتّباع سبيله تعالى وتركِ اتّباع سائر السُّبُل. ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ اتباعَ سُبُل الكفر والضلالة.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كلام مَسوق مِن جهته تعالى تقريرًا للوصيّة وتحقيقًا لها، وتمهيدًا لِما يعقبه مِن ذكر إنزال القرآن المَجيد، كما يُنبئ عنه تغييرُ الأسلوب بالالتفات إلى التكلّم، معطوفٌ على مقدَّرٍ يقتضيه المقام ويستدعيه النظام، كأنّه قيل بعد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾[1] بطريق الاستئناف تصديقًا له وتقريرًا لمضمونه: "فعلنا ذلك، ثمّ آتينا..." إلخ، كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[2] معطوفٌ على ما يدلّ عليه معنى ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾... إلخ، كأنّه قيل: "يغفُلون عن الهداية، ونطبَع..." إلخ. وأمّا عطفه على ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ ونظمُه معه في سِلك الكلام الملقَّن -كما أجمع عليه الجمهور- فممّا لا يَليق بجزالة النظم الكريم، فتدبَّرْ.

و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الإخبار كما في قولك: "بلغني ما صنعتَ اليومَ، ثمّ ما صنعتَ أمسِ أعجَبُ"، أو للتفاوت في الرتبة، كأنّه قيل: "ذلكم وصّاكم به قديمًا وحديثًا، ثمّ[3] أعظَمُ مِن ذلك أنّا آتينا موسى التوراةَ"، فإنّ إيتاءَها مشتمِلةً على الوصيّة المذكورة وغيرِها أعظَمُ مِن التوصية بها فقط.

﴿تَمَامًا﴾ للكرامة والنعمة، أي: إتمامًا لهما، على أنّه مصدر مِن "أتمّ" بحذف الزوائد. ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: على مَن أحسن القيامَ به كائنًا مَن كان،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] وفي هامش م: في سورة الأعراف. «منه». | ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف، ٧/١٠٠].

[3] وفي هامش م: بيانٌ للتفاوُتِ الرُّتَبِيِّ، لا تصويرٌ للعطف. «منه».

ويؤيّده أنّه قُرئ: "عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا"[١] و"تَمَامًا عَلَى المُحْسِنِينَ"،[٢] أو على الذي أحسن تبليغَه، وهو موسى عليه السلام، أو تمامًا على ما أحسنه موسى عليه السلام، أي: أجاده / مِن العلم والشرائع، أي: زيادةً على علمه على وجه التتميم. [٢٧٩و]

وقُرئ بالرفع[٣] على أنّه خبرُ محذوفٍ، أي: على الذي هو أحسنُ دينٍ وأرضاه، أو آتينا[٤] موسى الكتاب تمامًا -أي: تامًّا كاملًا- على أحسن ما يكون عليه الكُتُب.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبيانًا مفصَّلًا لكلّ ما يُحتاج إليه في الدين. وهو عطفٌ على ﴿تَمَامًا﴾، ونصبُهما إمّا على العِلّيّة، أو[٥] المصدريّة كما أشير إليه، أو على الحاليّة. وكذا قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾. وضميرُ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لِبني إسرائيلَ المدلولِ عليهم بذِكر موسى وإيتاء الكتاب. و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، قُدّمت عليه محافظةً على الفواصل. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كي يؤمنوا بالبعث ويصدِّقوا بالثواب والعذاب».[٦]

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿وَهَٰذَا﴾ الذي تُلِيتْ عليكم أوامره ونواهيه، أي: القرآنُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيمُ الشأن، لا يقادَر قدره. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: كثيرُ المنافع دينًا ودنيا، صفتان لـ﴿كِتَٰبٌ﴾، وتقديمُ وصف "الإنزال" مع كونه غيرَ صريح؛[٧] لأنّ الكلام مع مُنكرِيه، أو خبران آخَران لاسم الإشارة، أي: أنزلناه مشتمِلًا على فنون الفوائد الدينيّة والدنياويّة التي فُصّلت عليكم طائفة منها.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨١.

[٢] قراءة شاذّة، قال السيوطي فيها في الدرّ المنثور، ٣٨٦/٣: «وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن هارون، قال: قراءة الحسن: تَمَامًا عَلَى المُحْسِنِينَ».

[٣] أي: "أَحْسَنُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمَر. المحتسَب لابن جنّي، ٢٣٤/١.

[٤] س: وآتينا.

[٥] س + على.

[٦] التفسير البسيط للواحدي، ٥٤٣/٨؛ اللباب لابن عادل، ٥٢١/٨. وفيهما: "العقاب" بدلَ "العذاب".

[٧] وفي هامش م: لكونه جملةً. «منه».

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإنّ عِظَم شأنِ الكتاب في نفسه وكونَه منزَلًا مِن جَنابه عزّ وجلّ مستتبِعًا للمنافع الدينيّة والدنيويّة موجِبٌ لاتّباعه أيَّ إيجابٍ. ﴿وَٱتَّقُوا﴾ مخالفتَه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بواسطة اتّباعه والعملِ بموجَبه.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿أَن تَقُولُوا﴾ علّة لـ"أنزلناه" المدلولِ عليه بالمذكور، لا لنفسه[1] للزوم الفصل حينئذ بين العامل والمعمول بأجنبيّ هو ﴿مُبَارَكٌ﴾[2] وصفًا كان أو خبرًا، أي: أنزلناه / كذلك[3] كراهةَ أن تقولوا يومَ القيامة: لو لم تُنزِله، ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الناطقُ بتلك الأحكام العامّة لكلّ الأمَم ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ كائنتين ﴿مِن قَبْلِنَا﴾، وهما: اليهود والنصارى. وتخصيص الإنزال بكتابَيهما؛ لأنّهما الذي اشتهر حينئذ فيما بين الكُتب السماويّة بالاشتمال على الأحكام، لاسيّما الأحكام المذكورة. [٢٧٩ظ]

﴿وَإِن كُنَّا﴾ ﴿إِنْ﴾ هي المخفَّفة مِن "إنّ"، و"اللام"[4] فارقة بينها وبين النافية، وضميرُ الشأن محذوف. ومرادهم بذلك دفعُ ما يَرِد عليهم مِن أنّ نزوله عليهما لا ينافي عمومَ أحكامه؛ فلِمَ لم تعملوا بأحكامها العامّة؟ أي: وإنّه كنّا ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، لا ندري ما في كتابهم، إذ لم يكن على لغتنا حتّى نتلقّى منه تلك الأحكام العامّة ونحافِظَ عليها، وإن لم يكن منزَلًا علينا. وبهذا تبيَّنَ أنّ معذِرتهم هذه مع أنّهم غير مأمورين بما في الكتابَين لاشتمالهما[5] على الأحكام المذكورة المتناوِلة لكافّة الأمَم، كما أنّ قطع تلك المعذرة بإنزال القرآن لاشتماله[6] أيضًا عليها، لا على سائر الشرائع والأحكام فقط.

---

[1] وهو قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.
[2] في الآية السابقة.
[3] وفي هامش م: أي: مشتمِلًا على تلك الأحكام المُحكَمة. «منه».
[4] التي في: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾.
[5] وفي هامش م: خبر "أنّ".
[6] وفي هامش م: خبر "أنّ".

﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ عطفٌ على ﴿تَقُولُوا﴾.[1] وقُرِئَ كِلاهما بالياء[2] على الالتفات مِن خطابِ ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا﴾.[3] ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ﴾ كما أُنزلَ عليهم، ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ إلى الحقّ الذي هو المقصد الأقصى، أو إلى ما في تضاعيفه مِن جلائل الأحكام والشرائع ودقائقِها لحِدّة أذهانِنا وثقابةِ أفهامِنا؛ ولذلك تلقَّفْنا مِن فنون العلم كالقِصص والأخبار والخُطَبِ والأشعارِ ونحوِ ذلك طرفًا صالحًا ونحن أمّيّون.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ يُنبئ عنه "الفاء" الفصيحةُ، إمّا معلَّل به، أي: لا تعتذروا بذلك، فقد جاءكم... إلخ، وإمّا شرطٍ له، أي: إن صدقتم فيما كنتم تَعِدون مِن أنفسِكم مِن كونكم أهدى مِن الطائفتَين على تقدير نزول الكتاب عليكم، فقد حصل ما فرضتم، وجاءكم ﴿بَيِّنَةٌ﴾ وأيّ بيّنة، أي: حجّة واضحة لا يُكتَنهُ كُنهها.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَكُمْ﴾، أو بمحذوفٍ / هو صفة [٢٨٠و] لـ﴿بَيِّنَةٌ﴾، أي: بيّنةٌ كائنةٌ منه تعالى. وأيًّا ما كان، ففيه دلالة على فضلها الإضافيّ، كما أنّ في تنوينها التفخيميّ دلالةً على فضلها الذاتيّ. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم مزيدُ تأكيدٍ لإيجاب الاتّباع.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿بَيِّنَةٌ﴾. وتنوينُهما أيضًا تفخيميٌّ. عُبّر عن القرآن بـ"البيّنة" إيذانًا بكمال تمكُّنِهم مِن دراسته، ثمّ بـ"الهدى" و"الرحمة" تنبيهًا على أنّه مشتمِل على ما اشتمل عليه التوراة مِن هداية الناس ورحمتِهم؛ بل هو عينُ الهداية والرحمة.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] أي: "أَنْ يَقُولُوا" في الآية السابقة، وههنا: "أَوْ يَقُولُوا"، وهما قراءتان شاذّتان، قرأ بهما ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨١.

[3] الأنعام، ١٥٥/٦.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ "الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإنّ مَجيء القرآن المشتمِلِ على الهدى والرحمة موجِبٌ لغاية أظلمِيّة مَن يكذّبه، أي: وإذا كان الأمر كذلك، فمَن أظلمُ ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. وضع الموصول موضِعَ ضميرهم بطريق الالتفات تنصيصًا على اتّصافهم بما في حيّز الصلة، وإشعارًا بعلّة الحُكم، وإسقاطًا لهم عن رتبة الخطاب. وعُبّر عمّا جاءهم بـ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ تعالى تهويلًا للأمر، وتنبيهًا على أنّ تكذيب أيّ آيةٍ كانت مِن آياته تعالى كافٍ في الأظلمِيّة؛ فما ظنُّك بتكذيب القرآن المُنطوي على الكلّ.

والمعنى إنكارُ أن يكون أحد أظلمَ ممّن فعل ذلك، أو مساويًا له، وإن لم يكن سبكُ التركيب متعرِّضًا لإنكار المُساواة ونفيِها، فإذا قيل: "مَن أكرَمُ مِن فلان" أو "لا أفضلَ منه"، فالمراد به حتمًا بحُكم العُرف الفاشي والاستعمال المطّرِدِ: أنّه أكرمُ مِن كلّ كريم وأفضلُ مِن كلّ فاضل. وقد مرّ مِرارًا.[1]

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: صرف الناسَ عنها، فجمَعَ بين الضلال والإضلال. ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ الناسَ ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ وعيدٌ لهم ببيان جزاء إضلالهم بحيث يُفهَم منه جزاءُ ضلالهم أيضًا. ووضع الموصول موضعَ الضمير لتحقيق مَناط الجزاء. ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: العذابَ السيّءَ الشديدَ النِكايةِ. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ أي: بسبب ما كانوا يفعلون الصَّدْف والصَّرْفَ / على التجدّد والاستمرار. وهذا تصريحٌ بما أَشعر به إجراءُ الحُكم على الموصول مِن عِلّيّة ما في حيّز الصلة له.[2] [٢٨٠ظ]

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ استئناف مَسوق لبيان أنّه لا يتأتّى منهم الإيمانُ بإنزال ما ذُكر مِن البيّنات والهدى، وأنّهم لا يرعَوُون عن التمادي في المكابرة واقتراحِ

---

[1] انظر: تفسير الأنعام، ٢١/٦.

[2] أي: مِن عِلّيّة ما في حيّز الصلة للحُكم على الموصول.

ما ينافي الحكمة التشريعيةَ مِن الآيات الملجِئة، وأنّ الإيمان عند إتيانها ممّا لا فائدةَ له أصلًا، مبالغةً في التبليغ والإنذار وإزاحةِ العِلَل والأعذار، أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ حسبما اقترحوا بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان، ٢١/٢٥]، وبقولهم: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء، ٩٢/١٧]، وبقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام، ٨/٦] ونحو ذلك، أو إلّا أن تأتيَهم ملائكة العذاب أو يأتِيَ أمر ربّك بالعذاب. و"الانتظار" محمول على التمثيل كما سيجيء. وقُرئ: "يَأۡتِيَهُمُ"[١] بالياء؛ لأنّ تأنيث ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ غيرُ حقيقيّ.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: غيرُ ما ذُكر، كما اقترحوا بقولهم: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء، ٩٢/١٧] ونحو ذلك مِن عظائم الآيات التي عَلّقوا بها إيمانَهم. والتعبير عنها بـ"البعض" للتهويل والتفخيم، كما أنّ إضافة "الآيات" في الموضعَين إلى اسم "الربّ" المنبِئِ عن المالكيّة الكلّيّة لذلك، وإضافتَه إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم للتشريف.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملائكةُ الموت، وبـ"إتيانه" سبحانه وتعالى إتيانُ كلّ آياته بمعنى آياتِ القيامة والهلاكِ الكلّيّ بقرينة ما بعده مِن إتيان بعض آياته تعالى، على أنّ المراد به[٢] أشراط الساعة التي هي: الدخان، ودابّة الأرض، وخسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، والدجّال، وطلوع الشمس مِن مغربها، ويأجوجُ ومأجوجُ، ونزول عيسى عليه السلام، ونارٌ تخرج مِن عَدَنَ، كما نطق به الحديث الشريف المشهورُ.[٣] وحيث لم يكن إتيانُ هذه الأمور ممّا ينتظرونه كإتيان / ما اقترحوه مِن الآيات -فإنّ[٤] تعليق إيمانهم بإتيانها [٢٨١و] انتظارٌ منهم له ظاهرًا- حُمِل "الانتظار" على التمثيل المبنيّ على تشبيه حالهم

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

[٢] أي: ببعض آياته تعالى.

[٣] الذي أخرجه مسلم في صحيحه، ٢٢٢٦/٤ (٢٩٠١)، من حديث حذيفة بن أَسيد رضي الله عنه.

[٤] وفي هامش م: تعليلٌ لكون إتيان ما اقترحوه ممّا ينتظرون. «منه».

في الإصرار على الكفر والتمادي في العناد إلى أن تأتيَهم تلك الأمور الهائلة التي لا بدَّ لهم مِن الإيمان عند مشاهدتها البتّةَ بحال[١] المنتظِرين لها.

وأنت خبير بأنّ النظم الكريم بسباقه المنبِئِ عن تَماديهم في تكذيب آيات الله تعالى وعدمِ الاعتداد بها، وسياقِه الناطقِ بعدم نفع الإيمان عند إتيان ما ينظرونه، يستدعي أن يُحمَل ذلك على أمور هائلة مخصوصةٍ بهم، إمّا بأنْ تكون عبارةً عمّا اقترحوه، أو عن عقوبات مترتِّبة على جناياتهم كإتيان ملائكة العذاب وإتيانِ أمره تعالى بالعذاب، وهو الأنسبُ لِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

وأمّا حملُه على ما ذُكر مِن إتيان ملائكة الموت وإتيانِ كلّ آيات القيامة وظهورِ أشراط الساعة، مع شمول إتيانها لكلّ بَرّ وفاجر واشتمالِ غائلتها على كلّ مؤمن وكافر، فممّا لا يساعده المقام، على أنّ بعض أشراط الساعة ليس ممّا ينسدُّ به بابُ الإيمان والطاعة.

نعم، يجوز حمل "بعض الآيات" في قوله عزّ وعلا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ على ما يعمّ مقترَحاتِهم وغيرَها مِن الدواهي العِظام السالبةِ للاختيار الذي عليه يدور فَلَكُ التكليف، فإنّه بمنزلة الكبرى مِن الشكل الأوّل،[٢] فيتِمّ التقريبُ بدخول ما ينظرونه في ذلك دخولًا أوّليًا.

و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ﴾، فإنّ امتناع عمل ما بعد ﴿لَا﴾ فيما قبلها عند وقوعها جوابَ القَسم. وقُرِئ: "يَوْمُ"[٣] بالرفع على الابتداء،

---

[١] السياق: المبنيّ على تشبيه حالهم... بحال المنتظِرين لها.

[٢] الشكل الأوّل في علم المنطق هو: أنْ يكون الحدُّ الأوسطُ -وهو هنا: "بعض الآيات"- محمولًا في إحدى المقدِّمتَين، موضوعًا في الأخرى. مثاله: "كلُّ جسم مؤلَّف"، و"كلُّ مؤلَّف محدَثٌ"؛ فيلزَمُ منه "أنّ كلّ جسم محدَثٌ". وحصول النتيجة منه بيّنٌ، وحاصله يرجع إلى أنّ الحُكم على المحمول حكمٌ على الموضوع بالضرورة، فمهما حُكم على "الجسم" بـ"المؤلَّف"، فكلّ حكم يثبت لـ"المؤلَّف" فقد ثبت لا محالة لـ"الجسم"، فإنّ "الجسم" داخلٌ في "المؤلَّف"، وإذا ثبت الحكمُ بالحدوث على المؤلَّف، فقد ثبت بالضرورة على الجسم. انظر: **معيار العلم** للغزّالي، ص ١٣٤-١٣٨. وفي الآية الكريمة حُمِل "بعض الآيات" لكونه موضوعًا في المقدِّمة الكبرى على ما يعمّ مقترَحاتِهم وغيرَها مِن الدواهي العِظام، فدخل ما ينظرونه في ذلك دخولًا أوّليًا.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن زُهير الفُرْقُبي. **المحتسَب** لابن جنّي، ٢٣٦/١.

والخبرُ هو الجملة، والعائد محذوف، أي: لا ينفع فيه ﴿نَفْسًا﴾ مِن النفوس ﴿إِيمَٰنُهَا﴾ حينئذ، لانكشاف الحال وكونِ الأمر عِيانًا. ومدار قبول الإيمان أن يكون بالغيب، كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر، ٨٥/٤٠]. وقُرئ: "لَا تَنْفَعُ"[١] بالتاء الفَوقانيّة لاكتساب "الإيمان" مِن ملابسة المضاف إليه تأنيثًا.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل إتيان بعض الآيات، / صفةٌ لـ﴿نَفْسًا﴾، فُصِل بينهما بالفاعل لاشتمالها على ضمير الموصوف، ولا ضيرَ فيه؛ لأنّه غير أجنبيّ منه لاشتراكهما في العامل. [٢٨١ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنَتْ﴾ بإيراد الترديد على النفي المفيدِ[٢] لكفاية أحد النفيَين في عدم النفع، والمعنى: أنّه لا ينفع الإيمانُ حينئذ نفسًا لم تقدِّم إيمانَها، أو قدّمتْه ولم تكسِب فيه خيرًا. ومِن ضرورته اشتراطُ النفع بتحقّق الأمرَين -أي: الإيمانِ المقدَّمِ والخيرِ المكسوبِ فيه- معًا، بمعنى أنّ النافع هو تحقّقهما، والإيمان المؤخَّر لغوٌ وتحصيلٌ للحاصل؛ لا أنّه هو النافع وتحقّقهما شرطٌ في نفعه، كما لو كان المقدَّمُ غيرَ المؤخَّر بالذات، فإنّ قولك: "لا ينفع الصومُ والصدقةُ مَن لم يؤمن قبلَهما"، معناه: أنّهما ينفعانِه عند وقوعهما بعد الإيمان.

وقد استدلّ به أهلُ الاعتزال على عدم اعتبار الإيمان المجرَّدِ عن الأعمال. وليس بناهضٍ، ضرورةَ صحّة حمله على نفي الترديد المستلزِمِ لعمومه المفيدِ بمنطوقه لاشتراط عدم النفع بعدم الأمرَين معًا وبمفهومه لاشتراط النفع بتحقّق أحدِهما بطريق منع الخُلُوّ دون الانفصال الحقيقيّ؛ فالمعنى: أنّه لا ينفع الإيمانُ حينئذ نفسًا لم يصدُرْ عنها مِن قبلُ أحدُ الأمرَين، إمّا الإيمان المجرَّد أو الخيرُ المكسوبُ فيه، فيتحقّق النفعُ بأيِّهما كان حسبما ينطِق به النصوص الكريمة مِن الآيات والأحاديث.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر وابن سيرين وأبي العالية. المحتسَب لابن جنّي، ٢٣٦/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٢.

[٢] وفي هامش م: صفة لـ"إيراد الترديد". «منه».

وما قيل مِن أنّ عدم الإيمان السابق مستلزِمٌ لعدم كسب الخير فيه بالضرورة، فيكون ذِكرُه تكرارًا بلا فائدة، على أنّ الموجِب للخلود في النار هو العدم الأوّل مِن غير أن يكون للثاني دَخْلٌ ما في ذلك قطعًا، فيكون ذكرُه بصدد بيان ما يوجِب الخلودَ لغوًا مِن الكلام لغوٌ[1] مِن الكلام، مبنيٌّ على توهّمِ أنّ المقصود بوصف النفس بالعدمَين المذكورَين مجرَّدُ بيان إيجابهما للخلود فيها وعدمِ نفع الإيمان الحادثِ في إنجائها عنه؛ وليس كذلك، وإلّا لَكفى في البيان أن يُقال: "لا ينفع نفسًا إيمانُها الحادثُ"؛ بل المقصد الأصليّ مِن وصفها بذَينِك العدمَين في أثناء بيان عدم نفع الإيمان الحادثِ تحقيقُ أنّ موجِب النفع إحدى مَلَكتَيهما، أعني: الإيمان السابق والخير المكسوب فيه بما ذُكر مِن الطريقة، والترغيبُ[2] في تحصيلهما في ضِمن التحذير مِن تركهما.

ولا سبيلَ إلى أن يُقال: "كما أنّ عدم الأوّل مستقلّ في إيجاب الخلود في النار، فيَلغُو ذِكرُ عدم الثاني، كذلك وجوده مستقلٌّ / في إيجاب الخلاص عنها، [٢٨٢و] فيكون ذكرُ الثاني لغوًا"، لِما[3] أنّه قياس مع الفارق؛ كيف لا، والخلود فيها أمرٌ لا يُتصوّر فيه تعدّدُ العِلل، وأمّا الخلاص عنها مع دخول الجنّة فله مراتِبُ، بعضُها مترتِّب على نفس الإيمان، وبعضُها على فروعه المتفاوِتةِ كمًّا وكيفًا.

وإنّما لم يُقتصر على بيان ما يوجِب أصلَ النفع -وهو الإيمان السابق- مع أنّه هو المقابِل لِما لا يوجبه أصلًا -أعني الإيمان الحادث- بل قُرِنَ به ما يوجب النفعَ الزائدَ أيضًا، إرشادًا[4] إلى تحرّي الأعلى، وتنبيهًا على كفاية الأدنى،[5] وإقناطًا للكَفَرة عمّا علّقوا به أطماعَهم الفارغةَ مِن أعمال البِرّ التي عمِلوها في الكفر

---

١ السياق: وما قيل مِن أنّ... لغوٌ مِن الكلام...

٢ السياق: بل المقصد الأصليّ... تحقيقُ أنّ... والترغيبُ في تحصيلهما...

٣ السياق: ولا سبيلَ إلى أنْ يُقال... لِما أنّه قياس مع الفارق...

٤ السياق: وإنّما لم يُقتصر على بيان ما يوجِب أصلَ النفع... إرشادًا...

٥ وفي هامش م: كما إذا قلتَ: "بعد ما زالت الشمس لا يفيد نيّةُ الصيام مَن لم يكن أضمَرَها في قلبه مِن قبلُ أو أظهرها بلسانه"، فإنّك تريد بذلك الحثَّ على إظهار النيّة مع الإشعار بكفاية إضمارها أيضًا؛ خَلَا أنّ مزيّة المعطوف ههنا في غير ما أفاده المعطوف عليه مِن صحّة الصيام، لا في المنافع الزائدة كما في الآية الكريمة. «منه».

مِن صلة الأرحام وإعتاقِ الرِّقاب وفَكِّ العُناة وإغاثةِ المَلهوفِين وقِرى الأضيافِ وغير ذلك ممّا هو مِن باب المكارم، ببيانِ[1] أنّ كلّ ذلك لغوٌ بحتٌ لابتنائه على غير أساسٍ، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ[2] كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ الآية [إبراهيم، ١٤/١٨] ونحوُ ذلك مِن النصوص الكريمة، وأنّ الإيمان الحادث كما لا ينفعهم وحده، لا ينفعهم[3] بانضمام أعمالهم السابقة واللاحقةِ إليه.[4]

ولك أن تقول: المقصود بوصف النفس بما ذُكر مِن العدمَين التعريضُ بحال الكَفَرة في تمرّدهم وتفريطِهم في كلّ واحد مِن الأمرين الواجبين عليهم، وإن كان وجوبُ أحدهما منوطًا بالآخَر كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة، ٧٥/٣١]، تسجيلًا بكمال طُغيانهم، وإيذانًا بتضاعُفِ عقابهم لِما تقرَّرَ مِن أنّ الكُفّار مخاطَبون بفروع الشرائع في حقّ المؤاخذة كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ[5] لِّلْمُشْرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت، ٤١/٦-٧]. إذا تحقّقْتَ هذا، وقفْتَ على أنّ الآية الكريمة أحقُّ بأنْ تكون حجّةً على المعتزلة مِن أن تكون حجّةً لهم.

هذا، وقد قيل: إنّها مِن باب اللفّ التقديريّ، أي: لا ينفع نفسًا إيمانُها ولا كسبُها في الإيمان لم تكن آمنَتْ مِن قبلُ أو كسبتْ فيه، وليس بواضح؛ فإنّ مبنى اللفّ التقديريّ أن يكون المقدَّرُ مِن متمّمات الكلام ومقتضَياتِ المقام قد تُرِك ذِكره تعويلًا على دلالة الملفوظ عليه واقتضائِه إيّاه، كما مرّ في تفسير قوله عزّ وجلّ:[6] ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء، ٤/١٧٢]، فإنّه قد طُوِيَ في المفصَّل ذكرُ حشرِ المؤمنين ثقةً بإنباء التفصيل عنه، أعني قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية [النساء، ٤/١٧٣، ١٧٥]. ولا ريبَ في أنّ ما قُدّر ههنا ليس ممّا يستدعيه قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾،

---

[1] السياق: وإقناطًا للكَفَرة... ببيانِ أنّ...
[2] م ط س: قوله تعالى: والذين كفروا أعمالهم.
[3] س - وحده لا ينفعهم.
[4] ط س - إليه.
[5] م ط س: فويل.
[6] س: تعالى.

ولا هو مِن مقتضَيات المقام؛ لأنّه ليس ممّا وعدوه وعلّقوه بإتيان ما ذُكر مِن الآيات كالإيمان حتّى يُرَدَّ عليهم ببيان عدم نفعه إذ ذاك، / على أنّ ذلك مشعِرٌ [٢٨٢ظ] بأنّ لهم بعد ما أصابهم مِن الدواهي ما أصابهم بقاءً على السلامة وزمانًا يتأتّى منهم الكسبُ والعملُ فيه. وفيه مِن الإخلال بمقام تهويل الخَطْب وتفظيعِ الحال ما لا يخفى.

وقد أُجيبَ عن الاستدلال بوجوهٍ أُخَرَ، قُصارى أمرِها إسقاطُ الآية الكريمة عن رتبة المعارضة للنصوص القطعيّةِ المُتونِ القويّةِ الدلالةِ على ما ذُكر مِن كفاية الإيمان المجرّد عن العمل في الإنجاء مِن العذاب الخالد ولو بعد اللَّتيّا والتي، لِما تقرَّرَ مِن أنّ الظنيّ بمَعزِل مِن معارضة القطعيّ.

﴿قُلْ﴾ لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد: ﴿ٱنتَظِرُوٓا﴾ ما تنظرونه مِن إتيان أحد الأمور الثلاثة لِترَوْا أيَّ شيء تنظرون، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ لذلك، لنُشاهِدَ ما يحِلّ بكم مِن سُوء العاقبة. وفيه تأييدٌ لكون المراد بما ينظرونه إتيانَ ملائكة العذاب أو إتيانَ أمره تعالى بالعذاب كما أشيرَ إليه، وعِدَةٌ ضِمنيّةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين بمعايَنَتِهم[1] لِما يَحيق بالكَفَرة مِن العقاب، ولعلّ ذلك هو الذي شاهدوه يومَ بدرٍ. والله سبحانه أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝١٥٩﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ استئناف لبيان أحوال أهل الكتابَين إثرَ بيان حال المشركين، أي: بدَّدوه وبعَّضوه، فتمسَّكَ بكلّ بعضٍ منه فِرقةٌ منهم. وقُرئ: "فَارَقُوا"،[2] أي: بايَنُوا؛ فإنّ ترك بعضه -وإن كان بأخذ بعضٍ آخرَ منه- تركٌ للكلّ ومفارَقةٌ له. ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا تُشيّع كلُّ فِرقة إمامًا لها.

قال عليه السلام: «افترقت اليهودُ على إحدى وسبعين فِرقةً، كلُّهم في الهاوية إلّا واحدةً، وافترقت النصارى اثنين وسبعين فِرقةً، كلُّهم في الهاوية إلّا واحدةً،

---

[1] س: بمعاينهم.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦.

وستفتَرِق[١] أمّتي على ثلاثٍ وسبعين فِرقةً، كلُّهم في الهاوية إلّا واحدةً».[٢] واستثناء "الواحدة" مِن فِرَق كلٍّ مِن أهل الكتابَين إنّما هو بالنظر إلى العصر الماضي قبل النسخ، وأمّا بعده فالكلّ في الهاوية، وإن اختلفت أسبابُ دخولهم؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾: لستَ مِن البحث عن تفرّقهم والتعرّضِ لمَن يعاصِرك منهم بالمناقشة والمؤاخذة، وقيل: مِن قتالهم في شيءٍ سِوى تبليغِ الرسالة وإظهارِ شعائر الدين الحقّ الذي أُمرتَ بالدعوة إليه، فيكونُ منسوخًا بآية السيف.[٣]

[٢٨٣و] / وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعليل للنفي المذكور، أي: هو يتولّى وحده أمرَ أوّلِيهم وآخِرِيهم، ويدبّره كيف يشاء حسبما يقتضيه الحكمة، يؤاخذهم في الدنيا متى شاء، ويأمر بقتالهم إذا أراد. وقيل: المفرِّقون أهلُ البِدَع والأهواء الزائغةِ مِن هذه الأمّة، ويرُدّه أنّه عليه السلام مأمور بمؤاخذتهم، والاعتذارُ بأنّ معنى ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ حينئذ: "أنت بريءٌ منهم ومِن مذهبهم، وهم بَرَآءٌ منك"، يأباه التعليل المذكور.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ أي: يومَ القيامة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ عُبّر عن إظهاره بـ"التنبئة" لِما بينهما مِن الملابسة في أنّهما سببانِ للعلم، تنبيهًا على أنّهم كانوا جاهلين بحالِ ما ارتكبوه غافلين عن سُوء عاقبته، أي: يُظهر لهم على رؤس الأشهاد، ويُعلمهم[٤] أيَّ شيءٍ شنيعٍ كانوا يفعلونه في الدنيا على الاستمرار، ويرتِّبُ عليه ما يَليق به مِن الجزاء.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ استئناف مبيِّن لمقادير أجزية العاملين، وقد صُدّر ببيان أجزِية المحسنين المدلولِ عليهم بذِكر أضدادهم.

---

١ س: وستفرق.

٢ انظر: مسند أحمد، ١٣٤/٢٨-١٣٥ (١٦٩٣٧)؛ وسنن ابن ماجة، ١٢٨/٥-١٣٠ (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)؛ وسنن أبي داود، ٥/٧-٦ (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)؛ سنن الترمذي، ٢٦/٥ (٢٦٤١). والألفاظ من أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩١/٢.

٣ وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة، ٥/٩].

٤ ط س: أو يُعلمهم.

قال عطاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «يريد: مَن عمِل مِن المصدِّقين حَسَنةً كُتبت له عشرُ حَسَناتٍ».[١] أي:[٢] مَن جاء يومَ القيامة بالأعمال الحسنة مِن المؤمنين -إذ لا حسنةَ بغير إيمان- فله عشرُ حسناتٍ أمثالها فضلًا مِن الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "عَشْرٌ" بالتنوين "أَمْثَالُهَا"[٣] بالرفع على الوصف. وهذا أقلُّ ما وُعد مِن الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعينَ وبسبعِمائةٍ وبغير حسابٍ؛ ولذلك قيل: المراد بذكر "العَشر" بيانُ الكثرة، لا الحصرُ في العدد الخاصّ.

[٢٨٣ظ] / ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالأعمال السيّئة كائنًا مَن كان مِن العاملين، ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ بحكم الوعد واحدةً بواحدةٍ. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب وزيادةِ العقاب.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١﴾

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾ أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنْ يبيّن لهم ما هو عليه مِن الدين الحقِّ الذي يدّعون أنّهم عليه، وقد فارَقوه بالكلّيّة. وتصدير الجملة بحرف التحقيق لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها، والتعرّضُ لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لمزيد تشريفه، أي: قُلْ لأولئك المفرِّقين: أرشَدَني ربّي بالوحي وبما نصب في الآفاق والأنفُسِ مِن الآيات التكوينيّة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصِلٍ إلى الحقّ.

وقوله تعالى: ﴿دِينًا﴾ بدلٌ مِن ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾، فإنّ محلَّه النصبُ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح، ٢/٤٨]، أو مفعولٌ لفعلٍ مضمَرٍ يدلّ عليه المذكور. ﴿قِيَمًا﴾ مصدرٌ نُعت به مبالغةً، والقياسُ "قِوَمًا" كـ"عِوَضٍ"، فأُعِلَّ لإعلالِ فعلِه، كـ"القِيام". وقُرئ: "قَيِّمًا"،[٤] وهو "فَيْعَلٌ" مِن "قامَ"، كـ"سَيِّدٍ" مِن "سادَ".

---

١ التفسير البسيط للواحدي، ٥٥٦/٨.
٢ س: أو.
٣ قرأ بها يعقوب الحضرمي مِن القُرّاء العشرة. النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢-٢٦٧.
٤ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٦٧/٢.

وهو أبلغُ مِن "المستقيم" باعتبار الزِّنَة، وإن كان هو أبلغَ منه باعتبار الصيغة. ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف بيانٍ لـ﴿دِينًا﴾. ﴿حَنِيفًا﴾ حال مِن / ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: مائلًا عن الأديان الباطلة. [٢٨٤و]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ اعتراض مقرِّر لنزاهتِه عليه السلام عمّا عليه المفرِّقون لدِينه مِن عقد وعملٍ، أي: ما كان منهم في أمرٍ مِن أمور دينهم أصلًا وفرعًا. صُرّح بذلك ردًّا على الذين يدّعون أنّهم على ملّتِه عليه السلام مِن أهل مكّةَ، واليهودِ المشركين بقولهم: «عُزيرٌ ابنُ الله»، والنصارى المشركين بقولهم: «المسيحُ ابنُ الله».[1]

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أُعيدَ الأمر لِما أنّ المأمور به متعلِّق بفروع الشرائع وما سبق بأصولها، أي: عبادتي كلُّها. وقيل: وذبحي، جُمِع بينه وبين الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر، ٢/١٠٨]. وقيل: صلاتي وحَجّي. ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: وما أنا عليه في حياتي وأكونُ عليه عند موتي مِن الإيمان والطاعةِ أو طاعاتِ الحياة والخيراتِ المُضافة إلى المَمات كالوصيّة والتدبير. وقُرئ: "مَحْيَايْ"[2] بسكون الياء، إجراءً للوصل مُجرى الوقف. ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ خالصةً له، لا أُشرِك فيها غيرَه.

﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى "الإخلاص"، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعُلُوّ رُتبته وبُعدِ منزلته في الفضل، أي: بذلك الإخلاصِ ﴿أُمِرْتُ﴾، لا بشيء غيرِه. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لبيان مسارعته عليه السلام إلى الامتثال بما أُمر به، وأنّ ما أُمر به ليس مِن خصائصه عليه السلام؛ بل الكلُّ مأمورون به، يقتدِي به عليه السلام مَن أسلَمَ منهم.

---

[1] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة، ٣٠/٩].

[2] قرأ بها نافع باختلاف عن الأزرق عن ورش وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٦٧/٢.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ آخرَ، فأُشرِكُه في العبادة. ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جملة حاليّة مؤكِّدة للإنكار، أي: والحال أنّ كلّ ما سِواه مربوب له مِثلي؛ فكيف يُتصوّر أن يكون شريكًا له في المعبوديّة؟ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ كانوا يقولون للمسلمين: «اتّبِعوا سبيلَنا ولْنَحمِلْ خَطاياكم»، إمّا بمعنى "لِيُكتَبْ علينا ما عمِلتم مِن الخطايا، لا عليكم"، وإمّا بمعنى "لِنَحمِلْ يومَ القيامة ما كُتب عليكم مِن الخطايا"، فهذا ردٌّ له بالمعنى الأوّل، / أي: لا يكون جنايةُ نفس مِن النفوس إلّا عليها، ومُحال أن يكون صدورُها عن شخص وقرارُها على شخص آخرَ، حتّى يتأتّى ما ذكرتم. [٢٨٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ردٌّ له بالمعنى الثاني، أي: لا تحمِلُ يومئذ نفسٌ حاملةٌ حِمْلَ نفسٍ أخرى، حتّى يصِحَّ قولُكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيه له إلى الكلّ لتأكيد الوعد وتشديدِ الوعيد، أي: إلى مالِك أمركم رجوعُكم يومَ القيامة. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يومئذ ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ببيان الرُّشد مِن الغَيّ وتمييزِ الحقّ مِن الباطل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ حيث خلَفتم الأُمَمَ السالفةَ أو يخلُف بعضُكم بعضًا، أو جعلكم خلفاءَ الله تعالى في أرضه تتصرّفون[١] فيها، على أنّ الخطاب عامّ. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ﴾ في الشرف والغِنى ﴿فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ كثيرةً متفاوتةً، ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مِن المال والجاهِ، أي: ليعامِلَكم معاملةَ مَن يبتليكم لينظُرَ ماذا تعملون مِن الشكر وضِدّه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ تجريدُ الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع إضافة اسم "الربّ" إلى ضميره عليه السلام لإبراز مزيد اللطف به عليه السلام.

---

[١] س: يتصرّفون.

﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: عقابُه سريعُ الإتيان لِمَن لم يُراعِ حقوقَ ما آتاه الله تعالى ولم يشكُرْه؛ لأنّ كلّ آتٍ قريبٌ، أو سريعُ التمامِ عند إرادته لتَعاليه عن استعمال المبادي والآلات.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ لِمَن راعاها كما ينبغي. وفي جعل خبر هذه الجملة مِن الصفات الذاتيّة الواردةِ على بناء المبالغة مؤكَّدًا بـ"اللام" مع جعل خبر الأولى صفةً جاريةً على غير مَن هي له، مِن التنبيه على أنّه تعالى غَفور رحيم بالذات مبالِغٌ فيهما، فاعلٌ للعقوبة بالعرض مسامِحٌ فيها، ما لا يخفى. والله تعالى أعلم.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أُنزلَت عليَّ سورةُ الأنعام جملةً واحدةً، يُشيّعها سبعونَ ألفَ ملكٍ لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتمجيد، فمَن قرأ الأنعامَ صلّى عليه واستغفر له أولئك السبعونَ ألفَ ملك بعدد كلّ آية مِن سورة الأنعام يومًا وليلةً».[1]

الحمد لله تعالى.[2]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٤/١٣١؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٨٥. وباختلاف يسير في تفسير السمرقندي، ١/٥١٨؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٢٥٠. وانظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١/٤٥٠-٤٥١ (٤٥٦).

[2] ط س - الحمد لله تعالى؛ س + والله تبارك وتعالى أعلم. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد يومَ الاثنين، الثالث من جُمادَى الآخرة لسنة ستٍّ وستّينَ وتسعمائةٍ، حامدًا لله تعالى ومُصلّيًا على سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

سورة الأعراف

مكّيّة إلّا ثمان آياتٍ مِن قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ [الأعراف، ١٦٣/٧]
إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ [الأعراف، ١٧١/٧]، وآيها مائتان وخمس.[1]

/ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[2] [٢٨٦و]

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

﴿الٓمٓصٓ﴾ إمّا مسرود على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة،[3] فلا محلَّ له مِن الإعراب، وإمّا اسمٌ للسورة، فمحلّه الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، والتقدير: هذا الٓمٓصٓ، أي مسمًّى به، وتذكير اسم الإشارة مع تأنيث المسمَّى لِما أنّ الإشارة إليه مِن حيث إنّه مسمًّى بالاسم المذكور، لا مِن حيث إنّه مسمًّى بالسورة، وإنّما صحّت الإشارة إليه مع عدم سبق ذكره لِما أنّه باعتبار كونه بصدد الذِّكر صار في حكم الحاضر المشاهَد.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿كِتَٰبٌ﴾ على الوجه الأوّل خبرُ مبتدأ محذوف، هو ما يُنبئ عنه تعديدُ الحروف، كأنّه قيل: المؤلَّفُ مِن جنس هذه الحروف -مرادًا به السورة- كتابٌ... إلخ، أو اسمُ إشارة أشيرَ به إليه[4] تنزيلًا لحضور المؤلَّف منه منزلةَ حضور نفس المؤلَّف، أي: هذا كتابٌ... إلخ؛ وعلى الوجه الثاني خبرٌ بعد خبرٍ، جِيء به إثر بيان كونه مترجمًا باسم بديع مُنبِئٍ عن غرابته في نفسه، إبانةً لجلالة محلّه ببيان كونه فردًا مِن أفراد الكتب الإلهيّة حائزًا للكمالات المختصّة بها.

---

[1] م - سورة الأعراف، مكّيّة إلّا ثمان آياتٍ مِن قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾، وآيها مائتان وخمس؛ ط: سورة الأعراف، مكّيّة غير ثمان آياتٍ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إلى ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾، وهي مائتان وخمس أو ستّ آياتٍ.

[2] وفي هامش م: عليك توكّلت يا ربّ العالمين.

[3] انظر: تفسير البقرة، ١/٢.

[4] أي: إلى المؤلَّف مِن جنس هذه الحروف.

وقد جُوّز كونه خبرًا، و﴿الٓمٓصٓ﴾ مبتدأً، أي: المسمّى بـ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتابٌ؛ وقد عرفتَ ما فيه مِن أنّ ما يُجعَل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه عند المخاطَب، وإذ لا عهدَ بالتسمية قبلُ، فحقُّها الإخبارُ بها.

﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: مِن جهته تعالى. بُنِي الفعل للمفعول جريًا على سَنَن الكبرياء، وإيذانًا بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعيّنِه، وهو السرّ في ترك ذكر مَبدَأ الإنزال كما في قوله جلّ ذِكره: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة، ٥/٦٧] ونظائرِه. والجملة صفة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾، مشرِّفةٌ له ولمَن أُنزل إليه؛ وجعلُه خبرًا له على معنى: "كتاب عظيمُ الشأنِ أُنزلَ إليك" خلافُ الأصل.

[٢٨٦ظ] ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ﴾ أي: شكٌّ، كما في قوله تعالى: / ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [يونس، ١٠/٩٤]؛ خَلَا أنّه عُبّر عنه بما يلازمه مِن الحَرَج -فإنّ الشاكّ يعتريه ضيقُ الصدر، كما أنّ المتيقِّن يعتريه انشراحه وانفساحه- مبالغةً في تنزيه ساحته عليه السلام عن نسبة الشكّ إليه ولو في ضِمن النهي، فإنّه مِن الأحوال القلبيّة التي يستحيل اعتراؤها إيّاه عليه السلام. وما قد يقع مِن نسبته إليه في ضمن النهي، فعلى طريقة التهييج والإلهاب والمبالغة في التنفير والتحذيرِ بإيهامِ أنّ ذلك مِن القُبح والشرّيّة بحيث يُنهَى عنه مَن لا يمكن صدورُه عنه أصلًا، فكيف بمَن يمكن ذلك منه؟ والتنوين للتحقير.

والجارّ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡهُ﴾ متعلِّق بـ﴿حَرَجٌ﴾، يقال: "حَرِج منه"، أي: ضاق به صدرُه، أو بمحذوف وقع صفةً له، أي: حرجٌ كائنٌ منه، أي: لا يكنْ فيك شكٌّ ما في حقّيّته أو في كونه كتابًا منزلًا إليك مِن عنده تعالى؛ فـ"الفاء" على الأوّل لترتيب النهي أو الانتهاء على مضمون الجملة، فإنّه ممّا يوجِب انتفاءَ الشكّ فيما ذُكر بالكلّيّة وحصولَ اليقين به قطعًا؛ وأمّا على الثاني، فهي لترتيب ما ذُكر على الإخبار بذلك، لا على نفسه، فتدبَّرْ.

وتوجيه النهي إلى الحَرَج -مع أنّ المراد نهيُه عليه السلام عنه- إمّا لِما مرّ مِن المبالغة في تنزيهه عليه السلام عن الشكّ فيما ذُكر، فإنّ النهي عن الشيء ممّا يوهِم إمكانَ صدور المَنهي عنه عن المَنهي، وإمّا للمبالغة في النهي،

فإنّ وقوع الشكّ في صدره عليه السلام سببٌ لاتّصافه عليه السلام به، والنهيُ عن السبب نهيٌ عن المسبَّب بالطريق البرهاني ونفيٌ له عن أصله بالمرّة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ الآية [المائدة، ٢/٥، ٨]. وليس هذا مِن قبيل "لا أُرَيَنَّك ههنا"، فإنّ النهي هناك واردٌ على المسبَّب مرادًا به النهيُ عن السبب، فيكونُ المآل نهيَه عليه السلام عن تعاطي ما يُورث / الحرَجَ، فتأمَّلْ. [٢٨٧و]

وقيل: الحَرَج على حقيقته، أي لا يكنْ فيك ضيقُ صدر مِن تبليغه مخافةَ أن يكذّبوك أو أن تقصِّر في القيام بحقّه؛ فإنّه عليه السلام كان يخاف تكذيبَ قومه له وإعراضَهم عنه، فكان يَضيق صدرُه مِن الأداء ولا ينبسِط له، فآمَنَه الله عزّ وجلّ ونهاه عن المُبالاة بهم؛ فـ"الفاء" حينئذ للترتيب على مضمون الجملة أو على الإخبار به، فإنّ كلًّا منهما موجِب للإقدام على التبليغ وزوالِ الخوف قطعًا، وإن كان إيجابُ الثاني بواسطة الأوّل.

وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب المنزل، متعلِّقٌ بـ﴿أُنزِلَ﴾، وما بينهما اعتراض توسَّطَ بينهما تقريرًا لِما قبله وتمهيدًا لِما بعده وحسمًا لتوهّمِ أنّ مَورِد الشكّ هو الإنزال للإنذار. وقيل: متعلِّق بالنهي، فإنّ انتفاء الشكّ في كونه منزلًا مِن عنده تعالى موجِبٌ للإنذار به قطعًا، وكذا انتفاءُ الخوف منهم أو العلمُ بأنّه موفَّق للقيام بحقّه موجِبٌ للتجاسر على ذلك. وأنت خبير بأنّه لا يتأتّى على التفسير الأوّل؛ لأنّ تعليل النهي عن الشكّ بما ذُكِر مِن الإنذار والتذكير مع إيهامه لإمكان صدوره عنه عليه السلام مُشعِرٌ بأنّ المَنهي عنه ليس محذورًا لذاته؛ بل لإفضائه إلى فَوَات الإنذار والتذكير، لا أقلَّ مِن الإيذان بأنّ ذلك معظم غائلته، ولا ريب في فساده. وأمّا على التفسير الثاني، فإنّما يتأتّى التعليلُ بالإنذار، لا بتذكير المؤمنين؛ إذ ليس فيه شائبة خوفٍ حتّى يُجعَل غايةً لانتفائه.

وقوله تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في حيّز النصب بإضمار فعله معطوفًا على ﴿تُنذِرَ﴾، / أي: وتذكِّرَ المؤمنين تذكيرًا؛ أو الجرّ عطفًا على محلّ "أن تُنذِرَ"، أي: للإنذار والتذكير؛ وقيل: مرفوع عطفًا على ﴿كِتَـٰبٌ﴾، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف. [٢٨٧ظ]

وتخصيص التذكير بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالكَفَرة، أي: لتُنذِرَ به المشركين وتذكِّرَ المؤمنين. وتقديم الإنذار لأنّه أهمُّ بحسب المقام.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ كلام مستأنَف خُوطبَ به كافّة المكلّفين بطريق التلوين وأُمروا باتّباع ما أُمِر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبله بتبليغه بطريق الإنذار والتذكير. وجعلُه منزَلًا إليهم بواسطة إنزاله إليه عليه السلام إثر ذكر ما يصحّحه مِن الإنذار والتذكير[١] لتأكيد وجوب اتّباعه.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ متعلّق بـ﴿أُنزِلَ﴾ على أنّ ﴿مِنۡ﴾ لابتداء الغاية مجازًا، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن الموصول أو مِن ضميره في الصلة. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين مزيدُ لطفٍ بهم وترغيبٌ لهم في الامتثال بما أُمروا به وتأكيدٌ لوجوبه. وجعلُ ما أُنزلَ هھنا عامًّا للسنّة القوليّة والفعليّة بعيدٌ؛ نعم، يعمّهما حكمُه بطريق الدلالة، لا بطريق العبارة.

ولمّا كان اتّباعُ ما أنزله الله تعالى اتّباعًا له تعالى، عُقّب الأمر بذلك[٢] بالنهي عن اتّباع غيره تعالى، فقيل: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: مِن دون ربّكم الذي أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحقّ. ومحلّه النصب على أنّه حال مِن فاعل فعلِ النهي، أي: لا تتّبِعوا متجاوِزين[٣] اللهَ تعالى ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ مِن الجنّ والإنس بأن تقبَلوا منهم / ما يُلقونه إليكم بطريق الوسوسة والإغواء مِن الأباطيل ليضلّوكم [٢٨٨و] عن الحقّ ويحمِلوكم على البِدع والأهواء الزائغة؛ أو مِن ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، قُدّم عليه لكونه نكرةً، إذ لو أُخّر عنه لَكان صفةً له، أي: أولياءَ كائنةً غيرَه تعالى. وقيل: الضمير للموصول على حذف المضاف في ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: ولا تتّبِعوا مِن دون ما أُنزلَ أباطيلَ أولياءَ، كأنّه قيل: ولا تتّبِعوا مِن دون دين ربّكم دينَ أولياءَ. وقُرئ: "وَلَا تَبۡتَغُوا"[٤] كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ [آل عمران، ٣/٨٥].

---

[١] وفي هامش م: فإنّهما مِن مقتضَيات إنزاله إليهم. «منه».

[٢] وفي عامش م: أي: باتّباع ما أنزل الله تعالى.

[٣] س + دين.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري ومالك بن دينار. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٣.

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين وتخفيفِ الذال. وقُرئ بتشديدها على إدغام التاء المهموسة في الذال المجهورة.[١] وقُرئ: "يَتَذَكَّرُونَ"[٢] على صيغة الغَيبة.

و﴿قَلِيلًا﴾ نصب إمّا بما بعده على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف مقدَّمٍ للقَصر، أو لزمانٍ كذلك محذوفٍ، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد القلّة، أي: تذكُّرًا قليلًا أو زمانًا قليلًا تَذَكّرون، لا كثيرًا، حيث لا تتأثّرون بذلك ولا تعملون بموجَبه وتتركون دينَ الله تعالى وتتّبعون غيرَه. ويجوز أن يراد بالقلّة العدمُ كما قيل في قوله تعالى:[٣] ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة، ٨٨/٢]. والجملة اعتراض تذييلي مَسوقٌ لتقبيح حال المخاطَبين. والالتفات على القراءة الأخيرة للإيذان باقتضاء سوء حالهم في عدم الامتثال بالأمر والنهي صَرْفَ الخطاب عنهم وحكايةَ جناياتهم لغيرهم بطريق المُباثّة.

وإمّا[٤] نصبٌ على أنّه حال مِن فاعل ﴿لَا تَتَّبِعُوا﴾، و﴿مَا﴾ مصدريّة / مرتفعةٌ [٢٨٨ظ] به، أي: لا تتّبعوا[٥] مِن دونه أولياءَ قليلًا تذكّرُكم؛ لكنْ لا على توجيه النهي إلى المقيَّد فقط كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء، ٤٣/٤]، بل إلى المقيَّد والقيد جميعًا. وتخصيصه بالذِّكر لمَزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المُنكَرَين.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝﴾

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ شروع في إنذارهم بما جرى على الأمم الماضية بسبب إعراضهم عن اتّباع دين الله تعالى وإصرارِهم على اتّباع دين أوليائهم. و﴿كَمْ﴾ خبريّة للتكثير في موضع رفعٍ على الابتداء كما في قولك: "زيدٌ ضربتُه"، والخبر هو الجملة بعدها، و﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييز، والضمير في ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾

---

١ أي: "تَذَّكَّرُونَ". قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٦٧/٢.

٣ م – تعالى.

٤ السياق: و﴿قَلِيلًا﴾ نصبٌ إمّا بما بعده... وإمّا نصبٌ على أنّه حال...

٥ س – أي: لا تتّبعوا.

راجعٌ إلى معنى ﴿كَمْ﴾، أي: كثيرٌ مِن القُرَى أهلكناها؛ أو في موضع نصبٍ بـ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر، ٥٤/٤٩]. والمراد بإهلاكها إرادة إهلاكها كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة، ٥/٦]، أي: أردنا إهلاكها.

﴿فَجَآءَهَا﴾ أي: فجاء أهلَها ﴿بَأْسُنَا﴾ أي: عذابُنا ﴿بَيَـٰتًا﴾ مصدرٌ بمعنى الفاعل، واقعٌ موقعَ الحال، أي: بائتين، كقوم لوطٍ، ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ عطفٌ عليه، أي: أو قائلين؛ مِن القَيْلولة نِصفَ النهار، كقوم شُعيب. وإنّما حُذفت الواو مِن الحال المعطوفة على أُختها استثقالًا لاجتماع العاطفَين، فإنّ واو الحال حرفُ عطف قد استُعيرت للوصل؛ لا اكتفاءً بالضمير كما في "جاءني زيد هو فارس"، فإنّه غيرُ فصيح. وتخصيص الحالتين بـ"العذاب" لِما أنّ نزول المكروه عند الغفلة والدَّعَة أفظَعُ وحكايتَه للسامعين أزجَرُ وأردَعُ عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة. ووصفُ الكلّ / بوصفَي البَيَات والقَيْلولة -مع أنّ بعض المُهلَكين بمَعزِلٍ منهما، لاسيّما القَيْلولة- للإيذان بكمال غفلتهم وأمنهم. [٢٨٩و]

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝﴾

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: دعاؤهم واستغاثتُهم ربَّهم، أو ما كانوا يدّعونه مِن دينهم وينتحلونه مِن مذهبهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابُنا وعاينوا أماراته، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾ جميعًا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ أي: إلّا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتهم ببطلانه تحسّرًا عليه وندامةً وطمَعًا في الخلاص؛ وهيهاتَ ولاتَ حينَ نجاةٍ.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ بيان لعذابهم الأُخروي إثر بيان عذابهم الدُّنيويّ، خَلَا أنّه قد تعرّض لبيان مبادي أحوال المكلَّفين جميعًا لكونه أدخلَ في التهويل. و"الفاء" لترتيب الأحوال الأُخرويّة على الدُّنيويّة ذِكرًا حسب ترتّبها عليها وجودًا، أي: لَنسألنّ الأمم قاطبةً قائلين: ماذا أَجبتم المرسَلين؟

﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عمّا أجيبوا. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥]. والمراد بالسؤال توبيخ الكَفَرة وتقريعُهم. والذي نُفِي بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص، ٧٨/٢٨] سؤالُ الاستعلام، أو الأوّلُ في موقف الحساب، والثاني في موقف العقاب.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أي: على الرُّسل حين يقولون: «لا علمَ لنا، إنّك أنت علّامُ الغُيوب»،[1] أو عليهم وعلى المرسَل إليهم جميعًا ما كانوا عليه. ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: عالمين بظواهرهم وبواطنِهم أو بمعلومنا منهم. ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ / عنهم في حال مِن الأحوال، فيخفي علينا شيء مِن أعمالهم وأحوالهم. والجملة تذييل مقرِّر لِما قبلها. [٢٨٩ظ]

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي: وزنُ الأعمال والتمييزُ بين راجحها وخفيفها وجيّدِها ورَديئها. ورفعُه على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبرُه، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفتُه، أي: والوزن الحقّ ثابتٌ يومَ إذ يكون السؤال والقَصُّ. وقيل: خبرُ مبتدأ محذوف، كأنّه قيل: ما ذلك الوزن؟ فقيل: الحقّ، أي: العدل السويّ. وقُرئ: "القِسْطُ".[2]

واختُلف في كيفيّة الوزن. والجمهور على أنّ صحائف الأعمال هي التي تُوزَن بميزانٍ له لسانٌ وكِفّتان[3] يَنظر إليه الخلائق إظهارًا للمَعدلة وقطعًا للمَعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم، فيعترف بها ألسنتهم وجوارحهم، وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد، وكما يُثبَت في صحائفهم، فيقرءونها في موقف الحساب. ويؤيّده ما رُوي أنّ الرجل يؤتَى به إلى الميزان، فيُنشَر له تسعة وتسعون سجِلًّا

---

[1] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥].

[2] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٨٩/٢.

[3] وفي هامش م: معًا. | يعني: بفتح الكاف وكسرها.

مَدَى البصر، فيُخرَج له بِطاقة[١] فيها كلمتا الشهادةِ، فتوضَع السجِلّات في كِفّة والبِطاقةُ في كِفّة، فتطيش السجِلّاتُ وتثقُل البطاقةُ.[٢]

وقيل: يوزَن الأشخاص، لِما رُوي عنه عليه السلام: «إنّه لَيأتي العظيم السمينُ يومَ القيامة، لا يزنُ عند الله جَناحَ بَعُوضة».[٣]

[٢٩٠و] / وقيل: الوزن عبارة عن القضاء السّوي والحُكم العادل. وبه قال مجاهد والأعمش والضحّاك، واختاره كثير مِن المتأخِّرين[٤] بناءً على أنّ استعمال لفظ "الوزن" في هذا المعنى شائعٌ في اللغة والعُرفِ بطريق الكناية.

قالوا: إنّ الميزان إنّما يُراد به التوصّل إلى معرفة مقادير الشيء، ومقاديرُ أعمال العباد لا يمكن إظهارُها بذلك؛ لأنّها أعراضٌ قد فَنِيَت، وعلى تقدير بقائها لا تَقبل الوزن. وقيل: إنّ الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصُوَر عرضيّة تبرُز في النشأة الآخرة بصُوَر جوهريّة مناسبةٍ لها في الحسن والقُبح، حتّى إنّ الذنوب والمعاصيَ تتجسّم هناك وتتصوّر بصورة النار.

وعلى ذلك حُمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة، ٩/٤٩؛ العنكبوت، ٢٩/٥٤] وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء، ٤/١٠]، وكذا قولُه عليه السلام في حقّ مَن يشرب مِن إناء الذَّهَب والفِضّة: «إنّما يُجرجِر في بطنه نارَ جهنّم».[٥] ولا بُعدَ في ذلك؛ ألَا يُرى أنّ العلم يظهر في عالَم المِثال على صورة اللبن كما لا يخفي على مَن له خِبرة بأحوال الحَضَرات الخمس. وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: «أنّه يؤتَى بالأعمال الصالحة على صُوَر حسنة وبالأعمال السيّئة على صُوَر قبيحة،

---

[١] وفي هامش م: رقعة. | البِطاقة بالكسر: رُقَيعة توضَع في الثّوب فيها رقم الثّمَن. الصحاح للجوهري، «بطق».

[٢] أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١١/٥٧٠-٥٧١ (٦٩٩٤)؛ وابن ماجة في سننه، ٥/٣٥٦ (٤٣٠٠)؛ والترمذي في سننه، ٥/٢٤-٢٥ (٢٦٣٩)، مِن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٦.

[٣] صحيح البخاري، ٦/٩٣ (٤٧٢٩)؛ صحيح مسلم، ٤/٢١٤٧ (٢٧٨٥).

[٤] انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٩/٢٤؛ واللباب لابن عادل، ٩/٢٢.

[٥] صحيح البخاري، ٧/١١٣ (٥٦٣٤)؛ صحيح مسلم، ٣/١٦٣٤ (٢٠٦٥).

فتوضَع في الميزان».[١]

إنْ قيل: إنّ المكلَّف / يومَ القيامة إمّا مؤمن بأنّه تعالى حكيم منزَّهٌ عن الجَوْر، فيكفيه حكمه تعالى بكيفيّات الأعمال وكمّيّاتها، وإمّا منكِرٌ له، فلا يسلِّم حينئذ أنّ رجحان بعض الأعمال على بعضٍ لخصوصيّات راجعةٍ إلى ذوات تلك الأعمال؛ بل يُسنده إلى إظهار الله تعالى إيّاه على ذلك الوجه، فما الفائدة في الوزن؟ [٢٩٠ظ]

أُجيبَ بأنّه ينكشف الحال يومئذ، ويظهر جميع الأشياء بحقائقها على ما هي عليه وبأوصافها وأحوالها في أنفسها مِن الحسن والقبح وغير ذلك، وتنخلع عن الصُّوَر المستعارة التي بها ظهرت في الدنيا، فلا يبقى لأحد ممّن يشاهدها شُبهة في أنّها هي التي كانت في الدنيا بعينها، وأنّ كلّ واحد منها قد ظهر في هذه النشأة بصورته الحقيقيّة المستتبعةِ لصفاته، ولا يخطُر بباله خلافُ ذلك. والله تعالى[٢] أعلم.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ تفصيل للأحكام المترتّبة على الوزن. و"الموازين" إمّا جمعُ "مِيزان"، أو جمعُ "مَوزون" على أنّ المراد به ما له وزنٌ وقدْرٌ، وهو الحَسَنات، فإنّ رجحان أحدهما مستلزم لرجحان الآخَر، أي: فمَن رجَحت موازينه التي توزَن بها حسناته أو أعمالُه التي لها قدر وزِنة. وعن الحسن البصري: «وحُقَّ لميزانٍ توضَع فيه الحسنات أن يثقُل، وحُقَّ لميزانٍ توضَع فيه السيّئات أن يَخِفّ».[٣]

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بثِقَل المَوازين. والجمعيّة باعتبار معناه، كما أنّ جمعَ "المَوازين" لذلك. وأمّا ضمير ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾، فراجعٌ إليه باعتبار لفظه. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ طبقتهم وبُعد منزلتهم في الفضل والشرف.

---

١ اللباب لابن عادل، ٩/٢٣-٢٤. ونحوه عنه رضي الله عنهما في التفسير البسيط للواحدي، ٩/٢٤.

٢ س - تعالى.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢/٨٩.

﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب. و﴿هُمۡ﴾ إمّا ضميرُ فصل يفصل بين / الخبر والصفة ويؤكِّدُ النسبةَ ويفيد اختصاصَ المسنَد بالمسند إليه، أو مبتدأٌ، خبرُه ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، والجملة خبرٌ لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾. وتعريف ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ للدلالة على أنّهم الناس الذين بلغك أنّهم مفلِحون في الآخرة، أو إشارة إلى ما يعرفه كلّ أحد مِن حقيقة المفلحين وخصائصهم. [٢٩١و]

﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾

﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: مَوازينُ أعماله، أو أعمالُه التي لا وزن لها ولا اعتدادَ بها، وهي أعماله السيّئة. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتّصافهم بتلك الصفة القبيحة. والجمعيّة ومعنى البُعد لِما مرّ آنفًا في نظيره. وهو مبتدأ، خبرُه: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ أي: ضيَّعوا الفطرة السليمةَ التي فُطروا عليها، وقد أُيّدت بالآيات البيّنة.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿خَسِرُوا﴾، و﴿مَا﴾ مصدريّة، و﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ متعلِّق بـ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ على تضمين معنى التكذيب، قُدّم عليه لمراعاة الفواصلِ. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا، أي: فأولئك الموصوفون بخِفّة الموازين الذين خسِروا أنفسَهم بسبب تكذيبهم المستمرّ بآياتنا ظالمين.

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّـٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠﴾

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّـٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لمّا أمر الله سبحانه أهل مكّةَ باتّباع ما أنزل إليهم ونهاهم عن اتّباع غيره وبيّن لهم وخامةَ عاقبته بالإهلاك في الدنيا والعذاب المخلَّد في الآخرة، ذَكَّرهم ما أفاض عليهم مِن فنون النِّعم الموجِبة للشكر ترغيبًا في الامتثال بالأمر والنهي إثرَ ترهيبٍ، أي: جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، أو ملّكناكم فيها وأقدرناكم على التصرّف فيها.

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ المَعايِش: / جمعُ "مَعيشة"، وهي ما يُعاش به مِن المطاعم والمشارب وغيرها، أو ما يُتوصّل به إلى ذلك. والوجه في قراءته [٢٩١ظ]

إخلاصُ الياء. وعن ابن عامر[١] أنّه همزة[٢] تشبيهًا له بـ"صحائف" و"مدائن".
والجعل بمعنى الإنشاء والإبداع، أي: أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعكم فيها أسبابًا تَعيشون بها. وكلّ واحد مِن الظرفين متعلِّق به، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن مفعوله المنكَّر، إذ لو تأخَّر لَكان صفةً له؛ وتقديمُهما على المفعول -مع أنّ حقّهما التأخّر عنه- لِما مرّ غيرَ مرّةٍ مِن الاعتناء بشأن المقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، فإنّ النفس عند تأخير ما حقُّه التقديم -لاسيّما عند كون المقدَّم مُنبِئًا عن منفعة للسامع- تبقى مترقِّبةً لورود المؤخَّر، فيتمكّن فيها عند الورود فضل تمكّنٍ. وأمّا تقديم "اللام" على "في"، فلِما أنّه المنبِئ عمّا ذُكر مِن المنفعة، فالاعتناء بشأنه أتمُّ والمسارعةُ إلى ذكره أهمُّ.

هذا، وقد قيل: إنّ الجعل متعدٍّ إلى مفعولَين، ثانيهما أحدُ الظرفين على أنّه مستقَرّ، قُدّم على الأوّل، والظرفُ الآخَر إمّا لغوٌ متعلِّقٌ بالجعل، أو بالمحذوف الواقع حالًا مِن المفعول الأوّل كما مرّ. وأنت خبير بأنّه لا فائدةَ يُعتدّ بها في الإخبار بجعل المَعايش حاصلةً لهم أو حاصلةً في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تلك النعمةَ، تذييلٌ مَسوقٌ لبيان سوء حال المخاطَبين وتحذيرِهم. وبقيّة الكلام فيه عينُ ما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف، ٣/٧].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

---

[١] هو عبد الله بن عامر بن يزيد اليَحْصَبي، أبو عمران (ت. ١١٨هـ/٧٣٦م). أحد القرّاء السبعة، مُقرئ الشام، تابعيّ. ولي قضاء دمشق. وأَمَّ المسلمين بالجامع الأمويّ سنينَ كثيرةً. أجمع الناس على قراءته وعلى تلقّيها بالقبول. أخذ القراءة عرضًا عن أبي الدّرداء، وعن المغيرة بن أبي شِهاب صاحبِ عثمان بن عفّان. وحدّث عن معاوية والنعمان بن بشير وفَضالة بن عُبيد وواثلةَ بن الأسقع، وعدّة. وحدّث عنه ربيعة بن يزيد القصير والزُّبيدي ويحيى الذِّماري وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر وعبد الله بن العَلاء، وجماعة. والمعتمَد المشهور في قراءته رواية هشام بن عمّار وابن ذَكوان عنه. انظر: **معرفة القرّاء** للذهبي، ص ٤٦-٤٩؛ و**غاية النهاية** لابن الجزري، ٤٢٣/١-٤٢٤؛ و**النشر** لابن الجزري، ١٣٥/١-١٤٦.

[٢] انظر تعليق أبي حيّان عليها في **البحر المحيط**، ١٥/٥.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ تذكير لنعمة عظيمة فائضةٍ على آدمَ عليه السلام / ساريةٍ إلى ذُرِّيّته موجِبةٍ لشكرهم كافّةً. وتأخيره عن تذكير ما وقع قبله مِن نعمة التمكين في الأرض إمّا لأنّها فائضة على المخاطَبين بالذات، وهذه بالواسطة، وإمّا للإيذان بأنّ كلًّا منهما نعمة مستقلّة مستوجِبة للشكر على حِيالها، فإنّ رعاية الترتيب الوقوعي ربّما تؤدِّي إلى توهّم عَدّ الكلّ نعمةً واحدةً كما ذُكر في قصّة البقرة.[1] وتصدير الجملتين بالقَسم وحرفِ التحقيق لإظهار كمال العناية بمضمونهما. [٢٩٢و]

وإنّما نُسب الخلق والتصوير إلى المخاطَبين -مع أنّ المراد بهما خلقُ آدمَ عليه السلام وتصويرُه حتمًا- توفيةً لمقام الامتنان حقَّه وتأكيدًا لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أنّ لهم حظًّا مِن خلقه عليه السلام وتصويرِه لِما أنّهما ليسا مِن الخصائص المقصورة عليه عليه السلام كسجود الملائكة له عليه السلام؛ بل مِن الأمور السارية إلى ذُرّيّته جميعًا، إذ الكلُّ مخلوق في ضِمن خلقه على نمطه ومصنوعٌ على شاكلته، فكأنّهم الذي تعلّق به خلقه وتصويرُه، أي: خلقنا أباكم آدمَ عليه السلام طِينًا غيرَ مصوَّرٍ، ثمّ صوّرناه أبدعَ تصويرٍ وأحسنَ تقويمٍ سارَ إليكم جميعًا.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ صريح في أنّه ورد بعد خلقه عليه السلام وتسويته ونفخِ الروح فيه؛ أمرٌ مُنجَّزٌ غيرُ الأمر المعلَّق الواردِ قبل ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ٢٩/١٥؛ ص، ٧٢/٣٨]. وهو المراد بما حُكي بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ الآية في سورة البقرة [٣٤/٢] وسورة بني إسرئيلَ [٦١/١٧] وسورة الكهف [٥٠/١٨] / وسورةِ طه [١١٦/٢٠]، مِن غير تعرّض لوقته. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ ههنا يقتضي تَراخِيَه عن التصوير مِن غير تعرّض لبيان ما جرى بينهما مِن الأمور. [٢٩٢ظ]

وقد بيّنّا في سورة البقرة أنّ ذلك ظهور فضل آدمَ عليه السلام بعد المحاورة المسبوقة بالإخبار باستخلافه عليه السلام حسبما نطق به قوله عزّ وجلّ:

---

[1] انظر: تفسير البقرة، ٧٣/٢.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة، ٣٠/٢] إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة، ٣٣/٢]؛ فإنّ ذلك أيضًا مِن جملة ما نِيطَ به الأمر المعلَّق مِن التسوية ونفخ الروح.

وعدمُ ذكره عند الحكاية لا يقتضي عدمَ ذكره عند وقوع المَحكيّ، كما أنّ عدم ذكر الأمر المعلَّق عند حكاية الأمر المنجَّز لا يستلزم عدمَ مسبوقيّته به. فإنّ حكاية كلام واحد على أساليبَ مختلفةٍ يقتضيها المقام ليست بعزيزة في الكلام العزيز؛ فلعلّه قد أُلقيَ إلى الملائكة عليهم السلام أوّلًا جميعُ ما يتوقّف عليه الأمر المنجَّز إجمالًا بأنْ قيل مثلًا: «إنّي خالقٌ بشرًا مِن كذا وكذا، وجاعلٌ إيّاه خليفةً في الأرض، فإذا سَوّيتُه ونفختُ فيه مِن روحي وتبيَّنَ لكم فضله، فقَعُوا له ساجدين»، فخلَقَه، فسَوّاه، فنفخ فيه مِن روحه، فقالوا عند ذلك ما قالوا؛ أو أُلقيَ إليهم خبر الخلافة بعد تحقّق الشرائط المذكورة بأن قيل إثرَ نفخ الروح: «إنّي جاعلٌ هذا خليفةً في الأرض»، فهنالك ذكروا في حقّه عليه السلام ما ذكروا، فأيّده الله تعالى بتعليم الأسماء، فشاهدوا منه عليه السلام ما شاهدوا، فعند ذلك ورد الأمر المنجَّز اعتناءً بشأن / المأمور به وإيذانًا بوقته. وقد حُكي [٢٩٣و] بعض الأمور المذكورة في بعض المواطن وبعضُها في بعضها اكتفاءً بما ذُكر في كلّ مَوطن عمّا تُرك في موطن آخرَ.

والذي يرفع غشاوةَ الاشتباه عن البصائر السليمة أنّ ما في سورة ص مِن قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [ص، ٧١/٣٨] بدلٌ مِن قوله: ﴿إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ فيما قبله مِن قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [ص، ٦٩/٣٨]، أي: بكلامهم عند اختصامهم. ولا ريب في أنّ المراد بـ﴿ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾ الملائكة وآدمُ عليهم السلام وإبليسُ حسبما أطبَقَ عليه جمهورُ المفسّرين، وباختصامِهم ما جرى بينهم في شأن الخلافة مِن التقاول الذي مِن جملته ما صدر عنه عليه السلام مِن الإنباء بالأسماء.

ومِن قضيّة البدليّة وقوعُ الاختصام المذكور في تضاعيف ما شُرح فيه مفصّلًا مِن الأمر المعلَّق، وما عُلّق به مِن الخلق والتسوية ونفخِ الروح فيه،

وما ترتَّب عليه مِن سجود الملائكة وعنادِ إبليسَ ولعنِه وإخراجِه مِن بين الملائكة، وما جرى بعده مِن الأفعال والأقوال. وإذ ليس تمامُ الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة إبليسَ وطردِه مِن البَيْن لِما عرفتَ مِن أنّه أحدُ المختصِمِين، كما أنّه ليس قبل الخلق ضرورةً، فإذن هو بعد نفخ الروح وقبلَ السجود بأحد الطريقين المذكورين. والله تعالى أعلمُ.

﴿فَسَجَدُوا﴾ أي: الملائكة عليهم السلام بعد الأمر مِن غير تَلعثُمٍ.[1] ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناء متّصل لِما أنّه كان جِنّيًا مفردًا مغمورًا بألوفٍ مِن الملائكة متّصفًا بصفاتهم، فغُلِّبوا عليه في ﴿فَسَجَدُوا﴾، ثمّ استُثني استثناءَ واحدٍ منهم، / أو لأنّ [٢٩٣ظ] مِن الملائكة جنسًا يتوالدون، يقال لهم: "الجنُّ" كما مرّ في سورة البقرة،[2] فقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: ممّن سجد لآدمَ، كلامٌ مستأنَفٌ مبيِّنٌ لكيفيّة عدم السجود المفهومِ مِن الاستثناء، فإنّ عدم السجود قد يكون للتأمّل، ثمّ يقع السجود، وبه عُلم أنّه لم يقع قطُّ. وقيل: منقطِعٌ، فحينئذ يكون متّصلًا بما بعده، أي: لكنّ إبليس لم يكن مِن الساجدين.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مَسوق للجواب عن سؤالٍ نشأ مِن حكاية عدم سجوده، كأنّه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذ؟ وبه يظهر وجه الالتفات إلى الغَيبة، إذ لا وجهَ لتقدير السؤال على وجه المخاطبة. وفيه فائدة أخرى هي الإشعار بعدم تعلّق المَحكي بالمخاطَبين كما في حكاية الخلْق والتصوير.

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي: أن تسجُد، كما وقع في سورة ص.[3] و﴿لَا﴾ مَزيدة مؤكِّدة لمعنى الفعل الذي دخلت عليه، كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد، ٢٩/٥٧]، منبِّهةً على أنّ الموبَّخ عليه تركُ السجود. وقيل:

---

[1] تَلَعْثَمَ الرّجل في الأمر، إذا تمكّث فيه وتأنّى. الصحاح للجوهري، «لعثم».

[2] انظر: تفسير البقرة، ٣٤/٢.

[3] ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص، ٧٥/٣٨].

الممنوع عن الشيء مصروفٌ إلى خلافه، فالمعنى: ما صرفك إلى ألّا تسجُدَ.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قيل: فيه دلالة على أنّ مطلَق الأمر للوجوب والفَوْر. وفي سورة الحِجر: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ١٥/٣٢]، وفي سورة ص: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص، ٣٨/٧٥]. واختلاف العبارات عند الحكاية يدلّ على أنّ اللّعين قد أدمَجَ في معصية واحدة ثلاثَ مَعاصٍ: مخالفة الأمر ومفارقة الجماعة والإباءُ عن الانتظام / في سِلك أولئك [٢٩٤و] المقرَّبين والاستكبارُ مع تحقير آدمَ عليه السلام. وقد وُبِّخ حينئذ على كلّ واحدة منها، لكنْ اقتُصر عند الحكاية في كلّ مَوطن على ما ذُكر فيه اكتفاءً بما ذُكر في موطن آخرَ، وإشعارًا بأنّ كلّ واحدة منها كافية في التوبيخ وإظهارِ بطلانِ ما ارتكبه. وقد تُركت حكاية التوبيخ رأسًا في سورة البقرة وسورة بني إسرائيلَ وسورة الكهف وسورة طه.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبق، مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن حكاية التوبيخ، كأنّه قيل: فماذا قال اللّعين عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ متجانِفًا عن تطبيق جوابه على السؤال بأن يقول: «منعني كذا»، مدّعِيًا لنفسه بطريق الاستئناف شيئًا بيّنَ الاستلزامِ لمنعه مِن السجود على زعمه، ومشعِرًا بأنّ مَن شأنُه هذا لا يحسُن أن يسجد لمَن دونه، فكيف يحسُن أن يُؤمَر به، كما يُنبئ عنه ما في سورة الحِجر مِن قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر، ١٥/٣٣]. فهو أوّلُ مَن أسّس بُنيان التكبّر واخترع القولَ بالحُسن والقُبح العقليَّين.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تعليل لِما ادّعاه مِن فضله عليه. ولقد أخطأ اللعينُ، حيث خَصّ الفضل بما مِن جهة المادّة والعُنصُر، وزلّ عنه ما مِن جهة الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص، ٣٨/٧٥]، أي: بغير واسطة على وجه الاعتناء به، وما مِن جهة الصورة، كما نبّه عليه بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر، ١٥/٢٩؛ ص، ٣٨/٧٢]، وما مِن جهة الغاية، وهو ملاك الأمر؛ / ولذلك أمر الملائكة [٢٩٤ظ]

بسجوده عليه السلام حين ظهر لهم أنّه أعلمُ منهم بما يدور عليه أمرُ الخلافة في الأرض، وأنّ له خواصَّ ليست لغيره. وفي الآية دليل على الكون والفساد، وأنّ الشياطين أجسام كائنة. ولعلّ إضافةَ خلق البشر إلى الطين والشياطينِ إلى النار باعتبار الجُزء الغالب.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ لترتيب الأمر على ما ظهر مِن اللعين مِن مخالفة الأمر وتعليلِه بالأباطيل وإصرارِه على ذلك، أي: فاهبِطْ مِن الجنّة. والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه مِن سكّانها. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كانوا في عَدْنٍ، لا في جنّة الخُلد».[١] وقيل: مِن زُمرة الملائكة المعزّزين، فإنّ الخروج مِن زمرتهم هبوط، وأيّ هبوط! وفي سورة الحِجر: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [١٥/٣٤].

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد الهُبوط مِن السماء،[٢] فيردّه أنّ وسوسته لآدمَ عليه السلام كانت بعد هذا الطرد، فلا بدّ أن يُحمَل على أحد الوجهين قطعًا، ويكون وسوسته على الوجه الأوّل بطريق النداء مِن باب الجنّة، كما رُوي عن الحسن البصري رحمه الله.[٣]

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ أي: فما يصحّ ولا يستقيم لك ولا يَليق بشأنك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: في الجنّة أو في زُمرة الملائكة، تعليلٌ للأمر بالهُبوط؛ فإنّ عدم صحّةِ أن يتكبّر فيها علّةٌ للأمر المذكور، فإنّها مكان المُطيعين الخاشعين. ولا دلالةَ فيه على جواز التكبّر في غيرها. وفيه تنبيه على أنّ التكبّر لا يليق بأهل الجنّة، وأنّه تعالى إنّما طرده لتكبّره، لا لمجرّد عصيانه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ تأكيد للأمر بالهُبوط، متفرّعٌ على علّته. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ تعليل للأمر بالخروج، مُشعِرٌ بأنّه لتكبّره، أي: مِن / الأذِلّاء [٢٩٥و]

---

١ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥/١٨؛ اللباب لابن عادل، ٩/٣٦.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٩٠.

٣ س - رحمه الله. | قوله في التفسير الوسيط للواحدي، ١/١٢٢ (البقرة، ٢/٣٦)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٨٣ (البقرة، ٢/٣٦).

وأهلِ الهَوان على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبُّرك. وعن عمر رضي الله عنه: «مَن تواضَعَ لله، رفَعَ الله حَكَمَتَه[١] -وقال: انتعِشْ، نَعشَك اللهُ-[٢] ومَن تكبَّرَ وعَدَا طَوْرَه، وَهَصَه[٣] الله إلى الأرض».[٤]

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ، مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: فماذا قال اللّعين بعد ما سمع هذا الطرد المؤكَّد؟ فقيل: قال: ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾ أي: أَمهِلْني، ولا تُمِتْني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: آدمُ وذُرّيّتُه للجزاء بعد فنائهم. وهو وقت النفخة الثانية. وأراد اللعين بذلك أن يجد فُسحةً مِن إغوائهم، ويأخذَ منهم ثأرَه، وينجُوَ مِن الموت لاستحالته بعد البعث.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ١٥﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف. ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ورود الجواب بالجملة الاسميّة مع التعرّض لشمول ما سأله لآخَرين على وجهٍ يُشعر بأنّ السائل تبعٌ لهم في ذلك صريحٌ في أنّه إخبار بالإنظار المقدَّر لهم أزَلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به إجابةً لدعائه، وأنّ استنظاره كان طلبًا لتأخير الموت، إذ به يتحقّق كونه

---

[١] الحَكَمَة مِن الإنسان: مقدَّم وجهه، وقيل: أسفل وجهه؛ مستعار مِن موضع حَكَمَة اللِّجام. ومِن المجاز: حَكَمَة الإنسان: رأسه وشأنه وأمره. يقال: رفع الله حَكَمَتَه، أي: رأسَه وشأنَه وأمرَه. وهو كناية عن الإعزاز؛ لأنّ مِن صفة الذليل أن ينكِّس رأسه. تاج العروس للزبيدي، «حكم».

[٢] قال الطيبي في فتوح الغيب، ٣٣٩/٦: «قوله: "انتعِشْ"، أي: ارتفِعْ. يقال: "نَعَشَه الله ينعَشُه" إذا رفَعَه، و"انتعش العاثر" إذا نهض مِن عثْرته. وهو اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه مِن قول عمر رضي الله عنه، أو هو عطفٌ على "رفَعَ الله"، أي: أراد الله رفعَه؛ قال: "انتعِشْ نَعَشَك الله"، أي: رفَعَك».

[٣] الوَهْص: شدّة وَطْءِ القَدَم على الأرض، شدَخه أو لم يشدخه. وكذلك إذا وضع قدمه على شيءٍ فشدَخه، تقول: وهَصَه. ومعنى "وهَصَه الله إلى الأرض": كأنّه رُمي رَميًا عنيفًا. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٧١/٤ «باب الهاء والسين».

[٤] هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في مصنّف ابن أبي شيبة، ٣٢٩/٥ (٢٦٥٨٣)؛ والآداب للبيهقي، ص ٨١ (٢٤٣). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٩٠/٢.

مِن جملتهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل،[١] أي: إنّك مِن جملة الذين أخّرت آجالهم أزَلًا حسبما يقتضيه الحكمة التكوينيّة إلى وقتِ فناءِ غير مَن[٢] استثناه الله تعالى مِن الخلائق، وهو النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث الذي هو المسئول.

وقد تُرك التوقيت للإيجاز ثقةً بما وقع في سورة الحِجر وسورة ص، كما تُرك / ذكر النداء و"الفاءِ" في الاستنظار والإنظار تعويلًا على ما ذُكر فيهما [٢٩٥ظ] بقوله عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر، ١٥/٣٦-٣٨؛ ص، ٣٨/٧٩-٨١]. وفي إنظاره ابتلاء للعِباد وتعريضٌ للثواب.

إن قلتَ: لا ريبَ في أنّ الكلام المَحكي له عند صدوره عن المتكلِّم حالةٌ مخصوصةٌ يقتضي ورودَه على وجه خاصّ مِن وجوه النظم، بحيث لو أُخلَّ بشيء مِن ذلك، سقَطَ الكلام عن رتبة البلاغة البتّة. فالكلام الواحد المَحكيُّ على وجوه شتّى إن اقتضى الحالُ ورودَه على وجه معيَّن مِن تلك الوجوه الواردة عند الحكاية، فذلك الوجه هو المطابِق لمقتضى الحال والبالغُ إلى رتبة البلاغة دون ما عداه مِن الوجوه. إذا تمهَّدَ هذا، فنقول: لا يخفى أنّ استنظار اللعين إنّما صدر عنه مرّةً واحدةً لا غيرُ، فمقامُه إن اقتضى إظهارَ الضراعة وترتيبَ الاستنظار على ما حاقَ به مِن اللعن والطرد على نهج استدعاء الجبر في مقابلة الكسر كما هو المتبادر مِن قوله تعالى:[٣] ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ [الحجر، ١٥/٣٦؛ ص، ٣٨/٧٩] حسبما حُكي عنه في السورتين، فما حُكي ههنا يكون بمَعزِل مِن المطابقة لمقتضى الحال فضلًا عن العُروج إلى معارج الإعجاز.

قلنا: مقام استنظاره مقتضٍ لِما ذُكر مِن إظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على الحِرمان المدلول عليه بالطرد والرجم. وكذا مقام الإنظار مقتضٍ لترتيب الإخبار بالإنظار على الاستنظار. وقد طُبّق الكلام عليه في تَيْنِك السورتين، ووُفّيَ كلُّ واحد مِن مقامَي الحكاية والمَحكي جميعًا حظَّه. وأمّا ههنا، فحيث

---

[١] ذكره البيضاوي بصيغة التمريض في أنوار التنزيل، ٣/٧.

[٢] س: ما.

[٣] م - تعالى.

اقتضى مقامُ الحكاية مجرّدَ الإخبار بالاستنظار والإنظار، سِيقت الحكاية على نهج الإيجاز والاختصار مِن غير تعرّضٍ لبيان كيفيّة كلّ واحد منهما عند المخاطبة والحِوار.

/ **إن قلتَ**: فإذن لا يكون ذلك نقلًا للكلام على ما هو عليه، ولا مطابِقًا لمقتضى المقام؛ **قلنا**: الذي يجب اعتباره في نقل الكلام إنّما هو أصل معناه ونفسُ مدلوله الذي يفيده. وأمّا كيفيّة إفادته له، فليس ممّا يجب مراعاته عند النقل البتّة؛ بل قد تُراعَى، وقد لا تُراعَى حسب اقتضاء المقام. ولا يقدح في أصل الكلام تجريده عنها؛ بل قد يُراعَى عند نقله كيفيّات وخصوصيّات لم يُراعِها المتكلِّمُ أصلًا. ولا يُخلّ ذلك بكون المنقول أصلَ المعنى. ألا يُرى أنّ جميع المقالات المنقولة في القرآن الكريم إنّما تُحكَى بكيفيّات واعتباراتٍ لا يكاد يقدر على مراعاتها مَن تكلَّم بها حتمًا؛ وإلّا لَأمكن صدورُ الكلام المعجِز عن البشر فيما إذا كان المَحكيُّ كلامًا. [٢٩٦و]

وأمّا عدم مطابقته لمقتضى الحال، فمَنشؤه الغفلة عمّا يجب توفير مقتضاه مِن الأحوال، فإنّ ملاك الأمر هو مقام الحكاية. وأمّا مقام وقوع المَحكيّ، فإن كان مقتضاه موافِقًا لمقتضى مقام الحكاية، يُوفَّى كلّ واحد مِن المقامَين حقَّه كما في سورة الحِجر وسورة ص، فإنّ مقام الحكاية فيهما لمّا كان مقتضيًا لبسط الكلام وتفصيلِه على الكيفيّات التي وقع عليها، رُوعِي حقّ المقامين معًا. وأمّا في هذه السورة الكريمة، فحيث اقتضى مقامُ الحكاية الإيجازَ، رُوعِي جانبه.

ألا يُرى أنّ المخاطَب المنكِرَ إذا كان ممّن لا يفهم إلّا أصل المعنى، وجب على المتكلِّم أن يجرِّد كلامَه عن التأكيد وسائرِ الخواصّ والمزايا التي يقتضيها المقام، ويخاطِبَه بما يناسبه مِن الوجوه، لكنّه مع ذلك يجب أن يقصد معنًى زائدًا يفهمه سامعٌ آخرُ بليغٌ -هو تجريده عن الخواصّ- رعايةً لمقتضى حال المخاطَب في الفهم. / وبذلك يرتقي كلامُه عن رتبة أصوات الحيوانات كما حُقّق في مقامه. فإذا وجب مراعاة مقام الحكاية مع إفضائها إلى تجريد الكلام عن الخواصّ والمزايا بالمرّة، فما ظنُّك بوجوب مراعاته مع تحلية الكلام [٢٩٦ظ]

بمزايا أُخَرَ يرتقي بها إلى رتبة الإعجاز، لاسيّما إذا وُفّي حقّ مقام وقوع المَحكي في السورتين الكريمتين، وكان هذا الإيجازُ مبنيًا عليه وثقةً به؟

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كأمثاله. ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ "الباء" للقَسم كما في قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص، ٨٢/٣٨]، فإنّ إغواءه تعالى إيّاه[١] أثرٌ مِن آثار قدرته وعزّته وحُكمٌ مِن أحكام سلطانه تعالى، فمآل الإقسام بهما واحد؛ فلعلّ اللّعينَ أقسَمَ بهما جميعًا، فحُكي تارةً قَسَمه بأحدهما وأخرى بالآخر. و"الفاء" لترتيب مضمون الجملة على الإنظار، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: فأُقسِم بإغوائك إيّايَ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾، أو للسببيّة على أنّ "الباء" متعلّقة بفعل القَسم المحذوف، لا بقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ كما في الوجه الأوّل، فإنّ "اللام" تصدّ عن ذلك، أي: فبسبب إغوائك إيّايَ لأجلهم أُقسِم بعزّتك[٢] لَأقعُدنّ لآدمَ وذُرّيّته ترصّدًا بهم، كما يقعُد القُطّاع للقطع على السابلة.[٣]

﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الموصِلَ إلى الجنّة. وهو دين الإسلام، فالقُعود مجاز متفرّعٌ على الكناية. وانتصابه على الظرفيّة كما في قوله:

كـمـا عَـسَــلَ الـطـريـقَ الـثّـعـلَـبُ[٤]

وقيل: على نزع الجارّ، تقديره: على صراطك، كقولك: "ضُرب زيد الظهرَ والبطنَ".

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ١٧﴾

---

١ وفي هامش م: أي: خلق الإغواءِ فيه. «منه».

٢ وفي هامش م: كما في سورة ص، فحُذف ههنا إيجازًا. «منه».

٣ السابلة: المختلفون في الطُّرُقات لحوائجهم. أساس البلاغة للزمخشري، «سبل».

٤ البيت لساعدة بن جُؤَيّة الهُذلي في كتاب سيبويه، ٣٥/١؛ ولسان العرب لابن منظور، «عسل»؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٨٣/٣؛ وتاج العروس للزبيدي، «عسل». وصدره:

لَـدْنٌ بـهَـزِ الكَـفّ يَعسِـل متنُه فـيـه...

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ أي: مِن الجهات الأربع التي يعتاد هجوم العدوّ منها. مُثّل قصده إيّاهم للتسويل والإضلال مِن أيّ وجهٍ يتيسّر / بإتيان العدوّ مِن الجهات الأربع؛ ولذلك لم يُذكَر الفوق والتحت. [٢٩٧و]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: مِن قِبل الآخرة، و﴿مِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: مِن جهة الدنيا، و﴿عَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: مِن جهة حسناتهم وسيّئاتهم».[١] وقيل: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: مِن حيث يعلمون ويقدرون على التحرّز عنه، و﴿مِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: مِن حيث لا يعلمون ولا يقدرون، و﴿عَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: مِن حيث يتيسّر لهم أن يعلموا ويتحرّزوا -ولكن لم يفعلوا لعدم تيقّظهم واحتياطِهم- ومن حيث لا يتيسّر لهم ذلك.[٢]

وإنّما عُدّي الفعل إلى الأوّلَين بحرف الابتداء؛ لأنّه منهما متوجّهٌ إليهم، وإلى الآخِرَين بحرف المجاوزة، فإنّ الآتيَ منهما كالمنحرف المتجافي عنهم المارِّ على عرضهم؛ ونظيرُه: "جلستُ عن يمينه".

﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ أي: مُطيعين. وإنّما قاله ظنًّا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ، ٢٠/٣٤]، لِما رأى منهم مَبدَأ الشرّ متعدّدًا ومَبدَأ الخير واحدًا. وقيل: سمعه مِن الملائكة عليهم السلام.

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف مرارًا. ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي: مِن الجنّة، أو مِن السماء، أو مِن بين الملائكة عليهم السلام. ﴿مَذۡءُومٗا﴾ أي: مذمومًا. مِن "ذَأَمَه" إذا ذمَّه. وقُرئ: "مَذُومًا"،[٣] كـ"مَسُول" في "مَسْئُول"، أو كـ"مَكُول" في "مَكِيل"، مِن "ذامه يَذيمه ذَيْمًا". ﴿مَّدۡحُورٗا﴾ مطرودًا.

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧/٣-٨. ونحوه عنه رضي الله عنهما في اللباب لابن عادل، ٤٥/٩. وقد رُوي عنه في تأويل ذلك خلافُ هذا التأويل؛ انظر: جامع البيان للطبري، ٩٦/١٠-٩٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٨/٣.

[٢] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨/٣.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري وأبي جعفر والأعمش. المحتسب لابن جنّي، ٢٤٣/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٣/٥.

﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ "اللام" موطِّئة للقَسم، وجوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وهو سادٌّ مسدَّ جواب الشرط. وقُرئ: "لِمَنْ تَبِعَكَ"[١] بكسر اللام، على أنّه خبرُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ على معنى: "لِمَن تَبِعَك هذا الوعيدُ"، أو علّةٌ لـ﴿ٱخْرُجْ﴾، / و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ [٢٩٧ظ] جوابُ قَسم محذوف. ومعنى ﴿مِنكُمْ﴾: منك ومنهم، على تغليب المخاطَب.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ أي: وقلنا، كما وقع في سورة البقرة.[٢] وتصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلقّي المأمور به. وتخصيص الخطاب به عليه السلام للإيذان بأصالته في تلقّي الوحي وتَعاطي المأمور به. ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ هو مِن السُّكنى الذي هو عبارة عن اللبث والاستقرار والإقامةِ، لا مِن "السُّكون" الذي هو ضِدّ الحركة. و﴿أَنتَ﴾ ضميرٌ أُكِّد به المستكنّ في ﴿ٱسْكُنْ﴾ ليصحَّ العطف عليه.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ لبيان المراد ممّا في سورة البقرة مِن قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة، ٣٥/٢] مِن أنّ ذلك كان جمعًا مع الترتيب.[٣] وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ في معنى: منها حيث شئتما.

ولم يُذكر ههنا ﴿رَغَدًا﴾ ثقةً بما ذُكر هناك. وتوجيه الخطاب إليهما لتعميم التشريف والإيذانِ بتساويهما في مباشرة المأمور به؛ فإنّ حوّاءَ أُسْوة له عليه السلام في حقّ الأكل، بخلاف السُّكنى، فإنّها تابعة له فيه، ولتعليق النهي بها صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾. وقُرئ: "هٰذِي"،[٤] وهو الأصل لتصغيره على "ذَيّا"، والهاء بدل مِن الياء. ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إمّا جزم على العطف، أو نصب على الجواب.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري، وعن عصمة عن أبي بكر عن عاصم. **الكشّاف** للزمخشري، ٩٤/٢؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٤/٥. ولم يذكرها ابن الجزري في **النشر** عن عاصم.

[٢] البقرة، ٣٥/٢.

[٣] وفي هامش م: أي: بين السُّكنى والأكل. «منه».

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٤.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: فعل الوسوسةَ لأجلهما، / أو تكلَّمَ لهما كلامًا خفيًّا متداركًا متكرّرًا. وهي في الأصل: الصوت الخفي كالهَيْنَمة والخَشْخَشَة. ومنه "وَسْوَسَ الحُلِيُّ". وقد سبق بيان كيفيّة وسوسته في سورة البقرة.[1] [٢٩٨و]

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي: ليُظهِر لهما. و"اللام" للعاقبة، أو للغرض على أنّه أراد بوسوسته أن يسُوءَهما بانكشاف عَوْرتَيهما؛ ولذلك عُبّر عنهما[2] بـ"السَّوْأة". وفيه دليل على أنّ كشف العَوْرة في الخَلْوة وعند الزوج مِن غير حاجة قبيحٌ مستهجَنٌ في الطِّباع.

﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ما غُطّي وسُتر عنهما مِن عَوْراتهما. وكانا لا يَرَيانِها مِن أنفسهما، ولا أحدُهما مِن الآخر. وإنّما لم يُقلَب الواو المضمومة همزةً في المشهورة كما قُلبتْ في "أُوَيْصِل" تصغيرِ "واصِل"؛ لأنّ الثانية مَدّة. وقُرئ: "سَوَاتِهِمَا" بحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على الواو،[3] وبقلبها واوًا وإدغام الواو الساكنة فيها.[4]

﴿وَقَالَ﴾ عطفٌ على ﴿وَسْوَسَ﴾ بطريق البيان. ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: عن أكلها ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي: إلّا كراهةَ أن تكونا مَلكَين، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الذين لا يموتون، أو يخلدون في الجنّة. وليس فيه دلالة على أفضليّة الملائكة لِما أنّ مِن المعلوم أنّ الحقائق لا تنقلب، وإنّما كانت رغبتُهما في أن يحصل لهما أوصاف الملائكة مِن الكمالات الفِطريّة والاستغناءِ عن الأطعمة والأشربة، وذلك بمَعزِل / مِن الدلالة على الأفضليّة بالمعنى المتنازَع فيه. [٢٩٨ظ]

---

[1] انظر: تفسير البقرة، ٣٦/٢.
[2] أي: عن عَورتَيهما.
[3] قراءة شاذّة. ذكرها أبو حيّان بلا نسبة في **البحر المحيط**، ٢٥/٥.
[4] أي: "سَوَّاتِهِمَا"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح والزهري. انظر: **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٣/١؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٥/٥.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: أقسَمَ لهما. وصيغة المغالبة للمبالغة. وقيل: أقسَمَا له بالقَبول. وقيل: قالا له: «أتُقسِم بالله أنّك لَمِن الناصحين؟»، وأقسَمَ لهما، فجُعل ذلك مقاسمةً.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٢﴾

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزّلهما على الأكل مِن الشجرة. وفيه تنبيه على أنّه أهبطهما بذلك مِن درجة عالية، فإنّ التّذلية والإدلاءَ إرسالُ الشيء مِن الأعلى إلى الأسفل. ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرَّهما به مِن القَسَم، فإنّهما ظنّا أنّ أحدًا لا يُقسِم بالله كاذبًا، أو ملتبسَين بغرور.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: فلمّا وجدَا طعْمَها آخِذَين في الأكل منها، أخذتْهما العقوبة وشؤمُ المعصية، فتهافَتَ عنهما لِباسُهما، وظهرت لهما عَوْراتهما. واختُلف في أنّ الشجرة كانت السُّنْبلةَ أو الكَرْمَ أو غيرَهما، وأنّ اللباسَ كان نورًا أو ظُفْرًا. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ "طَفِقَ" مِن أفعال الشروع والتلبّس، كـ"أخَذَ" و"جعَلَ" و"أنشأ" و"عَلِق" و"هَبَّ" و"انبَرَى"، أي: أخذَا يرقعان ويلزقان ورقةً فوق ورقةٍ ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قيل: كان ذلك ورقَ التِّين. وقُرئ: "يُخْصِفَانِ"[1] مِن "أخصَفَ"، أي: يُخصفان أنفسَهما، و"يُخَصِّفَانِ"[2] مِن "التخصيف"، و"يَخِصِّفَانِ"،[3] أصله: يختصفان.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ مالك أمرِهما بطريق العتاب والتوبيخ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري بخلاف عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢٤٥/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن بُريدة والحسن والزهري والأعرج بخلاف عنهم. المحتسب لابن جنّي، ٢٤٥/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج بخلاف عنهما. المحتسب لابن جنّي، ٢٤٥/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٤.

وهو تفسير للنداء، فلا محلّ له مِن الإعراب، أو معمولٌ لقولٍ محذوفٍ، أي: وقال أو قائلًا: ألم أنهكما /﴿عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ ما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد لِما أنّه إشارة إلى الشجرة التي نُهي عن قُربانها. ﴿وَأَقُل لَّكُمَا﴾ عطف على ﴿أَنْهَكُمَا﴾، أي: ألم أقل لكما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدوّ، كما أنّ الأوّل عتاب على مخالفة النهي. قيل: فيه دليل على أنّ مطلَق النهي للتحريم. [٢٩٩و]

و﴿لَكُمَا﴾ متعلِّق بـ﴿عَدُوٌّ﴾ لِما فيه مِن معنى الفعل، أو بمحذوفٍ هو حال مِن ﴿عَدُوٌّ﴾. ولم يُحكَ هذا القولُ ههنا، وقد حُكي في سورة طه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه، ١١٧/٢٠].

رُوي أنّه تعالى قال لآدمَ: «ألم تكن فيما منحتُك مِن شجر الجنّة مَنْدُوحةٌ عن هذه الشجرة؟»، فقال: «بلى وعزّتِك، ولكنْ ما ظننتُ أنّ أحدًا مِن خلقك يَحلِف بك كاذبًا»، قال: «فبعِزّتي، لأُهبِطنَّك إلى الأرض، ثمّ لا تَنال العَيشَ إلّا كدًّا»، فأُهبطَ، وعُلّم صنعةَ الحديد، وأُمر بالحَرْث، فحرَثَ وسقَى وحصَد وداسَ وذرَّى وعجَن وخبَز.[١]

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ أي: ضرَرْناها بالمعصية والتعريضِ للإخراج مِن الجنّة. ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ذلك ﴿وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وهو دليل على أنّ الصغائر يعاقَب عليها إن لم تُغفَر. وقالت المعتزلة: لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر؛ ولذلك حملوا قولَهما ذلك على عادات المقرَّبين في استعظام الصغير مِن السيّئات واستصغارِ العظيم مِن الحسنات.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

/ ﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ مرارًا. ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ خطاب لآدمَ وحوّاءَ وذُرّيّتِهما، [٢٩٩ظ]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٩٦/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٨/٥. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في جامع البيان للطبري، ١١١/١٠-١١٢.

أو لهما ولإبليسَ؛ كُرّر الأمر له[١] تبعًا لهما ليعلمَ أنّهم قُرَناءُ أبدًا، أو أخبر عمّا قال لهم مفرَّقًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]. ولم يُذكر ههنا قبول توبتهما ثقةً بما ذُكر في سائر المواضع. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ جملة حاليّة مِن فاعل ﴿ٱهْبِطُوا﴾، أي: مُتعادِين. ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: استقرار أو موضعُ استقرار، ﴿وَمَتَـٰعٌ﴾ أي: تمتّعٌ وانتفاع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ هو حينُ انقضاء آجالكم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أعيدَ الاستئناف، إمّا للإيذان بعدم اتّصالِ ما بعده بما قبله كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر، ٥٧/١٥] إثرَ قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر، ٥٦/١٥]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء، ٦٢/١٧] بعد قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء، ٦١/١٧]؛ وإمّا لإظهار الاعتناء بمضمونِ ما بعده مِن قوله تعالى:[٢] ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي: للجزاء، كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه، ٥٥/٢٠].

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ خطاب للناس كافّةً. وإيرادهم بهذا العنوان ممّا لا يخفى سرّه. ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي: خلقناه لكم بتدبيرات سماويّة وأسباب نازلة منها. ونظيره: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾... إلخ [الزمر، ٦/٣٩]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد، ٢٥/٥٧]. ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ التي قصد إبليسُ إبداءَها مِن أبَوَيكم حتّى اضطُرّا[٣] إلى خَصْف الأوراق، وأنتم مستَغْنون عن ذلك. ورُوي / أنّ العرب كانوا يطوفون بالبيت عُريانًا ويقولون: «لا نطوف بثِيابٍ [٣٠٠و]

---

١ أي: لإبليس.
٢ م - تعالى.
٣ س: اضطرّوا.

عصينا اللهَ تعالى فيها»»، فنزلت.[١] ولعلّ ذكرَ قصّة آدمَ حينئذ للإيذان بأنّ انكشاف العَوْرة أوّلُ سوءٍ أصاب الإنسانَ مِن قِبل الشيطان، وأنّه أغواهم في ذلك كما أغوى أبَوَيهم. ﴿وَرِيشًا﴾ ولباسًا تتجمّلون به. والرِّيش: الجمال. وقيل: مالًا، ومنه: "تريَّشَ الرجلُ"، أي: تموّل. وقُرئ: "رِيَاشًا"،[٢] وهو جمعُ "رِيش"، كـ"شِعْب" و"شِعاب".

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: خشية الله تعالى، وقيل: الإيمان، وقيل: السَّمْت الحسن، وقيل: لباس الحرب. ورفعُه بالابتداء، خبرُه جملةُ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، أو ﴿خَيْرٌ﴾، و﴿ذَٰلِكَ﴾ صفته، كأنّه قيل: ولباس التقوى المشارُ إليه خيرٌ. وقُرئ: "وَلِبَاسَ التَّقْوَى"[٣] بالنصب عطفًا على ﴿لِبَاسًا﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إنزال اللباس ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دالّةٌ على عظيم فضله وعميمِ رحمته؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفون نعمته، أو يتّعِظون فيتورّعون عن القبائح.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ تكرير النداء للإيذان بكمال الاعتناء بمضمون ما صُدّر به. وإيرادهم بهذا العنوان ممّا لا يخفى سببه. ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لا يُوقِعنّكم في الفتنة والمِحنة بأن يمنعكم مِن دخول الجنّة. ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ نعتٌ لمصدر محذوف، أي: لا يفتِننّكم فتنةً مثلَ إخراج أبويكم. وقد جُوّز أن يكون التقدير: لا يُخرِجَنّكم بفتنته إخراجًا مثلَ إخراجه لأبويكم. والنهي، وإن كان متوجِّهًا إلى الشيطان، لكنّه في الحقيقة / متوجِّهٌ إلى المخاطَبين، [٣٠٠ظ]

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ١٠/١٢٠-١٢١؛ واللباب لابن عادل، ٩/٨٧-٨٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعن ابن عبّاس والحسن وزِرّ بن حبيش وزيد بن عليّ والمفضّل عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٤. ورواية المفضّل غير القراءة المشهورة عن عاصم.

٣ قرأ بها نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٨.

كما[١] في قولك: "لا أُرَيَنَّك ههنا". وقد مرّ تحقيقه مرارًا. ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ حال مِن ﴿أَبَوَيْكُم﴾، أو مِن فاعل ﴿أَخْرَجَ﴾. وإسناد النَّزْع إليه للتسبيب. وصيغة المضارع لاستحضار الصورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أي: جنوده وذُرّيّته، استئنافٌ لتعليل النهي وتأكيدِ التحذير منه. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ لابتداء غاية الرؤية، و﴿حَيْثُ﴾ ظرفٌ لمكان انتفاء الرؤية، و﴿لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ في محلّ الجرّ بإضافة الظرف إليه. ورُؤيتهم لنا مِن حيث لا نراهم لا يقتضي امتناعَ رؤيتنا لهم مطلَقًا واستحالةَ تمثّلهم لنا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ جُعل قَبيلُه مِن جملته، فجُمع. ﴿أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: جعلناهم بما أوجدنا بينهم مِن المناسبة أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم مِن إغوائهم وحملِهم على ما سوّلوا لهم أولياءَ -أي: قُرناءَ- مسلّطين عليهم. والجملة تعليلٌ آخرُ للنهي وتأكيدٌ للتحذير إثرَ تحذير.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ جملة مبتدأة، لا محلَّ لها مِن الإعراب. وقد جُوّز عطفها على الصلة. والفاحشة: الفعلة المتناهية في القُبح. و"التاء" لأنّها مُجراة على الموصوف المؤنَّث، أو للنقل مِن الوصفيّة إلى الاسميّة. والمراد بها عبادة الأصنام وكشفُ العَورة في الطواف ونحوُهما.

﴿قَالُوا۟﴾ جوابًا للناهين عنها: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ مُحتجِّين بأمرَين: تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه. ولعلّ تقديمَ المقدَّم للإيذان منهم بأنّ آباءهم إنّما كانوا يفعلونها بأمر الله تعالى بها، على أنّ ضمير ﴿أَمَرَنَا﴾ لهم ولآبائهم؛ فحينئذ يظهر وجهُ الإعراض عن الأوّل في ردّ مقالتهم بقوله تعالى:

---

[١] وفي هامش م: أي: في كونه كنايةً فقط، لا في كونه نهيًا عن المسبَّب مرادًا به النهي عن السبب؛ كيف لا، وإنّه نهيٌ عن السبب مرادًا به النهي عن المسبَّب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان، ٣١/٣٣؛ فاطر، ٣٥/٥]. «منه».

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، / فإنّ عادته تعالى جارية على الأمر بمحاسن [٣٠١و] الأعمال والحثّ على مراضي الخِصال. ولا دلالةَ فيه على أنّ قُبح الفعل -بمعنى ترتّب الذمّ عليه عاجلًا والعقابِ آجلًا- عقليٌّ؛ فإنّ المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. وقيل: هما جوابَا سؤالَين مترتّبين، كأنّه قيل لمّا فعلوها: لِم فعلتم؟ فقالوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، فقيل: لِم فعلها آباؤكم؟ فقالوا: ﴿ٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾. وعلى الوجهين يُمنَع التقليد إذا قام الدليل بخلافه لا مطلقًا.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن تمام القول المأمور به. والهمزة لإنكار الواقع واستقباحِه. وتوجيه الإنكار والتوبيخ إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون[١] صدوره عنه تعالى -مع أنّ بعضهم يعلمون عدم صدوره عنه تعالى- مبالغة في إنكار تلك الصورة؛ فإنّ إسناد ما لم يُعلم صدوره عنه إليه تعالى إذا كان منكَرًا، فإسنادُ ما عُلم عدم صدوره عنه إليه عزّ وجلّ أشدُّ قُبحًا وأحقُّ بالإنكار.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ بيان للمأمور به إثرَ نفي ما أُسندَ أمره إليه تعالى مِن الأمور المَنهي عنها. والقِسط: العدل، وهو الوسط مِن كلّ شيء، المتجافي عن طرفَي الإفراط والتفريط. ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ وتَوجَّهوا إلى عبادته مستقيمين غيرَ عادلين إلى غيرها، أو أَقيموا وجوهَكم نحو القِبلة ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كلّ وقتِ سجود أو مكانِ سجود،[٢] وهو الصلاة، أو في أيّ مسجد حضرتْكم الصلاة عنده، ولا تؤخِّروها حتّى تعودوا إلى مساجدكم.

/ ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعةَ، فإنّ مَصيركم إليه [٣٠١ظ] بالآخرة. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أي: أنشأكم ابتداءً ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه بإعادته، فيجازيكم على أعمالكم. وإنّما شُبّه الإعادة بالإبداء تقريرًا لإمكانها والقدرةِ عليها. وقيل:

---

١ س: تعلمون.

٢ س: السجود.

كما بدأكم مِن التراب تعودون إليه. وقيل: حُفاةً عُراةً غُرْلًا تعودون إليه. وقيل: كما بدأكم مؤمنًا وكافرًا يُعيدكم.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفّقهم للإيمان، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ بمقتضى القضاء السابق التابعِ للمشيئة المَبنيّة على الحِكم البالغة. وانتصابه بفعل مُضمَر يفسّره ما بعده، أي: وخذل فريقًا. ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعليل لخِذلانه أو تحقيق لضلالتهم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيه دلالة على أنّ الكافر المخطِئ والمعانِدَ سواءٌ في استحقاق الذمّ، وللفارق أن يحمله على المقصِّر في النظر.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ أي: ثِيابَكم لمُواراة عَورتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: طوافٍ أو صلاةٍ. ومِن السنّة أن يأخذ الرجل أحسنَ هيئته للصلاة. وفيه دليل على وجوب سَتْر العَورة في الصلاة. ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ ممّا طاب لكم.[١] رُوي أنّ بني عامر كانوا في أيّام حَجّهم لا يأكلون الطعام إلّا قوتًا، ولا يأكلون دَسَمًا، يعظِّمون بذلك حجّتَهم، فهَمَّ المسلمون بمِثله، فنزلت.[٢]

﴿وَلَا تُسْرِفُواْ﴾ بتحريم الحلال، أو بالتعدّي إلى الحرام، أو بالإفراط في الطعام والشَّرَهِ عليه. / وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٣] «كُلْ ما شئتَ، والبَسْ ما شئتَ، ما أخطأتْك خَصْلتانِ: سَرَفٌ ومَخِيلة».[٤] وقال[٥] عليّ بن الحُسين [٣٠٢و]

---

١ وفي هامش م: فيه إشارة إلى أنّ حذف المفعول للتعميم. «منه».

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١١. وهو مع اختلاف بالزيادة في الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٢٢٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/١٠٠.

٣ م – رضي الله عنهما.

٤ مصنّف ابن أبي شيبة، ٥/١٧١ (٢٤٨٧٨). ورواه البخاري عنه تعليقًا في كتاب اللباس مِن صحيحه، ٧/١٤٠. وروى نحوه أحمد في مسنده، ١١/٢٩٤-٢٩٥ (٦٦٩٥)؛ وابن ماجة في سننه، ٤/٦٠٠ (٣٦٠٤)؛ والنسائي في سننه، ٥/٧٩ (٢٥٥٩)، مرفوعًا مِن حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

٥ س: فقال.

ابن واقِد:[1] «جمَعَ اللهُ الطبَّ في نِصف الآية، فقال: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾».[2] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي: لا يرتضي فعلَهم.

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ مِن الثِّياب وما يُتجمَّل به ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ مِن النبات كالقُطن والكتّان، والحيوانِ كالحرير والصُّوف، والمعادنِ كالدُّروع، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ أي: المُستلذّاتِ مِن المآكل والمشارب. وفيه دليل على أنّ الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجمّلات الإباحةُ؛ لأنّ الاستفهام في ﴿مَنۡ﴾ إنكاريّ.

﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالأصالة، والكفرة، وإن شاركوهم فيها، فبِالتَّبع. ﴿خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرُهم. وانتصابها على الحاليّة. وقُرئ بالرفع[3] على أنّه خبرٌ بعد خبرٍ. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: مثلَ هذا التفصيل نفصِّل سائرَ الأحكام لقوم يعلمون ما في تضاعيفها مِن المعاني الرائقة.

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ أي: ما تفاحَش قُبحه مِن الذنوب. وقيل: ما يتعلّق منها بالفروج. ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدل مِن ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، أي: جهْرَها وسِرَّها.

---

[1] هو عليّ بن الحُسين بن واقِد المَروزي، أبو الحسن (ت. ٢١١هـ/٨٢٦-٨٢٧م). الإمام، المحدّث. كان مولى الأمير فاتح خراسان عبد الله بن عامر القرشي. حدّث عن أبيه وأبي حمزة السُّكّري وسليم مولى الشعبي وهشام بن سعد المدني وخارجة بن مصعب وعبد الله بن عمر، وطبقتهم. وحدّث عنه إسحاق بن راهَويه ومحمود بن غَيلان وعليّ بن خَشْرَم ومحمّد بن عَقيل بن خُوَيلد ومحمّد بن رافع وأبو الدرداء عبد العزيز بن مُنيب، وآخرون. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٠/٢١١-٢١٢.

[2] معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٢٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١١. وانظر لقصّته: الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٢٣٠.

[3] أي: "خَالِصَةٌ". قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي: ما يوجب الإثمَ. وهو تعميم بعد تخصيص. وقيل: هو شُرب الخَمر. ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ أي: الظلمَ أو الكِبرَ. أُفردَ بالذِّكر للمبالغة في الزجر عنه. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱلْبَغْىَ﴾، مؤكِّدٌ له معنًى. ﴿وَأَن / تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ تهكّمٌ بالمشركين وتنبيهٌ على تحريم اتّباع ما لا يدلّ عليه برهان. ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته والافتراء عليه، كقولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف، ٢٨/٧]. وتوجيه التحريم إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون وقوعَه -لا ما يعلمون عدمَ وقوعه- قد مرّ سرُّه.[1] [٣٠٢ظ]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمَم المُهلَكة ﴿أَجَلٌ﴾ حدٌّ معيَّنٌ مِن الزمان مضروبٌ لمَهلِكهم. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ إن جُعل الضمير للأمم المدلول عليها بـ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾، فإظهار "الأجَل" مضافًا إليه لإفادة المعنى المقصود الذي هو بلوغ كلّ أمّة أجَلَها الخاصّ بها؛ ومَجيئُه إيّاها بواسطة اكتساب الأجَل بالإضافة عمومًا يفيده معنى الجمعيّة، كأنّه قيل: إذا جاءهم آجالهم بأن يجيء كلَّ واحدة مِن تلك الأمم أجلها الخاصُّ بها. وإن جُعل ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ خاصّةً كما هو الظاهر، فالإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير؛ والإضافةُ إلى الضمير لإفادة أكمل التمييز، أي: إذا جاءها أجلها الخاصُّ بها.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل ﴿سَاعَةً﴾ أي: شيئًا قليلًا مِن الزمان؛ فإنّها مَثلٌ في غاية القلّة منه، أي: لا يتأخّرون أصلًا. وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحِرمانهم عن ذلك مع طلبهم له. ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: ولا يتقدّمون عليه. وهو عطفٌ على ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾، لكنْ لا لبيان انتفاء التقدّم مع إمكانه في نفسه كالتأخّر؛ بل للمبالغة في انتفاء التأخّر بنظمه في سِلك المستحيل عقلًا، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ / وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء، ١٨/٤]؛ فإنّ مَن مات كافرًا [٣٠٣و]

---

[1] انظر: تفسير الأعراف، ٢٨/٧.

مع ظهورِ أنْ لا توبةَ له رأسًا، قد نُظم في عدم القبول في سِلك مَن سوّفها إلى حضور الموت، إيذانًا بتَساوي وجود التوبة حينئذ وعدمِها بالمرّة. وقيل: المراد بالمَجيء الدنوُّ بحيث يمكن التقدّمُ في الجملة، كمَجيء اليوم الذي ضُرب لهلاكهم ساعةٌ منه؛ وليس بذاك.

وتقديم بيان انتفاء الاستئخار لِما أنّ المقصود بالذات بيانُ عدم خلاصهم مِن العذاب. وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر، ٥/١٥؛ المؤمنون، ٤٣/٢٣] مِن سبقِ السَّبْق في الذكر، فلِما أنّ المراد هناك بيانُ سرّ تأخير إهلاكهم مع استحقاقهم له، حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر، ٣/١٥]، فالأهمُّ هناك بيانُ انتفاء السبق.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦﴾

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافّة الناس اهتمامًا بشأن ما في حيّزه. ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هي "إنْ" الشرطيّة، ضُمّت إليها "ما" لتأكيد معنى الشرط؛ ولذلك لزمت فعلَها النون الثقيلةُ أو الخفيفةُ. وفيه تنبيه على أنّ إرسال الرسل أمرٌ جائزٌ، لا واجبٌ عقلًا. ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الجارّ متعلِّق بمحذوفٍ هو صفة لـ﴿رُسُلٌ﴾، أي: كائنون مِن جنسكم. وقوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ صفة أخرى لـ﴿رُسُلٌ﴾، أي: يبيّنون لكم أحكامي وشرائعي.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ / جملة شرطيّة وقعت جوابًا للشرط، أي: فمن اتّقى منكم التكذيبَ وأصلح عمله، فلا خوفٌ... إلخ. وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: والذين كذّبوا منكم بآياتنا. وإيراد الاتّقاء في الأوّل للإيذان بأنّ مدار الفلاح ليس مجرّدَ عدم التكذيب؛ بل هو الاتّقاء [٣٠٣ظ]

والاجتناب عنه. وإدخال "الفاء" في الجزاء الأوّل دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحةِ في الوعيد.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ أي: تقوّلَ عليه تعالى ما لم يقُلْه، أو كذَّب ما قاله. أي: هو أظلمُ مِن كلّ ظالم. وقد مرّ تحقيقه مرارًا.[١] ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، والجمعُ باعتبار معناه، كما أنّ إفراد الفعلين باعتبار لفظه، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بتَماديهم في سوء الحال، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن الافتراء والتكذيب ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: ممّا كُتب لهم مِن الأرزاق والأعمار. وقيل: ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾: اللوح، أي: ما أُثبتَ لهم فيه. وأيًّا ما كان، فـ﴿مِنْ﴾ الابتدائيّة متعلّقة بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿نَصِيبُهُمْ﴾، أي: ينالهم نصيبهم كائنًا مِن الكتاب. وقيل: ﴿نَصِيبُهُمْ﴾: العذاب وسواد الوجه وزُرقة العيون. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كُتب لِمَن يفتري على الله سوادُ الوجه».[٢] قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ / كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر، ٣٩/٦٠]. [٣٠٤و]

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: مَلكُ الموت وأعوانُه، ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي: حالَ كونِهم مُتوفّين لأرواحهم، يؤيّد الأوّلَ؛ فإنّ ﴿حَتَّىٰ﴾، وإن كانت هي التي يُبتدَأ بها الكلام، لكنّها غايةٌ لِما قبلها، فلا بدَّ أن يكون نصيبُهم ممّا يتمتّعون بها إلى حين وفاتهم، أي: ينالهم نصيبهم مِن الكتاب إلى أن يأتيَهم ملائكة الموت، فإذا جاءتهم ﴿قَالُوٓا۟﴾ لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا؟ و﴿مَا﴾ وقعت موصولةً بـ﴿أَيْنَ﴾ في خطّ المصحف، وحقُّها الفصل؛ لأنّها موصولة.

---

[١] انظر: تفسير الأنعام، ٦/٢١.

[٢] اللباب لابن عادل، ٩/١٠٢-١٠٣. وهو باختلاف يسير عنه في جامع البيان للطبري، ١٠/١٧٤؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٣٦٥.

﴿قَالُوا﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكاية سؤال الرُّسل، كأنّه قيل: فماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: غابوا عنّا، أي: لا نَدري مكانهم. ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿قَالُوا﴾، أي: اعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ أي: في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾ عابدين لِما لا يستحقّ العبادةَ أصلًا، حيث شاهدوا حاله وضلاله.

ولعلّه أريدَ بوقت مَجيء الرسل وحالِ التوفّي الزمانُ الممتدُّ مِن ابتداء المَجيء والتوفّي إلى انتهائه يومَ الجزاء بناءً على تحقّق المَجيء والتوفّي في كلّ ذلك الزمان بقاءً، وإن كان حدوثُهما في أوّله فقط؛ أو قُصد بيان غاية سرعة وقوع البعث والجزاء، كأنّهما حاصلان عند ابتداء التوفّي، كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: «مَن مات، فقد قامت قيامتُه»؛[1] وإلّا فهذا السؤال والجوابُ وما ترتَّبَ عليهما مِن الأمر بدخول النار وما جرى بين أهلها مِن التلاعن والتقاولِ إنّما يكون بعد البعث لا محالةَ.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ يومَ القيامة بالذات أو بواسطة المَلك: ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: كائنين مِن جملة أمم مصاحبين لهم. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني: كفّار الأمم الماضية مِن النوعين. ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ متعلّقٌ بقوله: ﴿ٱدْخُلُوا﴾.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ مِن الأمم السابقة واللاحقةِ فيها[2] ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلّت بالاقتداء بها، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: تَداركوا / وتلاحقوا في النار، ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ دخولًا أو منزلةً، وهم الأتباع، ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي: لأجلهم؛ إذ الخطاب مع الله تعالى، لا معهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ سَنُّوا لنا الضلالَ فاقتدَيْنا بهم، [٣٠٤ظ]

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١٦/٢ (الأنعام، ٣١/٦)؛ اللباب لابن عادل، ١٠٣/٨ (الأنعام، ٣١/٦). وانظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٣٦/١-٤٣٧ (٤٤٥).

[2] س - فيها.

﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفًا ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لأنهم ضلّوا وأضلّوا. ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أمّا القادة، فلِما ذُكر مِن الضلال والإضلال. وأمّا الأتباع، فلكفرهم وتقليدِهم. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي: مالكم وما لِكلّ فريق مِن العذاب. وقُرئ بالياء.[١]

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ﴾ أي: مخاطِبين ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ حين سمعوا جوابَ الله تعالى لهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: فقد ثبت أنْ لا فضلَ لكم علينا،[٢] وإنّا وإيّاكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب، ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: العذاب المعهود المضاعفَ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ مِن قول القادة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ مع وضوحها ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ أي: عن الإيمان بها والعملِ بمقتضاها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا تُقبَل أدعِيتهم ولا أعمالهم، أو لا تعرُج إليها أرواحهم كما هو شأن أدعِية المؤمنين وأعمالهم وأرواحِهم. و"التاء" في ﴿تُفَتَّحُ﴾ لتأنيث "الأبواب"، والتشديدُ لكثرتها. وقُرئ بالتخفيف،[٣] وبالتخفيف والياء.[٤] وقُرئ على البناء للفاعل ونصبِ "الأبواب"[٥] على أنّ الفعل لـ"الآيات"، وبالياء[٦] على أنّه لله تعالى.

---

[١] قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

[٢] وفي هامش م: قوله: "أي: فقد ثبت أن لا فضل"، أي: بجواب الله تعالى -لا جوابهم- ثبت عدم فضل الأتباع على القادة.

[٣] أي: "لَا تُفْتَحُ". قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

[٤] أي: "لَا يُفْتَحُ". قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

[٥] أي: "لَا تَفْتَحُ لَهُم أَبْوَابَ السَّمَاءِ". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن اليزيدي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٦.

[٦] أي: "لَا يَفْتَحُ لَهُم أَبْوَابَ السَّمَاءِ". وهي قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/١٠٣.

/ ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي: حتّى يدخلَ ما هو مثلٌ في عِظَم الجِزم فيما هو عَلَمٌ في ضيق المسلَك، وهو ثُقبة الإبرة. وفي كون الجَمَل ممّا ليس مِن شأنه الوُلوج في سَمّ الإبرة مبالغةٌ في الاستبعاد. وقُرِئ: "الجُمَّلُ"[1] كـ"القُمَّل"، و"الجُمَلُ"[2] كـ"النُّغَر"، و"الجُمْلُ"[3] كـ"القُفْل"، و"الجُمُلُ"[4] كـ"النُّصُب"، و"الجَمْلُ"[5] كـ"الحَبْل"، وهو الحبل الغليظ مِن القُنب، وقيل: حبلُ السفينة، و"سُمّ"[6] بالضمّ والكسر. وقُرِئ: "فِي سَمِّ المِخْيَطِ"،[7] وهو الخِياط، أي: ما يُخاط به، كـ"الحِزام" و"المِحزَم". [٣٠٥و]

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: جنسَ المجرمين، وهم داخلون في زُمرتهم دخولًا أوّليًّا.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش مِن تحتهم. والتنوين للتفخيم. و﴿مِنْ﴾ تجريديّة. ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: أغطِية. والتنوين بدلٌ مِن الإعلال عند سيبويه، وللتصرّف عند غيره. وقُرِئ: "غَوَاشٌ"[8] على إلغاء المحذوف، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ [الرحمن، ٥٥/٢٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك الجزاء الشديد ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عُبّر عنهم بـ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[9] تارةً وبـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أخرى إشعارًا بأنّهم بتكذيبهم الآياتِ اتّصفوا بكلّ واحد

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير ومجاهد بخلاف عنهم، والشعبي وأبي العلاء بن الشِّخِّير وأبي رجاء. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٩/١.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير ومجاهد بخلاف عنهم، وعبد الكريم وحنظلة. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٩/١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير بخلاف عنهما. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٩/١.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٩/١.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٩/١.

[6] قراءتان شاذّتان. الأولى -أي: بالضمّ- مرويّة عن ابن سِيرين وأبي حياة وأبي السَّمّال، والثانية -أي: بالكسر- مرويّة عن أبي حياة أيضًا ويزيد بن قطيب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٦.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٧.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٧.

[9] في الآية السابقة.

مِن ذَينِك الوصفين القبيحين. وذكرُ الجُرم مع الحِرمان عن دخول الجنّة والظلمِ مع التعذيب بالنار للتنبيه على / أنّه أعظمُ الجرائم والجرائر. [٣٠٥ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٤٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بآياتنا، أو بكلّ ما يجب أن يُؤمَن به، فيدخل فيه الآيات دخولًا أوّليًا. وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمال الصالحةَ التي شُرعت بالآيات. وهذا بمقابلة الاستكبار عنها.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ اعتراض وُسّط بين المبتدأ الذي هو الموصول والخبرِ الذي هو جملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ للترغيب في اكتساب ما يؤدِّي إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله وتيسّرِ تحصيله. وقُرئ: "لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ".[١] واسمُ الإشارة مبتدأ، و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ خبرُه، والجملة خبرٌ للمبتدأ الأوّل؛ أو اسمُ الإشارة بدلٌ مِن المبتدأ الأوّل الذي هو الموصول، والخبرُ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل والشرف.

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ حال مِن ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾، وقد جُوّز كونه حالًا مِن ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ لاشتماله على ضميرها، والعامل معنى الإضافة أو اللام المقدَّرة؛ أو خبرٌ ثانٍ[٢] لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ على رأي مَن جوّزه.[٣] و﴿فِيهَا﴾ متعلِّق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ أي: نُخرِج مِن قلوبهم أسبابَ الغِلّ أو نطهّرها منه حتّى لا يكون بينهم إلّا التوادُّ. وصيغة الماضي للإيذان بتحقّقه وتقرّرِه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٧.

[٢] س - ثان.

[٣] وفي هامش م: أي: جُوّز كون الخبر الثاني جملةً كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٢٠]. «منه».

وعن عليّ رضي الله عنه: «إنّي لَأرجو أن أكون أنَا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم».[١] ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ / زيادة في لذّتهم وسرورهم. والجملة حال [٣٠٦و] مِن الضمير في ﴿صُدُورِهِم﴾، والعامل إمّا معنى الإضافة، وإمّا العامل في المضاف؛ أو حالٌ مِن فاعل ﴿نَزَعْنَا﴾، والعامل ﴿نَزَعْنَا﴾. وقيل: هي مستأنَفة للإخبار عن صفة أحوالهم.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: لِما جزاؤه هذا، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ أي: لهذا المطلَب الأعلى، أو لمطلبٍ مِن المطالب التي هذا مِن جملتها. ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ ووفّقنا له. و"اللام" لتأكيد النفي. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف ثقةً بدلالةِ ما قبله عليه. ومفعول ﴿نَهْتَدِىَ﴾ و﴿هَدَىٰنَا﴾ الثاني محذوفٌ لظهور المراد أو لإرادة التعميم كما أشيرَ إليه. والجملة مستأنَفة أو حاليّة. وقُرئ: "مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ"... إلخ[٢] بغير واو، على أنّها مبيِّنة ومفسِّرة للأولى.

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ جوابُ قَسمٍ مقدَّرٍ، قالوه تبجّحًا واغتباطًا بما نالوه وابتهاجًا بإيمانهم بما جاءت به[٣] الرسل عليهم السلام. و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إمّا للتعدية، فهي متعلِّقة بـ﴿جَآءَتْ﴾، أو للملابسة، فهي متعلِّقة بمقدَّرٍ وقع حالًا مِن "الرُّسُل"، أي: واللهِ لقد جاءوا بالحقّ، أو لقد جاءوا ملتبسين بالحقّ.

﴿وَنُودُوٓا۟﴾ أي: نادتهم الملائكة عليهم السلام: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ ﴿أَنْ﴾ مفسِّرة لِما في النداء مِن معنى القول، أو مخفَّفة مِن "أنّ"، وضميرُ الشأن محذوف. ومعنى البُعد في اسم الإشارة إمّا لأنّهم نُودُوا عند رؤيتهم إيّاها مِن مكان بعيد، وإمّا لرفع منزلتها / وبُعدِ رتبتها، وإمّا للإشعار بأنّها تلك الجنّة [٣٠٦ظ] التي وُعدوها في الدنيا. ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال الصالحة، أي: أُعطِيتُموها بسبب أعمالكم أو بمقابلة أعمالكم. والجملة حال مِن ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾، والعامل معنى الإشارة على أنّ ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ؛ أو ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ صفةٌ، والخبرُ ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾.

---

[١] مصنّف ابن أبي شيبة، ٥٤٤/٧ (٣٧٨٢١)؛ جامع البيان للطبري، ١٩٩/١٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٩/٣-٢٣٠.

[٢] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.

[٣] س: بما جاءتهم به.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ تبجّحًا بحالهم وشماتةً بأصحاب النار وتحسيرًا لهم، لا لمجرّد الإخبار بحالهم والاستخبارِ عن حال مخاطَبيهم: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ حيث نِلْنا هذا المنال الجليلَ، ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾ حذف المفعول مِن الفعل الثاني إسقاطًا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد، وقيل: لأنّ ما ساءهم مِن الموعود لم يكن بأسره مخصوصًا بهم وعدُه كالبعث والحساب ونعيمِ أهل الجنّة، فإنّهم قد وجدوا جميع ذلك حقًّا، وإن لم يكن وعدُه مخصوصًا بهم.

﴿قَالُواْ نَعَمۡ﴾ أي: وجدناه حقًّا. وقُرئ بكسر العين،[1] وهي لغة فيه. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ﴾ قيل: هو صاحبُ الصُّورِ. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بين الفريقين: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بـ"أنْ" المخففة أو المفسِّرةِ. وقُرئ: بـ"أنَّ" المشدَّدةِ ونصبِ ﴿لَعۡنَةُ﴾.[2] وقُرئ: "إِنَّ"[3] بكسر الهمزة على إرادة القول أو إجراءِ ﴿أَذَّنَ﴾ مُجرى "قال".

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة مقرِّرة لـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أو رفعٌ على الذمّ، أو نصبٌ عليه. ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: يَبغُون لها عِوَجًا بأن يصفوها بالزَّيْغ والمَيل عن الحقّ، وهي[4] أبعدُ شيء منهما. والعوَج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم يكن منتصبًا، وبالفتح ما كان في المنتصب كالرُّمح والحائط. ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ / كَٰفِرُونَ﴾ غيرُ معترِفين. [٣٠٧و]

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾

---

[1] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

[2] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي. واختلف عن ابن كثير في رواية قُنبل عنه. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٨١-٢٨٢؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٧.

[4] س: وهو.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين الفريقين، كقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد، ٥٧/١٣]، أو بين الجنّة والنار ليمنعَ وصول أثر إحداهما إلى الأخرى. ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي: على أعراف الحجاب وأعالِيه. وهو السُّور المضروب بينهما، جمعُ "عُرْف"، مستعار مِن "عُرْف الفَرَس". وقيل: العُرف ما ارتفع مِن الشيء، فإنّه بظهوره أعرفُ مِن غيره.

﴿رِجَالٌ﴾ طائفة مِن الموحِّدين قَصّروا في العمل، فيجلسون بين الجنّة والنار حتّى يقضيَ الله تعالى فيهم ما يشاء. وقيل: قومٌ عَلَت درجاتهم كالأنبياء والشهداء والأخيار والعلماء مِن المؤمنين، أو ملائكةٌ يُرَون في صُوَر الرجال. ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ مِن أهل الجنّة وأهل النار ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها كبَياض الوجه وسوادِه. "فِعْلَا" مِن "سامَ إبِلَه" إذا أرسلها في المَرعى مُعلَمةً، أو مِن "وَسَم" بالقلب، كـ"الجاه" مِن "الوجه". وإنّما يعرفون ذلك بالإلهام أو بتعليم الملائكة.

﴿وَنَادَوْا﴾ أي: رجالُ الأعراف ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ حين رأوهم: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق الدعاء والتحيّة، أو بطريق الإخبار بنجاتهم مِن المَكاره. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ حال مِن فاعل ﴿نَادَوْا﴾ أو مِن مفعوله. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَدْخُلُوهَا﴾، أي: نادَوْهم وهم لم يدخلوها حالَ كونهم طامعين في دخولها مترقّبين له، أي: لم يدخلوها وهم في وقت عدم الدخول طامعون.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

[٣٠٧ظ] / ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى جهتهم. وفي عدم التعرّض لتعلّق أنظارهم بأصحاب الجنّة والتعبيرِ عن تعلّق أبصارهم بأصحاب النار بالصَّرْف إشعارٌ بأنّ التعلّق الأوّل بطريق الرغبة والمَيل، والثاني بخلافه. ﴿قَالُوا﴾ متعوّذين بالله تعالى مِن سُوء حالهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: في النار. وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ مِن العذاب وسوءِ الحال الذي هو الموجِب للدعاء إشعارٌ بأنّ المحذور عندهم ليس نفيَ العذاب فقط؛ بل مع ما يوجبه ويؤدّي إليه مِن الظلم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩﴾

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ كُرّر ذكرهم مع كفاية الإضمار لزيادة التقرير. ﴿رِجَالٗا﴾ مِن رؤساء الكفّار حين رأَوْهم فيما بين أصحاب النار. ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ الدالّةِ على سُوء حالهم يومئذ، وعلى رياستهم في الدنيا. ﴿قَالُواْ﴾ بدل مِن ﴿نَادَىٰ﴾. ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ﴾ إمّا استفهاميّة للتوبيخ والتقريع، أو نافية. ﴿جَمۡعُكُمۡ﴾ أي: أتباعكم وأشياعكم أو جمعُكم للمال. ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: ما أغنى عنكم جمعُكم واستكباركم المستمرُّ عن قبول الحقّ، أو على الخَلْق، وهو الأنسب بما بعده. وقُرئ: "تَسۡتَكۡثِرُونَ"[١] مِن الكثرة، أي: مِن الأموال والجنود.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ مِن تتمّة قولهم للرِّجال. والإشارة إلى ضُعفاء المؤمنين الذين كانت الكَفَرة يحتقرونهم في الدنيا، ويحلِفون صريحًا أنّهم لا يدخلون الجنّة، أو يفعلون ما يُنبئ عن ذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم / مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٤]. [٣٠٨و]

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى أولئك المذكورين، أي: ادخُلوا الجنّة على رغم أنوفهم. ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ بعد هذا، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، أو قيل لأصحاب الأعراف: "ادخُلوا الجنّة بفضل الله تعالى" بعد أن حُبسوا وشاهدوا أحوال الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا.

والأظهر ألّا يكون المراد بـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ المقصِّرين في العمل؛ لأنّ هذه المقالاتِ وما تتفرّع هي عليه مِن المعرفة لا يَليق بمَن لم يتعيّن حاله بعدُ. وقيل: لمّا عيّروا أصحابَ النار أقسموا أنّ أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنّة، فقال الله تعالى أو الملائكة ردًّا عليهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾... إلخ. وقُرئ: "أُدۡخِلُوا"[٢]

---

[١] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في **الكشّاف**، ٢/١٠٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرِّف. **المحتسب** لابن جنّي، ١/٢٤٩.

و"دَخَلُوا"[١] على الاستئناف، وتقديره: دخلوا الجنّة مقولًا في حقّهم: لا خوفٌ عليكم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بعد أن استقرّ بكلٍّ مِن الفريقين القرارُ واطمأنّت به الدارُ: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ أي: صُبُّوه. وفيه دلالة على أنّ الجنّة فوق النار. ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مِن سائر الأشربة، ليُلائِمَ الإفاضة، أو مِن الأطعمة، على أنّ الإفاضة عبارة عن الإعطاء بكثرة. ﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف مبنيٌّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: منعهما منهم منعًا كلّيًا، فلا سبيلَ إلى ذلك قطعًا.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ كتحريم البَحيرة والسائبة ونحوهما والتصديةِ حولَ البيت، / واللَّهْو: صرفُ الهمّ إلى ما لا يحسن أن يُصرَف إليه. واللَّعِب: طلبُ الفرح بما لا يحسن أن يُطلَب. ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزخارفها العاجلة. ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمَنسي مِن عدم الاعتداد بهم وتركِهم في النار تركًا كلّيًا. و"الفاء" في ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ فصيحة. [٣٠٨ظ]

وقوله تعالى: ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ في محلّ النصب على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: ننساهم نِسيانًا مثلَ نسيانِهم لقاءَ يومهم هذا، حيث لم يُخطِروه ببالهم ولم يستعدّوا له. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ عطفٌ على ﴿مَا نَسُوا﴾، أي: وكما كانوا منكِرين بأنّها مِن عند الله تعالى إنكارًا مستمرًّا.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ أي: بيّنّا معانيَه مِن العقائد والأحكام والمواعظ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. المحتسب لابن جني، ٢٤٩/١.

والضمير للكفَرة قاطبةً، والمراد بـ"الكتاب" الجنسُ؛ أو للمعاصِرين منهم، و"الكتاب" هو القرآن. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال مِن فاعل ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾، أي: عالمين بوجه تفصيله حتّى جاء حكيمًا؛ أو مِن مفعوله، أي: مشتمِلًا على علم كثير. وقُرئ: "فضَّلْنَاهُ"،[١] أي: على سائر الكتب عالمين بفضله. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حال مِن المفعول. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المغتنِمون بآثاره[٢] المقتبسون مِن أنواره.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: ما ينتظر هؤلاء الكفَرةُ بعدم إيمانهم به إلّا ما يئُول إليه أمره مِن تبيّنِ صدقه بظهور ما أخبر به مِن الوعد والوعيد. ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوه تركَ المَنسي مِن قبل / إتيان تأويله: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: قد تبيَّن أنّهم قد جاءوا بالحقّ، ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ اليومَ ويدفعوا عنّا العذابَ، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أي: هل نُرَدّ إلى الدنيا. وقُرئ بالنصب[٣] عطفًا على ﴿فَيَشْفَعُوا﴾، أو لأنّ ﴿أَوْ﴾ بمعنى "إلى أنْ". فعلى الأوّل[٤] المسئول أحد الأمرين، إمّا الشفاعة لدفع العذاب، أو الردُّ إلى الدنيا؛ وعلى الثاني[٥] أن يكون لهم شفعاءُ، إمّا لأحد الأمرين،[٦] أو لأمر واحد،[٧] هو الردّ. ﴿فَنَعْمَلَ﴾ بالنصب على أنّه جواب الاستفهام الثاني. وقُرئ بالرفع،[٨] أي: فنحن نعمل. ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: في الدنيا. [٣٠٩و]

---

[١] قراءة شاذّة. ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٦٢/٥، ونسبها إلى ابن محيصِن وعاصم الجحدري.

[٢] وفي هامش م: متعلِّق بالاغتنام بتضمينه معنى الانتفاع. «منه».

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. المحتسب لابن جنّي، ٢٥١/١.

[٤] وفي هامش م: أي: الرفع. «منه».

[٥] وفي هامش م: أي: النصب. «منه».

[٦] وفي هامش م: على تقدير العطف على ﴿فَيَشْفَعُوا﴾. «منه».

[٧] وفي هامش م: على تقدير كون ﴿أَوْ﴾ بمعنى "إلى أنْ". «منه».

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٨.

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس مالهم إلى الكفر والمعاصي، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ظهر بطلانُ ما كانوا يفترونه مِن أنّ الأصنام شركاءُ لله تعالى وشفعاؤهم يومَ القيامة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ شروع في بيان مَبدَأ الفطرة إثرَ بيان معاد الكَفَرة، أي: إنّ خالقكم ومالككم الذي خلق الأجرام العُلويّة والسُّفليّة في ستّة أوقاتٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال، ١٦/٨]، أو في مقدار ستّة أيّامٍ، فإنّ المتعارَف أنّ اليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها، ولم تكن هي حينئذ. وفي خلق الأشياء مدرَّجًا مع القدرة على إبداعها دفعةً دليلٍ على الاختيار، واعتبارٌ للنُّظّار، وحثٌّ على التأنّي في الأمور.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: استوى أمرُه / واستولى. وعن أصحابنا أنّ الاستواء على العرش صفةٌ لله تعالى بلا كيفٍ، والمعنى: أنّه تعالى استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزَّهًا عن الاستقرار والتمكّن. والعرش: الجسم المحيط بسائر الأجسام، سُمّي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير المَلِك، فإنّ الأمور والتدابير تنزل منه، وقيل: المُلك. [٣٠٩ظ]

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يغطِّيه به. ولم يُذكَر العكس للعلم به، أو لأنّ اللفظ يحتملهما؛ ولذلك قُرئ بنصب ﴿ٱلَّيْلَ﴾ ورفعِ ﴿ٱلنَّهَارَ﴾.[١] وقُرئ بالتشديد[٢] للدلالة على التكرار. ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يعقُبه سريعًا كالطالب له، لا يفصل بينهما شيء. والحَثيث "فَعِيل" مِن "الحَثّ"، وهو صفةُ مصدر محذوف، أو حال

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد. المحتسب لابن جنّي، ٢٥٣/١.

[٢] أي: "يُغَشِّي". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

مِن الفاعل أو المفعول، بمعنى: حاثًا أو محثوثًا.[١] ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: خلقَهنّ حالَ كونهنّ مسخَّراتٍ بقضائه وتصريفه. وقُرئ كلُّها بالرفع[٢] على الابتداء والخبر.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فإنّه المُوجِد للكلّ والمتصرِّف فيه على الإطلاق. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: تعالى بالوحدانيّة في الألوهيّة، وتعظَّمَ بالتفرّد في الربوبيّة.

وتحقيق الآية الكريمة -والله أعلم- أنّ الكَفَرة كانوا متّخذين أربابًا، فبُيّن لهم أنّ المستحقّ للربوبيّة واحدٌ، هو الله تعالى؛ لأنّه الذي له الخلق والأمر، فإنّه تعالى خلَقَ العالَم على ترتيب قويم وتدبير حكيم، فأبدَعَ الأفلاك، ثمّ زيَّنها بالشمس والقمر والنجوم كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت، ١٢/٤١]، وعمَد إلى الأجرام السُّفليّة، فخلق جسمًا قابلًا للصُّوَر المتبدِّلة والهيئاتِ المختلفة، ثمّ قسمها بصُوَر[٣] نوعيّة متباينةِ / الآثار والأفعالِ، [٣١٠و] وأشار بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ[٤] ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت، ٩/٤١]، أي: ما في جهة السُّفْل في يومين، ثمّ أنشأ أنواعَ المواليد الثلاثة بتركيب موادّها أوّلًا وتصويرِها ثانيًا، كما قال بعد قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت، ٩/٤١]: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت، ١٠/٤١]، أي: مع اليومين الأوّلَين لِما فُصّل في سورة السجدة.[٥]

ثمّ لمّا تمَّ له عالَمُ المُلك عمَد إلى تدبيره، كالمَلِك الجالس على سريره، فدبَّر الأمر مِن السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكويرِ[٦] الليالي والأيّام، ثمّ صرَّح بما هو فَذْلكة التقرير ونتيجتُه، فقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثمّ أمَرَ بأن يدعوه مخلِصين متذلّلين، فقال:

---

١ س: حال مِن الفاعل بمعنى: حاثًا، أو مِن المفعول بمعنى: محثوثًا.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.

٣ س: بصورة.

٤ م: وخلق.

٥ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة، ٤/٣٢].

٦ س: وتكرير.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ الذي قد عرفتم شُئونه الجليلة ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ أي: ذَوِي تضرّعٍ وخُفيةٍ، فإنّ الإخفاء دليلُ الإخلاص.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي: لا يحبّ دعاءَ المجاوِزين لِما أُمروا به في كلّ شيء، فيدخل فيه الاعتداء في الدعاء دخولًا أوّليًّا. وقد نبّه به على أنّ الداعي يجب ألّا يطلب ما لا يَليق به كرُتبة الأنبياء والصُّعود إلى السماء. وقيل: هو الصِّياح في الدعاء والإسهاب فيه. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «سيكون قومٌ يَعتَدُون في الدعاء، وحسْبُ المَرْء أن يقول: اللّهمّ إنّي أسألك الجنّةَ وما قرَّب إليها مِن قولٍ وعملٍ، وأعوذُ بك مِن النار وما قرَّب إليها مِن قولٍ وعملٍ»، / ثمّ قرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.[١] [٣١٠ظ]

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ ببعث الأنبياء وشرعِ الأحكام، ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ أي: ذَوي خوفٍ نظرًا إلى قصور أعمالكم وعدمِ استحقاقكم، وطمَعٍ نظرًا إلى سَعة رحمته ووفورِ فضله وإحسانه.

﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في كلّ شيء. ومِن الإحسان في الدعاء أن يكون مقرونًا بالخوف والطمَع. وتذكير ﴿قَرِيبٞ﴾ لأنّ الرحمة بمعنى الرُّحْم، أو لأنّه صفة لمحذوف، أي: أمرٌ قريبٌ، أو على تشبيهه بـ"فَعِيل" الذي هو بمعنى مفعول، أو الذي هو مصدر كـ"النَّقيض" و"الصَّهِيل"، أو للفرق بين القريب مِن النسب والقريب مِن غيره، أو لاكتسابه التذكيرَ مِن المضاف إليه، كما أنّ المضاف يكتسي التأنيثَ مِن المضاف إليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾

---

[١] هو باختلاف يسير في مسند أحمد، ٧٩/٣-٨٠ (١٤٨٣)؛ والدعاء للطبراني، ص ٣٧ (٥٥). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ١١١/٢.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ عطفٌ على الجملة السابقة. وقُرئ: "الرِّيحَ".[١] ﴿بُشۡرًا﴾ تخفيفُ "بُشُر" جمعِ "بَشير"، أي مبشِّراتٍ. وقُرئ بفتح الباء[٢] على أنّه مصدر "بَشَره"، بمعنى: باشراتٍ أو للبِشارة. وقُرئ: "نُشُرًا"[٣] بالنون المضمومة جمع "نَشُور"، أي: ناشراتٍ، و"نَشْرًا"،[٤] على أنّه مصدر في موقع الحال، بمعنى: ناشراتٍ،[٥] أو مفعولٌ مطلقٌ، فإنّ الإرسال والنَّشر متقاربان. ﴿بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ قُدّامَ رحمتِه التي هي المطر، فإنّ الصَّبا تُثير السحابَ، والشَّمال تجمعه، والجَنوب تدُرّه، والدَّبُور تفرّقه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ﴾ أي: حملتْ. واشتقاقه مِن "القِلّة"، فإنّ المُقِلّ للشيء يستقلّه. ﴿سَحَابًا ثِقَالٗا﴾ بالماء. جمعه لأنّه بمعنى "السحائب". ﴿سُقۡنَٰهُ﴾ أي: السحابَ. وإفراد الضمير لإفراد اللفظ. / [٣١١و] ﴿لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ أي: لأجله ولمنفعته، أو لإحيائه، أو لسَقْيه. وقُرئ: "مَيْتٍ".[٦]

﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ أي: بالبلد أو بالسحاب أو بالسَّوق أو بالريح. والتذكير بتأويل المذكور. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾. ويحتمل أن يعود الضمير إلى ﴿ٱلۡمَآءَ﴾، وهو الظاهر. وإذا كان لـ"البلد"، فـ"الباء" للإلصاق في الأوّل، والظرفيّةِ في الثاني. وإذا كان لغيره، فهي للسببيّة. ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: مِن كلّ أنواعها.

﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ الإشارة إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميّت، أي: كما نُحييه بإحداث القوّة النامية فيه وتطريتِها بأنواع النبات والثمراتِ، نُخرِج الموتى مِن الأجداث ونُحييها بردّ النفوسِ إلى موادّ أبدانها بعد جمعِها

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣، ٢٦٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الرحمن بخلاف. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٥٥.

[٣] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

[٥] م ط س - ونشرًا على أنّه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات ["صح" في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[٦] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٤-٢٢٥، ٢٧٠.

وتطريتِها بالقُوى والحواسّ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بطرح إحدى التاءين، أي: تتذكّرون، فتعلمون أنّ مَن قدر على ذلك، قدر على هذا مِن غير شُبهة.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي: الأرض الكريمةُ التُّربةِ ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيئته وتيسيره. عبّر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارةِ نفعه؛ لأنّه أوقعه في مقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ مِن البلاد كالسَّبِخة والحرّة ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قليلًا عديمَ النفع. ونصبُه على الحال، والتقدير: والبلد الذي خبُثَ لا يخرُج نباته إلّا نكِدًا، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه، فصار مرفوعًا مستترًا. وقُرئ: "لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا"،[١] أي: لا يُخرج البلد إلّا نكِدًا. وقُرئ: "نَكَدًا"[٢] على المصدر، أي: ذا نكَدٍ، و"نَكْدًا"[٣] بالإسكان للتخفيف. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك التصريف البديعِ ﴿نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: نردّدها ونكرّرها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمةَ الله تعالى، / فيتفكّرون فيها، ويعتبرون بها. [٣١١ظ]

وهذا -كما ترى- مَثلٌ لإرسال الرسل عليهم السلام بالشرائع التي هي ماء حياة القلوب إلى المكلَّفين المنقسِمين إلى المقتبِسين مِن أنوارها والمحرومين مِن مَغانم آثارها. وقد عُقّب ذلك بما يحقّقه ويقرّره مِن قِصَص الأمَم الخالية بطريق الاستئناف، فقيل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وهو جوابُ قَسمٍ محذوفٍ، أي: واللهِ لقد أرسلنا... إلخ. واطّراد استعمال هذه "اللام" مع "قد" لكون مدخولها مَظِنّةً للتوقّع الذي هو معنى "قد"، فإنّ الجملة القَسَميّة إنّما تُساق لتأكيد الجملة المُقسَم عليها.

---

١ رواها الشطوي عن ابن هارون عن الفضل عن أصحابه عن ابن وردان. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠. وهي مرويّة عن ابن يعمر وابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٩.

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٩.

ونوحٌ هو ابنُ لَمَك بن مُتَوَشْلخ بن أُخنُوخ، وهو إدريسُ النبيّ عليهما السلام. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بُعث عليه السلام على رأس أربعين سنةً مِن عُمره، ولَبِث يدعو قومه تسعَمائةٍ وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان ستّين سنةً، وكان عُمره ألفًا وخمسين سنةً».[١] وقيل: عاش بعده[٢] مائتين وخمسين سنةً، فكان عمرُه ألفًا ومائتين وأربعين سنةً. وقال مقاتل: «بُعث وهو ابنُ مائةِ سنةٍ».[٣] وقيل: وهو ابن خمسين سنةً.[٤] وقيل: وهو ابن[٥] مئاتين وخمسين، ومكث يدعو قومَه تسعَمائةٍ وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنةً، فكان عمرُه ألفًا وأربعمائةٍ وخمسين سنةً.[٦]

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبُدوه وحدَه. وتركُ التقييد به للإيذان بأنّها العبادةُ حقيقةً. وأمّا العبادة بالإشراك، فليس مِن العبادة في شيء. وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أي: مِن مستحقّ للعبادة، استئنافٌ مَسوقٌ لتعليل العبادة المذكورة أو الأمرِ بها. و﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ بالرفع صفةٌ لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبار مَحلّه الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعليّة. وقُرئ بالجرّ[٧] باعتبار لفظه. وقُرئ بالنصب[٨] على الاستثناء. وحكمُ[٩] ﴿غَيۡر﴾ حكمُ الاسم الواقع بعد "إلّا"، أي: ما لكم مِن إلهٍ إلّا إيّاه، كقولك: "ما في الدار مِن أحدٍ إلّا زيدًا وغيرَ زيدٍ". فـ﴿مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾ إن جُعل مبتدأً، فـ﴿لَكُم﴾ خبرُه، أو خبرُه محذوفٌ، و﴿لَكُم﴾ للتخصيص والتبيين، أي: ما لكم في الوجود أو / في العالَم إله غير الله. [٣١٢و]

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: إن لم تعبدوه حسبما أمرتُ به ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هو يوم القيامة أو يوم الطوفان. والجملة تعليل للعبادة ببيان الصارف عن تركها

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٠ (هود، ١١/٢٦)؛ اللباب لابن عادل، ١٩/٤٦٧ (هود، ١١/٢٦).

[٢] س – ستّين سنةً، وكان عُمره ألفًا وخمسين سنةً، وقيل: عاش بعده.

[٣] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٠ (هود، ١١/٢٦)؛ اللباب لابن عادل، ١٩/٤٦٧ (هود، ١١/٢٦).

[٤] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٠ (هود، ١١/٢٦)؛ اللباب لابن عادل، ١٩/٤٦٧ (هود، ١١/٢٦).

[٥] س – ابن.

[٦] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٠ (هود، ١١/٢٦)؛ اللباب لابن عادل، ١٩/٤٦٧ (هود، ١١/٢٦).

[٧] قرأ بها الكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمرو اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٩.

[٩] وفي هامش م: أي: في الإعراب. «منه».

إثرَ تعليلها ببيان الداعي إليها. ووصفُ "اليوم" بالعِظَم لبيان عظيمِ ما يقع فيه وتكميلِ الإنذار.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن حكاية قوله عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قالوا له عليه السلام في مقابلة نُصحه؟ فقيل: قال الرؤساء مِنْ قومه والأشرافُ الذين يَملئُون صدورَ المَحافل بإجرامهم والقلوبَ بجلالهم وهيبتِهم والأبصارَ بجمالهم وأُبّهتِهم:[١] ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهابٍ عن طريق الحقّ والصواب. والرؤية قَلبيّة، ومفعولاها: الضمير والظرف. ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّنٌ كونُه ضلالًا.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبق. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ناداهم بإضافتهم إليه استمالةً لقلوبهم نحو الحقّ: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ أي: شيء ما مِن الضلال. قصد عليه السلام تحقيقَ الحقّ في نفي الضلال عن نفسه ردًّا على الكَفَرة، حيث بالغوا في إثباته له عليه السلام، حيث جعلوه مستقرًّا في الضلال الواضحِ كونُه ضلالًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استدراك ممّا قبله باعتبار ما يستلزمه مِن كونه في أقصى مراتب الهداية، فإنّ رسالة ربّ العالمين مستلزِمة لا محالةَ، كأنّه قيل: ليس بي شيءٌ مِن الضلالة، ولكنّي في الغاية القاصية مِن الهداية. و﴿مِّن﴾ لابتداء الغاية مجازًا، متعلّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، مؤكِّدة لِما يفيده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: رسولٌ وأيُّ رسولٍ كائنٌ مِن ربّ العالمين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾

/ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ استئناف مَسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها [٣١٢ظ]

---

[١] رجلٌ ذو أُبّهة، أي: ذو كِبر ونَخْوة. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٤٣/٦ «باب الهاء والباء».

وأحوالها. وقيل: صفة أخرى لـ﴿رَسُولٌ﴾،[١] على طريقة:

أنَــا الــذي سَـمّـتْـنـي أُمّــي حَـيْــدَرَهْ[٢]

وقُرئ: "أَبْلِغُكُمْ"[٣] مِن الإبلاغ. وجمعُ "الرسالات" لاختلاف أوقاتها، أو لتنوّعِ معانيها، أو لأنّ المراد بها ما أُوحيَ إليه وإلى النبيّين مِن قبله عليهم السلام. وتخصيص ربوبيّته تعالى به عليه السلام بعد بيان عمومها للعالَمين للإشعار بعلّة الحُكم الذي هو تبليغ رسالته تعالى إليهم، فإنّ ربوبيّته تعالى له عليه السلام مِن موجِبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، مبيِّنٌ لكيفيّة أداء الرسالة. وزيادة اللام -مع تعدّي "النُّصح" بنفسه- للدلالة على إمحاض النصيحة لهم، وأنّها لمنفعتهم ومصلحتهم خاصّةً. وصيغة المضارع للدلالة على تجدّد نصيحته لهم كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح، ٧١/٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عطفٌ على ما قبله، وتقريرٌ لرسالته عليه السلام، أي: أعلم مِن جهة الله تعالى بالوحي ما لا تعلمونه مِن الأمور الآتية، أو أعلَمُ مِن شئونه عزّ وجلّ وقدرته القاهرة وبطشِه الشديد على أعدائه وأنّ بأسه لا يُردّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه. قيل: كانوا لم يسمعوا بقومٍ حلّ بهم العذابُ قبلَهم، فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون ما علمه نوحٌ عليه السلام بالوحي.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جواب وردَ لِما اكتُفيَ عن ذِكره بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف، ٧/٦٠] مِن قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] البيت لعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه في تهذيب اللغة للأزهري، ١٣/١٠٣ «باب السين والدال»؛ وأساس البلاغة للزمخشري، ٢/٧٦؛ ونهاية الأرب للنُّوَيري، ١٧/٢٥٤. وانظر لقصّته: صحيح مسلم، ١٤٣٣-١٤٤٠ (١٨٠٧)، وفيه بعده:

كَلَيْثِ غاباتٍ كَريهِ المَنظَرَهْ
أُوفِيهِم بالصاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

[٣] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

مِّثْلَنَا﴾ [هود، ٢٧/١١] وقولِهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٤/٢٣]. والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّرٍ ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: أاستبعدتم وعجِبتم مِن / أن جاءكم ذكرٌ -أي: وحيٌ أو موعظةٌ- مِن مالك أموركم ومُربّيكم. [٣١٣و]

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: على لسانِ رجلٍ مِن جنسكم، كقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران، ١٩٤/٣]، وقلتم لأجل ذلك ما قلتم مِن أنّ الله تعالى لو شاء لأنزَلَ ملائكةً. ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ علّة للمَجيء، أي: ليحذِّرَكم عاقبةَ الكفر والمعاصي. ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ عطفٌ على العلّة الأولى، مترتِّبةٌ عليها. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ عطفٌ على العلّة الثانية، مترتِّبةٌ عليها، أي: ولتتعلّقَ بكم الرحمة بسبب تقواكم. وفائدة حرف الترجّي التنبيهُ على عزّة المَطلَب، وأنّ التقوى غير موجِب للرحمة؛ بل هي مَنُوطة بفضل الله تعالى، وأنّ المتّقي ينبغي ألّا يعتمد على تقواه، ولا يأمَنَ عذابَ الله عزّ وجلّ.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فتمّوا على تكذيبه في دعوى النبوّة وما نزل عليه مِن الوحي الذي بلّغه إليهم وأنذرهم بما في تضاعيفه، واستمَرّوا على ذلك هذه المدّة المتطاولةَ بعد ما كَرّر عليه السلام عليهم الدعوةَ مرارًا، فلم يَزِدْهم دعاؤه إلّا فرارًا حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى[١] لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ الآيات [نوح، ٥/٧١]، إذ هو الذي يعقُبه الإنجاء والإغراق، لا مجرَّدُ التكذيب.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ مِن المؤمنين. قيل: كانوا أربعين رجلًا وأربعين امرأةً.[٢] وقيل: تسعةً،[٣] أبناؤه الثلاثة وستّةٌ ممّن آمن به.[٤] وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ متعلّقٌ بالاستقرار في الظرف، أي: استقرّوا معه في الفُلك أو صحِبوه فيه،

---

١ م س: دعوتهم.

٢ قاله مقاتل بن سليمان في تفسيره، ٤٥٢/٤ (نوح، ٢٨/٧١).

٣ ط س: عشرة. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٤ الكشّاف للزمخشري، ١١٥/٢.

أو بفعل الإنجاء، أي: أنجيناهم في السفينة. ويجوز أن يتعلّق بمضمَرٍ وقع حالًا مِن الموصول أو مِن ضميره في الظرف.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: استمرّوا على تكذيبها. وليس المراد بهم المَلَأَ المتصدِّين للجواب فقط؛ بل كلّ مَن أصرَّ على التكذيب منهم ومِن أعقابهم. وتقديم ذكر / الإنجاء على الإغراق للمسارعة إلى الإخبار به، والإيذانِ [٣١٣ظ] بسَبْق الرحمة التي هي مقتضى الذات وتقدّمِها على الغضب الذي يظهر أثره بمقتضى جرائمهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عُمْيَ القلوبِ غيرَ مستبصِرين. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «عَمِيَتْ قلوبُهم عن معرفة التوحيد والنبوّة والمَعاد».[١] وقُرئ: "عَامِينَ".[٢] والأوّل أدلُّ على الثبات والقرار.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ متعلِّق بمضمَرٍ معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾[٣] في قصّة نوح عليه السلام.[٤] وهو الناصب لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: وأرسلنا إلى عادٍ أخاهم، أي: واحدًا منهم في النَّسَب، لا في الدين، كقولهم: "يا أخا العربِ". وقيل: العامل فيهما الفعلُ المذكور فيما سبق، و﴿أَخَاهُمْ﴾ معطوف على ﴿نُوحًا﴾.[٥] والأوّل هو الأَولى.

وأيًّا ما كان، فلعلّ تقديمَ المجرور ههنا على المفعول الصريح للحِذار عن الإضمار قبل الذِّكر؛ يرشدك إلى ذلك ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾... إلخ [الأعراف، ٨٠/٧]؛ فإنّ قومه لمّا لم يُعهَدوا باسمٍ معروفٍ يقتضي الحالُ ذكرَه عليه السلام مضافًا إليهم كما في قصّة عادٍ وثمودَ ومَدْينَ، خُولِفَ في النظم الكريم بين قصّته عليه السلام وبين القِصص الثلاث.

---

١ تفسير الرازي، ٢٩٨/١٤؛ اللباب لابن عادل، ١٨٣/٩. ونحوه عنه رضي الله عنهما في معالم التنزيل للبغوي، ٢٤٢/٣.
٢ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ١١٥/٢.
٣ الأعراف، ٥٩/٧.
٤ م - عليه السلام.
٥ الأعراف، ٥٩/٧.

وقوله تعالى: ﴿هُودًا﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿أَخَاهُمْ﴾. وهو هودُ بنُ عبد الله بنِ رباحِ بن الجارود[1] بنِ عاد بنِ[2] عوصِ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ عليه السلام.[3] وقيل: هودُ بنُ شالَخ بن إرْفَخْشَد بن سامِ بن نوحٍ ابنِ عمّ أبي عادٍ.[4] وإنّما جُعل منهم لأنّهم أفهمُ لكلامه، وأعرفُ بحاله في صِدقه وأمانته، وأقربُ إلى اتّباعه.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن حكاية إرساله عليه السلام إليهم، كأنّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحدَه، كما يُعرب عنه قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، / فإنّه استئنافٌ جارٍ مَجرى البيان للعبادة [٣١٤و] المأمور بها والتعليلِ لها أو للأمر بها، كأنّه قيل: خُصُّوه بالعبادة، ولا تُشركوا به شيئًا، إذ ليس لكم إله سِواه. و﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفع صفةٌ لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبار مَحلّه. وقُرئ بالجرّ[5] حملًا له على لفظه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إنكار واستبعاد لعدم اتّقائهم عذابَ الله تعالى بعد ما علموا ما حلَّ بقوم نوح. و"الفاء" للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: ألَا تتفكّرون أو أتغفُلون فلا تتّقون، فالتوبيخ على المعطوفَين معًا؛ أو أتعلمون ذلك فلا تتّقون، فالتوبيخ على المعطوف فقط. وفي سورة هودٍ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود، ٥١/١١]. ولعلّه عليه السلام خاطبهم بكلٍّ منهما. وقد اكتُفي بحكاية كلٍّ منهما في مَوطنٍ عن حكايته في مَوطنٍ آخرَ، كما لم يُذكَر ههنا ما ذُكر هناك مِن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود، ٥٠/١١]. وقِسْ على ذلك حالَ بقيّةِ ما ذُكر وما لم يُذكَر مِن أجزاء القصّة؛ بل حالَ نظائرِه في سائر القِصص، لاسيّما في المحاوَرات الجارية[6] في الأوقات المتعدِّدة. والله أعلم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ استئناف كما مرّ. وإنّما وُصف ﴿ٱلْمَلَأُ﴾

---

[1] م س: الحلود [صُحّح في هامش م س].

[2] م س – عاد بن ["صح" في هامش م].

[3] اللباب لابن عادل، ١٨٤/٩.

[4] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٥/٤.

[5] قرأ بها الكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

[6] س – الجارية.

بالكفر؛ إذْ لـم يكن كلُّهم على الكفر كمَلأ قومِ نوحٍ؛ بل كان منهم مَن آمن له عليه السلام، ولكنْ كان يكتُم إيمانَه كمَرْثد بن سَعد. وقيل: وُصفوا به لمجرّد الذمّ. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي: متمكِّنًا في خِفّةِ عقلٍ راسخًا فيها، حيث فارقتَ دينَ آبائك. ألَا إنّهم هم السفهاء، ولكنْ لا يعلمون![1] ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي: فيما ادّعيتَ مِن الرسالة. قالوه لعراقتهم في التقليد / وحِرمانِهم مِن النظر الصحيح. [٣١٤ظ]

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦٧﴾

﴿قَالَ﴾ مستعطِفًا لهم ومستمِيلًا لقلوبهم مع ما سمع منهم ما سمع مِن الكلمة الشّنعاء الموجِبةِ لتغليظ القول والمشافهة بالسوء: ﴿يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ أي: شيءٌ منها، ولا شائبةٌ مِن شوائبها، ﴿وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ استدراك ممّا قبله باعتبار ما يستلزمه ويقتضيه مِن كونه في الغاية القُصوى مِن الرُّشد والأناة والصدق والأمانة؛ فإنّ الرسالة مِن جهة ربّ العالمين موجِبةٌ لذلك حتمًا، كأنّه قيل: ليس بي شيءٌ ممّا نَسَبتموني إليه، ولكنّي في غايةِ ما يكون مِن الرُّشد والصِّدق. ولـم يصرِّح بنفي الكذب اكتفاءً بما في حيّز الاستدراك. و﴿مِّنْ﴾ لابتداء الغاية مجازًا، متعلّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿رَسُولٌ﴾، مؤكِّدة لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾

وقوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي﴾ استئناف سِيقَ لتقرير رسالته وتفصيل أحوالها. وقيل: صفة أخرى لـ﴿رَسُولٌ﴾.[2] والكلام في إضافة "الربّ" إلى نفسه عليه السلام بعد إضافته إلى ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾،[3] وكذا في جمع "الرسالات"، كالذي مرّ في قصّة نوح عليه السلام.[4] وقُرئ: "أُبْلِغُكُمْ"[5] مِن الإبلاغ.

---

[1] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، ١٣/٢].

[2] في الآية السابقة.

[3] في الآية السابقة.

[4] انظر: تفسير الأعراف، ٦٢/٧.

[5] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ معروف بالنُّصح والأمانة، مشهورٌ بين الناس بذلك. وإنّما جِيءَ بالجملة الاسميّة دلالةً على الثبات والاستمرار، وإيذانًا بأنّ مَن هذا حالُه لا يحُوم حولَه شائبةُ السفاهة أو الكذب.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في قصّة نوح عليه السلام.[١] ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: مِن جنسكم ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ ويحذِّرَكم عاقبةَ ما أنتم عليه مِن الكفر والمعاصي، حتّى نسبتموني / إلى السفاهة والكذب. وفي إجابة الأنبياء [٣١٥و] -صلوات الله عليهم[٢] وسلامُه- مَن يشافههم بما لا خيرَ فيه مِن أمثال تلك الأباطيل بما حُكي عنهم مِن المقالات الحقّة المُعرِبة عن نهاية الحلم والرزانة وكمالِ الشفقة والرَّأفة مِن الدلالة على حِيازتهم القِدْحَ المُعلَّى مِن مَكارم الأخلاق ما لا يخفى مكانُه.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ شروع في[٣] ترتيب أحكام النُّصح والأمانة والإنذارِ وتفصيلِها. و﴿إِذۡ﴾ منصوب بـ﴿ٱذۡكُرُوا﴾ على المفعوليّة دون الظرفيّة. وتوجيه الأمر بالذِّكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مِن الحوادث -مع أنّها المقصودة بالذات- للمبالغة في إيجاب ذكرها، لِما أنّ إيجاب ذكر الوقت إيجابٌ لذكر ما فيه بالطريق البرهانيّ، ولأنّ الوقت مشتمل عليها، فإذا استُحضِر كانت هي حاضرةً بتفاصيلها، كأنّها مشاهَدة عِيانًا. ولعلّه معطوف على مقدَّر، كأنّه قيل: لا تعجَبوا مِن ذلك أو تدبَّروا في أمركم واذكُروا وقت جعلِه تعالى إيّاكم خُلفاءَ ﴿مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي: في مساكنهم أو في الأرض بأن جعلكم مُلوكًا، فإنّ شَدّاد بنَ عادٍ ممّن ملك معمورة الأرض مِن رَمْلِ عالِجٍ إلى شجر عُمَان.[٤]

---

١ انظر: تفسير الأعراف، ٦٣/٧.

٢ س: عليه.

٣ س + بيان.

٤ قال الثعلبي في الكشف والبيان، ٢٤٦/٤: «وكانت قصّة عادٍ وهلاكهم على ما ذكره محمّد بن إسحاق والسدّي وغيرهما مِن الرواة والمفسّرين: إنّ عادًا كانوا ينزلون اليمن، وكان مساكنهم منها بالشجرة والأحقاف، وهي رِمال يقال لها: رَمْلُ عالِجٍ، ما بين عُمَان إلى حَضرَمَوت»... إلخ.

﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أي: في الإبداع والتصوير أو في الناس ﴿بَصْطَةً﴾ قامةً وقوّةً، فإنّه لم يكن في زمانهم مثلُهم في عِظَم الأجرام. قال الكلبي والسدّي: «كانت قامةُ الطويل منهم مائةَ ذراعٍ، وقامةُ القصير ستّين ذراعًا».[1]

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعمَ بها عليكم مِن فنون النَّعْماء التي هذه مِن جملتها. وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير، وتعميمٌ إثرَ تخصيصٍ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كَيْ يؤدّيَكم ذلك إلى الشكر المؤدّي إلى النجاة مِن الكروب والفوزِ بالمطلوب.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾

﴿قَالُواْ﴾ مُجيبين عن تلك النصائح العظيمة: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ أي: لنخُصَّه بالعبادة، ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أنكروا عليه عليه السلام مَجيئَه لتخصيصه تعالى بالعبادة والإعراضِ عن عبادة الأوثان انهماكًا في التقليد، وحُبًّا لِما أَلِفوه وأَلْفَوْا أسلافَهم عليه. / ومعنى المَجيء إمّا مَجيئه عليه السلام مِن مُتعبَّده ومُعتزَله، وإمّا مِن السماء على التهكّم، وإمّا القصد والتصدّي مجازًا، كما يقال في مقابله: "ذهب يشتُمُني" مِن غير إرادة معنى الذَّهاب. [٣١٥ظ]

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِن العذاب المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.[2] ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في الإخبار بنزول العذاب. وجوابُ ﴿إِنْ﴾ محذوف لدلالة المذكور عليه، أي: فأتِ به.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وجب وحقَّ، أو نزل بإصراركم هذا، بناءً على تنزيل المتوقَّع منزلةَ الواقع كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل، ١٦/١].

---

[1] معالم التنزيل للبغوي، ٢٤٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٨٨/٩.

[2] الأعراف، ٦٥/٧.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: مِن جهته تعالى. وتقديم الظرف الأوّل[١] على الثاني -مع أنّ مَبدَأ الشيء متقدّم على منتهاه- للمسارعة إلى بيان إصابة المكروه بهم. وكذا تقديمهما على الفاعل الذي هو قوله تعالى: ﴿رِجْسٌ﴾، مع ما فيه مِن التشويق إلى المؤخَّر، ولأنّ فيه نوعَ طولٍ بما عُطف عليه مِن قوله تعالى: ﴿وَغَضَبٌ﴾، فربّما يُخلّ تقديمُهما بتجاوب النظم الكريم. والرِّجس: العذاب، مِن "الارتجاس" الذي هو الاضطراب. والغَضَب: إرادة الانتقام. وتنوينهما للتفخيم والتهويل.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٍ﴾ عاريةٍ عن المسمَّى ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ أي: سَمَّيتم بها ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ إنكار واستقباح لإنكارهم مَجيئَه عليه السلام داعيًا لهم إلى عبادة الله تعالى وحدَه وتركِ عبادة الأصنام، أي: أتجادلونني في أشياءَ سَمَّيتموها آلهةً ليست هي إلّا محضُ الأسماء، مِن غير أن يكون فيها مِن مِصداق الإلهيّة شيءٌ ما؛ لأنّ المستحِقّ للمعبوديّة بالذات ليس إلّا مَن أوجد الكلَّ، وأنّها لو استحقّت لكان ذلك بجعله تعالى، / إمّا بإنزال آية أو نصبِ حُجّة، وكلاهما [٣١٦و] مستحيل، وذلك قوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾، وإذ ليس ذلك في حيّز الإمكان، تحقّقَ بطلانُ ما هم عليه.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ مترتّب على قوله تعالى: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾، أي: فانتظِروا ما تطلبونه بقولكم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾... إلخ.[٢] ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ لِما يحلّ بكم.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٧٢﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ فصيحة كما في قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [البقرة، ٦٠/٢]، أي: فوقع ما وقع، فأنجيناه ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي: في الدين ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ أي: عظيمةٍ لا يقادَر قدرها. وقوله تعالى: ﴿مِّنَّا﴾ أي: مِن جهتنا، متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو نعتٌ لـ﴿رَحۡمَةٖ﴾ مؤكِّدٌ لفخامتها الذاتيّة المنفهمة مِن تنكيرها بالفخامة الإضافيّة.

---

[١] وفي هامش م: أي: ﴿عَلَيۡكُم﴾.

[٢] في الآية السابقة.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: استأصلناهم بالكلّيّة ودمّرناهم عن آخرهم. ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبُوا﴾، داخلٌ معه في حكم الصلة، أي: أصَرّوا على الكفر والتكذيب، ولم يَرعَوُوا عن ذلك أبدًا. وتقديم حكاية الإنجاء على حكاية الإهلاك قد مرّ سرُّه.[١] وفيه تنبيه على أنّ مناط النَّجاة هو الإيمان بالله تعالى وتصديقُ آياته، كما أنّ مدار البَوَار هو الكفر والتكذيب.

وقِصّتهم: أنّ عادًا قومٌ كانوا باليَمن بالأحقاف، وكانوا قد تبسّطوا في البلاد ما بين عُمان إلى حَضْرَمَوت، وكانت لهم أصنام يعبدونها: صُدَاء وصَمُود والهَباء، فبعث الله تعالى إليهم هودًا نبيًّا، وكان مِن أوسطهم وأفضلهم حَسَبًا، فكذّبوه، وازدادوا عُتوًّا وتجبّرًا، / فأمسك الله تعالى عنهم القَطْر ثلاثَ سِنينَ [٣١٦ظ] حتّى جُهِدوا،[٢] وكان الناس إذا نزل بهم بلاءٌ طلبوا إلى الله الفَرَجَ منه عند بيته الحرام مسلمُهم ومشركُهم، وأهلُ مكّةَ إذ ذاك العَماليق أولاد عِمليق بنِ لاوَذ بن سام بن نوح، وسيّدُهم معاوية بن بكر، فجَهّزت عادٌ إلى مكّةَ مِن أماثلهم سبعين رَجلًا، منهم قَيْل بن عنز ومَرْثَدُ بن سعد الذي كان يكتُم إسلامَه، فلمّا قدِموا نزلوا على معاويةَ بن[٣] بكر، وهو بظاهرِ مكّةَ خارجًا مِن الحَرم، فأنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخوالَه وأصهارَه، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمرَ وتُغنّيهم قَيْنتا معاويةَ، فلمّا رأى طُولَ مُقامهم وذهولَهم باللَّهو عمّا قدِموا له، أهمّه ذلك وقال: «قد هلك أخوالي وأصهاري، وهؤلاء على ما هم عليه»، وكان يستحيي أن يكلّمهم خشيةَ أن يظنّوا به ثِقَلَ مُقامهم عليه، فذكر ذلك للقَيْنتين، فقالتا: «قُلْ شِعرًا نُغنّيهم به لا يدرون مَن قال»، فقال معاوية:

أَلَا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فهَيْنِمْ ... لعلَّ الله يَسْقِينا غَمَامَا
فيَسقي أرضَ عادٍ إنّ عادًا ... قَدَ امسَوْا ما يُبِينون الكلامَا[٤]

---

[١] انظر: تفسير الأعراف، ٧/٦٤.

[٢] جهَدَ المرضُ فلانًا -وكذا التَّعَبُ والحُبُّ- يجهَده جَهْدًا: هَزَله. وجَهِد عَيْشُه: نَكِد واشتدّ. تاج العروس للزبيدي، «جهد».

[٣] س: ابن.

[٤] قوله: "فَهَيْنِمْ"، الهَيْنَمة: إخفاء الكلام، وههنا: عبارة عن الدعاء. قوله: "يَسْقينا غَمَامًا"، أي: غَيْثًا. قوله: "ما يُبِينون الكلامَا"، أي: لا يفقهون قولًا مِن ضَعْفهم. فتوح الغيب للطيبي، ٦/٤٤٢.

فلمّا غنّتا به قالوا: «إنّ قومكم يتغوّثون مِن البلاء الذي نزل بهم، وقد أبطأتم عليهم، فادخُلوا الحَرَم واستَسْقُوا لقومكم»، فقال لهم مَرْثد بن سعد: «واللهِ لا تُسقَون بدعائكم، ولكنْ إن أطعتم نبيَّكم وتُبتم إلى الله تعالى، سُقِيتم»، وأظهر إسلامَه، فقالوا لمعاوية: «احبِسْ عنّا مَرْثدًا، لا يَقدَمَنّ معنا، فإنّه قد اتّبع دينَ هود وترك ديننا»، ثمّ دخلوا مكّةَ، فقال قَيْل: «اللّهمّ اسقِ عادًا ما كنتَ تَسقيهم»، فأنشأ الله تعالى سحاباتٍ ثلاثًا: بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ، ثمّ ناداه منادٍ مِن السماء: «يا قَيْل اختَرْ / لنفسك ولقومك»، فقال: [٣١٧و] «اخترتُ السوداءَ، فإنّها أكثرُهنّ ماءً»، فخرجتْ على عادٍ مِن وادٍ يقال له: المُغيث، فاستبشَروا بها وقالوا: «هذا عارضٌ مُمطِرُنا»، فجاءتهم منها رِيح عَقيم فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتَوا مكّةَ، فعبدوا الله فيها إلى أن ماتوا.[١]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ عطفٌ على ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾،[٢] موافقٌ له في تقديم المجرور على المنصوب. وثمود: قبيلة مِن العرب، سُمُّوا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرَمَ بنِ سام. وقيل: إنّما سُمُّوا بذلك لقلّة مائهم، مِن "الثَّمد"، وهو الماء القليل. وقُرئ بالصرف[٣] بتأويل الحيّ. وكانت مساكنُهم الحِجرَ بين الحِجاز والشام إلى وادي القُرى. وأُخُوّة صالح عليه السلام لهم مِن حيث النَّسبُ كهُودٍ عليه السلام؛ فإنّه صالح بنُ عبيد بنِ آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود.

---

[١] **الكشّاف** للزمخشري، ١١٨/٢. وانظر لتفصيل القصّة: **جامع البيان** للطبري، ٢٦٩/١٠-٢٧٤؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٢٤٣/٣-٢٤٤.

[٢] الأعراف، ٦٥/٧.

[٣] أي: "ثَمودٍ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن والأعمش والحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٠.

ولمّا كان الإخبار بإرساله عليه السلام إليهم مَظِنّةً لأن يُسأل ويقال: فماذا قال لهم؟ قيل جوابًا عنه بطريق الاستئناف: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾. وقد مرّ الكلام في نظائره.[1] ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٌ﴾ أي: آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنُبوّتي. وهي مِن الألفاظ الجارية مَجرى "الأبطح" و"الأبرق" في الاستغناء عن ذِكر موصوفاتها حالةَ الإفراد والجمع، كـ"الصالح" إفرادًا وجمعًا. وكذلك "الحَسَنة" و"السيّئة" سواء كانتا صفتين للأعمال أو المَثُوبة، أو حالةً مِن الرخاء والشدّة؛ / ولذلك أُولِيَت العوامل. [٣١٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَتۡكُم﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿بَيِّنَةٌ﴾ كما مرّ مرارًا. والمراد بها الناقة. وليس هذا الكلام منه عليه السلام أوّلَ ما خاطَبهم إثرَ دعوتهم إلى التوحيد؛ بل إنّما قاله بعد ما نصَحَهم وذكَّرهم بنِعم الله تعالى، فلم يقبَلوا كلامه وكذّبوه؛ ألَا[2] يُرى إلى ما في سورة هود مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود، ٦١/١١] إلى آخر الآيات.

رُوي أنّه لمّا أُهلكت عادٌ عَمّرت ثمودُ بلادَها، وخلَفوهم في الأرض، وكثُروا وعُمّروا أعمارًا طِوالًا، حتّى إنّ الرجل كان يَبني المَسكن المُحكَم، فينهدم في حياته، فنحتوا البيوتَ مِن الجبال، وكانوا في سَعَة ورخاءٍ مِن العَيْش، فعتَوا على الله تعالى، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحًا، وكانوا قومًا عَرَبًا، وصالحٌ مِن أوسطهم نسَبًا، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فلم يتّبعه إلّا قليلٌ منهم مستضعَفون، فحذّرهم وأنذرهم، فسألوه آيةً، فقال: «أيّةَ آيةٍ تريدون؟»، قالوا: «تخرج معنا إلى عِيدنا -في يوم معلوم لهم مِن السَّنة- فتدعو إلهك، وندعو آلهتنا؛ فإن استُجيب لك اتّبعناك، وإن استُجيب لنا اتّبعتَنا»، فقال صالح: «نعم»، فخرج معهم، ودعَوا أوثانَهم، وسألوا الإجابة، فلم تُجبْهم، ثمّ قال سيّدهم جُندُع بن عمرو -وأشار إلى صَخْرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها: الكاثبة-: «أَخرِجْ لنا مِن هذه الصخرة ناقةً مختَرَجةً جَوْفاءَ وَبْراءَ -والمختَرَجة التي شاكلت البُخْت- فإن فعلتَ صدّقناك وأجبناك»،

---

[1] انظر: تفسير الأعراف، ٥٩/٧.

[2] س: إلى.

فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق: «لَئن فعلتُ ذلك لَتُؤمنُنَّ ولَتُصدّقُنَّ»، قالوا: «نعم»، فصلّى ودعا ربَّه، فتمخّضت الصخرةُ تمخُّضَ النَّتُوج[1] بولدها، فانصدعت عن ناقةٍ عُشَراءَ جَوْفاءَ وَبْراءَ كما وصفوا، / لا يعلم ما بين جَنْبَيْها إلّا الله، وعظماؤهم ينظرون، ثمّ نُتِجت ولدًا مثلَها في العِظَم، فآمن به جُندُع ورَهْطٌ مِن قومه، ومنع أعقابَهم ناسٌ مِن رُءوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجرَ وتشرب الماء، وكانت تَرِد غِبًّا، فإذا كان يومُها وضعتْ رأسَها في البئر، فما ترفعها حتّى تشربَ كلَّ ما فيها، ثمّ تتفحّج،[2] فيحتلبون ما شاءوا حتّى تمتلئَ أوانيهم، فيشربون ويدّخرون، وكانت إذا وقع الحَرّ تصيَّفت بظَهر الوادي، فيهرُب منها أنعامُهم، فتهبِط إلى بطنه، وإذا وقع البَرد تَشَتّتْ بطن الوادي، فتهرُب مواشيهم إلى ظَهره، فشقَّ ذلك عليهم، وزيّنتْ عَقْرَها لهم امرأتان -عُنَيزةُ أمُّ غَنْم وصَدَقة بنتُ المختار- لِما أضرَّتْ به مِن مواشيهما، وكانتا كثيرتَي المواشي، فعقَروها، واقتسَموا لحمها، وطبَخوه، فانطلق سَقْبُها[3] حتّى رقيَ جَبَلًا اسمه قَارَةُ، فرَغَا ثلاثًا، وكان صالح قال لهم: «أدرِكوا الفصيلَ، عسى أن يُرفَع عنكم العذاب»، فلم يقدروا عليه، فانفجّت الصخرة بعد رُغائه، فدخلها، فقال لهم صالح: «تُصبِحون غدًا ووجوهُكم مُصْفَرّة، وبعد غدٍ ووجوهُكم مُحمرّة، واليومَ الثالثَ ووجوهكم مُسودّة، ثمّ يصبِّحكم العذابُ»، فلمّا رأَوا العلاماتِ طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطينَ، ولمّا كان اليومُ الرابع وارتفع الضُّحى، تحنَّطوا[4] بالصَّبِرِ وتكفّنوا بالأنطاع، فأتتهم صَيْحة مِن السماء ورَجْفةٌ مِن الأرض، فتقطّعت قلوبهم، فهلكوا.[5]

[٣١٨و]

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً﴾ استئناف مَسوق لبيان البيّنة. وإضافة "الناقة" إلى الاسم الجليل لتعظيمها، ولمَجيئها مِن جهته تعالى بلا أسباب معهودة

---

١ النَّتُوج مِن الخيل وجميعِ الحافر: الحامل. لسان العرب لابن منظور، «نتج».

٢ التفحّج، مثل التفشّج: وهو أن يفرّج بين رِجلَيه إذا جلس. لسان العرب لابن منظور، «فحج».

٣ السَّقْب: ولد الناقة. وقيل: الذَّكر مِن ولد الناقة. لسان العرب لابن منظور، «سقب».

٤ الحَنُوط: طِيب يُخلَط للميّت خاصّةً. وقال الجوهري: الحَنُوط: ذَرِيرَة. وقد تحنَّطَ به الرجلُ، وحنَّط الميّت تحنيطًا. لسان العرب لابن منظور، «حنط».

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٠-١٢١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٢١.

[٣١٨ظ] ووسائطَ معتادةٍ؛ ولذلك كانت آيةً وأيَّ آيةٍ. / و﴿لَكُمْ﴾ بيان لمَن هي آيةٌ له. وانتصابُ ﴿ءَايَةً﴾ على الحاليّة، والعامل فيها معنى الإشارة. ويجوز أن يكون ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ بدلًا مِن ﴿هَٰذِهِۦ﴾ أو عطفَ بيانٍ له أو مبتدأً ثانيًا، و﴿لَكُمْ﴾ خبرًا عاملًا في ﴿ءَايَةً﴾.

﴿فَذَرُوهَا﴾ تفريع على كونها آيةً مِن آيات الله تعالى، فإنّ ذلك ممّا يوجِب عدمَ التعرّض لها. ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ جواب الأمر، أي: الناقةُ ناقةُ الله والأرضُ أرضُ الله؛ فاتركوها تأكلْ ما تأكل في أرض ربّها، فليس لكم أن تحُولوا بينها وبينها. وقُرئ: "تَأْكُلُ"[١] بالرفع على أنّه في موقع الحال، أي: آكلةً فيها. وعدم التعرّض للشُّرب إمّا للاكتفاء عنه بذكر الأكل أو لتعميمه له أيضًا كما في قوله:

وعَلَفْتُها تِبْنًا وماءً باردًا[٢]

وقد ذُكر ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء، ١٥٥/٢٦].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نُهي عن المَسّ الذي هو مقدّمة الإصابة بالشرّ الشامل لأنواع الأذيّة، ونُكّر "السُّوء" مبالغةً في النهي، أي: لا تتعرّضوا لها بشيء ممّا يسُوءها أصلًا ولا تطرُدوها ولا تَرِيبوها، إكرامًا لآية الله تعالى. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جواب للنهي.

ويُروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين مرَّ بالحِجر في غزوة تَبُوك قال لأصحابه: «لا يدخُلَنَّ أحدٌ منكم القريةَ، ولا تَشرَبوا مِن مائها، ولا تدخُلوا على هؤلاء المعذَّبين إلّا أن تكونوا باكِينَ أن يُصيبَكم مثلُ الذي أصابهم».[٣]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبيد بن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٠.

[٢] صدر بيت، وعجزه:

حتّى غَدَتْ هَمّالةً عَيناها

وهو منسوب إلى بعض بني أسدٍ يصف فَرَسَه في معاني القرآن للفرّاء، ١٤/١، وبلا نسبة في جامع البيان للطبري، ١٠٩/٩ (المائدة، ١٠٩/٥)؛ وشرح كتاب سيبويه للسيرافي، ٧٠/١؛ والصحاح للجوهري، «علف»؛ ولسان العرب لابن منظور، «علف»؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٩٢٩/٢، وفي بعضها: "شَتَتْ" بدلَ "غَدَتْ".

[٣] معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢١/٢. ونحوه في صحيح البخاري، ٩٤/١ (٤٣٣)، ٧/٦ (٤٤٢٠)؛ وصحيح مسلم، ٢٢٨٥/٤-٢٢٨٦ (٢٩٨٠، ٢٩٨١).

وقال عليه السلام لعليّ رضي الله عنه: «يا عليّ، أتَدري مَن أشقَى الأوّلين؟»»، قال: «الله ورسوله أعلمُ»، قال: «عاقرُ ناقةِ صالحٍ؛ أتَدري مَن أشقَى الآخِرين؟»»، قال: «الله ورسوله أعلمُ»، قال «قاتِلُك».[١]

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤﴾

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي: خلفاءَ في الأرض أو خلفاءَ لهم كما مرّ. / ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعل لكم مَباءةً ومَنزِلًا في أرض الحِجر بين الحجاز والشام. ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة التّبوئة، أي: تَبنُون في سُهولها قصورًا رفيعةً، أو تَبنُون مِن سهولة الأرض بما تعملون منها مِن الرِّهْص[٢] واللَّبِن[٣] والآجُرِ.[٤] [٣١٩و]

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ﴾ أي: الصخورَ. وقُرِئ: "تَنْحَتُونَ"[٥] بفتح الحاء، و"تَنْحَاتُونَ"[٦] بإشباع الفتحة كما في قوله:

يَــنْــبــاعُ مِــن ذِفْــرَى أَسِــيــلٍ حُــرّةٍ[٧]

والنَّحْت: نَجْر الشيءِ الصُّلب، فانتصاب ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ على المفعوليّة، وانتصاب قوله تعالى: ﴿بُيُوتًا﴾ على أنّها حال مقدَّرةٌ منها، كما تقول: "خِطْتُ هذا الثوبَ

---

[١] هو بهذه الألفاظ في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٨/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١٢١/٢. وانظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٦٤/١-٤٦٦ (٤٦٧).

[٢] الرِّهْص: العِرْق الأسفل مِن الحائط. وقيل: الطِّين الذي يُجعَل بعضه على بعض، وهو الذي يوافق قول المصنّف. المُغرِب للمُطرِّزي، ص ٢٠٢ «الراء مع الهاء».

[٣] اللَّبِن: المضروب مِن الطِّين مربّعًا للبناء. ويقال فيه بالكسر وبكسرتين، كـ"إِبِل" لغة. القاموس المحيط للفيروزآبادي، «لبن».

[٤] الآجُرّ: فارسيّ مُعرّب، واحدته: آجُرّة، وهي طبيخ الطِّين، يُستخدم في البناء. تاج العروس للزبيدي، «أجر».

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٠.

[٦] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١٢٢/٢، ونسبها إلى الحسن.

[٧] صدر بيت، وعجزه:

زَيّـافـةٍ مِـثْـلِ الـفَـنِـيـقِ الـمُـقْـرَمِ

وهو لعنترة في ديوانه، ٢٠٤. وفي مطبوعه: "غَضُوب" بدلًا مِن "أَسيل". | الذِّفرَى: أصل القَفا والأذن، وجعلها غَضُوبًا لنشاطها. والحُرّة: الكريمة والزيافة المسرعة. والفَنيق: الفحل مِن الإبل. والمُقرَم: الذي نُحي عن الركوب واتّخُذ فحلًا لكرمه. انظر تعليق الشنتمري على البيت.

قميصًا". وقيل: انتصاب ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ على إسقاط الجارّ، أي: مِن الجبال، وانتصاب ﴿بُيُوتًا﴾ على المفعوليّة. وقد جُوّز أن يضمَّن النَّحت معنى الاتّخاذ، فانتصابُهما على المفعوليّة. قيل: كانوا يسكُنون السهول في الصيف والجبالَ في الشتاء.[١]

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليكم ممّا ذكر، أو جميعَ آلائِه التي هذه مِن جملتها. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإنّ حقّ آلائِه تعالى أن تُشكَر ولا تُهمَل ولا يُغفَل عنها، فكيف بالكفر والعَثْي في الأرض بالإفساد!

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: عتَوا وتكبّروا. استئناف كما سلف. وقُرئ بالواو[٢] عطفًا على ما قبله مِن قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ﴾... إلخ.[٣] و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا﴾ للتبليغ. وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل مِن الموصول بإعادة العامل بدلَ الكلِّ إن كان ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ لـ﴿قَوْمِهِۦ﴾، وبدلَ البعضِ إن كان لـ﴿الذين استُضعفوا﴾ على أنّ مِن المستضعَفين مَن لم يؤمن. والأوّل هو الوجه؛ / إذ لا داعيَ إلى توجيه الخطاب أوّلًا إلى جميع [٣١٩ظ] المستضعَفين مع أنّ المجاوبة مع المؤمنين منهم على أنّ الاستضعاف مختصّ بالمؤمنين، أي: قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. وإنّما قالوه بطريق الاستهزاء بهم.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ عدَلوا عن الجواب الموافِق لسؤالهم بأن يقولوا: «نعم» أو «نعلم أنّه مرسَل منه تعالى» مسارَعةً إلى تحقيق الحقّ وإظهارِ ما لهم مِن الإيمان الثابت المستمرِّ الذي يُنبئ عنه الجملة الاسميّة، وتنبيهًا على أنّ أمر إرساله مِن الظهور بحيث لا ينبغي أن يُسأل عنه، وإنّما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٢.
٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.
٣ الأعراف، ٧/٧٣.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٧٦﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ أعيدَ الموصول مع صلته مع كفاية الضمير إيذانًا بأنّهم قد قالوه بطريق العُتوّ والاستكبار. ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وإنّما لم يقولوا: «إنّا بما أُرسلَ به كافرون» إظهارًا لمخالفتهم إيّاهم وردًّا لمقالتهم.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧﴾

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أي: نحَروها. أُسندَ العَقْر إلى الكلّ -مع أنّ المباشِر بعضُهم- للملابسة، أو لأنّ ذلك لمّا كان برِضاهم، فكأنّه فعله كلُّهم. وفيه مِن تهويل الأمر وتفظيعِه بحيث أصابت غائلته الكلَّ ما لا يخفى. ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: استكبروا عن الامتثال به.[1] وهو ما بلّغهم صالحٌ عليه السلام مِن الأمر والنهي. ﴿وَقَالُواْ﴾ مخاطِبين له عليه السلام بطريق التعجيز والإفحام على زعمهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: مِن العذاب. والإطلاق للعِلم به قطعًا. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فإنّ كونك مِن جملتهم / يستدعي صدقَ ما تقول مِن الوعد والوعيد. [٣٢٠و]

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي: الزلزلة، لكن لا إثرَ ما قالوا ما قالوا؛ بل بعد ما جرى عليهم ما جرى مِن مبادي العذاب في الأيّام الثلاثة حسبما مرّ تفصيله.[2] ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي: صاروا في أرضهم وبلدهم أو في مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ هامدين موتى، لا حراكَ بهم. وأصل الجُثوم: البُروك، يقال: "الناس جُثومٌ"، أي: قُعود، لا حراكَ بهم، ولا يَنبِسون نَبسةً.[3] قال أبو عُبيدة:

---

[1] م ط س: عن امتثاله [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[2] انظر: تفسير الأعراف، ٧/٧٣.

[3] يُقال: ما نبَس فلان بكلمة، أي: ما تكلّم، يَنبِس نَبْسًا. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٧/٢٧٢ «باب السين والنون والباء معهما».

«الجُثوم للناس والطير، والبُروك للإبل».[١] والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم مِن غير اضطراب وحركةٍ كما يكون عند الموت المعتاد. ولا يخفى ما فيه مِن شدّة الأخذ وسرعةِ البطش. اللّهمّ إنّا بك نعوذ مِن نزول سَخَطك وحلول غضبك.

و﴿جَٰثِمِينَ﴾ خبرٌ لـ﴿أَصْبَحُوا﴾، والظرف متعلِّق به؛ ولا مساغَ لكونه خبرًا و﴿جَٰثِمِينَ﴾ حالًا، لإفضائه إلى كون الإخبار بكونهم في دارهم مقصودًا بالذات وكونِهم جاثمين قيدًا تابعًا له غيرَ مقصود بالذات. قيل: حيث ذُكرت الرَّجْفة وُحّدت الدار، وحيث ذُكرت الصَّيْحة جُمعت؛ لأنّ الصَّيحة كانت مِن السماء، فبُلوغها أكثرُ وأبلغُ مِن الزلزلة، فقُرن كلٌّ منهما بما هو أليَقُ به.[٢]

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ إثرَ ما شاهد ما جرى عليهم تولّيَ مُغتمٍّ متحسِّرٍ على ما فاتهم مِن الإيمان متحزِّنًا عليهم، ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بالترغيب والترهيب، وبذلتُ فيكم وُسعي، ولكنْ لم تقبلوا منّي ذلك.

وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، أي: شأنُكم الاستمرارُ على بُغض الناصحين وعداوتهم. خاطَبهم عليه السلام / بذلك خطابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أهلَ قَليبِ بدرٍ حيث [٣٢٠ظ] قال: «إنّا وجدنا ما وعَدَنا ربّنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقًّا؟».[٣] وقيل: إنّما تولّى عنهم قبل نزول العذاب بهم عند مشاهدته عليه السلام لعلاماته تولّيَ ذاهبٍ عنهم منكِرٍ لإصرارهم على ما هم عليه.

---

[١] قال أبو عبيدة في مجاز القرآن، ٢١٨/١: «﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي بعضهم على بعضٍ جُثوم، وله موضع آخرُ جُثوم على الرُّكَب». وقوله بألفاظ المصنّف في تفسير الرازي، ٣٠٧/١٤، وباختلاف يسير في التفسير البسيط للواحدي، ٢١٥/٩.

[٢] قاله الكرماني كما في اللباب لابن عادل، ٢٠٠/٩.

[٣] قطعة مِن حديث أنس بن مالك، أخرجه البخاري في صحيحه، ٧٦/٥ (٣٩٧٦)؛ وأحمد في مسنده، ٢٧٩/٢٦ (١٦٣٥٩).

ورُوي أنّ عَقْرهم الناقةَ كان يومَ الأربعاء، ونزل بهم العذاب يومَ السبت.[١] ورُوي أنّه خرج في مائةٍ وعشرةٍ مِن المسلمين وهو يَبكي، فالتفَتَ فرأى الدخانَ ساطعًا، فعلم أنّهم قد هلكوا، وكانوا ألفًا وخمسَمائةِ دارٍ.[٢] ورُوي أنّه رجع بمَن معه، فسكنوا ديارهم.[٣]

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمَر معطوف على ما سبق. وعدمُ التعرّض للمرسَل إليهم مقدَّمًا على المنصوب حسبما وقع فيما سبق وما لحِق، قد مرّ بيانه في قصّة هودٍ عليه السلام.[٤] وهو لوط بن هاران بن تارخ ابنُ أخي إبراهيمَ عليهما السلام، كان مِن أرض بابلَ مِن العراق مع عمّه إبراهيمَ، فهاجر إلى الشام، فنزل فلسطينَ، وأنزل لوطًا الأردنّ، وهي كُورة بالشام، فأرسله الله تعالى إلى أهل سَذُوم، وهو بلدٌ بحِمص.[٥]

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرف للمضمَر المذكور، أي: أرسلنا لوطًا إلى قومه وقتَ قوله لهم... إلخ. ولعلّ تقييدَ إرساله عليه السلام بذلك لِما أنّ إرساله إليهم لم يكن في أوّل وصوله إليهم. وقيل: هو بدلٌ مِن ﴿لُوطًا﴾ بدلَ اشتمالٍ على أنّ انتصابه بـ"اذكُرْ"، أي: اذكُرْ وقت قولِه عليه السلام لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ / بطريق الإنكار التوبيخي التقريعي، أي: أتفعلون تلك الفعلة المتناهية في القُبح المتمادية في الشرّيّة والسُّوء. [٣٢١و]

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ ما عمِلها قبلكم، على أنّ "الباء" للتعدية، كما في قوله عليه السلام: «سبَقَك بها عُكّاشة»،[٦] مِن قولك: "سبقتُه بالكُرة"، أي: ضربتها قبله.

---

١ تفسير السمرقندي، ١/٥٤٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٤.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٤.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٤.

٤ انظر: تفسير الأعراف، ٦٥/٧.

٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٢٥٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٥٤-٢٥٥.

٦ عن الزهري، قال: حدثّني سعيد بن المسيّب: أنّ أبا هريرة حدّثه قال: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يدخل الجنّة مِن أمّتي زُمرة هم سبعون ألفًا، تُضيء وجوههم إضاءةَ القمر ليلةَ البدر»، وقال أبو هريرة: فقام عُكّاشة بن مِحصن الأسدي يرفع نَمِرةً عليه، فقال: «يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم»، قال: «اللّهمّ اجعَلْه منهم»، ثمّ قام رجل مِن الأنصار، فقال: «يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم»، فقال: «سبَقَك بها عُكّاشة». انظر: صحيح البخاري، ٨/١١٣ (٦٥٤٢)؛ وصحيح مسلم، ١/١٩٧ (٢١٦).

و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ مزيدة لتأكيد النفي وإفادةِ معنى الاستغراق، وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للتبعيض.

والجملة مستأنَفة مَسوقة لتأكيد النكير وتشديدِ التوبيخ والتقريع، فإنّ مباشرة القبيح قبيحٌ، واختراعَه أقبحُ. ولقد أنكر الله تعالى عليهم أوّلًا إتيانَ الفاحشة، ثمّ وبّخهم بأنّهم أوّل مَن عمِلها. فإنّ سَبْك النظم الكريم، وإن كان على نفي كونهم مسبوقِين مِن غير تعرّضٍ لكونهم سابقين، لكنّ المرادَ أنّهم سابقون لكلّ مَن عداهم مِن العالَمين، كما مرّ تحقيقه مرارًا في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام، ٢١/٦، ٩٣]. أو[١] مَسوقةٌ جوابًا عن سؤال مقدَّر، كأنّه قيل مِن جهتهم: لِم لا نأتيها؟ فقيل بيانًا للعلّة وإظهارًا للزاجر: ما سبَقكم بها أحدٌ لغاية قُبحها وسوءِ سبيلها، فكيف تفعلونها؟

قال عمرو بن دِينار:[٢] «ما نزَا ذَكرٌ على ذَكر حتّى كان قومُ لوط».[٣] قال محمّد بن إسحاق: «كانت لهم ثمار وقُرًى لم يكن في الدنيا مثلها، فقصدهم الناس، فآذَوْهم، فعرض لهم إبليسُ في صورةِ شيخ: "إن فعلتم بهم كذا وكذا نجَوْتم منهم"، فأبَوا، / فلمّا ألحّ الناسُ عليهم قصدوهم، فأصابوا غِلمانًا صِباحًا، فأخبثوا، فاستحكمَ فيهم ذلك».[٤] قال الحسن: «كانوا لا يفعلون ذلك إلّا بالغُرَباء».[٥] وقال الكلبي: «أوّلُ مَن فُعل به ذلك الفعلُ إبليسُ الخبيثُ، حيث تمثّل لهم في صورةِ شابّ جميل، فدعاهم إلى نفسه، ثمّ عبثوا بذلك العمل».[٦]

[٣٢١ظ]

---

١ السياق: والجملة مستأنَفة مَسوقة لتأكيد النكير... أو مَسوقةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ...

٢ هو عمرو بن دينار المكّي الجُمحي بالولاء، أبو محمّد (ت. ١٢٦هـ/٧٤٤م). تابعيّ، فقيه، كان مفتي أهل مكّة. فارسيّ الأصل، مِن الأبناء. مولده بصنعاء، ووفاته بمكّة. كان مِن أوعية العلم وأئمّة الاجتهاد. سمع مِن ابن عبّاس وجابر بن عبد الله وابن عمر وأنس بن مالك وعبد الله بن جعفر وأبي الطفيل، وغيرهم مِن الصحابة. وحدّث عنه ابنُ أبي مُليكة وقتادة بن دِعامة والزهري وأيّوب السَّختياني وجعفر الصادق وعبد الملك بن ميسرة وابن جُريج وشُعبة وسفيان الثوري وإبراهيم بن طهمان وزمعة بن صالح ومعقِل بن عبيد الله وهُشيم وأبو عوانة وسفيان بن عُيينة، وخلق كثير. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٠٠/٥-٣٠٧؛ **والأعلام** للزركلي، ٧٧/٥.

٣ **سنن الدارمي**، ٧٣٥/١ (١١٧٩)؛ **جامع البيان** للطبري، ٣٨٨/١٨ (العنكبوت، ٢٨/٢٩).

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٥٩/٤؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٥٥/٣.

٥ هو باختلاف يسير في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٥٩/٤؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٢٥٥/٣.

٦ وفي هامش م: ثعلبي. | انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٥٩/٤؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٢٥٥/٣.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ خبر مستأنَف لبيان تلك الفاحشة. وقُرئ بهمزتين صريحتين،[1] وبتَلْيين الثانيةِ بغير مدٍّ[2] وبمدٍّ أيضًا،[3] على أنّه تأكيد للإنكار السابق وتشديد للتوبيخ. وفي زيادة "إنّ" و"اللام" مزيدُ تقبيح وتقريع، كأنّ ذلك أمرٌ لا يتحقّق صدورُه عن أحد، فيؤكَّد تأكيدًا قويًا. وفي إيراد لفظ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ دون "الغِلمان" و"المُزدان" ونحوهما مبالغة في التوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له أو مصدر في موقع الحال. وفي التقييد بها وصفُهم بالبَهيميّة الصِّرفة، وتنبيهٌ على أنّ العاقل ينبغي له أن يكون الداعي له إلى المباشَرَة طلبَ الولد وبقاءَ النوع، لا قضاء الشهوة. ويجوز أن يكون المراد الإنكارَ عليهم وتقريعَهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: متجاوِزين النساءَ اللاتي هُنّ محالّ الاشتهاء، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود، ٧٨/١١].

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب عن الإنكار المذكور إلى الإخبار بحالهم / التي أفضَتْهم إلى ارتكاب أمثالها، وهي اعتياد الإسراف في كلّ شيء؛ أو عن الإنكار عليها إلى الذمّ على جميع مَعايبهم؛ أو عن محذوف، أي: لا عُذرَ لكم فيه، بل أنتم قوم عادتُكم الإسراف. [٣٢٢و]

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: المستكبِرين منهم، المُتَولّين للأمر والنهي، المتصدِّين للعَقد والحَلّ. وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأشياء، أي: ما كان جوابًا مِن جهة قومه شيءٌ مِن الأشياء إلّا قولُهم، أي: لبعضهم الآخَرين المباشِرين للأمور معرِضين عن مخاطبته عليه السلام: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾

---

[1] أي: "أَئِنَّكُمْ". قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وعاصم مِن رواية أبي بكر ويعقوب مِن رواية رَوح. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١-٣٧٢.

[2] قرأ بها ابن كثير ورُويس. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١-٣٧٢.

[3] قرأ بها أبو عمرو. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١-٣٧٢.

أي: لوطًا ومَن معه مِن أهله المؤمنين ﴿مِن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي: إلّا هذا القول الذي يستحيل أن يكون جوابًا لكلام لوطٍ عليه السلام. وقُرئ برفع ﴿جَوَابَ﴾[1] على أنّه اسمُ ﴿كَانَ﴾، و﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾... إلخ خبرُها. وهو أظهرُ، وإن كان الأوّل أقوى في الصناعة؛ لأنّ الأعرف أحقُّ بالاسميّة.

وأيًّا ما كان، فليس المراد أنّه لم يصدُر عنهم بصدد الجواب عن مقالات لوط عليه السلام ومَواعظِه إلّا هذه المقالة الباطلة، كما هو المتسارع إلى الأفهام؛ بل أنّه لم يصدر عنهم في المرّة الأخيرة مِن مرّات المحاورات الجارية بينهم وبينه عليه السلام إلّا هذه الكلمة الشنيعة؛ وإلّا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثيرٌ مِن التُّرّهات حسبما حُكي عنهم في سائر السُّور الكريمة. وهذا هو الوجه في نظائره الواردة بطريق القَصر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تعليل للأمر بالإخراج. ووصفُهم بالتطهّر للاستهزاء والسُّخرية بهم وبتطهّرهم مِن الفواحش والخبائث، والافتخارِ بما هم فيه مِن القَذارة كما هو دَيْدن الشُّطّار والدُّعّار.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي: المؤمنين منهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء مِن ﴿أَهْلَهُۥٓ﴾، فإنّها كانت تُسِرّ بالكفر. ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في ديارهم الهالكين فيها. والتذكير للتغليب ولبيان استحقاقها لِما يستحقّه المباشِرون للفاحشة. والجملة استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ / نشأ عن استثنائها مِن حُكم الإنجاء، كأنّه قيل: فماذا كان حالها؟ فقيل: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾. [٣٢٢ظ]

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: نوعًا مِن المَطر عجيبًا. وقد بيّنه قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر، ١٥/٧٤]. قال أبو عبيدة: «"مطَرَ" في الرحمة،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٠.

و"أُمطِرَ" في العذاب».[1] وقال الراغب: «"مطَرَ" في الخير، و"أُمطِرَ" في العذاب».[2] والصحيح أنّ ﴿أَمْطَرْنَا﴾ بمعنى: أرسلنا عليهم إرسالَ المَطر.

قيل: كانت المُؤتَفِكة خمسَ مدائن، وقيل: كانوا أربعةَ آلافٍ بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكِبريت والنارَ، وقيل: خُسِف بالمُقيمين منهم، وأُمطِرت الحجارة على مسافِريهم وشُذّاذهم،[3] وقيل: أُمطرَ عليهم، ثمّ خُسف بهم.[4] ورُوي أنّ تاجرًا منهم كان في الحرَم، فوقف له الحَجَر أربعين يومًا، حتّى قضى تجارتَه، وخرج مِن الحرَم، فوقع عليه.[5] ورُوي أنّ امرأته التفتَتْ نحوَ ديارها، فأصابها حَجَرٌ، فماتت.[6]

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ خطاب لكلّ مَن يتأتّى منه التأمّل والنظرُ تعجيبًا مِن حالهم وتحذيرًا مِن أعمالهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[7] وما عُطف عليه. وقد رُوعيَ ههنا ما في المعطوف عليه مِن تقديم المجرور على المنصوب، أي: وأرسلنا إليهم. وهم أولاد مَدْينَ بنِ إبراهيمَ عليه السلام،[8] وشُعيب بن ميكاييلَ بنِ يشجر بنِ مَدْينَ،[9] وقيل: شُعيب بن ثُويب بنِ مَدْينَ،[10] وقيل: شُعيب بن يثرون بنِ مَدْينَ،[11] وكان يقال له: خَطيب الأنبياء عليهم السلام لحُسن مراجعته قومَه، وكانوا أهلَ بَخْسٍ للمَكاييل والموازين مع كفرهم.[12]

---

١ انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ١/٢٤٥.
٢ انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٧٧٠.
٣ شُذّاذ الناس: الذين يكونون في القوم وليسوا مِن قبائلهم. الصحاح للجوهري، «شذذ».
٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٦.
٥ معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٩٤ (هود، ١١/٨٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٦.
٦ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٦.
٧ الأعراف، ٧/٦٥.
٨ جامع البيان للطبري، ١٠/٣١٠.
٩ اللباب لابن عادل، ٩/٢١٠.
١٠ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥/١٠٣.
١١ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٥٦.
١٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٧.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ عن حكاية إرساله إليهم، كأنّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ مرّ تفسيرُه مرارًا.[١] ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ أي: معجزة. وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَتْكُمْ﴾، أو بمحذوف هو صفة لفاعله مؤكِّدةٌ لفخامته الذاتيّة المستفادة مِن تنكيره بفخامته الإضافيّة، أي: بيّنة عظيمة ظاهرة كائنة مِن ربّكم ومالكِ أموركم.

[٣٢٣و] ولم يُذكَر معجزته / عليه السلام في **القرآن العظيم**، كما لم يُذكَر أكثر معجزات النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. فمنها ما رُوي مِن محارَبةِ عصا موسى عليه السلام التِّنِّينَ حين دفع إليه غنمَه. ومنها ولادة الغَنَم الدُّرْعَ خاصّةً حين وعد أن يكون له الدُّرْع مِن أولادها. ومنها وقوع عصا آدمَ على يده في المرّات السَّبع؛ لأنّ كلّ ذلك كان قبل أن يُستنبأ موسى عليهما السلام.[٢] وقيل: البيّنة مَجيئه عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود، ١١/٨٨]، أي: حجّة واضحة وبرهان نيّر. عُبّر بهما عمّا آتاه الله تعالى مِن النبوّة والحكمة.

﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ أي: المِكيالَ، كما وقع في سورة هود،[٣] ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ فإنّ المتبادر منه الآلةُ، وإن جاز كونُه مصدرًا كـ"المِيعاد". وقيل: آلةَ الكَيل والوزن، على الإضمار. و"الفاء" لترتيب الأمر على مَجيء البيّنة. ويجوز أن يكون عاطفةً على ﴿ٱعْبُدُوا﴾، فإنّ عبادة الله تعالى موجِبةٌ للاجتناب عن المَناهي التي معظَمها بعد الكفر البَخْسُ الذي كانوا يباشرونه.

﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ التي تشترونها بهما[٤] معتمدين على تمامهما أيّ شيءٍ كان وأيّ مقدارٍ كان، فإنّهم كانوا يَبخَسون الجليل والحقير والقليل والكثير. وقيل: كانوا مكّاسين، لا يدَعون شيئًا إلّا مكَسوه، قال زُهَير:

---

١ انظر: تفسير الأعراف، ٧/٥٩.
٢ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/١٢٧.
٣ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود، ١١/٨٤].
٤ س: بها.

أفـي كـلِّ أسـواقِ الـعِـراقِ إتـاوَةٌ   وفي كلِّ ما باعَ امرُؤٌ مَكْسُ دِرهَمِ[١]

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالكفر والحَيْف ﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ بعدما أصلَحَ أمرها وأهلَها الأنبياءُ وأتباعُهم بإجراء الشرائع، أو أصلحوا فيها، وإضافتُه إليها كإضافة "مَكْر الليلِ والنهارِ".[٢]

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه. / ومعنى الخيريّة إمّا الزيادةُ مطلقًا، أو في الإنسانيّة وحُسنِ الأُحدوثة وما يطلبونه مِن التكسّب والربح؛ لأنّ الناس إذا عرفوهم بالأمانة، رغبوا في معاملتهم ومتاجرتهم. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدِّقين بي في قولي هذا. [٣٢٣ظ]

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: بكلّ طريق مِن طُرق الدين كالشيطان. وصراط الحقّ، وإن كان واحدًا، لكنّه يتشعّب إلى معارفَ وحدودٍ وأحكامٍ. وكانوا إذا رأَوا أحدًا يشرع في شيء منها، منعوه. وقيل: كانوا يجلسون على المراصد، فيقولون لمن يريد تشعيبًا: «إنّه كذّابٌ، لا يَفْتِنَنّك عن دينك»، ويتوعّدون لمن آمن به. وقيل: يقطعون الطريق.[٣]

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: السبيلِ الذي قعَدوا عليه، فوضع المُظهَر موضعَ المُضمَر بيانًا لـ﴿كُلِّ صِرَٰطٍ﴾، ودلالةً على عِظم ما يصُدّونه، وتقبيحًا لِما كانوا عليه؛ أو الإيمانِ بالله أو بكلّ صراط، على أنّه عبارة عن طُرق الدين. وقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ مفعول ﴿تَصُدُّونَ﴾ على إعمال الأقرب. ولو كان مفعولَ ﴿تُوعِدُونَ﴾،

---

١ البيت لزُهير في **الفروق اللغويّة** للعسكري، ص ١٧٣؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤١٧/٢-٤١٨؛ ولجابر بن حُنَيّ التّغلبي في **المفضّليّات** للضّبّي، ص ٢١١؛ و**كتاب الحيوان** للجاحظ، ٢١٥/١؛ و**لسان العرب** لابن منظور، «مكس»؛ و**تاج العروس** للزبيدي، «مكس». | الإتاوة: الخَرَاج، والجمع: الأتاوي. والمَكْس: ما يأخذه العَشّار. **الصحاح** للجوهري، «أتا، مكس».

٢ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾... إلخ [سبأ، ٣٣/٣٤]، أي: بل مَكْرهم في الليل والنهار.

٣ انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٣/٣.

لَقيل: وتصُدّونهم. و﴿تُوعِدُونَ﴾ حال مِن الضمير في ﴿تَقْعُدُوا﴾. ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتطلبون لسبيل الله عِوَجًا بإلقاء الشُّبَه أو بوصفها للناس بأنّها مُعْوجّة، وهي أبعدُ شيءٍ مِن شائبة الاعوجاج.

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالبركة في النسل والماء، ﴿وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ مِن الأمم الماضية كقوم نوحٍ ومَن بعدهم مِن عادٍ وثمودَ وأضرابِهم، واعتبِروا بهم.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِالَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِالَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ مِن الشرائع والأحكام، ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ أي: به أو لم يفعلوا الإيمانَ، ﴿فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين بنصر المُحقّين على المُبطِلين؛ فهو وعدٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للكافرين. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَـٰكِمِينَ﴾ إذ لا معقِّبَ لحُكمه، ولا حَيْفَ فيه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

[٣٢٤و] / [١] ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه المقال، كأنّه قيل: فماذا قالوا بعد ما سمعوا هذه المواعظ مِن شُعيب عليه السلام؟ فقيل: قال أشراف قومه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غيرَ مُكتفِين بمجرَّد الاستعصاء عليه والامتناع مِن الطاعة له؛ بل بَالغين مِن العُتوّ والاستكبار إلى أن قصدوا استتباعه عليه السلام فيما هم فيه وأتباعِه المؤمنين، واجترءُوا على إكراههم عليه بوعيد النفي، وخاطبوه عليه السلام بذلك على طريقة التوكيد القَسَميّ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بنسبة الإخراج إليه عليه السلام أوّلًا، وإلى المؤمنين ثانيًا بعطفهم عليه، تنبيهًا على أصالته عليه السلام

---

[١] في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ.

في الإخراج وتَبَعيّتِهم له فيه، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿مَعَكَ﴾؛ فإنّه متعلّق بـ"الإخراج"، لا بـ"الإيمان".

وتوسيط النداء باسمه العَلَمي بين المعطوفَين لزيادة التقرير والتهديد الناشئةِ عن غاية الوقاحة والطغيان، أي: واللهِ لَنُخرِجنّك وأتباعَك ﴿مِن قَرْيَتِنَا﴾ بغضًا لكم ودفعًا لفتنتكم المترتّبة على المساكنة والجوار.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ عطفٌ على جواب القَسم، أي: واللهِ لَيكوننَّ أحدُ الأمرين البتّة، على أنّ المقصد الأصلي هو العَود؛ وإنّما ذُكر النفي والإجلاءُ لمحض القسر والإلجاء، كما يُفصِح عنه عدم تعرّضه عليه السلام لجواب الإخراج، كأنّهم قالوا: لا ندَعُكم فيما بيننا حتّى تدخلوا في ملّتنا. وإدخالهم له عليه السلام في خطاب العَود -مع استحالة كونه عليه السلام في ملّتهم قبل ذلك- إنّما هو بطريق تغليب الجماعة على الواحد. وإنّما لم يقولوا: "أو لَنُعيدَنّكم" على طريقة ما قبله لِما أنّ مرادهم أن يعودوا إليها بصورة الطواعية حذارَ الإخراج باختيار أهونِ الشرَّين، / لا إعادتهم بسائر وجوه الإكراه والتعذيب. [٣٢٤ظ]

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبق، أي: قال عليه السلام ردًّا لمقالتهم الباطلة وتكذيبًا لهم في أيمانهم الفاجرة: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ على أنّ الهمزة لإنكار الوقوع ونفيِه، لا لإنكار الواقع واستقباحِه كالتي في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء، ٢٦/٣٠]. ويجوز أن يكون الاستفهام فيه باقيًا على حاله.

وقد مرّ مرارًا أنّ كلمة "لو" في مثل هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشيء في الزمن الماضي لانتفاء غيره فيه، فلا يلاحَظ لها جوابٌ قد حُذف تعويلًا على دلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديّةً، إلّا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعيّة؛ بل هي لبيان تحقّقِ ما يفيده الكلام السابقُ بالذات[١] أو بالواسطة[٢] مِن الحُكم الموجَب أو المَنفيّ على كلّ حال مفروض مِن الأحوال

---

[١] وفي هامش م: كما في الخبر الموجَب والمَنفيّ والأمر والنهي. «منه».

[٢] وفي هامش م: كما فيما نحن فيه، فإنّ إفادته له بواسطة الفعل المقدّر كما سيأتي. «منه».

المقارنة له[١] على الإجمال، بإدخالها على أبعدها منه[٢] وأشدِّها منافاةً له ليظهرَ بثبوته أو انتفائِه معه ثبوتُه أو انتفاؤُه مع ما عداه مِن الأحوال بطريق الأَوْلويّة، لِما أنّ الشيء متى تحقَّق مع المُنافي القويّ، فلَأَن يتحقّقَ مع غيره أَولى؛ ولذلك لا يذكَر معه شيء مِن سائر الأحوال، ويُكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملةِ لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعدّدها.

وهذا معنى قولِهم: إنّها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال. وهذا المعنى ظاهرٌ في الخبر الموجَب والمَنفيّ والأمرِ والنهي، كما في قولك: "فلانٌ جوادٌ يُعطي ولو كان فقيرًا" و"بخيلٌ لا يُعطي ولو كان غنيًّا"، وقولِك: "أحسِنْ إليه ولو أساء إليك" و"لا تُهِنْه ولو أهانك"، لبقائه على حاله سالمًا عمّا يغيّره.

وأمّا فيما نحن فيه، ففيه نوعُ خفاءٍ لتغيّرِه بورود الإنكار عليه؛ لكنّ الأصل في الكلّ واحد، إلّا أنّ كلمة "لو" في الصُّوَر المذكورة متعلِّقةٌ بنفس الفعل المذكور قبلها، وأنّ ما يُقصَد بيان تحقّقه على كلّ حال هو نفس مدلوله، وأنّ الجملة حالٌ مِن ضميره[٣] أو ممّا يتعلّق به،[٤] وأنّ ما في حيّز "لو" / مقرَّر على ما هو عليه مِن الاستبعاد، بخلاف ما نحن فيه، لِما أنّ كلمة ﴿لَوْ﴾ متعلِّقة فيه بفعل مقدَّر يقتضيه المذكور، وأنّ ما يُقصَد بيان تحقّقه على كلّ حال هو مدلوله، لا مدلول المذكور، وأنّ الجملة حال مِن ضميره، لا مِن ضمير المذكور كما سيأتي، وأنّ المقصود الأصلي إنكار مدلوله مِن حيث مقارنتُه للحالة المذكورة، وأمّا تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة،[٥] وأنّ ما في حيّز ﴿لَوْ﴾ لا يُقصَد استبعاده في نفسه؛ بل يُقصَد الإشعار بأنّه أمر مقرَّر، إلّا أنّه أُخرجَ مُخرَجَ الاستبعاد مبالغةً في الإنكار مِن جهة أنّ العَود ممّا ينكَر عند كون الكراهة أمرًا مستبعَدًا، فكيف به عند كونها أمرًا محقَّقًا، ومعاملةً مع المخاطَبين على معتقَدهم لاستنزالهم مِن رُتبة العناد.

[٣٢٥و]

---

١ أي: للحُكم.

٢ أي: بإدخال "لو" على أبعد الأحوال مِن الحُكم الموجَب أو المَنفيّ.

٣ وفي هامش م س: كما في الأُولَيَين، فإنّها حينئذ حال مِن فاعل "يُعطي" و"لا يُعطي". «منه».

٤ وفي هامش م س: كما في الأُخريَين، فإنّها حينئذ حال مِن ضمير "إليه" و"لا تُهِنْه". «منه».

٥ وفي هامش م: لا لإثبات الإنكار فيه بطريق الأَولويّة. «منه».

وليس المراد بالكراهة مجرّدَ كراهة المؤمنين للعَود في ملّة الكَفَرة ابتداءً حتّى يقالَ: إنّها معلومة لهم، فكيف تكون مستبعدةً عندهم؛ بل إنّما هي كراهتهم له بعد وعيد الإخراج الذي جُعل قرينًا للقتل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية،[1] فإنّهم كانوا يستبعدونها ويطمَعون في أنّهم حينئذ يختارون العَود خشيةَ الإخراج، إذ رُبّ مكروهٍ يُختار عند حلولِ ما هو أشدُّ منه وأفظعُ، والتقدير: أنعودُ فيها لو لم نكنْ كارهين، ولو كنّا كارهين غيرَ مُبالين بالإكراه؟

فالجملة في محلّ النصب على الحاليّة مِن ضمير الفعل المقدَّر حسبما أشيرَ إليه، إذ مآلُه: أنعودُ فيها حالَ عدم الكراهة وحالَ الكراهة، إنكارًا لِما يفيده كلمتهم الشنيعةُ بإطلاقها مِن العَود على أيّ حالة كانت؛ غيرَ أنّه اكتُفيَ بذكر الحالة الثانية التي هي أشدُّ الأحوال منافاةً للعَود وأكثرُها بُعدًا منه تنبيهًا على أنّها هي الواقعة في نفس الأمر، وثقةً بإغنائها عن ذكر الأُولى إغناءً واضحًا؛ لأنّ العَود الذي تعلّق به / الإنكارُ حين تحقَّقَ مع الكراهة على ما يوجبه كلامهم، فلَأن يتحقّقَ مع عدمها أَولى. [٣٢٥ظ]

إن قلتَ: النفي المستفاد مِن الاستفهام الإنكاري فيما نحن فيه بمنزلة صريح النفي، ولا ريبَ في أنّ الأَولويّة هناك معتبرة بالنسبة إلى النفي، ألَا يُرى أنّ الأَولى بالتحقّق فيما ذُكر مِن مثال النفي عند الحالة المسكوت عنها -أعني: عدم الغِنى- هو عدم الإعطاء، لا نفسُه، فكان ينبغي أن يكون الأَولى بالتحقّق فيما نحن فيه عند عدم الكراهة عدم العَود، لا نفسَه، إذ هو الذي يدلّ عليه قولنا: أنعود؟ لأنّه في معنى: لا نعود؛ فلِمَ اختلف الحال بينهما؟

قلتُ: لِما أنّ مناط الأَولويّة هو الحكم الذي أريدَ بيانُ تحققه على كلّ حال. وذلك في مثال النفي عدمُ الإعطاء المستفادُ مِن الفعل المنفيّ المذكور. وأمّا فيما نحن فيه، فهو نفس العَود المستفادُ مِن الفعل المقدَّر، إذ هو الذي يقتضيه الكلام السابق، أعني: قولهم: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾. وأمّا الاستفهام،

---

[1] ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء، ٤/٦٦].

فخارجٌ عنه وارِدٌ عليه لإبطال ما يفيده ونفيِ ما يقتضيه، لا أنّه مِن تمامه كما في صورة النفي.

وتوضيحه: أنّ بين النفيَين فرقًا معنويًّا يختلف به أحكامهما التي مِن جملتها ما ذُكر مِن اعتبار الأَولويّة في أحدهما بالنسبة إلى نفسه، وفي الآخر بالنسبة إلى متعلَّقه؛ ولذلك لا تستقيم إقامة أحدهما مُقامَ الآخَر على وجه الكلّيّة. ألَا يُرى أنّك لو قلتَ مكانَ "أنعود فيها"... إلخ "لا نعود فيها ولو كنّا كارهين"، لَاختلَّ المعنى اختلالًا فاحشًا؛ لأنّ مدلول الأوّل نفيُ العَود المقيَّد بحال الكراهة، ومدلولَ الثاني تقييدُ العَود المنفيّ بها.

وذلك لأنّ حرف النفي يباشر نفسَ الفعل وينفيه، وما يُذكَر بعده يرجع إليه مِن حيث هو منفيّ. وأمّا همزة الاستفهام، فإنّما تباشر /[٣٢٦و] الفعلَ بعد تقيّده بما بعده، لِما أنّ دلالتها على الإنكار والنفي ليست بدلالة وضعيّة كدلالة حرف النفي حتّى يتعلّقَ معناها بنفس الفعل الذي يليها، ويكونَ ما بعده راجعًا إليه مِن حيث هو منفيّ؛ بل هي دلالة عقليّة مستفادة مِن سياق الكلام، فلا بدّ أن يكون ما يُذكَر بعد الفعل مِن موانعه ودواعي إنكاره ونفيِه حتمًا ليكون قرينةً صارفةً للهمزة عن حقيقتها إلى معنى الإنكار والنفي.

ثمّ لمّا كان المقصود نفيَ الحُكم على كلّ حال مع الاقتصار على ذكر بعضٍ منها مُغنٍ[١] عن ذكر ما عداه[٢] لاستلزام تحقّقِه معه تحقُّقَه مع غيره بطريق الأَولويّة، وكانت حال الكراهة عند كونها قيدًا لنفس العَود كذلك -أي: مُغنيًا عن ذكر سائر الأحوال ضرورةَ أنّ تحقّق العَود في حال الكراهة مستلزِمٌ لتحقّقه في حال عدمها البتّة- وعند كونها قيدًا لنفيه بخلاف ذلك -أي: غيرَ مُغنٍ عن ذكر غيرها ضرورةَ أنّ نفي العَود في حال الكراهة لا يستلزم نفيَه في غيرها؛ بل الأمرُ بالعكس، فإنّ نفيه في حال الإرادة مستلزم لنفيه في حال الكراهة قطعًا- استقامَ[٣] الأوّلُ[٤] لإفادته نفيَ العَود في الحالتين مع الاقتصار

---

١ وفي هامش م: صفة لـ"بعضٍ". «منه».

٢ ط س: عداها | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، ولعلّه بعد نسخ ط س.

٣ وفي هامش م: جواب "لمّا". «منه».

٤ وفي هامش م: وهو "أَنَعود". «منه».

على ذكر ما هو مُغنٍ عن ذكر الأخرى، ولم يستقم الثاني[١] لعدم إفادته إيّاه على الوجه المذكور.

إن قيل: فما وجهُ استقامتهما جميعًا عند ذكر المعطوفَين معًا، حيث يصحّ أن يقال: "لا نعودُ فيها لو لم نكن كارهين، ولو كنّا كارهين"، كما يصحّ أن يقال: "أنعودُ فيها لو لم نكن كارهين، ولو كنّا كارهين"، مع أنّ المقدَّر في حكم الملفوظ؟

قلنا: وجهُها أنّ كلًّا منهما يفيد معنًى صحيحًا في نفسه؛ لا أنّ معنى أحدهما عينُ معنى الآخر أو متلازمان متّفِقان في جميع الأحكام؛ كيف لا، ومدلول الأوّل أنّ العَود منتفٍ في الحالتين، / ومدلولُ الثاني أنّ العَود في الحالتين منتفٍ، وكِلا المعنيَين صحيحٌ في نفسه مصحِّحٌ لنفي العَود في الحالتين مع ذكرهما معًا؛ غيرَ أنّ الثاني مصحِّح لنفي العَود في الحالتين مع الاقتصار على ذكر حالة الكراهة، على عكس المعنى الأوّل، فإنّه مصحِّح لنفيه فيهما مع الاقتصار على ذكر حالة الإرادة. [٣٢٦ظ]

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: كذبًا عظيمًا لا يقادَر قدره، ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ التي هي الشرك. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: إن عُدْنا في ملّتكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ فقد افترَينا على الله كذبًا عظيمًا، حيث نزعُم حينئذ أنّ لله تعالى نِدًّا، وليس كمِثله شيءٌ، وأنّه قد تبيَّن لنا أنّ ما كنّا عليه مِن الإسلام باطلٌ، وأنّ ما كنتم عليه مِن الكفر حقٌّ، وأيُّ افتراءٍ أعظمُ مِن ذلك؟ وقيل: إنّه جوابُ قَسم محذوف حُذف عنه اللام، تقديره: واللهِ لقد افترينا... إلخ.

---

[١] وفي هامش م: وهو "لا نعود". «منه».

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ أي: وما يصِحّ وما يستقيم لنا ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾ في حال مِن الأحوال أو في وقت مِن الأوقات ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلّا حالَ مشيئة الله تعالى[1] أو وقتَ مشيئته تعالى لعَودنا فيها. وذلك ممّا لا يكاد يكون كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا﴾؛ فإنّ التعرّض لعنوان ربوبيّته تعالى لهم ممّا يُنبئ عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعًا. وكذا قوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾؛ فإنّ تَنْجيته تعالى لهم منها مِن دلائل عدم مشيئته لعَودهم فيها.

وقيل: معناه: إلّا أن يشاء الله خِذلاننا. وقيل: فيه دليل على أنّ الكفر بمشيئته تعالى. وأيًا ما كان، فليس المراد بذلك بيانَ أنّ العَود فيها في حيّز الإمكان وخطر الوقوع / بناءً على كون مشيئته تعالى كذلك؛ بل بيان استحالة [٣٢٧و] وقوعها، كأنّه قيل: وما كان لنا أن نعود فيها إلّا أن يشاء الله ربُّنا؛ وهيهاتَ ذلك بدليل ما ذُكر مِن موجِبات عدم مشيئته تعالى له.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فهو محيط بكلّ ما كان وما سيكون مِن الأشياء التي مِن جملتها أحوال عباده وعزائمُهم ونيّاتُهم وما هو اللائق بكلّ واحد منهم، فمحالٌ مِن لُطفه أن يشاء عَودنا فيها بعد ما نجّانا منها مع اعتصامنا به خاصّةً، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: في أن يثبّتنا على ما نحن عليه مِن الإيمان، ويتمّ علينا نعمته بإنجائنا مِن الإشراك بالكلّيّة. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار للمبالغة في التضرّع والجُؤار.[2]

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ إعراض عن مفاوضتهم إثرَ ما ظهر له عليه السلام أنّهم مِن العُتوّ والعناد بحيث لا يُتصوّر منهم الإيمان أصلًا، وإقبالٌ على الله تعالى بالدعاء لفصل ما بينه وبينهم بما يَليق بحال كلٍّ مِن الفريقين، أي: احكُمْ بيننا بالحقّ، والفُتاحة: الحكومة؛ أو أَظهِرْ أمرَنا حتّى ينكشفَ ما بيننا وبينهم ويتميّزَ المُحقّ مِن المبطِل، مِن "فتَحَ المُشكِلَ" إذا بيّنه. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ تذييل مقرّر لمضمون ما قبله على المعنيين.

---

[1] م - تعالى.

[2] الجُؤار مثل الخُوار. يقال: جأَرَ الثور يَجأرُ، أي: صاح. وجأَرَ الرجلُ إلى الله عزّ وجلّ، أي: تضرَّعَ بالدعاء. **الصحاح** للجوهري، «جأر».

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ عطفٌ على ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ﴾... إلخ.[1] ولعلّ هؤلاء غيرُ أولئك المستكبرين ودونهم في الرتبة، شأنُهم الوساطةُ بينهم وبين العامّة والقيامُ بأمورهم حسبما يراه المستكبرون. ويجوز أن يكونوا عينَ الأوّلين، وتغييرُ الصلة لِما أنّ مدار قولهم هذا هو الكفر، كما أنّ مناط قولهم السابق هو الاستكبار. أي: قال أشرافهم الذين أصرّوا على الكفر لأعقابهم بعد ما شاهدوا صلابةَ شُعيبٍ عليه السلام ومَن معه مِن المؤمنين في الإيمان وخافوا أن يستتبعوا قومهم، تثبيطًا لهم عن الإيمان به وتنفيرًا لهم عنه، / على [٣٢٧ظ] طريقة التوكيد القَسميّ: واللهِ ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ ودخلتم في دينه وتركتم دين آبائكم، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: في الدين لاشترائكم الضلالةَ بهُداكم، أو في الدنيا لفَوَات ما يحصل لكم بالبَخْس والتطفيف. و﴿إِذًا﴾ حرفُ جواب وجزاءٍ، معترِضٌ بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرِها. والجملة سادّة مسدَّ جوابَي الشرط والقَسم الذي وطّأته "اللام".

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٩١﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة. وهكذا في سورة العنكبوت.[2] وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود، ٩٤/١١]، أي: صيحةُ جبريلَ عليه السلام. ولعلّها مِن مبادي الرَّجْفة، فأُسندَ هلاكهم إلى السبب القريب تارةً وإلى البعيد[3] أخرى. ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ﴾ أي: في مدينتهم. وفي سورة هودٍ: ﴿فِى دِيَٰرِهِمْ﴾ [هود، ٩٤/١١]. ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي: ميّتين لازمين لأماكنهم، لا بَراح لهم منها.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ٩٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا﴾ استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم فيما سبق:

---

[1] الأعراف، ٨٨/٧.

[2] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت، ٣٧/٢٩].

[3] وفي هامش م: وهو صيحة جبريل. «منه».

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾[1] وعقوبتِهم بمقابلته. والموصول مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي: استُؤصِلوا بالمرّة، وصاروا كأنّهم لم يقيموا بقريتهم أصلًا، أي: عُوقِبوا بقولهم ذلك، وصاروا هم المُخرَجين مِن القرية إخراجًا لا دخولَ بعده أبدًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ استئناف آخرُ لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير. وإعادة الموصول والصلةِ كما هي لزيادة التقرير والإيذانِ بأنّ ما ذُكر في حيّز الصلة هو الذي استَوْجب العقوبتين، / أي: الذين كذّبوه عليه السلام عُوقِبوا بمقالتهم الأخيرة، فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين، لا المتّبِعون له عليه السلام. وبهذا القَصر اكتُفي عن التصريح بإنجائه عليه السلام كما وقع في سورة هود مِن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا[2] جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾... إلخ [هود، ٩٤/١١]. [٣٢٨و]

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٩٣﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ قاله عليه السلام بعد ما هلكوا تأسّفًا بهم لشدّة حُزنه عليهم. ثمّ أنكر على نفسه ذلك، فقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أي: أحزَنُ حزنًا شديدًا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ مُصرّين على الكفر، ليسوا أهلَ حزنٍ لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم. أو قاله اعتذارًا عن عدم شدّة حُزنه عليهم، والمعنى: لقد بالغتُ في الإبلاغ والإنذار وبذلتُ وُسعي في النُّصح والإشفاق، فلم تصدِّقوا قولي، فكيف آسَى عليكم؟ وقُرئ: ﴿ءَاسَىٰ﴾[3] بإمالتين.

---

[1] الأعراف: ٨٨/٧.
[2] م س: فلمّا.
[3] الإمالة الأولى في "آ" في الألف التي بعد الهمزة على أنّ أصله "أأسَى"، والثانية في "سى" في الألف التي بعد السين. ذكرها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ٢٤/٣. وذكرها الكرماني في شواذّ القراءات، ص ١٩٠؛ والزمخشري في الكشّاف، ١٣١/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٢٣١/٩، ولم يصرّحوا بالإمالة الثانية، ونسبوها إلى يحيى بن وثّاب وطلحة بن مصرّف والأعمش وإبراهيم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ إشارة إجماليّة إلى بيان أحوال سائر الأمم إثرَ بيان أحوال الأمم المذكورة تفصيلًا. و﴿مِنْ﴾ مزيدة لتأكيد النفي، والصفةُ محذوفة، أي: مِن نبيّ كُذّب أو كذّبه أهلها.[1] ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال. و﴿أَخَذْنَا﴾ في محلّ النصب مِن فاعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾. والفعل الماضي لا يقع بعد "إلّا" إلّا بأحد شرطين: إمّا تقديرِ "قد" كما في هذه الآية، أو مقارنةِ "قد" كما في قولك: "ما زيد إلّا قد قام". والتقدير: وما أرسلنا في قرية مِن القُرى المهلَكة / نبيًا مِن الأنبياء في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كوننا آخذين أهلَها ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالبُؤس والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالضُّرّ والمرض؛ لكنْ لا على معنى أنّ ابتداء الإرسال مقارنٌ للأخذ المذكور، بل على أنّه مستتبع له غيرُ منفكٍّ عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتّباع نبيّهم وتعزّزِهم عليه حسبما فعلت الأمم المذكورة. [٣٢٨ظ]

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ كيْ يتضرّعوا ويتذلّلوا ويحُطّوا أرديةَ الكِبر والعزّة عن أكتافهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام، ٤٢/٦].

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾ عطفٌ على ﴿أَخَذْنَا﴾،[2] داخلٌ في حكمه. ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ التي أصابتهم للغاية المذكورة ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدلَ ما كانوا فيه مِن البلاء والمِحنة الرخاءَ والسعةَ، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف، ١٦٨/٧].

﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي: كثُروا عَدَدًا وعُدَدًا -مِن "عَفَا النباتُ" إذا كثُر وتكاثَف- وأبطرتْهم النعمةُ، ﴿وَّقَالُوا۟﴾ غيرَ واقفين على أنّ ما أصابهم مِن الأمرين ابتلاءٌ

---

[1] س: أهله.

[2] في الآية السابقة.

مِن الله سبحانه: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ كما مسّنا ذلك، وما هو إلّا مِن عادة الدهر، يعاقِبُ في الناس بين الضرّاء والسرّاء مِن غير أن يكون هناك داعية تؤدِّي إليهما أو تبعةٌ تترتّب عليهما. ولعلّ تأخيرَ ﴿ٱلسَّرَّآءُ﴾ للإشعار بأنّها تعقب الضرّاءَ، فلا ضيرَ فيها.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ إثرَ ذلك ﴿بَغْتَةً﴾ فَجْأةً أشدَّ الأخذِ وأفظعَه، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك ولا يُخطِرون ببالهم شيئًا مِن المَكاره، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا / بِمَآ أُوتُوٓا﴾ الآية [الأنعام، ٤٤/٦]. وليس المراد بالأخذ بغتةً إهلاكَهم طَرْفةَ عينٍ [٣٢٩و] كإهلاك عادٍ وقوم لوطٍ؛ بل ما يعمّه. وما يمضي بين الأخذ وإتمام الإهلاك أيّامٌ كدأب ثمودَ.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: القُرى المهلَكة المدلولَ عليها بقوله تعالى: ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾.[١] وقيل: هي مكّةُ وما حولها مِن القُرى. وقيل جنس القُرى المنتظمة لِما ذُكر منها انتظامًا أوّليًا. ﴿ءَامَنُوا﴾ بما أُوحيَ إلى أنبيائهم معتبِرين بما جرى عليهم مِن الابتلاء بالضرّاء والسرّاء. ﴿وَٱتَّقَوْا﴾ أي: الكفرَ والمعاصيَ أو اتّقَوا ما أُنذروا به على ألسنة الأنبياء، ولم يُصرّوا على ما فعلوا مِن القبائح، ولم يحملوا ابتلاء الله تعالى على عادات الدهر. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «وحّدوا الله واتّقَوا الشرك».[٢]

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لَوسّعْنا عليهم الخيرَ ويسّرناه لهم مِن كلّ جانب مكانَ ما أصابهم مِن فنون العقوبات التي بعضها مِن السماء وبعضها مِن الأرض. وقيل: المراد المطر والنبات.[٣] وقُرئ: "لَفَتَّحْنَا"[٤] بالتشديد للتكثير.

---

١ الأعراف، ٩٤/٧.

٢ **التفسير البسيط** للواحدي، ٢٤٨/٩.

٣ م ط س – النبات ["صح" في هامش م]. ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٤ قرأ بها ابن عامر. واختُلف فيها عن ابن جمّاز ورُويس. انظر: **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٨٦؛ وشرح **طيّبة النشر** لابن الجزري، ص ٢٢٣.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ أي: ولكنْ لم يؤمنوا ولم يتّقوا. وقد اكتُفي بذكر الأوّل لاستلزامه للثاني. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن أنواع الكفر والمعاصي التي مِن جملتها قولُهم: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا﴾... إلخ.[١] وهذا الأخذ عبارة عمّا في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾،[٢] لا عن الجَدْب والقَحْط كما قيل؛[٣] فإنّهما قد زالَا بتبديل الحسنة مكانَ السيّئة.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهل القُرى المذكورة، / على وضع المُظهَر موضعَ المُضمَر للإيذان بأنّ مدار التوبيخ أمنُ كلّ طائفةٍ ما أتاهم مِن البأس، لا أمنُ مجموع الأمم؛ فإنّ كلّ طائفة منهم أصابهم بأس خاصّ بهم، لا يتعدّاهم إلى غيرهم كما سيأتي. والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، لا لإنكار الوقوع ونفيه كما قاله أبو شامةَ[٤] وغيرُه، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف، ٧/٩٩]. [٣٢٩ظ]

و"الفاء" للعطف على ﴿أَخَذْنَٰهُمْ﴾،[٥] وما بينهما اعتراضٌ توسَّط بينهما للمسارعة إلى بيانِ أنّ الأخذ المذكور ممّا كسبته أيديهم، والمعنى: أَبَعد ذلك الأخذ أَمِنَ أهلُ القُرى ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ أي: تبييتًا أو وقتَ بياتٍ أو مبيَّتًا أو مبيَّتين. وهو في الأصل مصدرٌ بمعنى "البَيْتوتة"، ويجيء بمعنى "التبييت"، كـ"السلام" بمعنى "التسليم". ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ حال مِن ضميرهم البارز أو المستترِ في ﴿بَيَٰتًا﴾.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ﴾ إنكار بعد إنكار للمبالغة في التوبيخ والتشديد؛ ولذلك لم يُقَل: أفَأَمِنَ أهلُ القُرى أن يأتيَهم بأسنا بياتًا وهم نائمون، أو ضحًى وهم يلعَبون؟

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ وفي هامش م: ابن عادل. «منه». | اللباب لابن عادل، ٩/٢٣٥.

٤ اللباب لابن عادل، ٩/٢٣٧.

٥ في الآية السابقة.

وقُرئ: "أَوْ"[١] بسكون الواو على الترديد. ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ أي: ضَحْوةَ[٢] النهار. وهو في الأصل: ضَوْء الشمس إذا ارتفعت. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: يلهون مِن فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم، كأنّهم يلعبون.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٩٩﴾

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ تكرير للنكير لزيادة التقرير. ومكرُ الله تعالى استعارةٌ لاستدراجه العبدَ وأخذِه مِن حيث لا يحتسب، والمراد به إتيان بأسه تعالى في الوقتين المذكورين؛ ولذلك عُطف الأوّل والثالثُ بـ"الفاء"، فإنّ الإنكار / فيهما [٣٣٠و] متوجّه إلى ترتّب الأمن على الأخذ المذكور، وأمّا الثاني، فمِن تتمّة الأوّل. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الذين خسِروا أنفسَهم وأضاعوا فطرة الله التي فطر الناسَ عليها والاستعدادَ القريب المستفاد مِن النظر في الآيات.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٠٠﴾

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي: يخلُفون مَن خَلَا قبلهم مِن الأمم المهلَكة ويرثون ديارَهم. والمراد بهم أهل مكّةَ ومَن حولها. وتعدية فعل الهداية بـ"اللام"، إمّا لتنزيلها منزلةَ اللازم، كأنّه قيل: أَغَفَلوا ولم يفعل الهداية لهم... إلخ، وإمّا لأنّها بمعنى "التبيين"، والمفعول محذوف، والفاعل على التقديرين هو الجملة الشرطيّة، أي: أوَلم يبيِّن لهم مآلُ أمرهم ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أنّ الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم أو بسبب ذنوبهم كما أصبنا مَن قبلهم. وقُرئ: "نَهْدِ"[٣] بنون العظمة، فالجملة مفعوله.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطفٌ على ما يُفهَم مِن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾، كأنّه قيل: لا يهتدون أو يغفُلون عن الهداية أو عن التفكّر والتأمّل، أو منقطِعٌ عنه

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

٢ س: ضحوة.

٣ قراءة شاذّة. ذكرها ابن عادل في اللباب، ٩/٢٣٨، ونسبها إلى مجاهد وقتادة ويعقوب.

بمعنى: ونحن نطبَع. ولا يجوز عطفه على ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ على أنّه بمعنى: طبعنا، لإفضائه إلى نفي الطَّبع عنهم؛ لأنّه في سياق جواب ﴿لَوْ﴾. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبارَ الأمم المهلَكة، فضلًا عن التدبّر والنظر فيها والاغتنامِ بما في تضاعيفها مِن الهدايات.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ جملة مستأنَفة جارية مَجرى الفَذْلكة لِما قبلها مِن القِصص، منبِئةٌ عن غاية غَواية الأمم / المذكورة وتَماديهم فيها بعد ما أتتهم الرُّسل بالمعجزات الباهرة. و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قُرى الأمم المَحكيّة على أنّ "اللام" للعهد، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ خبرُه. وصيغة المضارع للإيذان بعدم انقضاء القصّة بعدُ. و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، أي: بعض أخبارها التي فيها عِظة وتذكير. وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ خبره، وما بعده حال، أو خبر بعد خبر عند مَن يجوّز كون الخبر الثاني جملةً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٢٠]. [٣٣٠ظ]

وتصدير الكلام بذكر ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ وإضافة "الأنباء" إليها -مع أنّ المقصوص أنباءُ أهلها والمقصودَ بيانُ أحوالهم حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾- لِما أنّ حكاية هلاكهم بالمرّة على وجه الاستئصال بحيث يشمل أماكنَهم أيضًا بالخَسف بها والرَّجْفة وبقائِها خاويةً معطَّلةً أهولُ وأفظعُ.

و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ متعلِّقة إمّا بالفعل المذكور على أنّها للتعدية، وإمّا بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعله، أي: ملتبسين بالبيّنات، لكنْ لا بأن يأتيَ كلُّ رسول ببيّنة واحدة؛ بل ببيّنات كثيرة خاصّةٍ به معيَّنةٍ له حسب اقتضاء الحكمة، فإنّ مراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنّما هي فيما بين الرُّسل وضميرِ الأمم.

والجملة[١] مستأنَفة مبيّنة لكمال عُتوّهم وعنادهم، أي: وبالله لقد جاء كلَّ أمّةٍ مِن تلك الأمم المهلَكة / رسولهم الخاصُّ بهم بالمعجزات البيّنة المتكثّرة المتواردة عليهم الواضحةِ الدلالةِ على صحّة رسالته الموجِبةِ للإيمان حتمًا. [٣٣١و]

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوا﴾ بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي، لا لعدم استمرار إيمانهم. وترتيب حالهم هذه على مَجيء الرُّسل بالبيّنات بـ"الفاء" لِما أنّ الاستمرار على فعل مِن الأفعال بعد ورودِ ما يوجِب الإقلاعَ عنه، وإن كان استمرارًا عليه في الحقيقة، لكنّه بحسب العنوان فعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ، نحو: "وعظتُه فلم ينزجِز" و"دعوتُه فلم يُجب". و"اللام" لتأكيد النفي، أي: فما صحّ وما استقام لقوم مِن أولئك الأقوام في وقت مِن الأوقات أن يؤمنوا؛ بل كان ذلك ممتنعًا منهم إلى أن لَقُوا ما لَقُوا لغاية عُتوّهم وشدّةِ شكيمتهم في الكفر والطغيان.

ثمّ إن كان المَحكيّ عنهم آخرَ حال كلّ قوم منهم، فالمراد بعدم إيمانهم المذكور ههنا إصرارُهم على ذلك بعد اللّتيّا والتي، وبما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ تكذيبُهم مِن لَدُنْ مَجيءِ الرُّسل إلى وقت الإصرار والعناد. وإنّما لم يُجعل ذلك مقصودًا بالذات كالأوّل -بل جُعل صلةً للموصول- إيذانًا بأنّه بيّنٌ بنفسه، وإنّما المحتاج إلى البيان عدمُ إيمانهم بعد تواتر البيّنات الظاهرة وتظاهرِ المعجزات الباهرة التي كانت تَضطرّهم إلى القبول لو كانوا مِن أصحاب العقول. والموصول الذي تعلَّقَ به / الإيمان والتكذيبُ سلبًا وإيجابًا عبارةٌ عن جميع الشرائع التي جاء بها كلّ رسول، أصولِها وفروعِها. [٣٣١ظ]

وإن كان المَحكيّ جميعَ أحوال كلّ قوم منهم، فالمراد بما ذُكر أوّلًا كفرهم المستمرُّ مِن حين مَجيء الرُّسل إلى آخره، وبما أشيرَ إليه آخِرًا تكذيبُهم قبل مَجيئهم. فلا بدّ مِن جعل الموصول المذكور عبارةً عن أصول الشرائع التي أجمعتْ عليها الرُّسل قاطبةً ودعَوا أممَهم إليها آثِرَ ذي أثيرٍ[٢] لاستحالة تبدّلها وتغيّرِها،

---

[١] أي: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

[٢] أفعلُ هذا آثِرَ ذي أثيرٍ، أي: أوّلَ كلّ شيء. الصحاح للجوهري، «أثر».

مثل ملّة التوحيد ولوازمِها، ومعنى تكذيبهم بها قبل مَجيء رُسلهم: أنّهم ما كانوا في زمن الجاهليّة بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قطّ؛ بل كانت كلُّ أمّة مِن أولئك الأمم يتسامعون بها مِن بقايا مَن قَبلهم فيكذّبونها، ثمّ كانت حالتُهم بعد مَجيء رُسلهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يُبعَث إليهم أحد.

وتخصيص التكذيب وعدمُ الإيمان بما ذُكر مِن الأصول لظهور حال الباقي بدلالة النصّ، فإنّهم حين لم يؤمنوا بما أجمعتْ عليه كافّة الرُّسل، فلأَن لا يؤمنوا بما تفرَّد به بعضُهم أولى. وعدمُ جعل هذا التكذيب مقصودًا بالذات لِما أنّ ما عليه يدور فلك العذاب والعقاب هو التكذيب الواقعُ بعد الدعوة حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٥/١٧]. وإنّما ذُكر ما وقع قبلها بيانًا لعراقتهم / في الكفر والتكذيب. [٣٣٢و]

وعلى كلا التقديرين، فالضمائر الثلاثة متوافقة في المرجِع. وقيل:[١] ضمير ﴿كَذَّبُوا﴾ راجعٌ إلى أسلافهم، والمعنى: فما كان الأبناء لِيؤمنوا بما كذّب به الآباءُ. ولا يخفى ما فيه مِن التعسّف. وقيل:[٢] المراد: ما كانوا لِيؤمنوا لو أحيَيْناهم بعد إهلاكهم وردَدْناهم إلى دار التكليف بما[٣] كذّبوا مِن قبلُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام، ٢٨/٦].

وقيل: "الباء" للسببيّة، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: بسبب تعوّدِهم تكذيبَ الحقّ وتمرّنِهم عليه قبل بعثة الرُّسل. ولا يَرِدُ عليه ههنا ما ورَدَ في سورة يونسَ مِن مخالفة الجمهور بجعل ﴿مَا﴾ المصدريّةِ مِن قبيل الأسماء -كما هو رأي الأخفش

---

١ وفي هامش م: قاله يماني وابن عطيّة. «منه». | انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤٣٤/٢. | ابن عطيّة هو: عبد الحقّ بن غالب بن عبد الرحمن بن عطيّة المُحاربي الغرناطي الأندلسي، أبو محمّد (ت. ٥٤١هـ/١١٤٧م). مفسّر، فقيه. كان عارفًا بالأحكام والحديث والتفسير بارعًا في الأدب، ذا ضبط وتقييد وتجويد وذهن سيّال. روى عن أبيه وغيره. وروى عنه أبو جعفر بن مَضاء وعبد المنعم بن الفرس وأبو محمّد عبيد الله وأبو القاسم بن حبيش، وآخرون. وله شعر. ولي قضاء المَرية. له: المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، وبرنامج في ذكر مرويّاته وأسماء شيوخه. انظر: فوات الوفيات للكُتبي، ٢٥٦/٢؛ وطبقات المفسّرين للداوودي، ٢٦٥/١-٢٦٧.

٢ قاله مجاهد كما في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤٣٤/٢.

٣ قوله: "بما كذّبوا" متعلّق بقوله: "لِيؤمنوا".

وابنِ السرّاج-[١] ليرجعَ إليه الضمير في ﴿بِهِۦ﴾.[٢]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطّبع الشديد المحكَم ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مِن المذكورين وغيرهم، فلا يكاد يؤثِر فيها الآيات والنُّذُر. وفيه تحذير للسامعين. وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وإدخال الروعة.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ۝١٠٢﴾

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أي: أكثرِ الأمم المذكورين. و"اللام" متعلِّقة بالوجدان، كما في قولك: "ما وجدتُ له مالًا"، أي: ما صادفتُ له مالًا ولا لقيتُه، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن قوله: ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾؛ لأنّه في الأصل صفة للنكرة، فلمّا قُدّمت عليها انتصبت حالًا، والأصل: ما وجدنا عهدًا كائنًا لأكثرهم، و﴿مِنْ﴾ مزيدة للاستغراق، أي: وما وجدنا لأكثرهم مِن وفاءِ عهدٍ؛ فإنّهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه عند مساس البَأْساء والضَّرّاء، قائلين: «لَئن أنجيْتَنا مِن هذه لَنكونَنّ مِن الشاكرين»،[٣] فتخصيص هذا الشأن بـ﴿أَكْثَرِهِمْ﴾ ليس لأنّ بعضهم كانوا يَفُون بعهودهم؛ بل لأنّ بعضهم كانوا لا يعهَدون ولا يَفُون. / وقيل: المراد بـ"العهد" ما عَهِد الله تعالى إليهم مِن الإيمان والتقوى بنصب الآيات وإنزالِ الحُجج؛ وقيل: ما عَهِدوا عند خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف، ٧/١٧٢]، فالمراد بـ﴿أَكْثَرِهِمْ﴾ كلُّهم. وقيل: الضمير لـ"الناس"، والجملة اعتراض، فإنّ أكثرهم لا يَفُون بالعهود بأيّ معنًى كان. [٣٣٢ظ]

---

١ قول الأخفش في المقتضب للمبرّد، ٣/٢٠٠؛ وقول ابن السرّاج في كتابه الأصول في النحو، ١/١٦١. | ابن السرّاج هو: محمّد بن السَّرِي بن سَهْل البغدادي، أبو بكر (ت. ٣١٦هـ/٩٢٩م). أحد أئمّة الأدب والعربيّة. صحب أبا العبّاس المبرّد، وأخذ عنه العلم. روى عنه أبو القاسم الزجّاجي وأبو سعيد السيرافي وعليّ بن عيسى الرُّماني. يقال: ما زال النحو مجنونًا حتّى عقله ابن السرّاج بأصوله. وكان عارفًا بالموسيقى. مِن كتبه: الأصول والموجَز في النحو، وشرح كتاب سيبويه، والشعر والشعراء، والخطّ والهجاء، والمواصَلات والمذكَّرات في الأخبار، والعروض. انظر: معجم الأدباء للحَمَوي، ٦/٢٥٣٤-٢٥٣٧؛ وبغية الوعاة للسيوطي، ١/١٠٩-١١٠.

٢ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾... إلخ [يونس، ١٠/٧٤]. | انظر: تفسير المصنّف في يونس، ١٠/٧٤.

٣ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس، ١٠/٢٢].

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر الأمم، أي: علمناهم، كما في قولك: "وجدتُ زيدًا ذَا حِفاظٍ". وقيل: الأوّل[1] أيضًا كذلك. و﴿إِنْ﴾ مخفّفة مِن "إنّ"، وضمير الشأن محذوف، أي: إنّ الشأن وجدناهم ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود؛ وعند الكوفيّين ﴿إِنْ﴾ نافية، و"اللام" بمعنى "إلّا"، أي: ما وجدناهم إلّا فاسقين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ أي: أرسلناه مِن بعد انقضاء وقائع الرُّسل المذكورين عليهم السلام، أو مِن بعد هلاك الأمم المَحكيّة. والتصريح بذلك -مع دلالة ﴿ثُمَّ﴾ على التراخي- للإيذان بأنّ بعثه عليه السلام جَزئيٌّ على سَنَن السنّة الإلهيّة مِن إرسال الرُّسل تَتْرى. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن مفعول ﴿بَعَثْنَا﴾، أو صفةً لمصدره، أي: بعثناه عليه السلام ملتبسًا بآياتنا، أو بعثناه بَعْثًا ملتبسًا بها. وهي الآيات التِّسع المفصَّلاتُ التي هي: العصا واليد البيضاء والسِّنونَ ونقصُ الثَّمرات والطُّوفان والجَرَاد والقُمَّل والضَّفادِع والدم، / حسبما سيأتي على التفصيل.[2] [٣٣٣و]

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو لقبٌ لكلّ مَن ملك مصرَ مِن العَمالقة، كما أنّ كِسرى لقبٌ لكلّ مَن ملك فارسَ، وقَيْصرَ لكلّ مَن ملك الروم. واسمه: قابوس، وقيل: الوليد بن مصعب بن الريّان. ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه. وتخصيصهم بالذِّكر -مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافّةً، حيث كانوا جميعًا مأمورين بعبادة ربّ العالمين عزَّ سلطانُه وتركِ العظيمة الشَّنْعاء التي كان يدّعيها الطاغية ويقبلها منه فِئَتُه الباغية- لأصالتهم في تدبير الأمور واتّباعِ غيرهم لهم في الورود والصدور.

---

١ أي: ﴿وَجَدْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾. ٢ انظر: الأعراف، ١٣٣/٧.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي: كفروا بها؛ أُجريَ الظلم مُجرى الكفر لكونهما مِن وادٍ واحدٍ، أو ضُمّن معنى الكفر أو التكذيب، أي: ظلموا كافرين بها أو مكذِّبين بها، أو كفروا بها مكانَ الإيمان الذي هو مِن حقّها لوضوحها؛ ولهذا المعنى وُضع ﴿ظَلَمُوا﴾ موضعَ "كفروا". وقيل: ظلموا أنفسهم بسببها بأن عرّضوها للعذاب الخالد، أو ظلموا الناس بصَدّهم عن الإيمان بها. والمراد به الاستمرار على الكفر بها إلى أنْ لَقُوا مِن العذاب ما لَقُوا؛ ألَا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فكما أنّ ظلمهم بها مستتبع لتلك العاقبة الهائلة، كذلك حكاية ظلمهم بها مستتبع للأمر بالنظر إليها.

و﴿كَيْفَ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾، قُدّم على اسمها لاقتضائه الصدارةَ. والجملة في حيّز النصب بإسقاط الخافض، أي: فانظرْ بِعين عقلك إلى / كيفيّة ما فعلنا بهم. [٣٣٣ظ] ووضعُ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ موضعَ ضميرهم للإيذان بأنّ الظلم مستلزم للإفساد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ كلامٌ مبتدَأٌ مَسوقٌ لتفصيل ما أُجملَ فيما قبله مِن كيفيّة إظهار الآيات وكيفيّةِ عاقبة المفسدين. ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾ أي: إليك ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على الوجه الذي مرّ بيانه.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ جواب عمّا ينساق إليه الذهن مِن حكاية ظلمهم بالآيات مِن تكذيبه إيّاه عليه السلام في دعوى الرسالة. وكان أصله: حقيقٌ عليَّ ألّا أقولَ... إلخ، كما هو قراءة نافع،[١] فقُلِب للأمن مِن الإلباس، كما في قول مَن قال:

---

[١] النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

وتَشقَى الرِّماحُ بالضَّياطِرةِ الحُمْرِ[1]

أو لأنّ ما لزِمَك فقد لزِمتَه،[2] أو للإعراق في الوصف بالصدق، والمعنى: واجبٌ على القول الحقّ أن أكون أنا قائلَه، لا يرضى إلّا بمِثْلي ناطقًا به، أو ضُمِّن ﴿حَقِيقٌ﴾ معنى "حريص"، أو وُضِع على موضع "الباء" لإفادة التمكّن، كقولهم: "رميتُ على القوس" و"جئتُ على حال حسنة"، ويؤيّده قراءة أُبيّ بالباء.[3] وقُرئ: "حَقِيقٌ أَنْ لَا أَقُولَ".[4]

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن كونه رسولًا مِن ربّ العالمين وكونِه حقيقًا بقول الحقّ. ولم يكن هذا القول منه عليه السلام وما بعده مِن جواب فرعونَ إثْرَ ما ذُكر ههنا؛ بل بعد ما جرى بينهما مِن المحاورة المَحكيّة بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ الآيات [طه، ٤٩/٢٠] وقولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآيات [الشعراء، ٢٣/٢٦]، وقد طُوي ههنا ذكرُه للإيجاز.

و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة إمّا بـ﴿جِئْتُكُمْ﴾ على أنّها لابتداء الغاية مجازًا، وإمّا بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿بَيِّنَةٍ﴾ مفيدةً لفخامتها الإضافيّة المؤكِّدة لفخامتها الذاتيّة المستفادةِ مِن التنوين التفخيميّ. وإضافة اسم "الربّ" إلى المخاطَبين بعد إضافته فيما قبله إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5] / لتأكيد وجوب الإيمان بها. [٣٣٤و]

---

[1] عجز بيت، صدره:
وتلحَقُ خَيلٌ لا هَوَادةَ بينها
وهو لخداش بن زُهير في الكامل للمبرّد، ٤٨/٢؛ والصحاح للجوهري، «ضطر»؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ٢١١/١؛ والإيضاح للقزويني، ص ١٦٧. | الهَوَادة: الصلح والمَيل. والتهويد: المَشْي الرُّويد، مثل الدبيب. الضَّيطَر: الرّجل الضّخم الذي لا غَناء عنده. والحُمْر: العجَم؛ لأنّ الشُّقرة غلَبت عليهم. وأصل البيت: "وتَشقَى الضَّياطِرةُ بالرِّماح"، أي: أنّهم يُقتَلون بها. انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٥٠١/٦.

[2] أي: فلمّا كان قول الحقّ حقيقًا عليه، كان هو حقيقًا على قول الحقّ، أي: لازمًا له.

[3] أي: "حَقِيقٌ بِأَنْ لَا أَقُولَ"، وهي قراءة شاذّة، ذكرها عنه الزمخشري في الكشّاف، ١٣٧/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٢٤٧/٩. وزاد الثاني بنسبتها إلى الأعمش.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ١٣٦/٢-١٣٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢٩/٥.

[5] في الآية السابقة.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: فخَلِّهم حتّى يذهبوا معي إلى الأرض المقدَّسة التي هي وطنُ آبائهم. وكان قد استعبدهم بعد انقراض الأسباط يستعملهم ويكلّفهم الأفاعيلَ الشاقّةَ، فأنقذهم الله تعالى بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل يوسفُ مصرَ واليومِ الذي دخله موسى عليهما السلام أربعُمائة عامٍ.[1] و"الفاء" لترتيب الإرسال أو الأمرِ به على ما قبله مِن رسالته عليه السلام ومَجيئِه بالبيّنة.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤالٍ ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال فرعونُ له عليه السلام حين قال ما قال؟ فقيل: قال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: مِن عند مَن أرسلك كما تَدّعيه، ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ أي: فأحضِرْها حتّى يثبت بها رسالتك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فإنّ كونك مِن جملة المعروفين بالصدق يقتضي إظهارَ الآية لا محالةَ.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهرٌ أمرُه، لا يُشَكّ في كونه ثُعبانًا، وهو الحَيّة العظيمة. وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على كمال سرعة الانقلاب وثبات وصف الثُّعبانيّة فيها، كأنّها في الأصل كذلك. رُوي أنّه لمّا ألقاها صارت ثُعبانًا أشعَرَ، فاغرًا فاهُ،[2] بين لَحْيَيْهِ ثمانون ذِراعًا، وضَعَ لَحْيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سُور القَصر، ثمّ توجَّهَ نحو فرعونَ، فهرب منه وأحدَثَ، وانهزم الناسُ مُزدحمين، فمات منهم خمسةٌ وعشرون ألفًا، فصاح فرعونُ: «يا موسى، أنشُدك بالذي أرسلك، خُذْه وأنا أُومِن بك وأُرسِل معك بني إسرائيلَ»، فأخذه، فعاد عصًا.[3]

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٢.

[2] فَغَرَ فاهُ، أي: فتَحَه. وفَغَرَ فُوهُ، أي: انفتح. يتعدّى ولا يتعدّى. الصحاح للجوهري، «فغر».

[3] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٢.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ١٠٨﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: مِن جَيْبه / أو مِن تحت إِبْطه، ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [٣٣٤ظ] أي: بيضاءُ بياضًا نُورانيًا خارجًا عن العادة، يجتمع عليه النُّظّارة تعجّبًا مِن أمرها. وذلك ما يُروى أنّه أرَى فرعونَ يدَه وقال: «ما هذه؟»، فقال: «يدُك»، ثمّ أدخلها جَيْبه وعليه مِدرَعةُ صُوفٍ، ونزعها، فإذا هي بيضاءُ بياضًا نُورانيًا غلب شُعاعُه شُعاعَ الشمس، وكان عليه السلام آدَمَ شديدَ الأُدْمة.[١] وقيل: بيضاءُ للناظرين، لا أنّها كانت بيضاءَ في جِبِلّتها.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ١١٠ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ١١٢﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: الأشرافُ منهم، وهم أصحاب مشورته: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: مبالِغ في علم السحر ماهرٌ فيه. قالوه تصديقًا لفرعونَ وتقريرًا لكلامه، فإنّ هذا القول بعينه مَعزيّ في سورة الشعراء إليه.[٢]

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: مِن أرض مصرَ، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بفتح النون. و﴿مَا﴾ في ﴿مَاذَا﴾ في محلّ النصب على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿تَأْمُرُونَ﴾ بحذف الجارّ، والأوّل محذوف، والتقدير: بأيّ شيء تأمرونني. وهذا مِن كلام فرعونَ، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف، ٥٢/١٢]، أي: فإذا كان كذلك، فماذا تُشيرون عليّ في أمره؟ وقيل: قاله المَلأ عن قِبَله بطريق التبليغ إلى العامّة.

فقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ على الأوّل -وهو الأظهر- حكاية لكلام المَلأ الذين شاوَرهم فرعونُ، وعلى الثاني لكلام العامّة الذين خاطَبهم المَلأُ، ويأباه أنّ الخطاب لفرعونَ، وأنّ المشاورة ليست مِن وظائفهم. أي: أخِّره وأخاه.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٢. | الآدَم مِن الناس: الأسمر. والأُدْمة: السُّمرة. الصحاح للجوهري، «أدم».

٢ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء، ٣٤/٢٦].

[٣٣٥و] وعدمُ التعرّض لذِكره قبلُ[١] / لظهور كونه معه حسبما ينادي به الآيات الأُخَرُ، والمعنى: أخِّرْ أمرهما وأصدِرْهما عنك حتّى ترى رأيك فيهما وتدبِّرَ شأنهما. وقُرئ: "أَرْجِئْهُ" و"أَرْجِهِ"،[٢] مِن "أرجأه" و"أرجاه".

﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ قيل: هي مدائنُ صعيدِ مصرَ. وكان رؤساء السَّحَرة ومَهَرتُهم بأقصى مدائن الصعيد. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّهم كانوا سبعين ساحرًا، قد أخذوا السحر مِن رَجلين مجوسيَّين مِن أهل نينوى مدينةِ يونسَ عليه السلام بالمَوصِل»،[٣] ورُدّ[٤] ذلك بأنّ المجوسيّة ظهرت بِزرادشت، وهو إنّما جاء بعد موسى عليه السلام.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي: ماهرٍ في السحر. وقُرئ: "بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ".[٥] والجملة جواب الأمر.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد ما أرسَلَ إليهم الحاشرين. وإنّما لم يصرَّح به حسبما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء، ٥٣/٢٦] للإيذان بمسارعة فرعونَ إلى الإرسال ومبادرةِ الحاشرين والسَّحَرة إلى الامتثال.

﴿قَالُوا﴾ استئناف مَنوط بسؤالٍ نشأ مِن حكاية مَجيء السَّحَرة، كأنّه قيل: فماذا قالوا له عند مَجيئهم إيّاه؟ فقيل: قالوا مُدلِّين بما عندهم واثقين بغلبتهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ بطريق الإخبار بثبوت الأجر وإيجابِه، كأنّهم قالوا: لا بدَّ لنا مِن أجر عظيم حينئذ؛ أو بطريق الاستفهام التقريري بحذف الهمزة،

---

[١] ط س - لذكره قبلُ. | زاده المؤلّف في نهاية السطر، ولعلّ الزيادة بعد نسخ ط س.

[٢] قرأ بالأولى ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر في رواية هشام وأبو بكر بخلاف. وقرأ بالثانية نافع والكسائي. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٨٧-٢٨٩؛ والنشر لابن الجزري، ٣٠٤/١-٣١٣.

[٣] اللباب لابن عادل، ٢٥٦/٩. وهو عن الكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٤/٣.

[٤] هو الرازي في تفسيره، ٣٣٢/١٤.

[٥] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧١/٢.

وقُرئ بإثباتها.[١] وقولهم: ﴿إِن كُنَّا﴾ لمجرَّد تعيين مناط ثبوت الأجر، لا لتردّدِهم في الغلبة. وتوسيط الضمير وتحليةُ الخبر بـ"اللام" للقَصر، أي: / إنْ كنّا نحن الغالبين، لا موسى. [٣٣٥ظ]

﴿قَالَ نَعَمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ سدّ مَسدَّه حرفُ الإيجاب، كأنّه قال: إنّ لكم لَأجرًا، وإنكم مع ذلك لَمِن المقرَّبين، للمبالغة في الترغيب. ورُوي أنّه قال لهم: «تكونون أوّلَ مَن يدخل مَجلسي وآخِرَ مَن يخرج عنه».[٢]

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف كما مرّ، كأنّه قيل: فماذا فعلوا بعد ذلك؟ فقيل: قالوا متصدّين لشأنهم مخاطِبين لموسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ ما تُلقي أوّلًا، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ أي: لِما نُلقي أوّلًا أو الفاعلين للإلقاء أوّلًا. خيَّروه عليه السلام بالبَدْء بالإلقاء مراعاةً للأدب وإظهارًا للجلادة، وأنّه لا يختلف حالهم بالتقديم والتأخير؛ ولكن كانت رغبتهم في التقديم كما يُنبئ عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيطِ ضمير الفصل وتأكيدِ الضمير المتّصل.

﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ غيرَ مبالٍ بأمرهم، أي: أَلقُوا ما تُلقُون، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا﴾ ما ألقَوا ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيّلوا إليهم ما لا حقيقةَ له، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: بالغوا في إرهابهم، ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في بابه. رُوي أنّهم ألقَوا حِبالًا غِلاظًا وخُشُبًا طِوالًا، كأنّها حيّات ملأت الواديَ وركب بعضُها بعضًا.[٣]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ "الفاء" فصيحة،

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وعاصم في رواية حفص. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٨٩.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ١٣٩/٢.

[٣] التفسير البسيط للواحدي، ٢٨١/٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٣.

أي: فألقاها، فصارت حيّةً، فإذا هي الآية. وإنّما حُذف للإشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب، كأنّ لَقْفها لِما يَأفِكون قد حصل متّصلًا بالأمر بالإلقاء. وصيغة المضارع لاستحضار صورة اللَّقْف الهائلة / والإفك الصّرف والقلب عن الوجه المعتاد. و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، [٣٣٦و] والعائد محذوف، أي: ما يَأفِكونه ويزوّرونه، أو مصدريّةٌ، وهي مع الفعل بمعنى المفعول. رُوي أنّه لمّا تلقّفت مِلءَ الوادي مِن الخُشُب والحِبال، ورفعها موسى، فرجعت عصًا كما كانت، وأعدم الله تعالى بقدرته القاهرة تلك الأجرام العظامَ أو فرّقها أجزاءً لطيفةً، قالت السَّحَرة: لو كان هذا سحرًا لَبقيتْ حِبالنا وعِصيُّنا.[١]

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: فثبت لظهور أمره، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ظهر بطلانُ ما كانوا مستمرّين على عمله.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿فَغُلِبُوا۟﴾ أي: فرعون وقومُه ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في مجلسهم، ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ أي: صاروا أذِلّاءَ مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذِلّاءَ مقهورين. والأوّل هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾؛ فإنّ ذلك كان بمحضر مِن فرعونَ قطعًا، أي: خرُّوا سُجّدًا كأنّما ألقاهم مُلقٍ لشدّة خرورهم؛ كيف لا، وقد بهرهم الحقّ واضطرّهم إلى ذلك.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أبدلوا الثانيَ مِن الأوّل لئلّا يُتوهّم أنّ مرادهم فرعون. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: «لمّا آمنت السَّحَرة اتّبع موسى مِن بني إسرائيلَ ستُّمائةِ ألفٍ».[٢]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١٤١/٢.

[٢] جامع البيان للطبري، ٣٧١/١٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٧/٣.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ منكِرًا على السَّحَرة موبّخًا لهم على ما فعلوه: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بهمزة واحدة، إمّا على الإخبار المحض المتضمِّنِ للتوبيخ، أو على الاستفهام التوبيخي بحذف الهمزة، كما مرّ في: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف، ١١٣/٧]. وقد قُرِئ بتحقيق الهمزتين معًا،[١] وبتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بيْنَ بين.[٢] أي: / آمنتم بالله تعالى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: بغير أنْ آذَنَ لكم، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]؛ لا أنّ الإذن منه ممكن في ذلك. [٣٣٦ظ]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ يعني: إنّ ما صنعتموه ليس ممّا اقتضى الحال صدورَه عنكم لقوّة الدليل وظهور المعجزة؛ بل هو حيلة احتملتموها مع مواطأة موسى ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني: مصرَ قبل أن تخرجوا إلى المِيعاد. رُوي أنّ موسى عليه السلام وأميرَ السَّحَرة التقَيا، فقال له موسى عليه السلام: «أرأيتَك إنْ غلبتُك، أتؤمن بي وتشهد أنّ ما جئتُ به الحقُّ؟»، فقال الساحر: «واللهِ لَئن غلبتَني لَأُومننَّ بك»، وفرعونُ يسمعهما، وهو الذي نشأ عنه هذا القول.[٣] ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: القِبطَ وتخلصَ هي لكم[٤] ولبني إسرائيلَ.

وهاتان شُبهتان ألقاهما إلى أسماع عوامّ القِبط عند معاينتهم لارتفاع أعلام المعجزة ومشاهدتِهم لخضوع أعناق السَّحَرة لها وعدمِ تمالكِهم مِن أن يؤمنوا بها؛ ليمنعهم بهما عن الإيمان بنبوّة موسى عليه السلام بإراءةِ أنّ إيمان السَّحَرة مبنيٌّ على المواضعة بينهم وبين موسى عليه السلام،[٥] وأنّ غرضهم بذلك

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ورَوح، واختلف عن هشام. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٨/١-٣٦٩.

٢ قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر وقالون وورش مِن طريق الأزرق والبَزّي وابن ذَكوان. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٨/١-٣٦٩.

٣ جامع البيان للطبري، ٣٦٢/١٠؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٨/٩.

٤ ط س: لك. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٥ م - عليه السلام.

إخراجُ القوم مِن المدينة وإبطالُ مُلكهم؛ ومعلوم أنّ مفارقة الأوطان المألوفة والنعمةِ المعروفة ممّا لا يُطاق به، فجمع اللعينُ بين الشُّبهتين تثبيتًا للقِبط على ما هم عليه وتهييجًا لعداوتهم له عليه السلام، ثمّ عقَّبهما بالوعيد ليُرِيَهم أنّ له قوّةً وقدرةً على المدافعة، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبةَ ما فعلتم.

[٣٣٧و] وهذا وعيد ساقَه بطريق / الإجمال للتهويل، ثمّ عقَّبه بالتفصيل، فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: مِن كلّ شقٍّ طرفًا، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحًا لكم وتنكيلًا لأمثالكم. قيل: هو أوّلُ مَن سنَّ ذلك،[١] فشرعه الله تعالى لقُطّاع الطريق تعظيمًا لجُرمهم؛ ولذلك سمّاه تعالى محاربةً لله ورسوله.[٢]

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟﴾ استئناف مَسوق للجواب عن سؤالٍ ينساق إليه الذهن، كأنّه قيل: فماذا قالت السَّحَرة عندما سمعوا وعيد فرعونَ؛ هل تأثّروا به أو تصلَّبوا فيما هم فيه مِن الدين؟ فقيل: قالوا ثابتين على ما أحدثوا مِن الإيمان: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: بالموت لا محالةَ، فسواء كان ذلك مِن قِبلك أو لا، فلا نُبالي بوعيدك؛ أو إنّا إلى رحمة ربّنا وثوابِه منقلبون إن فعلتَ بنا ذلك، كأنّهم استطابوه شَغَفًا على لقاء الله تعالى؛ أو إنّا جميعًا إلى ربّنا منقلبون، فيحكم بيننا وبينك.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ أي: وما تُنكر وتَعيب منّا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وهو خيرُ الأعمال وأصلُ المَفاخر، ليس ممّا يتأتّى لنا العُدولُ عنه طلبًا لمَرضاتك. ثمّ أعرضوا عن مخاطبته إظهارًا لِما في قلوبهم مِن العزيمة على ما قالوا

---

[١] قاله سعيد بن جبير عن ابن عبّاس. جامع البيان للطبري، ١٠/٣٦٣.

[٢] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة، ٣٣/٥].

وتقريرًا له، ففزعوا إلى الله عزّ وجلّ وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أي: أَفِض علينا مِن الصبر ما يغمُرنا كما يغمر الماءُ، أو صُبَّ علينا ما يطهِّرنا مِن أوضار الأوزار وأدناسِ الآثام، وهو الصبر على وعيد فرعونَ. / ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [٣٣٧ظ] ثابتين على ما رزقتَنا مِن الإسلام غيرَ مفتونين مِن الوعيد. قيل: فعَلَ بهم ما أوعدهم به. وقيل: لم يقدر عليه لقوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص، ٢٨/٣٥].[١]

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ مخاطِبين له بعد ما شاهدوا ما شاهدوا[٢] مِن أمر موسى عليه السلام: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرض مصرَ بتغيير الناس عليك وصرفِهم عن متابعتك، ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطفٌ على ﴿يُفۡسِدُوا﴾، أو جوابُ الاستفهام بالواو، كما في قول الحُطَيئة:[٣]

ألم أكُ[٤] جارَكم ويكونَ بيني وبينكم المَوَدّةُ والإخاءُ[٥]

أي: أيكون منك تركُ موسى ويكونَ تركه إيّاك؟ وقُرئ بالرفع[٦] عطفًا على ﴿تَذَرُ﴾ أو استئنافًا أو حالًا. وقُرئ بالسكون،[٧] كأنّه قيل: يُفسدوا ويذَرْك، كقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون، ٦٣/١٠].

---

١ وفي هامش م: واعلم أنّه ليس في القرآن أنّ فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به، ولم يثبت في الأخبار. لباب ابن عادل. «منه». | اللباب لابن عادل، ١٣/٣٣٠ (طه، ٢٠/٧٦).

٢ س – ما شاهدوا.

٣ هو جَرْوَل بن أوس بن مالك العَبْسي، أبو مُليكة (ت. ٥٩هـ/٦٧٨م [؟]). شاعر مخضرَم، أدرك الجاهليّة والإسلام. لُقّب "الحُطيئة" لِقصره وقُربه مِن الأرض. كان هجّاءًا عنيفًا، لم يكد يُسلم مِن لسانه أحد. وهجا أمّه وأباه ونفسه. له: ديوان شعر. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ١/٣١٠-٣١٦؛ والأعلام للزركلي، ٢/١١٨.

٤ س: يك.

٥ البيت في ديوانه، ص ٨٩. وفي مطبوعه: "ألم أكُ مسلمًا فيكونَ" مكان "ألم أكُ جارَكم ويكونَ".

٦ أي: "وَيَذَرُكَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن نُعيم بن مَيسرة والحسن بخلاف عنه. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٥٦.

٧ أي: "وَيَذَرْكَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٥٦.

﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ ومعبوداتِك. قيل: إنّه كان يعبد الكواكب.[١] وقيل: صنع لقومه أصنامًا وأمرهم بأن يعبدوها تقرّبًا إليه؛[٢] ولذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.[٣] وقُرئ: "وَإِلٰهَتَكَ"،[٤] أي: عبادتَك.

﴿قَالَ﴾ مُجيبًا لهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كما كنّا نفعل بهم ذلك مِن قبلُ ليُعلَم أنّا على ما كنّا عليه مِن القهر والغلبة، ولا يُتوهَّمَ أنّه المولود الذي حكَمَ المنجّمون والكَهَنةُ بذَهاب مُلكنا على يديه. وقُرئ: "سَنَقْتُلُ"[٥] بالتخفيف. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ كما كنّا، لم يتغيَّر حالُنا أصلًا، وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾

[٣٣٨و] / ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ تسليةً لهم وعِدةً بحُسن العاقبة حين سمعوا قول فرعونَ وتضجّروا منه: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ على ما سمعتم مِن أقاويله الباطلة، ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ أي: أرضَ مصرَ، أو جنسَ الأرض، وهي داخلة فيها دخولًا أوّليًا. ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين أنتم منهم. وفيه إيذان بأنّ الاستعانة بالله تعالى والصبرَ مِن باب التقوى. وقُرئ: "وَالْعَاقِبَةَ"[٦] بالنصب عطفًا على اسم ﴿إِنَّ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٢٩﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: بنو إسرائيلَ: ﴿أُوذِينَا﴾ أي: مِن جهة فرعونَ ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/٣.
[٢] الكشّاف للزمخشري، ١٤٣/٢.
[٣] النازعات، ٢٤/٧٩.
[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن عبّاس وابن مسعود وأنس بن مالك وعلقمة والجحدري والتيمي وأبي طالوت وأبي رجاء. المحتسَب لابن جنّي، ٢٥٨/١.
[٥] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧١/٢.
[٦] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١٤٣/٢، ونسبها إلى أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود.

أي: بالرسالة. يَعنُون بذلك قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام وبعدَه. ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي: رسولًا. يَعنُون به ما توعَّدهم به مِن إعادة قتل الأبناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام مِن فنون الجَور والظلم والعذاب. وأمّا ما كانوا يُستعبَدون به ويُمتهَنون فيه مِن أنواع الخِدَم والمِهَن كما قيل،[1] فليس ممّا يلحقهم بواسطته عليه السلام، فليس لذِكره كثيرُ ملابسة بالمقام.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام لمّا رأى شدّة جَزَعِهم ممّا شاهدوه مسلّيًا لهم بالتصريح بما لوّح به في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾... إلخ.[2] ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الذي فعل بكم ما فعل وتوعَّدكم بإعادته، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يجعلَكم خُلفاءَ في أرض مصرَ، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أحَسنًا أم قبيحًا، فيجازيَكم حسبما يظهر / منكم مِن الأعمال. وفيه تأكيد للتسلية وتحقيق للأمر. [٢٣٨ظ]

قيل:[3] لعلّ الإتيانَ بفعل الطمَع لعدم الجزم منه عليه السلام بأنّهم هم المستخلَفون بأعيانهم، أو أولادهم، فقد رُوي أنّ مصرَ إنّما فُتحت في زمن داودَ عليه السلام؛ ولا يساعده قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]؛ فإنّ المتبادر استخلاف أنفس المستضعَفين، لا استخلافُ أولادهم، وإنّما مَجيءُ فعل الطمع للجَرْي على سَنَن الكبرياء.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ شروع في تفصيل مبادي الهلاك الموعود، وإيذان بأنّه تعالى لم يُمهِلهم بعد ذلك، ولم يكونوا في خفض ودَعَة؛ بل رُتّبت أسباب هلاكهم، فتحوّلوا مِن حال إلى حال إلى أن حلَّ بهم عذابُ الاستئصال. وتصدير الجملة بالقَسم لإظهار الاعتناء بمضمونها.

---

[1] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٤٣/٢-١٤٤.

[2] في الآية السابقة.

[3] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣٠/٣.

والسِّنُونَ: جمعُ "سَنَة". والمراد بها عامُ القَحْط. وفيها لغتان، أشهرُهما إجراؤها مُجرى المذكَّر السالم، فيُرفَع بالواو، ويُنصَب ويُجَرّ بالياء، ويُحذَف نونه بالإضافة. واللغة الثانية إجراءُ الإعراب على النون، ولكن مع الياء خاصّةً، إمّا بإثبات تنوينها أو بحذفه. قال الفرّاء: «هي في هذه اللغة مصروفةٌ عند بني عامرٍ وغيرُ مصروفةٍ عند بني تَميم».[1] ووجهُ حذف التنوين التخفيفُ، وحينئذ لا يُحذف النون للإضافة، وعلى ذلك جاء قول الشاعر:

دعـانِـيَ مِـن نـجـدٍ فـإنّ سِنِينَه لَعِبْنَ بنا شِيبًا وشيَّبْنَنَا مُـرْدا[2]

وجاءِ الحديث: «اللّهمّ اجعَلْها عليهم سِنِينَ كسِنِي يوسفَ»،[3] و«سِنِينًا كسِنِينِ يوسفَ»،[4] باللغتين.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بإصابة العاهات. عن كعب: «يأتي على الناس زمانٌ لا تحمِل النَّخْلةُ إلّا تَمْرةً».[5] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أمّا السِّنونَ فكانت لِباديَتهم / وأهلِ ماشيَتهم، وأمّا نقصُ الثَّمَرات فكان في أمصارهم».[6] [٣٣٩و]

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ كَيْ يتذكّروا ويتّعِظوا بذلك، ويقِفوا على أنّ ذلك لأجل معاصيهم، وينزجروا عمّا هم عليه مِن العُتوّ والعناد. قال الزجّاج: «إنّ أحوال الشدّة ترقِّقُ القلوبَ وترغِّب فيما عند الله عزّ وجلّ وفي الرجوع إليه تعالى؛ ألَا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت، ٥١/٤١]».[7] وقد مرّ تحقيق القول في ﴿لَعَلَّ﴾ وفي محلّها في تفسير قوله عزّ وجلّ:[8] ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة، ٢١/٢] في أوائل سورة البقرة.

---

١ لم نقف عليه في معاني القرآن. نقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٧٤/٩.

٢ البيت للصِّمّة بن عبد الله القشيري في ديوانه، ص ٧٨. وفي مطبوعه: "دَعَوني" مكان "دعاني". والشاهد فيه: أنّ النون في "فإنّ سِنِينَه" لمّا جرى عليها الإعراب لم تُحذَف مع إضافة الكلمة إلى ضمير "نجد".

٣ صحيح البخاري، ٤٤/٨ (٦٢٠٠)؛ صحيح مسلم، ٤٦٧/١ (٦٧٥).

٤ لم نقف عليه بلفظه في كتب الحديث. ذكره الرازي في تفسيره، ٣٤٣/١٤؛ وابن عادل في اللباب، ٢٧٤/٩.

٥ جامع البيان للطبري، ٣٧٥/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ١٤٤/٢.

٦ الكشّاف للزمخشري، ١٤٤/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٧/٥.

٧ انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٣٦٨/٢.

٨ س: تعالى.

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾... إلخ بيان لعدم تذكّرهم وتَماديهم في الغَيّ، أي: فإذا جاءتهم السَّعَة والخِصْب وغيرهما مِن الخيرات ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: لأجلنا واستحقاقنا لها، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أي: جَدْب وبلاء ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: يتشاءموا بهم ويقولوا: «ما أصابتنا إلّا بشُؤمهم». وهذا -كما ترى- شاهدٌ بكمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغباوتهم، فإنّ الشدائد ترقِّق القلوبَ وتليِّن العرائكَ، لاسيّما بعد مشاهدة الآيات، وقد كانوا بحيث لم يؤثِّر فيهم شيء منها؛ بل ازدادوا عُتوًّا وعِنادًا. وتعريف ﴿ٱلۡحَسَنَة﴾ وذكرُها بأداة التحقيق للإيذان بكثرة وقوعها وتعلّقِ الإرادة بها بالذات، كما أنّ تنكير "السيّئة" وإيرادَها بحرف الشكّ للإشعار بندرة وقوعها وعدمِ تعلّق الإرادة بها إلّا بالعَرَض.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ / استئناف مَسوق مِن قِبله تعالى [٣٣٩ظ] لردّ مقالتهم الباطلة وتحقيقِ الحقّ في ذلك، وتصديرُه بكلمة التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي: ليس سببُ خيرهم وشرّهم إلّا عنده تعالى، وهو حكمُه ومشيئتُه المتضمّنة للحِكم والمصالح؛ أو ليس سبب شُؤمهم -وهو أعمالهم السيّئة- إلّا عنده تعالى، أي: مكتوبةٌ لَدَيه، فإنّها التي ساقت إليهم ما يَسُوءهم، لا ما عداها. وقُرِئ: "إِنَّمَا طَيْرُهُمْ"،[١] وهو اسمُ جمعِ "طائرٍ"، وقيل: جمعٌ له.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، فيقولون ما يقولون ممّا حُكي عنهم. وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم للإشعار بأنّ بعضهم يعلمون أنّ ما أصابهم مِن الخير والشرّ مِن جهة الله تعالى، أو يعلمون أنّ ما أصابهم مِن المصائب والبلايا ليس إلّا بما كسبت أيديهم، ولكنْ لا يعلمون بمقتضاه عنادًا واستكبارًا.

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ شروع في بيان بعضٍ آخرَ ممّا أُخذ به آل فرعونَ مِن فنون العذاب

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٣.

التي هي في أنفسها آياتٌ بيّناتٌ وعدمِ[١] ارعِوائهم مع ذلك عمّا كانوا عليه مِن الكفر والعناد، أي: قالوا بعد ما رأَوا ما رأَوا مِن شأن العصا والسِّنِينَ ونقص الثَّمرات: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾ كلمةُ "مَهْمَا" تُستعمل للشرط والجزاء، وأصلها: "ما" الجزائيّة، ضُمّت إليها "ما" المزيدةُ للتأكيد، كما ضُمّت إلى "أَيْنَ" و"إنْ" في: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ﴾ [النساء، ٧٨/٤] و﴿إِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف، ٤١/٤٣]؛ خلا أنّ ألِف الأُولى قُلبت هاءً حذارًا مِن تكرير المتجانسَين. هذا هو الرأي السديد. وقيل: "مَهْ" كلمةٌ / يصوّت بها الناهي، ضُمّت إليها "ما" الشرطيّة. ومحلّها الرفع بالابتداء، أو النصبُ بفعلٍ يفسّره ما بعدها، أي: أيَّ شيءٍ تظهره لدينا؟ [٣٤٠و]

وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ بيان لـ﴿مَهْمَا﴾. وتسميتهم إيّاها آيةً لمجاراتهم على رأي موسى عليه السلام واستهزائِهم بها، وللإشعار بأنّ عنوان كونها آيةً لا يؤثِّر فيهم. وقوله تعالى: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾... إلخ إظهار لكمال الطغيان والغُلوّ فيه، وتسميةٌ للإرشاد إلى الحقّ بالسِّحر وتسكير الأبصار. والضميران المجروران راجعان إلى ﴿مَهْمَا﴾؛ وتذكيرُ الأوّل لمراعاة جانب اللفظ لإبهامه، وتأنيثُ الثاني للمحافظة على جانب المعنى لتبيينه بـ﴿ءَايَةٍ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر، ٢/٣٥].

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدِّقين لك ومؤمنين لنبوّتك.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ عقوبةً لجرائمهم، لاسيّما لقولهم هذا. ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ أي: الماءَ الذي طافَ بهم وغشِيَ أماكنهم وحروثَهم مِن مطَر أو سَيل. وقيل: هو الجُدَريّ، وقيل: الموتان،[٢] وقيل: الطاعون. ﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ قيل: هو كِبار القِرْدان، وقيل: أولادُ الجَراد قبل نبات أجنِحتها، ﴿وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾.

---

[١] عطفٌ على "بعض آخر"... إلخ.

[٢] المَوَتان: خلاف الحَيَوان. والمُوتانُ: موتٌ يقع في الماشية. الصحاح للجوهري، «موت».

رُوي أنّهم مُطروا ثمانيةَ أيّام في ظلمة شديدة، لا يستطيع أن يخرج أحد مِن بيته، ودخل الماء بيوتهم حتّى قاموا فيه إلى تراقيهم، ولم يدخل / بيوتَ [٣٤٠ظ] بني إسرائيلَ منه قطرةٌ وهي في خلال بيوتهم، وفاضَ الماء على أرضهم وركَدَ، فمنعهم مِن الحَرث والتصرّف، ودام ذلك سبعةَ أيّام، فقالوا له عليه السلام: «ادعُ لنا ربَّك يكشِفْ عنّا، ونحن نؤمن بك»، فدعا، فكُشف عنهم، فنبت مِن العُشب والكَلَأ ما لم يُعهَد قبله، ولم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجَرَاد، فأكل زروعهم وثِمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثِيابَهم، ففزِعوا إليه عليه السلام كما ذُكر، فخرج إلى الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرِق والمغرِب، فرجعتْ إلى النواحي التي جاءت منها، فلم يؤمنوا، فسلَّط الله تعالى عليهم القُمّلَ، فأكل ما أبقتْه الجَرَاد، وكان يقع في أطعِمتهم ويدخل بين ثِيابهم وجلودهم فيمُصّها، ففزِعوا إليه ثالثًا، فرفع عنهم، فقالوا: «قد تحقّقْنا الآنَ أنّك ساحرٌ»، ثمّ أرسل الله تعالى عليهم الضَّفادِع بحيث لا يكشَف ثَوب ولا طعام إلّا وُجدت فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم، وتثبّ إلى قدورهم وهي تَغْلي وإلى أفواههم عند التكلّم، ففزعوا إليه رابعًا وتضرّعوا، فأخذ عليهم العهود، فدعا، فكشف الله عنهم، فنقضوا العهدَ، فأرسل الله عليهم الدمَ، فصارت مِياههم دماءً، حتّى كان يجتمع القِبطي والإسرائيلي على إناءٍ، فيكون ما يليه دمًا وما يلي الإسرائيلي ماءً على حاله، ويمصّ مِن فم الإسرائيليّ، فيَصير دمًا في فِيهِ، وقيل: سلّط الله عليهم الرُّعاف.[١]

﴿ءَايَٰتٍ﴾ حال / مِن المنصوبات المذكورة. ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبيَّناتٍ، لا يُشكل [٣٤١و] على عاقل أنّها آيات الله تعالى[٢] ونِقمته؛ وقيل: مفرَّقاتٍ بعضُها مِن بعضٍ لامتحان أحوالهم. وكان بين كلّ اثنتين منها شهرٌ، وكان امتدادُ كلّ واحدة منها أسبوعًا. وقيل: إنّه عليه السلام لبِث فيهم بعد ما غلب السَّحَرة عشرين سنةً يُريهم هذه الآياتِ على مَهلٍ.[٣] ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي: عن الإيمان بها، ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ جملة معترِضة مقرِّرة لمضمون ما قبلها.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٠-٣١. وانظر للتفصيل: الكشّاف للزمخشري، ٢/١٤٦-١٤٨.

٢ م - تعالى.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣١.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: العذاب المذكور على التفصيل، فـ"اللام" للجنس المنتظم لكلّ واحدة مِن الآيات المفصَّلة، أي: كلّما وقع عليهم عقوبة مِن تلك العقوبات ﴿قَالُواْ﴾ في كلّ مرّة: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بعهده عندك،[١] وهو النبوّة، أو بالذي عهِد إليك أن تدعوَه، فيُجيبَك كما أجابك في آياتك. وهو صلة لـ﴿ٱدْعُ﴾، أو حال مِن الضمير فيه بمعنى: ادعُ الله متوسّلًا إليه بما عهِد عندك، أو متعلِّق بمحذوفٍ دلَّ عليه التماسُهم، مثل: "أسعِفْنا إلى ما نطلب بحقِ ما عندك"، أو قَسَمٌ أجيبَ بقوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ الذي وقع علينا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أقسَمْنا بعهد الله عندك لَئن كشفتَ... إلخ.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

[٣٤١ظ] ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ / إلى حدٍّ مِن الزمان هم بالِغوه، فمعذَّبون بعده أو مهلَكون، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جوابُ ﴿لَمَّا﴾، أي: فلمّا كشفنا عنهم، فاجَئُوا النَّكْث مِن غير تأمّل وتوقّف.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: فأردنا أن ننتقم منهم لِما أسلفوا مِن المعاصي والجرائم؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ عينُ الانتقام منهم، فلا يصحّ دخول "الفاء" بينهما. ويجوز أن يكون المراد مطلق الانتقام، و"الفاء" تفسيريّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾... إلخ [هود، ١١/٤٥]. ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر الذي لا يدرَك قَعْرُه، وقيل: في لُجّته.

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ تعليل للإغراق، أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضِهم عنها وعدمِ تفكّرهم فيها بحيث صاروا

---

[١] ط س: بعهدك عنده. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فهو مما صُحّح بعد نسخ ط س.

كالغافلين عنها بالكلّيّة. و"الفاء"، وإن دلّت على ترتّب الإغراق على ما قبله مِن النّكْث، لكنّه صرّح بالتعليل إيذانًا بأنّ مدار جميع ذلك تكذيبُ آيات الله تعالى والإعراضُ عنها، ليكونَ ذلك مَزْجرةً للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرة على يد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والإعراضِ عنها.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ أي: بالاستعباد وذبح الأبناء. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدّده. وهم بنو إسرائيلَ، ذُكروا بهذا العُنوان إظهارًا لكمال لطفه تعالى بهم وعظيمِ إحسانه إليهم / في رفعهم مِن حضيض المَذَلّة إلى أَوْج العزّة. [٣٤٢و]

﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ أي: جانبَيها الشرقيِّ والغربيِّ، حيث ملكها بنو إسرائيلَ بعد الفَراعِنة والعَمالِقة، وتصرَّفوا في أكنافها الشرقيّة والغربيّة كيف شاءوا. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: بالخِصْب وسَعة الأرزاق، صفةٌ لـ"المشارق" و"المغارب"، وقيل: لـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾؛ وفيه ضعفٌ للفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف، كما في قولك: "قام أمُّ هند وأبوها العاقلةُ".

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي وعدُه تعالى إيّاهم بالنصر والتمكين، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص، ٥/٢٨]. وقُرئ: "كَلِمَاتُ"[١] لتعدّدِ المواعيد. ومعنى ﴿تَمَّتْ﴾: مضتْ واستمرّت. ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها مِن جهة فرعونَ وقومِه.

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أي: خرَّبنا وأهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ مِن العِمارات والقصور، أي: ودمَّرنا الذي كان فرعونُ يصنعه، على أنّ ﴿فِرْعَوْنُ﴾ اسمُ ﴿كَانَ﴾،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو وعاصم والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٣؛ اللباب لابن عادل، ٢٩٠/٩. وهي غير القراءة المشهورة عن أبي عمرو وعاصم.

و﴿يَصْنَعُ﴾ خبرٌ مقدَّم، والجملة الكونيّة صلةُ ﴿مَا﴾، والعائد محذوف. وقيل: اسمُ ﴿كَانَ﴾ ضميرٌ عائدٌ إلى ﴿مَا﴾ الموصولة، و﴿يَصْنَعُ﴾ مسنَدٌ إلى ﴿فِرْعَوْنُ﴾، والجملة خبرُ ﴿كَانَ﴾، والعائد محذوف أيضًا، والتقدير: ودمَّرنا الذي كان هو يصنعه فرعونُ... إلخ. وقيل: ﴿كَانَ﴾ زائدة، و﴿مَا﴾ مصدريّة، والتقدير: ما يصنع فرعونُ... إلخ. وقيل: ﴿كَانَ﴾ زائدة كما ذُكر، و﴿مَا﴾ موصولة اسميّة، والعائد محذوف، / تقديره: ودمَّرنا الذي يصنعه فرعونُ... إلخ، أي: صُنعَه. والعُدول إلى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار الصورة. [٣٤٢ظ]

﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ مِن الجنّات، أو ما كانوا يرفعونه مِن البُنيان كصَرْح هامانَ. وقُرِئ: "يَعْرُشونَ"[١] بضمّ الراء. والكَسر أفصحُ. وهذا آخِرُ قصّة فرعونَ وقومِه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٩﴾

وقوله عزّ وجلّ:[٢] ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ شروع في قصّة بني إسرائيلَ وشرحِ ما أحدثوه مِن الأمور الشنيعة بعد أن أنقذهم الله عزّ وجلّ مِن مَلَكة[٣] فرعونَ ومَنَّ عليهم مِن النِّعم العِظام الموجِبة للشكر وأرَاهم مِن الآيات الكبار ما تَخِرّ له صُمُّ الجبال، تسليةً لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٤] وإيقاظًا للمؤمنين حتّى لا يغفُلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. و"جاوَزَ" بمعنى: جاز، وقُرِئ: "جَوَّزْنا"[٥] بالتشديد، وهو أيضًا بمعنى: جاز، فعُدّي بالباء، أي: قطعنا بهم البحرَ. رُوي أنّه عبَرَ بهم موسى عليه السلام يومَ عاشوراءَ بعد ما أهلك الله تعالى فرعونَ، فصاموا شكرًا لله عزّ وجلّ.[٦]

---

[١] قرأ بها ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧١.

[٢] س: تعالى.

[٣] بفتحتين، أو بكسر الميم وسكون اللام، كما في لسان العرب لابن منظور، «ملك».

[٤] س: عليه السلام.

[٥] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/١٥٠.

[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٢٧٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٥٠.

﴿فَأَتَوْا﴾ أي: مَرُّوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ قيل: كانوا مِن لَخْمٍ،[١] وقيل: مِن العَمالِقة الكنعانيّين الذين أُمر موسى عليه السلام بقتالهم.[٢] ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ أي: يواظِبون على عبادتها ويلازمونها. وقُرئ بكسر الكاف.[٣] قال ابن جُريج: «كانت أصنامهم تماثيلَ بقرٍ، وهو أوّلُ شأن العِجل».[٤]

﴿قَالُوا۟﴾ عندما شاهدوا أحوالهم: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ مثالًا نعبُده، ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ "الكاف" متعلِّقة بمحذوفٍ وقع / صفةً لـ﴿إِلَٰهًا﴾، و﴿مَا﴾ موصولة، [٣٤٣و] و﴿لَهُمْ﴾ صلتها، و﴿ءَالِهَةٌ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَا﴾،[٥] والتقدير: اجعلْ لنا إلهًا كائنًا كالذي استقرّ هو لهم.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجَّب عليه السلام مِن قولهم هذا إثرَ ما شاهدوا مِن الآية الكبرى والمعجزةِ العُظمى، فوَصَفهم بالجهل المطلق، إذ لا جهلَ أعظمُ ممّا ظهر منهم. وأكّده بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: القومَ الذين يعبدون تلك التماثيلَ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أي: مدمَّرٌ مكسَّرٌ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مِن الدين الباطل، أي: يتبِّر الله تعالى ويهدِم دينَهم الذي هم عليه عن قريبٍ، ويحطِّم أصنامَهم ويتركها رُضاضًا. وإنّما جِيءَ بالجملة الاسميّة للدلالة على التحقّق.

﴿وَبَٰطِلٌ﴾ أي: مضمحِلٌّ بالكلّيّة ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن عبادتها، وإن كان قصدُهم بذلك التقرّبَ إلى الله تعالى، فإنّه كفرٌ محضٌ. وليس هذا كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٣/٢٥] كما تُوهّم؛[٦] فإنّ المراد به أعمال البرّ التي عملوها في الجاهليّة، فإنّها في أنفسها حَسَناتٌ، لو قارنت الإيمانَ لَاستَتْبعت أجورَها، وإنّما بطلت لمقارنتها الكفرَ.

---

[١] لَخْم: حيٌّ مِن اليَمن، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهليّة، وهم آل عمرو بن عَديّ ابن نصر اللَّخْمي. **الصحاح** للجوهري، «لخم».

[٢] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٠/٢.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي والورّاق عن خلف. **النشر** لابن الجزري، ٢٧١/٢.

[٤] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٧٣/٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٠/٢.

[٥] وفي هامش م: أي: مِن ضميرها في الصلة. «منه».

[٦] توهّمه الزمخشري في **الكشّاف**، ١٥٠/٢.

وفي إيقاع ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسمًا لـ﴿إِنَّ﴾ وتقديمِ الخبر مِن الجملة الواقعة خبرًا لها وَسْمٌ لعَبَدة الأصنام بأنّهم هم المعرَّضون للتَّبار، وأنّه لا يَعدُوهم البتّةَ، وأنّه لهم ضَرْبةُ لازبٍ ليحذِّرهم عاقبةَ ما طلبوا ويبغِّضَ إليهم ما أحَبّوا.

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾ شروع في بيان شُئون الله تعالى الموجِبة لتخصيص العبادة به تعالى بعد بيانِ أنّ ما طلبوا عبادته ممّا لا يمكن طلبُه أصلًا لكونه هالكًا باطلًا؛ ولذلك وسّط بينهما ﴿قَالَ﴾ مع كونِ كلٍّ منهما / كلامَ [٣٤٣ظ] موسى عليه السلام. والاستفهام للإنكار والتعجّب والتوبيخ. وإدخال الهمزة على ﴿غَيۡرَ﴾ للإيذان بأنّ المنكَر هو كون المَبغيّ غيرَه تعالى؛ لِما أنّه لاختصاص الإنكار بغيره تعالى،[1] دون إنكار الاختصاصِ بغيره تعالى.[2] وانتصاب ﴿غَيۡرَ﴾ على أنّه مفعول ﴿أَبۡغِي﴾ بحذف اللام، أي: أبغي لكم، أي: أطلب لكم غيرَ الله تعالى، و﴿إِلَٰهٗا﴾ إمّا تمييز أو حال؛ أو على الحاليّة مِن ﴿إِلَٰهٗا﴾، وهو المفعول لـ﴿أَبۡغِي﴾ على أنّ الأصل: أبغي لكم إلهًا غيرَ الله، فـ﴿غَيۡرَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿إِلَٰهٗا﴾، فلمّا قُدّمت صفة النكرة انتصبَتْ حالًا.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: والحالُ أنّه تعالى خصَّكم بنِعَمٍ لم يُعطِها غيرَكم. وفيه تنبيه على ما صنعوا مِن سوء المعاملة، حيث قابلوا تخصيصَ الله تعالى إيّاهم مِن بين أمثالهم بما لم يستحقّوه تفضّلًا بأن[3] عمَدوا إلى أخسّ شيء مِن مخلوقاته تعالى، فجعلوه شريكًا له تعالى. تبًّا لهم ولِما يعبُدون!

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم﴾ تذكير لهم مِن جهته سبحانه بنعمة الإنجاء مِن مَلَكة فرعونَ.

---

[1] وفي هامش م: أي: يبغي غيره تعالى دون إنكار اختصاص البَغي بغيره تعالى ليخرج الإشراك عن حيّز الإنكار. «منه».

[2] وفي هامش م: كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ [الأنعام، ١٤/٦] ونظائره. «منه».

[3] متعلِّق بقوله: "قابلوا".

وقُرئ: "نَجَّيْنَاكُمْ"[١] مِن التنجية. وقُرئ: "أَنْجَاكُمْ"،[٢] فيكون مَسوقًا مِن جهة موسى عليه السلام. أي: واذكروا وقتَ إنجائنا إيّاكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مِن مَلَكتهم، لا بمجرّد تخليصكم مِن أيديهم وهم على حالهم في المَكِنَة[٣] والقدرة؛ بل بإهلاكهم بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ مِن "سَامَه خسْفًا"، أي: أولاه إيّاه أو كلّفه إيّاه. وهو إمّا استئناف لبيان ما أنجاهم منه، أو حال مِن المخاطَبين أو مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أو منهما معًا لاشتماله على ضميرَيهما. وقوله تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ / وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ بدل مِن ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، مبيِّنٌ أو مفسِّرٌ له. ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ الإنجاءِ أو سوءِ العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾ أي: نعمة أو مِحنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مِن مالك أمركم، فإنّ النعمة والنِّقمة كِلتَيهما[٤] منه سبحانه،[٥] ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يقادَر قدره. [٣٤٤و]

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤٢﴾

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ رُوي أنّ موسى عليه السلام وعَدَ بني إسرائيلَ وهم بمصرَ: إنْ أهلك الله تعالى عدوَّهم أتاهم بكتابٍ فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون، فلمّا هلك فرعونُ سأل موسى ربّه الكتابَ، فأمره بصومِ ثلاثين يومًا،[٦] وهو شهرُ ذي القَعدة، فلمّا أتمّ الثلاثين أنكرَ خُلُوفَ فِيهِ[٧] فتسوَّكَ، فقالت الملائكة: «كنّا نشُمّ مِن فِيكَ رائحةَ المِسك، فأفسدتَه بالسِّواك»، وقيل: أوحى الله تعالى إليه: «أمَا علمتَ أنّ ريحَ فَمِ الصائم أطيَبُ عندي مِن ريح المِسك؟»،[٨]

---

[١] قراءة شاذّة. ذكرها ابن عادل بلا نسبة في اللباب، ٢٩٦/٩.

[٢] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٧١/٢.

[٣] المَكِنَة: التمكّن. تقول العرب: إنّ ابن فلان لَذو مَكِنَة مِن السلطان، أي: ذو تمكّن. تاج العروس للزبيدي، «مكن».

[٤] ط س: كلتاهما. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[٥] س + وتعالى.

[٦] س – يومًا.

[٧] الخُلُوف: تغيّرُ طَعم الفم لتأخير الطعام. تهذيب اللغة للأزهري، ١٧١/٧ «أبواب الخاء واللام».

[٨] وفي الحديث: «... والذي نفس محمّدٍ بيده، لَخُلُوف فمِ الصائم أطيَبُ عند الله مِن ريح المِسك». صحيح البخاري، ٢٦/٣ (١٩٠٤)؛ صحيح مسلم، ٨٠٦/٢ (١١٥١).

فأمره الله تعالى بأن يزيد عليها عشرةَ أيّامٍ مِن ذي الحجّة لذلك؛[١] وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾. والتعبير عنها بـ"اللَّيَالي"؛ لأنّها غُرَرُ الشهور. وقيل: أمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يومًا وأن يعمل فيها بما يقرّبه مِن الله تعالى، ثمّ أُنزلت عليه التوراة في العشر وكُلّم فيها.[٢] وقد أُجملَ ذكر الأربعين في سورة البقرة،[٣] وفُصّل ههنا.

و﴿وَٰعَدْنَا﴾ بمعنى: وعَدْنا، وقد قُرئ كذلك.[٤] وقيل: الصيغة على بابها بناءً على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلةَ الوعد. و﴿ثَلَٰثِينَ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بحذف المضاف، أي: إتمامَ ثلاثين ليلةً.

[٣٤٤ظ] / ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي: بالغًا أربعين ليلةً.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ حين توجّه إلى المناجاة حسبما أُمر به: ﴿ٱخْلُفْنِى﴾ أي: كُنْ خليفتي ﴿فِى قَوْمِى﴾ وراقِبْهم فيما يأتون وما يذرون، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح مِن أمورهم أو كُنْ مصلِحًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تتّبِعْ مَن سلك الإفسادَ، ولا تُطِعْ مَن دعاك إليه.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ لِوقتنا الذي وقّتناه. و"اللام" للاختصاص، أي: اختصّ مَجيئه بمِيقاتنا. ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ مِن غير واسطة، كما يكلِّم الملائكةَ عليهم السلام. وفيما رُوي أنّه عليه السلام كان يسمع ذلك مِن كلّ جهة[٥] تنبيهٌ على أنّ سماع كلامه عزّ وجلّ ليس مِن جنس سماع كلام المحدَثين.

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٥/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥١/٢.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٥١/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٩٩/٩.

٣ ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة، ٥١/٢].

٤ قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٢/٢.

٥ الكشّاف للزمخشري، ١٥٢/٢.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أي: أَرِني ذاتَك بأن تمكِّنني مِن رؤيتك أو تَتَجلّى لي فأنظرَ إليك وأراك. وهو دليل على أنّ رؤيته تعالى جائزة في الجملة لِما أنّ طلب المستحيل مستحيلٌ مِن الأنبياء، لاسيّما ما يقتضي الجهلَ بشئون الله عزّ وجلّ؛ ولذلك ردَّه بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، دون "لَنْ أُرَى" و"لَنْ أُرِيَك" و"لَنْ تنظُرَ إليّ"، تنبيهًا على أنّه قاصرٌ عن رؤيته لتوقّفها على معدّ في الرائي، ولم يوجد فيه ذلك بعدُ.

وجعلُ السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا: «أَرِنا الله جَهْرةً»[1] خطأٌ؛ إذ لو كانت الرؤيةُ ممتنعةً، لَوجَبَ أن يجهِّلهم ويُزيحَ شُبهتَهم، كما فعل ذلك حين قالوا: «اجعَلْ لنا إلهًا»،[2] وألّا يتّبعَ سبيلَهم كما قال لأخيه: «ولا تتّبِعْ سبيلَ المفسِدين».[3] / [٣٤٥و] والاستدلال بالجواب على استحالتها أشدُّ خطأً؛ إذ لا يدلّ الإخبار بعدم رؤيته إيّاه على أنّه لا يراه أبدًا وألّا يراه غيرُه أصلًا، فضلًا عن أن تدلّ على استحالتها. ودعوى الضرورة مكابرةٌ أو جهلٌ لحقيقة الرؤية.[4]

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال ربّ العزّة حين قال موسى عليه السلام ما قال؟ فقيل: قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ استدراك لبيان أنّه لا يُطيق بها. وفي تعليقها باستقرار الجبل أيضًا دليل على الجواز، ضرورةَ أنّ المعلَّق بالممكن ممكنٌ. والجبل، قيل: هو جبل أُردُنّ.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ أي: ظهرت له عظمتُه وتصدَّى له اقتداره وأمرُه. وقيل: أُعطيَ الجبل حياةً ورؤيةً حتّى رآه.[5] ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ مدكوكًا مُفتّتًا. والدَّكّ والدَّقّ أخَوان، كالشَّكّ والشَّقّ. وقُرئ: "دَكّاءَ"،[6] أي: أرضًا مستويةً، ومنه "ناقةٌ دَكّاءُ"

---

[1] كما في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾... إلخ [النساء، ١٥٣/٤].

[2] كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف، ١٣٨/٧].

[3] في الآية السابقة.

[4] الردود الواردة ههنا متوجّهة بالخصوص إلى صاحب الكشّاف، ١٥١/٢-١٥٧.

[5] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣/٣.

[6] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧١/٢.

للتي لا سَنامَ لها. وقُرئ: "دُكًّا"،[١] جمعُ "دَكّاءَ"، أي: قِطَعًا. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مَغشيًا عليه مِن هَوْل ما رآه.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ الإفاقة: رجوع العقل والفهم إلى الإنسان بعد ذهابهما بسبب مِن الأسباب. ﴿قَالَ﴾ تعظيمًا لِما شاهده: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك مِن أن أسألك شيئًا بغير إذنٍ منك، ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ أي: مِن الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذنٍ، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: بعظمتك وجلالك، وقيل: أوّلُ مَن آمن بأنّك لا تُرى في الدنيا، وقيل: بأنّه لا يجوز السؤال بغير إذنٍ منك.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

[٣٤٥ظ] ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ استئناف مَسوق لتسليته عليه السلام / مِن عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية، كأنّه قيل: إنْ منعتُك الرؤيةَ فقد أعطيتُك مِن النِّعم العِظام ما لم أُعطِ أحدًا مِن العالَمين، فاغتنِمْها وثابِرْ على شكرها.

﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ أي: اخترتُك واتّخذتُك صَفْوةً وآثرتُك ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: المعاصِرين لك، وهارون، وإن كان نبيًّا، كان مأمورًا باتّباعه، وما كان كَليمًا، ولا صاحبَ شرعٍ. ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ أي: بأسفار التوراة. وقُرئ: "بِرِسَالَتِي".[٢] ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ وبتكليمي إيّاك بغير واسطة.

﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ أي: أعطيتُك مِن شرف النبوّة والحكمة، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على ما أُعطيتَ مِن جلائل النِّعم. قيل: كان سؤال الرؤية يومَ عرفةَ وإعطاءُ التوراة يومَ النَّحر.[٣]

---

[١] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١٥٥/٢؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ١٦٧/٥، ونسباها إلى يحيى بن وثّاب.

[٢] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو جعفر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢٧٢/٢.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٩/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤/٣.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: ممّا يحتاجون إليه مِن أمور دينهم ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بدلٌ مِن الجارّ والمجرور، أي: كتبنا له كلَّ شيء مِن المواعظ وتفصيلِ الأحكام.

واختُلف في عدد الألواح، وفي جوهرها ومقدارها، فقيل: إنّها كانت عشرةَ ألواحٍ،[١] وقيل: سبعةً،[٢] وقيل: لَوْحَين؛[٣] وأنّها كانت مِن زُمُرُّدةٍ جاء بها جبريلُ عليه السلام،[٤] وقيل: مِن زَبَرْجَدةٍ خضراءَ أو ياقوتةٍ[٥] حمراءَ.[٦] وقيل: أمر الله تعالى موسى بقطْعها مِن صخرةٍ صمّاءَ ليَّنها له، فقطعها بيده وشقّقها بأصابعه.[٧] وعن الحسن: «كانت مِن خشب، نزلت مِن السماء، فيها التوراةُ، وأنّ طُولها كان عشرةَ أذرُعٍ».[٨] وقيل: أُنزلت التوراة / [٣٤٦و] وهي سبعون وِقرَ بعيرٍ، يُقرَأ الجزء منه في سنة، لم يقرأها إلّا أربعة نفرٍ: موسى ويُوشَعُ وعُزيرٌ وعيسى عليهم السلام.[٩] وعن مقاتل: «كُتب في الألواح: إنّي أنا الله الرحمن الرحيم، لا تُشرِكوا بي شيئًا، ولا تقطَعوا السبيلَ، ولا تَزْنُوا، ولا تعُقُّوا الوالدَين».[١٠]

﴿فَخُذْهَا﴾ على إضمار "قولٍ" معطوفٍ على ﴿كَتَبْنَا﴾، أي: فقلنا: خُذْها ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وعزيمةٍ. وقيل: هو بدل[١١] مِن قوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾.[١٢] والضمير لـ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾، أو لـ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ لأنّه بمعنى: الأشياء، أو لـ"الرسالة"، أو لـ"التوراة".

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٤.
٢ الكشّاف للزمخشري، ١٥٧/٢-١٥٨.
٣ الكشّاف للزمخشري، ١٥٧/٢-١٥٨.
٤ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨١/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٨/٢.
٥ س: وياقوتة.
٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨١/٣.
٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨١/٣.
٨ الكشّاف للزمخشري، ١٥٨/٢.
٩ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٣/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨١/٣.
١٠ تفسير مقاتل بن سليمان، ٦٣/٢، باختلاف يسير.
١١ وفي هامش م: فلا إضمارَ حينئذ، وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ﴾... إلخ اعتراض مقرّر لِما قبله. «منه».
١٢ في الآية السابقة.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بأحسنِ ما فيها كالعَفو والصبر بالإضافة إلى الاقتصاص والانتصار[١] على طريقة الندب والحثّ على اختيار الأفضل، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر، ٥٥/٣٩]؛ أو بواجباتها، فإنّها أحسنُ مِن المُباح. وقيل: المعنى: يأخذوا بها، و﴿أَحْسَنِ﴾ صلة. قال قُطرُب: «أي: بحسَنها، وكلُّها حسَنٌ»،[٢] كقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت، ٤٥/٢٩]. وقيل: هو أن تُحمَل الكلمة المحتملة لمعنيَين أو لمعانٍ على أشبه محتمَلاتها بالحقّ وأقربِها إلى الصواب.

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى قومه عليه السلام بطريق الالتفات حملًا لهم على الجدّ في الامتثال بما أُمروا به، إمّا على نهج الوعيد والترهيب، على أنّ المراد بـ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أرضُ مصرَ وديارُ عادٍ وثمودَ وأضرابِهم، فإنّ رؤيتها -وهي خالية عن أهلها خاوية على عُروشها- موجِبةٌ للاعتبار والانزجار عن مثل أعمال أهلها كَيلا يحلَّ بهم ما حلّ بأولئك؛ وإمّا على نهج الوعد / والترغيب، على أنّ المراد بـ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ إمّا أرضُ مصرَ خاصّةً، أو مع أرض الجبابِرة والعَمالِقة بالشام، فإنّها أيضًا ممّا أُتيحَ لبني إسرائيلَ وكُتب لهم، حسبما ينطِق به قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة، ٢١/٥]. [٣٤٦ظ]

ومعنى الإراءة: الإدخال بطريق الإيراث. ويؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "سَأُوْرِثُكُمْ"[٣] بالثاء المثلّثة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]. وقُرئ: "سَأُوْرِيكُمْ"،[٤] ولعلّه مِن "أوريْتُ الزَّنْدَ"، أي: سأبيّنُها لكم.

---

١ س: وكالاقتصار. | وكانت مُثبتةً في م ثمّ ضُرِب عليها.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٣/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨١/٣.

٣ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١٥٨/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٣١٠/٩، ونسبها الثاني إلى ابن عبّاس وقسامة بن زيد.

٤ بإشباع الهمزة، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: المحتسَب لابن جنّي، ٢٥٨/١-٢٥٩.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف مَسوق لتحذيرهم عن التكبّر الموجِب لعدم التفكّر في الآيات التي هي ما كُتب في ألواح التوراة مِن المواعظ والأحكام أو ما يعمُّها وغيرَها مِن الآيات التكوينيّة التي مِن جملتها ما وُعد إراءته مِن دار الفاسقين. ومعنى صرفِهم عنها: الطبع على قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه مِن التكبّر والتجبّر، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف، ٥/٦١].

وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، مع أنّ في المؤخَّر نوعَ طُولٍ يُخِل تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الجليل، أي: سأطبَع على قلوب الذين يعُدّون أنفسهم كُبراءَ ويرَون / لهم على الخلق مزيّةً وفضلًا، فلا ينتفعون بآياتي التنزيليّة والتكوينيّة ولا يغتنمون مغانمَ آثارها؛ فلا تسلُكوا مسلَكَهم لتكونوا أمثالَهم. [٣٤٧و]

وقيل: المعنى: سأصرِفهم عن إبطالها، وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعونُ في إبطال ما رآه مِن الآيات، فأبى الله إلّا إحقاقَ الحقّ وإزهاقَ الباطل. وعلى هذا، فالأنسب أن يراد بـ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1] أرضُ الجبابِرة والعَمالِقة المشهورين بالفسق والتكبّر في الأرض، وبـ"إراءتها للمخاطَبين" إدخالُهم الشامَ وإسكانُهم في مساكنهم ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة، ٢١/٥]، ويكونَ[2] قولُه تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾... إلخ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر ناشيءٍ مِن الوعد بإدخال الشام، على أنّ المراد بـ"الآيات" ما تُلي آنفًا ونظائرُه، وبـ"صَرْفهم عنها" إزالتُهم عن مقام معارضتها وممانعتِها لوقوع أخبارها وظهور أحكامها وآثارها بإهلاكهم على يد موسى عليه السلام حين سار بعد التِّيهِ بمَن بقي مِن بني إسرائيلَ -أو بذُرّيّاتهم

---

[1] في الآية السابقة.

[2] السياق: فالأنسب أن يُراد... ويكونَ...

على اختلاف الروايتين-[١] إلى أريحا، ويُوشَع بنُ نونٍ في مقدّمته، ففتحها، واستقرّ بنو إسرائيلَ بالشام، وملكوا مشارقها ومغاربها، كأنّه قيل: كيف يرَون دارهم وهم فيها؟ فقيل: سأُهلِكهم. وإنّما عُدل إلى الصَرْف ليزدادوا ثقةً بالآيات واطمئنانًا بها.

[٣٤٧ظ] وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إمّا صلة / للتكبّر، أي: يتكبّرون بما ليس بحقّ، وهو دينهم الباطل وظلمُهم المفرط؛ أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو حال مِن فاعله، أي: يتكبّرون ملتبسين بغير الحقّ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ عطفٌ على ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، داخلٌ معه في حكم الصلة. والمراد بـ"الآية" إمّا المنزَلة، فالمراد بـ"رؤيتها" مشاهدتُها بسماعها، أو ما يعمُّها وغيرَها مِن المعجزات، فالمراد بـ"رؤيتها" مطلَقُ المشاهدة المنتظمة للسماع والإبصار، أي: وإن شاهدوا كلّ آية مِن الآيات لا يؤمنوا بها، على عموم النفي، لا على نفي العموم، أي: كفروا بكلّ واحدة منها لعدم اجتلائهم إيّاها كما هي. وهذا -كما ترى- يؤيّد كون الصَّرف بمعنى الطبع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ عطفٌ على ما قبله داخلٌ في حكمه، أي: لا يتوجّهون إلى الحقّ ولا يسلُكون سبيله أصلًا لاستيلاء الشَّيطنة عليهم ومطبوعيّتِهم على الانحراف والزَّيغ. وقُرئ بفتحتين.[٢] وقُرئ: "الرَّشَادِ".[٣] وثلاثتُها لغاتٌ كـ"السُّقْم" و"السَّقَم" و"السَّقام". ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: يختارونه لأنفسهم مَسلَكًا مستمرًا لا يكادون يعدِلون عنه لموافقته لأهوائهم الباطلة وإفضائِه لهم إلى شهَواتهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن تكبّرهم وعدم إيمانهم بشيء مِن الآيات وإعراضِهم عن سبيل الرشد وإقبالِهم التامّ إلى سبيل الغَيّ. / وهو مبتدأ، خبرُه [٣٤٨و] قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: حاصلٌ بسبب أنّهم ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالّةِ على بطلان

---

[١] انظر: تفسير المائدة، ٢٦/٥.

[٢] أي: "الرَّشَدِ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٢/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٤.

ما اتّصفوا به مِن القبائح وعلى حقّيّة أضدادها، ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ لا يتفكّرون فيها، وإلّا لَما فعلوا ما فعلوا مِن الأباطيل.

ويجوز أن يكون إشارةً إلى ما ذُكر مِن الصَّرف. ولا يمنعه الإشعار بعلّيّة ما في حيّز الصلة؛ كيف لا، وقد مرّ أنّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ الآية [البقرة، ٦١/٢] يجوز أن يكون إشارةً إلى ضرب الذِلّة والمَسْكنة والبَوء بالغضب العظيم مع كون ذلك معلَّلًا بالكفر بآيات الله صريحًا. وقيل: محلّ اسم الإشارة النصبُ على المصدر، أي: سأصرِفهم ذلك الصَّرْفَ بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: وبلقائهم الدارَ الآخرةَ أو لقائِهم ما وعده الله تعالى في الآخرة مِن الجزاء. ومحلّ الموصول الرفعُ على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ خبرُه، أي: ظهر بطلان أعمالهم التي كانوا عملوها مِن صلة الأرحام وإغاثة الملهوفين ونحو ذلك، أو حبطت بعد ما كانت مَرجوّةَ النفع على تقدير إيمانهم بها. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي: لا يُجزَون ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلّا جزاءَ ما كانوا يعملونه مِن الكفر والمعاصي.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد ذهابه إلى الطُّور ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿ٱتَّخَذَ﴾ كالجارّ الأوّل / لاختلاف معنيَيهما، فإنّ الأوّل للابتداء والثاني [٣٤٨ظ] للتبعيض أو للبيان، أو الثاني متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا ممّا بعده، إذ لو تأخّر لَكان صفةً له. وإضافة "الحُلِيّ" إليهم -مع أنّها كانت للقِبط- لأدنى الملابسة، حيث كانوا استعاروها مِن أربابها قُبيلَ الغرق، فبقيت في أيديهم. وأمّا أنّهم ملكوها بعد الغرق، فذلك مَنوط بتملّك بني إسرائيلَ غنائمَ القِبط، وهم مستأمَنون فيما بينهم، فلا يساعده قولهم: ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه، ٨٧/٢٠].

و"الحُلِيّ" بضمّ الحاء وكسر اللام: جمعُ "حَلْي"، كـ"ثَدْي" و"ثُدِيّ". وقُرئ بكسر الحاء بالإتباع،[١] كـ"دِلِيّ". وقُرئ: "حَلْيِهِمْ"[٢] على الإفراد.

وقوله تعالى: ﴿عِجْلًا﴾ مفعولُ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، أُخّر عن المجرور لِما مرّ مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، مع ما فيه مِن نوعِ طولٍ يُخِلّ تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الكريم. وقيل:[٣] هو متعدٍّ إلى اثنين بمعنى "التصيير"، والمفعول الثاني محذوف، أي: إلهًا. وقوله تعالى: ﴿جَسَدًا﴾ بدل مِن ﴿عِجْلًا﴾، أي: جُثّةً ذا دمٍ ولحمٍ، أو جسدًا مِن ذهبٍ لا روحَ معه. وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: صوتُ بقر، وقُرئ بالجيم والهمزة،[٤] وهو الصِّياح، نعتٌ[٥] لـ﴿عِجْلًا﴾.

رُوي أنّ السامريَّ لمّا صاغ العِجلَ ألقى في فمه ترابًا مِن أثرِ فرسِ جبريلَ عليه السلام، وقد كان أخذه عند فلق البحر أو عند توجّهه إلى الطور، فصار حيًّا.[٦] وقيل: صاغه بنوعٍ مِن الحِيَل، فيدخل الرِّيح في جَوفه، فيصوِّت.[٧] والأنسب بما في سورة طه[٨] هو الأوّل. / وإنّما نُسب اتّخاذه إليهم، وهو فعلُه،[٩] إمّا لأنّه واحد منهم، وإمّا لأنّهم رضُوا به فكأنّهم فعلوه، وإمّا لأنّ المراد بالاتّخاذ اتّخاذُهم إيّاه إلهًا، لا صنعه وإحداثُه. [٣٤٩و]

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ استئناف مَسوق لتقريعهم وتشنيعهم وتركيك عقولهم وتسفيهِهم فيما أقدموا عليه مِن المنكَر الذي هو اتّخاذه إلهًا، أي: ألم يرَوا أنّه ليس فيه شيء مِن أحكام الألوهيّة، حيث لا يكلِّمهم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ بوجهٍ مِن الوجوه، فكيف اتّخذوه إلهًا؟ وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أي:

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

٢ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

٣ وفي هامش م: أبو البقاء. | التبيان لأبي البقاء العُكبري، ١/٥٩٥.

٤ أي: "لَهُ جُؤَارٌ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وأبي السمّال وفرقة. الكشّاف للزمخشري، ٢/١٦٠؛ اللباب لابن عادل، ٩/٣١٦.

٥ خبرُ قوله: "وقوله تعالى".

٦ انظر: اللباب لابن عادل، ٩/٣١٦.

٧ انظر: اللباب لابن عادل، ٩/٣١٦.

٨ ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه، ٢٠/٨٧-٨٨].

٩ أي: فعلُ السامري.

فعلوا ذلك، ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: واضعين للأشياء في غير موضعها، فلم يكن هذا أوّلَ منكَرٍ فعلوه. والجملة اعتراض تذييليّ. وتكرير ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ لتثنية التشنيع وترتيب الاعتراض عليه.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندِموا على ما فعلوا غايةَ الندم، فإنّ ذلك كناية عنه؛ لأنّ النادم المتحسِّرَ يعَضّ يدَه غمًّا، فتَصير يدُه مسقوطًا فيها. وقُرئ: "سَقَطَ"[1] على البناء للفاعل، بمعنى: وقع العَضّ فيها، فـ"اليدُ" حقيقة؛ وقال الزجّاج: «معناه: سقَطَ الندمُ في أنفسهم»،[2] إمّا بطريق الاستعارة بالكناية أو بطريق التمثيل. ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾ باتّخاذ العجل، أي: تبيّنوا بحيث تيقّنوا بذلك حتّى كأنّهم رأَوه بأعيُنهم. وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية -مع كونه متأخّرًا عنها- للمسارعة إلى بيانه والإشعارِ بغاية سرعته، كأنّه سابقٌ على الرؤية.

/ ﴿قَالُواْ﴾ والله ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوبة المكفِّرة ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبَنا بالتجاوز عن خطيئتنا. وتقديم الرحمة على المغفرة -مع أنّ التخلية حقُّها أن تقدَّم على التحلية- إمّا للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصليّ، وإمّا لأنّ المراد بالرحمة مطلَق إرادة الخير بهم، وهو مبدأٌ لإنزال التوبة المكفِّرة لذنوبهم. و"اللام" في ﴿لَئِن﴾ موطِّئة للقَسم كما أشيرَ إليه، وفي قوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لجواب القَسم. [٣٤٩ظ]

وما حُكي عنهم مِن الندامة والرؤية والقول، وإن كان بعد ما رجع موسى عليه السلام إليهم كما ينطِق به الآيات الواردة في سورة طه، لكن أُريدَ بتقديمه عليه حكايةُ ما صدر عنهم مِن القول والفعل في موضع واحد.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وأبي السميفع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/١٦٠.

[2] انظر: **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ٢/٣٧٨.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ شروع في بيان ما جرى مِن موسى عليه السلام بعد رجوعه مِن المِيقات إثرَ بيان ما وقع مِن قومه بعده. وقوله تعالى: ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ حالانِ مِن ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، أو الثاني مِن المستكنّ في ﴿غَضۡبَٰنَ﴾. والأَسِف: الشديدُ الغضبِ، وقيل: الحَزين.

﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِي﴾ أي: بئسما فعلتم مِن بعد غَيْبتي، حيث عبدتم العجلَ بعد ما رأيتم فعلي مِن توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه وإخلاصِ العبادة له، أو مِن حملكم على ذلك وكفِّكم عمّا طمحت نحوه أبصارُكم حيث قلتم: «اجعلْ لنا إلهًا كما لهم آلهةٌ»،[1] ومِن حقّ الخُلفاء أن يَسيروا بسيرة المستخلِف، فالخطاب للعَبَدة مِن السامري وأشياعه؛ أو بئسما قمتم مَقامي، ولم تُراعُوا عهدي، حيث لم تكُفّوا / العَبَدةَ عمّا فعلوا، فالخطاب [٣٥٠و] لهارونَ ومَن معه مِن المؤمنين، كما يُنبيء عنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۞ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه، ٢٠/٩٢-٩٣]. ويجوز أن يكون الخطاب للكلّ على أنّ المراد بالخليفة ما يعُمّ الأمرين المذكورين. و﴿مَا﴾ نكرة موصوفة مفسِّرة لفاعل ﴿بِئۡسَ﴾ المستكنِّ فيه، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: بئس خلافةً خلَفتمونيها مِن بعدي خلافتُكم.[2]

﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ﴾ أي: تركتموه غيرَ تامّ، على تضمين "عجِلَ" معنى "سبقَ"، يقال: "عَجِل عن الأمر" إذا تركه غيرَ تامّ؛ أو أعَجِلتم وعدَ ربِّكم الذي وعدنِيه مِن الأربعين، وقدّرتم موتي، وغيّرتم بعدي كما غَيّرت الأممُ بعد أنبيائهم؟

---

[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف، ٧/١٣٨].

[2] قوله "خلافةً" بالنصب تفسير لـ"ما"، و"خلافتُكم" هو المخصوص بالذمّ. انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٧٥/٤.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ طرحها مِن شدّة الغضب وفرط الضجر حَمِيّةً للدين. رُوي أنّ التوراة كانت سبعةَ أسباعٍ في سبعة ألواح، فلمّا ألقاها انكسرت، فرُفعت ستّةُ أسباعها التي كان فيها تفصيلُ كلّ شيء، وبقي سُبُعٌ كان فيه المواعظ والأحكام.[١]

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشَعر رأسه عليهما السلام ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ حال مِن ضمير ﴿أَخَذَ﴾. فعَلَه عليه السلام توهّمًا أنّه قصّر في كفّهم. وهارونُ كان أكبرَ منه عليهما السلام بثلاث سنينَ، وكان حَمولًا؛ ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيلَ.[٢]

﴿قَالَ﴾ أي: هارونُ مخاطِبًا لموسى عليهما السلام: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ بحذف حرف النداء. وتخصيص "الأمّ" بالذِّكر مع كونهما شقيقَين لِما أنّ حقّ الأمّ أعظمُ وأحقُّ بالمراعاة، مع أنّها كانت مؤمِنةً، وقد قاست فيه المخاوفَ / والشدائدَ. [٣٥٠ظ] وقُرئ بكسر الميم بإسقاط الياء تخفيفًا[٣] كالمنادَى المضاف إلى الياء. وقراءة الفتح لزيادة التخفيف أو لتشبيهه بـ"خَمْسةَ عَشَرَ".

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ إزاحة لتوهّم التقصير في حقّه، والمعنى: بذلتُ جُهدي في كفّهم حتّى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي؛ ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي: فلا تفعلْ بي ما يكون سببًا لشماتتهم بي، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: معدودًا في عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير، وهذا يؤيّد كونَ الخطاب للكلّ؛ أو لا تعتقِدْ أنّي واحدٌ مِن الظالمين مع بَراءتي منهم ومِن ظلمهم.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية اعتذار هارونَ عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ أي: ما فعلتُ بأخي مِن غير ذنب مقرّر مِن قِبله، ﴿وَلِأَخِى﴾ إنْ فرط منه تقصيرٌ

---

١ جامع البيان للطبري، ١٠/٤٥٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٦١.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٢٨٦؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٨٤.

٣ أي: "ابنَ أُمِّ". قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

ما في كفّهم عمّا فعلوه مِن العظيمة. استغفر عليه السلام لنفسه ليُرضِيَ أخاه ويُظهرَ للشامتين رضاه لئلّا تتمّ شماتتهم به، ولأخيه للإيذان بأنّه محتاج إلى الاستغفار، حيث كان يجب عليه أن يقاتلهم.

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ بمزيد الإنعام بعد غفران ما سلف منّا، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فلا غَزوَ في انتظامنا في سِلك رحمتك الواسعة في الدنيا والآخرة. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي: تمّوا على اتّخاذه واستمرّوا على عبادته، كالسامري / وأشياعِه مِن الذين أُشربوه في قلوبهم، كما يُفصح عنه كون الموصول الثاني[1] عبارةً عن التائبين، فإنّ ذلك صريح في أنّ الموصول الأوّل عبارة عن المُصرّين. [٣٥١و]

﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿غَضَبٌ﴾ أي: عظيمٌ لا يقادَر قدره، مستتبعٌ لفنون العقوبات لِما أنّ جريمتهم أعظمُ الجرائم وأقبحُ الجرائر. وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: مالكِهم، متعلِّقٌ بـ﴿يَنَالُهُمْ﴾، أو بمحذوف هو نعتٌ لـ﴿غَضَبٌ﴾ مؤكِّدٌ لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنٌ مِن ربّهم.

﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هي ذِلّة الاغتراب التي تُضرَب بها الأمثال والمسكنة[2] المنتظمة لهم ولأولادهم جميعًا. والذِلّة التي اختصّ بها السامري مِن الانفراد عن الناس والابتلاء بـ"لا مِساسَ"؛[3] يُروى أنّ بقاياهم اليومَ يقولون ذلك، وإذا مسّ أحدَهم أحدٌ غيرُهم حُمَّا جميعًا في الوقت.[4] وإيرادُ ما نالهم في حيّز "السين" مع مُضيّه بطريق تغليب حال الأخلاف على حال الأسلاف.

---

[1] في الآية التالية.

[2] خبر ثانٍ لـ"هي".

[3] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾... إلخ [طه، ٩٧/٢٠].

[4] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٨/٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٢/٥.

وقيل:[١] المراد بهم التائبون، وبـ"الغضب" ما أُمروا به مِن قتل أنفسهم، واعتُذِر عن "السين" بأنّ ذلك حكاية عمّا أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتّخاذِهم العجلَ بأنّه سينالهم غضب مِن ربّهم وذِلّة، فيكون سابقًا على الغضب. وأنت خبير بأنّ سِباق النظم الكريم وسياقَه نابيانِ عن ذلك / نُبوًّا ظاهرًا؛ كيف لا، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ ينادي على خلافه؛ فإنّهم شهداءُ تائبون، فكيف يمكن وصفُهم بعد ذلك بالافتراء؟ وأيضًا ليس يجزي الله تعالى كلَّ المفترين بهذا الجزاء الذي ظاهرُه قهر وباطنُه لطف ورحمة. [٣٥١ظ]

وقيل:[٢] المراد بهم أبناؤهم المعاصِرون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ تعيير الأبناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف، منه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ الآية [البقرة، ٧٢/٢] وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ الآية [البقرة، ٥٥/٢، ٦١]. والمراد بـ"الغضب" الغضب الأخرويّ، وبـ"الذِلّة" ما أصابهم مِن القتل والإجلاء وضرب الجِزية عليهم.

وقيل: المراد بالموصول المتّخِذون حقيقةً، وبالضمير في ﴿يَنَالُهُمْ﴾ أخلافُهم. ولا ريب في أنّ توسيط حال هؤلاء في تضاعيف بيان حال المتّخذين مِن قبيل الفصل بين الشجر ولِحائه.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أيَّ سيئة كانت، ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾ عن تلك السيّئات ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: مِن بعد عملها، ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ إيمانًا صحيحًا خالصًا، واشتغلوا بإقامة ما هو مِن مقتضَياته مِن الأعمال الصالحة، ولم يُصرّوا على ما فعلوا كالطائفة الأولى، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: مِن بعد تلك التوبة المقرونة بالإيمان ﴿لَغَفُورٌ﴾ للذنوب، وإن عظُمت وكثُرت، ﴿رَّحِيمٌ﴾ مبالِغ في إفاضة فنون الرحمة الدنيويّة والأخرويّة. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للتشريف.

---

[١] انظر: اللباب لابن عادل، ٢٢٨/٩.

[٢] انظر: اللباب لابن عادل، ٢٢٨/٩.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

[٣٥٢و] ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ شروع في بيان بقيّة الحكاية / إثرَ ما بُيّن تحزّب القوم إلى مُصرّ وتائب والإشارةِ إلى مآل كلّ منهما إجمالًا، أي: لمّا سكن عنه الغضب باعتذار أخيه وتوبة القوم. وهذا صريح في أنّ ما حُكي عنهم مِن الندم وما يتفرّع عليه كان بعد مَجيء موسى عليه السلام. وفي هذا النظم الكريم مِن البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له عليه السلام على ما صدر عنه مِن الفعل والقول منزلةَ الآمر بذلك المُغري عليه بالتحكّم والتشديد والتعبيرِ[١] عن سكونه بالسكوت ما لا يخفى. وقُرئ: "سَكَنَ"، و"سُكِتَ" و"أُسْكِتَ"[٢] على أنّ الفاعل هو الله تعالى أو أخوه أو التائبون.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها، ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ أي: فيما نُسخ فيها وكُتب. "فُعْلَة" بمعنى "مفعول"، كـ"الخُطبة". وقيل: فيما نُسخ منها، أي: مِن الألواح المنكسرة. ﴿هُدًى﴾ أي: بيان للحقّ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ للخلق بإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ "اللام" الأولى متعلِّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿رَحْمَةٌ﴾، أي: كائنةٌ لهم، أو هي لامُ الأجل، أي: هدًى ورحمةٌ لأجلهم؛ والثانية لتقوية عمل الفعل المؤخَّر، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف، ٤٣/١٢]، أو هي أيضًا لامُ العلّة، والمفعول محذوف، أي: يرهبون المعاصيَ لأجل ربّهم، لا للرّياء والسمعة.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ شروع في بيان كيفيّة استدعاء التوبة وكيفيّة وقوعها.

---

[١] متعلِّق بقوله: "بتنزيل الغضب".

[٢] كلّها قراءات شاذّة. الأولى مرويّة عن معاوية بن قُرّة، والثانية عن بعض القرّاء، والثالثة قيل: إنّها كذا في مصحف حفصة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٥؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٨٦/٥.

و﴿ٱخۡتَارَ﴾ يتعدّى إلى اثنين، ثانيهما مجرورٌ بـ"مِن"، أي: اختار مِن قومه، بحذف الجارّ وإيصالِ الفعل إلى المجرور، كما في قوله:

اختـارَكَ النـاسَ إذْ رثَّـتْ خَلائِقُهم   واعتلَّ مَن كان يُرجَى عنده السُّولُ[١]

أي: اختارك مِن الناس.

﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ مفعول أوّل لـ﴿ٱخۡتَارَ﴾، أُخّر عن الثاني / لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر. ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ الذي وقّتناه بعد ما وقع مِن قومه ما وقع، لا لمِيقات الكلام الذي ذُكر قبل ذلك كما قيل.[٢] [٣٥٢ظ]

قال السدّي: «أمره الله تعالى بأن يأتيَه في ناس مِن بني إسرائيلَ يعتذرون إليه تعالى مِن عبادة العجل، ووعَدَهم موعدًا، فاختار عليه السلام مِن قومه سبعين رجلًا».[٣] وقال محمّد بن إسحاق: «اختارهم ليتوبوا إليه[٤] تعالى ممّا صنعوه ويسألوه التوبةَ على مَن تركوهم وراءهم مِن قومهم».[٥]

قالوا: اختار عليه السلام مِن كلّ سِبط ستّةً، فزاد اثنان، فقال: «لِيتخلَّفْ منكم رجلان»، فتشاحُّوا، فقال عليه السلام: «إنّ لِمن قعد مثلَ أجر مَن خرج»، فقعد كالَبُ ويُوشَعُ، وذهب مع الباقين، وأمرهم أن يصوموا ويتطهّروا ويطهِّروا ثيابهم، فخرج بهم إلى طور سَيْنا، فلمّا دنَوا مِن الجبل غشِيَه غمام، فدخل موسى بهم الغمامَ، وخرّوا سُجّدًا، فسمعوه تعالى يكلِّم موسى يأمرُه وينهاه حسبما يشاء، وهو الأمر بقتل أنفسهم توبةً.[٦]

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ ممّا اجترءُوا عليه مِن طلب الرؤية، فإنّه يُروى أنّه لمّا انكشف الغمام أقبلوا إلى موسى عليه السلام وقالوا: «لن نؤمنَ لك

---

١ البيت للراعي النميري في تهذيب اللغة للأزهري، ٤٧/١٣ «باب السين واللام»؛ وجامع البيان للطبري، ٤٧٢/١٠؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣٩٢/١٤؛ وتاج العروس للزبيدي، «سول». وفي كلّها: "اخترتُك" مكان "اختارك".

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٦٤/٢. وانظر أيضًا: اللباب لابن عادل، ٣٣٣/٩-٣٣٤.

٣ جامع البيان للطبري، ٤٦٨/١٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٦/٣.

٤ س: إلى الله.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٦/٣.

٦ الكشّاف للزمخشري، ١٦٤/٢؛ اللباب لابن عادل، ٣٣٣/٩.

حتّى نرى الله جَهْرةً»، فأخذتهم الرَّجْفة،[١] أي: الصاعقة أو رجفةُ الجبل، فصُعقوا منها، أي: ماتوا. ولعلّهم أرادوا بقولهم: "لن نؤمنَ لك": لن نصدِّقَك في أنّ الآمر بما سمعنا مِن الأمر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتّى نراه، حيث قاسوا رؤيتَه تعالى على سماع كلامه قياسًا فاسدًا.

فحين شاهد موسى عليه السلام تلك الحالة الهائلة ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: حين فرّطوا في النهي عن عبادة العجل / وما فارقوا [٣٥٣و] عَبَدَتَه حين شاهدوا إصرارهم عليها، ﴿وَإِيَّٰىَ﴾ أيضًا حين طلبتُ منك الرؤية، أي: لو شئتَ إهلاكنا بذنوبنا لَأهلكتَنا حينئذ. أراد به عليه السلام تذكيرَ العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق، فإنّ الاعتراف بالذنب والشكرَ على النعمة ممّا يرتبط العتيد ويستجلب المَزيد، يعني: إنّا كنّا مستحقّين للإهلاك، ولم يكن مِن موانعه إلّا عدمُ مشيئتك إيّاه، فحيث لطُفتَ بنا وعفوتَ عنّا تلك الجرائر، فلا غَرْوَ في أن تعفُوَ عنّا هذه الجريمة أيضًا.

وحملُ الكلام على التمنيّ[٢] يأباه قوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي: الذين لا يعلمون تفاصيل شئونك ولا يتثبّتون في المداحض. والهمزة إمّا لإنكار وقوع الإهلاك ثقةً بلطف الله عزّ وجلّ، كما قاله ابن الأنباري، أو للاستعطاف، كما قاله المبرّد، أي: لا تُهلكنا.[٣]

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله واعتذار عمّا صنعوا ببيان مَنشأ غلطهم، أي: ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء -وقالوا بسببها ما قالوا مِن العظيمة- إلّا فتنتُك، أي: مِحنتُك وابتلاؤك، حيث أسمعتَهم كلامك، فافتُتنوا[٤] بذلك، ولم يتثبّتوا، فطَمِعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس الفاسد.

وقوله تعالى: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ إمّا استئناف مبيِّن لحُكم الفتنة، أو حال مِن ﴿فِتْنَتُكَ﴾، أي: حالَ كونِها مُضلًّا بها... إلخ، أي: تُضلّ بسببها

---

١ انظر: اللباب لابن عادل، ٣٣٣/٩.

٢ هو الزمخشري في الكشّاف، ١٦٤/٢.

٣ ذكر قولَيهما الواحدي في التفسير البسيط، ٣٩٠/٩؛ وابن عادل في اللباب، ٣٣٥/٩.

٤ وفي هامش م: معًا. | يعني: الفتحة إذا قُرئ معلومًا والضمّة إذا قُرئ مجهولًا. | وفي هامش م: افتتن: متعدّ ولازم. «منه».

مَن تشاء إضلالَه، فلا يهتدي إلى التثبّت، وتَهدي مَن تشاء هدايته إلى الحقّ، فلا يتزلزل / في أمثالها، فيقوى بها إيمانه. [٣٥٣ظ]

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: القائم بأمورنا الدنيويّة والأخرويّة وناصرُنا وحافظُنا، لا غيرُك، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما قارفناه مِن المعاصي. و"الفاء" لترتيب الدعاء على ما قبله مِن الولاية، كأنّه قيل: فمِن شأن الوليّ المغفرة والرحمةُ. وقيل: إنّ إقدامه عليه السلام على أن يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾... إلخ جرأةٌ عظيمةٌ، فطلب مِن الله تعالى غُفرانها والتجاوزَ عنها. ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ بإفاضة آثار الرحمة الدنيويّة والأخرويّة علينا. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ اعتراض تذييلي مقرّر لِما قبله مِن الدعاء. وتخصيص المغفرة بالذِّكر لأنّها الأهمّ بحسب المقام.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ أي: عيِّنْ لنا، وقيل: أوجِبْ وحقِّقْ وأثبِتْ ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: نعمةً وعافيةً أو خصلةً حسنةً. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «اقبَلْ وِفادتَنا، ورُدَّنا بالمغفرة والرحمة».[١] ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: واكتبْ لنا فيها أيضًا حسنةً. وهي المَثوبة الحسنى والجنّة.

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تُبنا وأنبنا إليك، مِن "هادَ يهُودُ" إذا رجع. وقُرئ بكسر الهاء،[٢] مِن "هادَ يَهيدُ" إذا حرّكه وأماله. ويحتمل[٣] أن يكون مبنيًّا للفاعل وللمفعول، بمعنى: أمَلْنا أنفسَنا أو أُمِلْنا إليك. وتجويزُ[٤] أن تكون القراءة المشهورة على بناء المفعول على لغة مَن يقول: "عُودَ المريضُ" -مع كونها لغةً ضعيفةً- ممّا لا يَليق بشأن التنزيل الجليل.

---

[١] التفسير البسيط للواحدي، ٣٩١/٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وأبي وَجزةَ يزيد بن عبيد السعدي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٥.

[٣] أي: القراءة بكسر الهاء.

[٤] أجازه الزمخشري في الكشّاف، ١٦٥/٢.

والجملة استئناف مَسوق لتعليل الدعاء؛ فإنّ التوبة ممّا يوجِب قبولَه بموجَب الوعد المحتوم. وتصديرها بحرف التحقيق / لإظهار كمال النشاط [٣٥٤و] والرغبة في التوبة. والمعنى: إنّا تُبنا ورجعنا عمّا صنعنا مِن المعصية العظيمة التي جئناك للاعتذار عنها وعمّا وقع ههنا مِن طلب الرؤية، فبعيدٌ مِن لُطفك وفضلك ألّا تقبلَ توبةَ التائبين.

قيل: لمّا أخذتْهم الرَّجْفة ماتوا جميعًا، فأخذ موسى عليه السلام يتضرّع إلى الله تعالى حتّى أحياهم.[1] وقيل: رُجفوا، وكادت تَبينُ مفاصلهم، وأشرفوا على الهلاك، فخاف موسى عليه السلام، فبكى، فكشفها الله تعالى عنهم.[2]

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال الله تعالى عند دعاء موسى عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ لعلّه عزّ وجلّ حين جعل توبة عَبَدة العجل بقتلهم أنفسَهم ضمَّنَ موسى عليه السلام دعاءَه التخفيفَ والتيسيرَ، حيث قال: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾، أي: خصلةً حسنةً عاريةً عن المشقّة والشدّة، فإنّ في قتل أنفسهم مِن العذاب والتشديد ما لا يخفى.

فأجاب تعالى: بأنّ عذابي شأنُه أن أُصيبَ به مَن أشاء تعذيبَه مِن غير دخل لغيري فيه، وهم ممّن تناولتْه مشيئتي؛ ولذلك جعلتُ توبتهم مشوبةً بالعذاب الدنيويّ، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ أي: شأنُها أن تسَعَ في الدنيا المؤمنَ والكافرَ؛ بل كلَّ ما يدخل تحت الشيئيّة مِن المكلَّفين وغيرهم، وقد نال قومَك نصيب منها في ضمن العذاب الدنيويّ.

وفي نسبة "الإصابة" إلى "العذاب" بصيغة المضارع ونسبةِ "السَّعَة" إلى "الرحمة" بصيغة الماضي إيذانٌ بأنّ الرحمة مقتضى الذات، وأمّا العذاب فبمقتضى معاصي العباد. والمشيئة معتبَرة / في جانب الرحمة أيضًا، وعدمُ [٣٥٤ظ] التصريح بها للإشعار بغاية الظهور؛ ألَا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ أي:

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣٣٤/٩-٣٣٥.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٦/٣.

أُثبتها وأعيِّنُها، فإنّه متفرّع على اعتبار المشيئة، كأنّه قيل: فإذا كان الأمر كذلك -أي: كما ذُكر مِن إصابة عذابي وسَعَة رحمتي لكلّ مَن أشاء- فسأكتبها كتبةً كائنةً كما دعوتَ بقولك: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ﴾... إلخ، أي: سأكتبها خالصةً غيرَ مشوبة بالعذاب الدنيوي ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: الكفر والمعاصي، إمّا ابتداءً أو بعد ملابستهما.

وفيه تعريض بقومه، كأنّه قيل: لا لقومك؛ لأنّهم غير متّقين، فيكفيهم ما قُدّر لهم مِن الرحمة، وإن كانت مقارنةً للعذاب الدنيويّ. ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وفيه أيضًا تعريض بهم، حيث كانت الزكاة شاقّةً عليهم. ولعلّ الصلاةَ إنّما لم تُذكَر -مع إنافتها على سائر العبادات- اكتفاءً منها بـ"الاتّقاء" الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسْرها وتركِ المنكَرات عن آخِرها. وإيراد إيتاء الزكاة لِما مرّ مِن التعريض.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جميعًا ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ إيمانًا مستمرًّا مِن غير إخلال بشيء منها. وفيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العِظام التي جاء به موسى عليه السلام، وبما سيجيء بعد ذلك مِن الآيات البيّنات كتظليل الغمام وإنزال المَنّ والسَّلوى وغير ذلك. وتكرير الموصول -مع أنّ المراد به عينُ ما أُريدَ بالموصول الأوّل، دون أن يقال: "ويؤمنون بآياتنا" عطفًا على ﴿يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كما عُطف هو على ﴿يَتَّقُونَ﴾- لِما أشيرَ إليه مِن القَصر بتقديم الجارّ والمجرور، أي: هم بجميع آياتنا يؤمنون، لا ببعضها دون بعض.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ / ٱلرَّسُولَ﴾ الذي نوحي إليه كتابًا مختصًّا به، ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ أي: صاحبَ المعجزة. وقيل: عنوان الرسالة بالنسبة إليه تعالى، وعنوان النبوّة بالنسبة إلى الأمّة. [٣٥٥و]

﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾ بضمّ الهمزة نسبةً إلى "الأمّ"، كأنّه باقٍ على حالته التي وُلد عليها مِن أمّه، أو إلى "أمّة العرب"، كما قال عليه السلام: «إنّا أمّةٌ لا نحسُب ولا نكتب»،[١] أو إلى "أمّ القُرى". وقُرئ بفتح الهمزة.[٢] أي: الذي لم يمارس القراءة والكتابة، وقد جمع مع ذلك علومَ الأوّلين والآخِرين.

والموصول بدل مِن الموصول الأوّل بدلَ الكلّ، أو منصوب على المدح، أو مرفوع عليه، أي: أعني الذين، أو هم الذين. وأمّا جعلُه مبتدأً على أنّ خبره ﴿يَأۡمُرُهُم﴾[٣] أو ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾،[٤] فغيرُ سديد.

﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا﴾ باسمه ونعوته بحيث لا يشُكّون أنّه هو؛ ولذلك عُدل عن أن يقال: "يجدون اسمه أو وصفه مكتوبًا". ﴿عِندَهُمۡ﴾ زِيد هذا لزيادة التقرير، وأنّ شأنه عليه السلام حاضرٌ عندهم، لا يَغيب عنهم أصلًا. ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ اللذَين تُعُبّدَ بهما بنو إسرائيلَ سابقًا ولاحقًا. والظرفان متعلّقان بـ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ أو بـ﴿مَكۡتُوبًا﴾. وذكرُ الإنجيل قبل نزوله مِن قبيل ما نحن فيه مِن ذكر النبيّ عليه السلام والقرآنِ الكريم قبل مَجيئهما.

﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ كلام مستأنَف، لا محلَّ له مِن الإعراب -قاله الزجّاج-[٥] متضمِّنٌ لتفصيل بعض أحكام الرحمة التي وُعد فيما سبق بكتبها إجمالًا، فإنّ ما بُيّن فيه مِن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر وإحلال الطيّبات وتحريم الخبائث وإسقاطِ التكاليف الشاقّة كلُّها مِن آثار رحمته الواسعة. وقيل: في محلّ النصب على أنّه حال مقدَّرة مِن مفعول ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ أو مِن ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ أو مِن المستكنّ في ﴿مَكۡتُوبًا﴾. أو مفسِّرٌ[٦] لـ﴿مَكۡتُوبًا﴾، أي: لِما كُتب.[٧]

---

[١] انظر: صحيح البخاري، ٢٧/٣ (١٩١٣)؛ وصحيح مسلم، ٧٦١/٢ (١٠٨٠).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. اللباب لابن عادل، ٣٣٩/٩.

[٣] م س: يأمرون. | الظاهر أنّه سهو مِن المصنّف رحمه الله.

[٤] أجاز هذا الوجه أبو البقاء العُكبري في التبيان، ٥٩٨/١. انظر لوجه ردّه: اللباب لابن عادل، ٣٣٩/٩.

[٥] معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٣٨١/٢.

[٦] وفي هامش م: عطفٌ على "كلام". «منه».

[٧] وفي هامش م: كما فسّر "المَثل" في قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ بقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران، ٥٩/٣]. «منه».

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ التي حُرِمت عليهم بشؤم ظلمهم، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ كالدم ولحم الخِنزير والرِّبا والرشوة، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يخفِّف عنهم ما كُلّفوه مِن التكاليف الشاقّة التي هي مِن قبيل ما كُتب عليهم حينئذ / مِن كون التوبة بقتل النفس، كتعيين القصاص [٣٥٥ظ] في العمد والخطأ مِن غير شرع الدِّية وقطعِ الأعضاء الخاطئة وقرضِ موضع النجاسة مِن الجِلد والثوب وإحراقِ الغنائم وتحريمِ السبت. وعن عطاء: «أنّه كانت بنو إسرائيلَ إذا قاموا يُصلّون لبِسوا المُسوح،[١] وغلّوا أيديَهم إلى أعناقهم، وربّما ثقَبَ الرجلُ تَرقُوَتَه،[٢] وجعل فيها طرف السلسلة، وأوْثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة».[٣]

وقُرئ: "آصَارَهُمْ".[٤] وأصل "الإصْر": الثِّقل الذي يأسِرُ صاحبَه مِن الحَراك.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ تعليم لكيفيّة اتّباعه صلّى الله عليه وسلّم،[٥] وبيان لعُلوّ رتبة متّبِعيه واغتنامِهم مغانمَ الرحمة الواسعة في الدارين إثرَ بيان نعوته الجليلة والإشارةِ إلى إرشاده عليه السلام إيّاهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر وإحلالِ الطيّبات وتحريم الخبائث، أي: فالذين آمنوا بنبوّته، وأطاعوه في أوامره ونواهيه، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عظّموه ووقّروه، وأعانوه بمنع أعدائه عنه. وقُرئ بالتخفيف.[٦] وأصله: المنع، ومنه: التعزير.[٧]

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه في الدين، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: مع نبوّته. وهو القرآن. عُبّر عنه بـ﴿ٱلنُّور﴾ المُنبئ عن كونه ظاهرًا بنفسه ومظهِرًا لغيره

---

١ المُسُوح: جمعُ "المِسْح"، وهو الكساء مِن الشَّعر. لسان العرب لابن منظور، «مسح».

٢ التَّرْقُوَتانِ: العَظمان المُشرِفان بين ثُغرة النحر والعاتق، تكون للناس وغيرهم. ولا تقلْ "تُرقُوَة" بالضمّ. وقيل: هي عظمٌ وصل بين ثُغرة النحر والعاتق مِن الجانبين. وجمعها: التراقي. لسان العرب لابن منظور، «ترق».

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٩٥/٥.

٤ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٧٢/٢.

٥ س: عليه السلام.

٦ أي: "وَعَزَرُوهُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب اللؤلؤي والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٦.

٧ التعزير: التأديب، ومنه سُمّي الضرب دون الحدّ تعزيرًا. الصحاح للجوهري، «عزر».

أو مظهِرًا للحقائق كاشفًا عنها لمناسبته[١] الاتّباعَ. ويجوز أن يكون ﴿مَعَهُۥ﴾ متعلِّقًا بـ﴿ٱتَّبَعُوٓاْ﴾، أي: واتّبعوا القرآن المنزل مع اتّباعه عليه السلام بالعمل بسُنّته وبما أمر به ونهى عنه، أو اتّبعوا القرآن مصاحِبين له في اتّباعه.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين مِن حيث اتّصافُهم بما فُصّل مِن الصفات الفاضلة للإشعار بعلّيّتها للحُكم، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ درجتهم وسُموّ طبقتهم في الفضل والشرف؛ أو أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب، لا غيرُهم مِن الأمم، فيدخل فيهم قوم موسى عليه السلام دخولًا أوّليًّا، حيث لم ينجُوا عمّا في توبتهم مِن المشقّة الهائلة. وبه يتحقّق التحقيق ويتأتّى التوفيق والتطبيق بين دعائه عليه السلام وبين الجواب، لا بمجرّد ما قيل / مِن أنّه لمّا دعا لنفسه [٣٥٦و] ولبني إسرائيلَ أجيبَ بما هو منطوٍ على توبيخ بني إسرائيلَ على استجازتهم الرؤيةَ على الله عزّ وجلّ وعلى كفرهم بآياته العِظام التي أجراها على يد موسى عليه السلام؛ وعُرّض بذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾،[٢] وأريدَ أن يكون استماعُ أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبما جاء به كعبد الله بن سلَام وغيره مِن أهل الكتابَين لطفًا لهم وترغيبًا في إخلاص الإيمان والعمل الصالح.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ لمّا حُكي ما في الكتابين مِن نعوت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشرف مَن يتّبعه مِن أهلهما ونيلِهم لسعادة الدارين، أُمِر عليه السلام ببيان أنّ تلك السعادة غيرُ مختصّة بهم؛ بل شاملة لكلّ مَن يتّبعه كائنًا مَن كان، ببيان عموم رسالته للثقلين[٣] مع اختصاص رسالة سائر

---

[١] متعلِّق بقوله: "عُبّر عنه بـ﴿ٱلنُّور﴾".

[٢] في الآية السابقة.

[٣] أي: الإنس والجنّ.

الرسل عليهم السلام بأقوامهم. وإرسال موسى عليه السلام إلى فرعونَ ومَلَئِه بالآيات التِّسع إنّما كان لأمرهم بعبادة ربّ العالمين عزّ سلطانُه وتركِ العظيمة التي كان يدّعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية، وبإرسال بني إسرائيلَ مِن الأسر والقسر؛ وأمّا العمل بأحكام التوراة، فمختصّ ببني إسرائيلَ.

﴿جَمِيعًا﴾ حال مِن الضمير في ﴿إِلَيْكُمْ﴾. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ منصوب أو مرفوع على المدح، أو مجرور على أنّه صفة للجلالة، وإن حِيل بينهما بما هو متعلِّق بما[1] أضيفَ إليه،[2] فإنّه في حكم المتقدّم عليه.[3]

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيان لِما قبله، فإنّ مَن ملك العالَم كان هو الإلهَ، لا غيره. وقوله تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ لزيادة تقرير ألوهيّته. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لتفريع الأمر على ما تمهَّدَ وتقرَّر مِن رسالته عليه السلام. وإيراد نفسه عليه السلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات إلى الغَيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال بأمره.

ووصفُ الرسول بقوله: ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ لمدحِه عليه السلام بهما، ولزيادة تقرير أمره / وتحقيقِ أنّه المكتوب في الكتابين. ووصفُه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: ما أنزل إليه وإلى سائر الرسل عليهم السلام مِن كُتبه ووحيه، لحملِ أهل الكتابين على الامتثال بما أُمروا به. والتصريح بإيمانه بالله تعالى للتنبيه على أنّ الإيمان به تعالى لا ينفكّ عن الإيمان بكلماته، ولا يتحقّق إلّا به. [٣٥٦ظ]

وقُرئ: "وَكَلِمَتِهِ"[4] على إرادة الجنس، أو القرآنِ تنبيهًا على أنّ المأمور به هو الإيمان به عليه السلام مِن حيث أنزلِ عليه القرآنُ، لا مِن حيثيّة أخرى، أو على أنّ المراد بها عيسى عليه السلام تعريضًا باليهود، وتنبيهًا على أنّ مَن لم يؤمن به لم يُعتدّ بإيمانه.

---

[1] وفي هامش م: رسول. «منه».
[2] وفي هامش م: أي: إلى الاسم الجليل. «منه».
[3] وفي هامش م: على الاسم الجليل. «منه».
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٦.

﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: في كلّ ما يأتي وما يذَرُ مِن أمور الدين. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ علّة للفعلين، أو حال مِن فاعلَيهما، أي: رجاءً لاهتدائكم إلى المطلوب، أو راجين له. وفي تعليقه بهما[١] إيذان بأنّ مَن صدّقه ولم يتّبعه بالتزام أحكام شريعته، فهو بمَعزِل مِن الاهتداء مستمرٌّ على الغَيّ والضلالة.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٥٩﴾

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كلام مبتدأ مسوق لدفع ما عسى يُوهمه تخصيصُ كتبة الرحمة والتقوى والإيمان بالآيات بمتّبِعِي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم مِن حِرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام مِن كلّ خير، وبيانِ أنّ كلّهم ليسوا كما حُكيت أحوالهم؛ بل منهم.

﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ أي: الناسَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ملتبسين به، أو يَهدُونهم بكلمة الحقّ، ﴿وَبِهِۦ﴾ أي: بالحقّ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أي: في الأحكام الجارية فيما بينهم. وصيغة المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية. وقيل: هم الذين آمنوا بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛[٢] ويأباه أنّه قد مرّ ذكرهم فيما سلف.[٣]

وقيل: إنّ بني إسرائيلَ لمّا بالغوا في العُتوّ والطغيان حتّى اجترءُوا على قتل الأنبياء عليهم السلام، تبرَّأ سِبط منهم ممّا صنعوا، واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرّق بينهم وبين أولئك الطاغين، ففتح الله / تعالى لهم نَفَقًا في الأرض، [٣٥٧و] فساروا فيه سنةً ونِصفًا حتّى خرجوا مِن وراء الصين، وهم اليومَ هنالك حنفاءُ مسلمون يستقبلون قِبلتنا.[٤]

وقد ذُكر عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ جبريل عليه السلام ذهب به ليلةَ الإسراء نحوَهم، فكلّمهم، فقال جبريلُ عليه السلام: «هل تعرفون مَن تكلِّمون؟»، قالوا: «لا»، قال: «هذا محمّدٌ النبيّ الأمّيّ»، فآمنوا به وقالوا: «يا رسول الله، إنّ موسى أوصانا: مَن أدرك منكم أحمدَ، فليَقرأْ منّي عليه السلامَ»،

---

[١] أي: الإيمان بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم واتّباعه.
[٢] ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٢/١٦٧.
[٣] في الأعراف، ٧/١٥٧.
[٤] جامع البيان للطبري، ١٠/٥٠١؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٦٧.

فردُ محمّد على موسى السلامَ -عليهما السلام- ثمّ أقرأهم عشرَ سوَرٍ مِن القرآن نزلت بمكّةَ، ولم تكن نزلت يومئذ فريضةٌ غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يُقيموا مكانهم، وكانوا يسبِتون، فأمرهم أن يجمِّعوا ويتركوا السبت هذا.[١] وأنت خبير بأنّ تخصيصهم بالهداية مِن بين قومه عليه السلام -مع أنّ منهم مَن آمن بجميع الشرائع- لا يخلو عن بُعد.

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١٦٠﴾

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ﴾ أي: قومَ موسى، لا الأمّة المذكورة منهم.[٢] وقُرِئ بالتخفيف.[٣] وقوله تعالى: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ ثاني مفعولَي "قطّع" لتضمُّنه معنى التصيير، والتأنيث للحمل على "الأمّة" أو "القطعة"، أي: صيّرناهم اثنتَي عشرةَ أمّةً أو قطعةً متميّزًا بعضُها مِن بعض؛ أو حالٌ مِن مفعوله، أي: فرّقناهم معدودين هذا العددَ. وقوله تعالى: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل منه؛ ولذلك جُمع، أو مميّز له على أنّ كلّ واحدة مِن اثنتَي عشرةَ قطعةُ أسباطٍ، لا سِبطٌ. وقُرِئ: "عَشِرَةَ"[٤] بكسر الشين. وقوله تعالى: ﴿أُمَمًا﴾ على الأوّل بدل بعد بدل أو نعتٌ لـ﴿أَسْبَاطًا﴾، وعلى الثاني بدل مِن ﴿أَسْبَاطًا﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ حين استولى عليهم العطشُ في التِّيه الذي وقعوا فيه بسوء صنيعهم، لا بمجرّد استسقائهم إيّاه عليه السلام؛ بل باستسقائه عليه السلام لهم، لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة، ٦٠/٢]. وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ مفسِّر لفعل الإيحاء. / [٣٥٧ظ] وقد مرّ بيان شأن الحَجَر في تفسير سورة البقرة.[٥]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٤/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٦٧/٢.
٢ في الآية السابقة.
٣ أي: "وَقَطَعْنَاهُمْ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٦.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى والأعمش وطلحة بن سليمان. المحتسَب لابن جنّي، ٢٦١/١.
٥ انظر: تفسير البقرة، ٦٠/٢.

﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ عطفٌ على مقدَّر ينسحب عليه الكلام، قد حُذف تعويلًا على كمال الظهور، وإيذانًا بغاية مسارعته عليه السلام إلى الامتثال، وإشعارًا بعدم تأثير الضرب حقيقةً، وتنبيهًا على كمال سرعة الانبجاس -وهو الانفجار- كأنّه حصل إثرَ الأمر قبل تحقّق الضرب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٣]، أي: فضرب فانبجست ﴿مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾ بعدد الأسباط. وأمّا ما قيل مِن أنّ التقدير: "فإن ضربتَ فقد انبجستْ"،[١] فغيرُ حقيقٍ بجزالة النظم التنزيليّ. وقُرئ: "عَشِرَةَ" بكسر الشين وفتحها.[٢]

﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ﴾ كلّ سِبط. عُبّر عنهم بذلك إيذانًا بكثرة كلّ واحد مِن الأسباط. ﴿مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ أي: عينهم الخاصّةَ بهم.

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾ أي: جعلناها بحيث تُلقي عليهم ظِلَّها، تَسير في التِّيه بسيرهم وتسكن بإقامتهم. وكان ينزل بالليل عمود مِن نار يَسيرون بضَوئه.[٣] ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ أي: التُّرُنجَبِين والسُّمانَى. قيل: كان ينزل عليهم المنّ مثلَ الثَّلج مِن الفجر إلى الطلوع، لكلّ إنسان صاعٌ، وتَبعَث الجَنوبُ عليهم السُّمانَى، فيذبح الرجل منهم ما يكفيه.[٤]

﴿كُلُواْ﴾ أي: وقلنا لهم: كُلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ أي: مستلَذّاتِه. و﴿مَا﴾ -موصولةً كانت أو موصوفةً- عبارةٌ عن المنّ والسَّلوى.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ رجوع إلى سَنَن الكلام الأوّل بعد حكاية خطابهم. وهو معطوف على جملة محذوفة للإيجاز والإشعارِ بأنّه أمرٌ محقَّقٌ غنيٌّ عن التصريح به، أي: فظلموا بأن كفروا بتلك النِّعم الجليلة، وما ظلمونا بذلك، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ إذ لا يتخطّاهم ضرره. وتقديم المفعول لإفادة القَصر

---

[١] قاله الزمخشري في **الكشّاف**، ١/١٤٤؛ والبيضاوي في **أنوار التنزيل**، ١/٨٣. وفيهما: "انفجرت" مكان "انبجست".

[٢] كلاهما قراءتان شاذّتان. الأولى مرويّة عن يحيى والأعمش وطلحة بن سليمان، والثانية مرويّة عن الأعمش أيضًا بخلاف. **المحتسَب** لابن جنّي، ١/٢٦١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٦.

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٤٢ (البقرة، ٢/٥٧).

[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٤٢ (البقرة، ٢/٥٧).

الذي يقتضيه النفي السابق. وفيه ضربٌ مِن التهكّم بهم. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل / للدلالة على تَماديهم فيما هم فيه مِن الظلم والكفر. [٣٥٨و]

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٦١﴾

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ منصوب بمضمَر، خُوطبَ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وإيراد الفعل على البناء للمفعول -مع استناده إليه تعالى كما يُفصح عنه ما وقع في سورة البقرة مِن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾-[١] للجَري على سَنَن الكبرياء والإيذانِ بالغِنى عن التصريح به لتعيُّن الفاعل. وتغيير النظم بالأمر بالذكر للتشديد في التوبيخ. أي: اذكرْ لهم وقت قولِه تعالى لأسلافهم: ﴿ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ منصوبة على المفعوليّة، يقال: "سكنتُ الدارَ"، وقيل: على الظرفيّة اتّساعًا. وهي بيت المقدِس،[٢] وقيل: أريحاء،[٣] وهي قرية الجبّارين، وكان فيها قوم مِن بقيّة عادٍ، يقال لهم: العَمالِقة، رأسُهم عُوج بن عنق.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنُواْ﴾ إيذان بأنّ المأمور به في سورة البقرة هو الدخول على وجه السُّكنى والإقامة؛ ولذلك اكتُفي به عن ذكر ﴿رَغَدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أي: مِن مطاعمها وثِمارها، على أنّ ﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة؛ أو منها،[٤] على أنّها ابتدائيّة. ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: مِن نواحيها مِن غير أن يزاحِمكم فيها أحد، فإنّ الأكل المستمرّ على هذا الوجه لا يكون إلّا رَغَدًا واسعًا. وعطفُ ﴿كُلُواْ﴾ على ﴿ٱسْكُنُواْ﴾ بـ"الواو" لمقارنتهما زمانًا، بخلاف "الدخول"، فإنّه مقدَّم على الأكل؛ ولذلك قيل هناك: ﴿فَكُلُواْ﴾.[٥]

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي: مسألتُنا أو أمرُك حِطّةٌ لذنوبنا. وهي "فِعْلة" مِن "الحَطّ"، كـ"الجِلْسة". ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾ أي: بابَ القرية ﴿سُجَّدًا﴾ أي: متطامنين مُخبِتين

---

[١] ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة، ٥٨/٢].

[٢] جامع البيان للطبري، ٧١٣/١ (البقرة، ٥٨/٢).

[٣] جامع البيان للطبري، ٧١٣/١ (البقرة، ٥٨/٢).

[٤] وفي هامش م: مِن القرية. «منه».

[٥] في البقرة، ٥٨/٢.

أو ساجدين، شكرًا على إخراجهم مِن التِّيه.

وتقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور في سورة البقرة غيرُ مُخلّ بهذا الترتيب؛ لأنّ المأمور به هو الجمع بين الفعلين مِن غير اعتبار الترتيب بينهما. ثمّ إن كان المراد بـ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ أريحاءَ، فقد رُوي أنّهم دخلوها، حيث سار إليها موسى عليه السلام بمَن بقي مِن / بني إسرائيلَ -أو بذَرَارِيّهم على اختلاف الروايتين- ففتحها، كما مرّ في سورة المائدة.[1] وأمّا إن كان بيتَ المقدس، فقد رُوي أنّهم لم يدخلوه في حياة موسى عليه السلام، فقيل: المراد بـ﴿ٱلْبَابَ﴾ بابُ القُبّة التي كانوا يُصلّون إليها.[2] [٣٥٨ظ]

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ وقُرِئ: "خطَايَاكُمْ"[3] كما في سورة البقرة، و"تُغْفَرْ لَكُمْ خَطِيئَاتُكُمْ"[4] و"خَطَايَاكُمْ"[5] و"خَطِيئَتُكُمْ"[6] على البناء للمفعول. ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عِدة بشيئين: بالمغفرة وبالزيادة. وطرحُ الواو ههنا لا يُخلّ بذلك؛ لأنّه استئناف مرتّب على تقدير سؤالٍ نشأ مِن الإخبار بالغفران، كأنّه قيل: فماذا لهم بعد الغفران؟ فقيل: ﴿سَنَزِيدُ﴾. وكذلك زيادة ﴿مِنْهُمْ﴾[7] زيادةُ بيان.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بما أُمروا به مِن التوبة والاستغفار، حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعَه ﴿قَوْلًا﴾ آخرَ ممّا لا خيرَ فيه. رُوي أنّهم دخلوه زاحفين على أستاههم، وقالوا مكانَ "حِطّة": "حِنْطة"،[8] وقيل: قالوا بالنَّبطيّة:

---

[1] انظر: تفسير المائدة، ٢٦/٥.
[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٤٢/١ (البقرة، ٥٨/٢).
[3] على البناء للفاعل. قرأ بها أبو عمرو. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٩٥؛ النشر لابن الجزري، ٢٧٢/٢.
[4] قرأ بها نافع. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٩٥؛ النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.
[5] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ١٧٠/٢.
[6] قرأ بها ابن عامر. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٩٦؛ النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.
[7] أي: زيادة ﴿مِنْهُمْ﴾ في الآية التالية.
[8] انظر: جامع البيان للطبري، ٧٢٤/١-٧٢٥ (البقرة، ٥٩/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤٣/١ (البقرة، ٥٩/٢).

"هطًا شُمقاثًا"، يَعنُون: حِنطة حمراء،[١] استخفافًا بأمر الله عزّ وجلّ[٢] واستهزاءً بموسى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ نعتٌ لـ﴿قَوْلًا﴾. صُرّح بالمغايرة -مع دلالة التبديل عليها قطعًا- تحقيقًا للمخالفة وتنصيصًا على المغايرة مِن كلّ وجه.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إثرَ ما فعلوا ما فعلوا مِن غير تأخير. وفي سورة البقرة: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾،[٣] والمعنى واحد. والإرسال مِن فوق، فيكون كالإنزال. ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابًا كائنًا منها. والمراد الطاعون. رُوي أنّه مات منهم في ساعة واحدة أربعةٌ وعشرون ألفًا.[٤]

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ بسبب ظلمهم المستمرّ السابق واللاحق، حسبما يفيده الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل؛ لا بسبب التبديل فقط، كما يُشعر به ترتيب الإرسال عليه بـ"الفاء". والتصريح بهذا التعليل لِما أنّ الحكم ههنا مرتّب على المضمَر، دون الموصول بالظلم كما في سورة البقرة. / وأمّا التعليل بالفِسق بعد الإشعار بعلّيّة الظلم، فقد مرّ وجهُه هناك.[٥] والله تعالى أعلم. [٣٥٩و]

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ عطفٌ على المقدَّر في ﴿إِذْ قِيلَ﴾،[٦] أي: واسألْ اليهود المعاصرين لك سؤالَ تقريع وتقرير بقديم كفرهم وتجاوزِهم لحدود الله تعالى، وإعلامًا لهم بأنّ ذلك مع كونه مِن علومهم الخفيّة التي لا يقف عليها إلّا مَن مارس كتبهم قد أحاط به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خُبْرًا؛ وإذ ليس ذلك بالتلقّي مِن كتبهم -لأنّه عليه السلام بمَعزِل مِن ذلك- تعيَّنَ أنّه مِن جهة الوحي الصريح.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٧٢٥/١ (البقرة، ٥٩/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤٣/١ (البقرة، ٥٩/٢). وفي مطبوع الأوّل: "هِطى سُمقاثا"، والثاني: "حطا سُمقاثا".

٢ س: تعالى.

٣ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة، ٥٩/٢].

٤ الكشّاف للزمخشري، ١٤٣/١ (البقرة، ٥٩/٢).

٥ انظر: تفسير البقرة، ٥٩/٢.

٦ الأعراف، ١٦١/٧.

﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: عن حالها وخبرها وما جرى على أهلها مِن الداهية الدَّهْياء. وهي أَيْلَةُ،[١] قرية بين مَدْينَ والطور. وقيل: هي مَدْينُ،[٢] وقيل: طَبَرِيّة.[٣] والعرب تسمِّي المدينة قريةً. ﴿ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: قريبةً منه مشرِفةً على شاطئه.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يتجاوزون حدود الله تعالى بالصَّيد يومَ السبت.[٤] و﴿إِذْ﴾ ظرف للمضاف المحذوف أو بدل منه. وقيل: ظرف لـ﴿كَانَتْ﴾ أو ﴿حَاضِرَةَ﴾؛[٥] وليس بذاك، إذ لا فائدةَ في تقييد الكون أو الحضور بوقت العُدوان. وقُرئ: "يَعَدُّونَ"،[٦] وأصله: يعتَدون،[٧] و"يُعِدُّونَ"[٨] مِن "الإعداد"، حيث كانوا يُعِدّون آلاتِ الصيد يومَ السبت، وهم مَنهيّون عن الاشتغال فيه بغير العبادة.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرف لـ﴿يَعْدُونَ﴾، أو بدل بعد بدل. والأوّل هو الأولى؛ لأنّ السؤال عن عُدوانهم أدخلُ في التقريع. والحِيتان: جمعُ "حُوت"، قُلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، كـ"نُون" و"نِينان" لفظًا ومعنًى. وإضافتها إليهم للإشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجَد في سائر أفراد الجنس مِن الخواصّ الخارقة للعادة، أو لأنّ المراد بها الحِيتان الكائنة في تلك الناحية، وأنّ ما ذُكر مِن الإتيان وعدمه لاعتيادها أحوالَهم في عدم التعرّض يومَ السبت.

﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ ظرف لـ﴿تَأْتِيهِمْ﴾، أي: تأتيهم يومَ تعظيمهم لأمر السبت. وهو مصدرُ "سَبَتَت اليهودُ" إذا عظّمت السبتَ بالتجرّد للعبادة. وقيل: / اسم لليوم، [٣٥٩ظ] والإضافة لاختصاصهم بأحكامٍ فيه. ويؤيّد الأوّلَ قراءة مَن قرأ: "يَوْمَ إِسْبَاتِهِمْ".[٩]

---

١ جامع البيان للطبري، ١٠/٥٠٧-٥٠٨.
٢ جامع البيان للطبري، ١٠/٥٠٩.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٧٠. | طَبَرِيّة: بليدة مطلّة على البحيرة المعروفة ببحيرة طَبَرِيّة، وهي في طرف جبل، وجبل الطور مطلّ عليها، وهي مِن أعمال الأردنّ في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيّام، وكذلك بينها وبين بيت المقدس وبينها وبين عَكّا يومان. وفُتحت طَبَرِيّة على يد شُرَحبيل بن حَسَنة رضي الله عنه في سنة ١٣هـ. انظر: معجم البلدان للحَمَوي، ٤/١٧-٢٠.
٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٤٢٠.
٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٣٩.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن شَهر بن حَوشَب وأبي نَهيك. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٦٤.
٧ أُدغمت التاء في الدال، ونُقلت حركتها إلى العين، فصار: يَعَدُّون.
٨ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/١٧٠-١٧١.
٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن عبد العزيز. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٧.

وقوله تعالى: ﴿شُرَّعًا﴾ جمعُ "شارع"، مِن "شرَع عليه" إذا دنا وأشرف. وهو حال مِن ﴿حِيتَانُهُمْ﴾، أي: تأتيهم يومَ سَبْتهم ظاهرةً على وجه الماء قريبةً مِن الساحل.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: لا يُراعُون أمر السبت، لكن لا بمجرّد عدم المراعاة مع تحقّق يوم السبت كما هو المتبادر؛ بل مع انتفائهما معًا، أي: لا سبتَ ولا مراعاةَ، كما في قوله:

ولا تَرى الضَّبَّ بها يَنجحِرُ[1]

وقُرئ: "لَا يُسْبِتُونَ"[2] مِن "أسبَتَ"، و"لَا يُسْبَتُونَ"[3] على البناء للمفعول، بمعنى: لا يدخلون في السبت، ولا يُدار عليهم حكمُ السبت، ولا يؤمَرون فيه بما أُمروا به يومَ السبت.

﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ كما كانت تأتيهم يومَ السبت حِذارًا مِن صيدهم. وتغيير السَّبكْ -حيث لم يُقل: ولا تأتيهم يومَ لا يسبِتون- لِما أنّ الإخبار بإتيانها يومَ سبتهم مَظِنَّةُ أن يقال: فماذا حالها يومَ لا يسبِتون؟ فقيل: يومَ لا يسبِتون لا تأتيهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أي: مثلَ ذلك البلاء العجيب الفظيع نعامِلهم معاملةَ مَن يختبرهم ليظهرَ عدوانهم ونؤاخِذَهم به. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجيب منها. ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فِسقهم المستمرّ المدلولِ عليه بالجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل، لكنْ لا في تلك المادّة، فإنّ فِسقهم فيها لا يكون سببًا للبَلوى؛ بل بسبب فِسقهم المستمرّ في كلّ ما يأتون وما يذَرون. وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متّصل بما قبله، أي:

---

[1] عجز بيت، وصدره:

لا تُفزِع الأرنبَ أهوالُها

وهو لعمرو بن أحمر في أساس البلاغة للزمخشري، «رنب»؛ وتاج العروس للزبيدي، «فلت»، وبلا نسبة في أمالي ابن الشجري، ٢٩٨/١؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ١٠٦/١. | والشاهد فيه: أنّه لم يُرد أنّ بها أرانبَ لا تُفزعها أهوالُها، ولا ضبابًا غير منجحرة، ولكنّه نفى أن يكون بها حيوان. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ١٩٢/١٠-١٩٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ. الكشّاف للزمخشري، ١٧١/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. الكشّاف للزمخشري، ١٧١/٢.

لا تأتيهم مثلَ ما تأتيهم يومَ سبتهم؛ فالجملة بعده حينئذ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال عن حكمة اختلاف حال الحِيتان بالإتيان تارةً وعدمِه أخرى.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾

﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ عطفٌ على ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾،[1] مَسوق لتَماديهم في العدوان وعدمِ انزجارهم عنه بعد العِظات والإنذارات. ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: جماعة مِن صلحائهم الذين ركِبوا في عِظتهم متنَ كلّ صعب وذَلول[2] حتّى يئسوا / مِن احتمال القبول [٣٦٠و] لآخرين لا يُقلعون عن التذكير رجاءً للنفع والتأثير مبالغةً في الإعذار وطمعًا في فائدة الإنذار: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مخترِمُهم بالكلّيّة ومطهِّرُ الأرض منهم، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون الاستئصال بالمرّة، وقبل مَهلِكهم مُخزيهم في الدنيا، أو معذِّبُهم في الآخرة لعدم إقلاعهم عمّا كانوا عليه مِن الفِسق والطغيان.

والترديد لمنع الخُلوّ دون منع الجمع، فإنّهم مهلَكون في الدنيا ومعذَّبون في الآخرة. وإيثار صيغة اسم الفاعل -مع أنّ كلًّا مِن الإهلاك والتعذيب مترقَّب- للدلالة على تحقّقهما وتقرّرِهما البتّةَ، كأنّهما واقعان. وإنّما قالوه مبالغةً في أنّ الوعظ لا ينجَع فيهم، أو ترهيبًا للقوم، أو سؤالًا عن حكمة الوعظ ونفعه. ولعلّهم إنّما قالوه بمحضَرٍ مِن القوم حثًّا لهم على الاتّعاظ، فإنّ بتَّ القولِ بهلاكهم وعذابهم ممّا يُلقي في قلوبهم الخوفَ والخشيةَ. وقيل:[3] المراد طائفة مِن الفِرقة الهالكة، أجابوا به وُعّاظَهم ردًّا عليهم وتهكّمًا بهم. وليس بذاك كما ستقف عليه.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: الوُعّاظ: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: نَعِظهم[4] مَعذرةً إليه تعالى، على أنّه مفعول له، وهو الأنسب بظاهر قولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾؛ أو نعتذر مَعذرةً،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] ركِبوا كلَّ صعبٍ وذَلولٍ في أمرهم: إذا بذَلوا فيه الطاقةَ. **أساس البلاغة** للزمخشري، «ذلل».

[3] ذكره الزمخشري بصيغة التمريض في **الكشّاف**، ١٧١/٢.

[4] س: يعظهم.

على أنّه مصدر لفعل محذوف. وقُرئ بالرفع،[١] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: موعظتُنا مَعذرةٌ إليه تعالى حتّى لا نُنسَبَ إلى نوعِ تفريط في النهي عن المنكَر. وفي إضافة "الربّ" إلى ضمير المخاطَبين نوعُ تعريض بالسائلين.

﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿مَعۡذِرَةً﴾، أي: ورجاءَ لأنْ يتّقوا بعضَ التُّقاة. وهذا صريح في أنّ القائلين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾... إلخ ليسوا مِن الفِرقة الهالكة، وإلّا لوجب الخطاب.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ أي: تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤُهم تركَ الناسي للشيء، وأعرضوا عنه إعراضًا كلّيًا بحيث لم يخطُر ببالهم شيء مِن تلك المواعظ أصلًا، ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ وهم الفريقان المذكوران.[٢] وإخراج إنجائهم مُخرَجَ الجواب الذي حقُّه الترتّب على الشرط -وهو نِسيان المُعتدِين المستتبعُ لإهلاكهم- لِما أنّ ما في حيّز الشرط شيآنِ: النسيان والتذكير، كأنّه قيل: فلمّا ذَكّر المذكِّرون ولم يتذكّر المُعتدون، أنجينا الأوّلين وأخذنا الآخرين. وأمّا تصدير الجواب بإنجائهم، فلِما مرّ مرارًا مِن المسارعة إلى بيان نجاتهم مِن أوّل الأمر، مع ما في المؤخَّر مِن نوع طُول.

﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالاعتداء ومخالفة الأمر ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ أي: شديدٍ، وزنًا ومعنًى. مِن "بَؤُسَ يبؤُس بأسًا" إذا اشتدّ. وقُرئ: "بَيْئَس" على وزن "فَيْعَل" بفتح العين[٣] وكسرِها،[٤] و"بَئِس"[٥] كـ"حَذِرٍ"، و"بِئْس"[٦] على تخفيف العين

---

١ قرأ بها السبعة إلّا عاصمًا في رواية حفص. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

٢ في تفسير الآية السابقة.

٣ رواها أبو بكر عن عاصم، إلّا أنّه يُروى أنّه تركها بعدما شكّ فيها، وأخذ رواية الأعمش: بَيْئِس. انظر لطرقها الأخرى: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وعيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن ثابت. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٦٥.

٦ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

ونقلِ حركتها إلى الفاء، كـ"كِبْد" في "كَبِد"، و"بِئْس"[١] بقلب الهمزة ياءً، كـ"ذِيب" في "ذِئْب"، و"بَيِّس"[٢] كـ"رَيِّس" بقلب همزة "بَيْئِس" ياءً وإدغام الياء فيها، و"بَيْس"[٣] على تخفيف "بَيِّس"، كـ"هَيْن" في "هَيِّن". وتنكير "العذاب" للتفخيم والتهويل.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿أَخَذْنَا﴾، كـ"الباء" الأولى؛ ولا ضيرَ فيه لاختلافهما معنًى، أي: أخذناهم بما ذُكر / مِن العذاب بسبب تَماديهم في الفِسق [٣٦٠ظ] الذي هو الخروج عن الطاعة، وهو الظلم والعدوان أيضًا. وإجراء الحكم على الموصول، وإن أشعَرَ بعلّيّة ما في حيّز الصلة له، لكنّه صُرّح بالتعليل المذكور إيذانًا بأنّ العلّة هو الاستمرار على الظلم والعدوان مع اعتبار كون ذلك خروجًا عن طاعة الله عزّ وجلّ، لا نفسُ الظلم والعدوان، وإلّا لَما أُخّروا عن ابتداء المباشرة ساعةً.

ولعلّه تعالى قد عذّبهم بعذاب شديد دون الاستئصال، فلم يُقلِعوا عمّا كانوا عليه، بل ازدادوا في الغَيّ، فمسَخَهم بعد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: تمرّدوا وتكبّروا وأبَوا أن يتركوا ما نُهوا عنه، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ صاغرين أذِلّاءَ بُعَداءَ عن الناس. والمراد بالأمر هو الأمر التكوينيّ، لا القوليّ. وترتيب المسخ على العُتوّ عن الانتهاء عمّا نُهوا عنه للإيذان بأنّه ليس لخصوصيّة الحُوت؛ بل العُمدة في ذلك هو مخالفة الأمر والاستعصاء عليه تعالى. وقيل:[٤] المراد بـ"العذاب البَئيس" هو المسخ، والجملة الثانية تقرير للأولى.

رُوي أنّ اليهود أُمروا باليوم الذي أُمرنا به، وهو يوم الجمعة، فتركوه واختاروا السبت، وهو المَعنيّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل، ١٢٤/١٦]، فابتُلُوا به، وحُرّم عليهم الصيد فيه، وأُمروا بتعظيمه،

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٢/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن نصر بن عاصم. المحتسَب لابن جنّي، ٢٦٥/١.

٣ رواها خارجة عن نافع. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٩٦.

٤ أورده الزمخشري في الكشّاف، ١٧٣/٢.

فكانت الحِيتان تأتيهم يومَ السبت كأنّها المَخاض[١] لا يُرى وجه الماء لكثرتها، ولا تأتيهم في سائر الأيّام، فكانوا على ذلك بُرهةً مِن الدهر، ثمّ جاءهم إبليسُ فقال لهم: «إنّما نُهيتم عن أخذها يومَ السبت، فاتّخِذوا حِياضًا سهلةَ الورود صعبةَ الصدور»، ففعلوا، فجعلوا يسُوقون الحِيتان إليها يومَ السبت، فلا تقدر على الخروج منها، ويأخذونها يومَ الأحد، وأخذ رجل منهم حُوتًا، وربط في ذَنَبه خَيطًا إلى خَشَبةٍ في الساحل، ثمّ شوَاه يومَ الأحد، فوجد جارُه ريحَ السمك، فتطلّعَ في تَنُّوره، فقال له: «إنّي أرى الله سيعذّبك»، فلمّا لم يره عُذّب أخَذَ في السبت القابل حُوتين، فلمّا رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم استمرّوا على ذلك، فصادوا وأكلوا وملّحوا وباعوا، وكانوا نحوًا مِن سبعين ألفًا، فصار أهل القرية أثلاثًا: ثُلُثٌ استمرّوا على النهي، وثُلُثٌ مَلُّوا التذكير وسَئِموه، وقالوا للواعظين: «لِم تعِظون»... إلخ، وثُلُثٌ باشروا الخطيئة، فلمّا لم ينتهوا قال المسلمون: «نحن لا نساكنكم»، فقسموا القرية بجدار، للمسلمين بابٌ وللمُعتَدين باب، ولعنهم داودُ عليه السلام، فأصبح الناهون ذاتَ يوم في مجالسهم، ولم يخرج مِن المُعتدين أحد، فقالوا: «إنّ لهم لَشأنًا»، فعلَوْا الجدارَ، فنظروا، فإذا هم قِرَدة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القِرَدة أنسِباءَهم مِن الإنس، وهم لا يعرفونها، فجعل القِرد يأتي نسيبَه، فيشمّ ثِيابه ويبكي،[٢] فيقول له نَسيبه: «ألم نَنْهَكم؟»، فيقول القِرد برأسه: «بلى»، ثمّ ماتوا عن ثلاث.[٣] وقيل: صار الشباب قِرَدةً والشيوخُ خنازيرَ.[٤]

[٣٦١و] / وعن مجاهد: «مُسخت قلوبهم».[٥] وقال الحسن البصري: «أكلوا -واللهِ- أوخمَ أكلةٍ أكَلَها أهلُها، أثقلَها خِزيًا في الدنيا، وأطوَلَها عذابًا في الآخرة. هاهْ! وايْمُ اللهِ، ما حُوتٌ أخذه قوم فأكلوه أعظمُ عند الله مِن قتل رجل مسلم، ولكنّ الله تعالى جعل موعدًا، والساعةُ أدهى وأمرُّ».[٦]

---

١ المَخاض: جمعُ "المَخاضة"، وهو ما جاز الناس فيه مُشاةً ورُكبانًا، وهو الموضع الذي يتخضخض ماؤه، فيُخاض عند العبور. **تاج العروس** للزبيدي، «خوض».

٢ س: فيبكي.

٣ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢١٢/١ (البقرة، ٦٥/٢)؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ١٧٢/٢.

٤ **جامع البيان** للطبري، ٥٢٩/١٠.

٥ **جامع البيان** للطبري، ٦٥/٢ (البقرة، ٦٥/٢).

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ١٧٢/٢. وهو باختلاف يسير في **جامع البيان** للطبري، ٥٢٣/١٠ (الأعراف، ١٦٣/٧).

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَر معطوف على قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾.[1] و﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى "آذن" -كما أنّ "توعَّدَ" بمعنى "أوعد"- أو بمعنى "عزَمَ"، فإنّ العازم على الأمر يحدّث به نفسَه. وأُجريَ مُجرى فعل القَسم، كـ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة، ١٨٧/٢] و﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران، ١٨/٣]؛ فلذلك أجيبَ بجوابه، حيث قيل: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. أي: واذكرْ لهم وقت إيجابِه تعالى على نفسه أن يسلِّط على اليهود البتّةَ ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك مِن فنون العذاب.

وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمانَ عليه السلام بُختَ نَصَّرَ، فخرَّب ديارهم، وقتل مقاتِلتَهم، وسبى نساءَهم وذَرارِيَّهم، وضرب الجزية على مَن بقي منهم، وكانوا يؤدّونها إلى المجوس، حتّى بُعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ففعل ما فعل، ثمّ ضرب الجزية عليهم، فلا تزال مضروبةً إلى آخر الدهر.[2]

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ يعاقبهم في الدنيا، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمن تاب وآمن منهم.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ أي: فرّقنا بني إسرائيلَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وجعلنا كلّ فرقة منهم في قُطر مِن أقطارها بحيث لا يخلو ناحية منها منهم، تكملةً لإدبارهم حتّى لا يكون لهم شوكة. وقوله تعالى: ﴿أُمَمًا﴾ إمّا مفعول ثانٍ لـ﴿وَقَطَّعْنَا﴾ أو حال مِن مفعوله.

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ صفة لـ﴿أُمَمًا﴾ أو بدل منه. وهم الذين آمنوا بالمدينة ومَن يَسير بسيرتهم. ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ناس دون ذلك الوصف، أي:

---

١ الأعراف، ١٦٣/٧.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠/٣.

مُنحَطّون عن الصلاح. وهم كَفَرتُهم وفَسَقتُهم. ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنِّعم والنِّقم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمّا كانوا فيه مِن الكفر والمعاصي.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِن بعد المذكورين ﴿خَلْفٌ﴾ أي: بدلُ سَوْء. مصدرٌ نُعت به؛ ولذلك يقع على الواحد والجمع. وقيل: جمعٌ، وهو شائع في الشرّ، و"الخَلَف" -بفتح اللام- في الخير. والمراد به الذين كانوا في عصر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ مِن أسلافهم، يقرءونها ويقفون على ما فيها.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتهم إيّاه، أي: يأخذون حُطام هذا الشيء الأدنى، أي: الدنيا؛ وهو مِن "الدُّنوّ" أو "الدناءة". والمراد به ما كانوا يأخذونه مِن الرُّشا في الحكومات وعلى تحريف الكلام. وقيل: حال مِن واوِ ﴿وَرِثُوا۟﴾.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ولا يؤاخذُنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنه. والجملة يحتمل العطف والحاليّة. والفعل مسنَد إلى الجارّ والمجرور، أو مصدرِ ﴿يَأْخُذُونَ﴾. ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَنَا﴾، أي: يرجُون المغفرة / والحالُ أنّهم مُصرّون على الذنب عائدون إلى مثله غير تائبين عنه. [٣٦١ظ]

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الميثاق الوارد في الكتاب ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ عطفُ بيان لـ"الميثاق"، أو متعلِّق به، أي: بأن لا يقولوا... إلخ. والمراد به الردّ عليهم، والتوبيخُ على بَتّهم القولَ بالمغفرة بلا توبة، والدلالةُ على أنّه[١] افتراء على الله تعالى وخروج عن ميثاق الكتاب. ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ عطفٌ على ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ مِن حيث المعنى، فإنّه تقرير، أو على ﴿وَرِثُوا۟﴾، وهو[٢] اعتراض.

---

[١] ط س: أنّها.

[٢] وفي هامش م: أي: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾... إلخ. «منه».

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ما فعل هؤلاء؛ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعلموا ذلك، فلا تستبدلوا الأدنى المؤدِّي إلى العقاب بالنعيم المخلَّد. وقُرئ بالياء.[1] وفي الالتفات تشديد للتوبيخ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يتمسّكون به في أمور دينهم. يقال: مسَّك بالشيء وتمسَّك به. قال مجاهد: «هم الذين آمنوا مِن أهل الكتاب كعبد الله بن سلَام وأصحابه، تمسّكوا بالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام، فلم يحرّفوه، ولم يكتُموه، ولم يتّخذوه مأكلةً».[2] وقال عطاء: «هم أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[3]

وقُرئ مِن "الإمساك".[4] وقُرئ: "تَمَسَّكُوا"[5] و"اسْتَمْسَكُوا"[6] موافقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ولعلّ التغييرَ في المشهورة للدلالة على أنّ التمسّك بالكتاب أمر مستمرّ في جميع الأزمنة، بخلاف إقامة الصلاة، فإنّها مختصّة بأوقاتها. وتخصيصها بالذكر مِن بين سائر العبادات لإنافتها عليها.

ومحلّ الموصول إمّا الجرّ نسقًا على ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾،[7] وقولُه تعالى:[8] ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[9] اعتراض مقرِّر لِما قبله؛ وإمّا الرفع على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، والرابط إمّا الضمير المحذوف، كما هو رأي جمهور البصريّين، والتقدير: أجرَ المصلِحين منهم؛ وإمّا الألف واللام،

---

[1] أي: "أَفَلَا يَعْقِلُونَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. **السبعة** لابن مجاهد، ٢٥٦؛ **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٥٧.

[2] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣/٢٩٧. ونحوه عنه في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤/٣٠١.

[3] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣/٢٩٧. ونحوه عنه في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤/٣٠١.

[4] أي: "يُمْسِكُونَ". قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. **اللباب** لابن عادل، ٩/٣٧٤.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٨.

[7] في الآية السابقة.

[8] م – تعالى.

[9] في الآية السابقة.

كما هو رأي الكوفيّين، فإنّه في حكم "مُصلِحِيهم"، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات، ٤١/٧٩]، أي: مأواهم، وقوله تعالى: ﴿مُفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص، ٥٠/٣٨]، أي: أبوابها؛ وإمّا العموم في "مصلِحين"، فإنّه مِن الروابط، ومنه: "نِعم الرجلُ زيدٌ" على أحد الوجوه.[1] وقيل: الخبر محذوف، والتقدير: والذين يمسِّكون بالكتاب مأجورون أو مُثابون، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾... إلخ اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: قلَعْناه مِن مكانه ورفعناه عليهم، ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي: سقيفة. وهي كلّ ما أظلَّك. ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أي: تيقّنوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم؛ لأنّ الجبل لا يثبت في الجوّ، ولأنّهم كانوا يوعَدون به. وإطلاق الظنّ في الحكاية لعدم وقوع متعلّقه. وذلك أنّهم أبَوا أن يقبلوا أحكام التوراة لِثقلها، فرفع الله تعالى عليهم الطور، وقيل لهم: إن قبِلتم ما فيها فبِها، وإلّا ليقعَنَّ عليكم.[2]

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم﴾ أي: وقلنا أو قائلين: خذوا ما آتيناكم مِن الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدّ وعزيمة على تحمّل مَشاقّه. وهو حال مِن "الواو". ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ بالعمل، ولا تتركوه كالمَنسيّ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بذلك قبائحَ الأعمال ورذائلَ الأخلاق، أو راجين أن تنتظموا في سِلك المتّقين.[3]

---

[1] وفي هامش م: وهو أن يكون "زيد" مبتدأ و"نعم الرجل" خبرَه، و"اللام" للجنس، إذ حينئذ يكون الرابط بينهما العمومَ. وأمّا على الوجهين الآخَرين -وهما أن يكون "اللام" للعهد وأن يكون "زيد" خبرَ مبتدأ محذوف- فلا يكون ممّا نحن فيه. أمّا على الثاني فظاهر، وأمّا على الأوّل، فلأنّ الرابط حينئذ هو "اللام" المُغنية عن العائد، إذ هي لتعريف المعهود الذي هو عبارة عن المبتدأ. «منه».

[2] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٢/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١٧٥/٢.

[3] في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

[٣٦٢و] / ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ منصوب بمضمَر معطوف على ما انتصب به ﴿إِذْ نَتَقْنَا﴾،[١] مَسوقٌ للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العامّ المنتظمِ للناس قاطبةً وتوبيخِهم بنقضه إثرَ الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاق الطور. وتعليق الذكر بالوقت -مع أنّ المقصود تذكيرُ ما وقع فيه مِن الحوادث- قد مرّ بيانه مرارًا، أي: واذكرْ لهم أخذ ربِّك. ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ المراد بهم الذين وُلد لهم كائنًا مَن كان نسلًا بعد نسل، سِوىٰ مَن لم يولَد له بسبب مِن الأسباب كالعُقم وعدم التزوّج والموت صغيرًا.

وإيثار "الأخذ" على "الإخراج" للإيذان بالاعتناء بشأن المأخوذ، لِما فيه[٢] مِن الإنباء عن الاجتباء والاصطفاء، وهو السبب في إسناده إلى اسم "الربّ" بطريق الالتفات، مع ما فيه مِن التمهيد للاستفهام الآتي. وإضافته إلى ضميره عليه السلام للتشريف.

وقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل مِن ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بدلَ البعض بتكرير الجارّ، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ﴾ [الأعراف، ٧٥/٧]. و﴿مِنْ﴾ في الموضعَين ابتدائيّة. وفيه مزيدُ تقرير لابتنائه على البيان بعد الإبهام والتفصيلِ غِبَّ الإجمال، وتنبيهٌ على أنّ الميثاق قد أُخذ منهم، وهم في أصلاب الآباء، ولم يُستودَعوا في أرحام الأمّهات.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مفعول ﴿أَخَذَ﴾، أُخّر عن المفعول بواسطة الجارّ لاشتماله على ضمير راجع إليه، ولمراعاة أصالته ومنشئيّته، ولِما مرّ مرارًا مِن التشويق إلى المؤخَّر. وقُرئ: "ذُرِّيَّاتِهِمْ".[٣] والمراد بهم أولادهم على العموم، فيندرج فيهم اليهود المعاصرون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم اندراجًا أوّليًّا،

---

[١] في الآية السابقة.
[٢] أي: في "الأخذ".
[٣] قرأ بها نافع وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٧٣/٢.

كما اندرج أسلافهم في ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ كذلك. وتخصيصهما[1] باليهود سلَفًا وخلَفًا -مع أنّ ما أريدَ بيانه مِن بديع صنع الله عزّ وجلّ شاملٌ للكلّ كافّةً- مُخلٌّ بفخامة التنزيل وجزالة التمثيل.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أشهد كلَّ واحدة مِن أولئك الذُّرّيّات المأخوذِين مِن ظهور آبائهم على نفسها، لا على غيرها، تقريرًا لهم بربوبيّته التامّة وما تستتبعه مِن المعبوديّة على الاختصاص وغير ذلك مِن أحكامها.

وقوله تعالى: / ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ على إرادة "القول"، أي: قائلًا: «ألستُ بربّكم ومالكِ أمركم ومُربّيكم على الإطلاق، مِن غير أن يكون لأحد مَدخل في شأن مِن شئونكم». فينتظم استحقاق المعبوديّة، ويستلزم اختصاصه به تعالى. [٣٦٢ظ]

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: فماذا قالوا حينئذ؟ فقيل: قالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ أي: «على أنفُسنا بأنّك ربّنا وإلهنا، لا ربَّ لنا غيرُك»، كما ورد في الحديث الشريف.[2]

وهذا تمثيل لخَلقه تعالى إيّاهم جميعًا في مبدأ الفطرة مستعدّين للاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس المؤدّيةِ إلى التوحيد والإسلام، كما ينطِق به قوله صلّى الله عليه وسلّم: «كلُّ مولودٍ يُولَد على الفِطرة» الحديث،[3] مبنيٌّ على تشبيه الهيئة المنتزَعة مِن تعريضه تعالى إيّاهم لمعرفة ربوبيّته بعد تمكينهم منها بما رَكَز فيهم مِن العقول والبصائر ونصَبَ لهم في الآفاق والأنفس مِن الدلائل تمكينًا تامًّا، ومِن تمكّنهم منها تمكّنًا كاملًا وتعرّضِهم لها تعرّضًا قويًّا، بهيئة[4] منتزَعة مِن حمله تعالى إيّاهم على الاعتراف بها بطريق الأمر، ومِن مسارعتهم إلى ذلك مِن غير تَلَعثُم[5] أصلًا، مِن غير أن يكون هناك أخذٌ وإشهاد وسؤال وجواب، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت، ٤١/١١].

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/١٧٧.
٢ انظر: مسند أحمد، ٣٥/١٥٥-١٥٦ (٢١٢٣٢)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٠٣.
٣ انظر: صحيح البخاري، ٢/١٠٠ (١٣٨٥)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٠٤٧ (٢٦٥٨).
٤ السياق: تشبيه الهيئة المنتزعة... بهيئة منتزعة...
٥ تَلَعثَمَ الرّجل في الأمر، إذا تمكّث فيه وتأنّى. الصحاح للجوهري، «لعثم».

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ بالتاء على تلوين الخطاب وصرفِه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى معاصريه مِن اليهود تشديدًا في الإلزام، أو إليهم وإلى متقدّميهم بطريق التغليب، لكن لا مِن حيث إنّهم مخاطَبون بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فإنّه ليس مِن الكلام المَحكيّ. وقُرئ بالياء[1] على أنّ الضمير لـ"الذُّرّيّة".

وأيًّا ما كان، فهو مفعول له لِما قبله مِن الأخذ والإشهاد، أي: فعلنا ما فعلنا كراهةَ أن تقولوا أو لِئلّا تقولوا أيّها الكفَرة، أو يقولوا هم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ عند ظهور الأمر: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا﴾ عن وحدانيّة الربوبيّة وأحكامِها ﴿غَـٰفِلِينَ﴾ / لم نتبّه عليه؛ فإنّهم حيث جُبلوا على ما ذُكر مِن التهيّؤ التامّ لتحقيق الحقّ والقوّة القريبة مِن الفعل، صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك، إذ لا سبيلَ لأحد إلى إنكار ما ذُكر مِن خلقهم على الفطرة السليمة. [٣٦٣و]

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ عطفٌ على ﴿تَقُولُوا۟﴾، و﴿أَوْ﴾ لمنع الخُلوّ دون الجمع، أي: هم اخترعوا الإشراك وهم سَنّوه ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبل زماننا، ﴿وَكُنَّا﴾ نحن ﴿ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ لا نهتدي إلى السبيل ولا نقدر على الاستدلال بالدليل؛ ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ مِن آبائنا المُضلّين بعد ظهور أنّهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبداد بالرأي، أو أتؤاخذنا فتُهلكنا... إلخ، فإنّ ما ذُكر مِن استعدادهم الكامل يسُدّ عليهم باب الاعتذار بهذا أيضًا، فإنّ التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها ممّا لا مساغَ له أصلًا.

هذا، وقد حُملت هذه المقاولة على الحقيقة، كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّه لمّا خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسَحَ ظَهره، فأخرج منه كلّ نَسَمة هو خالقُها إلى يوم القيامة، فقال: «ألستُ بربّكم؟»، قالوا: «بلى»، فنُودي يومئذ: جَفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.[2]

---

[1] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ١٠/٥٤٨-٥٥١؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥/١٦١٣-١٦١٤؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٤٢٥.

وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنّه سُئل عن الآية الكريمة، فقال: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سُئل عنها، فقال: «إنّ الله تعالى خلق آدمَ، ثمّ مسَحَ ظَهره بيمينه، فاستخرج منه ذُرّيّةً، فقال: "خلقتُ هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنّة يعملون"، ثمّ مسَحَ ظهره، فاستخرج منه ذُرّيّةً، فقال: "خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار / يعملون"».[1] [٣٦٣ظ]

وليس المعنى أنّه تعالى أخرج الكلّ مِن ظهره عليه السلام بالذات؛ بل أخرج مِن ظهره عليه السلام أبناءه الصُّلبيّة، ومِن ظهورهم أبناءهم الصُّلبيّة، وهكذا إلى آخر السلسلة؛ لكن لمّا كان المَظهر الأصلي ظهرَه عليه السلام، وكان مَساقُ الحديثين الشريفين بيانَ حال الفريقين إجمالًا مِن غير أن يتعلّق بذكر الوسائط غرضٌ علميٌّ، نُسب إخراج الكلّ إليه.

وأمّا الآية الكريمة، فحيث كانت مسوقةً للاحتجاج على الكَفَرة المعاصرين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبيانِ عدم إفادة الاعتذار بإسناد الإشراك إلى آبائهم، اقتضى الحالُ نسبةَ إخراج كلّ واحد منهم إلى ظهر أبيهم، مِن غير تعرّض لإخراج الأبناء الصُّلبيّة لآدمَ عليه السلام مِن ظهره قطعًا.

وعدمُ بيان الميثاق في حديث عمرَ رضي الله عنه ليس بيانًا لعدمه ولا مستلزِمًا له.

وأمّا ما قالوا[2] مِن أنّ أخذ الميثاق لإسقاط عذر الغفلة حسبما ينطِق به قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾، ومعلوم أنّه غيرُ دافع لغفلتهم في دار التكليف، إذ لا فردَ مِن أفراد البشر يذكر ذلك، فمردودٌ؛ لكنْ لا بما قيل[3] مِن أنّ الله عزّ وجلّ قد أوضح الدلائل على وحدانيّته وصدَّق رُسله فيما أَخبروا به، فمَن أنكره كان معانِدًا ناقضًا للعهد ولزِمتْه الحُجّة، ونسيانُهم وعدمُ حفظهم لا يُسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبِر الصادق؛ بل بأنّ قوله تعالى:

---

[1] موطّأ مالك، ١٣٢٢/٥ (٦٧٧)؛ مسند أحمد، ٣٩٩/١-٤٠٠ (٣١١)؛ سنن الترمذي، ٢٦٦/٥ (٣٠٧٥).

[2] انظر: اللباب لابن عادل، ٣٨٥/٩.

[3] قاله ابن عادل في اللباب، ٣٨٤/٩-٣٨٥.

﴿أَن تَقُولُواْ﴾... إلخ ليس مفعولًا له لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ وما يتفرّع عليه مِن قولهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ حتّى يجبَ كونُ ذلك / الإشهاد والشهادة محفوظًا لهم [٣٦٤و] في إلزامهم؛ بل لفعل مضمَر ينسحب عليه الكلام، والمعنى: فعلنا ما فعلنا مِن الأمر بذكر الميثاق وبيانه كراهةَ أن تقولوا أو لِئلّا تقولوا أيّها الكَفَرةُ يومَ القيامة: إنّا كنّا غافلين عن ذلك الميثاق، لم نُنبَّه عليه في دار التكليف، وإلّا لعمِلنا بموجَبه.

هذا على قراءة الجمهور. وأمّا على القراءة بالياء،[1] فهو مفعول له لنفس الأمر المضمَر العامل في ﴿إِذْ أَخَذَ﴾، والمعنى: اذكرْ لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لِئلّا يعتذروا يومَ القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء. هذا على تقدير كون قوله تعالى: ﴿شَهِدْنَا﴾ مِن كلام الذرّيّة، وهو الظاهر. فأمّا على تقدير كونه مِن كلامه تعالى، فهو العامل في ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، ولا محذورَ أصلًا، إذ المعنى: شهِدنا قولكم هذا لِئلّا تقولوا يومَ القيامة... إلخ؛ لأنّا نردّكم[2] ونكذّبكم حينئذ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٧٤﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ شأن المشار إليه وبُعد منزلته. و"الكاف" مقحَمة مؤكِّدة لِما أفاده اسم الإشارة مِن الفخامة. والتقديم على الفعل لإفادة القَصر. ومحلّه النصب على المصدريّة. أي: ذلك التفصيلَ البليغَ المستتبعَ للمنافع الجليلة ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ المذكورةَ، لا غيرَ ذلك.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولِيرجعوا عمّا هم عليه مِن الإصرار على الباطل وتقليد الآباء نفعل التفصيلَ المذكورَ. فالواوانِ ابتدائيّتان. ويجوز أن تكون[3] الثانية عاطفةً على مقدَّر مترتّب على التفصيل، أي: وكذلك نفصّل الآياتِ ليقفوا على ما فيها مِن المرغِّبات والزواجر وليرجعوا... إلخ.

---

[1] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.
[2] وفي هامش م: أو نردّهم... إلخ.
[3] س: يكون.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عطفٌ على المضمَر العامل في ﴿إِذۡ أَخَذَ﴾،[١] واردٌ على نمَطه في الإنباء عن الحَوْر بعد الكَوْر[٢] والضلالةِ بعد الهدى، أي: واتْلُ / على اليهود [٣٦٤ظ] ﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: خبرَه الذي له شأن وخطر. وهو أحد علماء بني إسرائيلَ.[٣] وقيل: هو بَلعَم بن باعورا أو بَلعام بن باعر مِن الكنعانيّين، أُوتيَ علمَ بعض كتب الله تعالى.[٤] وقيل هو أُميّة بن أبي الصَّلْت، وكان قد قرأ الكتب، وعلم أنّ الله تعالى مرسِل في ذلك الزمان رسولًا، ورجَا أن يكون هو الرسولَ، فلمّا بعث الله تعالى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حسده وكفر به.[٥] والأوّل هو الأنسب بمقام توبيخ اليهود بهَناتِهم.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: مِن تلك الآيات انسلاخَ الجلد مِن الشاة، ولم يُخطرها بباله أصلًا، أو خرج منها بالكلّيّة بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره. وأيًّا ما كان، فالتعبير عنه بـ"الانسلاخ" المُنبئ عن اتّصال المحيط بالمُحاط خِلقةً وعن عدم الملاقاة بينهما أبدًا للإيذان بكمال مُباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتّصال.

﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: تبِعه حتّى لحِقه وأدركه، فصار قرينًا له، وهو المعنى على قراءة "فَاتَّبَعَهُ"[٦] مِن "الافتعال"، وفيه تلويح بأنّه أشدُّ مِن الشيطان غَوايةً؛ أو أتبعَه خُطُواتِه. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ فصار مِن زُمرة الضالّين الراسخين في الغَواية بعد أن كان مِن المتهدين.

---

١ الأعراف، ٧/١٧٢.

٢ الكَوْر: الوصول إلى الزيادة. والحَوْر: هو الرجوع إلى النقصان. وقيل: نعوذ بالله مِن الحَوْر بعد الكَوْر، أي: مِن التردّد في الأمر بعد المُضيّ فيه، أو مِن نقصان وتردّد في الحال بعد الزيادة فيها. الكلّيّات للكفوي، ص ٧٧٣.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٧٨.

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ١٠/٥٧٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٠١.

٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٠٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٠٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٩.

ورُوي أنّ قومه طلبوا إليه أن يدعوَ على موسى عليه السلام، فقال: «كيف أدعو على مَن معه الملائكة؟»، فلم يزالوا به حتّى فعل، فبَقُوا في التِّيه.[١] ويردّه أنّ التّيه كان لموسى عليه السلام رَوحًا وراحةً، وإنّما عُذّب به بنو إسرائيلَ، وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام عليهم، كما مرّ في سورة المائدة.[٢]

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

[٣٦٥و] ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ كلام مستأنَف / مَسوق لبيان مناط ما ذُكر مِن انسلاخه مِن الآيات ووقوعِه في مهاوي الغَواية. ومفعول "المَشيئة" محذوف لوقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء على القاعدة المستمرّة، أي: ولو شئنا رفْعه ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ أي: إلى المنازل العالية للأبرار العالِمين بتلك الآيات العاملين بموجَبها؛ لكنْ لا بمحض مشيئتنا مِن غير أن يكون له دخل في ذلك أصلًا، فإنّه منافٍ للحكمة التشريعيّة المؤسَّسة على تعليق الأجزية بالأفعال الاختياريّة للعباد؛ بل مع مباشرته للعمل المؤدّي إلى الرفع بصرف اختياره إلى تحصيله، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿بِهَا﴾ أي: بسبب تلك الآيات بأن عمل بموجَبها، فإنّ اختياره، وإن لم يكن مؤثِّرًا في حصوله،[٣] ولا في ترتّب الرفع عليه، بل كلاهما بخلق الله تعالى، لكنّ خلقه تعالى مَنوط بذلك البتّةَ حسب جرَيان العادة الإلهيّة.

وقد أشيرَ إلى ذلك في الاستدراك بأن أُسندَ ما يؤدّي إلى نقيض التالي إليه، حيث قيل: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، مع أنّ الإخلاد إليها أيضًا ممّا لا يتحقّق عند صرف اختياره إليه إلّا بخلقه تعالى، كأنّه قيل: ولو شئنا رفعه بمباشرته لسببه، لرفَعْناه بسبب تلك الآيات التي هي أقوى أسباب الرفع، ولكنْ لم نشأه لمباشرته لسبب نقيضه.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ١٠/٥٧٩-٥٨١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٠١-٣٠٢.

٢ انظر: تفسير المائدة، ٥/٢٦.

٣ أي: في حصول العمل المؤدّي إلى الرفع.

فتُرك في كلٍّ مِن المقامين ما ذُكر في الآخر تعويلًا على إشعار المذكور بالمَطويّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس، ١٠٧/١٠]. وتخصيص كلٍّ مِن المذكورَين بمقامه للإيذان بأنّ الرفع مراد له تعالى بالذات وتفضّلٌ محضٌ عليه، لا دخلَ فيه لِفعله حقيقةً، كيف لا، وجميع أفعاله ومباديها مِن نِعمه تعالى وتفضّلاته؛ وأنّ نقيضه إنّما أصابه بسوء اختياره على موجَب الوعيد، لا بالإرادة الذاتيّة له سبحانه، كما قيل في وجه ذكر "الإرادة" مع الخير و"المَسّ" مع الضرّ في الآية المذكورة. وهو السرّ في جرَيان السنّة القرآنيّة / على إسناد الخير إليه تعالى [٣٦٥ظ] وإضافةِ الشرّ إلى الغير، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٨٠/٢٦] ونظائرِه.

والإخلاد إلى الشيء: المَيل إليه مع الاطمئنان به. والمراد بـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾: الدنيا، وقيل: السَّفالة، والمعنى: ولكنّه آثَرَ الدنيا الدَّنيّةَ على المنازل السَّنيّة، أو الضَّعةَ والسَّفالةَ على الرفعة والجلالة.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ مُعرِضًا عن تلك الآيات الجليلة، فانحطّ أبلغَ انحطاطٍ وارتدّ أسفلَ سافلين. وإلى ذلك أشيرَ بقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ لِما أنّه أخسُّ الحيوانات وأسفلُها. وقد مُثّل حاله بأخسّ أحواله وأذلّها، حيث قيل: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: فحالُه التي هي مَثَل في السوء كصفته في أرذل أحواله، وهي حال دوام اللَّهث به في حالتَي التعب والراحة، فكأنّه قيل: فتردَّى إلى ما لا غايةَ وراءَه في الخِسّة والدَّناءة.

وإيثار الجملة الاسميّة على الفعليّة -بأن يقال: فصار مثله كمثل الكلب... إلخ- للإيذان بدوام اتّصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمالِ استقراره واستمراره عليها. والخطاب في فعلَي الشرط لكلّ أحد ممّن له حظٌّ مِن الخطاب، فإنّه أدخلُ في إشاعة فظاعة حاله.

واللّهث: إدلاع اللسان بالتنفّس الشديد. أي: هو ضيّقُ الحال مكروبٌ دائمُ اللّهث، سواء هيّجتَه وأزعجتَه بالطرد العنيف أو تركتَه على حاله؛ فإنّه في الكِلاب

طبعٌ لا تقدر على نفض الهواء المتسخّن وجلب الهواء البارد بسهولةٍ لضعف قلبها وانقطاع فؤادها، بخلاف سائر الحيوانات، فإنّها لا تحتاج إلى التنفّس الشديد، ولا يلحقها الكرب والمضايقة إلّا عند التعب والإعياء.

[٣٦٦و] / والشرطيّة مع أُختها تفسير لِما أُبهمَ في المَثل، وتفصيل لِما أُجمل فيه، وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشَّبه، لا محلَّ له مِن الإعراب على منهاج قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إثرَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران، ٥٩/٣].

وقيل: هي في محلّ النصب على الحاليّة مِن ﴿ٱلْكَلْبِ﴾ بناءً على خروجهما مِن حقيقة الشرط وتحوّلِهما إلى معنى "التّسْوية"، حسب تحوّل الاستفهامين المتناقضين إليه في مثل قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [يس، ١٠/٣٦]، كأنّه قيل: لاهثًا في الحالتين.

وأيًّا ما كان، فالأظهر أنّه تشبيه للهيئة المنتزَعة ممّا اعتراه بعد الانسلاخ مِن سوء الحال واضطرام القلب ودوام القلق والاضطراب وعدمِ الاستراحة بحال مِن الأحوال بالهيئة المنتزَعة ممّا ذُكر مِن حال الكلب. وقيل: لمّا دعا بَلْعَم على موسى عليه السلام خرج لسانُه، فتدلَّى على صدره، وجعل يلهَث كالكلب إلى أن هلك.[١]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الحالة الخسيسة منسوبةً إلى الكلب أو إلى المنسلِخ، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتها في الخِسّة والدَّناءة، أي: ذلك المَثل السيّء ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم اليهود، حيث أُوتُوا في التوراة ما أُوتُوا مِن نعوت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وذكرِ القرآن المعجِز وما فيه، فصدّقوه وبشّروا الناس باقتراب مَبعَثه، وكانوا يستفتحون به، فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به، وانسلخوا مِن حكم التوراة.

[٣٦٦ظ] ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ / القَصَص: مصدرٌ سُمّي به المفعول، كـ"السَّلَب". و"اللام" للعهد، و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إذا تحقَّق أنّ المَثل المذكور مثلُ هؤلاء المكذِّبين، فاقصُصه عليهم حسبما أوحيَ إليك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢/٣.

فيقفون على جليّة الحال، وينزجرون عمّا هم عليه مِن الكفر والضلال، ويعلمون أنّك قد علمتَه مِن جهة الوحي، فيزدادون إيقانًا بك. والجملة في محلّ النصب على أنّها حال مِن ضمير المخاطَب، أو على أنّها مفعول له، أي: فاقصُص القَصَص راجيًا لتفكّرِهم، أو رجاءً لتفكّرِهم.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ١٧٧﴾

﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ استئناف مَسوق لبيان كمال قُبح حال المكذِّبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلِخ. و﴿سَآءَ﴾ بمعنى "بئس"، وفاعلُها مضمَر فيها، و﴿مَثَلًا﴾ تمييز مفسِّر له، والمخصوص بالذمّ قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾. وحيث وجب التصادق بينه وبين الفاعل والتمييز، وجَبَ المَصير إلى تقدير مضاف، إمّا إليه، وهو الظاهر، أي: ساء مَثَلًا مَثَلُ القوم... إلخ، أو إلى التمييز، أي: ساء أصحابَ مَثَلِ القومِ...[1] إلخ. وقُرئ: "سَاءَ مَثَلُ القَوْمِ".[2]

وإعادة "القوم"[3] موصوفًا بالموصول -مع كفاية الضمير بأن يقال: ساء مَثَلًا مثلُهم- للإيذان بأنّ مدار السوء ما في حيّز الصلة، ولربط قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ به؛ فإنّه إمّا معطوف على ﴿كَذَّبُواْ﴾، داخل معه في حكم الصلة، بمعنى: جمعوا[4] بين تكذيب آيات الله تعالى بعد قيام الحُجّة عليها وعلمِهم بها وبين ظلمهم لأنفسهم خاصّةً؛ أو منقطعٌ عنه، بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب / إلّا أنفسَهم، فإنّ وباله[5] لا يتخطّاها. وأيًّا ما كان، ففي ﴿يَظْلِمُونَ﴾ [٣٦٧و] لمحٌ إلى أنّ تكذيبهم بالآيات متضمِّن للظلم بها، وأنّ ذلك أيضًا معتبَر في القَصر المستفاد مِن تقديم المفعول.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ لمّا أُمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يقُصّ

---

١ كذا ضبطه المصنّف.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٩.
٣ الأوّل في الآية السابقة.
٤ س ط: أجمعوا. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.
٥ ط س: وبالها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

قَصَص المنسلِخ على هؤلاء الضالّين الذين مثلهم كمَثله ليتفكّروا فيه، ويتركوا ما هم عليه مِن الإخلاد إلى الضلالة، ويهتدوا إلى الحقّ، عُقّب ذلك بتحقيق أنّ الهداية والضلالة مِن جهة الله عزّ وجلّ، وإنّما العِظة والتذكير مِن قبيل الوسائط العاديّة في حصول الاهتداء، مِن غير تأثير لها فيه سِوى كونها دواعيَ إلى صَرف العبد اختيارَه نحو تحصيله حسبما نِيط به خلقُ الله تعالى إيّاه كسائر أفعال العباد.

فالمراد بهذه الهداية ما يوجِب الاهتداءَ قطعًا، لكن لا لأنّ حقيقتها الدلالةُ الموصِلة إلى البُغية البتّةَ؛ بل لأنّها الفرد الكامل مِن حقيقة الهداية التي هي الدلالة إلى ما يوصِل إلى البُغية، أي: ما مِن شأنه الإيصال إليها، كما سبق تحقيقه في تفسير قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢].

وليس المراد مجرّدَ الإخبار باهتداء مَن هداه الله تعالى حتّى يُتوهّمَ عدم الإفادة بحسب الظاهر لظهور استلزام هدايته تعالى للاهتداء، ويُحملَ النظم الكريم على تعظيم شأن الاهتداء والتنبيهِ على أنّه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم، لو لم يحصل له غيره لكفاه؛ بل هو قَصر الاهتداء على مَن هداه الله تعالى حسبما يقضي به تعريف الخبر، فالمعنى: مَن يهده الله -أي: يخلُقْ فيه الاهتداء على الوجه المذكور- فهو المهتدي لا غيرُ كائنًا مَن كان.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بأن لم يخلق فيه الاهتداءَ؛ بل خلق فيه الضلالة لصَرف اختياره نحوَها، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخُسران، / لا غير. وإفراد ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ نظرًا إلى لفظ ﴿مَنْ﴾ وجمعُ "الخاسرين" نظرًا إلى معناها للإيذان باتّحاد منهاج الهدى وتفرّقِ طُرق الضلال. [٣٦٧ظ]

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ كلام مستأنَف مقرِّر لمضمون ما قبله بطريق التذييل، أي: خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ أي: لدخولها والتعذيب بها. وتقديمه على قوله تعالى: ﴿كَثِيرًا﴾ -أي: خلقًا كثيرًا- مع كونه مفعولًا به لِما في توابعه مِن نوع طول يؤدِّي توسيطه بينهما[1] وتأخيرُه عنها إلى الإخلال بجزالة النظم الكريم.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ متعلِّق بمحذوف هو صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، أي: كائنًا منهما. وتقديم ﴿ٱلْجِنِّ﴾؛ لأنّهم أعرقُ مِن الإنس في الاتّصاف بما نحن فيه مِن الصفات وأكثرُ عددًا وأقدمُ خَلقًا. والمراد بهم الذين حقّت عليهم الكلمة الأزليّة بالشقاوة، لكنْ لا بطريق الجبر مِن غير أن يكون مِن قِبلهم ما يؤدِّي إلى ذلك؛ بل لعِلمه تعالى بأنّهم لا يصرفون اختيارهم نحوَ الحقّ أبدًا، بل يُصرّون على الباطل مِن غير صارف يَلويهم ولا عاطفٍ يَثنيهم مِن الآيات والنُّذُر. فبهذا الاعتبار جُعل خلقهم مُغَيًّا[2] بها،[3] كما أنّ جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفِطري للعبادة وتمكّنِهم التامّ منها جُعل خَلقهم مُغَيًّا بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات، ٥١/٥٦].

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ في محلّ النصب على أنّه صفة أخرى لـ﴿كَثِيرًا﴾. وقوله تعالى ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ في محلّ الرفع على أنّه صفة لـ﴿قُلُوبٌ﴾، مؤكِّدةٌ لِما يفيده تنكيرها وإبهامُها مِن كونها غيرَ معهودة مخالِفةً لسائر أفراد الجنس فاقدةً لكماله بالكلّيّة، لكنْ لا بحسب الفطرة حقيقةً؛ بل بسبب امتناعهم عن صَرفها إلى تحصيله.

وهذا وصفٌ لها بكمال الإغراق في القساوة، فإنّها حيث لم يَتأتَّ منها الفقهُ بحال، فكأنّها خُلقت غيرَ قابلة له رأسًا. وكذا الحال في أعيُنهم وآذانهم. وحذفُ المفعول للتعميم، أي: لهم قلوب ليس مِن شأنها أن يفقَهوا بها شيئًا ممّا مِن شأنه أن يُفقَه، فيدخل فيه ما يَليق بالمقام مِن الحقّ ودلائله دخولًا / أوّليًا. وتخصيصه بذلك مُخلّ بالإفصاح عن كُنه حالهم. [٣٦٨و]

---

١ ط س: بينها.

٢ المُغَيّا، كـ"مُعظَّم": انتهاء الغاية. تاج العروس للزبيدي، «غيي».

٣ وفي هامش م: بجهنّم.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الكلام فيه كما فيما عُطف هو عليه. والمراد بالإبصار والسمع المَنفيَّين ما يختصّ بالعقلاء مِن الإدراك على ما هو وظيفة الثقلين،[١] لا ما يتناول مجرّدَ الإحساس بالشَّبَح[٢] والصوت كما هو وظيفة الأنعام، أي: لا يُبصرون بها شيئًا مِن المبصَرات، فيندرج فيه الشواهد التكوينيّة الدالّةُ على الحقّ اندراجًا أوّليًا. ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: شيئًا مِن المسموعات، فيتناول الآياتِ التنزيليّةَ تناولًا أوّليًا.

وإعادة الخبر في الجملتين المعطوفتين -مع انتظام الكلام بأن يقال: وأعيُنٌ لا يُبصِرون بها وآذانٌ لا يَسمعون بها- لتقرير سوء حالهم. وفي إثبات المَشاعر الثلاثة لهم ثمّ وصفِها بعدم الشعور -دون سلبها عنهم ابتداءً بأن يقال: ليس لهم قلوب يفقَهون بها، ولا أعيُنٌ يُبصِرون بها، ولا آذانٌ يسمعون بها- مِن الشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغَواية ما لا يخفى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورِين باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن الصفات، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الضلال، أي: أولئك الموصوفون بالأوصاف المذكورة ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: في انتفاء الشعور على الوجه المذكور، أو في أنّ مَشاعرهم متوجّهة إلى أسباب التعيّش مقصورة عليها.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فإنّها تُدرِك ما مِن شأنها أن تُدركَه مِن المنافع والمَضارّ، فتجتهد في جلبها وسلبها غايةَ جهدها مع كونهما[٣] بمَعزِل مِن الخلود، وهؤلاء ليسوا كذلك، حيث لا يميّزون بين المنافع والمَضارّ؛ بل يعكِسون الأمر، فيتركون النعيم المُقيم، / ويُقدِمون على العذاب الخالد. وقيل:[٤] لأنّها تعرف صاحبَها وتذكرُه وتُطيعه، وهؤلاء لا يعرفون ربّهم ولا يذكرونه ولا يُطيعونه. وفي الخبر: «كلُّ شيءٍ أطوَعُ لله مِن ابن آدمَ».[٥] [٣٦٨ظ]

---

١ أي: الإنس والجنّ.

٢ الشَّبَح: ما بدَا لك شخصُه مِن الخَلق. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٩٩/٣ «باب الحاء والشين والميم معهما».

٣ أي: كون المنافع والمَضارّ.

٤ قاله مقاتل بن سليمان في تفسيره، ٧٦/٢.

٥ هو بهذا اللفظ بغير نسبة في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٤، وباختلاف يسير مرفوعًا في مسند البزّار، ٢٧١/١٠ (٤٣٧٤)؛ والمعجم الصغير للطبراني، ١٣١/٢ (٩٠٨).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بما مرّ مِن مثليّة الأنعام والشرّيّة منها ﴿هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة المستحقّون لأنْ يُخَصّ بهم الاسم ولا يطلَقَ على غيرهم. كيف لا، وإنّهم لا يعرفون مِن شئون الله عزّ وجلّ، ولا مِن شئون ما سِواه شيئًا، فيُشركون به سبحانه -وليس كمِثله شيء، وهو السميع العليم- أصنامَهم التي هي مِن أخسّ مخلوقاته تعالى.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تنبيه للمؤمنين على كيفيّة ذِكره تعالى وكيفيّة المعاملة مع المُخلّين بذلك الغافلين عنه سبحانه وعمّا يَليق به مِن الأمور وما لا يَليق به، إثرَ بيان غفلتهم التامّة وضلالتهم الطامّة. و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: تأنيث "الأحسن"، أي: الأسماءُ التي هي أحسن الأسماء وأجلُّها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي: فسَمُّوه بتلك الأسماء، ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ الإلحاد واللَّحد: المَيل والانحراف، يقال: "لحَدَ" و"ألحَدَ" إذا مال عن القصد. وقُرئ: "يَلْحَدُونَ"[1] مِن الثلاثيّ. أي: يَميلون في شأنها عن الحقّ إلى الباطل، إمّا بأن يُسَمّوه تعالى بما لا توقيفَ فيه أو بما يوهِم معنًى فاسدًا، كما في قول أهل البَدْو: "يا أبا المكارم"، "يا أبيضَ الوجه"، "يا نَخِيُّ"،[2] ونحوِ ذلك، فالمراد بالترك المأمور به الاجتنابُ عن ذلك، وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسمَّوه به على زعمهم، لا أسماؤُه تعالى حقيقةً. وعلى ذلك يُحمل ترك الإضمار بأن يقال: يلحدون فيها.

[٣٦٩و] / وإمّا بأن يعدِلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة، كما قالوا: "وما الرحمان؟ ما نعرف سِوى رحمانِ اليمامة"،[3] فالمراد بالترك الاجتناب أيضًا،

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٧٣/٢.
٢ الكشّاف للزمخشري، ١٨٠/٢. | يا نَخِيُّ: يا متكبّر. فتوح الغيب للطيبي، ٦٧٦/٦.
٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣/٣.

وبالأسماء أسماؤه تعالى حقيقةً، فالمعنى: سمُّوه تعالى بجميع أسمائه الحسنى، واجتنِبوا إخراج بعضها مِن البَيْن. وإمّا بأن يُطلقوها على غيره تعالى، كما سمُّوا أصنامهم آلهةً. وإمّا بأن يشتقّوا مِن بعضها أسماءَ أصنامهم، كما اشتقّوا "اللات" مِن "الله" و"العُزّى" مِن "العزيز"،[1] فالمراد بالأسماء أسماؤه حقيقةً كما في الوجه الثاني.

والإظهار في موقع الإضمار مع التجريد عن "الوصف" في الكلّ للإيذان بأنّ إلحادهم في نفس الأسماء مِن غير اعتبار "الوصف".[2] وليس المراد بالترك حينئذ[3] الاجتنابَ عن ذلك؛ إذ لا يُتوهّم صدور مِثل هذا الإلحاد عن المؤمنين ليُؤمَروا بتركه؛ بل هو الإعراض عنهم وعدمُ المبالاة بما فعلوا ترقّبًا لنزول العقوبة بهم عن قريب، كما هو المتبادر مِن قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، فإنّه استئناف وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن الأمر بعدم المبالاة والإعراضِ عن المُجازاة، كأنّه قيل: لِم لا نبالي بإلحادهم ولا نتصدّى لمُجازاتهم؟ فقيل: لأنّه سينزل بهم عقوبته، وتتشفَّون بذلك عن قريب.

وأمّا على الوجهين الأوّلين، فالمعنى: اجتنِبوا إلحادهم كَيلا يُصيبَكم ما أصابهم، فإنّه سينزل بهم عقوبة إلحادهم.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١﴾

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ بيان إجمالي لحال مَن عدَا المذكورين مِن الثقلين الموصوفين بما ذُكر مِن الضلال والإلحاد عن الحقّ. ومحلّ الظرف الرفع على أنّه مبتدأ، إمّا باعتبار مضمونه / أو بتقدير الموصوف، [٣٦٩ظ]. وما بعده خبرُه كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾... إلخ [البقرة، ٨/٢]، أي: وبعضُ مَن خلقنا أو وبعضٌ ممّن خلقنا أمّةٌ، أي: طائفة كثيرة يهدون الناسَ

[1] جامع البيان للطبري، ٥٩٧/١٠.

[2] أجاز الزمخشري أن يكون المراد بالأسماء الأوصافَ الحسنى، بناءًا على مذهبه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨٠/٢-١٨١.

[3] أي: على الوجهين الأخيرين.

ملتبسين بالحقّ أو يهدونهم بكلمة الحقّ، ويدلّونهم على الاستقامة، وبالحقّ يحكمون في الحكومات الجارية فيما بينهم، ولا يجورون فيها.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يقول إذا قرأها: «هذه لكم، وقد أُعطيَ القوم بين أيديكم مثلَها: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ الآية [الأعراف، ١٥٩/٧]».[١] وعنه عليه السلام: «إنّ مِن أمّتي قومًا على الحقّ حتّى ينزلَ عيسى».[٢] ورُوي: «لا تزال مِن أمّتي طائفةٌ على الحقّ إلى أن يأتيَ أمر الله».[٣] ورُوي: «لا تزال مِن أمّتي أمّةٌ قائمةً بأمر الله، لا يضرّهم مَن خذَلهم، ولا مَن خالفهم، حتّى يأتيَ أمر الله وهم ظاهرون».[٤] وفيه مِن الدلالة على صحّة الإجماع ما لا يخفى.

والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للإيذان بأنّ اهتداءهم في أنفسهم أمر محقَّق غنيٌّ عن التصريح به.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ شروع في تحقيق الحقّ الذي به يهدي الهادون وبه يعدِل العادلون وحملِ[٥] الناس على الاهتداء به على وجه الترهيب. ومحلّ الموصول الرفع على أنّه مبتدأ، خبرُه ما بعده مِن الجملة الاستقبالية. وإضافة "الآيات" إلى نُون العَظَمة لتشريفها واستعظام الإقدام على تكذيبها. أي: والذين كذّبوا بآياتنا التي هي مِعيار الحقّ ومِصداق الصدق والعدل ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ أي: نستَدْنيهم البتّةَ إلى الهلاك شيئًا فشيئًا.

والاستدراج: "استفعال" مِن "درَج"، إمّا بمعنى "صعِد"، ثمّ اتُّسع فيه، فاستُعمل في كلّ نقل تدريجي سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة،

---

١ جامع البيان للطبري، ٦٠٠/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ١٨١/٢.

٢ الحديث بهذا اللفظ في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١٧١/٢. وأخرج نحوَه مسلم في صحيحه، ١٣٧/١ (١٥٦)؛ وأحمد في مسنده، ٦٣/٢٣ (١٤٧٢٠).

٣ الحديث بهذا اللفظ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣/٣. وهو باختلاف يسير في صحيح البخاري، ١٠١/٩ (٧٣١١).

٤ انظر: صحيح مسلم، ١٥٢٤/٣ (١٠٣٧)؛ ومسند أحمد، ١٢٨/٢٨ (١٦٩٣٢).

٥ عطفٌ على قوله: "في تحقيق الحقّ".

وإمّا بمعنى "مشَى مَشيًا ضعيفًا"، وإمّا بمعنى "طوَى". والأوّل هو الأنسب بالمعنى المراد الذي هو النقل إلى أعلى درجات المهالك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب، ثمّ استُعير لطلب كلّ نقل تدريجي مِن حال إلى حال مِن الأحوال الملائمة للمنتقل الموافِقةِ / لهواه، بحيث يزعم أنّ ذلك ترقٍّ في مراقي [٣٧٠و] منافعه، مع أنّه في الحقيقة تردٍّ في مهاوي مصارعه.

فاستدراجُه سبحانه إيّاهم أن يواتر عليهم النِّعم مع[١] انهماكهم في الغَيّ، فيحسَبوا أنّها لطف لهم منه تعالى، فيزدادوا بَطَرًا وطغيانًا؛ لكنْ لا على أنّ المطلوب تدرّجُهم في مراتب النعم، بل هو تدرّجُهم في مدارج المعاصي إلى أن يحقّ عليهم كلمة العذاب على أفظع حال وأشنعِها، والأوّلُ وسيلة إليه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متعلّق بمضمَرٍ وقع صفةً لمصدر الفعل المذكور، أي: سنستدرجهم استدراجًا كائنًا مِن حيث لا يعلمون أنّه كذلك؛ بل يحسَبون أنّه أَثَرة مِن الله عزّ وجلّ وتقريب منه. وقيل: لا يعلمون ما يراد بهم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾، غيرُ داخل في حكم "السين" لِما أنّ الإملاء الذي هو عبارة عن الإمهال والإطالة ليس مِن الأمور التدريجيّة كالاستدراج الحاصل في نفسه شيئًا فشيئًا؛ بل هو فعل يحصل دفعةً، وإنّما الحاصل بطريق التدريج آثاره وأحكامه، لا نفسُه، كما يلوِّح به تغيير التعبير بتوحيد الضمير، مع ما فيه مِن الافتتان المُنبئ عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام لابتنائه على تجديد القصد والعزيمة.

وأمّا أنّ ذلك للإشعار بأنّه بمحض التقدير الإلهي والاستدراجَ بتوسّط المدبّرات، فمَبناه دلالة نُون العَظَمة على الشركة؛ وأنّى ذلك، وإلّا لاحترز عن إيرادها في قوله تعالى: ﴿وَلَا[٢] يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْۚ / إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ [٣٧٠ظ]

---

[١] س: مِن.

[٢] م س: لا.

الآية [آل عمران، ١٧٨/٣]؛ بل إنّما إيرادها في أمثال هذه الموارد بطريق الجرَيان على سَنَن الكبرياء.

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ تقرير للوعيد وتأكيد له، أي: قويٌّ، لا يدافَع بقوّة ولا بحيلة. والمراد به إمّا الاستدراج والإملاء مع نتيجتهما التي هي الأخذ الشديد على غِرّة، فتسميته "كيدًا" لِما أنّ ظاهره لطف وباطنَه قهر؛ وإمّا نفس ذلك الأخذ فقط، فالتسمية لكون مقدّماته كذلك. وأمّا أنّ حقيقة الكَيد هو الأخذ على خَفاء مِن غير أن يُعتبر فيه إظهار خلاف ما أبطنه، فممّا لا تعويلَ عليه مع عدم مناسبته للمقام ضرورةَ استدعائه لاعتبار القيد المذكور حتمًا.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ كلام مبتدَأ مَسوق لإنكار عدم تفكّرهم في شأنه عليه السلام وجهلِهم بحقيقة حاله الموجِبة للإيمان به وبما أُنزل عليه مِن الآيات التي كذّبوا بها. والهمزة للإنكار والتعجيب والتوبيخ. و"الواو" للعطف على مقدَّر يستدعيه سِباق النظم الكريم وسياقُه. و﴿مَا﴾ إمّا استفهاميّة إنكاريّة، في محلّ الرفع بالابتداء، والخبر ﴿بِصَاحِبِهِمْ﴾، وإمّا نافية، اسمُها ﴿جِنَّةٍ﴾، وخبرها ﴿بِصَاحِبِهِمْ﴾.

و"الجِنّة" مِن المصادر التي يراد بها الهيئة، كـ"الرِّكبة" و"الجِلسة". وتنكيرها للتقليل والتحقير. والجملة معلَّقة لفعل التفكّر لكونه مِن أفعال القلوب. ومحلّها على الوجهين النصبُ على نزع الجارّ، أي: أكَذّبوا بها[1] ولم يتفكّروا في أيّ شيء مِن جنونٍ ما كائنٌ بصاحبهم الذي هو أعظم الأمّة الهادية بالحقّ وعليه أُنزلت تلك الآيات، أو في أنّه ليس بصاحبهم / شيءٌ مِن جِنّة، حتّى يؤدِّيَهم التفكّرُ في ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحّة نبوّته، فيؤمنوا به وبما أُنزل عليه مِن الآيات. [٣٧١و]

وقيل: قد تمّ الكلام عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾، أي: أكَذّبوا بها ولم يفعلوا التفكّر؟ ثمّ ابتُدئ فقيل: أيُّ شيء بصاحبهم مِن جِنّةٍ ما، على طريقة الإنكار والتعجيب والتبكيت، أو قيل: ليس بصاحبهم شيءٌ منها.

---

١ وفي هامش م: أي: بآياتنا. «منه».

والتعبير عنه صلّى الله عليه وسلّم بـ﴿صَاحِبِهِمْ﴾ للإيذان بأنّ طُول مصاحبتهم له عليه السلام ممّا يُطلِعهم على نزاهته عليه السلام عن شائبة ما ذُكر. ففيه تأكيد للنكير وتشديد له. والتعرّض لنفي الجنون عنه صلّى الله عليه وسلّم -مع وضوح استحالة ثبوته له عليه السلام- لِما أنّ التكلّم بما هو خارق لقضيّة العقول والعادات لا يصدر إلّا عمّن به مسّ مِن الجنون كيفما اتّفق مِن غير أن يكون له أصل ومعنًى، أو عمّن له تأييد إلهي يُخبر به عن الأمور الغيبيّة. وإذ ليس به عليه السلام شائبةُ الأوّل، تعيَّنَ أنّه عليه السلام مؤيَّد مِن عند الله عزّ وجلّ.

وقيل: إنّه عليه السلام علَا الصفا ليلًا، فجعل يدعو قريشًا فخِذًا فخِذًا، يحذِّرهم بأسَ الله تعالى، فقال قائلهم: «إنّ صاحبكم هذا لَمجنونٌ، باتَ يهوِّت[1] إلى الصباح»، فنزلت؛[2] فالتصريح بنفي الجنون حينئذ للردّ على عظيمتهم الشَّنْعاء، والتعبيرُ عنه عليه السلام بـ﴿صَاحِبِهِمْ﴾ واردٌ على شاكلة كلامهم، مع ما فيه مِن النكتة المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جملة مقرِّرة لمضمون ما قبلها، ومبيِّنة لحقيقة حاله صلّى الله عليه وسلّم، على منهاج قوله تعالى:[3] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف، ٣١/١٢] بعد قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف، ٣١/١٢]، أي: ما هو عليه السلام إلّا مبالِغ في الإنذار مُظهِرٌ له غايةَ الإظهار، / إبرازًا لكمال الرأفة ومبالغةً في الإعذار.[4] [٣٧١ظ]

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥﴾

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف آخرُ، مَسوق للإنكار والتوبيخ بإخلالهم بالتأمّل في الآيات التكوينيّة المنصوبة في الآفاق والأنفس الشاهدةِ بصحّة مضمون الآيات المنزلة، إثرَ ما نُعي عليهم

---

[1] هيّت بالقوم تهييتًا، وهوّت بهم تهويتًا، إذا ناداهم. لسان العرب لابن منظور، «هيت».

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٦٠٢/١٠؛ والكشّاف للزمخشري، ١٨٢/٢.

[3] س - تعالى.

[4] وفي هامش م: أي: إزالة العُذر. «منه».

إخلالهم بالتفكّر في شأنه عليه السلام. والهمزة لِما ذُكر مِن الإنكار والتعجيب والتوبيخ. و"الواو" للعطف على المقدَّر المذكور، أو على الجملة المَنفيّة بـ﴿لَمْ﴾.[١] والمَلَكوت: المُلك العظيم. أي: أكَذّبوا بها أو ألم يتفكّروا فيما ذُكر ولم ينظروا نظرَ تأمّلٍ فيما يدلّ عليه السماوات والأرض مِن عِظم المُلك وكمال القدرة.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ أي: وفيما خلق فيهما، على أنّه عطفٌ على ﴿مَلَكُوتِ﴾، وتخصيصُه[٢] بهما لكمال ظهور عِظم المُلك فيهما؛ أو وفي مَلَكوت ما خلق، على أنّه عطفٌ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والتعميمُ لاشتراك الكلّ في الدلالة على عِظم المُلك في الحقيقة، وعليه قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس، ٨٣/٣٦].

وقوله تعالى: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ بيان لِما خلق، مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلائل المصنوعات دون دقائقها، والمعنى: أوَلم ينظروا في مَلَكوت السماوات والأرض وما خلق فيهما مِن جليل ودقيق ممّا ينطلق عليه اسمُ "الشيء" ليدلَّهم ذلك على العلم بوحدانيّته تعالى وبسائر شئونه التي ينطِق بها تلك الآيات، فيؤمنوا بها لاتّحادهما في المدلول؛ فإنّ كلّ فرد مِن أفراد الأكوان ممّا عزَّ وهانَ دليلٌ لائحٌ على الصانع المجيد وسبيلٌ واضحٌ إلى عالَم التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿مَلَكُوتِ﴾. و﴿أَنْ﴾ مخفَّفة مِن "أنّ"، واسمُها ضمير الشأن، وخبرها ﴿عَسَىٰ﴾ مع فاعلها / الذي هو ﴿أَن يَكُونَ﴾. واسم ﴿يَكُونَ﴾ أيضًا ضمير الشأن، والخبر ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾. والمعنى: أولم ينظروا في أنّ الشأن عسى أن يكون الشأنُ قد اقترب أجلهم. وقد جُوّز أن يكون اسمُ ﴿يَكُونَ﴾: ﴿أَجَلُهُمْ﴾، وخبرها: ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ﴾، على أنّها جملة مِن فعل وفاعل، هو ضمير ﴿أَجَلُهُمْ﴾ لتقدّمِه حكمًا. [٣٧٢و]

وأيًّا ما كان، فمناط الإنكار والتوبيخ تأخيرُهم للنظر والتأمّل، أي: لعلّهم يموتون عمّا قريب، فما لهم لا يسارِعون إلى التدبّر في الآيات التكوينيّة

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] أي: تخصيص ﴿مَلَكُوتِ﴾.

الشاهدة بما كذّبوه مِن الآيات القرآنيّة؟ وقد جُوّز أن يكون "الأجَل" عبارةً عن الساعة، والإضافة إلى ضميرهم لملابستهم لها مِن جهة إنكارهم لها وبحثِهم عنها.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ قطعٌ لاحتمال إيمانهم رأسًا، ونفيٌ له بالكلّيّة، مترتّبٌ[1] على ما ذُكر مِن تكذيبهم بالآيات وإخلالِهم بالتفكّر والنظر. و"الباء" متعلِّقة بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. وضمير ﴿بَعْدَهُۥ﴾ لـ"الآيات" على حذف المضاف المفهوم مِن "كَذّبوا"، والتذكيرُ باعتبار كونها قرآنًا، أو بتأويلها بالمذكور وإجراءِ الضمير مُجرى اسم الإشارة. والمعنى: أكَذّبوا بها ولم يتفكّروا فيما يوجِب تصديقَها مِن أحواله عليه السلام وأحوالِ المصنوعات، فبأيِّ حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثلُ هذه الشواهد القويّة؟ كلّا وهيهاتَ!

وقيل: الضمير لـ"القرآن"، والمعنى: فبأيِّ حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في البيان؟ / وقيل: هو إنكار وتبكيت لهم، مترتّب على إخلالهم بالمسارعة إلى التأمّل فيما ذُكر، كأنّه قيل: لعلّ أجَلَهم قد اقترب، فما لهم لا يبادِرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفَوْت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحقّ، وبأيِّ حديثٍ أحقُّ منه يريدون أن يؤمنوا؟ وقيل: الضمير لـ﴿أَجَلُهُمْ﴾، والمعنى: فبأيِّ حديث بعد انقضاء أجلهم يؤمنون؟ وقيل: لـ"الرسول" صلّى الله عليه وسلّم على حذف مضاف، أي: فبأيِّ حديث بعد حديثه يؤمنون وهو أصدقُ الناس؟ [٣٧٢ظ]

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله، مُنبِئ عن الطبع على قلوبهم. وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ بالياء والرفع على الاستئناف، أي: وهو يذَرُهم. وقُرئ بنُون العَظَمة[2] على طريقة الالتفات، أي:

---

[1] س: مرتّب.

[2] أي: "وَنَذَرُهُمْ". قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

ونحن نذَرُهم. وقُرئ بالياء والجزمِ[١] عطفًا على محلّ ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾، كأنّه قيل: مَن يُضلل اللهُ لا يَهدِه أحدٌ ويذَرْهم. وقد رُوي الجزم بالنون عن نافع وأبي عمرو في الشواذّ.[٢]

وقوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتردّدون ويتحيّرون، حالٌ مِن مفعول ﴿يَذَرُهُمْ﴾. وتوحيد الضمير في حيّز النفي نظرًا إلى لفظ ﴿مَنْ﴾، وجمعُه في حيّز الإثبات نظرًا إلى معناها للتنصيص على شمول النفي والإثبات للكلّ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ استئناف مَسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم وطغيانهم، أي: عن القيامة. وهي مِن الأسماء الغالبة. وإطلاقها عليها إمّا لوقوعها بَغتةً أو لسرعة ما فيها مِن الحساب، أو لأنّها ساعة عند الله تعالى مع طُولها في نفسها. قيل: إنّ قومًا مِن اليهود قالوا: «يا محمّدُ، أخبِرنا متى الساعة إن كنت نبيًّا؟ فإنّا نعلم متى هي»،[٣] وكان ذلك امتحانًا منهم مع علمهم أنّه تعالى قد استأثر بعلمها. وقيل: السائلون قريش.[٤]

وقوله تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ بفتح الهمزة. وقد قُرئ بكسرها.[٥] / وهو ظرفُ زمان متضمِّنٌ لمعنى الاستفهام، ويَليه المبتدأ أو الفعل المضارع دون الماضي، بخلاف "متى"، حيث يليها كلاهما. قيل: اشتقاقه مِن "أيّ" -"فَعْلان" منه- لأنّ معناه: أيّ وقت، وهو مِن "أوَيتُ إلى الشيء"؛ لأنّ البعض آوٍ إلى الكلّ متساندٌ إليه. ومحلّه الرفع على أنّه خبرٌ مقدَّم، و﴿مُرْسَىٰهَا﴾ مبتدأ مؤخَّر، [٣٧٣و]

---

١ أي: "وَيَذَرْهُمْ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

٢ أي: "وَنَذَرْهُمْ". انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٩؛ واللباب لابن عادل، ٩/٤٠٨.

٣ انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/١٨٣.

٤ انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣١٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٦٨.

أي: متى إرساؤها، أي: إثباتها وتقريرها؛ فإنّه مصدر مِيميّ مِن "أرساه" إذا أثبته وأقرّه. ولا يكاد يُستعمل إلّا في الشيء الثقيل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات، ٣٢/٧٩]. ومنه: "مِرساة السُّفن".

ومحلّ الجملة قيل: الجرُّ على البدليّة مِن ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، والتحقيقُ: أنّ محلّها النصب بنزع الخافض؛ لأنّها بدل مِن الجارّ والمجرور، لا مِن المجرور فقط، كأنّه قيل: يسألونك عن الساعة عن أيّان مُرساها.

وفي تعليق السؤال بنفس الساعة أوّلًا وبوقت وقوعها ثانيًا تنبيهٌ على أنّ المقصد الأصلي مِن السؤال نفسُها باعتبار حلولها في وقتها المعيَّن، لا وقتُها باعتبار كونه محلًّا لها. وقد سُلك هذا المَسلك في الجواب الملقَّن أيضًا، حيث أضيفَ العلم المطلوب بالسؤال إلى ضميرها، فأُخبرَ باختصاصه به عزّ وجلّ، حيث قيل: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: علمُها بالاعتبار المذكور ﴿عِندَ رَبِّى﴾، ولم يُقل: إنّما علمُ وقت إرسائها. ومَن لم يتنبّه لهذه النُّكتة حمَلَ النظم الكريم على حذف المضاف.[1]

والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأنّ توفيقه عليه السلام للجواب على الوجه المذكور مِن باب التربية والإرشاد. ومعنى كونه عنده تعالى خاصّةً أنّه تعالى قد استأثر به، بحيث لم يُخبر به أحدًا مِن مَلك مقرَّب / أو نبيّ مرسَل. [٣٧٣ظ]

وقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ بيان لاستمرار تلك الحالة إلى حين قيامها، وإقناط كلّي عن إظهار أمرها بطريق الإخبار مِن جهته تعالى أو مِن جهة غيره لاقتضاء الحكمة التشريعيّة إيّاه، فإنّه أدعى إلى الطاعة وأزجرُ عن المعصية، كما أنّ إخفاء الأجَل الخاصّ للإنسان كذلك، والمعنى: لا يكشِف عنها ولا يُظهر للناس أمرها الذي تسألونني عنه إلّا هو بالذات، مِن غير أن يشعُر به أحد مِن المخلوقين فيتوسّطَ في إظهاره لهم؛ لكنْ لا بأن يُخبرهم بوقتها

---

[1] هو الزمخشري في الكشّاف، ١٨٣/٢.

قبل مَجيئه كما هو المسئول، بل بأن يُقيمها فيشاهدوها عِيانًا كما يُفصح عنه التَّجْلية المُنبئة عن الكشف التامّ المُزيل للإبهام بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿لِوَقْتِهَا﴾، أي: في وقتها، قيدٌ للتجلية بعد ورود الاستثناء عليها، لا قبلَه، كأنّه قيل: لا يُجَلّيها إلّا هو في وقتها؛ إلّا أنّه قُدّم على الاستثناء للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّ تجليتها ليست بطريق الإخبار بوقتها، بل بإظهار عينها في وقتها الذي يسألون عنه.

وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف كما قبله، مقرّر لمضمون ما قبله، أي: كبُرت وشقّت على أهلهما مِن الملائكة والثقلين، كلٌّ منهم أهمَّه خفاؤها وخروجُها عن دائرة العقول. وقيل: عظُمت عليهم، حيث يُشفِقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها. وقيل: ثقُلت فيهما، إذ لا يُطيقها منهما وممّا فيهما شيءٌ أصلًا.

والأوّل هو الأنسب بما قبله وبما بعده مِن قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾؛ فإنّه أيضًا استئناف مقرّر لمضمون ما قبله، فلا بدَّ مِن اعتبار الثِّقل مِن حيث الخفاءُ، أي: لا تأتيكم إلّا فُجَاءةً على غفلة، كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الساعة تَهِيجُ بالناس، / والرَّجلُ يُصلِح حَوضَه، والرجلُ يَسقي ماشِيتَه، والرجلُ يقوّمُ سِلعتَه في سُوقه، والرجلُ يخفِض مِيزانَه ويرفَعُه».[1] [٣٧٤و]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ استئناف مَسوق لبيان خَطَئهم في توجيه السؤال إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بناءً على زعمهم أنّه عليه السلام عالمٌ بالمسئول عنه أو أنّ العلم بذلك مِن مواجب الرسالة، إثرَ بيان خطئهم في أصل السؤال بإعلام شأن المسئول عنه.

والجملة التشبيهيّة في محلّ النصب على أنّها حال مِن "الكاف"، جِيء بها بيانًا لِما يدعوهم إلى السؤال على زعمهم، وإشعارًا بخطئهم في ذلك، أي:

---

[1] جامع البيان للطبري، ٦١٠/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ١٨٤/٢. ونحوه في صحيح البخاري، ١٠٦/٨ (٦٥٠٦)؛ وصحيح مسلم، ٢٢٧٠/٤ (٢٩٥٤).

يسألونك مشبَّهًا حالُك عندهم بحال مَن هو حَفِيٌّ عنها، أي: مبالِغ في العلم بها؛ "فَعِيلٌ" مِن "حَفِيَ". وحقيقته: كأنّك مبالِغ في السؤال عنها، فإنّ ذلك في حكم المبالغة في العلم بها لِما أنّ مَن بالغ في السؤال عن الشيء والبحثِ عنه، استحكَمَ علمه به. ومَبنى التركيب على المبالغة والاستقصاء. ومنه: "إحفاء الشارب" و"احتفاء البَقل"، أي: استئصاله، و"الإحفاء في المسألة"، أي: الإلحاف فيها.

وقيل: ﴿عَنْ﴾ متعلِّقة بـ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ معترض، وصلةُ ﴿حَفِيٌّ﴾ محذوفة، أي: حفيّ بها. وقد قُرئ كذلك.[1]

وقيل: هو مِن "الحَفاوة" بمعنى: البِرّ والشَّفقة؛ فإنّ قريشًا قالوا له عليه السلام: «إنّ بيننا وبينك قرابةً، فقُلْ لنا متى الساعة؟»،[2] والمعنى: يسألونك كأنّك حفيٌّ تتحفّى بهم، فتخصّهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتَزوِي أمرَها عن غيرهم. ففيه تخطئة لهم مِن جهتين.

وقيل: هو مِن "حفِي بالشيء" بمعنى: فرِح به، والمعنى: كأنّك فرِحٌ بالسؤال عنها تُحبّه، مع أنّك كارهٌ له لِما أنّه تعرّض / لِحَرم الغيب الذي [٣٧٤ظ] استأثر الله عزّ وجلّ بعلمه.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أُمر عليه السلام بإعادة الجواب الأوّل تأكيدًا للحكم وتقريرًا له، وإشعارًا بعلّته على الطريقة البرهانيّة بإيراد اسم الذات المُنبئ عن استتباعها لصفات الكمال التي مِن جملتها العلمُ، وتمهيدًا للتعريض بجهلهم بقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ما ذُكر مِن اختصاص علمها به تعالى، فبعضُهم يُنكرونها رأسًا، فلا يعلمون شيئًا ممّا ذُكر قطعًا، وبعضُهم يعلمون أنّها واقعة البتّةَ، ويزعمون أنّك واقفٌ على وقت وقوعها، فيسألونك عنه جهلًا، وبعضُهم يدّعُون أنّ العلم بذلك مِن مواجب الرسالة، فيتّخذون السؤال عنه ذريعةً إلى القدح في رسالتك. والمستثنَى مِن هؤلاء

---

[1] أي: "حَفِيٌّ بِهَا"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٦٩.

[2] أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/١٨٥.

هُم الواقفون على جليّة الحال مِن المؤمنين. وأمّا السائلون عنها مِن اليهود بطريق الامتحان، فهم منتظمون في سِلك الجاهلين، حيث لم يعملوا بعلمهم.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ شروع في الجواب عن السؤال ببيان عجزه عن علمها[1] إثرَ بيان عجز الكلّ عنه وإبطالِ زعمهم الذي بنَوا عليه سؤالهم مِن كونه عليه السلام ممّن يعلمها. وإعادة الأمر لإظهار كمال العناية بشأن الجواب والتنبيهِ على استقلاله ومغايرته للأوّل. والتعرّض لبيان عجزه عمّا ذُكر مِن النفع والضرّ لإثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهانيّ. و"اللام" إمّا متعلّق بـ﴿أَمۡلِكُ﴾، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿نَفۡعٗا﴾. أي: لا أقدر لأجل نفسي على جلب نفعٍ ما، ولا على دفع ضرٍّ ما ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملِكه مِن ذلك بأن يُلهمنيه، فيُمكِنَني منه ويُقدِرَني عليه؛ أو لكن ما شاء الله مِن ذلك كائنٌ، فالاستثناء منقطِع، وهذا أبلغُ في إظهار العجز.

﴿وَلَوۡ كُنتُ / أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: جنسَ الغيب الذي مِن جملته ما بين الأشياء مِن المناسَبات المصحِّحة عادةً للسببيّة والمسبَّبيّة، ومِن المبايَنات المستتبعة للممانعة والمدافعة. ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: لَحصّلتُ كثيرًا مِن الخير الذي نِيط تحصيلُه بالأفعال الاختياريّة للبشر بترتيب أسبابه ودفع موانعه، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: السوء الذي يُمكن التفصّي[2] عنه بالتوقّي عن موجِباته والمدافعة بموانعه، لا سوءَ ما، فإنّ منه ما لا مدفعَ له. [٣٧٥و]

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أي: ما أنا إلّا عبد مرسَل للإنذار والبِشارة، شأني حيازةُ ما يتعلّق بهما مِن العلوم الدينيّة والدنيويّة، لا الوقوفُ على الغيوب التي لا علاقةَ بينها وبين الأحكام والشرائع، وقد كشفتُ مِن أمر الساعة ما يتعلّق به الإنذارُ

---

[1] أي: علم الساعة.

[2] التفصّي: التخلّص مِن المضيق أو البليّة. تاج العروس للزبيدي، «فصي».

مِن مَجيئها لا محالةَ واقترابِها. وأمّا تعيين وقتها، فليس ممّا يستدعيه الإنذار؛ بل هو ممّا يقدح فيه لِما مرّ مِن أنّ إبهامه أدعى إلى الانزجار عن المعاصي. وتقديم "النذير" على "البشير" لِما أنّ المقام مقامُ الإنذار.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إمّا متعلّق بهما جميعًا؛ لأنّهم ينتفعون بالإنذار كما ينتفعون بالبِشارة، وإمّا بـ"البشير" فقط، وما يتعلّق بـ"النذير" محذوف، أي: نذيرٌ للكافرين، أي: الباقين على الكفر، وبشيرٌ لقوم يؤمنون، أي: في أيّ وقت كان. ففيه ترغيب للكَفَرة في إحداث الإيمان وتحذيرٌ عن الإصرار على الكفر والطغيان.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ استئناف سِيق لبيان كمال عِظم جناية الكَفَرة في جرأتهم على الإشراك بتذكير مبادي أحوالهم المنافية له. / [٣٧٥ظ] وإيقاع الموصول خبرًا لتفخيم شأن المبتدأ، أي: هو ذلك العظيمُ الشأنِ الذي خلقكم جميعًا وحدَه مِن غير أن يكون لغيره مَدخل في ذلك بوجه مِن الوجوه. ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو آدمُ عليه السلام. وهذا نوعُ تفصيل لِما أشيرَ إليه في مَطلع السورة الكريمة إشارةً إجماليّةً[١] مِن خلقهم وتصويرهم في ضمن خلق آدمَ وتصويره، وبيانٌ لكيفيّته.

﴿وَجَعَلَ﴾ عطفٌ على ﴿خَلَقَكُم﴾، داخلٌ في حكم الصلة؛ ولا ضيرَ في تقدّمه عليه وجودًا لِما أنّ "الواو" لا تستدعي الترتيبَ في الوجود. ﴿مِنْهَا﴾ أي: مِن جنسها، كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل، ٧٢/١٦؛ الشورى، ١١/٤٢]، أو مِن جسدها، لِما يُروى أنّه تعالى خلق حوّاءَ مِن ضِلع مِن أضلاع آدمَ عليه السلام.[٢] والأوّل هو الأنسب، إذ الجنسيّة هي المؤدِّية إلى الغاية الآتية، لا الجزئيّةُ.

---

١ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف، ١١/٧].

٢ انظر: تفسير البقرة، ٣٥/٢.

و"الجعل" إمّا بمعنى "التصيير"، فقوله تعالى: ﴿زَوْجَهَا﴾ مفعوله الأوّل، والثاني هو الظرف المقدَّم، وإمّا بمعنى "الإنشاء"، والظرفُ متعلِّق بـ﴿جَعَلَ﴾، قُدِّم على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، أو بمحذوف هو حال مِن المفعول. والأوّل هو الأولى.

وقوله تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ علّة غائيّة للجعل باعتبار تعلّقه بمفعوله الثاني، أي: ليستأنسَ بها ويطمئنَّ إليها اطمئنانًا مصحِّحًا للازدواج، كما يلوِّح به تذكير الضمير ويُفصح عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامَعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ في مبادي الأمر، فإنّه عند كونه نُطفةً أو عَلَقةً أو مُضغةً أخفُّ عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك مِن المراتب. والتعرّض لذكر خِفّته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه تعالى إيّاهم متدرّجين في أطوار الخلق مِن العدم إلى الوجود ومِن الضَّعف إلى القوّة.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ / أي: فاستمرّت به كما كانت قبلُ، حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت. وعليه قراءة ابن عبّاس رضي الله عنهما.[١] وقُرئ: "فَمَرَتْ"[٢] بالتخفيف، و"فَمَارَتْ"[٣] مِن "المَوْر"، وهو المَجيء والذهاب، أو مِن "المِرية"، أي: فظنّت الحملَ وارتابت به. [٣٧٦و]

وأمّا ما قيل[٤] مِن أنّ المعنى: "حمَلتْ حملًا خَفَّ عليها، ولم تلقَ منه ما تلقَى بعضُ الحَبالى مِن حملهنّ مِن الكَرب والأذيّة، ولم تستثقله كما يستثقِلْنَه، فمرّت به، أي: فمضَت به إلى مِيلاده مِن غير إخداج[٥] ولا إزلاق"،[٦] فيردّه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾؛ إذ معناه: فلمّا صارت ذاتَ ثِقل لكِبر الولد في بطنها. ولا ريبَ في[٧] أنّ الثِّقل بهذا المعنى ليس مقابِلًا للخِفّة بالمعنى المذكور.

---

١ أي: "فَاسْتَمَرَّتْ بِهِ"، وهي قراءة شاذّة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يَعمَر. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٦٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٠.

٤ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/١٨٦.

٥ ناقة خادِج: ألقتْ ولدَها قبل الوقت وإن تمّ خَلقُه، ومُخدِجٌ: جاءت به ناقصَ الخَلق وإن كان لوقته. أساس البلاغة للزمخشري، «خدج».

٦ أزلقت الناقةُ: أسقطتْ. الصحاح للجوهري، «زلق».

٧ س – في.

إنّما مقابِلها الكَربُ الذي يعتري بعضَهنّ مِن أوّل الحمل إلى آخره دون بعضٍ أصلًا. وقُرئ: "أُثْقِلَتْ"[1] على البناء للمفعول، أي: أثقلها حملُها.

﴿دَعَوَا ٱللَّهَ﴾ أي: آدمُ وحوّاءُ عليهما السلام لمّا دَهِمهما أمرٌ لم يعهَداه ولم يعرفَا مآلَه، فاهتمَّا به وتضرّعَا إليه عزّ وجلّ. وقوله تعالى: ﴿رَبَّهُمَا﴾ أي: مالِكَ أمرهما الحقيقَ بأن يُخَصّ به الدعاء، إشارةٌ إلى أنّهما قد صدّرَا به دعاءَهما، كما في قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية [الأعراف، ٢٣/٧].

ومتعلّق الدعاء محذوف تعويلًا على شهادة الجملة القَسَميّة به، أي: دعَوَاه تعالى أن يُؤتيَهما صالحًا، ووعدَا بمقابلته الشكرَ على سبيل التوكيد القَسميّ، وقالا أو قائلَين: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: ولدًا مِن جنسنا سَوِيًّا، ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ نحن ومَن يتناسل مِن ذُرّيّتنا ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الراسخين في الشكر على نَعْمائك التي مِن جملتها هذه النعمة.

[٣٧٦ظ] / وترتيب هذا الجواب على الشرط المذكور لِما أنّهما قد علمَا أنّ ما علّقَا به دعاءَهما أنمُوذَج لسائر أفراد الجنس ومعيارٌ لها ذاتًا وصفةً، وجودُه مستتبع لوجودها، وصلاحُه مستلزِم لصلاحها، فالدعاء في حقّه متضمِّنٌ للدعاء في حقّ الكلّ مستتبعٌ له، كأنّهما قالا: لئن آتيَتنا وذُرّيّتَنا أولادًا صالحةً.

وقيل:[2] إنّ ضمير ﴿ءَاتَيْتَنَا﴾ أيضًا لهما ولكلّ مَن يتناسل مِن ذُرّيّتهما.[3] وأنت خبير بأنّ نظم الكلّ في سِلك الدعاء أصالةً يأباه مقام المبالغة في الاعتناء بشأن ما هما بصدده. وأمّا جعلُ ضمير ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ للكلّ، فلا محذورَ فيه؛ لأنّ توسيع دائرة الشكر غيرُ مُخِلّ بالاعتناء المذكور، بل مؤكِّدٌ له.

وأيًّا ما كان، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾: لمّا آتاهما ما طلباه أصالةً واستتباعًا مِن الولد وولد الولد ما تناسَلوا. فقوله تعالى: ﴿جَعَلَا﴾ أي: جعل أولادُهما ﴿لَهُۥ﴾ تعالى ﴿شُرَكَآءَ﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه

---

[1] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ١٨٦/٢.

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٨٦/٢.

[3] ط س + فالوجه ظاهرٌ. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه أزالها بعد نسخ ط س.

مُقامه ثقةً بوضوح الأمر وتعويلًا على ما يعقبه مِن البيان. وكذا الحال في قوله تعالى: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: فيما آتى أولادَهما مِن الأولاد، حيث سمَّوهم بـ"عبد مَناف" و"عبد العُزّى" ونحو ذلك.

وتخصيص إشراكهم هذا بالذِّكر في مقام التوبيخ -مع أنّ إشراكهم بالعبادة أغلظُ منه جنايةً وأقدمُ وقوعًا- لِما أنّ مَساق النظم الكريم لبيان إخلالهم بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح، وأوّلُ كفرهم في حقّه إنّما هو تسميتهم إيّاه بما ذُكر. وقُرئ: "شِرْكًا"،[1] أي: شركةً أو ذَوي شركة، أي: شركاءَ.

إن قيل: ما ذُكر مِن حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامَه إنّما يُصار إليه فيما يكون للفعل ملابسةٌ ما بالمضاف إليه أيضًا بسرايته إليه حقيقةً أو حكمًا، ويتضمّن نسبته إليه صورةً مزيّةً يقتضيها المقام، كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية [الأعراف، ١٤١/٧]، فإنّ الإنجاء منهم -مع أنّ تعلّقه حقيقةً ليس إلّا بأسلاف اليهود- قد نُسب إلى أخلافهم بحكم سرايته إليهم توفيةً لمقام الامتنان حقَّه، وكذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة، ٩١/٢]، / فإنّ القتل حقيقةً -مع كونه مِن جنايات آبائهم- قد أُسندَ إليهم بحكم رِضاهم به أداءً لحقّ مقام التوبيخ والتبكيت. ولا ريبَ في أنّهما عليهما السلام بَريئان مِن سراية الجعل المذكور إليهما بوجه مِن الوجوه. فما وجهُ إسناده إليهما صورةً؟ [٣٧٧و]

قلنا: وجهُه الإيذان بتركهما الأَولى، حيث أقدمَا على نظم أولادهما في سِلك أنفسهما، والتزمَا شكرهم في ضمن شكرهما، وأقسمَا على ذلك قبل تعرّف أحوالهم ببيان[2] أنّ إخلالهم بالشكر الذي وعداه وعدًا مؤكّدًا باليمين بمنزلة إخلالهما به بالذات في استيجاب الحِنْث والخُلْف، مع ما فيه مِن الإشعار بتضاعف جنايتهم ببيان أنّهم بجعلهم المذكور أوقعوهما في وَرْطة الحِنث والخُلف، وجعلوهما كأنّهما باشراه بالذات، فجمعوا بين الجناية على الله تعالى والجناية عليهما عليهما السلام.

---

[1] قرأ بها نافع وعاصم في رواية أبي بكر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٣/٢.

[2] متعلِّق بقوله: "الإيذان".

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه فيه معنى التعجّب. و"الفاء" لترتيبه على ما فُصّل مِن أحكام قدرته تعالى وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعيةِ إلى التوحيد. وصيغة الجمع لِما أشيرَ إليه مِن تعيين الفاعل وتنزيهِ آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام عن ذلك. و﴿مَا﴾ في ﴿عَمَّا﴾ إمّا مصدريّة، أي: عن إشراكهم، أو موصولة أو موصوفة، أي: عمّا يشركونه به سبحانه. والمراد بإشراكهم إمّا تسميتهم المذكورةُ أو مطلقُ إشراكهم المنتظِم لها انتظامًا أوّليًا. وقُرئ: "تُشْرِكُونَ"[1] بتاء الخطاب بطريق الالتفات.

وقيل: الخطاب لآل قُصَيّ مِن قريش، والمراد بـ"النفس الواحدة" نفسُ قُصَيّ، فإنّهم خُلقوا منه، وكان له زوج مِن جنسه عربيّةٌ قُرَشيّةٌ، وطلبا مِن الله تعالى ولدًا صالحًا، فأعطاهما أربعةَ بنينَ، فسمّياهم "عبدَ مَناف" و"عبدَ شمس" و"عبدَ قُصَي" و"عبدَ الدار".[2] وضمير ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لهما ولأعقابهما المُقتَدين بهما.

وأمّا ما قيل: مِن أنّه لمّا حملت حوّاءُ أتاها إبليسُ في صورة رجل، فقال لها: «ما يُدريكِ ما في بطنكِ، لعلّه بهيمة أو كلب أو خنزير؟ وما يُدريكِ مِن أين يخرج؟»، فخافت مِن ذلك، فذكرتْه لآدمَ عليه السلام، فأهمَّهما ذلك، ثمّ عاد إليها وقال: / «إنّي مِن الله تعالى بمنزلةٍ، فإنْ دعوتُه أن يجعله خلقًا مِثلَكِ ويسهّلَ [٣٧٧ظ] عليكِ خروجَه تُسمّينَه "عبدَ الحارث"»، وكان اسمه حارثًا في الملائكة، فقبِلتْ، فلمّا وَلدتْ سمّتْه "عبدَ الحارث"،[3] فممّا لا تعويلَ عليه؛ كيف لا، وإنّه عليه السلام كان علَمًا في عِلم الأسماء والمسمَّيات، فعدمُ علمه بإبليسَ واسمِه واتّباعُه إيّاه في مِثل هذا الشأن الخطير أمرٌ قريبٌ مِن المحال. والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾

﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ استئناف مَسوق لتوبيخ كافّة المشركين واستقباح إشراكهم على الإطلاق وإبطالِه بالكلّيّة ببيان شأن ما أشركوه به سبحانه وتفصيلِ أحواله

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٠.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥/٣.

[3] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥/٣.

القاضية ببطلان ما اعتقدوه في حقّه، أي: أيشركون به تعالى ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا يقدر على أن يخلق شيئًا مِن الأشياء أصلًا. ومِن حقّ المعبود أن يكون خالقًا لعابده لا محالةَ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَخۡلُقُ﴾. وإيراد الضميرين بجمع العُقلاء -مع رجوعهما إلى ﴿مَا﴾ المعبَّر بها عن الأصنام- إنّما هو بحسب اعتقادهم فيها وإجرائِهم لها مُجرى العقلاء وتسميتِهم لها آلهةً. وكذا حال سائر الضمائر الآتية. ووصفُها بالمخلوقيّة بعد وصفها بنفي الخالقيّة لإبانة كمال منافاة حالها لِما اعتقدوه في حقّها وإظهارِ غاية جهلهم، فإنّ إشراك ما لا يقدر على خلق شيءٍ ما بخالقه وخالقِ جميع الأشياء ممّا لا يمكن أن يسوّغه مَن له عقل في الجملة. وعدمُ التعرّض لخالقها للإيذان بتعيّنه والاستغناء عن ذكره.

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ﴾ أي: لِعَبَدتهم إذا حزّ بهم أمرٌ مهمّ وخَطبٌ مُلِمّ ﴿نَصۡرٗا﴾ أي: نصرًا ما بجلب منفعة أو دفعِ مَضرّة، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ إذا اعتراهم حادثة مِن الحوادث، أي: لا يدفعونها / عن أنفسهم. وإيراد "النصر" للمشاكلة. وهذا بيان لعجزهم عن إيصال منفعةٍ ما مِن المنافع الوجوديّة والعدميّة إلى عبَدتِهم وأنفسِهم بعد بيان عجزهم عن إيصال منفعة الوجود إليهم وإلى أنفسهم؛ خلَا أنّهم وُصفوا هناك بالمخلوقيّة[١] لكونهم أهلًا لها، وههنا لم يوصَفوا بالمنصوريّة؛ لأنّهم ليسوا أهلًا لها. [٣٧٨و]

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ بيان لعجزهم عمّا هو أدنى مِن النصر المَنفيّ عنهم وأيسرُ، وهو مجرّدُ الدلالة على المطلوب والإرشاد إلى طريق حصوله مِن غير أن يحصّله للطالب. والخطاب للمشركين بطريق الالتفات

---

١ أي: في الآية السابقة.

المُنبئ عن مَزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت، أي: إن تدعوهم -أيّها المشركون- إلى أن يَهدوكم إلى ما تحصِّلون به المطالبَ أو تنجُون به عن المكاره، ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم وطَلِبَتِكم. وقُرئ بالتخفيف.[١]

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله ومبيِّنٌ لكيفيّة عدم الاتّباع، أي: مُستوٍ عليكم في عدم الإفادة دعاؤُكم لهم وسكوتُكم البَحتُ، فإنّه لا يتغيّر حالكم في الحالين، كما لا يتغيّر حالهم بحكم الجماديّة. وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ جملة اسميّة في معنى الفعليّة، معطوفةٌ على الفعليّة؛ لأنّها في قوّة "أمْ صَمَتُّم"، عُدل عنها للمبالغة في عدم إفادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمرّ.

وما قيل[٢] مِن أنّ الخطاب للمسلمين، والمعنى: وإن تدعوا المشركين إلى الهدى -أي: الإسلامِ- لا يتّبعوكم... إلخ، ممّا لا يساعده سِباق النظم الكريم وسياقُه أصلًا، على أنّه لو كان كذلك لَقيل: "عليهم" مكانَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة، ٦/٢]؛ فإنّ استواء الدعاء وعدمَه إنّما هو بالنسبة / إلى المشركين، لا بالنسبة إلى الداعين، فإنّهم فائزون بفضل الدعوة. [٣٧٨ظ]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تقرير لِما قبله مِن عدم اتّباعهم لهم، أي: إنّ الذين تعبُدونهم مِن دونه تعالى مِن الأصنام وتُسَمُّونهم آلهةً ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: مماثِلة لكم؛ لكنْ لا مِن كلّ وجه، بل مِن حيث إنّها مملوكة لله عزّ وجلّ مسخَّرةٌ لأمره عاجزةٌ عن النفع والضرر. وتشبيهُها بهم في ذلك -مع كون عجزها عنهما[٣] أظهرَ وأقوى مِن عجزهم- إنّما هو لاعترافهم

---

[١] أي: "لَا يَتْبَعُوكُمْ". قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٧٣/٢-٢٧٤.

[٢] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٦/٣.

[٣] أي: على النفع والضرر.

بعجز أنفسهم وادّعائِهم لقدرتها عليهما؛ إذ هو الذي يدعوهم إلى عبادتها والاستعانة بها.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم، أي: فادْعُوهم في جلب نفع أو كشفِ ضرّ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنّهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه.

﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَا﴾... إلخ تبكيتٌ إثرَ تبكيتٍ، مؤكِّدٌ لِما يفيده الأمر التعجيزي مِن عدم الاستجابة ببيان فُقدان آلاتها بالكلّيّة، فإنّ الاستجابة مِن الهياكل الجسمانيّة إنّما تُتصوّر إذا كان لها حياة وقُوًى محرِّكةٌ ومُدرِكةٌ، وما ليس له شيء مِن ذلك، فهو بمَعزِل مِن الأفاعيل بالمرّة، كأنّه قيل: أَلَهم هذه الآلات التي بها يتحقّق الاستجابة حتّى يمكنَ استجابتهم لكم؟

وقد وُجّه الإنكار إلى كلّ واحدة مِن هذه الآلات الأربع على حِدة تكريرًا للتبكيت، وتثنيةً للتقريع، وإشعارًا بأنّ انتفاء كلّ واحدة منها بحيالها كافٍ في الدلالة على استحالة الاستجابة. ووصفُ الأرجُل بالمَشي بها للإيذان بأنّ مدار الإنكار هو الوصف، وإنّما وُجّه إلى الأرجُل -لا إلى الوصف بأن يقال: أيمشُون بأرجُلهم؟- لتحقيقِ أنّها حيث لم يظهر منها ما يظهر مِن سائر الأرجُل، فهي ليست بأرجُلٍ في الحقيقة. وكذا الكلام فيما بعده مِن الجوارح الثلاث الباقية.

[٣٧٩و] / وكلمة ﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَا﴾ منقطِعة. وما فيها مِن "الهمزة" لِما مرّ مِن التبكيت والإلزام، و"بل" للإضراب المفيد للانتقال مِن فنّ مِن التبكيت بعد تمامه إلى فنّ آخرَ منه لِما ذُكر مِن المزايا. والبَطْش: الأخذ بقوّة. وقُرئ: "يَبْطُشُونَ"[1] بضمّ الطاء، وهي لغة فيه. والمعنى: بل أَلَهُم أيدٍ يأخذون بها ما يريدون أخْذه؟

---

[1] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٤/٢.

وتأخير هذا عمّا قبله لِما أنّ المَشي حالُهم في أنفسهم والبطشَ حالُهم بالنسبة إلى الغير. وأمّا تقديمه على قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ -مع أنّ الكلّ سواءٌ في أنّها مِن أحوالهم بالنسبة إلى الغير- فلمراعاة المقابلة بين الأيدي والأرجُل، ولأنّ انتفاء المشي والبطش أظهرُ والتبكيتَ بذلك أقوى. وأمّا تقديم "الأعيُن"، فلِما أنّها أشهرُ مِن الآذان، وأظهرُ عينًا وأثرًا.

هذا، وقد قُرئ: "إِنِ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادًا أَمْثَالَكُمْ"[1] على إعمال "إنْ" النافية عملَ "ما" الحجازيّة،[2] أي: ما الذين تدعون مِن دونه تعالى عِبادًا أمثالَكم، بل أدنى منكم؛ فيكونُ قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ﴾... إلى آخره تقريرًا لنفي المماثلة بإثبات القصور والنقصان.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ بعد ما بيّن أنّ شركاءهم لا يقدرون على شيءٍ ما أصلًا أُمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يناصِبهم للمُحاجّة ويكرِّرَ عليهم التبكيت وإلقامَ الحَجَر،[3] أي: ادعوا شركاءَكم واستعِينوا بهم عليَّ، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعًا أنتم وشركاؤكم، وبالِغوا في ترتيب ما تقدرون عليه مِن مبادي الكيد والمكر، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: فلا تُمهلوني ساعةً بعد ترتيب مقدّمات الكيد، فإنّي لا أبالي بكم أصلًا.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تعليل لعدم المبالاة المنفهم مِن السَّوق انفهامًا جليًّا. ووصفُه تعالى بتنزيل الكتاب / للإشعار بدليل الولاية والإشارةِ [٣٧٩ظ]

---

[1] في الآية السابقة. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٧٠.

[2] قال إمام الحرمين الجويني في البرهان، ١/٥٢: «إنْ اتّصلت "ما" بالابتداء أو الخبر، فأهل الحجاز يرَون إحلالَها محلَّ "ليس"، فيرفعون بها الاسمَ وينصبون الخبر، وهي لغة القرآن، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف، ١٢/٣١]. وبنو تميم لا تُعمل "ما" النافية؛ لأنّها تدخل على الاسم والفعل. وقياس "ما" يدخل على البابين -أعني: الاسم والفعل- ألّا يعمل في واحد منهما».

[3] ألقَمَه الحَجَرَ: يُضرَب للمُجيب بجواب مُسكِت. المستقصى للزمخشري، ١/٣٣٩

إلى علّة أخرى لعدم المبالاة، كأنّه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم؛ لأنّ وليّيَ هو الله الذي نزّل الكتاب الناطقَ بأنّه وليّي وناصري، وبأنّ شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلًا عن نصركم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: ومِن عادته أن يتولّى الصالحين مِن عباده وينصُرَهم ولا يخذُلَهم.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى، أو تدعونهم للاستعانة بهم عليَّ حسبما أمرتُكم به، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أي: في أمر مِن الأمور، أو في خصوص الأمر المذكور، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إذا نابتْهم نائبة.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ١٩٨﴾

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى أن يَهدوكم إلى ما تحصِّلون به مقاصدَكم على الإطلاق، أو في خصوص الكيد المعهود، ﴿لَا يَسْمَعُوا۟﴾ أي: دعاءَكم، فضلًا عن المساعدة والإمداد. وهذا أبلغُ مِن نفي الاتّباع.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع. وبه يتمّ التعليلُ، فلا تكرارَ أصلًا. والرؤية بصريّة. وقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ حال مِن المفعول، والجملةُ الاسميّة حال مِن فاعل ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: وترى الأصنامَ رأيَ العينِ يُشبِهون الناظرين إليك، ويخيَّلُ[١] إليك أنّهم يُبصِرونك لِما أنّهم صنعوا لها أعيُنًا مركَّبةً بالجواهر المُضيئة المتلألِئة، وصوّروها بصورة مَن قلب حدَقَتَه إلى الشيء ينظُر إليه، والحالُ أنّهم غير قادرين على الإبصار.

وتوحيد الضمير في ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ مع رجوعه إلى المشركين لتوجيه الخطاب إلى كلّ واحدٍ واحدٍ منهم، لا إلى الكلّ مِن حيث هو كلّ كالخطابات السابقة،

---

١ وفي هامش م: قاله ابن الأنباري. | نقله عنه الواحدي في التفسير البسيط، ٥٣٨/٩.

[٣٨٠و] تنبيهًا على أنّ رؤية الأصنام على الهيئة / المذكورة لا يتسنّى للكلّ معًا؛ بل لكلّ مَن يواجهها. وقيل: ضمير الفاعل في ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وضمير المفعول على حاله، وقيل: للمشركين، على أنّ التعليل قد تمّ عند قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُوا۟﴾، أي: وترى المشركين ينظُرون إليك، والحالُ أنّهم لا يُبصرونك كما أنتَ عليه.

وعن الحسن[١] أنّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوا﴾ للمؤمنين،[٢] على أنّ التعليل قد تمّ عند قوله تعالى: ﴿يَنصُرُونَ﴾، أي: وإن تدعوا -أيّها المؤمنون- المشركين إلى الإسلام لا يلتفِتوا إليكم؛ ثمّ خُوطبَ عليه السلام بطريق التجريد بـ"أنّك تراهم ينظُرون إليك والحالُ أنّهم لا يُبصرونك حقَّ الإبصار"، تنبيهًا على أنّ ما فيه عليه السلام مِن شواهد النبوّة ودلائلِ الرسالة مِن الجَلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ بعد ما عُدّ مِن أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يُطاق تحمّله أُمِر صلّى الله عليه وسلّم بمجامع مكارم الأخلاق التي مِن جملتها الإغضاء عنهم، أي: خُذْ ما عفَا لك مِن أفعال الناس وتسهَّلْ ولا تكلِّفْهم ما يشُقّ عليهم، مِن "العَفو" الذي هو ضدّ "الجَهد"؛ أو خُذْ العفوَ مِن المُذنِبين أو الفضلَ مِن صَدَقاتهم، وذلك قبل وجوب الزكاة، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ بالجميل المستحسَن مِن الأفعال، فإنّها قريبة مِن قبول الناس مِن غير نكير، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ مِن غير مماراة ولا مكافأة.

قيل: لمّا نزلت سأل رسول الله جبريلَ عليهما السلام، فقال: «لا أَدري حتّى أسألَ»، ثمّ رجع فقال: «يا محمّدُ، إنّ ربّك أمرك أن تَصِل مَن قطعَك،

---

[١] أي: الحسن البصري.

[٢] التفسير البسيط للواحدي، ٥٣٧/٩.

وتُعطيَ مَن حَرَمك، وتعفُوَ عمّن ظلَمَك».[١] وعن جعفرِ الصادقِ:[٢] «أمَرَ الله تعالى نبيَّه بمكارم الأخلاق».[٣]

ورُوي أنّه لمّا نزلت الآية الكريمة قال صلّى الله عليه وسلّم: «كيف -يا ربّ- والغضبُ؟»،[٤] فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾.[٥] النَّزْغ والنَّسْغ والنَّخْس: الغَرْز. شُبّهت وسوسته للناس وإغراؤُه لهم على المعاصي بغَرْز السائق لِما يسُوقه. وإسناده إلى النَّزْغ / مِن قبيل "جَدَّ جِدُّه". أي: وإمّا يحمِلنَّك مِن جهته وسوسةٌ ما على خلاف ما أُمرتَ به مِن اعتراء غضب أو نحوه، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فالتجِئْ إليه تعالى مِن شرّه، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتَك به قولًا، ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم تضرُّعَك إليه قلبًا في ضمن القول أو بدونه، فيعصِمُك مِن شرّه. [٣٨٠ظ]

وقد جُوّز[٦] أن يراد بنَزْغ الشيطان اعتراءُ الغضب على نهج الاستعارة، كما في قول الصدّيق رضي الله عنه: «إنّ لي شيطانًا يعتريني».[٧] ففيه زيادةُ تنفيرٍ عنه وفرطُ تحذيرٍ عن العمل بموجَبه.

وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره، وتنبيه على أنّه مِن الغوائل الصعبة التي لا يُتخلّص مِن مَضَرّتها إلّا بالالتجاء إلى حرم عصمته عزّ وجلّ.

---

١ جامع البيان للطبري، ٦٤٣/١٠-٦٤٤؛ اللباب لابن عادل، ٤٣١/٩.

٢ هو جعفر بن محمّد الباقر بن عليّ زينِ العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب القرشي الهاشمي، أبو عبد الله (١٤٨هـ/٧٦٥م). أحد الأئمّة الاثني عشر على مذهب الإماميّة. كان مِن سادات أهل البيت. ولُقّب بـ"الصادق" لصِدقه في مقالته. وفضلُه أشهرُ مِن أن يُذكر. وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل. حدّث عن أبيه أبي جعفر الباقر وعُبيد الله بن أبي رافع وعُروة بن الزبير وعطاء بن أبي رَباح وجدِّه القاسم بن محمّد ومحمّد بن المنكدر والزهري ومسلم بن أبي مريم، وغيرهم. وحدّث عنه خلق كثير. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٣٢٧/١-٣٢٨؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٥٥/٦-٢٧٠.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٨/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٠/٢.

٤ وفي هامش م: أي: والغضبُ متحقّق. «منه».

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٩/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٠/٢.

٦ جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ١٩٠/٢.

٧ انظر: نوادر الأصول للحكيم الترمذي، ١٢١/١؛ وتخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٨١/١-٤٨٢ (٤٨٥).

وقيل: يعلم ما فيه صلاحُ أمرك، فيحملك عليه، أو سميعٌ بأقوال مَن آذاك عليمٌ بأفعاله، فيجازيه عليها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله ببيان أنّ ما أُمر به عليه السلام مِن الاستعاذة بالله عزّ وجلّ سنّة مسلوكة للمتّقين، والإخلالَ بها دَيْدن[1] الغاوين، أي: إنّ الذين اتّصفوا بوقاية أنفسهم عمّا يضرّها ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أدنى لَمّةٍ منه، على أنّ تنوينه للتحقير. وهو اسمُ فاعل مِن "طافَ يطوف"، كأنّها تطوف بهم وتدور حولهم لتُوقِعَ بهم، أو مِن "طاف به الخيالُ يَطيف طَيْفًا"، أي: ألَمَّ. وقُرئ: "طَيْفٌ"[2] على أنّه مصدر، أو تخفيف مِن "طيِّف" مِن الواوي أو اليائي،[3] كـ"هيِّنٍ" و"ليِّنٍ". والمراد بـ﴿ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ الجنس؛ ولذلك جُمع ضميره فيما سيأتي.

﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي: الاستعاذةَ به تعالى والتوكّلَ عليه، ﴿فَإِذَا هُم﴾ بسبب ذلك التذكّر ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ مواقعَ الخطأ ومكايدَ الشيطان، فيحترزون عنها ولا يتّبعونه.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي: إخوان الشياطين. وهم المنهمِكون في الغَيّ المُعرِضون عن وقاية أنفسهم عن المضارّ. ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي: يكون الشياطين مددًا لهم فيه ويعضُدونهم بالتزيين والحمل عليه. وقُرئ: "يُمِدُّونَهُمْ"[4] مِن "الإمداد"، و"يُمَادُّونَهُمْ"،[5] كأنّهم يُعينونهم بالتسهيل والإغراء، وهؤلاء بالاتّباع والامتثال.

[٣٨١و] ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ / أي: لا يُمسِكون عن الإغواء حتّى يُرْدُوهم[6] بالكلّيّة. ويجوز أن يكون الضمير لـ"الإخوان"، أي: لا يَرعَوُون عن الغَيّ ولا يُقصِرون كالمتّقين.

---

[1] الدَّيْدَن: الدّأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

[2] قرأ بها ابن كثير والكسائي وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٥.

[3] ط س: واليائي.

[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٥.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠١.

[6] ط س: يُرْدُوهم.

ويجوز أن يراد بـ"الإخوان": الشياطين، ويرجعَ الضمير إلى الجاهلين، فيكون الخبر جاريًا على ما هو له.

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾ مِن القرآن عند تراخي الوحي أو بآية ممّا اقترحوه، **﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾** "اجتبى الشيءَ" بمعنى "جَبَاه لنفسه"، أي: هلَّا جمعتَها مِن تِلقاء نفسك تقوّلًا -يُرُون بذلك أنّ سائر الآيات أيضًا كذلك- أو هلَّا تلقّيتَها مِن ربّك استدعاءً.

﴿قُلۡ﴾ ردًّا عليهم: **﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾** مِن غير أن يكون لي دخلٌ ما في ذلك أصلًا، على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتّباع ما يوحَى إليه، بتوجيه القَصر المستفاد مِن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ إلى نفس الفعل بالنسبة إلى مقابله الذي كلّفوه إيّاه عليه السلام؛ لا على معنى تخصيص اتّباعه عليه السلام بما يوحَى إليه، بتوجيه القَصر إلى المفعول بالقياس إلى مفعولٍ آخرَ كما هو الشائع في موارد الاستعمال. وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام، ٦/٥٠]. كأنّه قيل: ما أفعل إلّا اتّباعَ ما يوحَى إليَّ منه تعالى.

وفي التعرّض لوصف الربوبيّة المُنبئة عن المالكيّة والتبليغِ إلى الكمال اللائق مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه عليه السلام والتنبيهِ على تأييده ما لا يخفى.

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى **القرآن الكريم** المدلولِ عليه بـ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، **﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾** بمنزلة البصائر للقلوب، بها تُبصِر الحقَّ وتُدرِك الصوابَ. وقيل: حُجَج بيّنةٌ / وبراهينُ نيّرةٌ. و﴿مِنۡ﴾ متعلِّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿بَصَآئِرُ﴾، مفيدةٌ لفخامتها، أي: بصائرُ كائنةٌ منه تعالى. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد وجوب الإيمان بها. [٣٨١ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿بَصَآئِرُ﴾. وتقديم الظرف عليهما وتعقيبُهما بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للإيذان بأنّ كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقّقٌ بالنسبة إلى الكلّ، وبه تقوم الحُجّة على الجميع. وأمّا كونه هدًى ورحمةً، فمختصّ بالمؤمنين به؛ إذ هم المقتبِسون مِن أنواره والمغتنِمون بآثاره.[1] والجملة مِن تمام القول المأمور به.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ إرشاد إلى طريق الفَوز بما أشيرَ إليه مِن المنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن، أي: وإذا قُرئ القرآن الذي ذُكرت شئونه العظيمة، فاستمِعوا له استماعَ تحقيق وقبولٍ، ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ أي: واسكُتوا في خلال القراءة، وراعُوها إلى انقضائها تعظيمًا له وتكميلًا للاستماع. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: تفوزون بالرحمة التي هي أقصى ثمَراته.

وظاهرُ النظم الكريم يقتضي وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها. وقيل: معناه: إذا تلَا عليكم الرسول القرآنَ عند نزوله، فاستمِعوا له. وجمهور الصحابة رضي الله تعالى عنهم على أنّه / في استماع المُؤتَم. [٣٨٢و] وقد رُوي أنّهم كانوا يتكلّمون في الصلاة، فأُمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له.[2] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قرأ في المكتوبة، وقرأ أصحابه رضي الله عنهم خلْفَه، فنزلت.[3] وأمّا خارج الصلاة، فعامّة العلماء على استحبابهما.

والآية إمّا مِن تمام القول المأمور به،[4] أو استئناف مِن جهته تعالى؛ فقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ على الأوّل عطفٌ على ﴿قُلْ﴾،[5] وعلى الثاني

---

[1] وفي هامش م: "الباء" لتضمين الاغتنام معنى التمتّع. «منه».

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ١٠/٦٥٩، ٦٦٠؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٣.

[3] انظر: جامع البيان للطبري، ١٠/٦٦٤؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٣.

[4] في الآية السابقة.

[5] الأعراف، ٧/٢٠٣.

فيه تجريد للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وهو عامّ في الأذكار كافةً، فإنّ الإخفاء أدخلُ في الإخلاص وأقربُ مِن الإجابة.

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: متضرِّعا وخائفا، ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: ومتكلِّمًا كلامًا دون الجَهر، فإنّه أقربُ إلى حسن التفكّر. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱذْكُر﴾، أي: اذكره في وقت الغَدَوات والعَشِيّات. وقُرئ: "وَالإِيصَالِ"،[1] وهو مصدر "آصَلَ"، أي: دخل في الأصيل، موافِقٌ لـ﴿ٱلْغُدُوِّ﴾. ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكر الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام. ومعنى كونهم عنده سبحانه وتعالى قُربُهم مِن رحمته وفضلِه لتوفّرِهم على طاعته تعالى. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يؤدُّونها حسبما أُمروا به، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: ينزّهونه عن كلّ ما لا يَليق بجَناب كِبريائه، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ أي: يخُصّونه بغاية العبوديّة والتذلّل، لا يُشركون به شيئًا. وهو تعريض بسائر المكلَّفين؛ ولذلك شُرع السجود عند قراءته.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا قرأ ابن آدمَ آيةَ السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يَبكي فيقول: "يا وَيْلَه! أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنّة، وأُمرتُ بالسجود فعصيتُ فلي النارُ"».[2] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورةَ الأعراف جعل الله يومَ القيامة بينه وبين إبليسَ سِتْرًا، وكان آدمُ شفيعًا له يومَ القيامة».[3]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مِجلَز لاحق بن حميد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠١.

[2] انظر: **صحيح مسلم**، ٨٧/١ (٨١)؛ و**مسند أحمد**، ٤٤٥/١٥ (٩٧١٣)؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٣٢١/٣.

[3] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢١٤/٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٩٣/٢. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٤٨٢/١-٤٨٤. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد صبحةَ يوم الثلاثاء الثامن والعشرين مِن جُمادَى الآخرة، لسَنة سبعٍ وسِتّين وتسعِمائةٍ.



Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları

Yayın No. 1000-1
İSAM Yayınları 236
Klasik Eserler Dizisi 46

İRŞÂDÜ'l-AKLİ's-SELÎM ilâ MEZÂYA'l-KİTÂBİ'l-KERÎM
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî

Cilt 3

Tahkık
Mehmet Taha Boyalık - Ahmet Aytep [Mukaddime - Bakara 98; Nisâ - Tevbe]
Ziyaüddin el-Kaliş [Bakara 99 - Âl-i İmrân 32, Yûnus - Hûd; Hicr - Tâhâ, Zâriyât - Nâs]
Muhammed İmâd el-Nabulsî [Âl-i İmrân 33-200, Yûsuf - İbrâhim; Enbiyâ - Kâf]



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.

İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
İnceleme kısmı üslup okuma (Türkçe) Metin Karabaşoğlu
Tercüme (Arapçaya) Merve Dağıstanlı Barsik
Tashih (Arapça) Said Kayacı, Münzir Şeyhhasan, Mohamed Shahin
(Türkçe) İsa Kayaalp, Abdülkadir Şenel, İnayet Bebek
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, İbrahim Dervişmüezzin (Uygulama),
Hasan Hüseyin Can (Kapak), Ramzı Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Münzir Şeyhhasan, Sema Doğan



Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayınlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
01/06/2020 tarihli ve 2020/05 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: Ankara, Temmuz 2021 m. / 1442 h.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.)
978-625-7581-34-9 (3. Cilt)



Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No 48058

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm [ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] / Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî ; tahkik Mehmet Taha Boyalık , Ahmet Aytep , Ziyaüddin el-Kaliş , Muhammed İmâd el-Nabulsî. – Ankara : Türkiye Diyanet Vakfı, 2021. 3. c. , 632 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 1000-1. İSAM Yayınları ; 236. Klasik Eserler Dizisi ; 46)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.) 978-625-7581-34-9 (3. Cilt)



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm

Ebussuûd Tefsiri

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
(ö. 982 h. / 1574 m.)

Kendisine ait notlarla (minhüvât) birlikte
müellif nüshasından ilk neşir

Tahkik

Mehmet Taha Boyalık Ahmet Aytep
Ziyaüddin el-Kaliş Muhammed İmâd el-Nabulsî

Proje Yürütme ve İlmî Kontrol
Mehmet Taha Boyalık

Üçüncü Cilt



İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamıştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahrâaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlükler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usûlünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkādir-i Geylânî ve Kādirîlik*, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ, Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kādî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kāsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Takrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr*, (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsîr Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akāid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkītî), 2020
Sığnâkī, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Ali Kuşçu, *Hâşiyetü Ali el-Kuşçî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep, Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî), I-IX, 2021



İrşâdü'l-akli's-selîm
ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm